المركز القومى للترجمة



ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

الجزء الأول - المجلد الأول

الطبعة الثانية

تأليف: تشارلز م. دوتى

ترجمة: صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم

ترحال في صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الأول - المجلد الأول)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٨٧٨ / ٢
- ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج١، مج١)
- تشارلز م. دوتى
- صبرى محمد حسن
- جمال زكريا قاسم
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

Travels in Arabia Deserta

By: Charles Doughty

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ _ ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

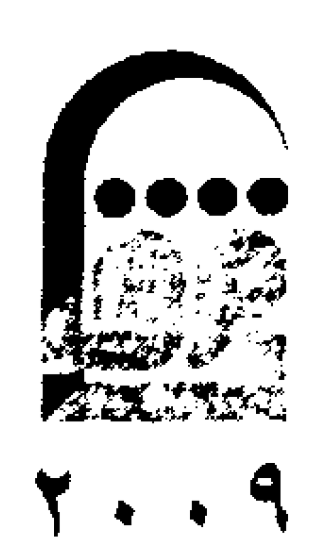
ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الأول - المجلد الأول)

تأليـــــــف: تشارلــز م. دوتـــى

ترجمـــــــة: صبرى محمد حسن

مراجعـة وتقديم: جمال زكريا قاســم



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

م. دوتى، تشارلز
ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج١_مج١)، تأليف: تشارلز م. دوتى؛ ترجمة: صبرى محمد حسن؛ مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم. ط٢ - القاهرة، المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩
٤٢٦ ص؛ ٢٤ سم
١- شبه الجزيرة العربية - وصف ورحلات
٢- الرحلات العلمية
٣- الصحراء الغربية وصف ورحلات
أ- حسن، صبرى محمد (مترجم)
ب- قاسم، جمال زكريا (مراجع ومقدم)
ج- العنوان ٩١٥,٣٠٠١

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٢٨٣
الترقيم الدولى: 7 - 189 - 479 - 977 - 978
طبع بمطابع صحوة

المحتويات

تقديم المراجع

منذ بداية العصور الحديثة بدأ سيل من الرحالة الأوروبيين يجوسون فيافى الجزيرة العربية مستهدفين الكشف عن معالمها وآثارها وحياة سكانها ومعرفة المجهول من أخبارها وأحوالها مستهينين بالأخطار والصعوبات مهما بلغت عنفها وشدتها ، ضاربين بذلك أروع الأمثلة بصبرهم وجلدهم وتحملهم لنمط من حياة الشظف والقسوة قل أن يستطيع ابن الصحراء فى وقتنا الحاضر أن يجاريهم فى تحمله . ولعل " تشارلز دوتى" يقدم مثالا واضحا لما عناه من شدائد وصعوبات خلال رحلته التى قام بها فى صحراء الجزيرة العربية .

وعلى الرغم من أن الرحلات الأوروبية بما تبعها من استكشافات علمية بدأت منذ القرن السادس عشر الميلادى فإنها كانت ذات طابع فردى محدود ولم تأخذ طابعا تنظيميا إلا منذ القرن الثامن عشر حين ظهرت فى أوروبا الحركة العلمية التى استهدفت الكشف عن الحضارات القديمة فى مناطق مختلفة من العالم بصفة عامة وفى الجزيرة العربية بصفة خاصة، التى كانت تعد من قبيل المناطق المنسية أو بالأحرى المناطق المجهولة بالنسبة للمعرفة الأوروبية . ومن ثم بدأت الجزيرة العربية منذ ذلك القرن تشهد اهتماما مكثفا من الرواد والرحالة الأوروبيين الذين وجهوا عنايتهم للكشف عن آثارها وحضاراتها القديمة . ولعل ما ورد فى المؤلفات الكلاسيكية - الإغريقية والرومانية - وما سجله المؤرخون والجغرافيون المسلمون إضافة إلى ما ورد ذكره فى الكتب الدينية المقدسة عن الشعوب القديمة التى كانت تسكن الجزيرة العربية كقوم عاد وثمود والأنباط وغيرهم كانت حافزا لتلك الحركة العلمية التى استطاعت أن تلقى أضواء ساطعة على كل ما يتعلق بتاريخ الجزيرة العربية وثرواتها الطبيعية ومعالمها السكانية والجيولوجية والطبوغرافية وغيرها .

وعلى الرغم من أن تلك الرحلات كانت لصالح هيئات علمية إلا أنها فى الوقت نفسه كانت تمول من قبل دول وحكومات لها دوافعها المختلفة ، وذلك من أجل أن تتخذ من النتائج التى تسفر عنها تلك الرحلات الاستكشافية وسيلة للتخطيط لاستراتيجيات استعمارية واستغلالية بعيدة المدى . ولعل ما يؤكد صحة ذلك أن كثيرا من تلك الرحلات الاستكشافية كانت مقدمات للحركة الإمبريالية التى شهدتها العديد من المناطق التى تجول فيها أولئك الرحالة والمستكشفون الأوروبيون ، كما يتضح ذلك بصورة جلية فى القارة الإفريقية على وجه خاص .

غير أنه مهما كانت هناك العديد من الدوافع السياسية أو الاستغلالية أو غيرها لأولئك الرحالة والرواد الأوروبيين الذين جابوا الجزيرة العربية فى شتى بقاعها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، إلا أن تلك الدوافع لا ينبغى أن تكون حائلا بيننا وبين معرفة ما توصلوا إليه من نتائج ، خاصة وأنهم تمكنوا من جمع مادة علمية قيمة صورت مظاهر الحياة السياسية والحضارية والاجتماعية ، ومن ثم غدت النتائج التى توصلوا إليها من المصادر الهامة التى أسهمت فى إضافة الكثير من المعلومات عن آثار الجزيرة العربية وتاريخها وحضاراتها القديمة ، وما يوجد فى أرضها من خبايا .

ومع التسليم بأن كثيرا من الرحالة الأوروبيين الذين ارتادوا الجزيرة العربية كانت لهم دوافعهم السياسية أو الاستغلالية ، إلا أن تلك الدوافع لا تتضح لنا فى رحلة " تشارلز دوتى "التى بدا فيها أن أهدافه اقتصرت على النواحى الأثرية والجيولوجية إلى جانب التعرف على حياة البدو وتنظيماتهم القبلية . وعلى الرغم من ذلك فقد أسهمت تلك الرحلة فى تخطيط بريطانيا لا ستراتيجية بعيدة المدى كما سنشير إلى ذلك بعد قليل .

لقد شهدت الجزيرة العربية رتلا من الرحالة والمغامرين الأوروبيين الذين سجلوا رحلاتهم وما توصلوا إليه من نتائج فى العديد من المصادر الهامة التى لا غنى عنها لكل من يتصدى لدراسة أى جانب من جوانب الجزيرة العربية . وعلى الرغم من ثراء شبه الجزيرة العربية فى معالمها الأثرية والحضارية والجيولوجية والطبوغرافية مما كان موضع اهتمام الرحالة الأوروبيين والهيئات العلمية المنتمين إليها ، فإن الأوضاع

السكانية ومعيشة البدو فى صحرائها القاحلة كانت هى الأخرى موضع الاهتمام من قبل عدد كبير من أولئك الرحالة والمستكشفين .

ومع أن الجزيرة العربية شهدت العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين ، إلا أنهم لم يبلغوا ما بلغه "شارلز دوتى " الذى اختلف عن أولئك الرحالة جميعهم حيث عاش فى صحرائها قرابة عامين بين عامى ١٨٧٦و١٨٧٨ متنقلا بين مدائن صالح والعلا وتيماء وحائل وبريدة وعنيزة فى إقليم القصيم ثم إلى خيبر والطائف وجدة . وقد أتاحت له الفترة التى قضاها فى صحراء الجزيرة العربية أن يأتى بمعلومات وفيرة ومتنوعة فى محتواها شملت آثارها ونقوشها وجيولوجيتها وحياة البادية فيها . وليس من شك فى أن المشاهدة وتنوع الخبرة جعلته يصبغ على رحلاته صبغة يسودها عمق التحليل إلى درجة أن نجده يخوض فى تفاصيل دقيقة، بل كثيرا ما يقطع حديثه عن إحدى الظواهر الطبيعية أو الجيولوجية الهامة ويخرج للحديث عن جزئية صغيرة استرعت انتباهه ، كحيوان أو طائر أو حتى حشرة صغيرة ، ثم يعود بعدها لكى يستأنف الحديث عن موضوعه الرئيسى .

ومع أن رحلة "دوتى " سجلت الكثير من الظواهر العلمية والطبيعية ، إلا أنها تميزت بل غلب عليها طابع الوصف الدقيق للحياة البدوية . وقد يكون حقيقةً أن كثيرا من الرحالة الأوروبيين الذين سبقوا " تشارلز دوتى " أو جاءوا من بعده تحدثوا عن أعراب الصحراء وحياة البادية ، إلا أنهم لم يبلغوا ما بلغه فيما أتى به من تفصيلات حية ودقيقة عن كل ما يتعلق بحياة البدو ومعيشتهم ، وذلك من واقع معايشته لهم خلال رحلته .

ولعل من أقدم الرحالة الذين تحدثوا عن البدو فى المناطق العربية بصفة عامة وفى الجزيرة العربية بصفة خاصة "لويس دارفيو" الذى أوفده لويس الرابع عشر ملك فرنسا فى عام ١٧١٧ إلى أمير البدو فى صحراء شبه جزيرة سيناء من أجل السماح بعودة الرهبان إلى ديرهم هناك ، وتمكن "دارفيو" بفضل أدبه وكياسته أن يدهش أمير البدو ويكتسب محبته حيث قضى فى ضيافته بضعة أسابيع ، وأنجز بعد عودته إلى فرنسا دراسة هامة بعنوان " أخلاق عرب البادية وعاداتهم " أقر فيها بأن أولئك القوم

الذين يقومون بالغزو هم على جانب كبير من الأخلاق السامية، يحفظون العهد ويكرمون الضيف ويتحلون بالإباء والشمم ، وأن ما يقومون به من عمليات هجومية هى ضرورة اقتضتها ظروف حياتهم القاسية .

ومن الذين تحدثوا أيضا عن حياة البدو تجدر الإشارة إلى الرحالة الهولندى "لويس بركهاردت" العالم المسلم الورع الذى اعتنق الإسلام ولقب نفسه بالشيخ إبراهيم ، والذى يعزى له الفضل فى اكتشاف مجتمع الصحراء وتصويره للحياة البدوية بجميع مظاهرها وذلك من خلال الرحلة التى قام بها فى عام ١٨٠٩ وزار فيها الصحراء العربية المتاخمة لبلاد الشام ، وتمكن من جمع المعلومات الكثيرة عن البدو التى سجلها فى دراسة هامة له بعنوان " ملاحظات عن البدو والوهابيين " ، إلى جانب كتاب آخر أوسع شمولا بعنوان " رحلة فى بلاد العرب ".

وعلى الرغم من أهمية تلك الكتابات التى وضعت عن الحياة فى مجتمعات البادية ، فإنها لم تستطع مع ذلك أن تصل إلى المستوى الذى وصلت إليه كتابات " تشارلز دوتى " فى وصفها لحياة البدو نتيجة معايشته الواقعية لهم ، ومن ثم يذكر "توماس إدوارد لورنس" المعروف " بلورنس العرب " أن الكتاب الذى وضعه "دوتى " عن ترحاله فى صحراء الجزيرة العربية يعد فى تقديره أوفى كتاب مرجعى وضع عن عرب الصحراء . وفضلا عن ذلك فإن الكتاب لم يقتصر على وصف حياة البادية ، إذ إنه احتوى على العديد من الموضوعات الأخرى التى احتاجت منه إلى أكثر من عشر سنوات لكى يستوعب فى خلالها كل ما يتعلق بجيولوجية وطبوغرافية وآثار الجزيرة العربية ومعيشة سكانها . ولعل ما يلفت النظر ما ذكره "لورنس " أن ما سجله " دوتى " فى كتاب رحلته بجزأيه كان ذا قيمة عسكرية ، ومن ثم لم يلبث أن تحول لكى يكون من الكتب العسكرية الهامة الذى صار يدرَّس فى العديد من الكليات والمعاهد العسكرية فى بريطانيا ، خاصة وأنه ساعد فيما احتوى عليه من معلومات ومظاهر طبوغرافية على نجاح الثورة المعروفة بالثورة العربية الكبرى التى قادها " لورنس " نفسه مع الأمير فيصل بن الحسين، والتى زحفت قواتها المشكلة أساسا من أعراب

الحجاز إلى دمشق خلال سنوات الحرب العالمية الأولى ، وعلى وجه التحديد فى عام ١٩١٦ ، وتحقق لها الانتصار على حد ما ذكره "لورنس" فى المقدمة التى صدر بها رحلة " دوتى " فى عام ١٩٢٠ .

ولا مراء فى أن الكتاب الذى وضعه " تشارلز دوتى " عن رحلته يعد سفرا ضخما وفريدا من نوعه ، يدل على ذلك ما لقيه عند صدوره من إعجاب وتقريظ ليس فقط من العديد من الدوائر العلمية المعنية بل وأيضا من الرحالة والرواد الأوروبيين الذين جابوا الجزيرة العربية ، سواء من قبل "دوتى" أو بعده ، إلى درجة أن اعترف الكثيرون له باعتباره من أكبر الرواد الذين عرفتهم الجزيرة العربية فى تاريخها الحديث .

قضى "دوتى" سنتين من حياته فى الجزيرة العربية متجولا فى صحرائها الشمالية الغربية عكف بعدها على إعداد كتابه التى ظهرت طبعة أولى منه فى عام ١٨٨٨ ، تلتها طبعات أخرى نشرتها جامعة كامبريدج بين عامى ١٩٢٠- ١٩٢١ ، إضافة إلى طبعة مختصرة من الكتاب وضعها إدوارد جامتت ونشرتها دار مسيرز ، وإن كانت لا تغنى بطبيعة الحال عن تلك التفاصيل الممتعة والدقيقة التى سجلها " دوتى "، ولا عن الأحداث المثيرة والمواقف الدراماتيكية التى تعرض لها خلال وجوده بين ظهرانى البدو . وليس من شك فى أن قراءة الكتاب كاملا بجزأيه بكل ما احتوى عليه من تفاصيل تجعل القارئ يشعر كما لو كان يعيش مع " دوتى " أو مرافقا له فيما كان يتعرض له من مواقف وأحداث ، هذا فضلا عما يتميز به الكتاب من جمال الحكى وحيويته وأنه - على حد قول "دوتى" نفسه - لم يروى فى هاذين الجزأين من الكتاب سوى الأحداث التى رآها بعينيه وسمعها بأذنيه واعتملت فى داخليته ولم يزد على ذلك أو ينقص منه . والحق أن " دوتى" استطاع أن يمدنا بمادة غزيرة عن المواقف التى تعرض لها أو شاهد أحداثها بنفسه ووصفها وصفا دقيقا وممتعا بطريقة عفوية وتلقائية ، أما ما اضطر إلى نقله أو الاكتفاء فيه بالسماع، فقد جاء به قدر ليس بالقليل من المبالغة والخيال .

قضى "دوتى على نحو ما ذكرنا قرابة سنتين فى صحراء الجزيرة العربية متجولا

بين مدائن صالح وتيماء والعلا ثم شد الرحال إلى جبل شمر وبريدة وعنيزة فى إقليم القصيم ، ثم إلى خيبر والطائف إلى أن وصل أخيرا إلى جدة ومنها إلى الهند . وعلى الرغم من العقبات التى واجهها " دوتى " حين عقد عزمه على الترحال فى صحراء الجزيرة العربية فإن تلك العقبات والصعاب لم تفت فى عضده ولم تثنه عن المضى قدما فيما عزم عليه . لقد حاول فى بداية الأمر أن يحصل من الوالى العثمانى فى سوريا على وثيقة تضمن له السلامة فى اجتياز صحراء الجزيرة العربية غير أن الوالى تقاعس عن الاستجابة لطلبه لما كان يخشاه من أن يتعرض " دوتى " إلى فقدان حياته وما يترتب على ذلك من مسائلة إنجلترا للدولة العثمانية عن فقدان أحد رعاياها إعمالا لنظام الامتيازات الأجنبية التى كانت الدولة العثمانية والولايات التابعة لها تعانى من شدة وطأته . ومن ناحية أخرى لم يجد "دوتى " عونا أو تشجيعا من القنصل الإنجليزى فى دمشق الذى كان يخشى بدوره من المسئولية أمام دولته إذا ما سهل لأحد الرعايا من بنى جلدته القيام برحلة غير مأمونة العواقب . ولم يجد "دوتى" إزاء التقاعس الذى بدا واضحا له سواء من والى سوريا أو من القنصل الإنجليزى فى دمشق سوى الاستعانة بالأمير عبد القادر الجزائرى ، الذى كان يعيش آنذاك فى دمشق بعد أن سمح له الإمبراطور نابليون الثالث فى عام ١٨٥٢ بالانتقال إلى تلك المدينة بعد عدة سنوات قضاها منفيا فى باريس على أثر استسلامه للفرنسيين بعد أن تأكد لديه أنه لا قبل له بالاستمرار فى عمليات المقاومة ضدهم . وقد حظى الأمير عبد القادر باحترام كبير وبمكانة رفيعة فى دمشق ، ومن المؤكد أن السبب فى التجاء "دوتى " إليه لما نمى إلى علمه أن الحاميات والقلاع العسكرية التابعة للدولة العثمانية الموجودة فى الصحراء وعلى طريق الحج الشامى كان معظم أفرادها من المغاربة وخاصة من الجزائريين الذين ظلوا محتفظين بولائهم للأمير عبد القادر الجزائرى باعتباره بطلا من أبطال المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين .

وبالإضافة إلى ما حصل عليه " دوتى " من توصيات وجهها الأمير عبد القادر إلى الحاميات المغربية بحسن معاملته حين يفد إليهم فإن ما كان يشحذ همة "دوتى " فى الترحال إلى جانب ذلك معرفته باللغة العربية التى حرص على تعلمها -كما فعل غيره من الرحالة الذين سبقوه فى رحلاتهم -خلال إقامته لمدة عامين كاملين فى دمشق ،

إلى جانب دبلوماسيته فى التعامل مع البدو الذين خبرهم خلال تجواله فى شبه جزيرة سيناء وتمرسه على عاداتهم وتقاليدهم وذلك قبل أن يبدأ رحلته فى صحراء الجزيرة العربية ، ومن ثم استطاع أن يكتسب ود الأعراب بما أبداه لهم من حسن النية والمعاملة الطيبة ، كما كانت الأدوية والعقاقير الطبية التى كان يحملها معه واشتغاله بالطبابة _على الرغم من أنه لم يكن طبيبا – بمثابة جواز سفر تنقل بواسطتها فى العديد من القرى ومضارب البدو ومخيماتهم باعتباره " مداويا " فى مفهوم البدو . وحين وصل إلى حائل استطاع أن يحصل من حاكمها محمد بن الرشيد أقوى الأمراء نفوذا فى الجزيرة العربية آنذاك على وثيقة أمان ، تمكن بواسطتها فى اجتياز العديد من المناطق التى كانت تعترف لآل رشيد بالتبعية والولاء . وفضلا عن ذلك فقد كان " دوتى " يدرك جيدا أخلاق البدو فى احترامهم للغريب باعتباره ضيف الله فضلا ، عن أن معايشته لهم وتناول الغداء معهم كان مما يضمن له السلامة والأمن وذلك لقدسية " العيش والملح " التى يؤمن بها البدو إيمانا راسخا ، ولا يحيدون عنها مهما بلغ بهم الضيق أو الكراهية لمن يفد إليهم أو يحتمى بهم .

وإذا ما تجاوزنا عن ما واجهه " دوتى " من الصعاب التى تمثلت فى طبيعة الحياة القاسية فى صحراء الجزيرة العربية بما فيها من حرارة الطقس أو برودته وقلة المياه وجدب المعيشة بوجه عام وهى أمور تحملها بصبر وأناة ، فإن وضعه الدينى من حيث كونه مسيحيا جره إلى العديد من الأخطار فى مجتمع إسلامى غلب عليه آنذاك التعصب والتشدد إلى درجة أن وصل الأمر إلى تهديده بالقتل فى كثير من الأحيان . وربما نجد تفسيرا لتلك الأوضاع الدينية المتشددة فيما تميزت به تلك الفترة التى وصل فيها " دوتى " إلى الجزيرة العربية بالصراع أو على الأحرى الصدام بين الإسلام والمسيحية ، كما وضح ذلك جليا فى ثورات الشعوب المسيحية فى ولايات الدولة العثمانية فى البلقان فى عام ١٨٧٦ تحت شعار حركة الجامعة السلافية التى كانت ترعاها روسيا القيصرية ، وما تبع ذلك من الحرب التى أشعلتها روسيا الأرثوذكسية ضد الدولة العثمانية فى عام ١٨٧٧ ، فضلا عن تنامى حركة الجامعة الإسلامية التى استخدمها السلطان عبد الحميد الثانى ١٨٧٦-١٩٠٩ كوسيلة للتغلب على الضغوط التى كانت تواجهها الدولة من قبل القوى المسيحية ، وذلك بدعوته للجهاد ضد أعداء

الدين الإسلامى . وعلى الرغم من حالة الاستنفار العام التى أعلنتها الدولة العثمانية ضد القوى المسيحية المتصارعة معها فإن صداقة الإنجليز وتحالفهم مع الدولة العثمانية ظلت باقية – وإن كان ذلك إلى حين – وليس من شك فى أن مذابح البلقان والحرب الروسية التركية ، وما قبلها من مذابح الستين فى سوريا ولبنان ، تركت تأثيرها فى مجتمعات الجزيرة العربية، وكان الأعراب يقدرون الصداقة التى وصلت إلى درجة التحالف بين الإنجليز والسلطان العثمانى ، كما تبين لهم ذلك فى خلال الحرب الروسية التركية التى وقفت فيها بريطانيا إلى جانب الدولة العثمانية . ولعل ذلك التحالف بين بريطانيا والدولة العثمانية أو على الأحرى الخوف من بطش الإنجليز ، هو ما دفعهم إلى الإبقاء على حياة "دوتى " باعتباره إنجليزيا .

ومن الملاحظ أيضا أنه على الرغم من أن الدولة العثمانية كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف والتهالك ، فإن سيادتها الاسمية ونفوذها الروحى على بدو الصحراء ظل باقيا باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية ، وإن لم يكن لها مع ذلك وزن كبير من الناحية الواقعية ، كما أن الدولة السعودية الثانية التى تأسست عقب رحيل القوات المصرية قد وصلت بدورها إلى مرحلة بالغة من الانهيار ، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت التعاليم السلفية هى السائدة فى كثير من أنحاء الجزيرة العربية ، ووضح أن ضعف الدولة السعودية أو حتى القضاء عليها سياسيا أو عسكريا لم يؤثر على الدعوة الدينية التى قامت على أساسها تلك الدولة . ولعل ذلك مما جعل "دوتى" يتحامل تحاملا شديدا على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ووصفه إياها بالحقد و التعصب، واتفاقه مع خصوم تلك الدعوة فى إطلاق مصطلح الوهابية عليها و مصطلح الوهابيين على أتباعها ، وإن كان هؤلاء الأخيرون يؤثرون أن يطلقوا على أنفسهم لفظ الموحدين أو السلفيين ، وذلك على اعتبار أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم تكن تدعو إلى مذهب أو دين جديد ، وإنما نادت بالعودة إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة.

ومما يلفت الانتباه أنه على الرغم من أن كثيرا من الرحالة الأوروبيين الذين جابوا الجزيرة العربية قد حرصوا على اعتناق الإسلام ، أو على الأقل تظاهروا باعتناقه كما فعل "بركهاردت "الهولندى الذى لم يكتف بإعلان إسلامه وإنما حرص على التبحر فى

علوم الدين ، ومن ثم عرف بين معاصريه بالشيخ إبراهيم ، أو كما فعل الرحالة الإسباني "دومنجو باديا أي لبليخ" ، الذي لم يكتف بدوره باعتناق الإسلام بل اعتبر نفسه من سلالة العباسيين ومن ثم صار يعرف باسم علي بك العباسي ، وهناك أيضا "جون فيلبي" الذي عرف بعد اعتناقه الإسلام بعبد الله فيلبي وغيرهم كثيرون ، فإن " دوتي " كان من الصدق و الأمانة بحيث لم يتظاهر باعتناقه الإسلام وإنما ظل متمسكا بعقيدته المسيحية على الرغم من التهديدات العديدة التي كان يواجهها والتي وصلت إلى حد القتل ، أو الاغراءات الكثيرة التي وعد بها في حالة اعتناقه الإسلام وترديده للشهادتين من تمكينه من زيارة الحرمين الشريفين، وعلو مركزه في مجتمع البادية أو تقلده مناصب في إمارة آل الرشيد في حائل ، أو تمتعه بقدر كبير من الثراء أو حتى زواجه من إحدى البدويات الجميلات .

ولعل مما كان موضع تساؤل البدو ما هي الدوافع التي كانت تدفع الشيخ خليل - وهو اللقب الذي أطلقه على نفسه خلال تجواله في صحراء الجزيرة العربية - لكي يترك حياته الناعمة والمترفة في بلاده ويجئ إلى أراضيهم القاحلة ، ومن ثم حامت حوله الشكوك والشبهات في أنه قد يكون جاسوسا جاء للتجسس على بلادهم ، أو لعله جاء للبحث عن كنوز مخبأة في الجبال أو في جوف الصحراء .

سجل " دوتي " في رحلته العديد من اللوحات الشيقة ومن بينها وصفه الممتع لقافلة الحج الشامي التي صحبها في بداية رحلته ، حقيقة أنه لم يستمر في القافلة إلى منتهاها إذ لم يكن يستهدف الحج أو زيارة الحرمين الشريفين مدركا استحالة ذلك باعتباره مسيحيا ، وإنما اتخذ من قافلة الحج وسيلة يستطيع بواسطتها الوصول إلى مدائن صالح التي تقع في ذلك الجزء من الجزيرة العربية المعروف بالعربية الصخرية أو العربية البتراء ، للتعرف على ما يوجد بها من آثار ونقوش نبطية بصفة خاصة ، ولذلك نجده يتخلف عن صحبة القافلة حين وصلت إلى مدائن صالح حيث يمضي في تسجيل آثارها بما فيها من نقوش كتابية و معابد وتماثيل حفرت في الصخور عنى بدراستها وتحليلها ومقارنتها بالكتب الدينية المقدسة التي كان يحملها معه ، ثم ينتقل من مدائن صالح إلى القرى والمدن المجاورة لها في الحجر وتيماء والعلا وغيرها من الأماكن الأثرية والحضارية القديمة التي تقع في شمال غرب الجزيرة العربية . وكان ما عثر

عليه واكتشفه ونقله من نقوش ومخربشات قديمة موضع دراسة وتحليل الآباء الدومينيكان فى القدس إلى جانب العديد من المراكز و الهيئات العلمية فى أوروبا التى اهتمت بما توصل إليه من اكتشافات أثرية وجيولوجية ، خاصة وأنه كان متخصصا فى علم الجيولوجيا .

ونحن إذا ما تركنا ذلك الجانب العلمى البحت من اكتشافاته وملاحظاته وانتقلنا إلى جانب آخر يرتبط بوصفه الشيق لقافلة الحج نجده يقدم لنا لوحة رائعة عنها . وقد يكون حقيقة أن "دوتى " لم يكن أول من تحدث عن قافلة الحج الشامى بصفة خاصة أو قوافل الحج بصفة عامة ، فقد سبقه فى ذلك الكثيرون سواء من الرحالين العرب أو الأوروبيين نشير من بينهم إلى ابن علوان فى بداية القرن السابع عشر الميلادى ، و"جوزيف ديكستيرا" فى نهاية ذلك القرن ، وأحمد البديرى الحلاق الدمشقى فى القرن الثامن عشر ، والرحالة الإسبانى "دمينحو باديا أى لبليخ" فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادى (١٨٠٦) ، ومع إبداع أولئك الرحالين جميعا فى وصف قوافل الحج سواء قوافل الحج المصرية أو الشامية ، إلا أن "دوتى " كان بلا جدال أكثرهم متعة وإبداعا ، حيث أتى لنا بمعلومات وتفاصيل دقيقة لم نعهدها فى كل من كتب عن تلك القوافل سواء من العرب أو الأجانب .

ومن الواضح أن قافلة الحج الشامى قد استأثرت بجانب كبير من اهتمام "دوتى "، حيث يشير إلى تجمع الحجاج فى دمشق قبل موسم الحج وفى وقت معين من كل عام ، ولم يكن هؤلاء الحجاج من دمشق وحدها أو من سوريا وحدها ، وإنما نتيجة لموقع مدينة دمشق كأكبر مدينة على حافة الصحراء السورية الحجازية فقد غدت مركزا يتجمع فيه الحجاج من بلاد العجم وتركيا وتركستان وغيرها من الجهات والأقطار الشمالية استعدادا للرحلة المقدسة إلى الحرمين الشريفين . وكان يقع على عاتق مدينة دمشق استقبال وإيواء وتموين تلك الأعداد الضخمة من الحجاج الذين يفدون إليها ممن ينتمون إلى أعراق وعناصر وطوائف مختلفة . وكانت مواسم الحج على الرغم من طابعها الدينى ، فى الوقت نفسه مواسم للتجارة إذ اعتاد أكثر الحجاج الغرباء أن يحملوا معهم الكثير من منتجات بلادهم ليستعينوا بثمنها على الوفاء بما تتطلبه رحلة الحج من نفقات ، أو لكى يبادلوا منتجات بلادهم بمنتجات غيرها ومن ثم كانوا

يجمعون بين التجارة وأداء الفريضة المقدسة .

ويشير "دوتى " إلى بداية انطلاق قافلة الحج من تيه المزيريب الذى يقع فى سهل حوران وعلى مسافة تبعد حوالى مائة وخمسين كيلومترا إلى الجنوب من دمشق ، ويعنى بصفة خاصة بتنظيمات القافلة والتنفيذيين والمشرفين والمدبرين لشئونها بداية من باشا الحج وأمر الحج أو ربان القافلة والصيارفة الذين يتولون أمورها المالية ورؤساء وأفراد الحاميات العسكرية المصاحبين لها ، كما يعرض لنفقات القافلة بما فى ذلك شراء المشاعل وقرب المياه والحبال ومواد التموين وأجور الأدلاء والجمالين إلى جانب صرر العربان وصرة الحرمين الشريفين وغيرها . وبصدد تلك الأوضاع المالية يحدثنا " دوتى " عن ما كانت تلجأ إليه الدولة العثمانية من فرض الضرائب لمواجهة ما تتطلبه قافلة الحج من نفقات ولم تكن تستثنى من ذلك المسيحيين فى بلاد الشام الذين كانوا كثيرا ما يبدون احتجاجاتهم على إجبارهم على دفع ضرائب مخصصة للصرف على مقدسات إسلامية ، كما يقدم لنا "دوتى" صورة واقعية لما كانت تعانيه الدولة العثمانية من فساد حيث يبدى انتقاده اللاذع للموظفين العثمانيين وما كانوا عليه من جهل وجشع ونهب للأموال المخصصة لقافلة الحج التى غالبا ما يبتلعها أمراء الحج والصرافين وغيرهم من التنفيذيين على شئونها بينما كان من المفروض إنفاق تلك الأموال على تأمين الطرق التى تمر بها القافلة وصيانة آبار المياه والقلاع العسكرية ، فضلا عما كان يعمد إليه التنفيذيون على شئون القافلة من تقليص قيمة المرتبات التى تدفع لأفراد الحاميات المرابطين على طول الطريق والقائمين على أمر القواعد والقلاع العسكرية ، إلى جانب اختلاسهم الأموال والهدايا والإتاوات التى كانت تقدم لشيوخ البدو ، وما كان يترتب على ذلك فى كثير من الأحيان ما يلجأ إليه أولئك من توقيف مرور القافلة و مهاجمتهم لها ونهبهم لإبلها ومتاعها .

ونكاد نلحظ تعاطف " دوتى " مع البدو حيث يرى أنهم مجبرون على السلب والنهب واللصوصية نتيجة فقر بلادهم وجدبها وإلا ماتوا جوعا ، وكثيرا ما نجده يشير إلى البدو باعتبارهم إسماعيليين أى من سلالة إسماعيل الابن الأكبر لإبراهيم عليهما السلام ، ويكاد يلمح – كما أشار إلى ذلك من قبله الرحالة الفرنسى لويس دارفيو – بأن ما يقوم به البدو من غزوات وعمليات هجومية إنما يثأرون لإسماعيل حرمانه من

حق البكورة التى سلبها منه أخوه إسحق عليه السلام ، وبالتالى فإنهم بعملياتهم هذه إنما يستردون لأنفسهم ذلك الحق الذى حرم منه . لم يكن وصف " دوتى " لقافلة الحج وصفا تقليديا وإنما استطاع أن يقدم صورة نابضة عن موكب الحج الشامى ووصفا ممتعا لقوافل الحج بصفة عامة بجمالها ودوابها وخيولها وأدلائها والفرق العسكرية المصاحبة لها وما تحمله من كسوة الكعبة وأغطية الحجرة النبوية الشريفة ، و بما كانت تشتمل عليه من عناصر متدينة جاءت لتأدية الفريضة المقدسة ، أو أفراد هاربين من العدالة وخارجين على القانون ، إلى جانب طوائف مذهبية مختلفة كانت تؤدى فى بعض الأحيان إلى صدامات بين السنة والشيعة ، وما يعانيه بعض الأفراد حين يتخلفون بسبب ضعفهم عن القافلة ويجدوا أنفسهم مضطرين إلى قطع مسافات طويلة للحاق بها أو للعودة إلى بلادهم وكثير منهم يلقى حتفه فى الطريق . كذلك صور لنا "دوتى "ما يحدث فى القافلة فى بعض الأحيان من سرقات يقوم بها من أسماهم " بالحباليص " أو اللصوص والعقاب القاسى الذى كان ينزل بهم فى حالة ضبطهم . كما يعرض للطريق الذى تسلكه القافلة ويبدى اهتمامه على وجه خاص بالقلاع العسكرية وما فيها من حاميات مغربية إلى جانب وصفه للآبار وما فيها من مياه مالحة . وما يكابده الحجاج طيلة عدة أشهر من عناء نتيجة لما يلاقونه من أخطار الطريق ومن الظواهر الطبيعية والمناخية التى لا يستطيعون لها دفعا كالحر اللافح أو البرد القارس أو السيل الجارف ، فضلا عما يتعرضون له من أمراض وأوبئة أو من عدوان العشائر البدوية الذى كان شر ما يخشاه الحجاج ، وخاصة إذا ما قبض باشا الحج يده عن دفع الأموال السنوية التى كان من المعتاد أن تدفعها الدولة العثمانية للعشائر الضاربة على طريق الحج تأمينا لمرور القافلة ، ويعنى ذلك أن القوة أو القلاع العسكرية والحاميات المرابطة على طول الطريق لم تكن هى الوسائل الوحيدة لمواجهة تعديات البدو ، إذ اضطرت الدولة العثمانية حفاظا على هيبتها فى العالم الإسلامى ومسئوليتها عن تأمين طريق الحج أن تحذو حذو غيرها من الدول الإسلامية التى سبقتها ، إلى دفع إتاوات سنوية لشيوخ البدو المسيطرين على طريق الحج ، وكانت تلك الإتاوات تعرف عادة بصرة العربان ، إضافة إلى ما كانت تدفعه الدولة عن طريق باشا الحج للقبائل التى تخشى شرها مقابل عمل بعض أفرادها كأدلاء للقافلة من أجل تأمين سلامة

مرورها .

وفى تقديرنا أن وصف " دوتى " لقافلة الحج له قيمته التاريخية الهامة إذ لم تلبث التطورات التى حدثت فى وسائل النقل و المواصلات أن أدت تدريجيا إلى إبطال طرق القوافل سواء ما يتعلق بقوافل الحج المصرية أو الشامية ، بعد أن حلت السفن البخارية محل السفن الشراعية فى نقل الحجاج من السويس إلى جدة ، ثم جاء إنشاء الخط الحديدى بين الإسكندرية والقاهرة والسويس ، وما تبع ذلك من شق قناة السويس وافتتاحها إلى التأثير على قافلة الحج المصرية نتيجة ازدياد استخدام طريق البحر الأحمر ، فكان الحجاج الآتون من تركيا أو الأقطار الواقعة إلى شمالها يفضلون أن يأتوا بحرا إلى بيروت أو الإسكندرية حيث يسلكون طريق البحر الأحمر إلى جدة . ومن ناحية أخرى آثر الحجاج الفرس استخدام طريق الخليج العربى – الذى فرضت فيه بريطانيا الأمن وأحكمت سيطرتها عليه – ومنه إلى البحر الأحمر حتى جدة . غير أن أعظم انقلاب حدث فى أسلوب الحج ، وأدى إلى القضاء المبرم على قافلة الحج الشامى كان إنشاء خط حديد الحجاز الذى امتد من دمشق إلى المدينة المنورة والذى تم افتتاحه فى عام ١٩٠٨ ، وأصبح باشا الحج وأمير الحج والرجال التابعين لهما يقطعون رحلة الحج بالقطار ، وبذلك أسدل الستار على ذلك الموكب الجرار الذى أفاض "دوتى" فى الحديث عنه ، والذى كان يتكون سنويا من قافلة كبيرة من الجمال ، كما اختفت القلاع والأسبلة وأصبحت أطلالا وخرائب اللهم باستثناء ما بقى منها من أجل حراسة الخط الحديدى ، وحتى بعد أن قامت قوات الثورة العربية بنسف خط حديد الحجاز فى عام ١٩١٦ فإن ذلك لم يؤد إلى عودة قوافل الحج الشامية أو فى استردادها لمكانتها السابقة ، ويرجع ذلك إلى التقدم التكنولوجى الذى حدث فى وسائل النقل البرية والبحرية والجوية منذ السنوات الأولى من القرن العشرين . ولعل تلك التطورات توضح لنا القيمة التاريخية التى زودنا بها "دوتى " حين تحدث عن قافلة الحج الشامى ، والذى كان فيما نعتقد آخر من وصف تلك القافلة بذلك الوصف العميق الممتع والقيم فى الوقت نفسه .

ما كادت قافلة الحج الشامى التى رافقها "دوتى " تصل إلى مدائن صالح ثم تبدأ فى استئناف مسيرتها حتى غادرها " دوتى" حين وجد أنه وصل إلى هدفه الرئيسى فى صحراء الجزيرة العربية، ومن ثم آثر البقاء فى مدائن صالح والمناطق المجاورة لها فى

الحجر وتيماء والعلا ، وفى ذلك الجزء المعروف بالعربية الصخرية أو العربية البتراء للتعرف واستكشاف ما بها من آثار ونقوش كتابية ومطابقتها على ما ورد ذكره فى أسفار التكوين وأشعيا وحزقيال فى التوراة ، وكذلك بما ورد ذكره فى الإنجيل وفى القرآن الكريم عن قبيلة ثمود ومدائن لوط وقبيلة عاد من أهل مدين إلى جانب ما ورد فى الأساطير و الموروثات الشعبية عن المدن التى كان يسكنها عبدة الأصنام والتى تحول ساكنوها نتيجة غضب الله عليهم إلى درنات صخرية .

وقد عنى "دوتى " بالتعرف على ما يوجد فى تلك المناطق التى زارها من آثار كشفت عن حضارات قديمة فضلا عن نقله للنقوش النبطية والآرامية والحميرية وغيرها من النقوش الأخرى بما فى ذلك مخططات بنى هلال الذين عبروا الجزء الشمالى الغربى من الجزيرة العربية فى طريقهم إلى مصر وبلاد المغرب ، وتمكن " دوتى " من التعرف على ما كشفت عنه تلك النقوش إضافة إلى ما تم العثور عليه من نقود حميرية وإغريقية ، وعلى ما وجد من تفاعل حضارى وتجارى بين مراكز الحضارات القديمة التى وجدت فى جنوب الجزيرة العربية وشمالها ، واستطاع التأكيد على ذلك من واقع النقوش والنقود الحميرية التى عثر عليها بصفة خاصة فى مدينة العلا ، فضلا عن وجود أطلال لبعض المدن القديمة التى أقامها تجار من جنوب الجزيرة العربية وأطلقوا عليها أسماء مدنهم التى جاءوا منها ، كما بدا له ذلك واضحا من وجود مدينة فى الشمال عرفت بمدينة سبأ على الرغم من أن مدينة سبأ مرتبطة بالجنوب ، مما يعنى أن التجار اليمنيين أقاموا لهم مدنا أخرى فى الشمال للحفاظ على مصالحهم التجارية هناك ، مما يدل دلالة قاطعة على وجود ذلك الترابط التجارى والحضارى الوثيق بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها . كما أمكن التأكيد على ما وجد فى الجزيرة العربية من حضارات مزدهرة فى تاريخها القديم ، فضلا عن أنها كانت معبرا لطرق التجارة العالمية .

وليس من شك فى أن النقوش النبطية والآرامية والحميرية التى عثر عليها "دوتى " على جدران المعابد والتماثيل وعلى شواهد القبور والكهوف فى مدائن صالح وتيماء والحجر والعلا وغيرها ، استطاعت أن تلقى الضوء على حياة شعوب الجزيرة العربية القديمة من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والدينية ، كما ساعدت على التعرف على

تطور الخط العربى بصفة خاصة وساعدت على سد ثغرة كبيرة فى تاريخ الجزيرة العربية القديم ، خاصة و أن النقوش الكتابية تعد من أهم المصادر التاريخية الموثوق بها ، إذ أن أكثر ما وصل إلينا من تاريخ الجزيرة العربية القديم لا يعدو أن يكون روايات غلب عليها الطابع الأسطورى أو الخرافى واختلطت فيها الحقيقة بالخيال إلى حد كبير ، ومن ثم غدت النقوش الكتابية وثائق أصلية اعتمد عليها المؤرخون والأثريون الأوروبيون وغيرهم فى الكشف عن كثير من الحقائق التاريخية باعتبارها معاصرة للأحداث التى دونت فيها ، فضلا عن كونها مصادر محايدة تضمنت وقائع تاريخية صحيحة قل فيها التزييف والتحريف ، على عكس المصادر الأخرى التى اكتنفها قدر ليس بالقليل من التحيز أو خالطتها بعض الأهواء الذاتية غير الموضوعية .

ومن الواضح أن " دوتى " أبدى اهتماما كبيرا بالنقوش الكتابية واستطاع أن يحصل على صور منها خاصة النقوش النبطية ، التى وجدت فى أماكن مختلفة من العالم إلا أن انتشارها كان أكثر وضوحا فى أرجاء المملكة التى شادها النبطيون وفى المناطق المتعددة التى كان يصل إليها تجارهم بدءا من دمشق والرقيم "البتراء " ، وصحراء النقب شمالا إلى صحراء شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية لمصر غربا ، وإلى العلا وقرية الفاو جنوبا حتى سهل الحوران فى الشمال الشرقى . ولم يقتصر "دوتى " على النقوش النبطية وحدها وإنما اهتم إلى جانب ذلك بالنقوش الحميرية حيث سجل ما وجده – وخاصة فى مدينة العلا– من تلك النقوش على أحجار البناء والجدران الداخلية لبعض البيوت والمساكن .

ولم يكن اهتمام "دوتى " قاصرا على تسجيل المواقع الأثرية وما اشتملت عليه من نقوش كتابية فحسب ، وإنما كان حريصا – استنادا إلى تكوينه العلمى كعالم فى الجيولوجيا – على التعرف على المظاهر الطبيعية والطبوغرافية والجيولوجية ، إذ كان يحمل معه العديد من الأجهزة الخاصة بقياس الارتفاعات والأعماق وغيرها . وهكذا نجد ذلك التنوع والثراء الذى حفلت به رحلة دوتى التى لم تقتصر على الجوانب الأثرية وحدها ، وإنما شملت العديد من الظواهر الجيولوجية والطبوغرافية والطبيعية التى عنى " دوتى " بتسجيلها باعتباره متخصصا فى علم الجيولوجيا ، مما جعله يتحدث عن تلك الظواهر بإطناب ، ومن ثم قدم وصفا شاملا لصحراء الجزيرة العربية البتراء

والقفراء بصخورها الصوانية وتلالها وسهولها ووديانها وغدرانها وأفلاجها وهضابها وحراتها وحممها البركانية وأنهارها البازلتية وموارد مياهها الباطنية ، إلى جانب ما سجله من مسالكها ودروبها وأسماء مدنها وقراها وكفورها وهجراتها وسكانها من الحضر وقبائل البادية ، إضافة إلى أسماء نباتاتها وطيورها وخيولها وجمالها وهوامها .

وعلى الرغم من أهمية الرحلة فيما أتت به من معلومات علمية بحتة فإنه برزت أهميتها على وجه خاص فيما أتت به من وصف دقيق لكل ما يتعلق بحياة البدو ، ويبدو ذلك فى اهتمام "دوتى " بالتركيبات القبلية بما فى ذلك أنساب القبائل وتفريعاتها إلى بطون وأفخاذ ، وبين ما هو أصيل وغير أصيل منها، ولم يهمل وضع العناصر الزنجية والحبشية التى صادفها فى مدينة خيبر على وجه خاص ، والتى استقرت فى حماية القبائل أو الوجهاء، وليس من شك فى أن ما قرره عن أوضاعهم الحسنة يعد بمثابة شهادة تؤكد معاملة العرب السمحة للرقيق .

وقد يكون هناك العديد من الرحالين الذين عايشوا البدو وكتبوا عن حياتهم وعاداتهم ، غير أننا لا نجانب الصواب إذا ما ذكرنا أن ما سجله "دوتى " يعد بكل المقاييس أفضل وأشمل دراسة عن كل ما يتعلق بحياة البدو ومعيشتهم التى تميزت بالقسوة والقحط لقلة مواردهم ، وكثيرا ما عانى هو بنفسه من العطش والجوع وإن كان قد وجد تكريما من البدو الذين أحسنوا ضيافته على الرغم من فقرهم المدقع ، وإن كان قد لاحظ مع ذلك وجود من يعيشون فى مستوى أفضل من الشيوخ والوجهاء والتنفيذيين العثمانيين وغيرهم الذين تمتع بضيافتهم السخية فى كثير من الأحيان .

وقد حرص "دوتى " أن يقدم عرضا وافيا لتنظيمات البدو الاجتماعية بما فى ذلك مجالسهم القبلية وعاداتهم وتقاليدهم إلى جانب وصفه الدقيق لحياة السكان بصفة عامة من بدو وحضر أو شبه حضر وكيف كان هؤلاء يتكيفون فى مساكنهم وملابسهم وطعامهم وشرابهم وما يكتنف حياتهم من خرافات وأساطير . ويجد "دوتى " الفرصة مناسبة لكى يروى بعض الحكايات التى سمعها من البدو عن الجن وأشكالهم وقدراتهم الخارقة ، إلى جانب ما يرددونه عن غولة الصحراء وغير ذلك من الخرافات . وليس من شك فى أن "دوتى" بحكم معايشته للبدو استطاع إضافة الكثير إلى المعارف الأوروبية عن حياة البادية التى كان الإنجليز – على خلاف الفرنسيين –

مولعين بها .

والحقيقة أن " دوتى " لم يغفل شيئا عن المناطق التى زارها فى صحراء الجزيرة العربية إلا ذكره فقد تحدث بإفاضة عن مضارب البدو وخيامهم وبيوت الشَعر ومنازلهم المبنية من الأحجار اللبنة ، وإلى نوعية المواد المستخدمة فى البناء والطرق التقليدية المتبعة فى سحب المياه من الآبار ، ومن الواضح أن ممارسته للطبابة مكنته من دخول كثير من منازل البدو بمختلف شرائحهم ، ومن ثم تمكن من إعطائنا تفصيلات دقيقة عن تلك المنازل والمخيمات التى كانت تنقسم إلى المضيف ووجارات القهوة ومجالسها ، وأقسام الحريم وحظائر الحيوانات وغيرها، كما نقل كثيرا من التعبيرات التى يستخدمها البدو فى مختلف المناسبات ، كما فاق "دوتى " غيره من الرحالة الذين سبقوه أو جاءوا من بعده فى إعطائنا معلومات عن نساء البدو ومكانة المرأة فى مجتمع البادية ، ونوعيات الأطعمة والأشربة وعادات الختان والزواج والدفن ، وأيضا عادات الثأر التى كانت تنتهى بالقصاص أو دفع الدية وحق الأفراد فى اللجوء من قبيلة إلى أخرى ، والتضامن الذى غالبا ما يحدث بين أبناء القبيلة الواحدة لدفع دية القتل تجنبا للقصاص ، كما تعرض للمنازعات التى كانت كثيرا ما تحدث بين القبائل وصراعهم حول المياه والسقيا والغزوات التى كانت تحدث بين القبائل ، إلى جانب وصفه للأوضاع الاقتصادية خاصة الصناعات اليدوية فى غزل الأصواف ، والأساليب المتبعة فى التجارة وما يلجأ إليه البدو من طرق المقايضة ، إلى جانب ممارسة بعض القبائل للحرف والمهن المختلفة ، فضلا عن تقلبات ألأسعار والعملات المستخدمة واختلاف قيمتها من منطقة إلى أخرى ، والإتاوات التى كان يدفعها الحضر لشيوخ البدو من أجل حمايتهم من عدوان القبائل التابعة لهم فيما كان يعرف برسم الخوة ، والزكاة التى كانت تدفع للأمراء التنفيذيين خاصة من آل الرشيد ، كما لم يفت " دوتى " الحديث عن الحياة الصحية فأشار إلى العديد من الأوبئة ، والطرق البدائية التى كان يستخدمها البدو فى علاج بعض العلل والأمراض التى تصيبهم بما فى ذلك الحجامة والفصاد والكى والأحجبة والرقى والعزائم وغيرها من العادات الطبية التى تصل إلى حد الشعوذة التى يؤمن بها البدو ، وما قام به من جهود من أجل الحصول على مصداقية لما كان يقدمه لهم من أدوية ، مما أدى إلى ثقة البدو به وإقبالهم على التداوى بما كان

يحمله معه من أدوية وعقاقير طبية بعد أن ثبتت لهم فاعليتها .

ولم يختلف " دوتى " عن غيره من الرحالين فى تقلب مزاجه وحكمه على المواقف أو الأحداث والأشخاص ، ويتضح ذلك جليا فى اختلاف تقييمه للأمور طبقا لما كان يصادفه من معاملة حسنة أو سيئة ، ففى كثير من الأحيان نجده يحمل حملة شديدة على البدو ويصفهم بالسذاجة بل وقد يصل به الأمر إلى وسمهم بالوقاحة والبربرية ، وفى أحيان أخرى يرى أنهم من عرق نقى يبعد بهم عن الهمجية أو البربرية مما يعكس تجاربه الخاصة ، كما يبدو التناقض واضحا فى وصفه للبدو بالكرم وحسن الضيافة وفى حملته الشديدة على بعض القبائل التى احتك بها أو القرى والمدن التى مر بها أو زارها كحملته الشديدة على العلاونة " أهالى قرية العلا " أو التيامنة " أهالى تيماء " الذى وصفهم بالبخل وسوء الضيافة .

ولا يقتصر تقلب مزاج "دوتى " فى حكمه على البدو أو أهالى القرى والمدن بل يبدو تقلب مزاجه واضحا فى موقفه من الدين الإسلامى . ولعل التشدد الوهابى فضلا عن عقيدته المسيحية وما اتسمت به الفترة التى زار فيها المجتمعات الإسلامية سواء فى بلاد الشام أو فى الجزيرة العربية من صراع حاد بين الإسلام والمسيحية جعلته يحمل حملة شديدة على التعاليم التى أتت بها الدعوة (الوهابية) مبديا كراهيته لها ومتهما إياها بالحقد والتعصب . وقد يكون ذلك الموقف راجعا فى الوقت نفسه إلى أفول نجم الدولة السعودية وارتمائه الواضح فى أحضان آل الرشيد وهى الأسرة المنافسة للسعوديين. وامتدت به الكراهية إلى ما أظهره من تحامل شديد على الدين الإسلامى وعدم اعترافه بنزول القرآن أو بالنبى محمد (ﷺ) تمشيا مع ما كان سائدا فى القرن التاسع عشر وربما فى السنوات التى سبقته من جدل كبير حول الدين الإسلامى ، وما اتسمت به الكتابات عنه بالحقد والتعصب الشديد والإدعاء بأن القرآن الكريم من وضع النبى ، وأنه أراد إكسابه هيبة فادعى أنه منزل من السماء ، وإن كان من الملاحظ على الرغم من ذلك التحامل الشديد الذى حمله " دوتى " على الدين الإسلامى ، إلا أنه لا يجد مناصا من الاعتراف بما جاء به الإسلام من مبادئ إنسانية سامية .

وتبدو أهمية رحلة " دوتى " واضحة فى تقديمها لوحة تاريخية عن إمارة آل

رشيد التى نكاد نزعم بأنها لم تجد اهتماما كافيا من المؤرخين ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن تلك الإمارة على الرغم مما وصلت إليه من قوة وبأس خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى إلا أنها لم تلبث أن تعرضت بداية من السنوات الأولى من القرن العشرين لضربات متلاحقة من قبل السعوديين مما أدى إلى أفول نجمها تماما خلال العقد الثانى من ذلك القرن ، ومن ثم تركزت معظم الدراسات والمؤلفات التاريخية على الدولة السعودية فى أطوارها المختلفة ، وظهر إهمالها واضحا لإمارة آل رشيد ، ولذلك تعد رحلة "دوتى " فى تقديرنا من الأهمية الكبيرة إذ إنها ألقت أضواء ساطعة على تلك الإمارة ، خاصة وأن "دوتى " عاصر فترة ازدهارها خلال رحلته مما جعله يقدم دراسة شيقة عن نشأتها على يد عبد الله بن الرشيد الذى عين من قبل الإمام فيصل بن تركى السعودى أميرا على جبل شمر فى عام ١٨٣٥ .

وكان " دوتى" قد وصل فى عام ١٨٧٧ إلى حائل عاصمة تلك الإمارة بصحبة قافلة حج فارسية كانت قادمة من بلاد الرافدين ، وكتب عن التطورات التاريخية التى مرت بها تلك الإمارة منذ نشأتها حتى الفترة التى وصل فيها إليها والتى واكبت السنوات الأولى من عهد الأمير محمد بن الرشيد أقوى أمراء الجزيرة العربية نفوذا ، الذى اعتلى سدة الحكم فى عام ١٨٧٢، وما وصلت إليه الإمارة من نمو فى عهده والأحداث الدراماتيكية التى وقعت فى بيت الرشيد حين استهل حكمه بذبح جميع أبناء وعبيد أخيه طلال بن الرشيد ولم يستثن منهم كما قيل سوى طفلا واحدا . وعلى الرغم من المذابح المريعة التى قام بها إلا أنه استطاع إقرار الأمن والنظام وقمع الاضطرابات القبلية .

وكانت عناية "دوتى " بالحديث عن العديد من الجوانب المتعلقة بإمارة آل رشيد فذكر أن أمرائها كانوا فى بداية وصولهم إلى الحكم منفذين لتعليمات السعوديين ، ولكن حين بدأت الدولة السعودية الثانية تتعرض للتفكك تمكنوا من التغلب عليهم وتوثقت صلاتهم بالدولة العثمانية . وعلى الرغم من الضرائب الفادحة التى كان يفرضها أمراء آل رشيد على المناطق والقبائل الخاضعة لهم إلا أن السكان تحت حكم آل رشيد تمكنوا من التخلص من استبداد عملاء الدولة العثمانية فى جباية الضرائب المفروضة عليهم . كما قدم "دوتى " معلومات هامة عن علاقة آل رشيد بكل من الدولة

العثمانية ومصر والسعوديين ، وتعرض لاتساع نفوذ الإمارة حيث ذكر أنها كانت تمتد إلى الجوف والقصيم ودرب الحج القادم من بلاد الشام ، وأفاض فى الحديث عن أقسامها الإدارية وتجارتها وما بها من حرف وصناعات وموارد دخلها إلى جانب مصروفاتها التى كانت تنفق على الغزوات التى يقوم بها أمراؤها ، فضلا عن الرشاوى والهدايا التى كانوا يبعثون بها إلى السعوديين أو إلى الدولة العثمانية تمكينا لنفوذهم ، إضافة إلى ما يوجد فى الإمارة من حرف وصناعات وما تستخدمه من عملات متعددة ، كالريال الإسبانى والنمساوى "ماريا تريزا " والليرة الفرنسية والريال المجيدى والعملات الذهبية ، كما عنى على وجه خاص بالحديث عن تجارتها فى الخيول العربية الأصيلة التى كانت تنقل عن طريق الكويت إلى بومباى .

وتجدر الإشارة فى هذا المقام إلى أنه على الرغم من الأهمية التاريخية التى قدمها "دوتى " فى حديثه عن إمارة الرشيد إلا أن هناك العديد من الرحالين الأوروبيين الذين سبقوه أو جاءوا من بعده قد تحدثوا بدورهم عن تلك الإمارة ، نذكر من بينهم الرحالة الفنلندى "جورج أوجست والين" الذى زار مدينة حائل على عهد عبد الله بن الرشيد ١٨٣٥-١٨٤٧ مؤسس إمارة آل الرشيد ، والرحالة الفرنسى شارل هوبير ، والرحالة الإيطالى كارلو جورمانى، كما تبع "دوتى " فى زيارته لحائل كل من اللورد واللادى بلنت ، والرحالة النمساوى "ألويس موسل" ، وجون فيلبى وغيرهم كثيرون ، وإن كان "دوتى " تميز عن أولئك جميعا فى وصفه لما وصل إليه أمراء آل رشيد خلال زيارته لهم إلى أقصى نفوذهم واستطاع بذلك أن يقطع بتفوقهم على السعوديين فى الوقت الذى كان فيه وضعهم غير واضح بالنسبة للكثيرين من الرحالة ومن بينهم "وليام بالجراف" الذى أوفد من قبل الإمبراطور نابليون الثالث إلى بلاد شمر فى عام ١٨٦٢-١٨٦٣ بهدف استطلاع مدى قوة آل رشيد وإمكانية انتصارهم على السعوديين ، ومن ثم استطاع "دوتى " أن يحسم الأمر بالتأكيد على النفوذ الذى وصلوا إليه والذى تمكنوا بواسطته من القضاء على الدولة السعودية الثانية ، وإن لم يلبث بعد ذلك أن تمكن السعوديون من استعادة نفوذهم والتخلص نهائيا من إمارة آل رشيد المنافسة لهم ، وتم لهم ذلك على عهد الأمير - الملك فيما بعد - عبد العزيز بن سعود .

عقب زيارة "دوتى " لحائل قام بزيارة أخرى إلى كل من بريدة وعنيزة من إقليم

القصيم ، وعلى الرغم مما وجده هناك من تعصب شديد نتيجة وضعه الدينى ، إلا أنه استطاع بحصوله على وثيقة أمان من الأمير محمد بن الرشيد أن يؤمن نفسه وإن لم يحل ذلك دون تعرضه لكثير من التعديات ، وإن كانت ممارسته للطبابة وخاصة فى مدينة عنيزة التى قضى فيها بعض الوقت مكنته من التغلب على تلك التهديدات التى صادفها وعلى وجه خاص من قبل المطاوعة "رجال الدين الوهابيين " إلى درجة طرده من المدينة باعتباره مسيحيا أو على الأحرى كافرا فى مفهومهم ، وإن كان لم يلبث أن استدعى إلى المدينة مرة أخرى ليمارس عمله فى الطبابة . وقد صادف وجوده فى إقليم القصيم النزاع بين بريدة وعنيزة الذى كان حريصا على تحليله وتقصى أسبابه .

وهناك لوحة أخرى رسمها "دوتى " عن مدينة خيبر التى وفد إليها وتحدث من خلال زيارته لتلك المدينة – كما فعل سلفه الرحالة الفرنسى "موريس تاميزيه" – عن القرية التى كانت تضم عناصر زنجية وفدوا للحج من غرب القارة الإفريقية ثم استقر بهم المقام فى خيبر بعد أن أصبح فى غير مقدورهم العودة إلى بلادهم على أثر ما تكبدوه فى رحلة الحج المضنية ، ومن ثم قرروا الإقامة فى خيبر وفى غيرها من مدن الحجاز حيث أخذوا يمارسون فيها بعض الأعمال التجارية أوغيرها من الصناعات التقليدية تأمينا لحياتهم المعيشية .

وعقب زيارة "دوتى " لخيبر عاد مرة أخرى إلى القصيم ومن هناك صحب قافلة حج كانت متجهة إلى مكة ، وإن كان لم يصل إليها بطبيعة الحال نظرا لمسيحيته ، ومن ثم رافق قافلة أخرى خارج حدود مكة كانت متجهة إلى الطائف .

وخلال زيارة " دوتى" لمدينة الطائف قدم لوحة أخيرة عن الأشراف ، ويبدو فى تلك اللوحة التناقض الواضح فى موقفه إزائهم ، فبينما نجده يبدى إعجابه وثنائه على ما لقيه من كرم الضيافة والتسامح من قبل الشريف حسين بن محمد الذى تولى إمارة مكة فى عام ١٨٧٧ –وقتل بعد عام واحد من توليه الحكم كما علم بذلك بعد عودته من الجزيرة العربية – حيث ذكر أنه أنزله منزلة خاصة وأجزل له العطاء وأحسن ضيافته ، إلا أن ذلك لم يحل بينه وبين شنه حملة شديدة على ما صادفه من بعض الأشراف من تعصب ومعاملة سيئة وصلت بأحدهم إلى حد تهديده بالقتل وسرقته .

وفيما يبدو أن " دوتى " لم يأخذ فى اعتباره أن دعوى الانتساب إلى الأشراف قد تكون دعاوى غير صحيحة إذ غالبا ما يحدث تزييف فى الأنساب بغرض الرغبة فى الانتساب إلى السلالة النبوية الشريفة ، وهى ظاهرة نكاد نلمسها واضحة فى كثير من الأقطار الإسلامية . ومما تجدر الإشارة إليه أن "دوتى " وصل إلى الطائف – المقر الصيفى لأشراف مكة – فى الوقت الذى كان فيه نفوذهم قد أخذ فى التداعى نتيجة لأن الدولة العثمانية كانت تحرص على تشديد قبضة يدها على الحرمين الشريفين تأكيدا للحفاظ على هيبتها فى العالم الإسلامى ومن ثم اهتمت بإرسال الحاميات العسكرية، كما قامت بتعيين ولاة على الحجاز مما ترتب على ذلك ازدواجية السلطة بين الأشراف من ناحية والولاة العثمانيين من ناحية ثانية ومن ثم حدوث التنافس بينهما، إلى أن نجح الشريف حسين بن على –الذى عينه الاتحاديون شريفا على مكة فى عام ١٩٠٨– من استرداد نفوذ الأشراف بل وصل به الأمر إلى إعلان الثورة ضد الدولة العثمانية فى عام ١٩١٦ .

إن الأهمية العلمية لرحلة "دوتى" تتضح فيما قدمه من معلومات ثرية تناولت العديد من الجوانب الأثرية والجيولوجية والحضارية ، كما تبرز أهميتها الاجتماعية فيما سجله عن حياة البدو ومعيشتهم فى الصحراء . كما تعد الرحلة إلى جانب ذلك من المصادر الهامة التى تحدثت عن الأوضاع السياسية والتاريخية فى المناطق التى زارها "دوتى " فى صحراء الجزيرة العربية خلال العقد السابع من القرن التاسع عشر ، بما تضمنته من معلومات هامة عن تداعى النفوذ السعودى وبزوغ نجم آل رشيد إلى جانب ما سجلته عن الأوضاع السياسية فى إقليم القصيم ، ووضعية الأشراف فى الحجاز ، ومدى نفوذ الدولة العثمانية الذى وصل إلى مرحلة الضعف فى تلك المناطق التى زارها ، وإن ظلت على الرغم من ذلك محتفظة بنفوذها الروحى باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية .

لقد تعرض "دوتى " إلى العديد من المواقف الصعبة التى كاد يفقد فيها حياته مما جعله يصف بلاد الأعراب بأنها بلاد بلا قانون . ومن الواضح أن ترحاله فى صحراء الجزيرة العربية كانت فى فترة لم يكن قد استقر الأمن فى ربوعها ، ويبدو ذلك من حديثه عن الصراعات القبلية أو فيما عبر عنه بالغزوات والعمليات الهجومية التى

كانت تقوم بها قبيلة ضد أخرى بما كان ينتج عنها من سلب ونهب ، وبما تعرض له شخصيا فى أكثر من مرة من إهانات و تهديد بالقتل ، هذا فضلا عما كانت تعانيه المناطق التى زارها من جدب وقحط ، وإن كانت تلك الأمور جميعها قد زالت وانقضى عهدها بعد نجاح الملك عبد العزيز بن سعود فى توحيد المملكة العربية السعودية والسيطرة على معظم ربوع الجزيرة العربية التى أشاع فيها الأمن والنظام ، وذلك من خلال العمل على توطين البدو واستقرارهم . وليس من شك فى أن الثروات التى تمتعت بها الجزيرة العربية نتيجة تدفق الثروة النفطية كانت تعويضا لما عاناه سكانها وخاصة البدو منهم من شظف العيش ، وما وصلت إليه حياتهم المعيشية من بؤس وشقاء ومعاناة كما صورها " دوتى " فى رحلته أبلغ تصوير .

ومع اختلافنا مع بعض الآراء والانطباعات التى أتى بها " دوتى " ، إلا أن هذا لا يمنعنا من أن نقرر بأن هذا السفر الضخم الذى وضعه " دوتى " عن ترحاله فى صحراء الجزيرة العربية والمتمثل فى ذلك الكتاب الذى بين أيدينا والذى يصل فى جزأيه إلى ألف وثلاثمائة وسبعين صفحة ،اشتمل الجزء الأول منه على اثنين وعشرين فصلا والجزء الثانى على ثمانية عشرة فصلا ، إضافة إلى الملاحق والمصورات المتعددة التى ألحقت بكل من جزء من جزئى الكتاب ، هذا السفر الضخم جدير بأن يكون موضوعا للعديد من الدراسات والبحوث والرسائل الأكاديمية بالنظر لما احتواه من معلومات قيمة تمس النواحى الأثرية والحضارية والتاريخية والعلمية والاجتماعية والأنثربولوجية ، وذلك من أجل تحليل كل ما ورد به من معلومات ، خاصة وأنه ركز على مناطق طواها الفقر والنسيان لقرون عديدة .

وليس من شك فى أن ما أتى به الكتاب من معلومات فى تلك المجالات جميعها تحتاج إلى تضافر جهود العلماء من مختلف التخصصات العلمية، وبصفة خاصة من المهتمين بالدراسات السامية ، والمتخصصين فى علوم الجيولوجيا والطبوغرافيا ، وفى آثار القسم الشمالى الغربى من صحراء الجزيرة العربية ، إلى جانب العارفين بأصول القبائل العربية وأسمائها وأنسابها وتفريعاتها ، وما يطلق من أسماء محلية على

الظواهر الطبيعية التى شاهدها "دوتى " فى المناطق التى زارها من جبال وسهول ووديان وحيوانات وطيور وغيرها .

كما يعنينا بصفة خاصة مقارنة ما أتى به الكتاب بما ورد فى المصادر الأخرى التى واكبت ر حلة "دوتى " أو السابقة أو اللاحقة عليها ، فضلا عن التركيز على وجهة النظر العربية التى قد تتناقض مع ما توصل إليه "دوتى " من نتائج ، وخاصة بعد ما تبين لنا أثناء مراجعتنا للترجمة العربية على النص الإنجليزى للكتاب بجزأيه ما تتضمنه الكتاب من بعض الفقرات والكلمات التى تمس المقدسات الإسلامية والمسيحية على السواء ، إلى جانب بعض العبارات الخارجة التى قد تخدش الحياء العام التى رأينا استبعادها حفاظا على الوقار العلمى ، هذا فضلا عن كونها قليلة فى جملتها ولا تؤثر على السياق العام .

وقد عملنا كل ما فى وسعنا على وضع تعليقات وشروح على بعض ما ورد فى الكتاب من معلومات عن بعض الأحداث والشخصيات التاريخية وكانت فى حاجة إلى تعليق أو توضيح أو تصحيح ، وعلى سبيل المثال فقد نسب "دوتى " إلى العرب إحراق مكتبة الإسكندرية على الرغم مما كشفت عنه البحوث التاريخية من أن يوليوس قيصر هو الذى أحرقها فى عام ٤٨ ق.م. عند اشتباكه بأسطول بطلميوس شقيق كليوباترا وخصمها على عرش مصر .

كما حرصنا على تحقيق وضبط ما صادفناه من أسماء الأعلام سواء كانت مكانية أو زمانية أو إنسانية أو حيوانية أو نباتية أو طبيعية كأسماء القبائل وأسماء المدن والقرى وأسماء الجبال والسهول وغيرها من الظواهر الطبيعية معتمدين فى ذلك على العديد من المصادر الكلاسيكية والمراجع العربية والأجنبية والأطالس التاريخية والمعاجم والموسوعات ، ومع ذلك فلا ندعى أننا قد وصلنا إلى حد الكمال إذ لا تزال هناك أسماء لم نهتد إلى صحتها ومن ثم أبقيناها على حالتها كما ذكرها المؤلف بالحروف اللاتينية دون وضع مرادفات لها باللغة العربية خشية ألا تكون صائبة أو صحيحة .

ومع تقديرنا لأهمية رحلة "دوتى " وما توصل فيها من نتائج هامة فى العديد من

المجالات التى عرض لها والتى عادت على العلم بفوائد جمة فى شتى المجالات الأثرية والجيولوجية والتاريخية والاجتماعية فإن ذلك لا يجعلنا نقر بوجهة نظر المؤلف فيما أتى به من بعض الآراء أو الانطباعات، كما يبدو ذلك فى تحامله الشديد على بعض القبائل وإن كنا نلتمس له العذر فى ذلك نتيجة لما تعرض له من تجارب خاصة . كما ينبغى الحذر من مغالاته فى الوجود اليهودى فى العديد من المناطق التى زارها خاصة فى مدائن صالح وتيماء والعلا وخيبر ، أو فى ربطه الأعراف البدوية بما جاء فى الشرائع والأعراف اليهودية معتمدا فى ذلك على ما ورد فى أسفار التوراة التى كان يحملها معه وتركيزه على تعامل الأعراب مع بعض ما جاء فى تلك الشرائع .

بقى أن نؤكد ونحن بصدد إنهاء تقديمنا لذلك الكتاب بالجهد الخارق الذى بذله "شارلز دوتى " فى تسجيل رحلته فى صحراء الجزيرة العربية ويرتبط بذلك الجهد جهد المترجم -الدكتور صبرى محمد حسن - الذى بذل بدوره جهدا خارقا فى ترجمة هذا السفر الكبير ، واستطاع بترجمته المبتكرة أن يحتفظ بأسلوب المؤلف وطريقته فى العرض بحيث غدت الترجمة العربية لا تكاد تختلف عن النص الإنجليزى كما لمسنا ذلك بأنفسنا .

ولا يسعنا فى النهاية إلا أن ننوه بأهمية الترجمة العربية للكتاب بجزأيه التى نعتقد بأنها سوف تسد فراغا كبيرا فى المكتبة العربية التى لا تزال تفتقر إلى المصادر الكلاسيكية المترجمة التى نحن فى أشد ما نكون فى حاجة إليها ، وذلك من أجل إلقاء مزيدا من الضوء على سكان الجزيرة العربية ومعرفة المجهول من تاريخها وآثارها وحضارتها .

جمال زكريا قاسم

دوتى وكتاب

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

اسمه تشارلز مونتاجو دوتى **Charles Montagu Doughty** ، وهو جيولوجى وشاعر إنجليزى أمضى قرابة العامين فى شمال الجزيرة العربية .

وفى العام ١٨٨٨ الميلادى ، أى بعد ثلاثة وعشرين عامًا من صدور كتاب بالجريف عن وسط الجزيرة العربية وشرقها ، صدرت أول طبعة من كتاب 'ترحال فى صحراء الجزيرة العربية' فى جزئين ويروى «الأحداث العفوية التى وقعت لى : وأنا فى هذين الجزئين من الكتاب لم أدون سوى الأحداث التى رأيتها بعينى ، وسمعتها بأذنى ، وأعتملت فى داخلى ، ولم أزد على ذلك أو أنقص منه شيئًا »[١] ومن بعد دوتى **Doughty** جاء كل من ولفريد بلنت **Wilfrid Blunt** ثم السيدة جرترود بل **Gertrude Bell** اللذان أكدا منظر الصحراء الذى رسمه الإنجليز وعلى رأسهم دوتى . ومن بعد هذين الإثنين جاء فيلبى ليؤكد الحقيقة نفسها ويضيف إليها جديدًا فى ظل ظروف جديدة . ترى ما سر هذا الزخم الإنجليزى فى الاهتمام بشبه الجزيرة العربية ؟

هل هذا راجع إلى رأى بعض الباحثين الذى مفاده أن شبه الجزيرة العربية الشاسع هو والقسم الأكبر من أراضيه القاحلة الخراب ، هو مهد حضارة ما قبل التاريخ ؟ أم لأن حشودًا كبيرة وعديدة من البشر ، نشأت وتربت فى شبه الجزيرة ، وبخاصة فى الجزء الخراب منها ، ثم انتشرت ، بعد أن تحولت فى عصور سابقة إلى شعوب سامية قوية وواسعة الانتشار ؟ أصحاب هذا الرأى يرون أن تلك الشعوب تركت

(١) تصدير الطبعة الثالثة .

منذ بداية التاريخ بصمة أزلية على القارات الثلاثة التى كانت تشكل العالم القديم ؛ وهم يرون أيضا أن تلك البصمة تركزت بصفة خاصة على الإحساس الدينى فى ذلك القسم الرئيسى من الجنس البشرى . (١)

هل هذا الزخم يرجع أيضًا إلى وجود بعض الأدلة على أن البشر عاشوا فى شبه الجزيرة العربية ، منذ بداية الكون ؟ وبخاصة أن تلك الأدلة تتمثل فى صوَّان العصر الحجرى القديم ، الذى وضعت له أيدى البشر حدًا حاميًا (وهذا من مكتشفات دوتى) ، وبخاصة فى الصوَّان الذى تم العثور عليه ضمن حصى أو زلط الصوَّان ، فى قرية معان بمنطقة إيدوم . Edom (*)

وفى ظل كل هذه المعطيات كتب دوتى كتابه 'النادر' الذى يعد من 'الروائع' إذ فيه 'كل الجديد عن الجزيرة العربية . ترى كيف تحققت لذلك الكتاب هذه القدرة وتلك الروعة ؟ الإجابة عن هذا التساؤل تشدنا إلى الوقوف على الركائز الرئيسية لهذا العمل الفذ والتى تتمثل فى شخص دوتى نفسه الذى يمكننا التعرف عليه من خلال سيرته ، وفى إعداده لنفسه ، والاستعداد للقيام بالرحلة التي جمع خلالها مادة الكتاب ، ثم فى نص الكتاب نفسه الذى يعد فريداً بكل المقاييس . من هنا يتعين علينا تناول كل جانب من هذه الجوانب استجلاء لحقيقة هذا المؤلف 'الفريد' 'الرائع' .

دوتى : الصبًا والشباب (١٨٤٣ - ١٩٢٦)

ولد صاحب هذه السيرة فى اليوم التاسع عشر من شهر أغسطس من العام ١٨٤٣ الميلادى ، وهو الابن الثانى للأب الورع الموقر تشارلز مونتاجو دوتى Charles Montagu Doughty، أحد أثرياء ذيبرتون Theberton فى مقاطعة سفولك Suffolk . تزوج تشارلز من فريدريكا بومونت Beaumont إحدى نبيلات شرقى

(١) تصدير الطبعة الثالثة .

(*) إيدوم Edom ويصح فيه أيضًا Idumaea ، وهى منطقة فى جنوب فلسطين تقع فيما بين البحر الميت وخليج العقبة .

يوركشير Yorkshire، إذ كان والدها هو الأب المحترم والموقر فردريك هوثام Hotham كاهن كنيسة دينجتون Dennington ، فى منطقة فارملنجهام Farmling ham، كما كان كاهنًا أيضًا لكتدارئية روشستر وولدا من أبناء البارون الثانى هوثام .

من هنا يكون دوتى قد انحدر عن الأشراف ملاّك الأراضى الواسعة ، سواء من ناحية والده أو أمه . والمعروف أن جورج دوتى ، سلفه المباشر ، أو إن شئت فقل جده المباشر ، الذى كان أول من هاجر من أفراد تلك السلالة النسبية إلى مقاطعة سفولك ، قدمه ابن عمه ، فى العام ١٦٩٩ الميلادى ، ولأول مرة ، ليكون كاهنا لأبرشية سفولك . ابن العم هذا ، واسمه جون جودوين مارتلشام هول Martelsham Goodain انحدر هو أيضًا عن أسرة عريقه من أسر لنكولن شاير Lincolinshire، التى حافظت على المعتقدات القديمة وتمسكت بها . ولا يزال اسم هذه الأسرة ذائعا بين كل طبقات المجتمع فى تلك المقاطعة . كان صمويل Samuel ولد جورج الجد ووارثه صاحب ممتلكات فى سبعة أبرشيات ، كما كان يعيش فى نيوبورن هول Newbourn ، بالقرب من منطقة كسجريف Kesgrave ؛ صمويل هذا كان له ولد يدعى جورج ، استطاع أن يحصل للأسرة ، عن طريق الكهانة ، على حق الحصول على نصيب من أوقاف الكنيسة ، وذلك عن طريق زواجه من واحدة من بنات جودوين Goodwin من ناحية ، ووفاة ورثته من الناحية الأخرى ، ثم اشترى بعد ذلك ضيعة ذيبرتون Theberton وبنى عليها منزلا منيفا وبهوًا كبيرًا . وأضاف من جاءوا بعد جورج المزيد من الأراضى إلى تلك الضيعة عن طريق الزواج من وارثة "إيزكيل ريفت" من مقاطعة آى Eye . وبذلك يكون الأب الموقر تشارلز ، بعد أن نقل إلى أبنائه هذه المواريث من الأطيان ، قد أضافها ، كما سبق أن رأينا ، إلى أطيان واحدة من الأسر العريقة المحترمة الأخرى ، وهى أسرة بيت هوثام Hotham التى أنجبت سلسلة من الأساقفة ، ورجال الحاشية الملكية ، والمحاربين والسفراء كما استطاعت خلال قرنين من الزمان إنجاب ست من أمراء البحار ، وثلاثة من ضباط الأركان ، وأسقفا واحدًا ، وقاضيًا وحاكما لواحدة من المستعمرات . قلة قليلة من الأطفال – من غير أطفال الأب الموقر تشارلز – هم الذين يولدون فى ظل مثل هذه الظروف الأرستقراطية والمحافظة ، أو ينشأون فى جو لا يعرف سوى الولاء المطلق والوطنية المطلقة اللذان يشكلان عندهم أمرا مسلما به ولا يقبل الجدل أو النقاش .

من هنا تصبح مسألة أن يكون واحداً من آل دوتى ثريا من أثرياء الريف ، أمرا طبيعيا إذ إن ذلك من تقاليد الأسرة ومن موروثاتها . كان من بين الخمسة الذين توارثوا ضيعة سفولك ، ثلاثة من كهان الكنائس . كان لأحدهم معاشان يحصل عليهما من أوقاف كنيسة هوكسون Hoxne ومارتلشام ، والمسافة بينهما طويلة جدا ؛ ومع ذلك ، لم يكن ذلك الكاهن يعيش فى أواخر أيامه ، فى أى من هاتين الكنيستين . الثانى من هؤلاء الثلاثة لم يحصل على نصيب من وقف الكنيسة . وإذا كان هذا الشخص الثانى قد احتاط لرأى الكنيسة وتعالى عليه فى القرن الثامن ، فيما يتعلق بالأبناء الصغار ، فذلك يعنى أن مفهوم أسرة دوتى عن المنصب الدينى فى ذلك الوقت كان منطقياً أكثر منه روحيا . وحوليات دوتى تكشف عن قلة اهتمام الأسلاف بالآداب أو العلوم . ويبدو أن جورج المارتلشامى كان شديد الولع بالقراءة ، أما جورج الثانى فكان مولعا بالآثار . وولد جورج الثانى ، ألا وهو الأب الوقور تشارلز ، الذى قام بالرحلة العظيمة فى ذلك الوقت ، قدم دليلا عمليا على اهتمام كبير بالفن ، إذ كلف بعض العمال الإيطاليين بتجهيز غرفة الرسم فى بيته فى ذيبرتون Theberton قبل مجيئ عروسه ، ثم أضاف بعد ذلك جناحا إيطاليا إلى ذلك المنزل المنيف .

إلى هذه التقاليد الدوتيه الخاصة بتدبير أمور بيوت أثرياء الريف ، والتى يتفاخر أصحابها بعرقهم وبطبقتهم ، والتى تقوم على المساواة بين الولاء والوطنية من ناحية مع قبول النظام القائم من الناحية الأخرى ، والتى تأخذ كلا من التدين والالتزام الأخلاقى أمرين مسلم بهما ، إلى كل هذه التقاليد أضافت فريدريكا هوثام تقاليد عائلتها التى تقوم على المغامرة ، وبخاصة المغامرة البحرية ؛ ولكن التأثير الكبير الذى كان له وقع كبير على طفولة ولديها ، كان يتمثل فى تحمس أفراد عائلة هوثام للعمل فى سلاح البحرية .

كان يبدو على ولد فردريكا الثانى ، أو إن شئت فقل : تشارلز مونتاجو دوتى صاحب كتاب ترحال فى صحراء الجزيرة العربية ، إنه لا يحتمل له الإقدام على أية مغامرة فى هذا العالم ، إذ قال ذلك الولد عن نفسه : "كنت من الناحية الشكلية تماما

أبدو طفلا يحتضر" ، [1] "الأمر الذى دفع والدى إلى تعميدى على وجه السرعة" . ومن خلال عملية التعميد ، حصل هذا الابن على اسم والده ، تشارلز Charles – ومونتاجو Montagu، لم يكن الاسم الثانى كما أصر دوتى فيما بعد ، لقبا للعائلة . وبالرغم من ذلك ، لم يعجل الموت باختطافه بعد ذلك بأشهر قليلة ، وإنما اختطف أمه . وبعد ست سنوات مات والده أيضا ، وهنا انتقلت العناية بالولدين إلى أحد أعمامهما وهو فردريك جودوين دوتى صاحب ضيعة مارتلشام Martlesham هول Hall . على كل حال ، كان تشارلز الصغير قد جرى تحصينه فعلا تحصينا تاما بالتقاليد والموروثات الهثامية ، والأرجح أن ذلك كان عن طريق خالته التى كانت قد تولت الإشراف على تعليمه المدرسى ، يضاف إلى ذلك أن عقله الطفولى كان متركزًا على البحرية . ومن باب إعداد الطفل لذلك المستقبل ، أدخل أصغر هذين الطفلين اليتيمين ، عندما بلغ سن السابعة ، إحدى المدارس فى مدينة ليلهام Laleham فى منطقة نهر التيمز ، ثم نقل بعد ذلك إلى مدرسة السترى Elstree . ونحن لا نعرف الكثير عن تلك الفترة من حياة ذلك الطفل ، بل إننا لا نعرف حتى تاريخ انتقاله من هذه المدرسة إلى تلك . يضاف إلى ذلك أن ذكرياته اللاحقة عن المدرسة لم تكن ذكريات سعيدة ، ونظرا لأن تشارلز كان خجولا ومفرطا فى نموه فلم يكن بينه وبين الأطفال أو إن شئت فقل : الصبية الآخرين أى شبه على الإطلاق ، اللهم باستثناء أنه كان مقاتلا شديد البأس عندما كانوا يستثيرونه عن قصد . وفى واحدة من هاتين المدرستين ، أصيب بضربة من ضربات كرة الكركيت أدت إلى شرخ فى عظام الفك خلف أثرا بقى على وجهه مدى الحياة . أخيرا ، وقبل حلول العام ١٨٥٦ الميلادى جرى إلحاقه بإحدى المدارس البحرية اسمها بيتش Beach هاوس House، "ثوث سى" Southsea، ليكون على أهبة الاستعداد ، ولكنه عندما تقدم للامتحان فى ذلك العام ، رسب فى الاختبار الطبى ، بسبب إعاقة طفيفة فى الكلام اعتبروها عقبة كبيرة . وبقى طوال حياته بذلك الإحباط الذى لم يغب عن باله لحظة واحدة . هذا السلاح الذى التحق به شقيقه والذى سد باب الترقية فى وجهه فى مرحلة مبكرة من حياته ، هو الذى جعل تشارلز يتخيل أنه هو القادر على إشباع روح البطولة

(١) رسالة إلى إس . سى . كوكيرل ، ١٩ أغسطس ، ١٩٢٣ .

في داخله . كتب شارلز، عندما كان هوثام ، ابن خاله ومعاصره على وشك الترقية إلى رتبة أعلى ، يقول : 'لقد نُشِّئت على أمل الالتحاق بالبحرية ، طبقا لتقاليد وموروثات أسرة أمى (آل – هوثام) [(١)] ، وكان مفروضا أن تكون حياتى العملية فى البحرية ، لولا إخفاقى فى الاختبار الطبى ، برغم أنى لست من القوة بحيث أستطيع تحمل العمل فى ذلك السلاح [(٢)] . كان هدفى فى الحياة منذ ذلك اليوم ، بوصفى شخصا خاصا ، هو خدمة بلدى حسب قدراتى وإمكاناتى' . كما كتب تشارلز فى العام ١٩٢٢ عن رغبة كانت تراوده فى الحصول على لقب من ألقاب الحرب مثل لقب 'القائد المؤقت' ، الذى كان يستهويه ويمسك عليه فؤاده . [(٣)]

بقى تشارلز طوال العام الثانى فى مدرسة بيتش هاوس البحرية ، فى الوقت الذى أكد فيه ناظر المدرسة لخالته السيدة هوثام فى اليوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر 'أنه كان أفضل صبى التقيناه إلى الآن' ؛ ولكن الواضح أن تشارلز جرى سحبه على الفور ، وإيكال أمره إلى مدرس خصوصى ، أمضى معه شيئًا من الوقت فى فرنسا . [(٤)] وبعد خيبة أمله الرئيسى بدأ يركز على أمل ثانوى أو إن شئت فقل : فرعى ، كان قد راوده أثناء تجواله وحيدا وهو يمضغ أفكاره فى الأيام الخوالى ، التى كان قد أمضاها مع عمه فى ضيعة مارتلشام هول أو فى مزرعة السيد نيوسن Newson فى منطقة ضيعة ذيبرتون : Theberton فقد كرس تشارلز كل اهتمامه لدراسة التركيب الطباشيرى فى مقاطعة سفولك ، الأمر الذى أسفر عن استعداده وجاهزيته برسالة لتقديمها إلى الجمعية البريطانية فى جامعة كمبردج فى العام ١٨٦٢ الميلادى ، وكان موضوع تلك الرسالة الأدوات الصوانية التى جرى الحصول عليها من هكسون Hoxone . [(٥)]

(١) رسالة إلى الدكتور سكوت كلتى بتاريخ ٢٢ مايو عام ١٩١٢ .

(٢) رسالة إلى إى . جارنيت بتاريخ ١٥ يونيو ١٩٢٢ .

(٣) رسالة إلى دى . جى . هوجارث ، بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩١٩ .

(٤) معلومات جرى الحصول عليها من سى . أم . دوتى .

(٥) الجمعية البريطانية ، التقرير الثانى والثلاثين ، ص ٧٢ .

كتب تشارلز بعد ذلك لأحد المراسلين العلميين يقول : "لقد اشتغلت فترة طويلة باستعمال الميكروسكوب ، وكان كل ذلك العمل ينصب على بلاد طباشيريه ، أو إن شئت فقل : من العصر الطباشيرى . [1]

فى الوقت ذاته وافق راعى تشارلز على التحاقه بكلية كايوس Caius، التى درس فيها كل من جده ووالده ، وفى شهر أكتوبر من العام ١٨٦١ الميلادى استقر مقامه فى كمبردج . ومن بين الذين التحقوا بالكلية السيد هـ . ت . فرانسس Francis، الذى عين مساعداً لأمين المكتبة فيما بعد ، والذى استعاد ذكرياته عن دوتى عندما التحق بالجامعة فقال :

" كان دوتى خجولا ، يوم أن كان طالبا ، كما كان عصبيا ومؤدبا جداً . لم يكن دوتى يعرف المرح إطلاقا ، وأنا لا أذكر أنه كانت لديه حاسة أو ذوق أدبى أو أية ميول من أى نوع كان . درس معى الأعمال الكلاسيكية . لم يكن يعرف سوى القليل جداً من اللغة اليونانية القديمة . وعندما نضج كان قد كرس كل اهتمامه للعلوم الطبيعية بشكل عام . يضاف إلى ذلك أنه جمع مجموعة كبيرة من حفريات سفولك ، كما كان ميالا للعراك فى صف الدراسات العلمية الجديدة ولصالحها . لم يكن تشارلز يميل كثيرا لحضور المحاضرات . وأنا كنت على وفاق معه ، مما جعله يقنعنى بالانضمام إليه فى القيام ببعض من تلك الرحلات الجيولوجية ، التى كان منها على سبيل المثال الرحلة التى قمنا بها لدراسة وفحص صلصال كيمردج Kimmeridge فى مدينة إيلى Ely، كما قمنا أيضا بزيارة بعض حفر الزلط فى بارنويل Barnwell، التى أصبت فيها بنوبة برد حادة . " [2]

(١) ر . كيركباترك Kirkpatic ، من موظفى المتحف البريطانى . وهذه الرسالة بدون تاريخ ويحتمل أن يكون تاريخها فى العام ١٩١٢ .

(٢) رسالة مملاه على إس . س كوكريل فى كلية كايوس ، بتاريخ الثالث من أغسطس ١٩٢٢ .

هذا هو الأستاذ الدكتور جى . برادبيرى Bradbury، الذى كان زميلا له يوم أن كان طالبا فى كلية كايوس Caius، ولكنه كان أحدث منه بعام فى الجامعة ، يذكر برادبيرى [1] أن دوتى ، فى شهر أكتوبر من العام ١٨٦٢ الميلادى ، كان يعيش فى ضيعة هول فى طابق يطل على ترينتى لين Lane Trinity . كان دوتى يحضر المحاضرات التى كان برادبيرى يحضرها ، ونظرا لأن أى منهما كان لا يعرف التجديف أو يمارس الرياضة ، فقد تعودا على المشى سويا ، إذ كان دوتى يتحدث عن الجولوجيا ويقود صاحبه إلى حفر الطباشير بالقرب من شيرى هنتون .

لم يكن دوتى راضيا أبداً عن كليته . يروى عنه هـ . ت . فرانسس ، أن شخصا يدعى ديكسون Dickson، اعتاد ، بعد أن نزح عن سيدنى سوزيكس Sussex Sidney، التردد على سكنى كى أعطيه درسا خصوصيا ، وبعد مدة أعلن فجأة أنه لن يحضر لأخذ الدرس الخصوصى . قلت : "حسن ، ولكن ما الذى ستفعله ؟" وبعد شىء من التردد رد على قائلا : "الواقع أن صديقى دوتى يقول لى أنك تشغل من يجيئ إليك بالقواعد والنحو والأشياء التى من هذا القبيل ، وأنه من السهولة بمكان حفظ كل هذه الأشياء عن ظهر قلب" . وجاء ردى عليه : "إذن فالأفضل أن نفترق ، لأنى لا أستطيع تدريس اللغة اللاتينية أو اللغة الإغريقية فى ظل مثل هذه الشروط" . وفى السنوات التى تلت ذلك وعندما كان دوتى فى كمبردج أثناء ترحاله ، تذكرت ذلك الحادث ذات يوم ، وقلت لدوتى : "أنت تعلم يا دوتى ، أنك بذلت قصارى جهدك للتقليل من شأن السمعة التى كانت لى عندما كنت طالبا" . ولم يدرك دوتى أن ذلك كان يقال على سبيل التفكه والمزاح ، وبالتالى رد عليه بعصبية شديدة قائلا : "لماذا ، وما الذى قلته أو فعلته أنا فى ذلك ؟"

أنهى دوتى المرحلة الأولى من دراسته الجامعية فى العام ١٨٦٣ الميلادى ، وبالتالى أصبح له الحرية فى أن يراعى ميوله ، ولكن هذه الحرية لم تكن تعنى أن دوتى من حقه التركيز على دراسة شىء بعينه وإهمال بقية الأشياء . ونظرا لأن حبه الأول

(١) مذكره مقدمة إلى إس . س كوكريل من الأستاذ الدكتور برادبيرى (المولود فى ١٨٤١) . أنا مدين دينا كبيراً للسيد كوكريل للجهد الكبير الذى بذله فى إنقاذ هذه الذكريات البعيدة من ذكريات جامعة كمبردج .

كان هو الجولوجيا ، فقد كانت تراوده رغبة قوية فى مواصلة دراسته لها ولكن بطريقته الخاصة وفى الوقت الذى يحدده هو . ولكن سلطات كلية كايوس أصرت على مواظبه حضور دوتى المحاضرات من ناحية والمداومة على التردد على كنيسة الكلية من الناحية الأخرى ، ونظراً لأن تأثير نفوذ سيميون الدينى كان ما يزال سائدا فى جامعة كمبردج ، فقد بذل كل ما فى وسعه من أجل الحيلولة بين طلبه الكلية وبين دراسة الجولوجيا . ونظرا لأن امتحان بكالوريوس الشرف فى العلوم الطبيعية كان تقليدا جديدا فى الجامعة [1] ، ونظراً أيضا لحساسيه دوتى للأجواء غير المواتية ، ونظرا أيضا لقلة الأمل المرتقب فى أن يعمل هو بالطريقة التى يريدها ، نظرا لكل ذلك ، قرر دوتى هو وثلاثة آخرون من رفاقه فى كلية كايوس ، السير على الخط نفسه الذى سار عليه برادبيرى ، عندما حصل فى أوائل العام ١٨٦٣ على منحة دراسية ، حتمت عليه النزوح فى شهر أكتوبر من العام ١٨٦٣ إلى إحدى الكليات التى لا تُجْبِر الطلبة على حضور المحاضرات أو التردد على كنيسة الكلية . وفى اليوم الثامن من شهر أكتوبر من العام ١٨٦٣ ، حصل دوتى على منحة من الجهة نفسها ، نظرا لأنه كان قد حضر اجتماع الجمعية البريطانية لتقدم العلوم فى نيوكاسل فى شهر سبتمبر من العام ١٨٦٣ . فى ذلك العام بالضبط حصل دوتى على عضوية الجمعية البريطانية مدى الحياة وكما سبق أن قلنا ، كان دوتى قد تقدم برسالة جيولوجية إلى الجمعية البريطانية لتقدم العلوم . ويبدو أنه حصل على إعفاء من إقامته داخل كليته الجديدة ، والسبب فى ذلك هو تأجيل امتحان بكالوريوس الشرف إلى شهر ديسمبر من العام ١٨٦٥ ، وبالتالى شغل نفسه قبل نهاية ذلك العام بدراسة الأنهار الجليديه والتَّجلُّد فى النرويج . [2] وفى النرويج أقام دوتى فى مزارع ومنازل القائمين على أمر التزلج على الجليد ، كما شارك مضيفيه فى رحلات الصيد الطويلة التى كانوا يقومون بها ، وكان ينام فى أكواخ طويلة على الجبال . هذه الحقول الاسكندنافيه تزاحمت على ذاكرة دوتى عندما كان فى الجزيرة العربية بالقرب من بلاد تقع فى الجزء الأخير من الطريق الذى يربط بين القصيم ومكه . وفى

(١) معلومات من الدكتور ف . هـ . هـ . جيلمارد Guillmard الذى تخرج فى كلية كايوس فى العام ١٨٧٠ الميلادى .

(٢) راجع الرسالة المرسلة إلى دى . جى هوجارث التى جرى الاقتباس عنها من قبل .

شهرى يوليو وأغسطس من العام التالى ، وبناء على ما تقدم به للجمعية البريطانية فى الاجتماع الذى عقدته فى باث Bath فى العام ١٨٦٤ (١) كان دوتى يقيس باستعمال التيودوليت الأنهار الجليدية الرئيسية الموجودة فى الواجهة الجنوبية من منطقة جو ستيدال براى Brae Jostedals . يزداد على ذلك أن دوتى تمكن أيضًا من عبور جبل نيجارد Niggard الجليدى لمسافة ثلاثه أميال ، مستعينًا فى ذلك بأحد المرشدين ، وعصا حديدية مدببة ، وباستخدام قطعة من الحبال وبعض الأسياخ الحديدية المدببة . وبعد عبور الجبل إلى المسافة المذكورة تحول دوتى ناحية الشمال بعد ذلك ليشاهد جبلين جليديين كبيرين قال عنهما أنهما 'لم يشاهدهما الرحالة مطلقًا .... والمناخ قطبى فى هذه المنطقة التى شاهدنا فيها البحيرة يغطيها الثلج فى منتصف شهر أغسطس ، شاهدناها وكان الجليد ما يزال كثيفا على نحو يتحمل مرور حيوان الرِّنَّة من فوقه ، وبخاصة بعد أن أزعجناه . ونمنا أسفل حجر من الأحجار فى وقت كان الجو فيه متجمدا فى الخارج .

قبل ذلك ، لابد أن يكون دوتى قد أمضى شيئا من الوقت فى كريستيانيا Christiania، التى يدين بالشكر لأثنين من أساتذتها على المساعدة التى قدماها له فى الرحلة التى قام بها إلى "جو ستيدال برى" فى النرويج . وهذا هو السير إيدوين راى لانكستر Ray ، الذى انتقل ، فى شهر أكتوبر من العام ١٨٦٤ الميلادى إلى مدينة دوانتج - Downing "هذا مكان منظم وفريد البناء ، وغرفة جيدة وواسعة" فوجد دوتى Doughty مقيما فى مجموعة غرف مقابلة للغرف التى يقيم هو فيها ، واكتشف السير إيدوين أن دوتى شخصية "خجولة وهادئه إلى حد ما ، ولكنه كان كريما جدًا ومستعدا لمساعدتى " . كان دوتى ، فى ذلك الوقت ، يقرأ هربرت سبنسر Spenser Herbert كما كان ينفق الوقت والمال فى التنقيب فى هوكسون Hoxone بحثا عن الأدوات المصنوعة من الصوَّان – فى نفس المنطقة التى سبق اكتشافها بواسطة فرير .... Frere لم يكن دوتى

(١) محضر الجمعية البريطانية فى العام ١٨٦٦ . التقرير الرابع والثلاثين . ص ١٤٣ ، والذى نشر على شكل كتيب كامل بواسطة إدوارد ستانفورد ١٨٦٦ ، تحت عنوان عن الأنهار الجليدية فى النرويج ، مع بعض الملاحظات العامة ، ولوحة ، بقلم جورج مونتاجو دوتى . درجة البكالوريوس .

يشارك فى الأنشطة التى من قبيل التجديف وإنما كان يقرأ بنهم فى الجولوجيا وفى الفلسفة . [١]

ومن الواضح أن دوتى كان يحيا حياة منكفئا فيها على نفسه ومعزولا عن الآخرين . وهذا يدل على إنه كان صاحب عقلية جادة وذهن حاد ، وسلوك جاد أيضا ، هذا يعنى أيضا أن دوتى عقد العزم على تكريس نفسه لبلده ولعرقه . وهناك رسالة أرسلها إليه الأب الموقر هنرى هاردنجى Hardinge، كاهن كنيسة ذبيرتون يشير فيها إلى "الأبحاث والطموح النبيل المتعلق بهذه الأرض" ، ويقر فيها تعالى دوتى "وتساميه على مباهج هذه الدنيا واحتلال مكانة بين العظماء الذين عاشوا من أجل زينة هذه الأرض ومن أجل العظمة الإلهية الحقيقية" .

وفى شهر ديسمبر من العام ١٨٦٥ الميلادى ، تقدم دوتى لامتحان بكالوريوس الشرف ، وحصل على المرتبة الثانية فى فصل ثان قصير . وكان من بين الممتحنين تى . جى . بونى Bonney ، الذى طال عمره إلى أن أصبح أستاذا للجولوجيا وهو فى العقد العاشر من عمره فى جامعة لندن ، بل إن هذا الرجل ، وهو فى ريعان شبابه ، كان مدرسا لمادة الجولوجيا فى جامعة كمبردج تحت رئاسة آدم سدجويك Sedg- Adam wick . ولربما كانت لبونى علاقات تدريسية وتعليمية أيضا مع دوتى . على كل حال ، قال الأستاذ الدكتور بونى ، بعد ذلك ، بحوالىَ نصف قرن [٢] ، "أذكر أن دوتى عندما كان طالبا ، فقد امتحنته للحصول على درجة بكالريوس الشرف ، وندمت جداً لأنى لم أعطه المرتبه الأولى ، نظرا لتشوشه الذهنى . وأنت إذا ما سألته عن ياقة الروب الجامعى الذى يرتديه ، تراه يضع الروب كاملا عند قدميك" .

هذا يعنى أن دوتى كان يصر على قول الحقيقة ولا شيء سواها ، أو إن شئت فقل : الحقيقة كاملة .

(١) رسالة إلى إس .س . كوكيرل ، بتاريخ ٢٥ مارس ، ١٩٢٦ الميلادى .

(٢) ورد هذا الكلام ، ضمن حوار دار مع اس . س . كوكيرل فى اليوم الثامن من شهر فبراير من العام ١٩٢١ الميلادى .

وفى العام التالى ، وبعد أن استعاد دوتى تسجيل اسمه فى سجلات كلية كايوس Caius، جرى تخرجه فى العام نفسه . ثم شطب اسمه ثانية من جامعة كمبردج ، على ما يبدو ، دون أسف أو ندم . لقد استشعر دوتى أن المكان كان غريبا عليه ؛ وربما راوده الإحساس نفسه فى أى جامعة أخرى ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى تمسكه الشديد بولائه لعرقه ولأمته مما جعله يهمل كل ماعدا ذلك .

وفى خريف العام ١٨٦٦ الميلادى نشر دوتى البحث الذى قدمة للجمعية البريطانية لتقدم العلوم والذى كان موضوعه الأنهار الجليدية فى جو ستيدال براى . هذا البحث يكشف عن أسلوب وحس أدبى ليسا مطلوبين من إناس يتقدمون بأبحاث من هذا القبيل ، كما يكشف البحث أيضا عن قدرة عالية على الملاحظة مقترنة بتسوده للصور التعبيرية . فهو يقول ، على سبيل المثال أن نهر نيجارد الجليدى : "يبدو وكأنه ينساب نحو الأسفل على شكل انحناءات جميلة ؛ بالرغم من أن ذلك يرجع فى حقيقة الأمر إلى تأرجح سطح هذا النهر بفعل بعض الفواصل الجبلية المدفونة تحت السطح ، إضافة إلى أن النهر يمر خلال قناة شبه مستقيمة . زد على ذلك ، أن سطح هذا النهر اللامع لا تعكره الأحجار أو الطين ، ولكن كتل الثلج تنهال عليه من القمة الثلجية العامة التى تبدو وكأنها تشكل غطاء رأس للصخور ، والتى تزحف نازلة إلى كل المنخفضات ، لتجعل مياه النهر تتدفق على شكل خيوط جميلة أسفل الصخور" .

ودوتى عندما يعزو قصه دراسته أيام شبابه إلى ما كان يعتبره هو الجمعية الرائدة المعنية بذلك الأمر ، إنما كان يطلب من الجولوجيا إخلاء عرش روحه الوحيد . إذ إنه لم يستطع بفضلها وحدها القيام بعمل بطولى من أجل بلده . وعندما ظهر دوتى بعد ذلك بثلاث سنوات ، أى فى العام ١٨٦٩ الميلادى كان ظهوره فى مكتبة بودليان Bodelian من أجل الدراسة ، لا الجولوجيا أو أى من العلوم الطبيعية ، وإنما لدراسة سلسلة طويلة من الكتب ، فى مجال مطلع الأدب الإنجليزى وفجره الباكر . [(١)] كتب دوتى فى العام ١٩٢٣ الميلادى يقول : أمضيت حوالى ستين عاما فى قراءة تراث كلا

(١) راجع الملحق رقم ١ الخاص بالكتب التى طلبها فى العام ١٨٦٨ والذى تكرمت عليه بها مكتبة بودليان ، عن طريق الدكتور إيه . إى . كاولى .

من شوسر النبيل وهربرت سبنسر Spenser Herbert الحبيب ؛ [1] وفى الإقرار الذى قدمه دوتى فى العام ١٩٠٥ إلى كبار موظفى مطبعة جامعة كمبردج أشار بصفة خاصة إلى العام ١٨٦٥ ، الذى تولدت خلاله ، فى داخل دوتى رغبة فى تأليف كتاب بطولى (يجرى من خلاله معالجة الأصول الرومانية ، والكلتية والجرمانية) . كان الدافع وراء كتابة مثل هذا الكتاب على العكس تماما من دوافع كُتَّاب القرن الثامن عشر فيما يتعلق بحالة الطبيعة . فقد كان من رأى دوتى أنه عندما يبرز الشمائل البسيطة والنبيلة لبدايات أمته ، فسوف يعيد أذهان إخوانه المواطنين إلى وطنية العقلية الواحدة ، التى استشعر أنهم ابتعدوا عنها . وهو ، فى هذا الصدد ، يتعين عليه التحدث إليهم بالشعر ، وحديثه بالشعر يحتم عليه أن يكون ذلك الحديث باللغة الإنجليزية النقية التى كان الناس يتحدثون بها قبل بداية الانحطاط الوطنى - أو إن شئت فقل : تلك الإنجليزية التى استعملها سبنسر فى زمن بدأ بعده الانحطاط . ونحن عندما نبحث فى كل ما كتبه أو ألفه دوتى ، أو من خلال رسائله أو مؤلفاته المنشورة ، عن التنويه إلى شكسبير أو ميلتون أو الإشارة إليهما أو الاقتباس عنهما ، نجد أنفسنا نخرج من ذلك البحث ونحن صفر اليدين . لقد كان شكسبير وميلتون من العصر الفضى ؛ أما سبنسر فكان آخر سفراء العصر الذهبى .

كان دوتى يعلم علم اليقين أن تحقيق ذلك الحلم لابد أن تسبقه سنوات من الدراسة . وهذا لا يتطلب منه مجرد التعمق فى تاريخ العصور الجيولوجية القديمة ، وإنما يتعين عليه تسود مركبته المختارة ، ألا وهى اللغة الإنجليزية القديمة . يضاف إلى ذلك أن صحته لم تساعده ، فضلا عن ضآلة موارده ؛ والسبب فى ذلك أنه خلال الفترة ما بين تركه لجامعة كمبردج فى العام ١٨٦٥ الميلادى ورحيله عن إنجلترا فى العام ١٨٧٠ تكبدت أسرته الكثير من الخسائر بسبب الكساد الذى حدث فى الاستثمارات ؛ واعتبارا من ذلك التاريخ بدأ ولد الأكرمين ، يعانى من الحاجة والعوز . [2]

(١) رسالة إلى د . جى . هوجارث .

(٢) معلومات من حرم تشارلز مونتاجو دوتى .

فى تلك الأثناء يبدو أن دوتى لم تكن لديه خطة محددة اكثر من مجرد دراسة تاريخ اللغات إن تيسر له ذلك . من هنا بدأ عمله فى جامة لندن حينا وفى جامعة أكسفورد حينا آخرا ، إلى أن ظهر أخيرا فى العام ١٨٦٩ الميلادى وسمح له بالإنضمام إلى جمعيه بودليان . وخلال صيف وربيع العام ١٨٦٩ اختفى اسم دوتى من سجلات بودليان ، ولكن اعتبارا من شهر نوفمبر يبدأ اسمه فى الظهور فى تلك السجلات مرة أخرى إلى نهاية شهر يناير من العام ١٨٧٠ . [1] وأثناء دراسته فى بودليان بدأ حبه لكل من أراسموس Erasmus وجوزيف سكاليجر Scaliger Joseph، وتمنى أن يعمل فى المكان الذى عملا فيه [2] ، وهنا قرر السفر إلى هولنده ، ولذلك غادر إنجلترا فى أواخر العام ١٨٧٠ الميلادى .

والذى لا شك فيه أن دوتى كان يتطلع إلى البقاء فى الخارج فترة طويلة من الزمن ، تقدر بعدة سنوات ، وبعد أن قام برحلة إلى هولندا اتجه جنوبًا صوب البحرالأبيض المتوسط . على أمل أن يتسنى له رؤية بلاد كانت شعوبها وحضاراتها عوامل مهمة فى صنع حضارة بلاده ، وربما تسنى له أيضا دراسة تاريخ تلك الشعوب ولغاتها فى ظل ظروف تناسب حالته الصحية من ناحية وإمكانياته المادية من الناحية الأخرى . تعلم دوتى فى هولندا اللغة الهولندية ، ومن بعدها انتقل إلى إيطاليا ومنها إلى إسبانيا ، ثم انتقل بعد ذلك إلى أثينا . وفى شتاء العام ١٨٧٠ الميلادى وصل دوتى إلى بلاد الكتاب المقدس (الإنجيل) ومن تلك الأراضى سافر فى فصل الشتاء على ظهر دابة إلى القاهرة ومنها إلى شبه جزيرة سيناء التى أمضى فيها ثلاثة أشهر ، ثم سافر مرة ثانية على ظهر دابة إلى قرية معان التى سمع فيها عن مدائن صالح .

ترى ، ما هى المدة التى يحتمل أن يكون دوتى قد أمضاها فى مصر ؟ هذا أمر لا يمكن تأكيده أو القطع به ، وأقصى ما يمكن قوله أنه ربما وصل إلى الإسكندرية ،

(١) لم أنجح فى اكتشاف أى شيئ أكثر من ذلك عن حياة دوتى فى أكسفورد . كانت حياته بلا أدنى شك حياة عزلة ووحدة .

(٢) راجع الصفحة التالية . العبارة الواردة أعلاه مبنية على الحديث الذى دار مع دوتى (فى الفترة ما بين ١٩١٠ و ١٩١٩) .

كانت أول زيارة لدوتى إلى مصر فى العام ١٨٧٤ الميلادية ، وهو يتحدث فى أوراقه عن خبرة مر بها على الطريق المتجه من السويس إلى الدير اليونانى فى العام ١٨٧٤ . لو كانت هذه الزيارة قد حدثت مع بداية تجواله فى شبه جزيرة سيناء ، فذلك يعنى أن مقامه فى مصر كان قصيرا جدًا . وهو يقول إنه أمضى ثلاثة أشهر فى سيناء .

استعداد دوتى للقيام برحلته ضمن قافلة الحج

على طريق الاستعداد للقيام برحلته فى الجزيرة العربية ارتدى دوتى ثياب عربى مسيحى من دمشق ، وخالط دوتى ، طوال سته أشهر بدو الصحراء حتى يتمرس على تقاليدهم ولغتهم وعاداتهم ، ويعود نفسه على تلك الحياة . واستهدافا منه لتحسين لغته العربية استقر دوتى فى دمشق ، وارتدى ثياب العربى المسيحى فى تلك المدينة ، واستأجر شخصا مسيحيا يدعى عبدو كحيل Kahil A bdu لكى يدرس له اللغة العربية ، طمعا فى تحسينها ، وأسر دوتى إلى ذلك الكحيل بأنه ينوى الدخول إلى الجزيرة العربية والبقاء فيها مدة ثلاث سنوات ، كما أسر له أيضا أنه ينوى بعد ذلك مواصلة سفره إلى الهند ، *أملا فى أن يقيم فى النهاية فى إيطاليا* ، *على أن يقوم بزيارة دمشق مرة أخرى بعد عشر سنوات* .

على صعيد إقامة دوتى فى منطقة الاستعداد للرحلة استأجر دوتى لنفسه من شخص لبنانى ، اسمه ميخائيل زرزور غرفة فى الطابق العلوى من منزله ، الذى كان يقع بالقرب من الكاتدرائية الأرثوذكسية اليونانية . كان دوتى يهدف من وراء اختيار ذلك السكن إلى تحاشى الناطقين باللغات الأوروبية اللهم باستثناء القنصلية البريطانية هى والبنك العثمانى . وشغل دوتى نفسه بالعمل اليوم بطوله فيما عدا ساعتين فقط من بداية فترة العصر ، قال مدرسه إنه كان ينفقهما فى المشى نظرا لأن هذا النوع من الرياضة البدنية يكون أفيد بكثير عنه فى ساعات الفجر أو الغسق كما يعتقد أهل الشرق . كان دوتى يجلس مع مدرسه مدة ساعة واحدة فى وقت الظهيرة ، وكان يضع ساعته على الطاولة أمامه حرصا منه على عدم ضياع ولو دقيقة واحدة فيما لا يفيده أو يعود عليه بالمنفعه ، وكان كثير السؤال عن الاشتقاقات والمعانى الأصلية للكلمات .

وعلى امتداد ذلك النظام الذى استمر ثمانية أشهر ، استطاع دوتى ، كما يقول مدرسه ، تحصيل الكثير بل والكثير جداً من مفردات ومكونات المحادثة العربية ، وذلك على نحو أسرع من أى طالب من الطلاب الأوربيين الذين سبق لذلك المدرس التعامل معهم ، لإكسابهم مهارة المحادثة العربية . فى حين كان دوتى يقلل منه أهمية مسألة سرعة اكتساب وتسوده للمحادثة العربية ، وهو يقول فى هذا الصدد : "أنا لم أستطع تحدث لغتهم الصعبة بلا لحن أو أخطاء" . عزف دوتى خلال فترة تعلمه هذه عن استقبال زواره ، كما قلل أيضا عدد أصدقائه إلى أن تمكن تماما من تسود اللهجة المحلية . وكان من بين أصدقاء دوتى فى تلك الفترة شخص يدعى ديب Dib الحاج نيقولا ، وهو من باعة الكتب ، وزوج أخت صاحب المنزل الذى استأجر دوتى فيه غرفة فى الدور العلوى . وفى مرحلة لاحقة راح دوتى يخالط المسلمين أكثر وأكثر وتعرف على كثير من الشخصيات البارزة من أمثال الأمير عبد القادر الجزائرى . وكتاب دوتى 'ترحال فى صحراء الجزيرة العربية' فيه الكثير من الإشارات المهمة إلى الحياة فى دمشق ، والتى تجعل القارئ يتخيله وهو يسير فى ميدان 'الجامع الكبير' أو 'خلال القُوطات' على امتداد نهر بردى ، أو وهو يسير مع هذا أو ذاك من معارفه . وبذلك تمكن دوتى من الالتقاء بشخص عرض عليه أن يأخذه لا إلى مدائن صالح وإنما إلى المدينة (المنورة) ومكة . (*)

ذاع صيت دوتى ، تحت اسم خليل ، الذى طلب إلى بائع الأختام أن يحفر له ذلك الاسم على ختم حتى يتسنى له استعماله فى الجزيرة العربية . وقد اختار دوتى ذلك الاسم لأنه معروف فى الأديان كلها التى يعد سيدنا إبراهيم أبا لها ، إضافة إلى أن ذلك الاسم لا يشيع إطلاقه على أطفال المسلمين . وعندما سئل لماذا لم يختار اسما مثل حسن ، أو أى اسم آخر من الأسماء الإسلامية المميزة الأخرى ، أجاب أنه لم يكن يود التظاهر أو الكذب بأنه من المؤمنين . Believer

مع دخول صيف العام ١٨٧٦ الميلادى ، توصل دوتى مع ديب بائع الكتب هو وبعض أقاربه ، إلى بعض الترتيبات الخاصة بإقامته طوال شهور الصيف الحار فى

(*) ترحال فى صحراء الجزيرة العربية ، الجزء الثانى ص ٩٣ .

منطقة البكرينة Bakrina بالقرب من الزبدانى Zebedani فى لبنان ، والتى وطن نفسه فيها على المصاعب التى يتوقع أن يلاقيها خلال تجواله فى الصحراء ، بأن راح يمتنع طوال ساعات متواصلة عن الطعام ، وبلا نوم ، معتمدا فى معيشته على مجرد الخبز الجاف ، والزبيب والتمور .

عندما عاد دوتى إلى دمشق كان الحجاج قد بدءوا يتجمعون بالفعل استعدادا للحج . وموسم الحج فى ذلك العام كان سيبدأ قبل اثنا عشر يوما من الموعد المحدد . وهنا عقد دوتى العزم على أن يحاول قدر المستطاع ، أن لا تتركه قافلة الحج وراءها مرة ثانية ، الأمر الذى جعله يستميت فى محاولته اللحاق بالقافلة . حاول دوتى التوسل إلى الوالى ، و لكن الوالى أحال الموضوع إلى القنصل البريطانى . الذى رد عليه بأن مثل هذا العمل لا يدخل فى نطاق اختصاصه . بل إن القنصل البريطانى أكد "إننى إذا ما قمت بعمل خطير من هذا القبيل فإنه لن يوليه أى شيئ من الاهتمام أو الانتباه !" ويتعجب دوتى من جاجو Jago ذلك القنصل البريطانى قائلا : إنه الرجل الذى عرض على فى الماضى أن يقدم لى يد العون فى ترحالى !' وهنا يبدو أن دوتى ركز اهتمامه على محمد سعيد باشا ، أحد معارفه السابقين ، الذى تقرر أن يتولى قيادة قافلة الحج فى ذلك العام ؛ هذا الباشا اقترح على دوتى ، أنه إذا كان يود الذهاب إلى مدائن صالح ، فإن بوسعه أن يذهب إليها برفقة الأورطة ، أو إن شئت فقل : مع القوة العسكرية أو بالأحرى الطابور العسكرى ، الذى يغادر دمشق بعد شهرين من انطلاق قافلة الحج ، ويسرع المسير على أمل مقابلة قافلة الحج فى مدائن صالح عند العودة ، حتى يتسنى إعادة تزويد القافلة بالمؤن والاحتياجات وتغيير الحراس . ولكن مشكلة المشاكل أن تلك الأورطة ، لا تبقى فى مدائن صالح سوى ثلاثة أيام ؛ ولكن دوتى كان يعلم أن تلك المدة لن تكون كافيه لإنجاز العمل المطلوب أو تعويض المتاعب والآلام التى تكبدها .

كان راعى قلعة مدائن صالح الذى سبق أن التقاه دوتى فى دمشق ، قد وعد باستقباله فى القلعة ، إذا ما شاءت له الأقدار أن يصل إلى هناك . ولكن راعى القلعة هذا ، واسمه محمد على المحجوب بلغ من صغر الشأن حداً عز عليه مساعدة النصرانى (دوتى) على الالتحاق بقافلة الحج .

حاولْ بعض أصدقاء دوتى إثنائه عن عزمه تماما ؛ بعض آخر نصحه بأستئجار دابة ، والالتحاق بقافلة الحج ، معتمداً فى ذلك على الخط ، وعادة العثمانيين فى تقبل الأمر الواقع والرضوخ له . وأزف موعد رحيل القافلة ، دون أن يحسم دوتى أمره ؛ بل وصل الأمر إلى حد أن باشا الحج استأنف المسير فى مقدمة القافلة . ولكن فى آخر لحظة ظهر لدوتى مقوِّم (*) فارسى مسكين عرض عليه إركابْ "الفرنجى" وتوصيله إلى مدائن صالح وذلك عن طريق التنكر بين الحجاج الفرس الذين سينضمون إلى قافلة الحج على شكل موكبين قويين ، غير ظاهرين فى مؤخرة القافلة . أصدقاء خليل المسلمون قالوا له : إذهب معهم ؛ وباشا الحج ، لا يمكن أن يخرج أى إنسان من القافلة ، بسبب ديانته ، قبيل الحرم بمسافة قصيرة ؛ والمقصود بكلمة الحرم هنا هو الأراضى المقدسة . وهنا جرى الاتفاق على وجه السرعة مع ذلك المقوم الفارسى على الأجر المطلوب الذى قدر بحوالى ١٠٠٠ قرش ، أى ما يعادل عشرة جنيهات انجليزية . وفى عصر يوم الخميس الموافق لليوم العاشر من شهر نوفمبر من العام ١٨٧٦ الميلادى ، قام جمع صغير من الناس بوداع شخص كان "يرتدى ثياب رجل سورى بسيط الحال" ، وبصحبته بعضا من الخبزْ "والقراقيش" اللازمة للسفر بطريق القوافل ، ويركب بغلا ويخرج من البوابة الجنوبية فى دمشق . وبذلك يكون دوتى قد أحسن التصرف لأن ذلك كان هو الطريق الوحيد والأمثل إلى تحقيق مبتغاه . وكان من العبث من البداية إلى النهاية محاولة العثور على أحد يتحمل مسئولية فرد مسيحى بريطانى وحيد على قافلة الحج . ولو قدر لمجلس الجمعية الجغرافية البريطانية مناقشة قضية دوتى ، ولو قدر لها الاستعانه بوزارة الخارجية ، لكانت قد منيت بالرفض ، بل وربما وصلت إلى السيد جاجو القنصل البريطانى فى دمشق ، برقية عاجلة تطلب إليه فيها وزارة الخارجية إحباط ذلك المشروع وإفشاله ؛ وبالتالى كان يمكن أن يترتب على ذلك مراقبة دوتى ليلا ونهارا فى دمشق ولربما أيضا حيل بين دوتى وبين الخروج بمختلف صوره ، إلى أن تغيب القافلة عن الأنظار على طريق الحج وسط الصحراء . كان أولئك الاصدقاء الذين نصحوه بالمضى فى سبيله معتمدا على الخط وعدم التوسل إلى أى أحدهم الأعرف .

(*) المقوم : واحد من ملاك الإبل (المترجم) .

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

يقع الكتاب فى ١١٠٠ صفحة من القطع الكبير مقسمة إلى جزئين ، ويشتمل الجزء الأول على اثنين وعشرين فصلا بالإضافة إلى ملحق للفصول الرابع والخامس والسادس ، يشتمل على النقوش النبطية التى اكتشفها دوتى فى مدائن صالح ، مترجمة بواسطة م . ارنست رينان Renan Ernest . ومعها بعض الملاحظات بقلم م . فيلبِّى بيرجر Berger Philippe وملاحظات أخرى بقلم الأستاذ جى . دى . لايفنج ، ثم ملاحظة بقلم الأستاذ مكالستر ، وملاحظة بقلم السير هنرى . سى . راولنسون . وآخر ملاحظة بقلم باركلى هيد . Head ويختم دوتى الجزء الأول بملحق عن العمارة النبطية المنحوتة فى مدائن صالح .

تقع فصول الجزء الأول من الكتاب تحت اثنين وعشرين عنوانا : أرض الصوَّان : عمون وموءاب ، جبل إيدوم : صوَّان الجزيرة العربية ، رحلة الحج فى الجزيرة العربية ، مدائن صالح ، مدائن صالح والعلا ، العلا والخريبى والمدائن ، عودة الحج ، حياة العرب الرُحل فى الصحراء ، الحياة فى القرية الجائلة ، البدو الرُحَّل فى الصحراء : زيارة إلى تيماء ، الفُكارة يتجولون هاربين فى ديرة أخرى ، السلام فى الصحراء ، زيارة المدائن مرة ثانية . ممر الحَرة ، التجوال فوق الحرَّة مع الموءاهيب ، حياة البدو الرُحَل فى الحرَّة ، الأعراب يتركون الحرَّة ، وينزلون إلى محطة الصيف فى وادى تربة ، مخيم الموءاهيب الصيفى فى وادى تربة . زيارة العلا ، الفُكارة يمضون الصيف فى الحجر ، تيماء ، حصاد التمر ، الجبل ، حائل .

يشتمل الكتاب فى جزئه الثانى على ثمانية عشر فصلاً وثلاثة ملاحق منها ملحق للفصل الحادى عشر وملحق للفصل الرابع عشر ثم ملحق للجزء الثانى ككل عن جيولوجيا الجزيرة العربية . فصول الجزء الثانى من الكتاب تقع تحت العناوين التالية :

مدينة ابن الرشيد ، الحياة فى حائل ، الرحيل عن حائل : الرحلة إلى خيبر . "بلاد الرسول" . ، الخيابره ، حياة المدينة فى خيبر ، أرض الجالاً : تراث المدينة الخاص ، الخلاص من خيبر ، الرحلة الصحراوية إلى حائل . نقل النصرانى منها ، صحارى كل من الشمرً وحرب فى نجد ، الرحلة إلى القصيم : بريدة ، عنيزة ، الحياة فى عنيزة .

طرد المسيحى الغريب من عنيزة ، وإعادته إليها ، حروب عنيزه . طرد القحطان من القصيم ، البدء من القصيم ، بصحبة قافلة الزُبد المتجهة إلى مكة ، الطائف . الشريف ، أمير مكة ، وادى فاطمة ، ويختم دوتى الجزء الثانى بقائمة لمصطلحات الكتاب والكلمات العربية التى وردت فيه .

استطاع دوتى من خلال هذين الجزئين نقل الصحراء بكاملها إلى قارئ هذا الكتاب : الصحراء بتلالها ، وسهولها ، بحقولها البركانية التربة ، وقراها ، وخيامها ، ورجالها وحيواناتها . إنها الجزيرة العربية الحقيقية : أرض هذه البلاد بروائحها وبأقذارها وبنبلها وحريتها أيضا . يضاف إلى ذلك أن الكتاب خال من العواطف أو الوجدان ، كما أنه ليس مجرد شيء بديع يسر الخاطر مثل سائر كتب الأسفار الشرقية . والكمال الذى أصابه دوتى فى هذا الكتاب أمر مهلك ومدمر ، فقد وصل الأمر إلى حد استحالة حذف أى جزء مهما صغر ، من هذا الكتاب الثمين ، فضلا عن أننا يستحيل علينا إضافة أقل القليل إليه .

صحيح أن هناك كثير من الإنجليز الموهوبين الذين تجولوا فى الجزيرة العربية ، وصحيح أيضا أن السواد الأعظم من هؤلاء كتبوا كتبا عن تلك الجزيرة ، ولكن أحداً منهم لم يعطنا عطية ثرية مثل تلك التى أهدانا دوتى إياها ، كما أن مزايا تلك الهبة مقصورة على دوتى وحده ولا ينازعه أو يشاركه أحد فيها . هذا الدوتى واجهته عقبات ومصاعب كثيرة فصحراء الجزيرة العربية منذ ما يزيد على مائة وثلاثين عاما لم تكن كريمة مع الغرباء بالشكل التى هى عليه الآن . يضاف إلى ذلك أن تركيا كانت ما تزال قوية وذات بأس هناك ، إضافة إلى أن الحركة الوهابية كانت قدأبقت على حيوية التشدد بين القبائل . وبالرغم من كل ذلك كان دوتى رائدا أوروبيا من ناحية ومسيحيا من الناحية الأخرى فى كل الأماكن التى دخلها . يضاف إلى ذلك أنه كان ضعيف الحال ، إذ وصل إلى الجزيرة العربية وحيداً قادما إليها من دمشق بصحبة قافلة الحج ، التى خلفته وراءها فى مدائن صالح ، ولم يكن معه أى شيء من التوصيات أو التزكيات . وراح يضرب بين قفار الصحراء مرتديا زى إنسان فقير الحال ، مترحلا كما لو كان فقيرا معدما ، ومحاولا إعالة نفسه عن طريق ممارسة الطبابة العقلانية والمنطقية فى مجتمع غلب عليه التمسك بالتعاويذ والرقى والأسحار .

وبناء على ما تقدم ، يتصور الإنسان أن كتابًا مثل تجوال فى صحراء الجزيرة العربية ، *الذى ألفه* دوتى منذ مائة وثلاثين عامًا تقريبًا ، يمكن أن يكون غير دقيق ، فى أيامنا هذه ، فيما يتعلق بالأشياء الصغيرة التى من هذا القبيل ، ولو كان دوتى قد اعتمد فى ذلك الكتاب ، على الناحية العلميه فقط ، التى تركز بل وتعتمد على التعبير بدلاً من الاعتماد على روح الأشياء ، لو كان قد فعل ذلك ، لولىّ زمان ذلك الكتاب وأصابه التقادم . ومن حسن الحظ ، أن جمال الحكى ، وحيويته ، هو والشخصيات المنتخبة ، فضلاً عن المناظر الطبيعية الأرضية ، ستبقى إلى أبد الآبدين ، وستجعل ذلك الكتاب فريدًا ولا مثيل له ، بل إنه سيصبح أساسًا لا غنى عنه فى مسألة فهم الصحراء فهمًا حقيقيًا . وعلى امتداد تلك السنوات المائة والثلاثين عجزت التغييرات المادية عجزًا تامًا عن جعل تلك السنوات جديرة بتسجيلها تسجيلاً مفصلاً بحق .

يضاف إلى ذلك أن النقوش التى جرى العثور عليها فى مدائن صالح بدأت دراستها اعتبارًا من زمن دوتى ، على أيدى الآباء الدومينكان فى القدس ، وبذلك أمكن إضافة القليل إلى الكنز الذى قدمه لنا . زد على ذلك ، أن حجر تيماء العظيم الذى بقى فى الحدَّاج (البئر) ، جرى البحث عنه بواسطة الرحالة الذين جاءوا بعد دوتى ، ثم جرى فى النهاية شراء ذلك الحجر ونقله إلى أوروبا . وجمع دوتى لتلك النقوش العربية البدائية عمل لم يسبقه إليه أحد ؛ ومع ذلك يظل دوتى هو صاحب الفضل فى اكتشاف تلك النقوش . يُزاد على ذلك أن خارطة دوتى هى وبعض من معلوماته الجغرافية جرت إضافتها بل وربطها بالمعلومات التى توفرت من بعده .

لغة الكتاب وأسلوبه

"ليس من السهل أو المريح أن يضطر المرء إلى الكتابة عن كتاب "ترحال فى صحراء الجزيرة العربية" . والسبب فى ذلك أنى درست ذلك الكتاب على امتداد عشر سنوات ، وأصبحت على قناعة تامة بأن هذا الكتاب ليس من قبيل الكتب الأخرى ، وإنما هو كتاب من نوع خاص ، أو إن شئت فقل : هو كتاب مقدس من نوعه . ومسألة

أن أتحول الآن إلى ذكر محاسن هذا الكتاب ومساوئه سوف يصبح أمرًا سخيفًا لا يقبله العقل ، ومبلغ علمى أن كل من قاموا بالترحال فى الجزيرة العربية قبل دوتى ، أو حتى بعده ، جاء مدحهم أكثر من قدحهم لهذا الكتاب" [1] .

لم يكن لورانس وحده هو "صاحب ذلك التقييم ، إذ أن إدوارد جاميت Edward Gamett، صاحب النسخة المختصرة للكتاب الذى بلغ عدد صفحاته ١١٠٠ صفحة من القطع الكبير ، والتى كان يتطلع من ورائها إلى ذيوع صيت الكتاب أكثر وأكثر وانتشاره على نطاق واسع ، اضطر إلى موافقه كاتب سيرة دوتى ، على رأيه الذى مفاده ، أن كتاب 'ترحال فى صحراء الجزيرة العربية' له "أسلوب غريب حافظ على طابعه على امتداد ٦٠٠٠٠٠ كلمة على نحو يصعب الحذف منه أوحتى الإضافة إليه . وخير شاهد على ذلك يتمثل فى الاقتباس التالى المأخوذ من الفصل الأول المعنون : أرض الصوَّان : عمون وموءاب . هذا الاقتباس يطلع علينا بذلك النصرانى ، أو إن شئت فقل المسيحى ، وهو بصحبة ٦٠٠٠ من الحجاج المسلمين ، الذين يترحلون خلال هذه الأرض الجرداء القاحلة ، على ظهور قافلة من الإبل ، متجهين إلى مكة فى خريف العام ١٨٧٦ الميلادى .

"طلع الفجر علينا ونحن لم نغادر المكان بعد . وبعد طلوع النهار ، فككت الخيام ، وجلبت الإبل إلى مرافقيها وتوقفت إلى جانب أحمالها . ورحنا ننتظر انطلاق المدفع إيذانًا ببدء حج ذلك العام . كانت الساعة تقترب من العاشرة عندما سمعنا انطلاق صوت دانة المدفع ، وعندها ، وبدون أى فوضى أو اضطراب ، جرى رفع الصناديق وتحميلها وربطها فوق الجمال ، ووضعت الأجور والأتعاب فوق الإبل الباركة ، وهنا راح آلاف الركاب ، الذين كانوا من ضمن بلدان القافلة ، راحوا يركبون فى صمت وسكون . وبعد أن أصبح كل شىء فوق ظهور الدواب والإبل بقى الجمَّالة واقفين على أرجلهم ، أو جالسين على أعقابهم لنيل اللحظات الأخيرة من الراحة : هؤلاء الجمَّاله ، هم وخدم المخيمات والخيام الآخرون ، يتعين عليهم أن يقطعوا ثلاثمائة فرسخ سيرًا على نعالهم ،

(١) توماس إدوارد لورانس ، مقدمة الطبعة ، التى نشرت فى العام ١٩٠٨ .

بالرغم من إصابتهم بالإعياء ؛ ومكتوب عليهم أيضًا أن يقيسوا الأرض فى الاتجاه الأعلى ، مرة ثانية ، على أقدامهم المرهقة ، عند العودة من الأراضى المقدسة . وبعد انطلاق دانه المدفع الثانية ، التى جاءت بعد انطلاق الدانة الأولى بلحظات قصيرة ، شاهدنا هودج الباشا يتحرك فى المقدمة ، ومن بعده رئيس طابور القافلة : وبعد حوالى خمسة عشر أو عشرين دقيقة ، يتعين علينا ، نحن الذين يكون مكانهم فى المؤخره ، التوقف بعض الشىء ، إلى أن يخف الطابور الطويل من أمامنا ؛ وعندها نروح نضرب إبلنا ، وبذلك يكون الحج الكبير قد بدأ يتحرك . ويتقدم القافلة ثلاثة أو أربعة جمال ويندر أن يكونوا خمسة ؛ يصل طول هذا الجمع البطىء من الرحال والدواب والماشية قرابة الميلين ، ويصل عرض قافلة الحج إلى حوالى مائة ياردة فى الأرض المنبسطة المفتوحة . ونقلاً عنهم (وربما يكون فى ذلك تجاوز للحقيقة) فإن عدد الحجاج يقدر هذا العام بحوالى ٦٠٠٠ حاج ؛ أكثر من نصفهم رجال جاءوا للحج سيرًا على الأقدام ؛ وتضم القافلة أيضًا ١٠٠٠٠ دابة من مختلف الأنواع ، التى تشكل الإبل القسم الأكبر منها ، يليها البغال ، وخيول الركوب ، ثم الحمير وأخيرًا قليلاً من ذلول العرب العائدين إلى مناطقهم فى حماية القافلة الكبيرة . نحن نسير فى أرض خراب خالية ، سهل من الزلط والحصى ، لا يظهر فيه أى شىء ، ولم نر فيه طريقًا أمامنا . جبل حرمون ، أصبح الآن خلفنا ، ونشاهد أكتافه الضخمه المكونة من الجليد والصقيع وهى تطبق على الأفق الشمالى : وبدو الصحراء الرُحل فى الشرق يعتبرون ذلك علامة كبيرة من العلامات الدالة على سوريا ، وهم يطلقون على ذلك الجبل اسم 'طويل الثلج' ، أو إن شئت فقل : 'الثلج العالى أو المرتفع' (الذى لا يخبرونه كثيرًا فى أرض الجزيرة العربية التى لا تسقط فيها الأمطار وتضربها حرارة الشمس بصورة دائمة) . كان اليوم يوافق يوم الأحد ، عندما بدأ ذلك الحج ، وكان الطقس جيدًا ، إذ كان ضوء نهار الصيف السمنجونى لم يذو بعد فى السماء السورية ؛ كان ذلك اليوم يوافق اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر من العام ١٨٧٦ الميلادى ؛ وبعد أن قطعنا اثنى عشر ميلاً ، (ذلك القليل ، الذى بدا لنا كثيرًا فى البداية) وصلنا إلى المحطة الصحراوية التالية ، حيث جرى نصب الخيام التى سبق أن خلفناها وراءنا فى المزيريب ، ها هى الخيام منصوبة على شكل صفوف بيضاء فى الأرض الجرداء الواسعة . معنى ذلك أن جماعة

الخيام الخفيفة كانوا يسبقون مسيرة القافلة كل يوم ، على أن تراعى كل جماعة المكان الذى يخصص لها من بداية الرحلة إلى نهايتها . وبعد أن وصلنا إلى تلك الخيام تفرقت الجماعات وراحت كل واحدة منها تتجه إلى محل الإقامة المخصص لها : وهم يطلقون على المخيم الذى يكون من هذا القبيل اسم الرامتا Ramta .

تحرص القافلة ، فى بداية أية رحلة من الرحلات الطويلة ، أن تكون مسافه الوقفة الأولى قصيرة ؛ إذ تبدأ الدواب فى استشعار حمولاتها ، ويبدأ المسافرون يستشعرون مشاق الركوب . وفى عيدان الحطب القليلة (التى يجرى جمعها فى عجالة أثناء السير) ، ومن الأدغال الصحراوية ، يسارع المسافرون إلى شب النار أمام الخيام ، كل الخيام ؛ ونظراً لعدم وجود أحجار فى المنطقة ، بحيث تكون فى متناول المسافرين ، كى يضعونها تحت الأوانى كما يفعل البدو ، يصبح وجار الحاج عبارة عن حفره فى الأرض حتى يتسنى وضع أوانيهم فوقها ، ووضع الجمار تحتها من الناحيتين ، وبقليل جداً من حطب الوقود يجهز الحجاج طعامهم البسيط . وفيما يتعلق بالخيام العسكرية الخاصة بالقوات المصاحبة للحج والخاصة أيضًا بالجمَّالة المسلحين ، (غالبيتهم من نجد) التى يطلقون عليها اسم العجيل فيجرى نصبها بطريقة دائرية بحيث تحيط بمخيم القافلة الكبيرة على بعد ستين خطوة من الجانبين : وفى كل خيمة من تلك الخيام تتواصل الخفارة حتى مطلع الفجر وطلوع النهار . ويجرى أثناء الليل تعليق فانوس من الورق أمام كل خيمة من الخيام ليظل مشتعلاً طول الليل ، فى الوقت الذى يقف أحد الحراس ممسكًا ببندقيته ، ولا يسمح الحراس بمرور أى أحد دون اعتراض طريقه . وأهل الحضر يخافون البدو خوفًا شديدا ، كما لو كانوا هم شياطين تلك الأرض الخراب ، كل واحد منهم على استعداد لمهاجمة أولئك المسافرين لأداء فريضة الحج ؛ ولا يجرؤ أى واحد من هؤلاء البدو على الخروج على المنطق فى الظلام مع أولئك الرماة المتوحشين مخافه أن يردوا عليه بالرصاص والطلقات التى تتردد أصواتها بين الحين والآخر ، فى اتجاه الصحراء طوال الليل ؛ وفى كل لحظة يتصايح أولئك الحراس وهم يرددون الواحد بعد الآخر كلمه (حرس !) ، التى يقولون لها بلغة القوم Kerakô Ke-rakô والتى يردون عليها بكلمة (مستعدون) التى يقولون لها بلغة القوم Haderûn . ولم أرى أى ضابط من الضباط وهو يقوم بالمرور على الحرس . *وأكثر الخفارات ، أو*

إن شئت فقل الورديات ، هى الوردية الأولى نظرًا لأن المخيم يكون ما زال صاحيًا . وصراصير الغيط هذه يبدأ فقدان أصواتها وصريرها عند منتصف الليل تقريبًا ، عندما أرى ، وبدون أى سبب ، أن الغالبية العظمى من أنوارهم قد أطفئت ؛ والمرجح هنا أن الذين لا ينالون أجرًا على ذلك يوفرون على أنفسهم مشقة هذا العمل : إذ يقوم هؤلاء الجنود الفقراء ببيع ما لديهم من شموع فى سوق الحج .

ومع أول دخول للمساء يكون هناك شىء من المرح متمثلاً فى قرع الطبول وشىء من العزف الرقيق على الناى ، فضلاً عن أغانى الرعاة الحلوة التى يتغنى بها الفرس فى خيامهم من حولنا ؛ وفى بعض الخيام الأخرى نسمع أناسًا آخرين وهم يتغنون بواحدة من المقطوعات الدينية . وفى كل خيام الحجاج هناك فوانيس من الورق بداخل كل واحد منها شمعة مشتعلة ؛ ولكن المخيم مرهق بكامله ، وسرعان ما يخلد إلى الراحة . وينام الحجاج فى ملابسهم التى يرتدونها ، بضع ساعات قليلة إلى أن يسمعوا صوت انطلاق المدفع مؤذنًا ببداية الصباح ؛ وهنا ينهض الحجاج بعد ذلك مباشرة لاستئناف المسير ، وهم لا يعرفون مدى التبكير أو التأخير ، لأن هذا الأمر مثل بقية الأمور الأخرى يعتمد على انشراح الباشا من ناحية وعلى الطقس الجيد من ناحية أخرى .

وعند الساعة الخامسة والنصف انطلقت دانه المدفع مؤذنه ببداية المرحلة الثانيه من رحلة الحج . كانت سماء الليل مظلمة وتهطل منها زخات المطر عندما بدأنا التحرك ، ولذلك جرى رفع أوانى الزيت المعلقة فوق عمد من الحديد حتى يتسنى لحامليها إضاءة الطريق ، كان الرجال يحملون تلك الأوانى على أكتافهم . كشف الفجر الأرض الجرداء القاحلة التى تمتد أمامنا ، وفيها طبقة من الحصى والغرين فوق الحجر الجيرى .

درب الحج ، ليس طريقًا ممهدًا ، وإنما عبارة عن مدقات عديدة تجوفت بفعل مشى أقدام الإبل عليها ، مرة كل عام ، وذلك على امتداد أجيال كثيرة من الحج متباينة الأعراف والأجناس كانت تقطع ذلك الطريق . المسارات الكثيرة المتساوية التى تتجمع مع بعضها البعض ، يشبهها أحد الشعراء العرب القدامى بشرائط العباءة (البشت) العربيه المقلّمة . والمعتاد أن تطلق دانة عند منتصف النهار تقريبًا ، لتكون بمثابة

إشارة إلى التوقف ؛ وبعدها نتوقف لنيل قسط يسير من الراحة ، ولكن لا يجرى إنزال الأحمال من على الدواب فى تلك الوقفة ، بل إنها تظل واقفة وأحمالها من فوقها . وهنا يشب الرجال النار فى حين يقوم المتدينون منهم بأداء الصلاة مولين وجوههم شطر مكة . الوقفة التى من هذا القبيل تدوم عشرين دقيقة ؛ وفى بعض الأيام تكون أقل من ذلك أو قد تلغى مطلقًا ، وذلك حسب مرئيات باشا الحج ، أما فى حالات اليسر وتوفر الوقت فقد تطول الوقفه لتصل إلى أربعين دقيقة . وفى ذلك يقول (القائمون على أمر القافلة) : إن "الباشا هو سلطاننا" . وبعد أن سرنا عشرين ميلاً ظهر على يسارنا مفرق ، أو إن شئت فقل : البرج الثانى أو المحطة الثانيه من محطات المزيريب الكبيرة ، غير أنها مخربه ومهجورة مثل المفارق أو إن شئت فقل : الأبراج أو المحطات الأخرى . هذه القلاع عبارة عن محطات للمياه تقوم على أمرها حراسه ضعيفه ؛ وربما بنيت تلك القلاع قبل قرنين أوثلاثه قرون من الزمان ، كما أنها مبنية بطريقة جيدة . وبئر الماء يقع فى وسط القلعة ؛ ويجرى تشغيل عمود ذلك البئر عن طريق بغل ، يتحرك جيئة وذهابًا لملئ الخزان أو الصهريج ، أو شئت فقل البركة التى تقع خارج جدران البئر . الأدوات اللازمة لذلك ، هى والبغال يجرى جلبها من دمشق مع قافلة الحج وتستمر معها إلى أن تصل إلى مدائن صالح . وتجرى حراسة تلك الخزانات حراسة جيدة ، إذ تعتمد عليها حياه القافلة الكبيرة . ولا يسمح لأى عربى (من البدو المترحلين) بالاقتراب من ذلك الماء أو الانتفاع به ؛ والحرس الذى يحمى تلك المياه يستطيع فتح النار على أولئك البدو من داخل البرج ، الذى يتمترسون فيه خلف أبواب مجلدة بألواح من الحديد ، يحتمون بها على امتداد العام من سفاهة هؤلاء البدو الرحل ووقاحتهم . هذه القلاع تقف متفرقه ، كما لو كانت سفنًا فى وسط الصحراء الشاسعة ؛ كما أنها ليست مبنية أو مقامة على مسافات متساوية من المخيمات ، ولكن إنشاءها يعتمد على توفر المياه ؛ وفى أغلب الأحيان قد تصل المسافة بين القلعة والأخرى مسيرتين أو ثلاث مسيرات . وأصعب أجزاء طريق الحج فيما قبل المدينة (المنورة) يتمثل فى الجزء الذى يتمثل فى أربع أو خمس مسيرات خلال الأراضى المرتفعة التى يجيء ارتفاعها فى المرحلة الثانية بعد ارتفاع أرض مدائن صالح ؛ التى لا يوجد فيها أبيار أو ينابيع ، اللهم باستثناء قلعتين مدمرتين فيهما بركتان أو إن شئت فقل : صهريجين ، يجرى ملؤهما من مياه السيول ،

إلى حد أن هاتين البركتين ، تظلان جافتين ، طوال عدة سنوات ، فى هذا البلد الذى يندر فيه سقوط الأمطار . وفى كل عام يجرى ، من مدائن صالح ، إيفاد النَّجاب ، الذى هو جمالّ من البدو الذين يركبون الإبل ، ليحمل إلى دمشق ، فى شهر رمضان ، أى فى فترة ما قبل الحج ، أنباء توافر الماء أو عدم توافره فى بركة أو إن شئت فقل : صهريج أو خزان دار الحمرة ، كما يحمل معه أيضًا أخبارًا عن حالة الماء فى القلاع التالية لقلعة دار الحمراء . فى هذا العام حمل النجَّاب أخبارًا طيبة (إذ إمتلأت البركة بفعل الصقيع الذائب ومياه السيول) ثم عاد النَّجاَّب Najjab ومعه أمر مباشر من الباشا ، (نظرًا لعدم وجود المفوضين ضمن قوات الحراسة) بوضع حراسة على ذلك الماء . ولكن فى السنوات التى يشح فيها الماء فى تلك البركة ، تحمل إدارة الحج معها من دمشق حوالى ١٥٠٠ قربة من قراب الماء ، لتوفير احتياجات القافلة من الماء لمدة خمسة أيام : ويجرى ملئ تلك القراب المصنوعه من جلود الحيوانات بالماء ، على حساب الحكومة ، من المساقى البعيدة ، عن طريق السقائين من البدو المترجلين .

تجاوز أفراد القافلة تلك القلاع المخربة والمهجورة وهم يلعنوها فيما بينهم وبين أنفسهم ، تلك اللعنات التى يوجهونها ، بالرغم من أنى لا أستطيع القطع بذلك – إلى ضباط الحج وهم يرددون : "كل البرك تسربت ولم يعد هناك ماء للحجاج ؛ فى كل عام تدفع الخزانة أموالاً مفروض أنها تستخدم فى صيانة المبانى والمحافظة عليها ؛ هؤلاء الباشاوات المختلسون يبتلعون المال العام ؛ بوسعنا الآن جلب الماء من أى خزان من الخزانات الموجودة قبل مدينة معان ، ولكن بعد المسيرات الطويلة يتحتم قطع مسافات طويله لجلب الماء ، والماء الذى يتم الحصول عليه بهذه الطريقة يكون غير صالح للشرب" . معروف أن الاختلاس التركى مشهور بسوء سمعته فى موسم الحج ، وهو يهدف إلى تهدئة بعض المسيحيين اليونانيين وبعض السوريين الذى يعملون دومًا فى مجال الصرافة فى دمشق خلال موسم الحج الإسلامى ، : – وهذا قانون من قوانين الطريق ، مفاده أن الجميع يجب أن ينظروا من خلال أصابعهم أو إن شئت فقل : يغمضون عيونهم . أما وعورة الطريق فمردها إلى أن القسم الأكبر من مخصصات الخزانة ، جرى إنفاقه على الحج ولم يعد ما يكفى لصيانة الطريق . كما قامت الحكومة العثمانية الفقيرة بسحب المخيم الذى أقامته فى معان منذ فترة قصيرة ، كما خفضت

المخصصات المحددة لتلك القلعة تخفيضاً كبيراً ، ولكن يقال إن التكلفة السنوية لطريق الحج تقدر بحوالى ٥٠٠٠٠ جنيه إنجليزى ، تجرى جبايتها على شكل ضرائب من المقاطعة السورية ، التى يتشاكى فيها المسيحيون ، متعللين إن إجبارهم على دفع تلك الضرائب من دخولهم الضعيفة لمجرد الوفاء بتلك المقدسات الإسلامية ، إنما هو شكل من أشكال الإرهاب والاستبداد . والصرة من بين الخسائر التى تعانى منها الإمبراطورية العثمانية ، وهى تدفع للبدو الرحل حتى يمكن المرور من أراضيهم بسلام : كانت تلك الصرة تدفع لنصف القسم الغربى من الجزيرة العربية ، ومع ذلك كان الأمر أكثر من ذلك ، نظراً لأن الحرس المرافق : كان يتعين عليه ، بالرغم من دفع الصرة ، المرور 'بحد السيف' أو إن شئت فقل : المرور بالقوة من تلك الأراضى التى يسكنها أولئك البدو الرُّحَّل المكروهين . يضاف إلى ذلك ، أن هؤلاء البدو المعدمين لا يتنازلون عن شىء من معاشهم السنوى ؛ ذلك المعاش الذى كان يدفع لآبائهم ، يرون أن من حقهم الحصول عليه من خزينة 'السلطان' ، وإذا ما قدم لهم مبلغ أقل من المستحق يقولون : "إن الباشاوات غير الأمناء قد بلعوه !" ، وبالتالى يتعين وقف مرور الحج ، ولا يستطيع أحد إقناعهم ؛ بالرغم من أن الدولة (إمبراطورية السلطان) كانت فى طور الاحتضار . كانت تتردد بين هؤلاء البدو أنباء مفادها أن سلطان الإسلام ليس سوى واحد من الأتراك ومن دم غريب : وهم ينظرون إلى ذلك السلطان كما لو كان نبيًا ، أو إن شئت فقل : ملك الكون بحكم إرادة السماء ، وأن الجميع يتعين عليهم الخضوع والولاء له . هؤلاء البدو الرحل كانوا ، عندما يتذمرون ، يهجمون على مسيرة الحج ، أو يسطون على ركن من أركان مخيم الحج أثناء الليل ، أملاً فى سرقة غنيمة من الإبل : والبدو فى عملياتهم العسكرية يقومون بمحاصرة المضايق التى يستطيعون منها بفضل مائة من بنادقهم البدائيه إيقاع خسائر جسيمة فى أرواح الكثيرين من المشاركين فى قافلة الحج ؛ وقد استطاع أولئك البدو ، بهذه الطريقة ، إنزال الهزيمة ، بجيش مصرى من جيوش إبراهيم باشا ، فى الجزء الجنوبى من البلاد ، وعلى أيدى بدو قبيلة حرب .

بقى أن أقول إن الكتاب لا يرتبط بتاريخ بعينه ويستحيل أن يطاله التقادم . وترجمه هذا الكتاب إلى العربية تعد إضافه ثرية للمكتبة العربية .

صبرى محمد حسن

مقدمة

ليس من السهل أو المريح أن يضطر المرء إلى الكتابة عن كتاب "ترحال فى صحراء الجزيرة العربية" والسبب فى ذلك أننى درست ذلك الكتاب على امتداد عشر سنوات ، وأصبحت على قناعة تامة بأن هذا الكتاب ليس من قبيل الكتب الأخرى ، وإنما هو كتاب من نوع خاص ، أو إن شئت فقل : هو كتاب مقدس من نوعه . ومسألة أن أتحول الآن إلى ذكر محاسن هذا الكتاب ومساوئه سوف يصبح أمرا سخيفا لا يقبله العقل . ومبلغ علمى أن كل من قاموا بالترحال فى الجزيرة العربية قبل دوتى أو حتى من بعده جاء مدحهم أكثر من قدحهم لهذا الكتاب . وكل الجديد الذى يمكننا الوصول إليه عن الجزيرة العربية سنجده فى هذا الكتاب . وكلما زاد ترحالنا فى الجزيرة العربية ازداد أيضًا احترامنا لبصيرة مؤلف هذا الكتاب من ناحية وتقديرنا لأحكامه وحِرْفيته من الناحية الأخرى . ونحن لا يسعنا إلا أن نسمى ذلك الكتاب بإسم "دوتى" البحت البسيط ، لأن الكتاب من الروائع ، إضافة إلى أن شخصية "دوتى" فى الكتاب لا يكتنفها الشك من ورائها أو حتى من خلفها . واقع الأمر ، أنه من المدهش حقا أن ندرك من خلال الكتاب شخصية دوتى الواقعية والحية . والكتاب لا يرتبط بتاريخ بعينه ويستحيل أن يطاله التقادم . وهذا هو أول كتاب عن عرب الصحراء ، ولا غنى لأى إنسان عنه ؛ أما مسألة عدم الإحالة إليه ، أو عدم التوفر على قراءة ، فذلك يرجع إلى ندرة الكتاب . وسبب هذه الندرة الشديدة هى رغبة الطلاب الدارسين للجزيرة العربية ، فى أن يقتنى كل واحد منهم نسخة من هذا الكتاب الثمين .

ونحن عند هذه المرحلة لسنا بحاجة إلى أن نوصى الطلاب والباحثين بالرجوع إلى دوتى وقراءة ذلك الكتاب . ومرد ذلك أن هؤلاء الطلاب والباحثين جميعا يعرفون من هو دوتى . ونحن على ثقة ، من أن الطبعة الحالية ستروق ، من ناحية ، لعامة الناس الذين يتطلعون لقراءة عمل نثرى كبير ، أو إن شئت فقل : سجل تجوال شاعر إنجليزى ، على

امتداد عامين بين البدو ، وربما ستجعل من الناحية الأخرى ، وزنا كبيرا لرأى الرحالة المحدثين فى الجزيرة العربية . لقد تحدثت عن هذا الكتاب مرات ومرات مع كثير من الرحالة ، واتفقنا جميعا على أننا نجد الصحراء بكاملها فى هذا الكتاب : الصحراء بتلالها ، وسهولها ، بحقولها البركانية التربة ، وقراها ، وخيامها ورجالها وحيواناتها . ودوتى يتكلم عنها كما لو كان يجعلها تنبض بالحياة ، مستخدما فى ذلك الكلمات والعبارات على نحو مناسب جداً ويصعب معه فصلها عن الذاكرة . إنها الجزيرة العربية الحقيقية ، أرض هذه البلاد بروائحها وبأقذارها ، وبنبلها وبحريتها أيضا . الكتاب خالٍ من العواطف أو الوجدان ، كما أنه ليس مجرد شيئ بديع يسر الخاطر ، مثل سائر كتب الأسفار الشرقية . الكمال الذى أصابه دوتى فى هذا الكتاب . أمر مهلك ومدمر ؛ فقد وصل الأمر إلى حد استحالة حذف أى جزء ، مهما صغر ، من هذا الكتاب الثمين ، فضلا عن أننا يستحيل علينا إضافة أقل القليل إليه . لقد جعل دوتى كل الجزيرة العربية دائرة من دوائر اختصاصه ، ولم يترك لمن جاءوا بعده سوى الجزء الصغير الذى يُعنى به المتخصصون . هذا يعنى أننا بوسعنا كتابة كتب مستقله عن أجزاء من الصحراء أو عن شيء من تاريخ تلك الصحراء ؛ ولكن يتعذر علينا ، بل ويستحيل علينا تماما رسم صورة كاملة أخرى ، غير هذه الصورة ، لتلك الصحراء ، فى زماننا هذا ، نظرا لأن الصورة الحالية فيها كل ما يمكن قوله ، وبلسان أستاذ كبير .

صحيح أن هناك كثيرا من الإنجليز الموهوبين الذين تجولوا فى الجزيرة العربية ، وصحيح أيضا أن السواد الأعظم من هؤلاء كتبوا كتبا عن تلك الجزيرة ، ولكن أحداً منهم لم يعطنا عطية ثرية مثل تلك التى أهدانا دوتى إياها ، كما أن مزايا تلك الهبة مقصورة على دوتى وحدة ولم يعاونة أحد فيها ، وقد واجهت ذلك الرجل عقبات كثيرة . فصحراء الجزيرة العربية منذ أربعين عاما لم تكن كريمة مع الغرباء بالشكل التى هى عليه الآن . يضاف إلى ذلك ، أن تركيا كانت ما تزال قوية وذات بأس هناك ، إضافة إلى أن الحركة الوهابية كانت قد أبقت على حيوية التشدد بين القبائل . ومع ذلك كان دوتى رائدا ، أوروبيا من ناحية ومسيحيا من الناحية الأخرى ، فى كل الأماكن التى دخلها . يضاف إلى ذلك أنه كان ضعيف الحال . فقد وصل دوتى الجزيرة العربية وحيداً قادما إليها من دمشق مع قافلة الحج ، التى خلفته وراءها فى مدائن صالح ولم

يكن معه أى شىء من التوصيات أو التزكيات . وراح يضرب بين قفار الصحراء مرتديا زى إنسان فقير الحال ، مترحلا كما لو كان فقيرا معدما ، ومحاولا إعالة نفسه عن طريق ممارسة الطبابة العقلانية والمنطقية ، فى مجتمع غلب عليه التمسك بالتعاويذ والرقى والأسحار .

ثم أعياه المرض بعد ذلك . كما ضعفت صحته واعتلت مع بداية رحلته ، يضاف إلى ذلك أن مناخ هضبة الجزيرة العربية مناخ مزعج ومتعب ، جراء شدة حرارته وشدة برودته أيضا ، فضلا عن سوء حال الغذاء والتغذية فى تلك الجزيرة . معروف أن دوتى تربى فى إنجلترا ذلك البلد المنتج الذى ينعم بالغذاء الكامل والوفير . حل دوتى ضيفا على الخيام العربية ، ليشاركهم كرمهم وضيافتهم الهزيلة ، وليقتات بالقليل الذى كان يكفيه ويسد رمقه . لقد أطعموه مما كانوا يأكلونه وسقوه من ذلك الذى كانوا يشربونه . كانت أجسادهم النحيلة تعيش معتمدة على موسم الربيع الذى تجود وتتوفر فيه ألبان النِّياق (إناث الجمال) ؛ كما كانوا يقتاتون أيضا بوجبات هزيلة من التمر أو اللحم خلال شهور القحط من العام ، ولكن هذه الحمية الغذائية كانت ، عند دوتى ، بمثابة جوع قد يفضى إلى الموت . تلك وجبات تكفى فقط لسد رمق رجل يجلس طول الوقت ولا يتحرك ؛ أما دوتى فقد كان دائم الحركة والتجوال ، بل إنه كان يركب راحلته ، فى معظم الأحيان ، من شروق الشمس إلى غروبها ، إن لم يكن إلى منتصف الليل ، فى مسيرات اضطرارية عبر بلاد صخرية ومرهقة ، فى وهج الشمس الحارق ، أو رياح شديدة ومضنية . ومعروف أن التجوال فى الجزيرة العربية ، فى أحسن الأحوال ، بصحبة مجموعة من الخدم ، وركوبات جيدة ، وخيام جيدة ، ومطبخ جيد أيضا ، هو بحد ذاته عملية شاقة ومضنية . وقد واجه دوتى تلك التجربة الشاقة متبعا فى ذلك أسلوب أهل تلك البلاد ، برغم سوء أحواله البدنية ، وعاد إلى وطنه بصيد أثمن مما جئنا به جميعا . لقد بذل ذلك الرجل جهداً خارقا وعجيبا بحق .

ودوتى فى بعض المواضع ، فى الكتاب ، يعتذر عن أخطائه وعيوبه ، عندما يقول عن كتابه ، إنه رؤية رجل جوعان ، أو إن شئت فقل : رجل شديد الإعياء ؛ وبالرغم من كل ذلك ، يبدو دوتى وكأنه سجل كل شىء . صحيح أننا جميعا أصابنا الإعياء الشديد عندما كنا فى الصحراء ، صحيح أيضا أن البعض منا جاعوا فى الصحراء أيضا ،

ولكن أحدا منا لم ينتصر على جسمه مثلما فعل دوتى . لقد استطاع ذلك الرجل تسخير مصاعبه لمصلحته ، بأن راح يعتصر تلك الصعوبات محولا إياها ، على صفحات كتابه ، إلى إحساس بالتوتر والانعزال ، سوف يظل يذكر كل من قاموا بالترحال فى الجزيرة العربية بلحظات التعاسة التى مر بها كل واحد منهم . وبالرغم من كل ذلك فإن دقة ملاحظة دوتى لم تهن أو تضعف خلال تلك المناسبات التى تهيأت له على امتداد هذين العامين الخطيرين . فنحن نرى دوتى وهو يواصل عرضه علينا لظروف حكايته هى وأشخاصها وأماكنها ، دون أن يضيع أو يفلت منه عنصر التشويق : وكونه استطاع الوصول إلى ذلك الحد ، فهذا يعنى شهادة حق كبيرة ، لا على حدة ذهنه فحسب ، وإنما على جاذبيه الجزيرة العربية الخيالية وكذلك جاذبية العرب الخيالية عليه وعلينا على حد سواء .

كتاب دوتى يقف شاهداً أمينا على قوة شخصية ذلك الرجل . فقد كشف الرجل لنا عن نفسه بطريقة غير مباشرة من خلال صفحات الكتاب (الذى يستحيل أن يكون سقيما أو متهافتا ، كما يستحيل أن يكون مستبطنا أو متعمقا فى فحص التصرفات) . دون رغبة منه فى ذلك ، والسبب فى ذلك أن طريقة السرد قائمة بذاتها ، ولا يجرى من خلالها استعراض الخير أو الشر ، هذا يعنى أن دوتى رفض أن يكون بطلا لقصته . ومع ذلك كان دوتى بحق بطلا لرحلته ، فضلا عن وقوف العرب على مدى عظمته . وأنا ، نفسى ، أمضيت تسعة أشهر فى غربى الجزيرة العربية ، وأنفقت القسم الأكبر من تلك المدة فى الأماكن التى سبق أن مر بها دوتى ، واكتشفت أن ذلك الرجل تحول إلى تاريخ فى الصحراء . كان ذلك منذ ما يزيد على أربعين عاما مضت ، وهذه الفترة الزمنية كفيلة ، فى بلادنا ، بنسيان الكثير . هذه الفترة تصبح أطول نسبيا فى الصحراء ، والسبب فى ذلك أن مصاعب الحياة العامة لا تهيئ للجسم الفرصة التى يستطيع من خلالها استعادة قواه ، بالتالى تقصر أعمار الرجال وتضعف ذكرياتهم عن الغرباء من ناحية ، وعن الأحداث الخارجة عن نطاق شجرة الأسرة من ناحيه أخرى . الزيارة التى قام بها دوتى كانت لآبائهم أو أجدادهم ، ومع ذلك فإنهم جميعا يعرفون أخبار تلك الزيارة . والعرب يحكون عن دوتى حكايات كثيرة ، بل إنهم يحولون تلك الشخصية الرائعة والعظيمة ، إلى أسطورة . تلك الشخصيه العاقله جداً ، واللطيفة جداً ،

التى حلت عليهم كما لو كانت بشيرا من العالم الخارجى . كما اصطبغ خيال العرب بعزوف دوتى عن المنغصات العامة لإنسانية هؤلاء الناس . كان دوتى من النوع الصبور جداً ، ومن النوع الكريم جداً ، كما كان عطوفا أيضا ، الأمر الذى جعله يحظى بثقتهم دون أدنى شك .

العرب يقولون عن دوتى إنه لم يكن يبدو لهم متفاخرا إلا بمسيحيته ، وإنه لم يحدث أن تدخل حتى ولو لمرة واحدة فى عقيدتهم . يقولون أيضا إنه كان عليما ، ولكنه كان بسيطا فى فنون العيش والحياه ، كما كان جاهلا بالإبل ، كما كان يعطى ثقته للجميع فضلا عن كونه صموت لا يحب كثير الكلام . ويقولون عنه أيضا : إنه كان أول رجل إنجليزى يلتقونه . ويقولون أيضا : أنه حثهم على إعطاء الفرصة لغيره من أبناء جلدته ، والسبب فى ذلك أن العرب وقفوا على طيبته وشرفه وأمانته . وبذلك يكون دوتى قد شق طريقا لدينه . ثم جاء من بعده السيد ولفريد بلنت **Blunt Wilfrid**، ثم السيدة جرترود بل **Bell Gertrude**، وهما شخصيتان أخريان قويتان . هذان الأثنان أكدا منظر الصحراء الذى رسمه الإنجليز ، كما أوجدا للإنجليز أيضا موقعا متميزا أصبح يشكل مسئولية خطيرة أمام كل من جاء بعدهما . وبفضل هؤلاء البشر أصبح الشخص الإنجليزى يجد الاحترام والترحيب فى الجزيرة العربية ، وأصبح بوسعه أيضا التنقل والترحال ، غير المريح بطبيعة الحال نظرا لوعورة سطح الأرض وقسوته ؛ كما أصبح بوسعه أيضا السير فى الطرق والدروب التى استهلها دوتى بذلك القدر من الآلام والأوجاع . ولم يحظ أى بلد فى الدنيا بمثل هذا العدد من السفراء . هذا يعنى أن الناس فى هذه البلاد ينظرون إلينا بمنظار الجدارة والتقدير اللهم إلا إذا أثبتنا نحن عكس ذلك عن طريق أخطائنا الخاصة . وأرجو ألا يكون ذلك نصبا تذكاريا خفيفا لتخليد ذكرى ذلك الرجل الذى ترك انطباع فضيلته الواضح على شعب بدوى مترحل ، ومن خلال تجواله العشوائى على امتداد عامين من الزمن .

نحن نُصَدِّرُ نوعين رئيسيين من الإنجليز ، يقسّمان نفسيهما ، فى البلاد الأجنبية إلى فئتين متعارضتين . والبعض منهم يستشعر بحق نفوذ المواطنين من أهل البلاد ، وبذلك يحاولون تكييف أنفسهم مع روح مثل هذا البلد وجوه العام . وهذه الفئة تكتب فى داخلها كل ما يمكن أن يتعارض أو يتضارب مع العادات والأطياف المحلية ، حتى

تتمكن من الانخراط المتواضع داخل الصورة . معنى ذلك أن أهل هذه الفئة يقلدون المواطن ويحاكونه قدر المستطاع ، وبذلك يستطيعون تجنب الاحتكاك فى الحياة اليومية . ومع ذلك ، لا يمكن لمثل هذه الفئة تجنب أو تحاشى الآثار المترتبة على التقليد والمحاكاة ، ذلك الشىء الأجوف الخاوى الذى لا معنى له . صحيح أنهم يشبهون الناس ، ولكنهم ليسوا منهم ، كما أن تباينهم غير الواضح يضفى عليهم نفوذا كاذبا ، أو إن شئت فقل : نفوذا مصطنعا يكون أكبر بكثير مما يستحقونه . وهم عندما يلجأون إلى المحاكاة والتقليد إنما يحثون المواطنين الذين يعيشون بينهم على السير فى مسارات غريبة وغير طبيعية إلى الحد الذى يجعل المواطنين أنفسهم يقلدونهم فيما بعد . الفئه الثانية من الإنجليز التى نصدرها إلى البلاد الأجنبية ، هى الفئه الأكبر . وهذه الفئه تحاول ، فى ظل ظروف المنفى تلك ، فرض شخصيتها عن طريق ذكريات الحياة التى تكون قد خلفتها وراءها . هذه الفئة تحاول أن تجد لنفسها ملجأ فى إنجلترا التى كانت لهم فى يوم من الأيام ، وذلك على سبيل رد فعلهم على الظروف الأجنبيه التى تحيط بهم . وأهل هذه الفئة يؤكدون على عزوفها ، وعلى مناعتها الأمر الذى يزيد من انعزالهم ووحدتهم وضعفهم . وهم يؤثرون فيمن يعيشون بينهم عن طريق رد الفعل ؛ أو إن شئت عن طريق رسم نمط أو عينة مبسطة للإنجليزى الفاضل ، أو إن شئت فقل : الأجنبى بمعنى الكلمة .

ودوتى يعد بحق عضوا بارزا من أعضاء الفئه الثانية ، أو إن شئت فقل : الفئة الأنظف . وهو يقول إنه لم يكن شرقيا فى وقت من الأوقات ، وبالرغم من أن الشمس جعلت منه عربيا ؛ يضاف إلى ذلك أن قسما كبيرا من قيمته يكمن فى تمايزه . فرؤيته إنجليزية قلبا وقالبا : ومع ذلك فإن تصرفاته الظاهرية ، وسلوكياته ، وكذلك لباسه بل وحتى كلامه ، كل ذلك كان عربيا ، بل وعربيا بدويا مترحلا من بدو الصحراء . ومعروف أن الصحراء تعوق وتمنع الأحكام الناتجة عن تدبر كل الظروف والملابسات ؛ والسبب فى ذلك أن قحولة الصحراء واتساعها يجعلان سكانها يتسمون بالصراحة والمكاشفة . والناس فى هذه الصحراء يصرحون بما فى دواخلهم فجأة وبلا تحفظ . يضاف إلى ذلك أن كلام الصحراء واضح ومحدد . وقد أصيب دوتى بتلك العدوى واستشعر تلك الصراحة استشعاراً شديدا (قلة قليلة من صحف الترحال هى التى تركز على

حساسية دوتى الفائقة فى استشعار كل من المناخ والجغرافيا وليس الصدق وعدم المواربة) . يضاف إلى ذلك أنه كان يدلى برأيه بين القبائل مثل واحد منهم . بل إنه حتى عندما كان فى القرى كان يحافظ على شكل من أشكال الصراحة المفاجئة التى لا تعرف المواربة ، عندما كان يحتج على كلام الحضر السياسى الخشن . ودوتى جاء أصلا من بلاد الإنجليز المستقرة ، ولذلك فإن تفضيله للبدو الرّحل قد يبدو أمرا غريبا ؛ ولكن هذا الإنجليزى ، وبخاصة عندما يكون سليل إحدى العائلات ، يكتشف أن القبائل تروق له أكثر من القرى ، ومن هنا نجد أن دوتى كان بدويا صريحا فى كل الأماكن التى نزل بها أو حل عليها .

يضاف إلى ذلك أن تغيير نغمة حديثه وأحكامه يتسم بالمفاجأة مثل التغييرات المناخية تماما . والصحراء عند دوتى مكان لتمرير الشعور والأحاسيس ، مكان للإدلاء بالآراء الصريحة المباشرة . والناس فى الصحراء لا يعلقون إعمال عقولهم على امتداد الأيام ، حتى يتمكنوا من الوصول إلى معدل متوسط من العدالة والتوازن فى الفكر . هم يصفون الطَّيب على الفور بأنه طيب ، ويقولون للخبيث ، على الفور أيضا ، إنه خبيث . وقد عكس لنا دوتى صورة ذلك فى نفسه هو . فهذه فقرة تحتوى على حكم قاسٍ ؛ ثم نجده فى الفقرة التالية يفيض عطفا وحنانا . هذا يعنى أن سجل الأسفار الذى جاء به دوتى عامر بتجربته هو ، وأننا عندما نقرأ الكتاب كله ، وليس مجرد جزء منه ، تتكون لدينا رؤية عَطُوف متعددة الجوانب ، من جميع أبعادها ، عن كل من رافقوه طوال هذين العامين العاصفين المليئين بالأحداث .

زد على ذلك أن الواقعية فى الكتاب أمر مكتمل . وها هو دوتى يحاول أن يقص على القارئ الحقيقة الكاملة والدقيقة لكل ما شاهده ورآه . وإذا ما كان هناك تحيز فى الكتاب فهو ضد العرب ، لأنه أحبهم حبا جما ؛ لقد بلغ دوتى من التأثر بجاذبية العرب ؛ وعزلتهم واستقلالهم مبلغا جعله يشعر بالسعادة عندما يعرض فضائلهم من خلال التعبير الدقيق عن نقائضهم وعيوبهم . وهاهو دوتى يقول : "لو قدر لإنسان تمضية شيئ من الوقت مع العرب فستظل مشاعره بعد ذلك متعلقة بالصحراء" . لقد خبر دوتى هذه الحياة بنفسه ، خبر معيار البداوة ، هذا النظام الذى يعد أقذع النظم الاجتماعية وأقساها ، والذى عمل دوتى جاهداً ، من جانبه ، على تقديم صورة لنا عن ذلك النظام

بألوانه وأطيافه الحقيقية ؛ مفادها أن ذلك النظام هو حياة بالغة الصعوبة ، وشديدة الفراغ ، وشديدة الإنكار للجميع اللهم باستثناء أقوى الرجال وأمضاهم عزما . وليس هناك شيء أقوى أو أكثر واقعية من ذلك السجل المكتوب الذى أورده دوتى عن أحداثه ومصاعبه اليومية وعن المشاعر التى راودته وهو يشق طريقه . والصورة التى أوردها عن الساميين ، وهم غارقين حتى عيونهم فى محفل الشر ، ولكن جباههم كادت تلامس السماء ، هذه الصوره تلخص فى إيجاز وتركيز قوة هؤلاء الساميين وضعفهم ، كما توجز أيضا التناقضات الغريبة فى فكرهم ، وهذا هو ما يستثير فينا الفضول على وجه السرعة عندما نلتقى بأولئك الساميين أول مرة .

ونحن عندما حاولنا حل لغز هؤلاء العرب ، ذهب الكثيرون منا مذاهب شتى ليغوصوا فى أعماق مجتمع أولئك العرب ، ليقفوا على صلابة عقيدتهم ، ذلك القيد الذى يشبه قيود الرياضيات ، *التى تنفر وتشمئز منا من خلال شكلها الذى لا يتعاطف معنا* . والساميون لا يعرف سجل رؤاهم تدرج الألوان من الأسود إلى الأبيض . والسبب فى ذلك أنهم أناس لا يعرفون سوى الألوان الأولية ، وبخاصة الأبيض والأسود ، ولذلك فهم يرون الدنيا على شكل خط واحد . هذا يعنى أن الساميين أناس يحتقرون الشك ، كما يحتقرون أيضا منغصاتنا الحديثة . هؤلاء الساميون لا يفهمون المصاعب التجريدية ، أو إن شئت فقل المصاعب العقلانية ، التى تواجهنا ، كما لا يفهمون أيضا جلدنا لأنفسنا .

هذا يعنى أن الساميين إما بيض أو سود لا من حيث الرؤى فقط وإنما من حيث دخائلهم أيضا ؛ إنهم بيض أو سود لا من حيث الوضوح وإنما أيضا من حيث المجاورة . هذا يعنى أيضا أن أفكارهم تعيش حرة فيما بين هذين الطرفين . هذا يعنى أيضا أن الساميين يختزنون المبالغات ويقيمون فيها باختيارهم هم أنفسهم . وهم فى بعض الأحيان قد تتملكهم تماما المتناقضات الكبيرة . هؤلاء الساميون يستبعدون الحل الوسط ، ويتبعون منطق أفكارهم إلى حد سخيف لا يقبله العقل ، ودونما نظر إلى النتائج المتعارضة التى يتوصلون إليها . هذا يعنى أيضا أن هؤلاء الساميين يتذبذبون بعقولهم الباردة وأحكامهم الهادئة فيما بين الخطين المتقاربين ، وعلى نحو غير نظيف يجعلهم يبدون وكأنهم غير واعين ذلك الهروب الأهوج .

معنى ذلك أن الساميين أناس محدودين وضيقى الأفق كما أن أفكارهم الجامدة تبدو ضحلة بشكل واضح تماما . هذا يعنى أن خيال هؤلاء الناس يمتاز بالقوة والحدة ولكنه يفتقر إلى الإبداع . وآسيا فى أيامنا هذه ليس فيها من الفن العربى شيئا وبالتالى يمكن القول : بأن أولئك الساميين ليس لهم فن ، بالرغم من أن قادتهم وحكامهم هم رعاة كرام للفن ، ويشجعون مواهب جيرانهم فى العمارة ، وفى الخزف ، والحرف اليدوية . هؤلاء الساميون لا يتوقون شوقا إلى الصناعة العظيمة ، وليست لديهم تنظيمات ذهنية أو بدنية فى أى مكان من الأماكن . هؤلاء الساميون لا يخترعون أو يبدعون أية منظومة من المنظومات الفلسفية أو اللاهوتية . هم فى أضعف الأحوال أناس خاملون يقبلون نغمة الحياة على علاتها ، باعتبار أنها مسلمة حقيقية لا تحتاج إلى برهان . هؤلاء الناس يأخذون نعمة الحياة على أنها شىء حتمى ومقسوم ، أو إن شئت فقل : شىء موقوف على الإنسان ، أو حق انتفاع ، خارج عن حدود سيطرتنا . من هنا فالانتحار عند هؤلاء الناس أمر مستحيل . كما أن الموت لا يشكل لهم أى نوع من الحزن أو الأسى .

الساميون هم شعب النوبات ، شعب الطوفانات ، شعب الأفكار ، إنهم عرق العبقرية الفردية . تحركات هؤلاء الناس تكون مفاجئة إذا ما قارناها بالهدوء الذى يكتنف حياتهم اليومية ، وعظماء هؤلاء القوم يزدادون عظمة عندما نقارنهم بإنسانية السواد الأعظم منهم . قناعات هؤلاء الناس أمور فطرية . ونشاطاتهم مستوحاة من الإلهام . وأفضل إنتاجهم فى مجال العقيدة والمذاهب . وهم يحتكرون مجال الأديان السماوية (المنزَّلة) ، ويرون أن هناك دوما عداءً بين الجسد والروح ، ومن ثم فهم يركزون على الروح ويؤكدون عليها . ورد فعل هؤلاء الناس العميق على المادة هو الذى يجعلهم يبشرون بالجدب ، والتنازل والفقر : وهذا الجو كفيل بخنق عقول الصحراء بلا رحمة أو هوادة . هؤلاء الساميون يتطلعون دوما إلى تلك الأشياء التى لم يكن للجنس البشرى فيها دور أو مصير .

معروف أن البدوى ولد فى الصحراء وتربى فيها ، ومعروف أيضا أن البدوى احتضن ذلك الجدب القاسى جداً على المتطوعين ، واحتفظ به داخل نفسه ، لأسباب أحسها ولا يمكنه التعبير عنها ، الأمر الذى يجعله يحس بالحرية دون أدنى

شك . البدوى يفتقد كل الروابط الطبيعية ، كما يفتقر أيضا إلى الزيادات أو المضاعفات اللازمة لتحقيق تلك الحرية الشخصية التى تحوِّم فى سماء الموت جوعا وفى سماء الموت أوالوفاة . والبدوى لا يرى أية فضيلة فى الفقر بحد ذاته ؛ وهو يتمتع بالرذائل الصغيرة ومظاهر الترف الصغيرة أيضا ، والتى من قبيل : القهوة ، والماء العذب ، والنساء – وكلها أمور بوسعه الحصول عليها أو تحقيقها . حياة هذا البدوى عامرة بالهواء والرياح ، والشمس والضوء ؛ يضاف إلى ذلك أن حياة هذا الرجل عامرة أيضا بالأماكن الواسعة والمفتوحة ، وعامرة أيضا بالفراغ . هذا يعنى أن الطبيعة التى تحيط بذلك البدوى خلو من الجهد البشرى ومن الخصوبة أيضا ؛ كل ما يراه ذلك البدوى هو السماء من فوقه وامتداد الأرض اللانهائى من تحته ؛ من هنا يصبح الله هو الملجأ والإيقاع الوحيد فى حياة هؤلاء البدو . هذا الإله الواحد ليس له شبيه أو مثيل عند العربى ، وهو أيضا ليس محسوسًا أو معنويا أو خلافيا وأن هذا الإله الواحد ليس معنيا بالعالم أو حتى بذلك البدوى بشكل خاص . هو وحده (سبحانه) العظيم ، ومع ذلك فهو بسيط وهذا الأله العربى هو الذى يتحكم فى مأكلهم ، وفى قتالهم وفى شهوتهم ؛ وهو أيضا فكرهم الشائع . وهو أيضا الرفيق ، على نحو مستحيل بالنسبة لأولئك الذين يتقنع إلاَهم بقناع العبادة الشرعية متسما بالحشمة والوقار . والعرب لا يستشعرون أى نوع من الغرابة عندما يقحمون الله فى ضعفهم وفى ملذاتهم . والله هو الأكثر شيوعا فى كلام هؤلاء البدو .

المعروف أن عقيده الصحراء إنما هى ميراث فى واقع الأمر . والعربى لا يثمن تلك العقيدة غاليا . إذ لم يسبق مطلقا أن كان ذلك العربى واحداً من كتّاب الأناجيل الأربعة أو واحداً من أولئك الذين يعتنقون دينا جديدا أو يدخلون فيه . والعربى يصل إلى ذلك التركيز الشديد لنفسه فى ذات الله عن طريق عزل نفسه عن الدنيا من حوله ، وعزل نفسه أيضا عن الإمكانيات المركبة الكامنة فى داخله والتى لا تخرجها من داخله سوى الثروة أو الإغواء والإغراء . صحيح أن العربى يحقق ثقة أكيدة وثقة قوية ، ولكن مجال هذه الثقة الأكيدة والقوية ضيق للغاية ! وخبرة ذلك العربى العقيمة هى التى تسىء استعمال الحنان الإنسانى عند العربى وتوجهه صوب صورة الأرض الخراب التى يختبئ فيها . من هنا فإن العربى يؤذى نفسه ، ليس حبا فى الحرية وإنما لكى يرضى

نفسه . وهذا بدوره يستتبع لذة ذاتية فى الألم ، تلك القسوة التى تعنى عنده ما هو أكثر من بضاعته . والعربى الصحراوى لا يجد متعة أو لذة أكثر من تلك التى يصيبها جراء التراجع طواعية واختيارا ، والعربى يجد متعة فى حرمان نفسه ، وفى التخلى ، وأيضا فى السيطرة على نفسه . وهو يحيا حياته الخاصة فى إطار حماقة قاسية . وهو يجعل من صحرائه بيتا من الثلج ، يحتفظ فيه على مر العصور بفكرة وحدة الإله سليمة وبلا أى تحسين .

تجول دوتى بين هؤلاء الناس محايدا ، وألقى نظرة على حياتهم ثم دونها بعد ذلك كلمة بكلمة وحرف بحرف . كما استطاع دوتى بفضل عروبة سلوكه وتصرفاته وبفضل أوروبيه عقله وذهنه ، الحفاظ على عدالة الحكم واكتماله ، فى الوقت الذى أظهر خلاله تعاطفه الكامل معهم ، الأمر الذى جعلهم يكشفون له عن أخص أفكارهم . وبعد انتهاء محاولة دوتى التى دامت عامين عاد وهو يحمل معه فى كراسة الملاحظات (بقدر ما أسعفه فن الكتابة فى التعبير عن فن الحياة) روح الصحراء ، أو إن شئت فقل : الحياة الكاملة لمجتمع بارز ومكتف ذاتيا ، مجتمع منعزل عن تيارات الدنيا داخل تلك الصحراء المملة وغير المتغيرة ، ذلك المجتمع الذى يمضى أيامه فى بيئة غريبة علينا تماما . والسبب الاقتصادى الذى يقف من وراء حياة هؤلاء العرب هو الطلب على الإبل ، التى يمكن تربيتها ، على أفضل نحو ممكن ، على أشواك ونباتات تلك الأراضى المرتفعه . والصحراء تعجز عن كل التطورات الأخرى ، اللهم باستثناء صلاحيتها لتربية الإبل . تربية الإبل هى التى تجعل البدو رحَّالاً . والإبل لا تعيش إلا على مراعى الصحراء ، ونظرا لندرة المراعى فى الصحراء فإن القطيع الكبير يستطيع الإجهاز على أى مرعى من المراعى مهما كان . وهنا يتعين على تلك الإبل أن تنتقل مع أصحابها إلى مرعى آخر ، ومن هنا فإن الإبل هى وأصحابها يقومون بدورة شهر بعد آخر ، على طريق الذى يحدده هو وجود الحياة النباتية التى تنشأ بفعل تساقط مياه المطر المتقطعة على بعض الأماكن المتفرقة .

التنظيم الاجتماعى فى الصحراء يتمثل فى القبائل والسبب فى ذلك يرجع ، من ناحية ، إلى الإحساس الأسرى الأصيل ، ومن ناحية أخرى إلى الفكرة التى مفادها أن غريزة المحافظة على النفس هى التى تجبر أعدادا كبيرة من الرجال على التماسك طلبا

للمعاونة والمساعدة المتبادلة . والرجل عندما ينتمى إلى قبيلة معروفة يستشعر أن لديه هيئة قوية من أقربائه الاسميين ، يهبون لمساعدته إذا ما تعرض لخطر من الأخطار ، أو عندما يصيبه أذى ؛ كما تهب هذه الهيئة أيضا لتحمل عنه أثقاله وتبرئه من أخطائه ، عندما يكون مذنبا أو مخطئا . والمعروف أن هذه المسئولية الجماعية تجعل الأفراد يحرصون على عدم الإساءة إلى الغير أو التعدى عليهم ؛ يضاف إلى ذلك أن تلك المسئولية الجماعية تجعل العقاب أمرا سهلا . والمخطئ يجرى عزله عن النظام ويصبح فى عرف المنفى إلى أن يستعيد الأمن والسلام مرة أخرى من خلال الرأى العام لأفراد قبيلته .

كل قبيلة من القبائل لها منطقتها الخاصة بها فى الصحراء . والذى يحدد مدى وطبيعة تلك المناطق القبلية هى القوانين الاقتصاديه لتربية الإبل . من هنا فإن كل قبيله تتهيأ لها فرصة جيدة للحصول على مرعى لها على امتداد العام المعتاد ، كما تستحوذ كل قبيلة من تلك القبائل أيضا على ما يكفيها من مياه الشرب لها ولبقية أفرادها كل عام ؛ ولكن فقر هذه البلاد يفرض تقسيم نفسه داخليا فيما بين أفراد القبيلة . والسبب فى ذلك أن مصادر المياه عادة ما تكون على هيئة آبار منفردة (وغالبا ما تكون تلك الآبار نادرة جداً أو شحيحة) ، إضافة إلى أن المراعى لا تعدو أن تكون بقعًا أو مناطق صغيره مبعثرة هنا وهناك داخل بعض الوديان المحميه أو فى الواحات فيما بين الصخور . هذا يعنى أن تلك المراعى أو المساقى لا يمكن أن تتسع فى وقت من الأوقات لكل أفراد القبيلة ، الأمر الذى يضطرها إلى الانقسام إلى عشائر ، لتعيش دوما على هذه الشاكلة ، بأن تروح كل عشيره تدور دورتها الخاصة بها ولكن فى إطار المدار المحدد للقبيلة بشكل عام .

هذا المجتمع يتسم بالأمية ، ومن هنا تحافظ كل عشيرة من العشائر على صغر حجمها حتى يتسنى لرجالها الالتقاء ببعضهم من حين لآخر ، ليناقشوا شفاهة فيما بينهم المسائل المشتركة التى تهمهم . والاتصال العام الذى يكون من هذا القبيل ، هو وحياة هؤلاء الناس المفتوحة التى يعيشون فيها فى خيام متجاورة ، هما اللذان يهيئان خصوصية الصحراء إلى حد بعيد . هنا نجد الإنسان يعيش حياة صريحة مع أخيه الإنسان . من هنا أيضا نجد أن ذلك المجتمع دائم الحركة ، وتتهيأ فيه فرصة التساوى

بين الذكور فيما يتعلق بالأصوات والفرص . ووجار قهوه شيخ العشيرة اليومى هو مصدر تعليم رجال العشيرة ، هذا الوجار يمثل الجامعة عند كل من يكبر من الذكور ويستطيع المشى والكلام .

ووجار قهوة شيخ العشيرة هو وكالة الأنباء عند أفراد تلك العشيرة ، وهو أيضا المحكمة ، فضلا عن أنه هو الذى يعبر عنهم من الناحية السياسية ، كما أنه حكومتهم أيضا . وأفراد العشيرة يحملون كل يوم أفكارهم ، وخبراتهم ، وآرائهم إلى مقهى شيخ العشيرة كيما ينقلوها إليه ويناقشونها على الملأ فيما بينهم ، وهم يشحذون همم بعضهم ، حتى يتسنى لمجتمع الصحراء أن يتسم دوما بالحيوية ، وحتى يتسنى أيضا تثقيف ذلك المجتمع والارتفاع بمستواه الأخلاقى ، ويكون وسيع الصدر مع الأفكار الجديدة . والشائعات العامة تزيد من ثبات أفراد ذلك المجتمع شأنهم شأن الصحراء التى يعيشون فيها ؛ ولكن أفراد هذا المجتمع يكشفون ، فى معظم الأحيان ، عن انفتاح أذهانهم ، وعن تقبلهم للمستحدثات الجديدة المفيدة . يضاف إلى ذلك أن مصالح هؤلاء الناس الأصلية والقليلة هى التى تسهل لهم تغيير أساليبهم ؛ ومع كل ذلك ، فنحن نندهش عندما نجد أولئك الناس يقبلون قلبا وقالبا على مستحدث من المستحدثات يجدونه مناسبا لحياتهم . وهاهو البن ، والبارود والأقمشه القطنية المصنوعة فى مانشستر كلها أشياء جديدة ، ومع ذلك تبدو محلية إلى الحد الذى لا يمكن تصور ما يمكن أن تكون عليه حياة الصحراء فى غياب مثل هذه الأشياء .

وبناء على ما تقدم ، قد يتصور الإنسان أن كتابا مثل صحراء الجزيرة العربية ، الذى ألفه دوتى منذ أربعين عاما ، يمكن أن يكون غير دقيق ، فى أيامنا هذه ، فيما يتعلق بتلك الأشياء الصغيرة التى من هذا القبيل ، ولو كان دوتى قد اعتمد فى ذلك الكتاب ، على الناحية العلمية فقط ، التى تركز على بل وتعتمد على التعبير بدلا من الاعتماد على روح الأشياء ، لو كان قد فعل ذلك ، لولىّ زمان ذلك الكتاب وأصابه التقادم . ومن حسن الحظ ، أن جمال الحكى ، وحيويته ، هو والشخصيات المنتخبة ، فضلاً عن المناظر الطبيعية الأرضية ، ستبقى إلى أبد الآبدين ، وستجعل ذلك الكتاب

فريدا ولا مثيل له ، بل إنه سيصبح أساسًا لا غنى عنه فى مسألة فهم الصحراء فهما حقيقيا . وعلى امتداد تلك السنوات الأربعين عجزت التغييرات المادية عجزًا تاما عن جعل تلك السنوات جديرة بتسجيلها تسجيلا مفصلا بحق .

يضاف إلى ذلك أن النقوش التى جرى العثور عليها من مدائن صالح بدأت دراستها اعتبارًا من زمن دوتى ، على أيدى الآباء الدومينكان فى القدس ، وبذلك أمكن إضافه القليل إلى الكنز الذى قدمه لنا . زد على ذلك ؛ أن حجر تيماء العظيم الذى بقى فى الحدَّاج (البئر) ، جرى البحث عنه بواسطة الرحالة الذين جاءوا بعد دوتى ، ثم جرى فى النهاية شراء ذلك الحجر ونقله إلى أوروبا . وجمع دوتى تلك النقوش العربية البدائية عمل لم يسبقه إليه أحد ؛ ومع ذلك يظل دوتى هو صاحب الفضل فى اكتشاف تلك النقوش . يُزاد على ذلك أن خارطة دوتى هى وبعض من معلوماته الجغرافية جرت إضافتها بل وربطها بالمعلومات التى توفرت من بعده . والمعروف أن أناسا كانوا يحملون معهم آلات للتصوير ، تجولوا هنا وهناك ، فى حرَّات العويرض التى أمضى دوتى فيها بضعة أسابيع ، والتى كتب عنها وصفا شديد الحيوية . صحيح أننا نتعرف من تلك الصور ، السطح الخارجى لتلك الحرَّات ، تعرفا دقيقا ؛ ولكننا عندما نقرأ وصف دوتى لتلك الحرَّات نقف على الأحاسيس والمشاعر التى تثيرها تلك الحرات فى الإنسان . صحيح أيضا أن السيارات من طرازى كروسلى **Crossley** ورولز رويس **Rolls-Royce** جابت بعض أرجاء ذلك الذى يطلقون عليه اسم وادى حمض **Humth**، الذى كان دوتى أول من أوضح أهميته لأوروبا . زد على ذلك ، أن الطائرات حلقت فوق التلال التى عانى دوتى آلاما كثيرة جراء السير فيها . ومن سوء الطالع أن أولئك الذين كانوا فى تلك السيارات ، وهؤلاء الذين حلقوا بالطائرات عجزوا عن تأليف كتب صادقة عن البلاد التى جابوها أو حلقوا فوقها .

أحدث خط حديد الحجاز تغييرًا آخرا فى الجزيرة العربية ؛ إذ افتتح ذلك الخط قادما من دمشق إلى المدينة (المنورة) فى العام ١٩٠٩ ، وبذلك أنهى هذا الخط ذلك الجيش الجرار الذى كان يتحرك على طريق الحج . أصبح أمير الحج هو ورجاله يقطعون هذه الرحلة فى القطار ، وبذلك يموت ذلك الموكب التاريخى البهى السنوى

أيضا ، والذى كان يتكون من قافلة كبيرة من الجمال . وبذلك يختفى طريق الحج الذى رسم لنا دوتى صورة للمئات من مدقاته ؛ اختفى ذلك الطريق لقلة الأقدام التى كانت تطرقه وتدوس عليه ؛ كما اختفت أيضا تلك القلاع وتلك الأسبلة التى شرب منها دوتى وهو فى طريقه إلى مدائن صالح ؛ اختفت كل تلك القلاع والأسبلة وأصبحت أطلالا وخرائب ، اللهم بإستثناء أنها لا تفى حاليا إلا بحاجات بعض نقاط الحراسة ، التى تتولى حراسة ذلك الخط الحديدى .

زد على ذلك ، أن أسرة الرشيد المالكة بدأت اعتبارا من زيارة دوتى تسلك مسارا دمويا مثلما كانت تفعل من قبل . وها هو سعود ، آخر الأمراء ، الذى جرى اغتياله فى العام ١٩٢٠ الميلادى ، ولم يتبق على قيد الحياة من تلك الأسرة المالكة سوى طفل صغير ، تتلاعب بقصور سنه مطامح واحد وآخر من كبار مشايخ قبيلة الشمر ، وعلى الجانب الآخر ، عاد الانتعاش والحياة فجأة ، خلال ذلك الجيل ، إلى الأسرة الوهابية المالكة فى الرياض ، بعد أن أفل نجمها ، عاد إليها ، بفضل شجاعة وطاقة الأمير الحالى ، عبد العزيز ، الذى استطاع إخضاع نجد بكاملها بقوة سلاحه ، كما أحيا أيضا المذهب الوهابى فى الإمارة الجديدة ، ويتطلع أيضا إلى إخضاع كل صحارى شبه الجزيرة العربيه الداخليه لعقيدته . وكان أصغر أبناء عبد العزيز من ضمن الوفد الذى أرسله إلى إنجلترا . برئاسة هارى سينت فيلبى ، الذى شغل منصب الممثل البريطانى المقيم فى الرياض مدة من الزمن ، أثناء الحرب العالمية الأولى ؛ وقد زار أفراد ذلك الوفد السيد دوتى أثناء وجودهم فى إنجلترا .

كانت أشرفية مكة التى استراح دوتى بإنسانيتها عندما كان فى الطائف بعد انتهاء مغامراته ، تتنافس على القيادة الفكرية للعرب فى العام ١٩١٦ الميلادى ، عندما أعلنت الثورة على الأتراك مستغلة فى ذلك مبدأ القومية . قام عرب الغرب (غرب الجزيرة العربية) ، الذين ذاعت بينهم أعمال دوتى وأساليبه منذ فترة طويلة . بدور بطولى فى الحرب العالمية الأولى من منطلق تحالفهم مع بريطانيا العظمى من ناحية وبعون ومساعدة منا من الناحية الأخرى . وهنا تولى أولاد الشريف حسين الأربعة قيادة حضر وقبليى الحجاز ، ومكنوا الضباط البريطانين الذين كانوا يساعدونهم ، من حرية الصحراء . هذا يعنى انضمام كل الأسماء القديمة إلى جانبنا . كانت هناك قبائل

حرب ، وجهينة ، والبلِّى الذين أتى دوتى على ذكرهم . كما انضم إلينا أيضا مضيفوه موءاهيب أبو شامة ، وأبلوا أيضا بلاء حسنا . كما أحضر فرحان ، ولد مطلق ، والعَلايدة Allayyda، الذين قاموا مع فجر ، الابن الثانى من أبناء مطلق ، بالاستيلاء على كل من تيماء وخيبر من الحاميات التركية ، وقاموا بتسليمهما للملك حسين .

ثم انضم الشمر إلينا فى مرحلة لاحقة ، كما توافد المتطوعون علينا من القصيم ، ومن عنيزة ، ومن بريدة ، ومن الرسَّ Russ ليساعدوا فى شن الحرب على الأتراك . واستولى البريطانيون على مدائن صالح وعلى العلا ، كما استولوا أيضا فى أقصى الشمال ، على كل من تبوك ، ومعان ، وبلاد بنى صخر ، كما استولوا أيضا على طريق الحج بكامله اعتبارا من تلك المنطقة وحتى دمشق ، الأمر الذى أدى إلى صعوبة رحلة العودة من ذلك الطريق الذى بدأ منه دوتى تجواله وترحاله . وقد تحول كتاب صحراء الجزيرة العربية ، الذى كان يثير المتعة فى نفس قارئه ، باعتباره سجلاً من سجلات المغامرة والترحال (بل ربما يكون أعظم الكتب التى كتبت بلغتنا فى هذا المجال) ، وباعتباره أيضا أعظم الكتب التى ترسم صورة لحياة البدو الرُّحل ، تحول هذا الكتاب إلى واحد من الكتب العسكرية المقررة ، إضافة إلى أن ذلك الكتاب عاون على هدينا إلى طريق الإنتصار فى الشرق . وبذلك يكون العرب الذين سمحوا لدوتى بالتجوال فى مناطقهم الممنوعة والمحرمة ، قد حققوا استثماراً طيبا لأبنائهم ولأحفادهم من بعدهم .

من خلال تجربة تلك الحرب العظمى تغيرت بؤرة الاهتمام فى الصحراء ، الأمر الذى أحدث ثورة فيما بين العرب . ففى أيام دوتى ، وهذا نقلا عن كتابه . كان هناك مسلمون ومسيحيون ، باعتبار أن هذين كانا هما التقسيمان الرئيسيان . ولكن ذلك التباين اختفى بالأمس ونوى ؛ ولم يتبقى من ذلك التباين سوى هؤلاء الذين انضموا إلى صف الحلفاء ، وأولئك الذين وقفوا إلى جانب دول المحور . كان عرب المنطقة الغربية ، قد تعلموا على امتداد تلك السنوات الأربعين ، الكثير من الأفكار الأوروبية مما جعلهم يقبلون مبدأ القومية ويتخذون منه أساساً لعملهم . بل إن قبولهم لمبدأ القومية وصل بهم إلى حد الدخول فى حرب على خليفتهم ، سلطان تركيا ، حتى ينالوا حق الحرية الوطنية . وهنا نجد أن الدين الذى كان بمثابة الدافع والطابع الرئيسى فى الصحراء ، قد استسلم للسياسة بل إنّ مكة ، التى كانت مدينة عبادة وحسب ، تحولت

إلى عاصمة مؤقته للدولة الجديدة . وهنا تحول العداء الذى كان ينصب على المسيحيين ، لينصب على الأجنبى الذى يتجرأ على التدخل فى شئون المناطق الناطقه باللغه العربية .

على كل حال ، لقد طالت منى هذه المقدمة . ومن هنا ربما أكون قد عطلت أولئك الذين يفضلون قراءة كتاب دوتى من بدايته ، وعليه ربما أكون قد أسأت عندما حاولت وضع اسمى بالقرب من اسم ذلك الشخص الذى أحسبه واحدا من أعظم كتاب النثر فى أدبنا . وكتاب صحراء الجزيرة العربية واحدا من الكتب التى تبدأ بداية قوية ، فضلا عن كتابته بأسلوب ليس له أب أو ابن ، مكتوب بدقة بالغة ، مكتوب بتركيز شديد ، دقيق جدًا فى كلماته وفى عباراته ، إلى حد أنه بحاجة إلى قارئ رصين متمرس . الكتاب ، فى ظاهره ، يبدو وكأنه لم يكتب بسهوله ويسر ؛ ولكن قارئ الكتاب يستطيع ، من خلال صفحات قليلة منه أن يعرف عن العرب ما هو أكثر بكثير مما كتبه المؤلفون الآخرون عن هذا الموضوع ؛ يضاف إلى ذلك أن القارئ كلما مضى قدما فى قراءة ذلك الكتاب يزداد اكتشافه لالتصاق الأسلوب بالموضوع ، ويزداد أيضا تذوقه للكتاب واستساغة لأسلوبه .

وصف مسير القافلة على طريق الحج . والصورة التى رسمها دوتى لخيمة زيد ، ووصف دوتى لمحكمة بن الرشيد فى حائل ، ووصفه أيضا للقرية الزنجية فى خيبر ، وكذلك وصفه لحياة الحضر فى عنيزة ، والمسيرة الطويلة التى قطعها دوتى عبر الطريق الصحراوى إلى مكة ، كل وصف من هذه الأوصاف يجىء أفضل من الوصف السابق له إلى أن يصل دوتى إلى ذروة الكتاب بالقرب من مدينة الطائف ، ثم تعقب تلك الإثاره خاتمة الكتاب التى تجىء على شكل فصل تناول فيه دوتى الطريق المؤدى إلى جده ، حيث كرم بيت محمد نصيف ، والقنصلية البريطانية .

إنجاز رحلة من هذا القبيل يمكن أن تعد إنجازا عظيما لأى رجل من عامة الرجال . ولكن دوتى لم يقتنع إلا بعد أن جعل الكتاب مبررا للرحلة بقدر ما جعل الرحلة مبررا للكتاب نفسه ؛ ومن حيث القوه المزدوجة ، المتمثله فى الترحال وفى الكتابة ، لا نجد لدوتى مثيلا فى هذا المجال .

توماس . إدوارد . لورانس

أكسفورد ١٩٢١

تصدير الطبعة الأولى

لم نضع سوى اسم على السفينة ، التى بنتها أيدينا فى عقد من الزمان (كان كله عملا مستمرا بلا توقف) ؛ وحددنا فى ذلك الاسم اليوم الذى جرى فيه تدشين المركب لتنطلق إلى المياه العظيمة ؛ والأمر هنا لا يحتاج منا سوى بضع كلمات قليلة . وكتاب صحراء الجزيرة العربية ليس حليبا للأطفال : وإنما يمكن تشبيهة بمرآة ، تعكس بأمانة مطلقة حزمة من أشعة تربة الجزيرة العربية تفوح منها رائحة السمن والإبل . وأنا على ثقة ، فيما يتعلق بأشخاص الكتاب ، أنه إذا ما أعيد على مسامع هؤلاء الأشخاص الكلام (الذى جرى تدوينه من أفواههم طوال اليوم) باللغة العربية ، فالأرجح أن كل من ورد ذكرهم فى ذلك الكلام ، ربما يسمعون أصواتهم الحقيقية ؛ كما أن كثيرا من المتفرجين الوقحين ، الذين سيضربون أفخاذهم بشدة ، ينبغى أن يقروا ويشهدوا قائلين "إى والله ، بمعنى 'هذا لطيف بحق وحقيقة" !

عندما كنت أكتب وأنا بعيد عن الكتب وفى بلاد أجنبية لم أكن أعرف سوى القليل جداً ، عن أولئك المؤلفين العرب القلائل القدامى ، الذين تناولوا الجانب الآسيوى لكل من القبائل والمدن ووصف بعض الرحلات فى شبه الجزيرة العربية الشاسعة . أما أنا فقد بلغ الضيق منى مبلغا جعلنى لا ألقى بالا لأى شىء سوى ذلك الذى صادفته فى طريقى وأثناء مسيرى ، يضاف إلى ذلك أن أهل العلم شجعونى على أن أترك أمرهم للباحثين والدارسين . والشىء نفسه يمكن أن يقال عن كتابات الأوروبين الاثنين أو الثلاثة [والين ، وبالجريف ، وجوارمانى] الذين زاروا كلا من حائل وتيماء قبل زيارتى لهما ؛ واللتين لم تكونا معروفتين لى ، عندما تجولت فى الجزيرة العربية ، (واعتبارا من ذلك التاريخ) إلا من خلال البحث القيم الذى ألفه "إيه زهمى" A-Zehme .

والجزء الأول من عملى – والمتمثل فى النقوش التى أحضرتها من الجزيرة العربية – نشرته الأكاديمية الفرنسية فى باريس . ومن باريس جرى تزيين الجزء الأول من الكتاب بالترجمة التى قدمها السيد م . رينان للنقوش (الآرامية) التى كانت على شواهد القبور فى مدائن صالح أو الحجر . وفى نهاية الجزء الأول سيجد القارئ الملاحظة القيمة التى أبداها المركيز دى . فوج عن العمارة المنحوته لتلك الآثار . وقد ألحقت بالجزء الثانى من الكتاب بعض الملاحظات عن التركيب الجيولوجى للجزيرة العربية . كما أضفت شيئا ثالثا يتمثل فى الخارطة التى ألحقتها بهذين الجزئين .

مع تمنياتى بنجاح حقيقى

شارلز م. دوتى

تصدير الطبعة الثانية

تعد قصة الأرض ، بكل تباينها الحيوانى الحى ، وأجيالها البشريه وصخورها القديمة ، هى أمر بالغ الأهمية عند تلك الأذهان الكثيرة التى تسعى إلى المعرفة والتثقيف الفلسفيين .

خلاصة القول : أنى شرعت فى رحلتى مع مثل هذه الأفكار ، التى هى ليست أفكارا دنيوية وباعتبارى تابعا من أتباع ربة الشعر والفن ومصدر الإلهام عند سبنسر Spenser وعند شوسر Chaucer المبجل المحترم ؛ وذلك بعد أن كنت قد أمضيت القسم الأكبر من عقد من الزمن فى مطلع عهد رجولتى ، فى التجوال المستمر فى السواد الأعظم من بلدان القارة الأوروبيه ، لأصل فى نهاية المطاف إلى سوريا ، وبعد أن تجولت خلال فلسطين بطولها وعرضها وصلت إلى مصر وسيناء ؛ اللتان واصلت التجوال منهما بصحبة بعض من البدو المترحلين الذين كانوا بمثابة مرشدين ، خلال الجزء الأكبر من تلك المتاهة الجبلية الموحشة المكونة من وديان لا تسقط عليها الأمطار ؛ تلك الوديان التى صقلت الرياح الرملية بعض صخورها وأحجارها ، التى تحمل فى معظمها شخبطة غريبة من شخبطات النقوش الصخرية النبطية (أسماء ، وأقوال مأثورة ، وأمثال حكيمة وتحيات من عابرى ذلك الطريق القدماء) . وانطلقت من تلك الوديان إلى إيدوم Edom، حيث زرت بيترا Petra، وفى مستوطنة معان ، ، التى تبعد بضعة أميال قليله إلى الخلف من بيترا ، سمعت أيضا عن بعض الآثار الصخرية المنحوتة الشبيهة بآثار بيترا ، والتى كان عليها كثير من النقوش ، وذلك فى مدائن صالح . (*تلك كانت سقيا من مساقى قافلة الحج الدمشقية السنوية ، على امتداد* طريق الحج الصحراوى الطويل المؤدى إلى المدينة (المنورة) ومكة ؛ اللتين تقعان على بعد مسير أيام قلائل فى اتجاه الجنوب ، من مدينه معان ، ويصعب الوصول إليهما فى غير هذا الموعد تخوفا من أخطار البدو الهمج غير المتحضرين .)

أما مدائن صالح ، أو إن شئت فقل المدائن التى ذاع صيتها باسم النبى صالح ، ذلك الاسم الذى أطلقه الحجاج عليها ، ورد فى كثير من قصص " Fables "(*) القرآن ؛ والأصح ، من منطق القدم ، أن الحجر (كما هى حاليا على ألسنة البدو الرحل فى هذه البلاد) لم تكن معروفة للأوربيين فى ذلك الوقت .

ترى ، ما الذى يمكن أن تكونه تلك النقوش ؟ أنا لم أستطع أن أعرف من رفاقى العرب أى شيئ عن تلك النقوش سوى أنها لم تكن نقوشا عربية . وبالرغم من اهتمامى بكل ما يتصل بالأبحاث الإنجيلية إلا أننى قررت قبول المخاطرة بزيارة تلك النقوش .

ولم تتحقق تلك الزيارة إلا فى فترة لاحقة ، بعد أكثر من عام من المحاولات غير المثمرة ؛ وعندما عجزت عن العثور على وسيلة أخرى ، غامرت بالذهاب إلى هناك ، ضمن القافلة الدمشقية الكبيرة .

وعندما وصلت إلى مدائن صالح ، بعد رحلة ركوب متعبة ومضنية دامت ثلاثة أسابيع ، أمضيتها بين هذا الجمع الهائل من الحجيج الصاخب والمختلط فى معظم الأحيان ، والمخلص لدينه ؛ اكتشفت أن مدائن صالح عبارة عن سهل رملى من الأنقاض القديمة ، فيه بعض القمم الصخرية الرملية ؛ ونصبنا مخيمنا فى ذلك السهل بالقرب من صهريج مياه كبير تحميه من غائلة اعتداء البدو عليه ، قلعة تركية بدائية البناء ، يطلق الأتراك عليها بلغتهم الاسم : Kella ومن ذلك الصهريج يقوم الحجيج المرهقون بجلب الماء الذى يشربون منه ويسقون منه إبلهم العديدة .

ومن بين الصخور التالية لصخور مدائن صالح تراءت لى صخرة من الصخور الأثرية المنحوتة ، تلك الصخرة التى قطعت إليها تلك المسافة بحثا عنها بصفة خاصة . كما تراءت لى عند الأفق الغربى (بالرغم من عدم أهمية ذلك عندى) رءوس أو إن شئت فقل : قمم ، أوحت لى أشكالها أنها كانت بعض البراكين الخامدة أو المنقرضة (١).

(١) عثرت فى الرحلة التى قمت بها إلى الصحراء العالية بعد ذلك ، على العديد من تلال فوهات البراكين الكامنة أو الخامدة ، بل وقمت أيضا بزيارة تلك التلال ؛ وعبرت أيضا حرات شاسعة ، أو إن شئت فقل : مناطق من الحمم البركانية ، التى كانت تتناثر هنا وهناك إلى أن تصل إلى البلاد أو المنطقة المشرفة على مكة ، وأصبحت تلك المنطقة ضمن معرفتى وملاحظتى أيضا : والتى اكتسبت مخلوقاتها البرية (إذ شاهدت بنفسى الثعلب والغزال) اللون الأسمر الداكن الذى اكتست به تلك المناظر الطبيعية الوعرة .

(*) Fables : وردت هذه المفردة على لسان دوتى فى وصف القصص القرآنى ؛ فهو يراه من قبيل القصص الخرافية أو الأسطورية (الناشر) .

وطوال هذين الشهرين اللذين تبقيا على عودة الحج ، كنت أقوم بزيارة تلك الآثار واعتنيت تماما بطبع أحرفها الرسمية المنقوشة ؛ التى ثبت أنها كانت من نقوش المقابر والأضرحة ، كما ثبت أيضا أنها نبطية ، وأنها كانت أقدم قليلا من بداية العصر الذى نعيش فيه : كما اكتشفت ودونت بعض النقوش القليلة الأخرى على بعض أحجار البناء القديمة ، فى مستوطنه العلا الصحراويه المجاورة ، واتضح أن تلك النقوش كانت نقوشا حميرية (١) .

يعود الحجيج ، ولكنى لم أعد معهم إلى سوريا ؛ وإنما ركبت مع شيخ صديق من بين بدو المنطقة ، لأعيش معهم فترة من الزمن فى الصحراء المرتفعة . كنت أمل ، من وراء ذلك التصرف ، أن أتمكن من زيارة أراضى الجزيرة العربية المرتفعه المجاورة لأراضى تلك المنطقة من ناحية وألقى نظرة على تلك المسيرات الشاسعة الخالية من الماء التى كان يقوم بها العرب الرُّحل ؛ سكان الخيام ، الذين يسكنون ، منذ البداية منطقة كانت تبدو وكأنها فيما وراء العالم .

وفيما يتعلق بتلك المحاولة الجديدة ، لم يكن معى من المؤن سوى القليل جداً ؛ ومع ذلك لم أخطئ خطأ كبيرا ، عندما ارتكنت على وجودى (الذى يمكن أن يتحمل ولفترة طويلة ، مثلما حدث فى سيناء ، ما هو أكثر من حرارة شمس السماء والهواء) بين أناس قبليين جهلة وغير مثقفين يشيع عنهم أنهم لا يعرفون القانون ولا يلتزمون به ، (الذين استطعت بالرغم من كل ذلك ، أن يكون بينى وبينهم شيئ من التعارف المفضل والمقبول ؛) ذلك التعارف الذى التزم طوال تلك الحياه ، التى اتسمت بالعوز والمصاعب التى لا حد لها ، بمراعاة القانون السامى العظيم ، غير المدوَّن ؛ ألا وهو على وجه التحديد إيمان أولئك البدو الرحل القديم بعدم محدوديه أراضيهم الخراب الخالية . وأنا عندما أفعل ذلك ، ربما اكتشف شيئا يمكن إضافته إلى الرصيد العام للمعرفة الغربية .

(٢) عندما لم أجد وسيله أستطيع من خلالها ، بعد عودتى إلى بريطانيا ، نشر النقوش التى لاقيت الأمرين فى جمعها من الجزيرة العربية ، رأيت أن أقدمها إلى الجمعية السامية ، والتى بلغنى فيما بعد أنها كان يجرى اعدادها للنشر فى فرنسا : حيث أقرتها أكاديميه النقوش والدراسات الأدبية ، وقد جرى نشر تلك النقوش عن طريق التصوير ؛ وجرى اعدادها بفونط مقاسه ٤ درجات ، مع ترجمة لها أعدها السيد م . إى . رينان .

يضاف إلى ذلك أن الاسم إنجليزى [١] قد يُهدينى ، فى بداية الأمر ، شيئا من النفع ، فى الأماكن البعيدة التى ربما عرف فيها ذلك الاسم عن طريق القيل والقال ، الذى يتردد فى بعض المستوطنات الصحراوية . ومن الناحية الأخرى ، ومثلما حذرتنى بعض الأصوات الصديقة ، لابد أن كذا وكذا هو الذى يجعل غريزة هؤلاء البدو الرحل البدائية تبقى فيما وراء خيامهم ؛ هذا بالإضافة إلى مرارة التشدد الدينى وخيبته فى كل مكان .

فى تلك المغامرة التى بدأت على هذا النحو ، مضى علىَّ ، ما يقرب من عامين طويلين مرهقين ، فى ذلك المكان ، وأنا بين سكان تلك الأرض الخراب المبعثرين ، الذين يتسمون بالعداء والشك بشكل عام ؛ ولكن تلك الفترة لم تخلو من المناسبات السعيدة ، فى اكتشافى المتكرر ، وأنا أمضى قدما فى تلك المغامرة ، للرفقة والزمالة الإنسانية بين سكان الجزيرة العربية ، واكتشافى المتكرر أيضا لبعض الصداقات الحقة جداً أو المفيدة جداً أيضا ؛ تلك الصداقات التى مازلت أذكرها ، برغم المسافة الزمنية السحيقة بينى وبينها ، وسوف أظل أذكرها ، وأنا على قيد الحياة ، وأحترمها بعقل يعترف بالفضل ولا ينكره . وأنا أروى فى هذين الجزئين الأحداث العفوية التى وقعت لى : وأنا فى هذين الجزئين من الكتاب لم أدون سوى الأحداث التى رأيتها بعينى ، وسمعتها بأذنى ، واعتملت فى داخلى ، ولم أزد على ذلك أو أنقص منه [٢].

هذان الجزءان اللذان نشرتهما أيضا مطابع جامعة كمبردج نفدا من السوق منذ وقت طويل [٣]. وقد تطلب الأمر إعادة طباعة هذين الجزئين من جديد ؛ ولذلك جرى نشرهما بالصورة التى هما عليها فى هذه الطبعة الثانية ، وذلك بناء على اقتراح من صديقى المبجل العقيد تى . إى . لورنس ، الذى تولى مع فيصل الأمير المكىّ ، قيادة

(١) كلمة ' إنجليزى ' معناها بلغتنا Englishman .

(٢) قيل لى ، إن الناس طرحوا السؤال التالى : كيف استطعت تدوين هذا القدر الوفير من الملاحظات فى الجزيرة العربية المتشددة دينيا ؟ وأنا لم أجد صعوبة فى فعل ذلك . إذ كنت بينهم فى مركز أو مكانة الحكيم : يضاف إلى ذلك أنى لم أتورع عن استعمال المحبرة وقلم البسط وقت الفراغ ، فى خيمة البدو الرُحل ؛ ولكنى عندما كنت فى المستوطنات كنت أدون وأكتب كما أريد . وأنا لم أفعل أى شيئ خفى : ولذلك استطعت "كعابر طريق" ، المضى قدما فى ظل سمعة طيبة وحسن ظن من الكثيرين ، كما كنت أعثر دوما على أصدقاء متعاونين : الأمر الذى كلل رحلتى فى الجزيرة العربية بالنجاح فى نهاية الأمر .

(٣) نشرت دار نشر مسيرز طبعة مختصرة من هذين الجزئين .

البدو الرُّحل ؛ الذين اقتادهم هذان الاثنان – إذ لم يكن بوسع أحد غيرهم فعل ذلك – من جده ، ميناء مكة البحرى ، (وهم يمثلون أثناء مسيرتهم عداء دمويا قبليا مستحكما) ليستطيعا توحيد كل هذه القبائل ، على شكل موقف عسكرى منتصر فى وجه السيادة التركيه الفاسدة على تلك الأجزاء من البلاد : وبذلك يكون الأمير فيصل ، أمير مكة ، قد خدم قضية بلاده وحلفاءها ، من التوجه صوب محور الشرق ، وسط معارك الحرب العالميه الأولى ؛ التى كانت قد عبرت إقليم الجزيرة العربية الصحراوى الواسع .

[وأنا لا يسعنى هنا إنهاء هذا التصدير دون أن أشكر هؤلاء الناس الطيبين (الذين رحلوا عنا جميعا) ، وهم : هنرى برادشو ، الذى كان يشغل منصب أمين مكتبة جامعة كمبردج فى ذلك الوقت ، والأستاذ و . رايت **Wright** أستاذ اللغة العربية فى جامعة كمبردج . وبخاصة أن هذين الاثنين هما والأستاذ روبرتسون سميث ، أستاذ الدراسات السامية فى الجامعة ، استطاعوا إقناع هيئة مطبعة الجامعة إقناعا شديدا بالقيام بتحمل نفقات طباعة مخطوطة هذا الكتاب

شارلز م . دوتى

سبتمبر ١٩٢٠ .

تصدير الطبعة الثالثة

أنا لا أجد شيئا أضيفه عندما أكتب تصدير الطبعة الجديدة ، عقب نفاد الطبعة السابقة مباشرة .

معروف أن الحرب العالمية الأولى التى دارت رحاها فى زماننا ، أدخلت أراضى العرب ضمن أفق الدول الغربية .

وتجدر الإشارة هنا إلى رأى بعض الباحثين الذى مفاده أن شبه الجزيرة العربية الشاسع هو والقسم الأكبر من أراضيه القاحلة الخراب ، هو مهد حضارة ما قبل التاريخ ؛ فى شبه الجزيرة وفى الجزء الخراب منها نشأت وتربت حشود عدة من البشر ، ومن شبه الجزيرة ومن الجزء الخراب فيها ، انتشرت تلك الحشود الإنسانية ، التى تحولت ، فى عصور سابقة إلى شعوب سامية قوية واسعة الانتشار : هذه الشعوب تركت ، منذ بداية التاريخ بصمة أزلية لا تمحى على القارات الثلاثة التى كانت تشكل العالم القديم ؛ وقد تركزت تلك البصمة بصورة خاصة على الإحساس الدينى فى ذلك القسم الرئيسى من الجنس البشرى .

هضبة شمال الجزيرة العربية ، التى أتناولها فى هذين الجزئين ، والتى تسكنها قبائل بدوية مترحِّلة هم وسكان القرى الواحية ، تكاد تكون عديمة الأمطار ، كما يصل ارتفاعها إلى حوالى ٤٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ؛ فضلا عن كونها أرضا جافة منذ العصر الطباشيرى .

ولدينا أيضا بعض الأدلة على أن البشر عاشوا فى شبه الجزيرة العربية منذ بداية الكون ، وتتمثل تلك الأدلة فى صوَّان العصر الحجرى القديم ، الذى صنعت له أيدى البشر حداً حاميا ؛ ذلك الصوان الذى تم العثور عليه ضمن حصى أو زلط الصوَّان ، فى مدينة معان [١] ، بمنطقه إيدوم Edom .

(١) الجزء الأول ، ص ٦٧ ، ٧٧ (يمكن العثور على ذلك الصوَّان فى متحف جامعة أكسفورد .)

وفيما يتعلق بالعرب الرُّحل ، وقطعان الإبل والأغنام . وسكان الخيام السوداء وكذلك الستائر المصنوعة من قماش الشعر ، (التى يطلقون عليها إسم "بيوت الشّعر") فنحن نجد فى هذه الأشياء تلك الحياه الصحراوية ، التى عاشها أسلافهم ، فى خيام قيدار Kedar الإنجيلية .

هذا فى الوقت الذى تتردد فى آذاننا أصداء عباراتهم المتماثلة التى تشير إلى لغتهم شبه الواحدة ، فضلا عن أن عاداتهم المتشابهة أيضا ، تهل علينا قادمة من الماضى السحيق ، كى نراها مستمرة أمام أعيننا ؛ ونحن نكاد نحس فى دخائلنا وكأننا انتقلنا إلى الوراء ، إلى أيام البطاركة العبرانيين الرُّحل ؛ (التى ، بالرغم من أنها قد تبدو بعيدة عنا ، فى أيامنا هذه ، إلا أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد لحظة من لحظات الزمن الجيولوجى) . ومن هنا فنحن نكون فى وضع أفضل نتمكن معه من قراءة القسم الأكبر من العهد القديم قراءة متأنية ، فى ضوء هذا التبصر وذلك الفهم ، الذى تيسر لنا عن طريق التجربة والخبرة الحية .

شارلز . م . دوتى

سبتمبر ١٩٢١ .

الجـــزء الأول

الفصل الأول

أرض الصوّان (*) : عمون وموءاب

الحج فى دمشق . مخيم الحج فى تيه مزيريب . التقدم . حرمون . المحطة الأولى . طريق الحج ، أو درب الحج . جرازة . العجيل . باشان . أم جِمال . بُصرى . جابوك أو الزرقاء . شبيب بن طوبّاى . أبراج قديمة قوية فى الصحراء . معاقبة لص من لصوص القوافل . سطح سهول الصُّوان . البدو . بنى صُخر . بنى سُلَيْطة . ولاد على . الجليد . البلقاء . هل كان ذلك البلد الجديد يناسب المستعمرين أم لا يناسبهم ؟ عمون القديمة . حشبون . أم الرصاص . نصب مخيم الحج أثناء الليل . غدير أرنون . ليجون . سهول موءاب العالية . المواقع المحطمة . ذات

(*) الصورة الموجودة أعلى عنوان هذا الفصل فى الأصل الأجنبى تمثل غصناً من أغصان العنب وزينة على شكل رمّان ، وهذا الرسم منحوت على كتلة من الجرانيت الأبيض ما تزال موجوده بين أطلال الأرض الخراب فى مدينه معان .

(*) أرض الصوان : تعرف ببلاد العرب الصخرية وتقع فى الشمال من جزيرة العرب جنوب غربى بادية الشام . وأطلق عليها الإغريق Arabia Petraea أو Arabia Petrix . (المراجع)

راس . موءاب القديمة . كير موءاب . "أكوام فى أخاديد الحقل" . المردة القدامى . قبيلة أجابا . الأرض التى بددتها إسرائيل . القدماء كانوا بناة أحجار . زيارة كيراك . قبيلة بنى حميدى . أكوام من أحجار التأبين فى التيه (البرية) . وادى الحسى . وبيان الحجر الجيرى المنحدرة نحو البحر الميت . الشيخ حجيلان .

عندما عدت من شبه الجزيرة أول مرة ، ناداني صوت صديق قديم ، وأنا أسير من جديد فى ذلك الشارع الطويل من شوارع دمشق الذى يطلقون عليه اسم الشارع المستقيم Straight، وأمسك ذلك الصديق فجأة بيدى متعجبا وقال : "خبرنى ، طالما عدت إلى هنا ثانية فى حفظ الله ورعايته ، حدثنى ونحن نمشى ، كسالف عهدنا فى السنوات الخوالى ، متجهين إلى البساتين التى تتفتح زهورها من جديد ، والتى يفوح منها عبق الربيع كما لو كانت جنة الله ، خبّرنى ، ما الذى دفعك ، أو كيف استطعت القيام بترحال من هذا القبيل فى الجزيرة العربية المتعصبة والمتشددة عقديا ؟"

حدث ذلك بالفعل فى آخر لحظة . من ذلك اليوم ، الذى أعقب أياما كثيرة عمرت بالفشل والإحباط ، الذى افترضت على أثره أن القيام بتلك الرحله ضرب من المستحيل . فى بداية الأمر ، كنت قد طلبت من الوالى ، حاكم سوريا ، أن يتكرم بالموافقة علىّ أن أرافق قافلة الحج إلى مدائن صالح . وهنا لجأ الوالى إلى تبين صحة ذلك من القنصلية البريطانية ، ذلك المكتب الذى يحظى بتقدير واحترام كبير فى تلك البلاد . ورد القنصل على الوالى بأن موافقته لم تكن تكليفا فى أمر من هذا القبيل ؛ كما كان القنصل يكن لى احتراما وتقديرا كبيرا ، إن قدر لى القيام بالسير والتجوال فى تلك الطرق الخطيرة المهجورة . كان هذا الرجل ، فى ذلك الوقت ، قد عرض على أن يلعب دورا طيبا فى أسفارى وترحالى ، وهو يقول لى حاليا إنه لم يكن من مهامه أخذ أية رحلة من رحلات الجزيرة العربية بعين اعتباره ، مخافة أن يوجه إليه اللوم ، فى حالة ما إذا فشلت فى القيام بتلك الرحلة . وبناء على ذلك ، فهم الضباط الأتراك ، أن حياتى التى ضحت بها قنصليتى العزيزة ، لن تكون من مسئوليتهم خلال تلك المغامرة . وهناك قول طريف من أقوال السير هنرى وتون Wotton Henry(*)، الذى خسر بمقتضاه كفالة راعيه (الروحى)

(*) السير هنرى وتون : رحالة وشاعر ودبلوماسى إنجليزى ، عاش فى الفترة من ١٥٦٨ – ١٦٣٩ وأوفده الملك جيمس الرابع منذ عام ١٦٠٤ ليكون سفيرا فى العديد من الدول الأوروبية . (المراجع)

ومفاد هذا القول المأثور هو أن "السفير رجل توفده بلاده إلى الخارج ليكذب نيابة عنها" ويمكن أن نزيد على ذلك القول المأثور ما يلى : "القنصل ، رجل يوفد ليلعب دور التركى فى الخارج ، أمام أبناء بلده ."

تلك التركية Turkishness المفاجئة ، كانت عندى بمثابة المصدر الرئيسى لكل المصائب التى أصابتنى فى تجوالى خلال الجزيرة العربية . والعجيب فى الأمر ، أنى لم أخشى الاعتراف ، بأنى كنت قد شارفت مرارا على القتل بطريقة خسيسة ! هذا فى الوقت الذى كان يمكن فيه ، منذ البداية ، لكلمه خيِّرة غير رسمية ، صادرة عن قنصلية إفرنجية ، أن تجعلنى أحظى بتقدير واحترام كبار ضباط الحج من ناحية ، وبخطابات التزكية الصادرة لى منهم ، عند رحيلى عنهم ، متجها إلى أمراء الجزيرة العربية من ناحية أخرى . من هنا ، فإن رفض القنصلية البريطانية ، جعلنى أخشى أن أطرد كلية إذا ما تجرأت ، فى مثل هذه الظروف ، على زيارة بعض الشخصيات الكبيرة فى دمشق ، والتى من بينها الأمير النبيل عبد القادر الجزائرى(*) ؛ الذى من أجل خاطر الوفاء بما طلبه – الذى كنت على يقين منه – جرى الترحيب بى وإكرام وفادتى ، فى سائر المحطات التى كانت تشغلها الحاميات المغربية على امتداد طريق الحج ، إضافة أيضا إلى أن حياتى لم تشرف على الضياع بين هؤلاء المغاربة عندما وصلت ، بعد ذلك ، إلى مدائن صالح .

لم أزر سوى باشا الحج الكردى ، محمد سعيد ، الذى كان قد تعرَّف علىَّ ، قبل ذلك بعامين فى منطقة الأراضى الواقعة خلف الأردن ، وظن أننى واحد من أولئك الذين

(*) الأمير عبد القادر الجزائرى : من أبرز وجوه المقاومة ضد الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ، اضطر الفرنسيون أن يعقدوا معه معاهدة التافنا فى عام ١٨٣٧ التى بموجبها حصل على مكاسب أرضية واسعة وأقام حكومة نظامية ، وبايعه العلماء والأعيان وزعماء القبائل باعتباره أميرا وزعيما للجهاد ، غير أن الفرنسيين لم يلبثوا أن ركزوا جهودهم ضده ، وتمكن بيجو الحاكم الفرنسى العام فى الجزائر من تفويض حكومته وانتهى به الأمر إلى الاستلام للفرنسيين الذين أخذوه إلى باريس وعاملوه معاملة شاذة حتى سمح له الامبراطور نابليون الثالث فى عام ١٨٥٢ بالانتقال إلى دمشق التى توفى بها فى عام ١٨٨٣ . وكانت له مكانة كبيرة هناك ، فضلا عن مكانته بين أفراد الحاميات المغربية التى كانت تشرف على محطات طريق الحج الشامى ومن ثم كان حرص دوتى على اللقاء به لتأمين رحلته . (المراجع)

لا يفعلون أى شىء فى الخفاء . كان ذلك الوقت يصادف انتشار وباء الكوليرا ، وهروب المسيحيين من المدينة ، عندما قمت ، فى فترة سابقة ، بزيارة الباشا محمد سعيد استجابة للطلب الذى مفاده أنه من الأرجح لى أن أسافر برفقة الحجيج إلى مدائن صالح . كان الباشا محمد سعيد قد أوصانى بإحضار فرمان من السلطان ينص على أن "الحجاج عبارة عن جمع مُخلَّط كبير ، وإذا ما حدث لى مكروه ، فإن الضرر سيقع على عاتقه هو ، ونظرا لأنى واحدٌ من رعايا حكومة أجنبية " : ولكنه يقول لى الآن : "حسن ! هل تريد الذهاب إلى هناك ؟ وإذا كانت الإجابة بالإثبات ، فليكن ذلك مع قطار المؤن السريع (*) " ، الذى كان يرسل ، من سوريا ، منذ زمن بعيد لغوث الحجاج فى مدائن صالح عند عودتهم ؛ ولكنى أيقنت أن بقائى مدة ثلاثة أيام فقط ، فى مدائن صالح لن تكون مدة كافية .

ظننت أن الحظ بلغ من السوء حداً يحتم علىَّ عدم الذهاب إلى الجزيرة العربية ؛ ولكن أصدقائى من المسلمين قالوا لى : "ليس بوسع الباشا نفسه منع أى إنسان من القيام بتلك الرحلة مع القافلة ؛ وبالرغم من أنى نصرانى ، فما هو المانع ! طالما أنى لن أذهب إلى الحرمين ، وإنما إلى مدائن صالح ؛ كيف ! أنا الشخص الأمين قد لا أذهب إلى هناك . فى الوقت الذى يذهب إلى هناك كل عام وبرفقة الحج أحط وأسوأ مفصلى الثياب فى المدينة ؛ كلا ؛ إن أخطر الفواحش المنافسة لدمشق كانت فى المزيريب Mu-zeyrib، إذ كانو يقتلون ويَسْبُون بنات القافلة اللاتى كن يقتربن من الأرض اليباب" . كما قال لى هؤلاء الأصدقاء : "لم تمض سوى سنوات قلائل على إيفاد البنائين المسيحيين (إذ لم يكن هناك مسلمون يعملون فى تلك المهنة فى دمشق) بصحبة الحج لإصلاح برج الماء ، أو إن شئت فقل : القلعة Kella، هى وصهريج الماء ، فى مدائن صالح نفسها ."

(*) يقولون لذلك القطار Jurdy بلغتهم الوطنية .

هذه المدينة الشرقية(*) اللطيفة تعتريها كل عام هزة شديده قبل الحج ؛ ويتردد على أسواقها غرباء كثيرون مختلفي اللغات ، ومختلفي اللباس ، يأتون إليها من بلاد بعيدة . والجزء الأكبر من هؤلاء الغرباء هم من آسيا الصغرى ، ويلبس الكثيرون منهم عمائم شاهقة الابيضاض ، ربما كان وزن الواحدة منها أثقل من وزن رأس لابسها ؛ والسواد الأعظم من هؤلاء الناس من الفقراء البسطاء ، الذين توحى وجوههم بالمهابة والهيبة ، وهم يجوبون شوارع المدينه بحثا عن طاولات بيع الخبز ، وسمعت بأذنى أن كثيرا من الدمشقيين كانوا يستطيعون الرد عليهم بلغتهم . والمدينة تنتابها حالة من التأهب عند رحيل الحجيج عنها لأداء الفريضة ، وعند العودة إليها من الحج ، وكل ذلك يتحول إلى مشهد عام ؛ وكل عائلة من العائلات المسلمة يكاد يكون لها واحد من أقربائها ضمن قافلة الحج . وفى أسواق هذه المدينة يسارع الحجاج إلى شراء الكثير من البضائع التى يحتاجونها وهم فى طريقهم لأداء الحج ، وهاهم صناع الخيام مشغولين فى الشوارع الخاصة بهم ، تراهم وهم يتفقدون ويجددون نسيج المئات من الخيام القديمة ، وكذلك النسيج الغليظ الذى يستخدم فى نقل المنقولات ، فضلا عن حواجز الزبالة والمهملات ؛ وهاهم طهاة الكارى فى السوق المخصصة لهم ، يسارعون إلى بيع قراب الماء المصنوعة من جلود الحيوانات ، ودلاء الماء المصنوعة من الجلد ، فضلا عن زمازم الماء ، التى يقولون لها **Matara** بلغة القوم ؛ وها هم النجارون يتعجلون فى أعمالهم الخاصة بالحج ، إذ يقوم القسم الأكبر منهم بإصلاح حواجز المناطق المخصصه للزبالة والمهملات . وفى ضاحية الصَّوَّان من المدينة ، أو إن شئت فقل : فى الميدان ، يجرى تسليم الحبوب وبيعها بأسعار رخيصة ، والحبوب هنا بالمناسبة ، تستعمل علفاً لماشية الحج . ويمر من هذه الشوارع يوميا سائقو قافلة الحج ، الذين يقولون لهم **Akkâms** بلغة القوم ، وقد حمَّلوا صناديق نقل البضاعة على ظهور جمال

(*) مدينة دمشق : إن الحجاج يتجمعون فى تلك المدينة بفضل موقعها كأكبر مدينة على حافة الصحراء السورية الحجازية . ولم يكن الحجاج من سوريا فقط وإنما كانوا من بلاد العجم وتركيا وتركستان وغيرها من الجهات الشمالية . وكان يقع على عاتق المدينة مسئولية استقبال وإيواء وتموين هذا العدد الكبير من الحجاج من مختلف الجنسيات الذين يأتون فى وقت معين من كل عام استعدادا للرحيل إلى الأراضى الإسلامية المقدسة . وأصبح لدمشق نتيجة لذلك لون من القدسية أو الشرف حتى كان يطلق عليها « شام شريف » . (المراجع)

الحج العالية . هؤلاء السائقون يشقون طريقهم ببذاءة من فوق ظهور الجمال ، خلال الأسواق الضيقة ؛ والشائع أن أولئك السائقين يكونون من الشباب الشرس المتوحش ، الذين تطفح أفواههم بأقذع اللعنات البذيئة ، وهم يرون أن من لا يكون على هذه الشاكلة لا يصلح للسفر على طريق الحج . أما المقومون ، أو إن شئت فقل : أصحاب الإبل فقد أحضروا ماشيتهم (وكلها من الذكور الأشداء) من البرية إلى أحواش الإبل فى دمشق ، وهاهم الجمَّاله مشغولين بوضع المخاد تحت سُرُج التحميل ، ويلفُّون ، فى البداية حول عمود الجمل الفقرى ، ملاءة (عًراقة) سميكة من اللبَّاد الحلبى ، كى يتحاشى الجمل الآلام الناتجة عن الاحتكاك ؛ وهذه المهمات لا ترفع عن ظهور الإبل إلا عند عودتها بعد أربعة أشهر ، إن قدر لتلك الإبل أن تعود حية . من رحلة طويلة من هذا القبيل . والمقومون ، أو إن شئت فقل أصحاب الإبل ، رجال أشداء متمرسين على ذلك الطريق ، إلى الحد الذى يمكنهم من السيطرة على الأطقم التى تتمرد عليهم فى أغلب الأحيان ؛ ومكتوب على وجوه أولئك المقومين الشرسة أنهم قادرون على مواجهة الشر بالشر ، فضلا عن قدرتهم على التعامل ، على طريق الحج الطويل ، مع غدر وخيانة البدو المراوغين . وقد جرت العادة فى البلاد التى تمر بها القافلة ، أن يلتقى المسافرون ضمن القافلة فى مكان عام خارج المدينة . وفى كل الأحوال يكون تجمع فوج الحجاج عند بحيرة مزيريب(*) فى المنحدرات العالية خلف نهر الأردن على بعد مسير يومين من دمشق . فى هذه المنطقة يجرى نصب خيام الحجيج المشاركين فى تلك المعركة ، حيث يبقون أسبوعا أو عشرة أيام فى الصحراء قبل القيام بتلك الرحلة الطويلة . ويصل باشا الحج ، بعد تسوية شئونه مع الحكومة فى دمشق ، إلى ذلك المكان قبل رحيل القافلة بثلاثة أيام ، ليقوم فى البداية بدفع أجور البدو والاتفاق مع السقايين (جالبى الماء) (الذين هم من البدو أيضا) الذين يجلبون الماء للقوات العسكرية .

ها هى طرق ومسارات دمشق المفتوحة على هذا الجانب ، والتى كانت تعج مؤخرا بمرور المئات من صناديق البضاعة ، الأمر الذى كان غريبا على عيننا تماما، والتى

(*) كان الحجاج يتخذون من المزيريب التى تقع فى سهل حوران وتبعد عن دمشق بنحو مائة وخمسين كيلومترا من ناحية الجنوب قاعدة لانطلاق رحلتهم إلى الأراضى المقدسة . (المراجع)

كانت تعج بسلسة من الحجاج الشرقيين على اختلاف أنواعهم ومشاربهم ، هذه الطرق خلت من جديد وخيم عليها الصمت والسكون : لقد رحلت قافلة الحج من بيننا . فى هذه المناطق الناس هنا يعضون بالنواجز على ما لديهم من نقود قليلة ، كما لو كانت كنزا ثمينا نظرا للضيق والمشاكسة اللذان تسببت فيهما حكومة مجرمة : وسرعان ما جلب على حظى السعيد خمسة أو ستة أشخاص من الفقراء المساكين أقسموا كلهم أنهم على استعداد لوضع اختامهم على ورقة يتعهدون فيها بنقلى سليما إلى مدائن صالح ، سواء أكنت راكبا حصانا من خيول النقل ، أو على ظهر بغل ، أو راكبا حمارا ، أو جملا بسنام واحد ، أو جملا بسنامين أو حتى فى صندوق من صناديق نقل البضاعة . واتفقت مع رجل فارسى ، يعمل مقوِّما مع أهل بلده الذين يصلون كل عام إلى هذا المكان قادمين من الشرق عن طريق بغداد ، ثم حلب وأخيرا دمشق على أن ينضموا من هناك إلى قافله الحج العثمانية(*) ، واتفقت معه على مشاهدة "مدائن صالح" ؛ هذا المسكين الغبى رضى تماما عندما وضعت فى يده بضع جنيهات إنجليزية قليلة ساعدته على الاعتماد على تاجر الغلال الذى يتعامل معه ، فى توصيلى إلى مدائن صالح . كانت تلك هى اللحظه الأخيرة ، نظرا لأن باشا الحج كان قد حل قبل يومين ، وكان يتعين على ذلك الرجل (تاجر الغلال) أن يتبعه مع الرحلات الكبيرة . وسرعان ما ارتديت ملابس رجل سورى بسيط الحال ، ومعى مخزون من بسكويت القافلة ، وذهبت للركوب مع ذلك التاجر ؛ واختلطت مع الفرس فى رحلة الحج ، الأمر الذى حتم علىَّ أن لا أكون بارزا أو مكشوفا من الفرس أو العرب . كان خدم ذلك المقوِّم هم ومعداتهم قد وصلوا إلى مخيم المزيريب منذ حوالى ثمانية أيام .

كان الوقت عصراً عندما ودعنى بعض الأصدقاء العرب متمنين لى سرعة الوصول ثم ركبت بغلا بعد أن وضعوا على ظهره خرج الجمل الخاص بى ، ورحت أسير خلال دمشق مع الفارس ، المدعو محمد أجا (**)، وبصحبتنا مجموعة صغيرة . وبعد أن

(*) كان الفرس يفضلون المجئ إلى دمشق للالتحاق بقافلة الحج الشامى ، وربما يرجع ذلك إلى أن الإنجليز كانوا يفرضون قيودا مشددة على الإبحار فى الخليج العربى . (المراجع)

(**) أجا : وصحتها أقا ، وهى من الألقاب الفارسية التى استخدمها الأتراك باسم أغا . (المراجع)

تجاوزنا شارع المدينة الطويل ، الذى كانوا يطلقون عليه فى زمن بولس Poul اسم الشارع المستقيم . Straight لنمر من خلال الميدان إلى بوّابة الله ، ركز بعض الواقفين أبصارهم علىَّ وراحوا يتساءلون ، "ما هذا ؟ إخ !" ورد عليه آخر وهو يستظرف قائلا : "إنه واحد ممن ينتمون إلى الأعجمى" (الفارسى) . وبعد أن خرجنا من بوابة الله ، التى أطلقوا عليها ذلك الاسم نظرا لمرور الحج المقدس منها ، شاهدنا الصحراء المرتفعة أمامنا تمتد مئات الأميال إلى الحرمين ؛ فى البداية هذا هو سهل قفر من الزلط واللَّهمْ من فوق الحجر الجيرى ، سرنا فيه عشرة أو اثنى عشر يوما ، كان ارتفاع السهل يتزايد خلالها دوما ، إلى أن وصلنا إلى مدينه مَعَآن فى "جبل إيدوم"(*) بالقرب من البتراء(**) وعلى بعد مسير ستة وعشرين يوما من المزيريب تقع المدينة ، (مدينه النبى أو يثرب كما كانوا يسمونها فى الماضى) ؛ وعلى مسافه مسير أربعين يوما تقع مكه . لم يكن هناك ؛ فى ذلك الوقت ، أحد على ذلك الطريق ، الذى كان الحجيج قد مروا منه قبلنا بخمسة أيام . ومع غروب الشمس وصلنا إلى قرية قسمة Kesmîh الصغيرة التى تقع فى الضواحى : وفرّجونى فى جانب الطريق على قبة بيضاء ، المحطه التى ينام فيها آمر الحج ، أو إن شئت فقل : أمير الحج ، فى مساء اليوم الذى تبدأ فيه الرحلة من دمشق . ومررنا من طريق ممهد فى الأرض الجرداء ، ويبدو أنه عُبِّد منذ زمن عند منطقة التقاء مجارى سيول الشتاء ، كى يساعد على مرور إبل الحج بسلام ، نظرا لتعذر سير الإبل فى الأرض الزلقة ؛ بعض آخر يرى ذلك على أنه أطلال لجسور ، نظرا لأن كل شيئ قد تحول حاليا إلى أطلال وخرائب فى الإمبراطورية العثمانية . وهذه كتل منجرفة مبعثرة فوق هذه الأرض القاحلة الجرداء ؛ وقد أدهشنا ، أننا نعرف أن لتلك الكتل المنجرفة نظير فى مناخات الدنيا كلها .

(*) إيدوم Edom، ويصح فيه أيضا ." Idumaea وهى منطقة فى جنوب فلسطين تقع فيما بين البحر الميت وخليج العقبة . (المترجم)

(**) البتراء : Petra مدينة قديمة فى حوض على الجانب الشرقى من وادى العراية فى الجنوب الغربى من الأردن . وهذه المدينة كانت عاصمة الأنباط ومركزا مهما من مراكز تجارة القوافل . وقد انتعشت فى الفترة ما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الثالث بعد الميلاد وجرى ضمها إلى الإمبراطورية الرومانية فى العام ١٠٦ بعد الميلاد . وقد اندحرت بيترا على أثر زيادة أهمية بالميرا Palmyra، ونسيها العالم إلى أن اكتشف بركخاردت Burckhardt أطلالها فى العام ١٨١٢ الميلادى . وتشتمل تلك الأطلال على معابد ومنازل ، ومسرح كبير منحوت فى صخرة حمراء متعددة الأطياف . (المترجم)

أمضينا الليلة فى مكان مؤسف فى قرية قسمة Kesmîh، حيث نمنا فى العراء ، فى طقس سيئ ، ومكان قذر ، ولم تدم راحتنا طويلا . وبعد ثلاث ساعات من منتصف الليل استأنفنا ركوب دوابنا من جديد . صاحبنا فى هذه المرة بعض آخر من الرجال ، وكانوا جميعا من الجائلين الذين يمشون على أقدامهم ، كما كانوا أيضا من معارف الفارسى ومن أمته ، لقد قدموا أنفسهم طائعين سعداء لتلك الرحلة المقدسة ، وعندما بدأت الشمس فى البزوغ والابتسام للأرض وهى تنشر عليها دفئها ، مثل الطيور عندما تستيقظ ، بدأ هؤلاء الفرس يغردون بترانيم فارسية تشبه ترانيم الطيور العذبة . كان من بينهم درويش شاب أشقر الشعر يسير بهمة ونشاط ، ويعد أفضل غرِّيد بينهم ؛ كان يضحك فى هدوء ويبالغ فى إطرائى ويحيينى بأفضل ما عنده من اللغة العربية . كانوا يفرحون ، من باب التذكرة ، باستعمال التبغ ، وقالوا إنه ليس هناك فى الدنيا كلها ما هو أفضل من رقعة بلادهم الحلوة . ففيها ترتفع أمامنا ، وعن بعد ، سلسلة جبال حرمون ، التى تعلوها رءوس الصقيع الفضى كما لو كانت سحابة بيضاء معلقة فى الهواء ، ولكن الخريف فى السهل كان ما يزال طفيفا ودافئا . وعند مسافة عشرين ميلا مررنا من أمام سلامين Salamen، ذلك المكان الخرب ذى الأطلال المأهولة ، مثل تلك التى شاهدناها فى الحوران : Houran ذلك الموقع الذى يبعد مسافة خمسة أميال عن هذا المكان . كان البعض من رفاقى يتأملون الغريب ، نظرا لأنى كنت أسأل عن الأسماء . شببنا النار أول مرة فى فترة العصر بالقرب من صهريج ماء راكد ، يقولون له Keteby بلغة القوم ، ويحرسه حرس مكون من جنديين مشاكسين ، وعندما وصلت ذلك الخزان وأنا شديد العطش رفضت الشرب من ذلك الماء ، وصاح أحد هذين الجنديين بوجه عابس وهو يقول : "يا للدهشة ! مَنْ هناك ؟ أظن إنه نصرانى ؛ وأنا أكرر ، أهذا هو الأنسان الذى سوف يرافق الحج ؟" وبعد تسعة أميال من ذلك المكان مررنا من أمام قرية مسكين : Meskîn وبينما كنا نسير فى الطريق تخطينا بائع تفاح يقود حماره الذى كان يحمل صناديق مليئة بعنب خريفى أصابه شىء من العفن ، وكان ذلك الرجل يبتغى بيع تلك البضاعة الرخيصة للحجاج الفقراء مقابل النقود النادرة فى مزيريب ، وبينما كنت أشترى شيئا من عناقيد عنبه البارد ، كان ذلك الشخص المنقوع فى سخرية الطريق ، قد أبصرنى من بعيد ، وصاح قائلا : "وهل أنت أيضا ذاهب إلى

مكة ؟ عجبا ! أنه ليس من أولئك الذين يتعين عليهم الذهاب إلى الحج ؟ وأنتم يا من تصاحبونه ، ما هذا الذى تفعلونه من أجل واحد من الحجاج !" وصلنا بعد الثامنة ليلا ، ونحن نمشى الهوينا ، إلى مخيم المزيريب ؛ أمضينا فى تلك المسيرة الاضطرارية ستة عشر ساعة . كان علينا أن نصيح منادين خدم الأجا وعماله بأسمائهم ، كى يدلونا على خيامنا ، ولكن تلك المناداة لم تدم طويلا ، نظرا لأنه بعد مئات السنين من الحج أصبحت رحلته منتظمة ومنظمة على أحسن وجه . ذلك أن المقوِّمين يعرفون أماكنهم حق المعرفة ، ومن هنا سمع نداءنا بعض من خدم وعمال الأجا واقتادونا إلى المكان المخصص لهم . كانت فترة الصباح فترة تجهيز واستعداد ، إذ كان يتعين علينا الرحيل فى اليوم التالى . ونصحنى الأجا بعدم الخروج من السكن . سوف يطلق المدفع إيذانا برحيل الحج ، قبل يومين من الموعد المحدد لذلك ، هذا العام نظرا لأن موسم الحج قد تأخر هذا العام . كانت تنتظرنا عشرة مسيرات عبر المرتفعات الشمالية ، ويحتمل أن تسقط علينا باكورة الأمطار قبل النزول إلى الجزيرة العربية : وفى هذه التربة المخلوطة باللهًم (الغرين) لا تستطيع الإبل المحملة ، المرور بسلام فى فصل الأمطار تحاشيا لانزلاق أقدامها . كان السكون المطبق يخيم على المخيم ؛ إذ كانت تلك آخر ساعات الراحة ، ونظرا لأن الوقت كان ليلا ، فقد جاء إلينا الخدم ، وهم من شباب المخيم ، ومعهم المراسلين ؛ وراحوا يحيون كل جناح من الأجنحة ولكنهم جعلوا أجنحة الفرس آخر محطاتهم (كان المكان المخصص لأجنحة الفرس فى مؤخرة القافلة نظرا لأنهم غرباء من ناحية ، وتحاشيا للصراع والنزاع من الناحية الأخرى) وهم يرددون القرار التالى : "تصحبكم السلامة ، نتمنى لكم سفرا سريعا ، يا آسفاه ! يا لهذه الهدية ! هذه هى عادتنا ، أطال الله عمره "(*) وكانوا يواجهون الفارسى الذى لا يشارك فى هذا القرار بوجه عابس .

طلع الفجر علينا ونحن لم نغادر المكان بعد . وبعد طلوع النهار . فككت الخيام ، وجلبت الإبل إلى مرافقيها وتوقفت إلى جانب أحمالها . ورحنا ننتظر انطلاق المدفع

(*) وردت هذه العبارة باللغه الفارسية على النحو التالى :
Bes- salaamy bes- salaamy , Ullah Yet owwel ummr - hu,hy el-âdy,hy el-âdy, Mohammad Aga!

إيذانا ببدء حج ذلك العام . كانت الساعة تقترب من العاشرة عندما سمعنا انطلاق صوت دانة المدفع ، وعندها ، وبدون أى فوضى أو اضطراب ، جرى رفع الصناديق وتحميلها وربطها فوق دواب الحمل ، ووضعت الأجور والأتعاب فوق الإبل الباركة ، وهنا راح آلاف الركاب ، الذين كانوا من ضمن بلدان القافلة ، راحوا يركبون فى صمت وسكون . وبعد أن أصبح كل شىء فوق ظهور الدواب والإبل بقى الجمَّالة واقفين فى صمت على أرجلهم ، أو جالسين على أعقابهم لنيل اللحظات الأخيرة من الراحة : هؤلاء الجمَّالة ، هم خدم المخيمات والخيام الآخرين ، يتعين عليهم أن يقطعوا ثلاثمائة فرسخ سيرا على أقدامهم ، بالرغم من إصابتهم بالإعياء ؛ ومكتوب عليهم أيضا أن يقيسوا الأرض فى الاتجاه الأعلى ، مرة ثانية ، على أقدامهم المرهقة ، عند العودة من الأراضى المقدسة . وبعد انطلاق دانة المدفع الثانية ، التى جاءت بعد انطلاق الدانة الأولى بلحظات قصيرة ، شاهدت هودج الباشا يتحرك فى المقدمة ، ومن بعده رئيس طابور القافلة : وبعد حوالى خمسة عشر أو عشرين دقيقة ، يتعين علينا ، نحن الذين يكون مكانهم فى المؤخرة ، التوقف بعض الشىء ، إلى أن يخف الطابور الطويل من أمامنا ؛ وعندها نروح نضرب إبلنا ، وبذلك يكون الحج الكبير قد بدأ يتحرك . ويتقدم القافلة ثلاثة أو أربعة جمال ويندر أن يكونوا خمسة ؛ يصل طول هذا الجمع البطئ من الرجال والدواب والماشية قرابة الميلين ، ويصل عرض قافلة الحج إلى حوالى مائة ياردة فى الأرض المنبسطه المفتوحة . ونقلا عنهم (وربما يكون فى ذلك تجاوزا للحقيقة) فإن عدد الحجاج يقدر هذا العام بحوالى ٦٠٠٠ حاج ؛ أكثر من نصفهم رجال جاءوا للحج سيرا على الأقدام ؛ وتضم القافلة أيضا ١٠٠٠٠ دابة من مختلف الأنواع ، التى تشكل الإبل القسم الأكبر منها ، يليها البغال ، وخيول الركوب ، ثم الحمير وأخيراً قليلا من ذلول العرب العائدين إلى مناطقهم فى حماية القافلة الكبيرة . نحن نسير فى أرض خراب خالية ، سهل من الزلط والحصى ، لا يظهر فيه أى شىء ، ولم نر فيه طريقا أمامنا . جبل حرمون ، أصبح الآن خلفنا ، ونشاهد أكتافه الضخمة المكونة من الجليد والصقيع وهى تطبق على الأفق الشمالى : وبدو الصحراء الرُّحل فى الشرق يعتبرون ذلك علامة كبيرة من العلامات الدالة على سوريا ، وهم يطلقون على ذلك الجبل اسم "طويل الثلج" ، أو إن شئت فقل : "الثلج العالى أو المرتفع" (الذى لا يخبرونه كثيرا فى

أرض الجزيرة العربية التى لا تسقط فيها الأمطار وتضربها حرارة الشمس بصورة دائمة) . كان اليوم يوافق يوم الأحد ، عندما بدأ ذلك الحج ، وكان الطقس جيداً ، إذ كان ضوء نهار الصيف السمنجونى لم يذوى فى السماء السورية ؛ كان ذلك اليوم يوافق اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر من العام ١٨٧٦ الميلادى ؛ وبعد أن قطعنا اثنى عشر ميلا ، (ذلك القليل ، الذى بدا لنا كثيرا فى البداية) ، وصلنا إلى المحطة الصحراوية التالية ، حيث جرى نصب الخيام التى سبق أن خلفناها وراءنا فى المزيريب ، هاهى الخيام منصوبة على شكل صفوف بيضاء فى الأرض الجرداء الواسعة . معنى ذلك أن جماعة الخيام الخفيفة كانوا يسبقون مسيرة القافلة كل يوم ، على أن تراعى كل جماعة المكان الذى يخصص لها من بداية الرحلة إلى نهايتها . وبعد أن وصلنا إلى تلك الخيام تفرقت الجماعات وراحت كل واحدة منا تتجه إلى محل الإقامة المخصص لها : وهم يطلقون على المخيم الذى يكون من هذا القبيل إسم الرامتا . Ramta

تحرص القافلة ، فى بدايه أية رحلة من الرحلات الطويلة ، أن تكون مسافة الوقفة الأولى قصيرة ، إذ تبدأ الدواب فى استشعار حمولاتها ، ويبدأ المسافرون يستشعرون مشاق الركوب . وفى عيدان الحطب القليلة (التى يجرى جمعها فى عجالة أثناء السير) ، ومن الأدغال الصحراوية ، يسارع المسافرون إلى شب النار أمام الخيام ، كل الخيام ؛ ونظرا لعدم وجود أحجار فى المنطقة ، بحيث تكون فى متناول المسافرين ، كى يضعونها تحت الأوانى كما يفعل البدو ، يصبح وجار الحج عبارة عن حفرة فى الأرض حتى يتسنى وضع أوانيهم فوقها ، ووضع الجمار تحتها من الناحيتين ، وبقليل جداً من حطب الوقود يجهز الحجاج طعامهم البسيط . وفيما يتعلق بالخيام العسكرية الخاصة بالقوات المصاحبة للحج والخاصة أيضا بالجمّالة المسلحين ، (غالبيتهم من نجد) التى يطلقون عليها اسم العجيل فيجرى نصبها بطريقة دائرية بحيث تحيط بمخيم القافلة الكبيرة على بعد ستين خطوة من الجانبين : وفى كل خيمة من تلك الخيام تتواصل الخفارة حتى مطلع الفجر وطلوع النهار . ويجرى أثناء الليل تعليق فانوس من الورق أمام كل خيمة من الخيام ليظل مشتعلا طول الليل ، فى الوقت الذى يقف فيه أحد الحراس ممسكا ببندقيته ، ولا يسمح الحراس بمرور أى أحد دون اعتراض طريقه . وأهل الحضر يخافون البدو خوفا شديدا ، كما لو كانوا هم شياطين تلك الأرض

الخراب ، كل واحد منهم على استعداد لمهاجمه أولئك المسافرين لأداء فريضه الحج ؛ ولا يجرؤ أى واحد من هؤلاء البدو على الخروج على المنطق فى الظلام مع أولئك الرماة المتوحشين مخافة أن يردوا عليه بالرصاص والطلقات التى تتردد أصواتها بين الحين والآخر فى اتجاه الصحراء طول الليل ؛ وفى كل لحظه يتصايح أولئك الحراس وهم يرددون ، الواحد بعد الآخر كلمة (حرس !) ، التى يقولون لها بلغة القوم Kerakô Ke-rakô والتى يردون عليها بكلمة (مستعدون) التى يقولون لها بلغة القوم "حاضرون Haderûn " ولم أر أى ضابط من الضباط وهو يقوم بالمرور على الحرس . وأكثر الخفارات ، أو إن شئت فقل الورديات ، هى الوردية الأولى نظرا لأن المخيم يكون مازال صاحيا . وصراصير الغيط هذه يبدأ فقدان أصواتها وصريرها عند منتصف الليل تقريبا ، عندما أرى ، وبدون أى سبب أن الغالبية العظمى من أنوارهم قد أطفئت ؛ والمرجح هنا أن الذين لا ينالون أجرا على ذلك يوفرون على أنفسهم مشقة هذا العمل ، إذ يقوم هؤلاء الجنود الفقراء ببيع ما لديهم من شموع فى سوق الحج .

ومع أول دخول للمساء يكون هناك شىء من المرح متمثلا فى قرع الطبول وشىء من العزف الرقيق على الناى ، فضلا عن أغانى الرعاة الحلوة التى يتغنى بها الفرس فى خيامهم من حولنا ؛ وفى بعض الخيام الأخرى نسمع أناسا آخرين وهم يتغنون بواحدة من المقطوعات الدينية . وفى كل خيام الحجاج هناك فوانيس من الورق بداخل كل واحد منها شمعة مشتعلة ؛ ولكن المخيم مرهق بكامله ، وسرعان ما يخلد إلى الراحة . وينام الحجاج فى ملابسهم التى يرتدونها ، بضع ساعات قليلة إلى أن يسمعوا صوت انطلاق المدفع مؤذنا ببداية الصباح ؛ وهنا ينهض الحجاج بعد ذلك مباشرة لاستئناف المسير ، وهم لايعرفون مدى التبكير أو التأخير ، لأن هذا الأمر مثل بقية الأمور الأخرى يعتمد على انشراح الباشا من ناحية وعلى الطقس الجيد من ناحية أخرى .

وعند الساعة الخامسة والنصف انطلقت دانة المدفع مؤذنة ببداية المرحلة الثانية ، أو إن شئت فقل : الوقفة الثانية من رحلة الحج . كانت سماء الليل مظلمة وتهطل منها زخات المطر عندما بدأنا التحرك ، ولذلك جرى رفع أوانى الزيت المعلقة فوق عمد من

الحديد حتى يتسنى لحامليها إضاءة الطريق ، كان الرجال يحملون تلك الأوانى على أكتافهم . كشف الفجر الأرض الجرداء القاحلة التى تمتد أمامنا ، وفيها طبقة رقيقة من الحصى والغرين فوق الحجر الجيرى .

درب الحج ، ليس طريقا ممهداً ، وإنما هو عبارة عن مدقات عديدة تجوفت بفعل مشى أقدام الإبل عليها ، مرة كل عام ، وذلك على امتداد أجيال كثيرة من الحج متباينة الأعراف والأجناس كانت تقطع ذلك الطريق . المسارات الكثيرة المتساوية التى تتجمع مع بعضها البعض ، يشبهها أحد الشعراء العرب القدامى بشرائط العباءة (البشت) العربيه المقلّمة . والمعتاد أن تطلق دانة عند منتصف النهار تقريبا ، لتكون بمثابة إشارة إلى التوقف ؛ وبعدها نتوقف لنيل قسط يسير من الراحة ، ولكن لا يجرى إنزال الأحمال من على الدواب فى تلك الوقفة ، بل إنها تظل واقفة وأحمالها من فوقها . وهنا يشب الرجال النار فى حين يقوم المتدينون منهم بأداء الصلاة مولين وجوههم شطر مكة . الوقفة التى من هذا القبيل تدوم عشرين دقيقة ، وفى بعض الأيام تكون أقل من ذلك أو قد تلغى مطلقا ، وذلك حسب مرئيات باشا الحج ، أما فى حالات اليسر وتوفر الوقت فقد تطول تلك الوقفة لتصل إلى أربعين دقيقة . وفى ذلك يقول (القائمون على أمر القافلة) : إن "الباشا هو سلطاننا." وبعد أن سرنا عشرين ميلا ظهر على يسارنا مفرق ، أو إن شئت فقل : البرج الثانى أو المحطة الثانية من محطات طريق الحج ، وهذا المفرق يلى قلعة أو محطة المزيريب الكبيرة ، غير أنها مخربة ومهجورة مثل المفارق أو إن شئت فقل : الأبراج أو المحطات الأخرى . هذه القلاع عبارة عن محطات للمياه تقوم على أمرها حراسة ضعيفة ، وربما بنيت تلك القلاع قبل قرنين أو ثلاثة قرون من الزمان ، كما أنها مبنية بطريقة جيدة . وبئر الماء يقع فى وسط القلعة ؛ ويجرى جلب الماء منه باستعمال آلة بسيطة تتمثل فى أسطوانة وبعض الدلاء ، ويجرى تشغيل عمود ذلك البئر عن طريق بغل ، يتحرك جيئة وذهابا لملئ الخزان أو الصهريج ، أو إن شئت فقل البركة التى تقع خارج جدران البئر . الأدوات اللازمة لذلك ، هى والبغال يجرى جلبها من دمشق مع قافلة الحج وتستمر معها إلى أن تصل إلى مدائن صالح . وتجرى حراسة تلك الخزانات حراسة جيدة ، إذ تعتمد عليها حياة القافلة الكبيرة . ولا يسمح لأى عربى (من البدو المترحلين) بالاقتراب من ذلك الماء أو الانتفاع به ؛ والحرس الذى

يحمى تلك المياه يستطيع فتح النار على أولئك البدو من داخل البرج ، الذى يتمترسون فيه خلف أبواب مجلدة بألواح من الحديد ، يحتمون بها على امتداد العام من سفاهة هؤلاء البدو الرحل ووقاحتهم . هذه القلاع تقف متفرقة ، كما لو كانت سفنا فى وسط الصحراء الشاسعة ؛ كما أنها ليست مبنية أو مقامة على مسافات متساوية من المخيمات ، ولكن إنشاءها يعتمد على توفر المياه ؛ وفى أغلب الأحيان قد تصل المسافة بين القلعة والأخرى مسيرتين أو ثلاثة مسيرات . وأصعب أجزاء طريق الحج فيما قبل المدينة (المنورة) يتمثل فى ذلك الجزء الذى يتمثل فى أربع أو خمس مسيرات خلال الأراضى المرتفعة التى يجئ إرتفاعها فى المرحلة الثانيه بعد إرتفاع أرض مدائن صالح ؛ التى لا يوجد فيها آبار أو ينابيع ، اللهم بإستثناء قلعتين مدمرتين فيهما بركتان ، أو إن شئت فقل : صهريجين ، يجرى ملؤهما من مياه السيول ، إلى حد أن هاتين البركتين ، تظلان جافتين ، طوال عدة سنوات ، فى هذا البلد الذى يندر فيه سقوط الأمطار . وفى كل عام يجرى ، من مدائن صالح ، إيفاد النجَّاب ، الذى هو جمَّال من البدو الذين يركبون الإبل ، ليحمل إلى دمشق ، فى شهر رمضان ، أى فى فتره ما قبل الحج ، أنباء توافر الماء أو عدم توافره فى بركه أو إن شئت فقل : صهريج أو خزان دار الحمرة ، كما يحمل معه أيضًا أخباراً عن حالة الماء فى القلاع التالية لقلعة دار الحمراء . فى هذا العام حمل النجاَّب أخبار طيبة (إذ امتلأت البركه بفعل الصقيع الذائب ومياه السيول) ثم عاد النجَّاب **Najjab** ومعه أمر مباشر من الباشا ، (نظرا لعدم وجود المفوضين ضمن قوات الحراسة) بوضع حراسة على ذلك الماء ، ولكن فى السنوات التى يشح فيها الماء فى تلك البركة ، تحمل إدارة الحج معها من دمشق حوالى ١٥٠٠ قربة من قراب الماء ، لتوفير احتياجات القافلة من الماء لمدة خمسة أيام : ويجرى ملئ تلك القراب المصنوعة من جلود الحيوانات بالماء ، على حساب الحكومة ، ومن المساقى البعيدة ، عن طريق السقائين من البدو المترحلين .

تجاوز أفراد القافله تلك القلاع المخربة والمهجورة وهم يلعنونها فيما بينهم وبين أنفسهم تلك اللعنات التى يوجهونها – بالرغم من أنى لا أستطيع القطع بذلك – إلى ضابط الحج وهم يرددون : "كل البرك تسربت ولم يعد هناك ماء للحجاج . فى كل عام تدفع الخزانة أموالا مفروض أنها تستخدم فى صيانة المبانى والمحافظة عليها ؛ هؤلاء

الباشاوات المختلسون يبتلعون المال العام ؛ بوسعنا الآن جلب الماء من أى خزان من الخزانات الموجودة قبل مدينة معان(*) ، ولكن بعد المسيرات الطويلة يتحتم قطع مسافات طويلة لجلب الماء ، والماء الذى يتم الحصول عليه بهذه الطريقة يكون غير صالح للشرب" . معروف أن الاختلاس التركى مشهور بسوء سمعته فى موسم الحج ، وهو يهدف إلى تهدئة بعض المسيحيين اليونانيين وبعض السوريين الذى يعملون دوما فى مجال الصرافة فى دمشق خلال موسم الحج الإسلامى ، :- وهذا قانون من قوانين الطريق ، مفاده أن الجميع يجب أن ينظروا من خلال أصابعهم أو إن شئت فقل : يغمضون عيونهم . أما وعورة الطريق فمردها إلى أن القسم الأكبر من مخصصات الخزانة ، جرى انفاقه على الحج ولم يعد ما يكفى لصيانة الطريق . كما قامت الحكومة العثمانية الفقيرة بسحب المخيم الذى أقامته فى معان منذ فترة قصيرة ، كما خفضت المخصصات المحددة لتلك القلعة تخفيضا كبيرا ، ولكن يقال إن التكلفة السنوية لطريق الحج تقدر بحوالى ٥٠٠٠٠ جنيه إنجليزى ، تجرى جبايتها على شكل ضرائب من المقاطعة السورية ، التى يتشاكى فيها المسيحيون ، متعللين أن أجبارهم على دفع تلك الضرائب من دخولهم الضعيفة لمجرد الوفاء بتلك المقدسات الإسلامية ، إنما هو شكل من أشكال الإرهاب والإستبداد . والصُّرة من بين الخسائر التى تعانى منها الإمبراطورية العثمانية(**) ، وهى تدفع للبدو الرحل حتى يمكن المرور من أراضيهم

(*) معان : كانت المدينة قديما محطة فى طريق التجارة المعينية إلى الشمال ،وكانت تراعى مصالح التجار المعينيين إذ كانت تتبع دولة معين فى جنوب الجزيرة العربية . (المراجع)

(**) الصرة : ويطلق عليها « صرة العربان » ، إذا لم تكن الفرق العسكرية المصاحبة لقافلة الحج أو الحاميات العسكرية على طريق الحج هى الوسيلة الوحيدة لمواجهة تعديات البدو . حيث اضطرت الدولة العثمانية أن تحذو حذو غيرها من الدول التى سبقتها بدفع مبالغ سنوية من المال لشيوخ البدو المسيطرين على طريق الحج ، وكانت هذه المبالغ المالية تعرف عادة (بصرة العربان) ، إضافة إلى ما تصرفه من أموال إلى القبائل التى تخشى شرها مقابل العمل الذى يقوم به أفرادها كأدلاء للقافلة وتأمين سلامتها . والواقع أن تردد أمراء الحج فى دفع الصرة بأكملها للبدو كان يضطر هؤلاء إلى مهاجمة القافلة وكان أمير الحج يدفع الصرة على قسطين الأول فى الطريق إلى الحجاز والقسط الثانى عند العودة . وكثيرا ما حاول بعض أمراءالحج التهرب بطريقة أو بأخرى مما كان يؤدى إلى هجومهم على القافلة لأخذ كامل مستحقاتهم وقد يقومون بردم برك المياه أو ملئها بالمواد السامة لمنع استخدامها مما يضطر أمير الحج إلى تحويل طريق القافلة ، كما اضطرت الدولة العثمانية إلى تعزيز حامياتها العسكرية على طريق الحج لتأمين سلامة البرك المخصصة للشرب ، كما كانت تقوم ببناء القلاع لحفظ هيبتها لما فى ذلك من تأثير على العالم الإسلامى . وغالبا ما كانت تسند إمارة الحج لمن يستطيعون مواجهة البدو . (المراجع)

بسلام : كانت تلك الصرة تدفع لنصف القسم الغربى من الجزيرة العربية ، ومع ذلك كان الأمر أكثر من ذلك ، نظرا لأن الحرس المرافق كان يتعين عليه ، بالرغم من دفع الصرة ، المرور "بحد السيف" أو إن شئت فقل : المرور بالقوة من تلك الأراضى التى يسكنها أولئك البدو الرُّحل المكروهين . يضاف إلى ذلك ، أن هؤلاء البدو المعدمين لا يتنازلون عن شيء من معاشهم السنوى ؛ ذلك المعاش الذى كان يدفع لآبائهم ويرون أن من حقهم الحصول عليه من خزينة 'السلطان' ، وإذا ما قدم لهم مبلغ أقل من المستحق يقولون : "إن الباشاوات غير الأمناء قد بلعوه !" ، وبالتالى يتعين وقف مرور الحج ، ولا يستطيع أحد إقناعهم ؛ بالرغم من أن الدولة (إمبراطورية السلطان) كانت فى طور الاحتضار . كانت تتردد بين هؤلاء البدو أنباء مفادها أن سلطان الإسلام ليس سوى واحد من الأتراك ومن دم غريب : وهم ينظرون إلى ذلك السلطان كما لو كان نبيا ، أو إن شئت فقل : ملك الكون بحكم إرادة السماء ، وأن الجميع يتعين عليهم الخضوع والولاء له . هؤلاء البدو الرحل كانوا ، عندما يتذمرون ، يهجمون على مسيرة الحج ، أو يسطون على ركن من أركان مخيم الحج أثناء الليل ، أملا فى سرقة غنيمة من الإبل ، والبدو فى عملياتهم العسكرية يقومون بمحاصرة المضايق التى يستطيعون منها بفضل مائة من بنادقهم البدائية إيقاع خسائر جسيمة فى أرواح الكثيرين من المشاركين فى قافلة الحج ؛ وقد استطاع أولئك البدو ، بهذه الطريقه ، إنزال الهزيمة ، بجيش مصرى من جيوش إبراهيم باشا ، فى الجزء الجنوبى من البلاد ، وعلى أيدى بدو قبيلة حرب .

تقع جرازه Geraza التى يسمونها جرش Jerash حاليا ، على بعد ساعات قليلة فى اتجاه مسيرنا نحو الغرب ، وقد سبق لى مشاهدة آثار رومانية هائلة فى تلك المنطقة ؛ وفيها من آثار المسلمين قبر نبيهم هود ، الذى يتردد أنه مدفون فى أماكن كثيرة من الجزيرة العربية . وعند الساعة الخامسة بعد الظهر ، وبعد أن قطعنا ثلاثين ميلا ، بدأ يطالعنا ، من أمامنا من جديد ، منظر مخيمنا المنصوب أمامنا . وهنا يترجل الحج ، ويتجه صوب المكان قادمًا من ناحية الأفق ، وسط قرع الطبول ، قوات الشَّيال ، أو إن شئت فقل : قوات حرس المؤخرة ، ومن بعدها فرقة العجيل ، أو إن شئت فقل : الفرقه الخاصة بالخيام العسكرية الخاصة بالقوات المرافقة للحج ، ومعروف أن فرقة العجيل هذه تكون على بعد ميلين خلف قافلة الحج ، وتتحرك هذه الفرقة بسرعة مترجلة

لتحيط بأماكن إقامتنا فى الخيام العسكرية . والقوات تسير أيضا فى مقدمة القافلة ، مصاحبة للباشا ومعها قطعتين من قطع مدفعية الميدان محملتين على ظهور البغال ؛ وهناك مجموعة قليلة أخرى من الرجال الذين يشع الأسى من وجوههم يركبون دوابهم فى غير انتظام على جانبى الطابور المتقدم . وقوات العجيل ، أفرادها من عرب وسط الجزيرة العربية ، والقسم الأكبر منهم من رجال أو أهل القصيم ، وخاصة المدن والقرى التى تمر بها القافلة مثل : بريدة ، عنيزة ، العيون ، البُكَّيرية ، الخُبِّراء ، والرَّس . هؤلاء ، كما كل الغرباء ، وكذلك الجمَّالة الذين من بلادهم ، والذين ينتقلون بين بلاد الرافدين وسوريا ، يطلقون عليهم اسم العجيل ، أما البدو الرُّحَّل فيطلقون عليهم اسم العُجيْلات . هناك حوالى ١٥٠ جمَّالا من العجيل وهم مسلحون ببعض البنادق البدائية المخصصة لخدمة موسم الحج ؛ ولما كان أولئك الجماله قد نشأوا وتربوا فى أراضى البدو المترحلين ، فهم يتفاخرون بأنفسهم من منطلق أنهم أكفأ الرجال فى التعامل مع البدو الذين يركضون فى الصحراء . وهناك شيخ منتخب من بين العجيل السورى فى دمشق ، يجرى التعامل من خلاله مع الحكومة ؛ كان اسم ذلك الشيخ عندما كنت أقوم برحلتى سليمان أبو داود ، أحد الرجال المحترمين من إحدى الأسر العنيزية ، وكان قد حل مؤخرا محل شيخ آخر من بريدة سبق عزله من ذلك المنصب ، كلا هذين الشيخين كانا من سماسرة الإبل فى المدينة السورية . والجنود الجمَّالة يركبون جمالهم وهم يتغنون بأغان فاحشة يحتقرون بها البدو الرحل ، الذين يكرهونهم كراهية فطرية مثل كراهية سكان الواحات لأولئك البدو . والعرب الذين من هذه الفصيلة ، أجسامهم هزيلة ووجوههم توحى بالفقر والشقاء ، وذلك على العكس من وجوه المواطنين الدمشقيين المستديرة وأهل دمشق ينظرون إلى هؤلاء المواطنين من منطلق أنهم أفضل قليلا من البدو ، وأهل دمشق يقولون إن أهل نجد وبلاده هم أهل اللغة الفصيحة ، وهم البدو المترحلين بحق وحقيقة ؛ ومن هنا فأهل دمشق يقولون : إن الأمير الكبير ابن الرشيد هو والأمير الوهابى من "البدو" . هؤلاء العرب سكان الواحات لا يثق بهم أحد من سكان المدن ، بسبب ملامحهم الأجنبية : من هنا يقول سكان المدن : "ويل للحج الذى يقع بين أيدى العجيل ! أفٍّ . سيشرطون كيس نقوده ويسرقون ماله !" حاول أصدقائى إثنائى عن عزمى عندما ركبت معهم أول مرة ، وقالوا لى أنهم سوف يقتلونى بعد أن

يخرجوا من مزيريب ويبتعدون عنها . وأنا اعتبارا من تلك المرة ، تعرفت على عدد كبير من أفراد العجيل وكلهم أناس محترمين ؛ أنهم هم نفس الأعراب الذين زرتهم بعد ذلك فى نجد . مزاج العرب متقلب دائمًا ، ويندر ألا تتهم كل حالة من أحوال ذلك المزاج الحالة الأخرى .

فى موسم الربيع من العام الماضى ، كنت قد تجولت قبل عدة شهور خلال هذه البلاد فيما وراء الأردن والبحر الميت . وإلى الشرق من هذه المنطقة يوجد سهل الباشان Bashan، كما توجد هناك أيضا مدينه أثرية عظيمة كلها من أحجار البازلت ، وما تزال جدرانها وأسقفها باقية إلى يومنا هذا ، ولكنها لا يسكنها أحد منذ قرون عدة ، هذه المدينة التى تحمل اسم أم جِمال Jemâl Umm (التى تسمى بيت جامول Gamul Beth عند ارميا ، النبى) هى المدينة الرئيسية من بين المدن البازلتية ، أو إن شئت فقل : المشيدة من حجر الصوَّان ، وهى تقف حاليا معزولة عن المنطقة السكنية . شاهدت فى كل هذه المدن البازلتية كنائس فيها الصليب وفيها أيضا نقوش إغريقية ، كما قرأت أيضا على عارضة أفقية داخل برج من أبراج تلك الكنائس ، فى تلك المدينة الخالية من السكان ، (وما تزال آثار الحروف مدهونة باللون الأحمر القرمزى) قرأت عبارة يونانيه قديمة (*) عن رؤية قسطنطين (**). وشوارع أم جمال الضيقة تغص بالأعشاب الضارة ، التى تنمو بشكل أكثف من نمو النبابات الصحراوية . فى هذه المدينة نشاهد غرفا وأبراجا ، وأعمدة وأقبية وسراديب ؛ وأبواب المنازل عبارة عن بلاطات من صخور البازلت المشغولة ، ومع ذلك فهى تتدحرج بحكم ثقلها داخل تجاويف من البازلت أيضا ، هذه الأبواب تدوى عندما يطرقها طارق كما لو كانت أجراسا طنانة . هذه الغرف مسقوفة بعوارض من البازلت لا تمتد من الجدار إلى الجدار ، معروف أن معدن

(*) هذه العبارة اليونانية القديمة : {ENT} 8 TW + NIKAS BOHOI

(**) رؤية قسطنطين : يروى أن الإمبراطور قسطنطين أثناء حروبه ضد خصومه السياسيين على العرش الرومانى فى إيطاليا ظهرت له فى السماء علامة الصليب مكتوبا حولها " بهذا تنتصر " . وقد انتصر قسطنطين بالفعل على خصومه ، وعليه فقد أصدر مرسوم ميلان ٣١٢م بالتسامح مع الديانة المسيحية جنبا إلى جنب مع الديانات الأخرى فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية . (المراجع)

البازلت طويل العمر كما أن الأحجار الكبيرة مبنيه بطريقه جيده ، وهى على "المدى القصير تعد أثرا خالداً" ، وهذا هو ما تدل عليه أوزان تلك الأحجار . هذه السهول التى هى أراضى برية من البازلت ، فوقها طبقة ليست سميكة تنمو فيها الأشجار الخشبية ؛ وأهل باشان يجدون أن تلك النواتج البركانية قريبة منهم ، مما يجعلهم يستعملونها فى عوارض السقوف وبلاط رصف الأرضيات ؛ وهذا بدوره يصبح أقل تكلفة من الأشجار التى كان يتعين على أهل باشان إحضارها على ظهور الإبل إلى منطقة جايليد Gilead . (*)

وسيعة مناطق الدفن التى فى تلك المدن الميتة ، وهذه هى شواهد القبور المصنوعة من البازلت تقف صامدة أمام عداء الزمن ؛ هذه "الأماكن القديمة المهجورة" ليست أكواما وأطلالا ، وإنما هى هياكل ربما كان يسكنها أناس كانوا يستظلون بحكم حكومة جيدة ، وربما كان بعد هذه المدن هو الذى أدى إلى التضحية بها ، فى فترة انحسار المد الإسلامى فى سوريا ، وذلك من باب التخوف من البدو . بعض هذه المدن أعيد احتلالها ، فى بعض أجزائها ، كما هو الحال فى مدينة بُصرى Bosra، التى تغص بالمبانى الرومية والمسيحية .

فى الصباح استأنفنا مسيرنا فى الوقت المحدد ، وبعد مسير دام عشرة أميال مررنا على عمود أو إن شئت فقل : علامة أرضية طويلة : كل ذلك عبارة عن إشارات إلى الطريق القديم . هناك على جانب الطريق شاهدنا قرية ميتة مبنية من الحجر ، شأنها شأن قرى الحوران . اتسمت تلك الوقفة بالقصر ؛ إذ طالعتنا بعد الظهر بوقت قليل خيام مدينتنا التى اكتست باللون الأبيض بفعل ضوء الشمس وتمكنت عن طريق نقطة عالية فى الوادى ، من الإطلال على مخيم الحج ، الذى جرى نصب خيامه فى

(*) جايليد : حاليا فى الأردن . منطقة جبلية فى فلسطين القديمة ، وتقع حاليا شمال غرب الأردن ، شرقى نهر الأردن ، ويصل ارتفاعها إلى حوالى ٣٦٥٢ قدمًا فى جبل جايليد أو جبل يوشع ، الذى يقع على مسافة ثلاثة أميال شمال مدينة السلط . (المترجم)

جزء من الأرض المنخفضه ، باعتبار أن تلك الأرض ميدانا عسكريا جيداً من وجهة نظر ماريشال المخيم . التنظيم الطيب لهذه الخيام تحقق على امتداد أجيال طويلة ، وهذه هى الخيام وكذلك الأجنحة مقامة فى نفس الأماكن المحددة لها : قدرت عدد تلك الخيام بحوالى مائتى خيمة . ويتراوح عدد الأفراد داخل الخيمة الواحدة بما فيهم الخدم حوالى عشرين فرداً ، وهناك عدد آخر يقيم فى الخيام الصغيرة . نحن هنا فى سقيا أو إن شئت فقل : محطة الزرقاء Zerka، أو مدينة جابوك Jabbok، التى ورد ذكرها فى الإنجيل ، والتى كانت تعد حداً من حدود أبناء عمون فى عهد سيدنا موسى عليه السلام . وخاضت القافلة خلال الغدير الصخرى ، وهى تمضى مسرعة فى اتجاه الأردن ؛ وفى اتجاه الغرب تزداد المياه الصحراوية بفضل الينابيع والآبار : وقد خضت فى شهر يونيو فى واحدة من تلك المخاضات المنخفضة ، التى وصل ماؤها الفاتر إلى أحزمتنا .

على بعد مرمى دانة مدفع ، يقع البرج العظيم ، قلعة الزرقاء . Zerka هذا المعقل الموجود فى هذه الأرض القفر ، موجود ، حسب الموروث الشعبى ، منذ زمن سابق لعصر (النبى) محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ومبنى قلعة الزرقاء ، كبير وليس مخرباً ، وهذا المبنى ليس من ضمن القلاع الخاصة بطريق الحج ، ويندر حاليا أن يمضى الليل فيه المسافرون أو البدو الرُّحل ، كما أنه ليس مأوى أو مرتعا لقطعان البدو ، والموروث الشعبى هنا يقول : إن قلعة الزرقاء هذه كانت مقرا لبطل قديم هو ، شبيب Shebîb ابن تُبَّاى Tubbai؛ واعتبارا من هذه المنطقة ، ومن مسيرة إلى مسيرة ، هناك سلسلة كبيرة من هذا النوع من القلاع الأثرية القديمة وأبراج المراقبة فى الأرض الجرداء المؤدية إلى الشوبك Shôbek، التى تقع على مسافة حوالى مائة ميل جنوبى إيدوم وقد سبق لى فى تجوالى السابق ، أن رأيت بعضا من تلك القلاع . كان ابن تُبَّاى Tub-bai سلطانا على المنطقة الواقعة أسفل معان ، أو على جبل حرمون كما يقولون هنا . وعلى بعد مسير يومين من هذا المكان ، وفى اتجاه جنوب وغرب درب الحج ، سبق أن مررت على قلعة أثرية فى جانب الصحراء ، كانت هى بدورها قلعة كبيرة جداً . ورد على البدوى ، الذى كان من بنى صُخر Sôkhr، ونقلنى على ناقته ، قائلا : "قصر (قلعة) اليهود القدامى" ؛ أطلق البدوى على هذا المكان إسم جوّة Guwah أو قصر الشبيب ، كما يوجد بالقرب من تلك القلعة مقام لولى من أولياء الله هو الشيخ بصير

Besîr . وقد ألم بى الإعياء نتيجة عيشى طويلا على طعام البدو ؛ ولو امتنعت عن تناول ذلك لما اعتليت ظهر الجمل ، ولربما تخلى عنى ذلك الرفيق ، وأنا أدخل من الباب ، وهذا هو ما حدث بالفعل بعد ذلك فى اليوم التالى . وقد أبلغنى أحد الذين كانوا يعملون فى خدمة طريق الحج ، منذ أمد طويل ، فى مدينة معان ، أن الأفضل من تلك القلاع التى شاهدتها ، ذلك البرج الذى يبعد مسير يومين من قلعة البلقاء Belka فى اتجاه الجنوب الشرقى ، وأبلغنى أيضا أن جماعته البدوية كانت قد أبعدته عن ذلك البرج ، تجنبا للخطر ، عندما كان فى طريقه إلى معان . قال الرجل عن ذلك البرج : "إنه سراى ، قصر حقيقى ، وشكله (فى ظل هذا المناخ) يوحى وكأنه بنى بالأمس " كما أبلغنى الرجل أنه وصل ذلك المكان فى الليل ولذلك لا يستطيع القطع إن كانت هناك نقوش أم لا . ترى ، هل كان ذلك البرج (القصر) مقرا لواحد من أمراء الغساسنة؟ (*) أما البرجين الآخرين الأقل من هذا البرج ، واللذين مررت بهما أسفل قصر بصير بمسافة قصيرة ، فقد أطلق عليهما رفيقى اسم المغراز Mughraz والريشان Risshan كما شاهدت المزيد من تلك الأبراج ، التى أقيمت فوق سلسلة من الجبال المرتفعة فى اتجاه كيراك Kerak لتكون أبراجا للمراقبة . وقد ورد فى سفر الملك عزيا Uzziah العبرى(**) ، الذى كانت لديه ماشية كثيرة العدد ، أنه بنى أبراجا وحفر خزانات للماء فى الصحراء ؛ وقد عثرت على خزانات من هذا القبيل فى أرض جبل حبرون الجرداء ، وهى تنحدر ناحية البحر الميت ، كان البرج هو دائما الأمل الذى يراود هذا العالم السامى غير الآمن إلى حد أن يهوه (اسم الله عند اليهود) يُسبَّحُ به بوصفه "برجا من أبراج الخلاص ، برج منيع على العدو ، اسمه برج منيع" أما فيما يتعلق بذلك الاسم

(*) الغساسنة : كانوا فى الأصل قبائل يمنية هاجرت إلى منطقة حوران على أثر تصدع سد مئرب فى القرن الثالث الميلادى . ومالبثوا أن دخلوا فى دائرة نفوذ الإمبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية) ، ووضعوا أنفسهم فى خدمة مصالحها والحفاظ على حدودها الشرقية . (المراجع)

(**) عزيا : أحد ملوك المملكة الجنوبية ، ويسمى أيضا عزريا (٧٦٩-٧٣٣ ق.م) ومعناه مجد الرب وفى عهده تحررت مملكته من هيمنة المملكة الشمالية فنظم الجيش وحصن القدس ، وغزا المدن الفلسطينية ، وترأس حلفا من ملوك الدويلات التى كانت تعارض آشور حتى أصبحت مملكته الجنوبية أكثر أهمية من المملكة الشمالية وقد صورت التوراة العلاقة العنيفة بين العرب والعبرانيين حينما ذكرت أن الملك عزيا ملك يهوذا حارب العرب الفلسطينين والعرب المقيمين بمنطقة " حور بعل " والمعونيين وهدم أسوار مدنهم وأخذ الجزية من العمونيين ، اصحاح ٦:٢٦- ٨ . (المراجع)

الأثرى ابن تُبَّاى Tubbai Ibn، فقد سمعت هنا عن قبيلة بدوية صغيرة من البدو الرحل ، تقيم فى الجزء الشرقى من بحيرة طبرية ، هى قبيلة الكلب EL-klîb أو كلب Kelb، وأن لقب عائلة شيخ هذه القبيله الصغيرة هو ابن التوبَّاى Ibn . et-Tubbai

وفوجئت ، وأنا أنال قسطًا من الراحة فى خيمة الترحال الصغيرة ، بصراخ وعويل ينبعث من الجناح الفارسى : وخيمة مقوَّم من هذا القبيل يحتمل أن تتسع لحوالى مائة شخص . فى منتصف تلك الخيمة كان هناك مقعد خشبى مربع الشكل طويل ذو ذراعين وظهر عال ، مقسم إلى أجزاء ، حتى يمكن أن يجلس عليه ثلاثة أشخاص بحيث تتقاطع أرجلهم مع بعضها ؛ كما وضع داخل الخيمة أيضا كل معدات المقوَّم إضافة إلى صندوقين من صناديق الجمال . وعندما دخلت إلى تلك الخيمة ، كنت شاهدا على شكل من أشكال الجلد المؤلم الذى يبعث الأسى فى النفوس . وسحبت أحد افراد هذا الجمع من كوع ذراعه علنى أعرف ذلك الذى كان يدور أمامى . وهمس لى الرجل قائلا : "حرامى" . كان المتهم يجرى عقابه – ولكن إذا ثبت أن هذا الشقى برئ فما هى التعويضات أو الترضيات التى يمكن أن يحصل عليها ، جزاء لتحطيمه صحيًا ؟ ! كان صوت الضرب هو وتأوهات المتهم تدوى بصورة مخيفة خلال الصمت الذى يخيم على المكان . سألت الرجل مرة ثانية : "لماذا يضربونه بهذا الشكل ؟" رد على قائلا : "إلى أن يعترف عن المكان الذى خبأ فيه الشىء المسروق ، آه من هذا الملعون !" وهم إذا ما واصلوا ضربهم له بهذه الطريقة فسوف يموت !" ورد على الرجل قائلا : "لن يبقوه على قيد الحياة إلا إذا اعترف ." وبينما كنت أتدافع داخلا بين الرجال ، سمعت أن أربع رجال غلاظ كانوا قد أرهقوا أذرعتهم فى ضرب ذلك المتهم ، أما الخامس فكان قد بدأ الضرب منذ وقت قصير . كان ذلك الرجل ، ذو الوجه الصارم ، يمسك فى يديه "نبوتًا" غليظا راح يهوى به على الرجل بكل قوته . كان المتهم منبطحا على وجهه ، فى حين كان الرجال ممسكين بقدميه ، وبعض آخر من الرجال كانوا يجلسون فوق كتفيه ويكتفونه بلا رحمة أو شفقة . تلك الدودة التى تتلوى وتتضور لم تكن من الإنسان فى شىء ، وبعد الصيحات الأولى التى صدرت عن ذلك المتهم ، تحول ذلك الصراخ إلى أنين من الألم المبرح ؛ وخطر ببالى ، أن ذلك الرجل ، خلال برهة من الوقت ، سوف يتحول إلى أشلاء ، ويتحول إلى رجل محطم بقية حياته . كان من الخطر على أن أجذب

انظار هذا العدد الكبير من الغرباء ، ولكن بدافع من الإنسانية ، ناديتهم قائلا : "أيها السادة ، أنا حكيم ؛ هذا الرجل قد لا يتحمل الضرب أكثر من ذلك ، توقفوا وإلا سيموت الرجل بين أيديكم !" ولم يلقوا بالا لكلامى ، فضلا عن نظراتهم التى وجهوها إلى المتكلم . وبعد ذلك مباشرة شاهدت ذلك التعس الشقى وهم يرفعونه من على الأرض ، بعد أن اعترف بفعلته ؛ قام بعض آخر من الرجال برفع ذلك المتهم من تحت إبطيه ، فى الوقت الذى راح الجميع يكيلون له اللعان والسباب ، وسار التعيس على قدر طاقته واقتيد إلى خارج الخيمة . لقد قرأنا عن التقييد للضرب على مرأى ومسمع من القضاة ، عند (سيدنا موسى) . أما ذلك المتهم فكان مجرد واحد من العرب الذين يخدمون قافلة بغداد فضلا عن كبر سنه ، وشيب شعره ؛ قام ذلك المتهم بكسر قفل سيده الفارسى وسرق من صندوقه كيسا فيه ٤٠ جنيها إنجليزيا ، إنه أحمق غبى ، ثم قام بتخبئة المبلغ فى الأرض إلى جوار الخيمة التى ينزلون بها .

سلطة الجلد هذه مخولة لرؤساء جماعات الحج وهم المسئولين عن قمع أشد الأرواح خطورة فى القافلة : والكثيرون من خدم الحج هم من بين الهاربين من العدالة ومن التجنيد العسكرى . (قال لى الفارسى عندما وجدنى لوحدى) : "خليل أفندى . لماذا تدخلت فى عقاب الرجل ؟ ألست ذاهبا إلى مدائن صالح . أم لا ؟ قد يصل هذا الذى قلته إلى مسامع باشا الحج غداً ؛ وهنا سوف يعرفونك ، ويردونك ثانية . لا تحاول الظهور على الملأ مرة ثانية ." ولكنى بوصفى أوروبيا كنت يوميا أدوس ذلك الحرص الشرقى المسكين **Mesquin**، ففى المخيم كان ذلك الفارسى يود لى البقاء وحدى داخل الخيمة الصغيرة . معروف أن المبيت وحيداً فى الحج يعد أمرا خطيرا ، وهنا استأجرت واحدا من الجمَّالة ، لكى يطهى لى عشائى ويرتب الخيمة عندما نتركها ، وينام معى أثناء الليل .

جاء الصباح ملبداً بالغيوم وترتب على ذلك أن تعطلنا بسبب أمطار الخريف : وسمعنا قبل الظهيرة بحوالى ساعتين من الزمن صوت إشارة التحرك واستئناف المسير . وطلعت الشمس من جديد لتجفف لحُفنا وملابسنا المبتلة ؛ مررنا بأرض واسعة كلها من الحجر الجيرى ، يتخللها كثير من الأشجار الملتوية التى من قبيل أشجار البلوط أو السنديان ، ولكن أوراق تلك الأشجار كانت تشبه الرماد ؛ وهنا اندفع

الطباخون ، والخدم وكل المساكين يركضون ، ثم بدءوا يقطعون ويشدون الأغصان الجافة ويجعلوا منها غنيمة لهم ، مع مرور الحج عاما إثر عام ، لا عجب أن يجد هؤلاء ما يجمعونه كل مرة . ركبت دابتى ضمن القافلة فى حين كانت حقائبى محملة على ظهر جمل من الجمال ، وكنت أتأمل وأفكر مليا فى الطريقة التى يتعين على اتباعها لقياس الطريق – هل يمكن أن يحدث ذلك باستعمال خطوات الجمال ؟ ولكنى اكتشفت أن بعض الإبل تقطع خمسين خطوة فى الدقيقة والبعض الآخر يقطع ستين خطوة فى الدقيقة ، إضافه إلى أن خطوات ذلك البهيم لا تكون واحدة فى كل الأوقات . وقد قدرت ساعة القافلة بما لا يمكن أن يزيد على ميلين ونصف الميل . وأنا فى مرحلة لاحقة ، عندما كانت ساعتى تتوقف ، كنت أحسب المسافات فى الجزيرة العربية بعدد رحلات الإبل ؛ وهذه الطريقة ليست سيئة إلى الحد الذى يتعذر معه عدم معرفه مسافة أى مكان فى ذلك البلد الشاسع عن طريق التعرف التقريبى الجاد ، الذى يصل فيه الخطأ المسموح إلى حوالى ثلاثين ميلا .

البدو الذين يعيشون فى هذه الأراضى المنخفضة هم بنى صُخر ، تلك القبيلة القوية ، التى اشتد بأسها مؤخرا ، بعد أن أصبح لديها عدد كبير من الخيالة ؛ الأمر الذى يتعذر معه على أى إنسان المرور من تلك المنخفضات ، اللهم إلا إذا كان ذلك أثناء الليل ، أو ضمن سرايا وجماعات قوية . وقد انكسر صلف هؤلاء البدو الشديد وأوقف بفضل الحملة العسكرية بقيادة محمد سعيد الذى هو حاليا باشا الحج ، ومحمد سعيد قائد شجاع مظفرّ ، متمرس ، منذ صباه ، فى أساليب الحرب المدنية . كسر الباشا هؤلاء الأعراب وأحبط أعمالهم فى يسر وسهولة ، وبخاصة أن قوتهم تتمثل فى ألسنتهم ، ولم يعد من بينهم من يقودهم ، كما جردهم الباشا من خيولهم ودوابهم . وبعد اخضاع بنى صُخر للدولة (الإمبراطورية) ، ارتضوا لأنفسهم أن يزرعوا الأرض بوصفهم فلاحين . هؤلاء القبليون هم حاليا السقائين الرئيسين فى الحج وذلك بدءا من الشمال وحتى مكة ؛ وجيرانهم من البدو الرُحل يذمُّونهم . وأعراب الحدود يتفشى فيهم فساد مزدوج هو : فساد البدو المستقرين وفساد بدو الأراضى القاحلة ، أو إن شئت فقل : فساد بدو البرية . والبدو الآخرون يكرهون أعراب الحدود ، وهذه الكراهيه ينبغى عدم تصديقها نصًا وروحًا . "والله ، الصخور على استعداد لذبح الضيف فى الخيمة ."

والاعتداء على الضيف ، "ضيف الله" ، فى دين الصحراء ، هو الخطيئة أو الذنب الأكبر . وأتباع بنى صُخر وشركائهم فى المكان الذى يعيشون فيه هم بنو سليطة : Seleyta وهذه القبيلة البدوية المترحلة الضعيفة هم نوع ضعيف من البشر الذين أطلق عليهم اسم الخونة ؛ وهم ينصبون خيامهم منفردين ، (بعد أقاربهم ، مثلما يفعل البدو) فى المخيَّم الواحد . وقد بلغنى أن أولئك السلايطة لا يتزوجون من بعضهم البعض .

عندما تركنى الصُّخرى ، الذى جاء من قلعة شبيب ، وتخلَّى عنى عند خيمة الشيخ اكتشفت أن هؤلاء الناس طيبون : فقد استمعوا إلى شكواى ، ثم قفز الشيخ ، وفى يده حربته الطويلة ، على ظهر فرسه ، التى كانت واقفة مقيدة إلى جوار الخيمة ، وطلب من اثنين من الخيَّالة أن يتبعاه ، وافترقا وهم يركضون بخيولهم ؛ ولكن أولئك الخيالة البدويين ، عادوا إلى بعد ساعة من الزمن دون أن يعثروا على ذلك الخائن ، وبعد أن أراحوا خيولهم تماما قالوا لى : 'تلك إرادة الله !' وذبح الشيخ شاة ، وتحدد موعد العشاء بعد غروب الشمس واحتفل الرجل بى احتفالا عظيما فى جو من الرقه واللطف . وعندما طلع النهار ، وكان مقررا لهم التحرك ، أرسلنى الرجل فى المقدمة وأنا أركب ناقته الخاصة ، مع خادم أسود إلى شيخ بنى صُخر ؛ ولكنى عند الصُّخور لم أتغذى جيداً . وعندما وصلنا إلى خيمة شيخ الصخور الكبيرة ، التى كانت قد نصبت حديثا وفى مكان منعزل بالقرب من خرائب قبور أم شتّه Umm Shetta أو إن شئت فقل مشتّا Meshetta، إذ يصح فيها هذا وذاك (وهذا ينطق أيضا على الاسم فندى Fendy الذى يصح فيه أيضا "ولاد" على ' Welad Aly الشماليين) ، عندما وصلنا إلى الخيمه لم نجد أحداً غير النساء ؛ وشاهدت حيتين مقتولتين فى الأرض الجديدة التى نصبت عليها الخيام ، وأحضروا لى لبنا وجلست أنتظر مغامرتى . وصل الشيخ إفندى الفايز el- Fâiz Effendy بعد الظهر فى بداية الأمر ؛ وسألهم إن كانوا قد قدموا لى طعاما أم لا . وبعد ذلك ، وبالرغم من اللبن الذى قدموه لى ، طلب الشيخ منى فدية ، وبدأ يهددنى ؛ ثم قال فى النهاية ؛ إننى إذا ما أعطيته هدية فسوف أمر بسلام . ورددت عليه قائلا : "لعله يعطينى هدية أخرى ، فرسه على سبيل المثال :" وطلب من أحد الحاضرين أن يقتاد الفرس ليحضرها بالقرب منا ، وكان على أتم الاستعداد لإعطائى إياها ، ولكنى لم تعجبنى تلك الكديش ، أو إن شئت فقل : الفرس العجوز

الهزيل ، وقلت له : "أنا لا يمكن أن أقبل فرسه العجوز على سبيل الهدية أو العطية ." وهنا ضحك رفاقه ، الذين جاءوا معه كما لو كانوا عفاريت أو شياطين صغيرة ، وبعد أن وقف على هذه السخرية والتهكم ، لم يكن أمامه من بد سوى أن يتركنى أمضى لحال سبيلى . تعامل ذلك الشيخ مع ضيف على هذه الشاكلة ، أمر يستنكره البدو جميعا ويدينوه . والغريب بحق أن ذلك الشيخ يقال عنه ، إنه ليس واحداً من العرب الذين يعيشون حول غزة (وهم من الحويطات) : أما فى القبائل العربية الأصيلة فإن شيخ القبيله لابد أن يكون كبير كبراء القبيلة وأن يكون من سلالة شيخ القبيلة أو عميدها . وشهدت فى بعض خيام بنى صُخر قدرا كبيرا من الكرم البدوى .

أما ولاد على ، من العنوز Annezy، فهم موجودين فى اتجاه الشرق ، كما أن ديرتهم تتاخم الحوران . وولاد على ، عبارة عن نصف قبيلة ، ازدادت قوتها فى الشمال ، أما القسم الباقى من تلك القبيلة فهم يقيمون فى ديارهم القديمة فيما بين المدينة (المنورة) ومدائن صالح . يضاف إلى ذلك أن الصُّخور كانوا من عرب الجنوب القدامى ، كما أن ديرتهم القديمة كانت قريبة أيضا من مدائن صالح ، وتتردد هناك خرافة عن عرب الصخور مفادها أنهم يمثلون النسل الذى أنجبته صخور الأحجار الرملية (صُخر) Sokhr . بدو الصخور هؤلاء ، أسلس دينيا من أفراد القبائل الوهابية(*) فى الجزيرة العربية ؛ وهم لا يعيرون مسألة حث الناس يوميا على الصلاة اهتماما كبيرا ، فضلا عن عدم معرفتهم للصلاة الصحيحة معرفه دقيقة . ونساء الصخور ليست منقبات ، وهن تعلمن وجوههن ببعض الخطوط الزرقاء ، والبقع الزرقاء أيضا ، أنا لم أرى تلك الخطوط أو البقع فى وسط الجزيرة العربية ، وهن يربطن خصل شعورهن المزدوجة بشريط فوق جباههن . هؤلاء الأعراب ليس لديهم متدينين من الكبار يقيمون معهم فى تلك المخيمات البائسة ، فضلا عن عدم معرفتهم للقراءة والكتابة : إذن

(*) الوهابية : اسم أطلقه خصوم حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية التى قامت حول منتصف القرن الثامن عشر الميلادى على تلك الحركة تشويها لها . ولهذا فإن أتباع تلك الحركة ينفرون من هذه التسمية حتى بعد أن أصبحت علما ويؤثرون إطلاق « الحركة السلفية » عليها باعتبارها نادت بالعودة إلى مبادىء السلف الصالح ، ويطلقون على أتباعها لفظ "السلفيين" أو "الموحدين". (المراجع)

من ذا الذى يمكن أن يعلم هؤلاء البدو دينهم ؟ ومع ذلك ، حاول الوهابى القديم(*) ، القيام بتلك المهمة ، فى الجزيرة العربية ، فى وقت من الأوقات . وأولاد على لديهم ثروة كبيرة من المواشى ؛ ومعروف أن أولاد على هم وشيخهم الكبير محمد الدُّوجى ed-Dûgy هم كبار متعهدى أو موردى إبل الحج العظيمة .

جايليد Gilead تقع فى اتجاه الأردن من الناحيه الغربية ، ووجه الأرض فى جايليد يتسم بالرفعة والشرف فى هذه البلاد الجرداء . وهذه هى تلال الحجر الجيرى بأرضها المُشْجِرة تسر الناظر إليها ، كما أنها ترضى كل الحواس والأذواق . وهى مليئة بأشجار الصنوبر التى تفوح منها رائحة البلسان الجميلة ، وتلك هى أشجار الغار تدوى بين أغصانها رفرفة أجنحة اليمام الحلوة والمحببة إلى النفس ! ونشاهد فى كل الأرجاء ينابيع الماء التى تسر الخاطر ؛ هذه أعالى الوديان تنساب منها أنقى أنواع المياه التى تسر أعين الناظرين إليها . توجد فى هذا البلد الذى تكثر فيه أشجار الغار أطلال بعض القرى ، كما توجد فيه أيضا بعض القرى المأهولة بالسكان إلى يومنا هذا . فى هذا البلد يقطع المستوطن الغابة ويحرقها كما لو كانت واحدة من الغابات البعيدة فى العالم الجديد : هذه القلة القليلة من الناس الموجودة فى هذا البلد غير متحضرة ومتوحشة ، ولا تخضع لأية حكومة من الحكومات . قطعنا فى مسيرة هذا اليوم مسافة اثنتى عشرة ميلا ونحن راكبين دوابنا ، إلى أن وصلنا إلى قلعة بلات Blât المدمرة ، التى شاهدنا فيها مجرى مائى مدمرّ ؛ وبعد أن تجاوزنا ذلك المجرى دخلنا على الفور إلى مخيمنا .

هذه المرتفعات الجيرية العالية هى والسهول الواسعة فى كل من عمون Am-mon(**) وموءاب Moab(***)، وفى ريوبن Reuben، وجاد Gad، وفى مناسيح Manas-

(*) الوهابى القديم : من المرجع أن المؤلف يقصد به الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب حركة الإصلاح الدينى . (المراجع)

(**) هى مدينة عمان الحالية فى الأردن . كانت فى القديم عاصمة للأمونيين Ammonites . أعاد بناءها بطليموس فيلادلفوس وأطلق عليها اسم فيلادلفيا فى القرن الثالث قبل الميلاد . اندحرت وأفل نجمها بعد الفتح العربى . (المترجم)

(***) بلاد قديمة تقع فى منطقة الهضبة شرقى البحر الميت ، وهى حاليا فى غربى الأردن . كان سكان بلاد المواب يشبهون العبرانيين ، بالرغم من أنهم كانوا فى حرب دائمة معهم . ، حجر المواب الذى يعود تاريخه إلى القرن التاسع قبل الميلاد ، والذى عثر عليه فى ديبون Dibon (حاليا ضيبان Dhiban فى العام ١٨٦٨ يسجل ثورة الملك مسحا Masha الموابى الناجحة على إسرائيل . (المترجم)

seh، تشكل فى حقيقة الأمر بلقاء Belka البدو الرحل . كما تشكل أيضا ذلك الذى يمكن أن نقول له : الأرض البلقاء Piedland؛ هذه أرض مرتفعة جيدة المناخ ، يمكن أن تزرع فيها كل أنواع القمح وتعطى محصولا وفيرا بدون رى أو تسميد . ونقرأ فى الإنجيل العبرى أن الأراضى الأقل انخفاضا كانت مرتعا للرعى فى كل الأزمان ، "أرض صالحة للماشية ." هذه هى 'شم' Shem (أو إن شئت فقل : 'شام' Sham)، أو البلاد الشمالية الطيبة ، التى تسيل فيها المياه فوق الأرض : ومع ذلك فإن الذباب يضايق الإبل فى هذه المنطقة ، ويقول البدو إن البراغيث تضايق البشر فى هذه المنطقة أيضا ، فى قسم كبير من أشهر الصيف . والأطلال والخرائب الموجودة فى المنطقه تدل على أن تلك الأرض كانت فيها فى الماضى مدن ، وكفور ، وقرى ، جرى بناؤها على عجل على الطريقة التى كان الساميون يبنون بها مدنهم وكفورهم وقراهم . ولم أرى نقوشا من أى نوع كان فى تلك المدن ، أو الكفور أو القرى .

(يقول النبى العبرى) : "ستصبح أرض الصحراء أرضا زراعية" ، عَفيَّةٌ جداً تلك التربة الجيدة التى "غربت شمسها فى رابعة النهار" ، ستعود وتمتلئ بالحياوات البشرية الكثيفة ؛ هذه الأرض لا ينقصها سوى الدفاع عنها من قبل حكومة قوية . سألنى أحد التجار الدمشقيين الذى كان ضمن قافلة الحج : "بعد أن رأينا أن الأتراك (الذين يبلعون ويلتهمون كل شىء ولا يصلحون شيئا) تركوا أو خلَّفوا ذلك البلد الطيب على شكل أطلال وخرائب ، ألا يستطيع بعض المبتكرين من بلاد الفرنجة إقامة خط حديدى فى تلك المنطقة ؟" بعض الناس فى أوروبا تخيلوا أن المستعمرات الإفرنجية يمكن أن تزدهر هنا فى هذه المنطقة ، إضافة إلى متسع من الأرض والتربة الجيدة التى يمكن احتلالها والاستفادة منها . ولكن قد لا يكون مثل هذا العمل سعيداً أو موفقا ، نظرا لأن الجيل الجاد الأول خارت قواه ، كما أن أبناء وأحفاد ذلك الجيل الواهن الضعيف ، فى هذه الأرض ، أصبح يختلف اختلافا قليلا عن العرب . من يبقى فى هذه المنطقة ، يستطيع الخوض فى قصة يوسف عن هذه البلاد دون خوف أو وجل ! ألم يكن إرسال المستعمرين ، الذين من هذا القبيل ، إلى سوريا ، مثل إعطاء الفقراء أسِّرة ينامون ويضطجعون عليها ، وألم يمت آخرون فى تلك الأرض بسبب وباء الطاعون ؟

على مقربة من هذا المكان توجد أطلال مدينة فيلادلفيا الإغريقية ، مدينه عمّان Amman الحالية ، والتى كانت تسمى فى الماضى باسم ربَّاث Rabbath (أى عاصمة عمّان ؛ ونظرا لأن هذه المدينة تقع فى وادى مفتوح صغير ، فقد اكتشفت أن موقع هذه المدينة أقل من موقع بعض البلدان الإنجليزية التى لا يعتد بها ، هناك جسر رومانى ، مكون من دعامة كبيرة واحدة ، تركب النهر ممتدة إلى ضفتيه ، وهذا النهر ينبع من ينبوع قوى ، يعلو مجرى النهر قليلا ، وماء هذا الينبوع دافئ . "(يقول إرميا (*)) لماذا تتباهى فى وديانك ، ولديك الذى يفيض ماءً ؟" مملكة عمون Ammon كانت فى يوم من الأيام مثل مقاطعة من مقاطعاتنا ؛ كانت مكونة من ستين مُدَينة وقُريَّة من المدن والقرى الصغيرة . وعلى بعد أميال قليله فى إتجاه الجنوب عثرت فى بعض حقول القمح ، التى يقوم على أمر زراعتها أهل مدينة السلط es-Salt القريبه منها ، على ضريح فاخر (القصر) مبنى من صخور الحجر الجيرى الأبيض الذى يشبه البلور ؛ وشاهدت داخل ذلك الضريح صفا من التوابيت المصنوعة من نفس نوعية الرخام الأبيض ، ولكنها أقل قليلا من السرير العظيم الذى على شكل حرف S ويوجد فى المدينة التالية لمدينه عمَّان ، أو إن شئت فقل : مملكة عمَّان . هذه الآثار القديمة ذات العظمه المدنية تستحوذ على إعجاب أنظارنا وتثير فينا الدهشة فى أرض قاحلة جرداء من هذا القبيل ويسكنها هؤلاء العرب ... (**) .

بدأنا تحركنا قبل طلوع النهار ، ورحنا نسير فى تلك الأرض الواسعة المكونة من الغرين (اللَّهمْ) من فوق طبقة من الحجر الجيرى ، أرض خراب ، إذا ما أفلحت فلربما أعطت محصولا وفيرا من القمح . وبالقرب من هنا تقع حِصبان Hesban التى لم أشاهد فيها سوى رصيف وسور ، كما لو كان ذلك المكان أثرا لقلعة بنيت على أرض مرتفعة ، والتى ينظر الناس إليها باعتبارها أطلالا لمدينة حشبون Heshbon التى ورد ذكرها فى الإنجيل ، أو إن شئت فقل : إنها أطلال مدينة سيحون Sihon . وبالقرب من مدينه سيحون يوجد مجرى سيل وحفر . ولم يعد هناك وجود لبرك السمك التى كانت

(*) هو " إرميا " ويصح فيه أيضا Jeremiah ، أحد أنبياء بنى إسرائيل . (المترجم)
(**) كلمة غير لائقة آثرنا حذفها . (المراجع)

تشبه عيون الحب ، كما لم يعد هناك وجود لأعشاش يمام حشبون ، الموجود فى هذا المكان حاليا برك الماشية ذات المياه الراكدة كريهة الرائحة . وعند مستوى منخفض عن مستوى حشبون توجد بلدة أم الرصاص Umm Rosâs، تلك البلدة المسورة بدائية البناء التى لم يعد يبقى منها سوى أطلالها : وقبل بلدة أم الرصاص بحوالى ميل هناك برج غريب مبنى بطريقة جيدة ، يبدو أنه مائل ، وقد زينه البناه المسيحيون بكثير من الصُلبان . وسور البلدة ، هو والمزاغل الموجودة فى السور ، والذى يصل سمكه إلى حوالى ستة أقدام ، مبنى من كتل الحجر الجيرى الغشيم بدون استعمال المُلاط ، والمسافة فيما بين الجدارين مملوءة بالزبالة والمخلفات . شاهدت البلدة المهدمة على شكل أكوام ، وارتباك وفوضى شديدة ، رأيت فيما بينها عقوداً قوطية متهاوية ما تزال جدرانها الداخلية قائمة وموجودة ، وبنفس الطريقة المبنية بها منازل كيراك Kerak فى الوقت الحالى .- كانت السماء صافية ، والهواء عليل بينما كنا نواصل رحلتنا فى شمس الخريف ؛ وبعد الظهر بقليل كنا قد تجاوزنا خان Khan الزيت ez-Zeyt حيث شاهدنا فيها عقود لقناة مائية صغيرة . وبعد ذلك بحوالى ستة وعشرين ميلاً وصلنا إلى مخيمنا ، فى منطقة منخفضة ، بجوار قلعة البلقاء التى جرى ترميمها مؤخرا ، والتى توجد شرقى مدينة القدس ، فى المنطقة الواقعة خلف البحر الميت ؛ وارتفاع الأرض فى هذه المنطقة يصل إلى حوالى ٢٨٧٠ قدم .

تقرر لنا أن نرحل فى ساعة مبكرة من صباح الغد ، وعندما سأل البعض عن الموعد ؛ رد عليهم أحد الدمشقيين العاملين فى خدمة الحج وهو يضحك ويقول : "عند انطلاق المدفع" . تلك الدانة معروفة فى ليل الصحراء ، فهى تعنى بدء مسير قافلة الحج العظيمة فى تلك اللحظة ، وتعنى أيضا ضجيج وصخب تحرك مفاجئ لآلاف الحجاج ؛ هذه الدانة التى يطلقها المدفع تعنى قصر المدة المحددة للاستعداد ، تعنى أيضا جلب المصابيح والفوانيس والجرى بها ، تعنى أيضا اختلاط الأصوات الصادرة عن الإبل وتحشرج تلك الأصوات أيضا ؛ انطلاق المدفع يعنى أيضا حمل الخيام فوق رؤسنا . وأى شىء يتركه الحجيج فى هذه العجالة يكون فى حكم المفقود ، وإن هى إلا لحظات قليلة حتى يكون جيش الحج قد ركب دوابه من جديد . أفزع صوت المدفع الذى انطلق بعد أربع ساعات من منتصف الليل ، أى عند الساعة الرابعة صباحا ، الكثير من

الأجساد التى أرهقها الطريق ؛ وغالبا ما يكون هنا العديد من تلك الأجساد ، وبخاصة أولئك الذين يجيئون للحج سيرا على الأقدام من مسافات بعيدة جداً ، الأمر الذى يجعلهم لا يستيقظون مع صوت المدفع ، وتتحرك القافلة وتتركهم نياماً فى الظلام . والشاى الحار ، الجاهز فى الأكواب ، يقدم ومعه كثير من السكر ، فى الأجنحة الفارسية ، والعبيد أيضا يشعلون نرجيلاتهم (شياشهم) ، ويروحون "يشربونها" ، وهم يمسكون بها فى أيديهم ، وهم راكبون فوق دوابهم وماضون قدما . وقد يتوانى قليلا الحجاج الذين يركبون خيولا ويلحقون بالحجاج السائرين على الأقدام ويتخطون قاطرة الإبل البطيئة . وفى قافلة الحج تجد هناك باعة القهوة ، الذين يكونون فى مكان متقدم من الطريق ، وتسمعهم يصيحون وينادون من جوار نيرانهم على المسافرين وهم يقولون : "يلاً ! يلاً ! يلاً ! يصلى على محمد ، الله كريم ." وعليه فالساميون يقدمون اسم الله فى كل الأمور سواء أكانت خيراً أم شراً . وهم يصبون القهوة الحارة زهيدة الثمن ، إذ يباع الكوب الواحد منها ببنس واحد ، لكل سائر على الأقدام ، يستطيع التوقف مدة لحظة واحدة يشرب القهوة خلالها ، ويريح قلبه فى جوف الليل قبيل طلوع الصبح ، وهذا بعض آخر من الناس يبيعون الخبز الدمشقى المفرود والزبيب المجفف على جانب الطريق : هؤلاء الباعة هم من السوريين الفقراء الذين اكتشفوا ذلك العمل البسيط الذى يكسبون منه القليل كل عام ، وهم يتبعون قافلة الحج ببضاعتهم الصغيرة وهم ركوب على ظهور الحمير أو الجمال ، حتى يصلوا إلى مسافة معلومة أو محددة ، أو إن شئت فقل : إلى أن تصل قافلة الحج إلى آخر المحطات السورية فى معان ، أو قد يدخلون مع الحج إلى الصحراء الرئيسية ، التى يتحولون فيها إلى بيع التمر فى كل من المدينة ومكة . وتبدو الإبل كما لو كانت تتنفس طاردة الدخان من أنوفها فى برودة الصباح الباكر فى هذه المرتفعات ، وهذه سحب من التراب والغبار تهب علينا من وراء ظهورنا بفعل ريح الشمال ، ونظرا لدخول الليل علينا فإن الساعات تمر طوالا ، فى ظل تلك البرودة الشديدة ، إلى أن يطلع النهار وتبعث فينا أشعة الشمس الدفء . والمؤسف أن النهار جاء ممطرا ، مما أدى إلى بلل فراش الحجاج الذى هو عبارة عن لحاف محشو بالقطن ، فى مسيرة من قبيل قافلة الحج ؛ ومع ذلك ، لا يمكن للمنغصات الحالية أن تستمر ، فضلا عن أننا مع كل لحظة كانت تمر علينا ، كنا نقترب أكثر

وأكثر من شمس الغد . قطعنا حوالى أربعين ميلا إلى أن وصلنا إلى المخيم ، الذى أقيم فى مكان بالقرب من قلعه قطران katrân ، حيث شربنا من هناك ماء عذبا جاء من ماء المطر . مررنا فى هذه المسيرة بوادى مجيب Mojeb الجاف ، الذى يقع أسفل نهير عرنون Arnon . وفى اتجاه الغرب من هذا المكان توجد أنقاض بلدة ليجون Leijun المسورة بسور مربع الشكل ، هذه البلدة مثل بلدة أم الرُّصاص ، سورها وأبراجها التى عند أركان السور عبارة عن نباتات من البلوك الجاف ، وفى منتصف كل جدار من جدران السور توجد بوابة . وفيما بين تلك الأنقاض شاهدت ورأيت كثيرا من العقود المستديرة المركبة بدون ملاط . والأنقاض ، كما هو الحال فى البلدة الأولى ، موجودة داخل الأسوار وخارجها . وعلى بعد مسافة قصيرة فى اتجاه الجنوب شاهدت حلبة مبنية مربعة الشكل ، ومتدرجة من جميع الأجناب ، كما لو كانت مكانا محدداً . ترى ، هل بلدة ليجون ، يمكن أن تكون هى ليجيو Legio؟ أم نحن هنا فى ستاتيفا Stativa إحدى المحطات العسكريه الرومانية (*) ؟ وأنا عندما جئت إلى هنا ، قبل عدة أشهر ، على ظهر دابه أثناء الليل قادما من كيراك Kerak، كانت خيام البدو منصوبة فى الأرض الجرداء القاحلة خارج الأسوار . كانت الشمس تغرب وتجولت الإبل من تلقاء نفسها فى الصحراء ؛ كانت ربات البيوت فى الخيام يحلبن الماشية الصغيرة . استقبلونى بالقرب من أنقاض إحدى المدن المبنية من الحجر ، فى خيمة من أفقر خيام البدو الرُّحل ، بشيئ من الكرم .

واصلنا المسير ثانية عند الساعة الخامسة صباحاً . هذه هى سهول موءاب Moab : على بعد مسافة قصيرة عن يميننا ، يوجد جبل كيراك Kerak Jebel، هذا الجبل عبارة عن سهول قاحلة مرتفعة ، فيها الكثير من أنقاض الكفور والبلدان الصغيرة إلى الحد الذى لا يمكن أن يتصوره العرب أو يتخيلوه . فى العام الماضى ، كنت قد زرت إلى جوار العاصمة Rabbath الموءابية Moab، أربعين نقضاً آخر ، تقع على بعد مسير

(*) المحطات العسكرية الرومانية : لم يتمكن الرومان من التوغل إلى أبعد من السهول الساحلية ،.وأقاموا خطا من الثغور Limes يحمى مناطق نفوذهم من عدوان القبائل الداخلية . ولا تزال توجد آثار بعض القلاع أو المحطات العسكرية الرومانية التى أشار إليها " دوتى " على حدود المناطق المتحضرة . (المراجع)

يومين على ظهر دابة من الدواب . ترى ، ما هو السبب وراء بقاء هذه البلدان مجهولة للناس وغير معروفة ! ألا يكفى فصل الصيف لتقصى هذه البلدان وفحصها ؟ وبالقرب من طريق الحج توجد أنقاض بلدتى نيكل Nikkel وأنشينش Ensheynish وعلى مقربة من كيراك زرت بلده ميهاى Mehai، وهى عبارة عن أرض مزدوجة مرتفعة تحيط بها أنقاض برية : سمعت أننى ربما أرى هناك تمثال لشخص ، وبعض الأعمدة ، وكذلك بعض النقوش ؛ ولكنى لم أعثر على أى شىء من ذلك ، ولما كنت أتضور جوعا فقد وجدتنى لا أقوى على مواصلة تسلق تلك الأحجار الجرداء التى سقطت على الأرض . كانت ميهاى Mehai أرضا واسعة تميل إلى الارتفاع خاليه من تحف المبانى ، ولكن كل مبانيها كانت من الحجر الجيرى غير المصقول (الغشيم) ومن كتل الصوّان التى كانوا يجلبونها من السهول . عدت من هناك إلى ميهاى خلال نصف ساعة ، إلى ميديبيا Me-deybîa تلك البلدة الصغيرة المهدمة ، ومبانيها وجدرانها وأسوارها من كتل غشيمة ناتجة عن الحمم البركانية ؛ والسبب فى ذلك أن البازلت الموجود هنا انصهر وانساب خلال الحجر الجيرى فى مدينة بلقاء Belka . منخفضات الحجر الجيرى التى من هذا القبيل يوجد بها الكثير من تلك الصدوع البركانية شأنها شأن مدينة إيدوم ، وهناك ما هو أكثر من ذلك بكثير فى كل من وادى الأردن ووادى البحر الميت ، وكذلك فى تلك الأرض الجوفاء الواسعة المؤدية إلى خليج العقبة . وبينما كنت أركب دابتى فى طريقى إلى كيراك ، أبصرت مجموعة كبيرة من الإبل وهى ترعى ؛ وأخبرنى رفيقى عندئذ ، أن تلك الإبل تابعة لقبيلة من قبائل بلاد ابن الرشيد(*) ، ويحتمل أن تكون من الفُكارة ، المهاجرة ، وقد أقمت معهم بعد ذلك عندما كنت فى مدائن صالح . وإلى الجنوب من كيراك ، وفوق وادى الحسى el-Hâsy، هناك بعض الأنقاض الرئيسية ، التى يطلق العرب عليها اسم ذات راس Ras Dat . وبين هذه الأنقاض عثرت على بنايتين أثريتين ، طريقة بناؤهما واحدة ومن نفس الحجر الجيرى البللورى ، أو إن شئت فقل : الرخام . كما هو الحال فى الضريح (اليونانى الطابع) بالقرب من العاصمة Rabbath عمون ،

(*) بلاد ابن الرشيد : المقصود بها أساسًا جبل شمر وعاصمته مدينة حائل ، وإن كان آل رشيد قد امتدوا بغزواتهم إلى مناطق عديدة فى وسط وشمال نجد وأحكموا بسيطرتهم على الكثير من القبائل . وقد تولت أسرة رشيد الحكم من قبل السعوديين فى عام ١٨٣٥ ، ثم أصبحت من أكبر المنافسين لهم بعد ذلك (المراجع) .

أو إن شئت فقل : عمّان الحالية ؛ فقد تحول طباشير بلقاء Belka بفعل الحرارة البركانية ، فى زمن ثورات البراكين البازلتية . أول مبنى أثرى من هذين المبنين يبدو كما لو كان معبداً صغيراً أو مبنى إمبراطوريا : وعلى جانب الباب فى الحجر الأمامى الرئيسى توجد فجوات كما لو كانت لتماثيل ، كما توجد أيضا بعض الأعمده المكسّرة وفى داخل سمك الجدار يوجد سلّم ، مصنوع من كتل كبيرة من الرخام ، وهذا السلم يؤدى إلى شرفة علوية ، موضوعة فوق عقود ضخمة مستديرة : كانت فى ذلك الوقت وكراً لحيوان متوحش . "البجعة والدُلدل يسكنان فى الفتحات العلوية" . وفى الأسفل توجد بحيرة جافة عميقة ، ثم هناك بحيرة جافة أخرى ، مبطنة بحجر الدبش الملصوق بالملاط ، وفوق الأرض المرتفعة المجاورة لتلك البحيرة الجافة هناك جدران منخفضة ، مبنية أيضا من الرخام كما لو كانت قصراً أو مبنى إغريقى جميل . قالوا لى : إن المحجر يوجد على بعد مسافة قصيرة خلف الوادى . ولم أستطع البحث أكثر من ذلك بسبب إرهاقى ، ونظرا لأن تلك الأرض الجرداء بدأت تتسع أكثر وأكثر من حول تلك الأنقاض النبيلة . عثرنا بعد ذلك على خيمة بدوية على مقربة من المكان ، وغضب ساكن تلك الخيمة فقير الحال لأننا اعتذرنا عن عدم البقاء معه لتناول الثريد ؛ يضاف إلى ذلك ، أن هذا الكرم الليلى أصبح أمرا مألوفا لنا فى هذه الصحراء الجرداء .

شاهدت أيضا أسوار عاصمة Rabbath موءاب Moab الأرضية التى تشبه الدوائر ، تلك الأسوار التى جرى بناؤها بدون استعمال الملاط ، كما رأيت أيضا شوارع مستقيمة مرصوفة باستعمال البازلت ، كما شاهدت أيضا بهوا من الأعمدة ومعبدا صغيرا من بقايا مبنى إغريقى . ونحن إذا ماصدقناهم ، فهم يقولون : إن تحت الكومة الكبيرة التالية من الأحجار ، يوجد الأسكندر الأكبر ، الذى يقولون له ذو القرنين Thû el-kurneyn، والذى اعتبروه إبان حياته إبنا من أبناء الإله آمون Ammon، برأسه الذى يشبه رأس الكبش . والأسكندر حاليا يعد فى مرتبه القديسين بين المسيحيين الإغريق ؛ وسبب ذلك أنهم مازالوا يقبِّلون بإخلاص صورته المنقوشة على بعض الدينارات القديمة ، ويحمل رأسه قرنين . وقد شاهدت ، على الجدار الخارجى لواحدة من كنائس المسيحيين الإغريق فى فلسطين ، حلية أثرية عبارة عن رءوس بشرية مقرّنة (أى لها قرون) مركبة داخل الجدار . وربما كانت تلك الحلية من أيام الكنعانيين عبدة الشمس . ونحن نقرأ فى سفر التكوين (من التوراة) شيئا من هذا القبيل ، ربما يتصل بالقمر المقرِّن الذى يقولون له بلغة القوم Ashteroth Karnaim . وعلى الطريق

المجّوف الذى يمتد من هنا إلى البحر الميت ، يرددون علىّ وجود الكثير من البنايات الدائرية التى تستعمل فى بنائها الأحجار غير منتظمة الشكل . ومن مدينة موءاب الملكية ، التى لم أجد فيها سوى خيام الكراكين Kerakers، الذين يحضرون إلى هذه المنطقة فى فصل الصيف ، ومعهم قطعانهم الموجودة ، فى الوقت الحالى ، وسط مدينة موءاب ، من هذه المدينة أجد أن المسافة قصيرة بينها وبين كير موءاب Moab Kir التى هى مدينة كيراك Kerak الحالية ، التى هى عبارة عن صخرة صلدة جداً بحكم طبيعتها ؛ الأمر الذى أعجز اتحاد ملوك إسرائيل ، وجودة Judah وإيدوم عن الاستيلاء على كيراك ، وما تزال مأهولة إلى الآن ، بالرغم من استيلاء ذلك الاتحاد على موءاب وسحقها وتدميرها . وربما يكون ذلك هو المكان ، الذى اصطحب ملك موءاب إليه ولده ، الذى كان مفروضا أن يتولى الحكم من بعده ، ليقدمه ، أثناء الحصار والضيق ، قربانا محترقا على ذلك السور فداء للأرض .

كل الأنقاض والخرائب التى فى كيراك ، راسخة فى أذهان هؤلاء العرب غير الدقيقة ، وتبلغ تلك الأنقاض من الرسوخ والثبات حداً يستحيل معه التكهن بعددها ، الذى يحددونه بحوالى "ثلاثمائة وستين" موقعا ؛ وهذا مجرد رقم تقريبى من الأرقام المتداولة بين العرب ، وهذا الرقم يدل على عدد أيام العام ، بمعنى أن كل يوم يمثل موقعا من تلك المواقع الأثرية : ولكن ابنة موءاب الساكنة والصامتة حاليا ، كانت فى كل العصور مجرد فتاة صغيرة مسكينة من فتيات الأراضى المرتفعة ؛ نحن نقرأ فى سفر التكوين (من التوراة) أن الملك الموءابى "كان مالكا للأغنام" . ومناطق الخرائب ، أو إن شئت فقل المناطق الأثرية ، فى موءاب ، هى فى معظمها صغيرة مثل الكفور ؛ ومبانى هذه الكفور غير المتقنة مهدمة على شكل قلة قليلة من أكوام الحجارة المعتادة . وقد أتيحت لى فرصة تدوين بعض أسماء تلك الكفور مثل : كفرُ 'إنجاحساه' Enjaha-sah، وكفر 'محنوارا' Mehnuwara، وكفر 'الجاهلية' el- Jahlih، وكفر المحينيح Mehaineh، وكفر مدائن Medâin، وكفر نجايس Negâes، وكفر لبُّون Libbun وكفر جليول Jeliyul، وكفر نلنوخ Nelnokh، وكفر مهرود Mehrud، وكفر هويحيح Howihih، وكفر جميرين Gamereyn (ذو القمرين) وكذلك كفر جارفة Jarfa (الذى يوجد به ضريح إسلامى ، ومسجد ؛ كان ذلك المسجد كنيسة فى الزمن القديم) . وهناك طريق قديم ممهد يمر عبر هذه المنطقة من تحت بلدة ربّه Rabba، وقد أجتزنا

ذلك الطريق مرات كثيرة ونحن على ظهور مطايانا ؛ وطبقا لعقيدة عرب هذه المنطقة ، (فهم ليست لديهم أية موروثات عن هذه الأرض قبل العصر الإسلامى) فإن هذا الطريق هو طريق الحج القديم . والآبار وحفر المياه كثيرة فى كل أنحاء هذا السهل المرتفع الذى هو حاليا أرض جرداء قاحلة ؛ والعين هنا تقع على أكوام الحجارة فى كل مكان ، تلك الحجارة التى جلبها الفلاحون من مناطق بعيدة عن أراضيهم الزراعية – يقول هوسيا : Hosea (*) "أكوام فى أخاديد الحقول" . ستبقى بعدهم إلى أبد الآبدين . فى هذه المنطقة توجد حقول القمح شديدة الخصوبة ، والتى لا تغوص فيها محاريث أهل كيراك إلا إلى قبضة يد فقط . ويمكن شراء حقل كبير ببضع جنيهات قليلة ، والحبوب فى بلادهم مثل الرمل ، الأمر الذى يصعب معه نقلها إلى الخارج ، نظرا لأرتفاع تكاليف النقل بالإبل ، والذى يقدر بحوالى نصف الحمولة التى تنقل إلى القدس . وسفر إشعيا فى العهد القديم ، يتحدث عن حشد كبير وهائل من الموءابين ، ومن المؤكد أن تعداد القدماء كان كبيرا فى هذه المنطقة من الأراضى المرتفعة الخصبة . والساميون هنا لديهم الرغبة فى الحديث عن الأمم القديمة التى سبقتهم ، ويقولون عنهم : إنهم كانوا مَرَدة giants . من هنا فإن بدو نجد يتحدثون عن بنى هلال من عاد وثمود . هذا يعنى أن الموءابيين سبقهم ، أو جاءوا قبلهم بنو إميم Emim أبناء آناك Anak، الذين هزمهم 'شيدور لاومر' Chedorlaomer، الذى هزمه (سيدنا) إبراهيم بفضل رجاله الشباب الذين بلغ عددهم ثلاثمائة رجل ، كما هزم معه أيضا ملك الأمم ومعه ملك أو ملكين آخرين ، الذين تصادف وجودهم مع 'شيدور لاومر' فى تلك المنافسة . ولو كان (سيدنا) إبراهيم وحده يملك ثلاثمائة رجل ، فذلك يعنى أنه كان قبيلة بدوية مترحلة ، وأن تلك القبيلة كانت أكبر من أيه قبيلة من القبائل الفرعية الموجودة حاليا فى الجزيرة العربية البدوية المترحلة . ونقرأ فى سفر إشعيا أيضا أن أطفال آمون Ammon نجحوا فى أن يكونوا مردة Giants أو عمالقة ، أو Zamzummin كما يقولون لهم بلغة القوم .

(*) هوسيا Hosea : واحد من الأنبياء الإسرائيليين الاثنى عشر الصغار . عاش فى مملكة إسرائيل وتلقى النبوة – كما يعتقد العبرانيون – فى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد . (المراجع)

عندما ضعفت تلك التربة ، تخلى أهلها عنها على وجه السرعة ، لأنها مفتوحة وتطل على مسيرات البدو : ومن الطبيعى فى مثل هذه الظروف أن تتجمع القلة القليلة من الناس مكونة قرى أقوى وأكبر ، وطبيعى أيضا فى مثل هذه الظروف أن تترك الكفور البعيدة وتخلو من السكان . ولما كانت البلاد من خلفهم غير آمنة ، كان من الطبيعى ألا يعاد بناء الأماكن المهدّمة . وفى ظل مثل هذا الإحباط تتولد فى الساميين النزعه إلى الهجرة والنزوح عن مواطنهم ، ويستقرون فى الأماكن التى يصلون إليها ويجعلون منها موطنا لهم ، كما يحدوهم شىء من الأمل فى العودة إلى المكان الذى نزحوا عنه ، وفى ظل موروثات هؤلاء الساميين ، أثناء حكم شبيب بن تُبَّاى ، لم تكن الأرض قد أقفرت أو صارت جدبا ؛ وهؤلاء الساميون يقولون : إن أعراب العجابة el-Agaba دمروا كل شىء فى العصور الإسلامية ، - وهاهم البدو الرحل الذين ينتسبون إلى بدايات قوية ، ليسوا سوى بقية باقية ويائسة من رعاة الماشية تحت قيادة شيخ البلدة ، وهم يسكنون المنطقة المحيطة ببلدة كيراك ، وهناك بعض آخر منهم بالقرب من البحر الأحمر . والساميون هنا ، يقولون : إن بنى هلال داهموا هذا البلد أثناء مرورهم متجهين إلى مصر(*) . وإلى هذا المكان جاء داود مع المقاتلين الإسرائيليين فى الزمن القديم ، وبعد أن هزم الموءابين شر هزيمة (هؤلاء الموءابين الذى سبق لمليكهم أن عامل داود معاملة طيبة ، وأنقذ أباه وأمه من الملك شاؤل Saul) نقرأ أن داود ، طرحهم أرضا وقسمهم إلى ثلاثة أجزاء عن طريق خط ، ثم قتل منهم قسمين ، وترك القسم الثالث على قيد الحياة ." وموسى ، وداود ، ومحمد (عليهم السلام) كلهم متساوون فى ذلك ؛ وهم بوصفهم زعماء لفرق سامية ، يصبحون أيضا عرقيين . وبسيف الملاك المدَمِّر شقوا طريق الرب أمامهم فى غابة عالم الرب (الإله) . وفى أسطورة ملوك إسرائيل ، إن 'جيهورام' Jehoram عندما اتحد هو و'جيهوشافات' Jehoshaphat وانضما إلى ملك إيدوم ليقفوا فى وجه الموءاب ، استمعوا إلى التهمة التى ألقاها إليشع Elisha، وكان ذلك على العكس مما قال به (سيدنا) موسى ، "حطموا كل مدينة من مدنهم ، وقطِّعوا

(*) بنو هلال : ترجع هجرة بنى هلال إلى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، وقد مروا على مصر فى طريقهم إلى الشمال الأفريقى . (المراجع)

كل شجرة طيبة من أشجارهم ، وأوقفوا كل آبار الماء ، ودنسوا كل قطعة من الأرض الطيبة بالأحجار" وقد فعلوا ذلك فى حقيقة الأمر . "إنهم يهدمون المدن ، وعلى كل قطعة من الأرض الطيبة يلقى كل واحد منهم حجرا ، وأوقفوا كل آبار الماء وقطعوا كل الأشجار الطيبة المثمرة ." وهذه سهول المؤاب يدوسها البدو الرحل ، فى آخر المطاف ، بأقدامهم ، طبقا لما جاء فى صرخة إرميا Jeremiah النبى ، "*كثير من الرعاة دمروا* كرومى ؛ وداسوا أجمل الأجزاء بأقدامهم وحولوها إلى أرض جرداء قاحلة ." وهاهو وجه هذه التربة الجرداء الزلطية تطؤه أقدام السائمة ، وييبس وجفّ كما لو كان قطعا من الصخر ، تحت وهج الشمس الحارقة . وموءاب يطلق عليها اسم وعاء الغسيل الربانى ، وربما أطلق عليها ذلك الاسم بسبب ينابيع الماء الموجودة فى ذلك الحجر الجيرى . ولكن ذلك الذى ظننته أمرًا مهما فى تلك البلدان التى كانت على شكل قرى ، يتمثل فى أن أهل هذه القرى القدامى كانوا من بناة الأحجار ، فى حين أن المسلمين الذين سكنوا تلك البلاد القروية من بعد أهلها ، كانوا فى ذلك الوقت من بناة الفخّار . هدد أنبياء الزمن القديم بسكب أحجارهم ، وأنها (الأحجار) سوف تصبح مثل الأكوام فى الحقول ، ومثل الشتلات فى أراضى الكروم .

كيراك حاليا ، عبارة عن بلدة صغيرة وأهلها ، طبقا لكلام البدو الرحل ، ربما يكونون من أصل موءابى وربما يكون جزءا منهم من المهاجرين . وازدحام بلدة كيراك بالسكان هو الذى يجعل البدو الرحل ، يطلقون عليها اسم المدينة . موقع هذه المدينة عبارة عن تل مرتفع من الحجر الجيرى ، وضاحية هذه البلدة عبارة عن وادى عميق ملتوى يسير محاذيا للتل . ومعروف أن إبراهيم باشا ، وهو فى طريقه إلى سوريا ، استولى على ذلك المكان عن طريق هجوم دموى شنه على تلك البلدة جنوده من المصريين والألبان : وقد وضع إبراهيم باشا شيخ هذه البلدة فى السجن وترك فيها حامية من جنوده ؛ ولكن رجال إبراهيم باشا غلبوا على أمرهم ، بعد أشهر قليلة ، من الفلاحين المتوحشين . هؤلاء الفلاحون دفعتهم غيرتهم على حرياتهم التى كانوا يتمتعون بها من أزمان غابرة ، ودفعهم تخوفهم من فرض ضرائب عليهم باعتبارهم مواطنين خاضعين لحكومة أجنبية ، كل ذلك دفعهم إلى الثورة والتمرد فى كل وقت وحين على الحكومة السورية البعيدة عنهم . أرض كيراك الصخرية هذه يمكن الاستيلاء عليها

بدون إهدار الدماء ، وذلك عن طريق قطع الماء عن هذه البلدة ، ذلك الماء الذى ينبثق من المنخفض الخارجي ؛ أو من الممكن احتلال كيراك بصورة مفاجئة فى فصل الربيع ، لأن ذلك هو الوقت الذى يخيم فيه كل القرويين ، على وجه التقريب ، خارج المدينة ، حيث يعيشون فى خيام شأنهم شأن البدو الرحل ، وذلك من باب جعل ماشيتهم تتمتع بموسم الصيف . شاهدت قرويي كيراك وهم يخيمون داخل خيام مصنوعة من صوف الأغنام ، وذلك على شكل مخيمين رئيسيين ، شأنهم شأن الأعراب تماما ، فى الصحراء التى تقع قبل البلدة مباشرة ؛ هناك مخيم ثالث أقل من المخيمين السابقين ، وهو خاص بالمسيحيين الإغريق الأقدمين ، الذين اضطروا إلى السكنى والأقامة هنا فى بلاد البدو ، عند بوابة الجزيرة العربية ؛ ولكن هؤلاء المسيحيين الإغريق ، ليست لهم قيمة كما أنهم أقل كرما من المسلمين ، والدين الرسمى لهؤلاء المسيحيين الإغريق يعتمد فى معظمة على الشعوذة والخرافات . وهم لديهم مبنى لكنيسة يطلقون عليها اسم القديس جورج ، وهيئة الأكليروس فى تلك الكنيسة مكونة من قس فلاح وشماس سورى . والغريب هنا أن نرى الدين المسيحى يمارس فى خيام كيدار ! وأنا لم أكتشف هنا أن أولئك المسيحيين لديهم أية فكرة عن طهارة تراث المسيح : وهنا يتعين على الانتقال على الفور إلى المسلمين ، الذين يمتازون بسعة العقل ، كما أن تحصنهم بالفضائل العربية أقوى بكثير من تحصن المسيحيين بالفضائل المسيحية . وبالرغم من ذلك ، فإن المسلمين يقدرون المسيحيين ، ويقدرون عقيدتهم فيما يتعلق بمسألة الوديعة ؛ وتلك هى رؤية المسلمين عن النصارى . فقد رأينا أن صيارفة الحج ومسيرى شئونه المالية من المسيحيين ، وقد اكتشفنا فى كل الأحيان أن الأجانب يحظون بتلك الثقة ، فى الحكومات الإسلامية . وقد جعل محمد (ﷺ) كل تابع من أتباعه - بسبب كثرة الزوجات المنفقات وسرعة اختفائهن - رجلا يسير على رمال سائبة وسريعة الحركة ؛ ولكن دين المسيح يحتوى رجلا واحداً فى كل الأحوال ، الأمر الذى يلزم مثل هذا الرجل بالزواج من واحدة فقط . معلوم أن شيخ البلدة المسلم يتعامل مع الرجال معاملة هينة لينة ؛ لأنهم يمثلون مجرد جزء من "كثير" ، ولكن المسيحيين يشكون من المضايقات ؛ هذا لأن المسيحيين كلهم مجرد رجال مع بعضهم البعض . حاول المسيحيون فى مرة من المرات وكانت لديهم فكرة الرحيل عن المكان ، وشراء حق إستعمال التربة - التى

تمثل سلامهم – من البدو مقابل مبالغ زهيدة ، حتى يتسنى لهم احتلال عمَّان : ولكنهم يبقون فى كيراك التى ولدوا فيها وهم مواطنون فيها أيضا ، فضلا عن أنها ليس فيها ما يخيفهم . يضاف إلى ذلك أن هناك فرقا بين محمد شيخ المكان وابن عمه خليل الذى سيجيئ بعده ، وذلك فيما يتعلق بالطرفين المتساويين على وجة التقريب ، إضافة إلى أن طرفا يذكر الجار المسيحى بالخير ، نظرا للعون والمساعدة التى يقدمها المسيحيون ، إضافه إلى أن هؤلاء النصارى هم من المتسلقين الأشداء . أما المسلمين فهم يتساءلون عن طقوس المسيحيين غير المعروفة أو المفهومة ، كما لو كان أولئك المسيحيون ألغاز مدنسة . هؤلاء المسلمون يعرضون قبرا (لسيدنا) نوح ، الذى هو مدفون فى أماكن أخرى . يضاف إلى ذلك أن أغنام المسيحيين يجرى وسمها أسفل صُلْب الحيوان بصليب ثلاثى . بالقرب من البلدة دخلت ممرين طويلين فى صخور الحجر الجيرى : أحدهما فى الوادى القريب من خنزيرة **Khanzîra** وهو يتجه صوب منبع ينبوع من الينابيع .

الشيخ محمد مجلِّى من مواليد هذا المكان ، أما والده أو إن شئت فقل جده الأكبر فقد كان فلاحا وافدا ثريا جاء من جبل الخليل ، أو إن شئت فقل ، جبل حبرون ؛ ولهذا السبب فإن أولئك الذين ليسوا أصدقاء له يحتقرونه بأن يصفونه بالشيخ الفلاح "الذى لايصلح لحكمهم !" . والشيخ محمد مجلّى صاحب قبضة قوية ، وطموح ، ومفترس أيضا ؛ وهم ، رعايا همج لا يمكن حكمهم بالمنطق أو العقل ، وإنما يُحكمُون بالقوة ، وتتمثل تلك القوة ، فى كثير من الأحيان فى العنف الصريح . وعلى عاتق الشيخ الذى يكون من هذا القبيل ، تقع مسئولية وعبء الضيافة اليومية العامة ، هذا الدوق الفلاح ، الذين يطلقون عليه اسم "السلطان" ، يفرض الضرائب على قرية خنزيرة المجاورة ويسيطر على أضعف نوع من أنواع البدو الرحل الموجودين حول هذه المنطقة وهم يدينون له بالطاعة والولاء . يضاف إلى ذلك أن بدو سهل غور **Ghror**، ذلك السهل العميق من سهول البحر الميت ، هم اتباع للشيخ محمد مجلى ، وهؤلاء البدو أناس ضيقى الأفق ويستهلكهم حماسهم ، وهم سود البشره بفعل الحرارة الشديدة والرطوبة .

من هنا ، فإن اسم الشيخ محمد مجلى يسمعه ، كل من يتردد على خيام المؤاب ، على ألسنة الناس ؛ لكل هذه الأسباب يعد الشيخ مجلى حبيس دائرتة الخاصة ، ولا يجاهر بظهوره ، وإذا ما اضطر إلى ذلك ، فهو يكون على سبيل المخاطرة ، ولا يظهر فى غير القدس أو دمشق . هذا الرجل عادل ، وصاحب كلمة قاطعة ، أو إن شئت فقل : هو حاكم سياسى ، شأنه شأن الشيوخ العرب ، مع أبناء شعبه ، وسكان كيراك من أشباه البدو ، إضافة إلى أن الشيخ محمد مجلى لم يتعلم القراءة والكتابة . وهو فى تسيير أموره يكون إلى جواره دوما شخص أجنبى يقوم بدور السكرتير . كان ذلك السكرتير مسيحيا عندما زرت الشيخ محمد مجلى ، وكان ذلك المسيحى قد هرب إلى كيراك على أثر حادث قتل ارتكبه فى بيت لحم ، (كيراك ، فيما وراء الجزء المحكوم منها ، تعد ملجأ آمنا ؛ هؤلاء الهاربون من القانون يعيشون على الضيافة العامة) . بلغنى أن الشيخ مجلى يكون من أنصار الحق ، عندما تعرض أمامه شكوى من الشكاوى أو قضية من القضايا ؛ بلغنى ما مفاده أن الشيخ مجلى لا يجعل نفسه طرفا فى أى نزاع يحدث بين مسلم ونصرانى ؛ ومع ذلك فقد همس فى أذنى ذلك النصرانى القاتل ، الذى استطاع أن يسلك هنا مسلك الرجل الفاضل : "إحترس منهم ، لأن هؤلاء لا يخشون الله أو يخافونه ." وهم يقولون : إن محمداً ، ديك هذا التل ، صاحب الجمال العربى المتعالى ، ترتعد فرائصه فى الميدان ؛ وأفضل شىء عنده هو تمشيط لحيته تمشيطا جميلا وهو ينظر فى المرآه ، وهو جالس مع زوجاته فى المنزل ، هذا عنده أفضل من تعريض بشرته للرصاص المتطاير ، وطعنات الرماح فى العمليات الحربية .

جيران كيراك من ناحيه الشمال هم بنى الحميدى : والذى يميز حدود بنى الحميدى سلسلة صخرية ، يطلقون عليها اسم حجر مِسِّين Missen Hajar، الذى يقف على مرمى البصر من كيراك . وبنى الحميدى قبيلة ، مثل سائر القبائل الأخرى ، التى أخضعت بالسيف ، فى سابق العصر والأوان . وعميد عرب بلقاء Belka القدامى يدعى أب الغنيم el-Ghrennnem Ab . وحكومة الحج السورية تنظر إليهم على أنهم أرذال وخونة ، ومع ذلك يمتلك بنو الحميدى أحسن سلالات الخيول العربية ، يضاف إلى ذلك أن بلاد بنى الحميدى يوجد بها الكثير من المراعى البرية الوفيرة . كان بنو الحميدى على مودة مع أهل الحضر ، إلى أن وقع بينهم مؤخرا انقسام شديد . حدث ذلك

الشقاق بسبب فضة (نقود) الفرنجة **Franks**، الذين أبرموا صفقة مع شيخ كيراك ، بشأن ذلك الحجر المنقوش عليه كتابة ويوجد فى ضيبان **Dibân**، و(ضيبون) **Dibon** هذه تقع فى تلال المؤاب وفى أرض بنى الحميدى . شاهدت ذلك المكان ، وكانت فيه أحجار كثيرة متساقطة على شكل أنقاض قرية صغيرة وربما كان معبداً . قالوا لى : إن محمد مجلّى ، أرسل فى طلب ذلك الحجر (المؤابى) ؛ الذى حمّلوه على ظهر بغلين ونقلوه إلى القدس **Jerusalem** وهنا أحس محمد مجلّى ، والقلة القليلة من الجنيهات الفرنجية فى يده ، أنه كوفئ مكافأة كبيرة ، لأنه لم يفعل شيئا سوى تسليم صخرة من الصخور ، ولكن تلك الصخرة لم تكن ملكا له . وعندما سمع بنو الحميدى عن تلك المكاسب ، سارع شيوخهم راكبين دوابهم إلى كيراك ليطلبوا من محمد مجلى تقسيم الثمن تقسيماً عادلا ؛ ولكن المعروف أن العربى ، إذا ما أطبق يده على بنس واحد ، لا يمكن إخراجه منها ثانية ، مهما كان يبتسم أو معسول الكلام . وهنا أطبق بنو الحميدى أثناء الليل على خيام أهل كيراك من ناحية الشمال ؛ كان ذلك المكان هو مخيم المسيحيين ، وهو القسم الذى يوجد فيه ميراثهم : قتلوا خمسة أفراد واستولوا على عشرين بندقية من طراز **Matchlock**، كما سقط من البدو أيضا ثلاثة أفراد . أضاف المسيحيون إلى ما عندى ، أن الفرنجة أرسلوا أربعين جنيها أخرى فدية للأفراد الخمسة ، وأن تلك الجنيهات جاءت من القدس . وهنا انسحب أو تراجع بنو الحميدى عن ذلك الجانب من الأرض الجرداء القاحلة ، وهنا أصبح من المتعذر على الحضر المرور على جيرانهم الغاضبين ، اللهم إلا إذا كان ذلك فى الليل . واستطاع محمد سعيد باشا ، الذى كان حاكما لأرض الصوّان فى ذلك العام ، أن يوضح لى ، بهذا المثل ، عندما قمت بزيارته مدى الخطر الذى ينطوى عليه ذهابى إلى مدائن صالح ، قال لى محمد سعيد باشا : إننى إذا ما حركت حجرا من هناك ، فقد يترتب على ذلك هرج ومرج وفوضى قد تنتهى إلى سفك الدماء فى ذلك الجزء غير المتحضر من البلاد ! أبلغنى محمد سعيد باشا (وهو يُضخّم فى الأعداد) أن ستين رجلا ماتوا نظير الحجر الذى نقل من ضيبان **Dibân** .

قطعنا فى ذلك اليوم ، الذى كان يوافق اليوم السابع لمغادرتنا مزيريب ، مسير اثنتى عشرة ساعة ؛ وقبل حلول المساء ، نزلنا بعض الوديان الموجودة فى منخفضات

الحجر الجيرى ، حيث شاهدت أكواما كثيرة من الأحجار التى ربما كانت علامات تدل على الطريق ، أو علامات تدل على قبور ، أو لها دلالات أخرى ، أو مجرد "أكوام من شواهد القبور" ، وكل هذه التفسيرات جائزة فى البلاد السامية الصحراوية . ثم وصلنا بعد ذلك إلى طريق مرتفع عليه جسر صغير ، صنع لعبور الإبل فوق منطقة الغرين الزلقة ، حيث اتجهنا بعد ذلك إلى مخيمنا فى وادى الحسى el-Hâsy Wady، الذى يفصل أراضى المؤاب المرتفعة عن إيدوم : Edom ووادى الحسى عبارة عن مجرى من مجارى السيل ، يبرز من الأرض البرية الجرداء . تقع قلعة الحج فى ذلك القاع المنخفض ؛ هذا المنخفض ، فى الجزء الأكثر إنخفاضا منه عبارة عن وادى ضيق وعميق ، فيه غدير ماء (ربما كان غدير زارد Zared الذى تحدث عنه (سيدنا موسى) وهذا الغدير ، أو إن شئت فقل : النُّهير يمتد ناحية البحر الميت . كل هذه المنخفضات هى عبارة عن وديان الحجر الجيرى التى تهبط من المرتفعات الشرقية مثل الزرقاء Zer-ka، وموجيب Mojeb، ووادى كيراك ، وفيها كثير من الأعشاب البرية الجميلة المزهرة ، التى تمثل مرعى النحل الذى يربية المسيحيون ، (ولكن العسل بلا طعم) متجهة إلى الأردن وإلى وادى بحيرة الطمى . ولكن أين ذهب القسم الأكبر من الطمى الذى حملته مياه تلك الأخاديد المائية العميقة ؟ كم عدد الأميال من ذلك الطمى الذى يميل لونه إلى الابيضاض ، التى حملتها تلك النهيرات على امتداد آلاف السنوات الماضية ، هذه الأميال من الطمى ترقد حاليا دون أن يقوم أحد بنشرها ، ترقد فى قاعى وادى الأردن ووادى السلط ! Salt وأسفل قلعة الحج يوجد صهريج أو إن شئت فقل : خزان جديد يجرى ملؤه بالماء من جديد ، نظرا لأن البئر الموجود داخل القلعة الذى تفوح من مائه رائحة كريهة ، أصابه الدمار . وبعد هذه المسيرة الطويلة لم نجد ما نشربه فى البركة ، أو إن شئت فقل : البئر أو صهريج الماء ، ولكن وردية السقائين أرسلت ، خدمة لهؤلاء الرجال الذين ساروا اليوم كله على أقدامهم ، للبحث عن بركة تشرب منها الماشية تقع على بعد عدة أميال أسفل الوادى ، ومعروفة لى من قبل . هذه البركة التى تشرب منها المواشى عبارة عن حديقة برية من شجر الغار والسمار ، ولكن السقائين أحضروا من تلك البركة ماء متعفنا بفعل مخلفات إبل البدو الرحل ، الأمر الذى يجعل الناس تعض بالنواجز على نعمة الماء الغالية التى لا تقدر بثمن فى الصحراء . هذا الماء الذى لم

نشربه يمكن استعماله فى الطهى . هذا الوادى له أسماء أخرى مثل وادى عديرة Adîra Wady ووادى فلاح Fellah اكتشفت فى مجيئى السابق . خلال الأيام الأولى من شهر يونيو ، وجود مرعى برى كثيف فى المنطقة أسفل البحيرات ، وقد وصل ارتفاع الحشائش فى ذلك المرعى إلى قرابة ياردة واحدة ، كان بعض البدو قد وصلوا فى التو إلى ذلك المكان ومعهم ماشيتهم ؛ هؤلاء البدو يطلق عليهم اسم أعراب Aarabالحاجية el- Hajya، وهم قبيله ضعيفة من الشوبك . Shobek استقبلنى شيخهم حجيلان Hajel-lan، استقبالاً حارًا ، إذ ذبح شاة ليقدمها عشاء لضيوفه . كانت فى هذا المكان أعداد كبيرة من الخنازير البرية ، التى تلتهم حقول القمح ، عندما تظهر سنابله ، تلك الحقول التى كانت ملكًا لجنود القلعة : الغدير الموجود أسفل هذه المنطقة ينبع من مجرى الوادى . وفي مجارى كل هذه الوديان توجد أنواع كثيره من الأسماك ، لا تختلف عن سمك الشَّبُّوط ، الذى له لون الرصاص . ومسيحيو كيراك يتحمسون جداً عندما يعرضون على الغرباء عظمة صغيرة على شكل صليب فى تلك الأسماك بالقرب من رأس السمكة ، والذى يظنون أنه دليل إلهى على الدين المسيحى . Messîahi وجدت فى قلعة الحج حامية من خمسة رجال مع زوجاتهم الكيراكيات وعوائلهم (*) .

(*) حلية من
حليات القبور فى
أرض الصوَّان .

الفصل الثانى

جبل إيدوم : صوَّان الجزيرة العربية

جبل سعير ، أو جبل شراة ، مرتفع وبارد . أرض الصوان ، أو صوان الجزيرة العربية . بدو جبل شَرَاة الرحل . جاردانيا . الراكبون البدويون . جبل سعير أرض الأطلال . بصرى إيدوم . عبدة الأصنام وقد انسخطوا إلى أحجار . معان . أحزابهم . أنقى الهواء . رحلة فى اتجاه الغرب إلى إيدوم . منظر جبل حور Mons Regalis . الجبل الملكى . القرويون فى إيدوم يجهلون دينهم . سطح الأرض . القرويون في وادى بترا . حكاياتهم عن فرعون وموسى . بترا ، الآثار ، السِّيك Sik، الجى Elgy، وجبل حور . مدائن لوط . جراف . "حكيم إيدوم" . أرض أوز . "جدل صهيون" . دويج وداود . إيدوم فى اتجاه جنوب خليج العقبة . الحِسْمة . الشيخ بن جاد . أرض الحجر الرملى الأحمر فى إيدوم . القُبَّره السورية . عفريت . التحرك من معان . السهل الصحراوى . مناطق المخيمات الإسرائيلية فى الصحراء . أسماء الرحالة وأسماء رجال القوافل ، والأسماء البرية .

تصلبت هنا خيامنا فى ليلة ١٩-٢٠ نوفمبر بفعل صقيع الليل . هذا هو جبل سعير Seir أو إن شئت فقل : جبل شِراة Sherra من أمامنا (والكلمة 'Sherra هنا تترجم بمعنى "عال") ، وبذلك يمكن أن نطلق على هذا الجبل اسم "الجبل العالى" . والجبل مرتفع وبارد ، وملابس العرب الصيفية تشبه العُرْى الذى يكونون عليه فى فصل الشتاء . والأرض هنا مفتوحة وواسعة ، وليست صخرية ، وخالية من الشجر أو

الأدغال والشجيرات الأخرى التى تصد الرياح الثلجية ؛ والناس هنا يقولون ، من قبيل الذكريات القديمة ، إن الجماعات المترحلة ، هى وماشيتها ماتوا جوعا فى هذا المكان عندما كانوا يقطعون ذلك الطريق فى شهور الشتاء . ماتوا سويا أثناء الليل ، وعثر الناس على جثث الرجال ممدودة إلى جوار حفر نيران الحراسة . وعلى مقربة من ذلك الوادى ، وفى الأمام ، يبدأ ذلك الساحل الصوّانى ، الذى يمتد ليشمل جزءًا كبيرا من جبل عيسو Esau؛ ذلك الجبل الصخرى الذى اسود لونه بفعل الطقس : هذا الجبل عبارة عن قمة من الزلط جردتها الرياح والأمطار الموسميه من التراب . سطح الأرض المكون هنا من الحصى يلمع مصدِّرا بخارًا فى ضوء الشمس ، هذا الحصى يلمع شأنه شأن الصخور وشأن جبال سيناء أيضا ، بفعل الأجاج ajaj، أو إن شئت فقل : بفعل الرياح المحملة بالتراب والرمال . هذا المجرى الزلطى الواسع الذى يصل عمقه إلى حوالى ثلاثة فراسخ يمثل أعلى أجزاء الأرض المستوية فى كل أنحاء هذه المنطقة ؛ وأحجار الصوان المتاكلة هنا هى من الصخر الطباشيرى الموجود تحت السطح ، والذى توجد به عروق سلكونية ضخمة (ومجدولة) ، فنحن نرى هذا الزلط والحصى مغروز فى مياه جارية ضحلة ، ولكن إذا كانت هذه المنطقة هى أعلى نقطة فى الأرض ، فمن أين جاء ذلك الاجتراف المائى ؟ ارتفاع الأرض هنا يصل إلى حوالى ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ! والعرب هنا يطلقون على هذا الإقليم كله اسم أرض الصوّان ؛ هذا الصوّان هو من نفس نوعية الصوّان التى ورد ذكرها فيما ألفه الجغرافيون القدامى بعنوان "الجزيرة العربية" Arabia "الصوّانية" Petraea (*) . ولكن ، يا للعجب ! هذا الزلط والحصى ليس قديما ، قدم الإنسان ؛ لقد اكتشفت فى ذلك الزلط والحصى أدوات مصنوعة من الصوّان ، مثل تلك الأدوات التى حصلنا عليها من زلط ولهم (غرين) بعض الأنهار والبحيرات فى أوروبا . وبعد مغادرتنا ذلك الوادى مررنا بست أو سبع من علامات الطريق ، كانت موضوعة على أحد جانبيه ، ولكن تلك العلامات لم يكن

(*) الجزيرة العربية الصوانية : قسم بطليموس الجغرافى شبه الجزيرة العربية إلى ثلاثة أقسام هى : العربية الصخرية أو الحجرية Arabia Petraea أو Arabia Petrix وتقع فى جنوب غرب بادية الشام حيث مملكة الأنباط . والعربية الصحراوية Arabia Erema أو Arabia Deserta وكانت تطلق على بادية الشام ثم شمل اسمها البادية الواسعة فى شبة الجزيرة العربية كلها . والعربية الميمونة Arabia Eudaemon أو بلاد العرب السعيدة Arabia Felix والمقصود بها بلاد اليمن أو الأرض الخضراء . (المراجع)

عليها أية نقوش . وبعد أن قطعنا اثنتى عشرة ميلا عبرنا بداية سيل عميق وجاف يطلقون عليه اسم "ضُرُف الدراويش" الذى معناه "خضاضات الدراويش الفقراء" ، والذى لا يتجه مجراه أو مساره غربا إلى البحر الميت ، وإنما يتجه شرقا إلى الصحراء : ولذلك فالناس هنا يقولون : "كل 'سيول' ، هذه الأرض (رفوف ، حتى تنساب منها زخات مياه المطر) تتجه صوب تشول Tchôl بغداد ." وعندما مررت على الضفاف المجوفة ، عثرت على مكان قضيت فيه فترة الليل . وبعد مواصلة المسير شاهدنا التربة من تحت أقدامنا وقد تخللتها آثار الحمم البركانية ، التى يظهر طرفها من بين الأرض الزلطية كما لو كان جرفا قادما من ناحية الغرب ، الذى نشاهد فيه ركام بركانى . فى هذه المنطقة ، وعلى امتداد خمسين ميلا أخرى قطعناها ، نجد أن أرض جبل عيسو Esua ليست سوى أرض شاسعة جرداء قاحلة ومكونة من الأحجار الزلطية . نحن هنا فى مستنقعات الحويطات ، الذين ليسوا أمة بدوية صغيرة ، نظرا لأن حدودهم تتمثل فى البحرين . هؤلاء الحويطات يشبهون البدو الفلاحين أكثر من البدو الخلَّص ؛ والكثيرون منهم يمارسون الفلاحة ، وكلهم من سكان الخيام . ولن أندهش إذا ما اكتشفنا أنهم من الأنباط(*) . وابن جيسى Jeysey هو شيخ حويطات الدراوشة ، الذين يعيشون فى جبل إيدوم ؛ وتقع بيترا Petra ضمن دائرة هذا الشيخ (**) . ومع بداية فترة العصر مررنا على برج مكسور ؛ هذه الاشارة الطفيفة إلى الأيدى البشرية تريح العين فى هذه الأرض الخراب الجرداء . من هنا ، وبعد مسير ثلاث ساعات على جانب الصحراء ، توجد أنقاض واحد من الأماكن المهمة ، الذى يطلقون عليه اسم بورما Borma أو برما Burma .

قبل غروب الشمس وصلنا إلى مكان المخيم الذى كان على مقربة من قلعة العنزى ، وتلك القلعة ليست سوى صهريج أو خزان لمياه المطر ، يقوم على أمره رجلان متينان ، من أبناء حراس الأبراج الدمشقيين كبار السن ، وأمهاتهما من نساء الشوبك ، ولكنهما يعيشان فى محل إقامتهما فى القرية . ولم يصدق رفاقى فى الحج أنى كنت قد شربت

(*) الأنباط : قبائل عربية الأصل غلبت عليها فى مراحل نشأتها حياة البداوة وحرفة الرعى ، وانتشرت بطونها بين جنوب بادية الشام وبين شمال غرب الجزيرة العربية . (المراجع)

(**) بترا : كانت بترا أو على الأصح مدينة البتراء عاصمة مملكة الأنباط ، وكان النبطيون يتحكمون من موقعها على خط القوافل التجارى المتجة من الجنوب إلى بلاد الشام فى الشمال . (المراجع)

من مياه المطر فى ذلك الخزان فى العام السابق ، ولكنهم لم يجدوا ماءًا فى ذلك الخزان . وعلى بعد أميال قليلة ، وإلى الغرب من هذه المنطقة ، توجد أنقاض مكان يطلق العرب عليه اسم جاردنيا Jardanīa، كنت قد ذهبت وحدى لزيارته فى المرور السابق ، أو إن شئت فقل العام السابق : ونظرا لوجود الظل ووجود المأوى فإن البدو يحوّمون حوله فى معظم الأحيان ، وقد ترتب على ذلك أن واحدا فقط من الجماعة المسلحة التى كانت ترافقنى هو الذى وافق على تتبعى والذهاب معى طلبا للمكافأة . رأيت فى ذلك المكان بلدة لها سور مربع الشكل يصل ارتفاعه إلى حوالى ثلاثين قدما وبعض البنايات الجافة التى كان يجرى إنشاؤها من الكتل الناتجة عن الحمم البركانية . شاهدت هناك أيضا أبراجا عند أركان السور ، كما رأيت أيضا برجين ناتئين عند منتصف جانب من أجناب السور ، ولكن مساحة المكان لم تكن كبيرة بشكل عام : شاهدت داخل السور ، ولكن على شكل أكوام متداعية من أحجار الحمم البركانية ، ركام أحد المنازل . كما شاهدت فى منتصف ذلك الركام عقداً مستديرا أو بركة صغيرة ، أو إن شئت فقل : خزان مياه صغير . ترى . ما معنى تلك الجدران المرتفعة ؛ ألا يكون هذا الموقع صغيرا على مدينة من المدائن ؟ يضاف إلى ذلك أن التربه المحيطة بذلك الموقع لا تصلح للفلاحة أو الزراعة ؛ الواضح أن هذا المكان قلعة وليس بلدة من البلدان ، ولربما كان استراحه مؤقتة على طريق التجارة . وبالقرب من تلك القلعة هناك جبل بركانى يعد من العلامات الأرضيه التى يمكن رؤيتها من مدينة معان . عندما مررت على تلك المنطقة ، فى العام السابق ، شاهدت الخيَّالة الأعراب الذين اقتربوا منا ؛ ولكن عددنا كان أكبر من عددهم ، جاءوا إلينا ليطلبوا منا بوقاحة إعطائهم حفنة من التبغ . هؤلاء الأعراب يكونون مضيفين طيبين فى مخيماتهم ؛ ولكن لو قدر لنا الوقوع فى أيديهم فى الصحراء لأكتشفنا أنهم أعداء وأوغاد ، ولكانوا جردونا من كل شىء معنا ولربما تملكتهم الوحشية وذبحوا البعض منا . كان عدد هؤلاء الأعراب ثلاثة أفراد من البدو ، وشعورهم طويله ، ثم ألقوا علينا السلام ؛ أما الشخص الرابع فكان أعورا يركب جملا ، تجاوزتة الأفراس التى كان يركبها رفاقه . كان ذلك الأعور يجرى فى أعقاب رفاقه راكبا جمله بلا سرج ، وبلا لجام ، كما لو كان مجرد راع يرعى الإبل مستخدما فى ذلك صوته ومشعابه . كان رفاقة يركبون على ظهور أفراسهم الجميلة ، التى لم يركبوا

لها حدوات فى أرجلها ؛ وكان كل واحد منهم يمسك لجام الفرس فى يد والحربة الطويلة المتوازنة ، وهى تهتز على كتفه ، فى اليد الأخرى . وهنا يتعين علينا القول إنهم لم يكونوا راكبين منظمين ؛ نظرا لأنهم حاولوا عن طريق التباهى أو التدرب على العمليات الحربية ، أن يثبتوا لجماعتنا المسلحة ، مدى قدرتهم على الكر والفر : وهنا راحوا يضربون أفراسهم بأعقاب أقدامهم وينحنون إلى الأمام ، مطبقين أوراكهم على أجناب أفراسهم ، وراحوا يعدون فرادى بأفراسهم ، ليقطعوا شوطا أو شوطين فوق أرض ذلك السهل ؛ وبعد أن انتهوا من ذلك اختفوا عن أعيننا فى الصحراء ، وكل واحد منهم شاهرا رمحة كما لو كان يصوبه إلى خصم أو عدو ؛ وبعد أن قاموا بذلك الاستعراض ، وبعد أن وصلنا نحن مسيرنا ، جاءو إلينا وهم يلهثون . كان أضعف هؤلاء الراكبين يركب فرسا شعرها كستنائى اللون وصغيرة السن – فرس جميله يندر وجودها بين هؤلاء الأعراب . لم يكلف صاحبها نفسه تمشيط شعرها ولو مرة واحدة ، ومع ذلك كان لها بريق ويبدو عليها الجمال ، كانت تلك الفرس بمثابة حياة جميلة فى تلك التربة المتوحشة التى ليست جديدة عليها : كان ذيل تلك الفرس يكاد يلامس الأرض ، أما عرف الفرس فكان من المنح التى أفاءت عليها بها أمها الطبيعة .

سكان الجزيرة العربية المستقرين ، يكرهون ، فى كل الأحوال ، هؤلاء البدو الرحل الذين يحيطون بهم ، فى جزرهم الواحيَّة مع مخاطر الصحراء . هذا البدوى المترحل الذى تجولت معه ، كان بمثابة رئيس طريق الحج فى منطقة معان ، وكان جنوده يقدرون بحوالى عشرين جنديا ، وكانت غالبيتهم من الفلاحين المسلحين من أهل المكان ، جاء إلينا وهو يقود قطيعا من الماعز الحكومى ، (يمثل ذلك القطيع المساهمة العشرية التى جاءت من بعض قرى إيدوم غير المواليه أو الخاضعة للحكومة) لبيعها فى مدينة نابلس Nablus (سيكم .Sichem) أطلق البعض منهم بعض الأعيرة النارية فى المؤخرة وذلك احتقارا منهم للبدو ، الذين كانت أفراسهم تنكمش وتقفز من تحتهم مع كل طلقة من الطلقات ، وكاد الرجال الذين كانوا يركبون الأفراس بلا سُرُج أن يلامسوا رءوس الخيول من شدة انكفائهم عليها . صاح البدو قائلين : "لا ، يا سادة ! لا ، يا سادة ، لماذا تفزعون أفراسنا ؟" وراح البدو ينظرون شزرا ، ولكن الجنود الفلاحين زادوا من إطلاق النار ، على أمل إفشال وإحباط ذلك الذى ينتوونه ؛ كان صاحب أجمل قلوة

(مُهْرَة) يجلس بالفعل على عنق الفرس ، أما بقية الجنود الفلاحين فكانوا قد سقطوا بالفعل . وهنا نادى الضابط عليهم قائلا : " توقفوا يا شباب ! توقفوا يا شباب !" ردوا قائلين : "انطلقت بنادقنا ، والله ، كما لو كانت قد انطلقت من تلقاء نفسها ." لم يهتموا قيد أنملة ، ولما كانوا يائسين ، لأنهم لم يتقاضوا أجرهم منذ ستة عشر شهرا ، فلم يأبهوا بإطاعة آمرهم الدنئ . وهنا سار أولئك الجنود وهم يتراقصون ويقرعون الطبول : إنهم يثبون ويرتفعون في الهواء ، وهم يغنون بصوت مرتفع ويهزون أجسامهم ، ويقاتلون في الهواء وسيوفهم مشهرة . وتساءل هؤلاء البدو عني قائلين : "ومن يكون هذا ؟" وجاءهم الرد : "نصراني" هذا الاسم ، الذي هو نذير شؤم ، أوحى لهؤلاء البدو بأن هناك مصيبة في أرضهم : وردوا عليه ثانية وهم يقولون : "لا تحضر مرة أخرى من هو مثل هذا إلى هنا مرة ثانية !" وعندما سمعت كلامهم ، صحت قائلا : "أقبضوا عليهم !" وهنا أدركوا أن رحيلهم أصبح أمرا محتوما ، ولذلك ولوا الأدبار دونما استئذان ، وسرعان ما اختفوا عند الأفق .

استأنفت قافلة الحج مسيرها مبكرا في صبيحة اليوم التالي ؛ ثم سمعنا صوت دانة المدفع تنطلق من المقدمة ، قبيل شروق الشمس ، وهنا توقفت القافلة ونزلنا عن دوابنا لأداء صلاة الصبح . وفي اتجاه الغرب تراءت لنا مرتفعات الشوبك ، وعن يسارنا شاهدنا سلسلة منخفضة من التلال في الصحراء . هذه هي سعير (Seir التي يترجمونها أرض الغابات الوعرة) ، تلك البلاد المرتفعة الجديدة ، التي أقام الناس واستقروا فيها منذ أزمان قديمة ، وبخاصة حدودها الغربية (أو بالأحرى ، فيما وراء الأرض الحجرية الجرداء) ؛ والأنقاض في سعير Seir عبارة عن بلدان صغيرة أثريه وقرى أثرية صغيرة ، كما أن الكفور ليست أقل عددا من الكفور الموجودة في جبل كيراك . بجوار معان ، محطة الطريق ، أرى أن الأرض جرداء في الوقت الحالي ، اللهم باستثناء أربعة أو خمسة قرى هي التي بحال طيبة ؛ هذه القرى من القرى الأثرية القديمة في الساحل الغربي الذي يتوفر فيه الماء للزراعة ، ويطل على كل من بلدة غور ووادي السلط . وقرية بُصْرى Basra[*] ، (التي يقال لها أيضا بُصَيره Buseira)

(*) بُصرى : كانت بصرى سوقا تجارية هامة في مملكة الأنباط ، وقد اتخذها الرومان عاصمة للكورة العربية التي أسسوها Provincia Arabia لحماية سوريا . وقد ورثت بُصرى مدينة البتراء اقتصاديا وسياسيا . (المراجع)

واحدة من تلك القرى الأثرية الأربع أو الخمس ، وعاموس Amos تهدد قصور تلك القرية ؛ والعرب ، فى بُصْرى ، يقولون : إن فيها آثارا (رومانية) عالية . بقينا فوق ذلك السهل الصوَّانى الذى تعلو سطحه طبقه من الحجر الجيرى ، والذى يصل ارتفاعه إلى حوالى ٤٠٠٠ قدم ، إلى ما بعد الظهر بساعتين ، وهنا استطعنا رؤية مدينة معان ، ثم وصلنا بعد ذلك إلى مجرى سيل من السيول شاهدنا فيه درنات ضخمة من الصخر (تشبع تلك الدرنات أيضا فى الصخر الجيرى الموجود تحت الأرض التى نقف عليها : تلك هى "جثث الكفار القدامى ." حسب الروايات الأسطورية الخرافية ، يقال إن هذا الموقع كانت فيه مدينة أثرية لعبدة الأصنام ، إلى أن جاءهم صوت من السماء ، سقط عليهم فتحولوا إلى هذه الدرنات الحجرية . شاهدت حجاجا كثيرين ينزلون من فوق مطاياهم ليلتقطوا الحصا ويقذفوا به أولئك الكفار الملعونين ؛ هذا فى الوقت الذى أصبحت خدمة الحج ، بعد أن اعتادت المرور سنوات طوال على ذلك الطريق ، تمر على تلك الأحجار بلا مبالاة ولا تعيرها اهتماما .

معان مركز (أو إن شئت فقل : محطة مركزية أو محطة رئيسية من محطات الحج) على طريق الحج ، ومدائن صالح ، التى تقع قبل المدينة (المنورة) مركزا آخرا ، أو استراحة أخرى من استراحات طريق الحج . ونصل إلى هناك ، وتطلق دانات المدفعية تحية لنا ، ونتسلق أرضا مرتفعة ، تقع على جانب طوابير قافلة الحج الطويلة ، التى تتجه صوب القسم الغربى من القرية حيث توجد المخيمات الخاصة بها ، وحيث ترفرف الأعلام فوق كل جناح من الأجنحة : وهذا هو علم بلاد فارس الذى يحمل صورة لأسد ضعيف معوق ، وهو يرفرف فوق خيمة الأجا Aga الكبيرة . فى معان ذاع صيتى ، والسبب فى ذلك أننى فى مرورى السابق على معان أثناء عودتى من مصر وسيناء مكثت فى معان عشرين يوما . خشيت أن يتذكرنى كبار مسئولى الحج ، فى وقت فراغهم وبالتالى يرسلون رجالهم فى كل أنحاء المخيم طلبا لإحضار ذلك "الفرنجى" وبالتالى يعيدونى من حيث جئت وأنا حاليا على حدود الجزيرة العربية : - وحدث ما توقعت ، فقد راح الرجال يبحثون عنى . معان ، هى القرية الوحيدة ، الموجودة على هذا الجانب القاحل من جبل شرَّاة ؛ والناس هنا يقولون : إن قرية معان بدأ استعمارها على امتداد القرون الثلاثة الماضية ؛ فى هذا المكان ، فى ذلك الوقت ، جرى

تأسيس ، أو إن شئت فقل : إنشاء محطة من محطات الحج الرئيسية ، حول القلعة ، والذى أنشأ تلك المحطة هو السلطان سليم(*) ، الذى هو أحد الخيرين والمعمرين لطريق الحج . وهكذا أصبحت قرية معان القديمة حامية عسكرية فى أيام الرومان وفى ظل الحكم العثمانى ؛ كانت هذه الحاميه تقع على الطريق الرئيسى المؤدى إلى سبأ Sab-ean، وأول طريق قادم من سوريا ومتجه نحو الطرق الصاعدة القادمة من الجزيرة العربيه . وعلى بعد دانة مدفعية من معان ، وفى اتجاه الشمال توجد بعض الأنقاض الأثريه التى يطلقون عليها أسم الحمَّام Hammam؛ فى هذا المكان يوجد صهريج أو خزان مياه ، تختلف مصنعيته عن باقى الخزانات فى هذا البلد ، فهو مصنوع من الحجر ، أو إن شئت فقل : جدرانه من الحجر ، ويصل طول الجدار حوالى ستين خطوة فى جانب من أجناب الخزان ؛ ويتغذى ذلك الخزان بالماء من أنبوب توصيل صغير ، أصبح فى عرف التالف حاليا ، ينقل الماء إلى ذلك الخزان من أحد ينابيع شِمِّيا Shemmîa . لم يعد يتبقى من قرية معان القديمة سوى قله قليلة من الأحجار العالية ، وبعض الجدران المهدمة ماتزال باقية ، بعض هذه الأحجار والجدران مقام باستعمال الملاط ، بل ومليسة بالجبس من الداخل ، ولكن السواد الأعظم من المبانى مبنية من الحجر الجاف ؛ وجرى تكسير تلك المباني الجيدة لاستعمال أحجارها فى بناء القلعة : شاهدت أيضا فى معان عمودين رخاميين قديمين ، كما شاهدت فوق هذين العمودين نحتا زينيا بربريا على شكل سلَّه أو شبكة . وقرية الحمَّام Hammam، إذا لم تكن عربية ، فهى تشبه اسما ورد فى الإنجيل هو حومام Homam، الذى نقرأ عنه فى عيسو(**) Esua؛ ونحن نقرأ أيضا عن شمَّاه Shammah باعتباره أيضا من سلالة عيسو Esua النسبية . وشمِّيا قرية شقيقة ، تبعد حوالى نصف ميل إلى الغرب من معان ؛ فى الحمام يتراوح عدد السكان ما بين ١٠٠ و١٢٠ نسمة ، وفى معان يصل عدد السكان إلى ٢٠٠ نسمة . وشمِّيا Shemmia أجمل من معان وأكثر منها ثمرا ،

(*) السلطان سليم : من السلاطين العظام فى الدولة العثمانية (١٤٦٧-١٥٢٠) ، كان أول من فتح الباب للتوسع العثمانى فى العالم العربى حيث سيطر على الشام ومصر والحجاز بين عامى ١٥١٦، ١٥١٧ ونجح فى القضاء على دولة المماليك . (المراجع)

(**) عيسو : هو ابن سيدنا أسحق وأخو سيدنا يعقوب الذى حاز على البكورية على الرغم من أنه أصغر من عيسو . (المراجع)

وحقول القمح فيها تروى من ينبوع رفيع كما أن أهل هذه القرية من النوع المسالم ؛ والآبار في شميا كثيرة ، وأغصان أشجار الفاكهة تتدلى من فوق أسوار البساتين المبنيه من الطين إلى ناحية الصحراء القاسية . وقرية شميا هي وقرية معان هما ، بلا شك ، مثل "المدينتين المسورتين" القديمتين . أسوار هاتين القريتين مبنية من الطين ، ولكن الجدران والأسوار وكذلك الأبراج مليئة بالخروق . كما هو الحال في الأماكن العربيه كلها . وقد أنشأت حكومة الحج ، هنا في السنوات الأخيرة ، محطة لقوات الخيَّالة ، هم وجَّمالة العجيل ، المكلفين بحماية طريق الحج ، وكبح جماح بذاءة البدو . ظلت معان لفترة من الوقت مليئة بالخيام ، فضلا عن بناء أحياء وضواحي في شميا : ولكن تلك السياسة التركية لم تدم طويلا . وفي معان يترك المقوّمون والتجار جزءاً من بضاعتهم وأثاثهم ، نظرا لارتفاع أسعار النقل على ظهور الإبل ، وفي معان يوجد مخزن محكم تحت إمرة ضابط ، يقال له مدير المال ؛ ويجرى حفظ بضاعة التجار وأثاثهم هم والمقومين في ذلك المخزن . وفي قافلة الحج يوجد أيضا شكل من أشكال النقل الحكومي ؛ وفي البداية كانت الإبل تُحمَّل بهبة السلطان السنوية للحج (والتي كانت تتكون في معظمها من الزيت الجيد الذي يستعمل في إضاءه المصابيح والقناديل) في الحرمين المدني والمكي ؛ وتجيئ بعد الزيت ، التعيينات السنوية الخاصة بكل القلاع الموجودة على طريق الحج . ويمكن الحصول على القمح من كل من كيراك والشوبك بنصف السعر الذي يباع به في دمشق ؛ ولكن انعدام الأمن في الضواحي والبلاد النائية يجعلها تلجأ إلى العرف والعادات القديمة ، التي تتمثل في نقل القمح من الحوران إلى دمشق ثم نقله مرة ثانية إلى قافلة الحج ؛ الأمر الذي يجعل الكيس الواحد من القمح يكلف هؤلاء التجار ثلاثة أضعاف تكلفة الكيس نفسه في معان . والدكاكين الموجودة في معان لا تبيع سوى القليل للبدو ؛ وغالبية أصحاب تلك الدكاكين هم من التجار الذين يفدون على معان من حبرون .

هناك حى منخفض من أحياء هذه القرية المبنية من الطين ، فى الوادى ، طالته يد التخريب فى فترة متأخرة ؛ وقد حدث ذلك بفعل مرض العرب السياسى . هناك مقولة مفادها ، أن الغريب ، أى غريب ، إذا ما سأل أول شخص يلقاه من أهل معان ، حتى وإن كان ذلك الشخص طفلا ، "من هو شيخ هذه القرية ؟" فإن ذلك الشخص سيجيبه قائلا : "أنا ذلك الشيخ ." هذا يعنى أن هؤلاء الناس طائشون متمردون ، هذا يعنى أيضا أن أذهان هؤلاء الناس منقسمة بين التهور والاندفاع إلى أبعد الحدود وبين الجشع البغيض . وأنا عندما كنت أقيم هنا قبل هذه المرة كنت أشعر بالقلق وأنا أسمع شجارهم ، كما لو كانوا فئرانا فى سفينة قديمة بطيئة ، وصياحهم العالى حول أمور غاية فى التفاهة ، كما لو كانوا شياطين فى آخر الدنيا . والمثل السائر هنا ، أن الرجل على استعداد لقتل ابن أمه من أجل نعلة قديمة مصنوعة من الجلد . حدث الخلاف على النحو التالى ؛ اختلف بعض الأطفال حول تفاحة واحدة ، وهنا تزايد الصراع والنزاع بينهم ، نهض البعض واقفين من المقاعد المصنوعة من الطين ، بعض آخر من الرجال جاءوا قادمين من أعتاب منازلهم ، وراح الجميع يقتربون ويقفون فى الجانب الذى ينحازون إليه ، كل الغاضبين كانوا يتصايحون ، ويحتقرون ويتوعدون خصومهم . سلّح الرجال أنفسهم ، وكان وقار الكبار ضعيفا وغير كاف لفض ذلك النزاع . كانوا يردون على الصياح الهمجى البربرى بكلام جارح ؛ سارع كل واحد منهم ، من الجانبين ، إلى العودة إلى المكان ، أو الحى ، الذى يعيش فيه ، ودخل كل واحد منهم كوخه وحبس نفسه فيه وحصّن باب الكوخ ؛ ثم صعد بعد ذلك إلى سقف الكوخ المصنوع من الطين ليفتح النار على البيوت المعادية المجاورة له . ولم يجرؤ أحد منهم على الخروج من بيته طوال ذلك العام ، نظرا لأن الأعداء سوف يفتحون عليه النار من شرفات منازلهم . شاهد الجانبان المحصول وهو ينضج ويبقى طويلا على عيدانه ، دون أن يجنيه الحاصدون ، وبذلك ضاع خبز هؤلاء الناس وعيشهم ؛ وفى النهاية ؛ تعفنت فواكه الخريف الجميلة ، التى كانت تتدلى من أشجار البساتين بعد أن نضجت وطابت ؛ تعفنت أمام أعين هؤلاء وهؤلاء . وسقط خلال ثمانية أشهر من ذلك القتال ثمانية من الأبطال ، إضافة إلى بعض الذين ماتوا جوعًا . فى ذلك الوقت ، نزح عن قرية معان ، عدد كبير من أولئك الذين لم يتحزبوا إلى أى طرف من الطرفين ؛ هاجرت غالبية هؤلاء

إلى الحوران : أما صغار التجار فقد ذهبوا إلى شِمِّيا . ضاع هذا العدد الكبير من أبناء حوَّاء فى حادث التفاحة فى قرية معان ، زد على ذلك ، أن الجنود الفلاحين شاركوا أيضا مع رفاقهم القرويين مثيرى الفتنة والشغب ، ولكن النهاية كانت قد قاربت . قام الباشا ، فى رحلة العودة من الحج ، بمحاصرة مكان مثيرى الفتنة والشغب ، باستعمال حرس قافلة الحج ، وأمسك بمثيرى الشغب الذين كادوا يموتون جوعا ، وألقى القبض على زعمائهم وعلى الشيوخ ، ونقل الجميع ، حوالى عشرين شخصا ، إلى السجن فى دمشق . ويحكى الغرباء عن سكان معان الذين من أصل يهودى ويقولون : "إن شقرة شباتهن تنوى وتقل بعد الحمل الأول ، ويشيع بين هؤلاء اليهود إسم "هارون" "Harûn" والسبب فى ذلك الاسم هو أن الناس فى معان قريبين من جبل هور Hor (ويصح فيه أيضا 'حور') ،الذى يوجد فيه ضريح آرون .Aaron (ومن هنا نحتوا الاسم 'هارون') .

وشرقى قرية معان توجد أرض صحراوية يطلقون عليها اسم أرض الكلبى (وهذا أيضا اسم واحدة من القبائل القديمة جدًا التى أقامت ذات يوم فى تلك الديار .) وهذه الأرض الصحراوية مليئة بالدرنات الصخرية ، التى يتخيلون كفورا وقرى بنيت منها فى يوم من الأيام . عقود الصخور الأقل من تلك الدرنات الصخرية ، تشبه الجبن الهولندى ، "وسوف تلقيها الملائكة بأيديهم على الذرية الكافرة غير المتدينة" ؛ فى هذه المنطقة يوجد ينبوع ، أو إن شئت فقل عين من قديم الزمان منحوتة فى الحجر الجيرى ، وعلى بعد ميل فى اتجاه الشمال توجد أنقاض قرية مورتراب Mortrâb فوق أرض مرتفعة ، وفيها بعض الجدران المبنية بدون ملاط ، ماتزال باقيه إلى يومنا هذا ؛ وغرف منازل هذه القرية صغيرة جدًا ، كما هو الحال فى بقية الأماكن المهدّمة . وهواء معان غاية فى النقاء ، وليالى صيفها منعشة ، وكان الطقس فى نهاية أبريل ما يزال باردًا على هذا الارتفاع الكبير . وفى فصل الشتاء يكسو الجليد سطح الأرض فترة من الوقت . يضاف إلى ذلك ، أن السَّمن ، أو بالأحرى الزبد البدوى بعد تنقيته من الشوائب ، يتفوق على سائر أنواع السمن الأخرى ، التى فى كل أنحاء سوريا ، والسبب فى ذلك جفاف أرض معان المرتفعة . وفى أحيان كثيرة ، كنت أرى فى فترة ما قبل الظهيرة السراب من فوق أرض الصوَّان السهلة ؛ وبحكم تجربتى وخبرتى لا يمكن أن يخطئ

أحد ويحسب سراب الصحراء العربية ماءًا . والينابيع والعيون فى معان نادرة ومتقلبة ؛ والماء يأتى لمعان من مجموعة من الآبار القديمة ، التى تبدو وكأنها منجم من مناجم المياه ، (شأنها فى ذلك شأن كل من سيناء Seina وإيطاليا) ، والآبار التى من هذا القبيل ليست نادرة فى هذه البلاد الجافة القديمة التى تنفتح مسافات طويلة تحت الأرض ، على عرق من عروق الماء ، الذى تنبثق منه فتحات مندفعة إلى أعلا فى الهواء . ومياه الآبار فى كل من شمِّيا ومعان لا يقل عمقها عن ثلاث قامات أو إن شئت فقل : عن ثمانية عشر قدما ؛ ويتجه فائض تلك المياه إلى الصحراء . وعندما كنت أسير فى مجرى السيل فى معان وقفت عيناى (كما سبق أن قلت) على سبعة أحجار من الصوان صُنِعت لكل واحد منها حافة أو حدٌ ، وتناولت تلك الأحجار ، وواصلت المسير وأنا مندهش لذلك : وهذا يجعلنا نسلم أن ذلك الحد أو تلك الحافة إنما هى من صنع الإنسان . ولكن ما هو ذلك الجنس البشرى الذى سكن هذه الأرض قبل العرق السامى بزمن طويل ؟ ألا تصل إلى قلوبنا كلمه إشعيا (النبى) ، وذلك ربما يكون من باب محاكاة شعب أرجوت Argot (*)، فيما يتعلق بأولئك السكان الذين جاءوا قبل العرق السامى ؟ – "ماذا كان الصخر الذى نُحِتَّ منه ، وفجوة الحفرة التى حُفِرْت منها !" (أنظر الشكل الموجود ضمن ملاحق الكتاب تحت عنوان : أدوات مصنوعة من الصوَّان عثر عليها (فى العام ١٨٧٥) فى صوان الأرض المرتفعه فى جبل سعير ؛ مجرى سيل معان على ارتفاع ٤٢٠٠ قدم : نسبة التصغير ١:٣) .

فى ذلك الوقت تجولت فى المروج الخضراء إلى الشوبك فى نطاق أراضى قرية إيدوم . وبعد حوالى خمسة عشر ميلا من هذا المكان يوجد موقع رئيسى من مواقع الأنقاض يطلقون عليه أسم أوذيره Uthera؛ والمدينة القديمة التى تحمل هذا الاسم مبنية بالقرب من عين (ينبوع) قوى ، تفيض مياهه على شكل غدير عظيم من المياه . هناك جدران أرضية مبنية من أحجار مربعة ، ومن فوق هذه الجدران توجد عقود مستديرة مبنية بالطريقة المعتادة ، كما توجد أيضا بعض الغرف الصغيرة المبنية من

(*) هذه الكلمة مأخوذة من أصل فرنسى معناه " من أصل غير معروف " والكلمة لها دلاله سيئة فى الإنجليزية إذ تدل " على من ينتمى أصله إلى طبقه من اللصوص " (المترجم) .

الحجر بدون استعمال الملاط ، هذه الغرف الصغيرة ليست سوى بقايا أو أنقاض لبعض المنازل الخاصة . كما شاهدت أيضا ممرا يؤدى إلى تحت الأرض وبه غرفة جانبية مبنية بطريقة ممتازة ؛ كما رأيت أيضا مجموعات من الأعمدة ، وبقايا من الرخام الأبيض ، الذى جرى - حسبما يقولون هنا - نقل أجمل ما فيه إلى دمشق ، منذ زمن بعيد ، ليستخدمه الناس فى عمل الأرصفة الجميلة التى تحيط بأفنية المنازل : وهناك أيضا قناه لنقل الماء ، تنتهى عند الأبراج الصلّبة ، التى يطلقون عليها اسم طواحين الماء . فى هذه التربة المهملة توجد المساحات التى يزرع فيها القمح فى قرية معان ؛ وزراع القمح فى هذه الحقول يتعين عليهم اقتسام المحصول مناصفة مع البدو ، الذين هم ملاّك الصحراء . وها هو مخيم من مخيمات أولئك البدو . هاهم الشيوخ الباغون يتركون أفراسهم ترعى فى حقول قمح القرويين . هذا كله بالرغم من أنه فى مثل هذه القرية الطيبة ، رأيت من بين هؤلاء الشيوخ من بلغ بهم الفقر حداً عجزوا معه عن أن يكون لهم خيمة تحميهم من غائلة الطقس ؛ كل ما كانوا يملكونه عبارة عن شراع صغير من الشعر نصبوه على وتد من أمامهم ، لكى يحميهم من عواصف الليل . كان هؤلاء الحويطات يجلسون أمامنا على شكل مربع ناقص ضلع داخل خيمة الشيخ ، التى كانت أمرا شائعا عند الفلاحين ، أشباه البدو فى قرى إيدوم ؛ ونساء الحويطات لسن مقنعات . هذه الأرض المرتفعة ، تزداد خضرتها فى نهاية شهر مايو ، ومن فوقها السماء السورية ، وتلك الخضرة ليست سوى أعشاب برية .. وعلى بعد مسير ساعة من هذا المكان ، توجد أنقاض قرية مُتِّهمة Mottehma، التى كانت مبنية باستعمال الحجر فقط وبدون ملاط . وبعد هذه القرية بحوالى ساعة أخرى توجد قرية أخرى اسمها هتيجى Hetigy؛ وعلى بعد مسير ساعة قبل الشوبك وعند أحد الغدران (النهيرات) المائية توجد أنقاض قرية نجِّيل Nejjel؛ والأرض هنا عبارة عن منخفضات من الحجر الجيرى والوديان التى تسير محاذية للتلال . سرنا بعد ذلك مسافة قصيرة ، لنصل إلى حافة جبل عيسو Esau، ثم نظرنا إلى غور البحر الميت الذى يغطيه الضباب هو ووادى العرابة Wady : el-Araba وربما كانت الأرض على بعد خمسة آلاف ميل من تحتنا وتبدت لنا رأس سرج جبل الحجر الرملى الذى يميل لونه إلى الأزرق الغامق ، بدت لنا وكأنها أوسع قليلا فى اتجاه الجنوب من تحت أقدامنا ، وهذا هو ما يطلق عليه اسم

جبل حور Hor (جبل سيدنا هارون Harûn Saidna Jebel) الذى يقع خلف بيترا Petra . جئنا إلى هنا إلى المعسكر الصيفى لأهل الشوبك ، الذين يقضون ، مثل أهل كيراك ، نصف العام خارج بلادهم فى القفار والبرية ، داخل خيام ، شأنهم شأن البدو الرُّحل ؛ هؤلاء الشوبكيون وقحون ولكنهم رفاق طيبون وكرماء ، وهم ليسوا رعايا لأية حكومة من الحكومات الغريبة ، وهم شديدو الغيرة على حرياتهم . كانت الشوبك ثانى القرى التى دانت للصليبيين ، ولكن شيخ القرية قال : إنه يتعين ألا يذهب إليها (الشوبك) إلا مقابل مبلغ كبير من المال . ووعدنى الشيخ بعد ذلك بمشاهدة بئرهم العميقة القديمة التى يجلبون منها الماء ، كما وعدنى أيضا بمشاهدة نقش كوفى . هؤلاء الفلاحون الجهلة الأميون يكرهون اسم الفرنجة كراهية شديدة ، وسبب ذلك يرجع إلى موروث غامض من الموروثات الصليبية . هذا القروى الطويل لم يولد سيداً ، وإنما أصبح كذلك بفعل قوة جسمه من ناحية والمساندة المسلحة التى يلقاها من أنصاره ؛ وهذا هو الذى جعل من ذلك الفلاح الطويل شيخا فى الفترة الأخيرة . تعجَّبت رءوس متحجرة Strongbrawns قائلة : "ما الذى يجعل أى إنسان يعرف أننى لم أكن واحداً من أولئك الذين جاءوا للتجسس على مكانهم ، وأن الفرنجة سيدخلون بعد ذلك للاستيلاء على القرية ؟" هذا المضيف الأمين غذَّانا غذاء طيبا فى خيمته الكبيرة ، وكان الغذاء خروفا مسلوقا (نظرا لوفرة الأغنام هنا) فى لبن خض . ونظرا لأن إسرائيل صعد من سيناء فقد كانت تلك الأرض تفيض بالحليب فى واقع الأمر .

من الملاحظ أن القرويين الإيدوميين لا يعرفون الدين حق المعرفه . ويبدو أنهم ليس لديهم إلى جوار ضريح ومعبد آرون Aaron على جبل حور Hor، أى نوع من المساجد ، أو أى شيء آخر من الأمور الشرعية سوى مسألة ختان أطفالهم الذكور . فى معان سمعت عنهم حكاية ربما كانت من قبيل الخرافة . "منذ سنين مضت جاء أحد الكبار المتزمتين من برية حبرون إلى قرية بُصرى Bosra، التى شاهد ، أو رأى فيها بعض الرجال يستدفئون فى حقل من الحقول أمام نار كبيرة أشعلوها عن طريق خشب أشجار الزيتون ، وذهب ذلك الكبير وجلس إلى جوارهم . وبعد تناقل الأخبار بدأ الرجل المحترم يعظهم عن العقيدة المشتركة العامة ، ووبخهم وأنبهم على جهلهم ، وراح يبكى ويتضرع إلى الله ، على عدم معرفة هؤلاء الناس للصلاة ، وعدم صوم رمضان ، أو دفع

الخراج للحكومة القانونية أو الشرعية ، كان هؤلاء الناس يوشكون على خطر السقوط ، ثم يدخلون جهنم فى النهاية . ورد عليه الفلاحون فى النهاية الذين كانوا يستمعون إليه ، رداً يعبر عن الحقد والكراهية قائلين : "سنضعك أنت فيها أولا ، أيها الرجل العجوز . أيها الرفاق ، لقد سمعنا ما يكفى من كلام هذا الرجل هيا ، إجلبوا المزيد من الخشب ! ثم أقذفوا بالرجل فى النار ، وألقوا فوقه المزيد من الخشب المشتعل ، واتركوه راقدا يحترق فى النار ، ولم يساورهم خوف أو قلق حول حتمية الثأر منهم لذلك الدم الغريب ."

ولم يعد فى بُصرى Bosra شيء من دسم النبيذ ، ولكن حقولها عامرة فى الوقت الحالى بالكروم . كان أنبياء العبرانيين ، فى كل الأوقات ، يحتوون ويطوقون بعداء شديد عدوان الجيران الأشرار على قرى أرض الصوَّان : ونستطيع أن نستخلص من كلمات هؤلاء الأنبياء أن تلك الأراضى كان المقصود بها حقول القمح وأراضى الكروم والأعناب . ويبدو أن النبى إشعيا كان يشير إلى امتلاء إيدوم بالمواشى الصغيرة ؛ هذا النوع من الماشية موجود حاليا وبأعداد وفيرة على هذا الجانب من الجبل : زد على ذلك أن قطعان الأغنام الكبيرة التى شاهدتها عند العرب كانت فى أراضى السهول الجبلية التى تمتد محاذية للتلال (هذه هى بلاد حِملان إشعيا) فى المنطقة ما بين الشوبك وبيترا ، التى أزورها حاليًا . الصخر فى هذه المنطقة زاخر بوديان ورفوف الصوان المصنَّفة والمعروفة ؛ وحقول زراعة القمح موجودة فى أفضل الأجزاء المحمية فى هذه الأرض ، وبخاصة فى القرى المجاورة ، وهى أراضى بعلية ، تتغذى فقط من مياه الأمطار . هناك بعض المناطق النائية التى يقوم على أمر زراعتها الفلاحون من البدو المترحلين ، الذين يسكنون هنا فى الخيام فى المناطق المحيطة بحقول القمح ، وهم لا يعدون أنفسهم من البدو . وواحد منهم هو البغَّال الذى يرافقنى فى هذه الرحلة ، وقد أمضيت ليلة فى مخيمهم ؛ ولكن اسم القبيلة غائب عن ذهنى حاليا . وهم يقيمون على تربة هذه المنطقة فى سلام ، والسبب فى ذلك أنهم يدفعون للبدو (فدية) الأخوة bro-rhership، كما أنهم يدفعون (هذه الفدية) أيضا للبدو القريبين من مدائن صالح ، أى على بعد حوالى مائتى ميل فى اتجاه الجنوب ؛ من هنا فهم يتزايد عددهم بصورة مستمرة نظرا لأن أحدا لا يعتدى عليهم . ومبلغ علمى أننى شاهدت قطعانا يصل تعداد الواحد منها إلى حوالى ٥٠٠ رأس من الغنم وهى تمضى الليل أمام بعض الخيام

المملوكة لأولئك الفلاحين . هذا المرج الواسع المكون من الحجر الجيرى ، ويقع على ارتفاع كبير ، يشبه المروج الأوروبية إلى حد بعيد ، كما توجد فى هذا المرج أراضى منخفضة عامرة بأشجار خشب السنديان دائمة الخضرة . وبعد مسير تسعة أميال فوق الأرض المرتفعة توجد بعض الأنقاض البدائية لمبان حجرية لم يستعمل فيها الملاط ؛ ويطلقون على تلك الأنقاض اسم خِداد Khidâd، كما توجد هنا أيضا بعض الكهوف الجيرية أيضا ؛ والمكان هنا يشبه قرية الكورمل Kurmel التى عاش فيها نبال Nabal، وتقع أسفل حبرون فى اتجاه الشرق . ونحن نميل إلى الاعتقاد الذى مفاده أن هذه الحدود العالية كان فيها من السكان عدد أقل من عدد السكان فى أفضل الأماكن المستقرة فى سوريا فى ذلك الوقت . والهواء هنا عليل ، وهذه هى شمس الربيع الساطعة وحراراتها الطفيفة فى وقت الظهيرة ؛ مررنا ببعض مواقع الأنقاض ، التى توجد فى كل الأحوال فى المناطق القريبة من ينابيع وعيون المياه .

بدأنا النزول من فوق صخرة خشنة ووعرة من صخور الحجر الجيرى ، وكانت تحيط بها أشجار العرعر الجبلية ، فى اتجاه وادى Wady موسى Musa، أو إن شئت فقل : بيترا Petra، التى تبدو من تحتنا وكأنها صدع عميق جداً فى الأسفل . شاهدنا مخيما من خيام مصنوعة من الصوف الخشن ولكنها لم تكن خياما للبدو . هؤلاء الذين كانوا فى تلك الخيام هم فلاحى وادى موسى وقد جاءوا إلى هذه المنطقة لقضاء الصيف . وقرية هؤلاء الفلاحين هى قرية الجى Eljy التى تقع على مستوى أعلى من مستوى بيترا . وهنا همس مرشدى فى أذنى قائلاً : "هؤلاء كانوا رفاقا خطرين لم يعيروا اهتماما لرئيس معان ، ولم يلقوا بالا لحكومة طريق الحج ؛ ولو قدر لهم أن يحتجزونى فقد يكون ذلك من قبيل عمل الشيطان ." خرج الشيوخ وجاءوا لاستقبالنا ، ولكننا عندما دخلنا الخيمة الرئيسية قالوا لنا : إننا ينبغى ألا نمر اليوم ، وسأل أحدهم بدافع من حقد العرب ، إذا لم أكن أمانع فى البقاء معهم مدة دورة قمرية (أى مدة شهر) . "صلحوا" لنا القهوة ، ولكنهم قرّعوا مرشدى ووبخوه قائلين : "مع إن العالم المجاور لنا قد يكون مفتوحا للمرور ، فإن وادى موسى ليس على هذه الشاكلة ، لا ، والله ! وأنهم رجال لا يأتمرون بأمر السلطان أو الباشا !" كانوا أجلافا قساة ، وفى ذات الوقت كانوا مسرورين لأنى يتعين على البقاء عندهم ضيفا أسيرا . يومهم الخالى من

العمل ثقيل وطويل جدًا ، إنهم ينامون طول الوقت ويدخنون التبغ ؛ شاهدت البعض منهم وهم يقذفون الحصى فى قبضاتهم الجافة ، على أمل تمضية الوقت . أخيرا ، ومع غروب الشمس ، أحضروا طبقا خشبيا كبيرا مملوء بالعصيدة أو إن شئت فقل : الجريش ، وشارك كل الحاضرين فى تناول تلك الطبخة البسيطة الوفيرة . وتقدم بنا الليل ، وبقينا فى أماكننا على الأرض ، استعدادا للنوم ؛ ولكن فسقة الماعز ، وهم ينسلون فى هواء الليل ، كانوا يتخطون وجوهنا كل ساعة إلى أن طلع النهار علينا .

ومن محاسن الصدف أن بركخاردت(*) ، تلك الشخصية الجديرة بالاحترام ، غامر فى عهد أجدادنا ، بالسير فى ذلك الطريق ، عندما كان متجها إلى مصر ، واكتشف بمحض الصدفة أيضا أن فلاحى موقع بيترا Petra المنسى ، تغير سلوكهم عن ذى قبل . كان فلاحو بيترا ينظرون إلى بركخاردت باعتباره أحد الغرباء السوريين فضلا عن كونه مسلم أيضا ، ومع ذلك جعلوه يلاقى الأمرين فى المرور على تلك الآثار ، حتى يصعد ويضحى بشاة فوق جبل حور Hor . والمعروف أن الأوربيين الذين يزورون بيترا يتعرضون لعنف اللصوص من بين أولئك القرويين الذين يعيشون فى قرية الجى Eljy؛ ولكن الأمر نفسه كان أحسن حالا بالنسبة لى ، نظرا لأنى وصلت إليهم وأنا أضع على رأسى غطاء رأس أحمر أو إن شئت فقل : قبعة حمراء ، جئت إليهم من جزء من الدولة (الإمبراطورية) ، فضلا عن أنى أكلت معهم (عيشا وملحا) فى الخيام ، هؤلاء القرويون يجرحون صيامهم قبيل الظهر ؛ وبعد ذلك رحلت عنهم ، وأرسلوا معى منهم أربعة رجال ، وذلك حتى لا يصيبنى مكروه فى ذلك المكان البرى السحيق الذى هو الجزء القاحل من بيترا . ومنخفضات ووديان الحجر الجيرى ، التى نزلنا إليها ، تشبه المنخفضات والوديان المحيطة ببلاد ، أو إن شئت فقل : قرية باث Bath . شاهدنا فى

(*) بركخاردت Lewis Burckharat : رحالة سويسرى قام فى عام ١٨٠٩ برحلة إلى المناطق السورية المتاخمة للعربية البتراء وجمع معلومات عن البدو وسجلها فى كتاب نشر باللغة الألمانية وترجم بعد ذلك إلى اللغة الإنجليزية بعنوان : Notes on the Bedouins and Wahabees, London 1830 ومما يذكر أن بركخاردت لم يكتف فقط بإعلان إسلامه بل تبحر فى علوم القرآن والشريعة ، واشتهر بكونه عالما فى شئون الدين ، ولقب نفسه بالشيخ إبراهيم وأتاح له إسلامه تمكنه من الحج وزيارة المدينة فى عام ١٨١٤ خلال وجود الحملة المصرية فى الحجاز . (المراجع)

البداية وادى فرعون Faraâun Wady، وشاهدنا عن بعد فى ضوء الشمس قصر فرعون : وقصر فرعون هذا هو المبنى الوحيد فى وادى بيترا ، وهو يشبه المعبد إلى حد بعيد ، وهو مبنى بالطريقة المعتادة فى البناء ، فى هذه البلاد ، أو إن شئت فقل : الوادى ، يعزو الناس كل معجزة إلى فرعون الذى جعل من نفسه ، كما يقولون ، إلها يعبدونه ، ولذلك قاوم أو عصى فرعون كلا من موسى وهارون Aaron .

تركنا بعد ذلك ، هذا الحجر الجيرى وما به من كهوف بدائية مقامة فوقه ؛ كانت الصخور الجبلية من تحت ذلك الحجر الجيرى عبارة عن صخور رملية وردية اللون ، وترسم لها فى أغلب الأحيان صورة فيها عروق خضراء وعروق أرجوانية اللون أيضا وفى الأسفل من تلك الأحجار الرملية توجد القمم العالية للآثار المبعثرة . ونزلنا إلى منطقة عميقة ، وصلنا فيها إلى الأجزاء الرئيسية من تلك الآثار ، وهى عبارة عن واجهة إغريقية لمنزل مكون من طابقين ، أصابه البلى بفعل الطقس . ولا يوجد داخل هذه الواجهة ، أو خلفها أى شىء يمكن أن يتفق أو يتوافق مع الوجوه الملكية المرسومة على تلك الواجهة ، أو على البوابات أو المداخل الكبيرة المؤدية إلى صالات عديمة القيمة وصلبة وخالية من أى شكل من أشكال الزينة ؛ هذه الصالات تحولت فى الوقت الراهن إلى مراحات تقضى الليل فيها قطعان ماشية البدو الرُّحَّل ، فضلا عن اسوداد تلك الصالات بفعل نيران الرعاة . وقمم صخور الوادى على الجانبينِ هى والغرف الداخلية منحوتة الواجهات التى تكثر فيها الأعمدة ؛ والقسم الأكبر من تلك المنحوتات هو من النوع الرسمى ، الذى رأيته مؤخرا فى مدائن صالح ، وهناك أيضا بعض تلك الآثار المبعثرة ، التى نشاهدها فى وادى جيهوشافات Jehoshapat فى القدس . وقمم كبيرة من الآثار لها علاقة بالأضرحة والقبور ، ولا أعتقد أنها كانت منازل بأى حال من الأحوال ؛ وإذا ما أحصيناها جميعا ، فلن تكون مفاجأة لنا ، إذا ما وجدناها قليلة العدد والمؤكد أن المدينة كانت فى الوسط ، وإذا ما أخذنا ذلك القليل بعين اعتبارنا نجد أن هناك بقايا لتلك الأنقاض الحجرية ، وأنقاض أيضا لمبانى شيدت من الطين . والأمر على هذه الشاكلة فى مدائن صالح : فالناس فى المدينتين يشاهدون آثارهم من حولهم . واتخذنا من غرف محفورة فى ذلك الصخر أماكن أمضينا الليل فيها أسفل خزان ، أو

إن شئت فقل : صهريج صغير ، يطلقون عليه اسم عين موسى Mûsa Ayn، وهى الوحيدة ، من بين كل ما رأيته هنا ، التى يمكن أن أدعى أو أزعم أنها كانت منزلا للسكنى .

عاد الرجال فى الصباح ، وبينما واصلنا المسير وحدنا خلال هذا الوادى المنعزل ، كان بعض البدو قد شاهدونا من فوق قمم الصخور البعيدة ، وبالتالى نزلوا ليسببوا لنا بعض المتاعب . استوقف أربعة من الرجال صغار السن البغل الذى كنت أركبه ، مانعين بذلك تقدمنا على الطريق الذى كنا نسير فيه ؛ لم يكن مع هؤلاء الأربعة سوى بندقية واحدة ، كانوا سيوسعونى ضربا ، قال لى سائس البغل إنهم سيجلبون علينا أناسا كثيرين ، ولكنهم يمكن أن يذهبوا لحال سبيلهم إذا ما أعطيناهم مبلغا زهيدا من النقود ، وهنا أعطيتهم مبلغا صغيرا ؛ ومع ذلك لم نستطع التخلص منهم ، فقد رافقونا كما لو كانوا رفاقا لنا أو أصدقاء . لم يكن وقت الظهيرة حارا فى هذا المكان ، والسبب فى ذلك أن ارتفاع الأرض هنا يقدر بحوالى ألفى قدم . وبالقرب من أعالى الوادى عثرنا على بدوى هو وزوجته ومعهما قطيع من الأغنام ، وجلست إلى جوار ذلك الرجل المسكين ، الذى غاب عنا ليجلب لنا مقدارا كبيرا من لبن الماعز . فى هذه المنطقة يوجد وادى جانبى يصعد إلى جبل حور Hor . سألت الرجل ، بعد أن شربنا لبن الماعز ، إذا ما كان لا يمانع فى أن يكون رفيقا لى ، على أن يصحبنى فى حينه إلى أعلا الجبل . أجابنى الرجل : "أنه لا يستطيع ذلك ، حتى ولو كان لديه خمسين رجلا ببنادقهم يصاحبونا أيضا ، وقال أيضا إنه لا يستطيع فعل ذلك مقابل أية مكافأة مهما كان قدرها :" كان القرويون قد منعونى من ذلك فعلا ، وأفهمونى أننى سوف أقتل بطلقاتهم النارية إذا ما أقدمت على ذلك " بالرغم من أنى متعدد الأرواح . ومن هذه المنطقة وبعد مرورنا على الأشياء المتناثرة دخلنا إلى ما يسمونه السِّيك Sîk؛ وهذا السِّيك Sîkعبارة عن ممر بجوار صدع ، أو إن شئت فقل : شق عند أعلى الوادى ، وتنمو فى ذلك الشق أو الصدع أشجار كثيرة من أشجار التين البرى . وبالقرب من مصب الوادى يوجد واحد من أكثر الآثار اكتمالا وسلامة يطلقون عليه اسم خزنة فرعون Khasna Faraâoun ، التى تعد أعمدتها المنحوتة وكذلك كرانيشها ، بمثابة صفوف نقية من

الجمال البللورى الخالى من الشوائب ، والتى تطل عليها أشعة الشمس الذهبية من علٍ ، إضافة إلى أن الطبيعه لونت ذلك الصخر الرملى باللون الوردى بفعل صدأ الحديد . ومن خلال ذلك السِّيك يوجد رصيف قديم يمكن مشاهدته فى مجرى السيل . وفى الأجناب هناك بعض الألواح الحجرية الفريدة والمبهمة . سوف أتناول تلك الألواح فى مرحلة لاحقة وأنا فى مدائن صالح . وعند الطرف العلوى (الموجود حاليا فى الحجر الجيرى توجد بعض الآثار الأخرى هرمية الشكل وكذلك بعض الكهوف الجانبية التى تنتشر هنا وهناك . وفى الأعلى توجد قرية الجى Eljy التى فيها عين كبيرة تسمى عين هارون Harûn Ayn، التى تركناها جانبا وصعدنا من خلال طريق جبلى وعر ، قطعنا فيه عدة أميال لنصل إلى المخيم الصيفى الذى يقيم فيه الشيخ الثانى من شيخى وادى موسى ؛ هذا المخيم يقع على جانب مرتفع من أجناب أحد التلال حيث كانت الريح باردة ، والليالى باردة أيضا ، فى هذا المكان ، أو بالأحرى بالقرب منه ، وعلى مقربة أيضا من أحد العيون توجد أنقاض قرية مربراك Mêrbrak الأثرية . وعندما حللنا ضيوفا على تلك القرية ، استقبلونا ورحبوا بنا فى خيمة الشيخ ، وقدموا لنا وليمة من الزبد الطازج والجبن الطازج ومن اللبن الرايب . ومن باب التسرية عن الغرباء ، قام البعض منهم بالغناء على أنغام الكمان العربى القديم ؛ ولذلك فهم يصنعون لأنفسهم موسيقى مثل داود ، وذلك عن طريق إخراج الصوت من خلال الأنف ، إلى طول معلوم وممل الأمر الذى كان يجلب علينا التثاؤب أو الضحك . واكتشفت هنا أن الغالبية العظمى هناك مصابون بأمراض فى عيونهم ، كما هو الحال فى كل العرب ، واكتشفت أيضا أن تلك الأمراض تلازمهم منذ الطفولة .

عدت فى الصباح لإلقاء نظرة على بقية آثار بيترا وعلى قبر فى منطقة قمم الصخور الغربية لثلاثة أعمدة حائطها الأعلى الأمامى مكسور فيما بين هذه الأعمدة فى الأسفل ، كما شاهدت نقشا كبيرا جميلا وقديما مكونًا من عدة أسطر ؛ قد يكون

ذلك النقش نبطيا(*) . وبعد مسير ساعة من السِّيك Sîk يقال إن هناك نقشا آخرا (فوق "شُبَّاك" منحوت في الصخر) ، في مكان يطلقون عليه اسم صابرة . Sabra هذه البقعة من الأرض عبارة عن حفرة مربعة وغريبة ، وسط موات طبيعي غير إنساني ، وكانت عاصمة للأنباط ؛ والعين ترتد عن ذلك التزاحم الجبلي لقمم الصخر الحديدي ، الذي تعد فيه الآثار الخربة لفن بربري فاخر هي أول ما تطالعه العين . اقتادني القروي ، الذي كان يرافقني ، على طول الساحل إلى الواجهة الأمامية الواسعة لما يسمى الدير : ed-Deir ومن تلك المرتفعات العالية ، شاهدت منظرا رائعا لوادي العرابة شديد الانخفاض ، كما شاهدت أيضا جبل الحجر الرملي صاحب الذكريات الإنجيلية ، ألا وهو جبل حور ، وهو يقف أمامنا مرتفعا شامخا ؛ وشاهدنا من خلفنا الساحل الوعر المرتفع لجبل سعير . Seir ومع غروب الشمس أصبح تجوالنا أمرا مستحيلا ، وهنا سبقني الفلاح : وعندما وصلت إليه وجدته غارقا في الصلاة والدعاء رافعا يديه إلى السماء يدعو الله أن يحمينا من غائلة الخطر الذي يتصورون أنه يحدق دوما بمكان منعزل من هذا القبيل . أسرعنا الخطى خلال الصخور الوعرة ، وشجيرات الدِّفلي ، تلك الشجيرات التي لها زهور بيضاء أو حمراء أو وردية اللون : شاهدت الكثير من حبارى الصقور وهي تطير مذعورة تهفهف بأجنحتها ! شاهدناها تطير أمامنا وتضلل وقع أقدامنا . وجدنا البغلة في المكان الذي سبق أن تركناها فيه ، ألا وهو خزانة فرعون . وبعد أن تجاوزنا السِّيك كان مفروضا لرفيقي أن يأخذني للنوم في منزله في إلجي Eljy . ولكننا عندما اقتربنا من إلجي ، وبعد أن سمع القرويون الذين سبقت لهم معرفة أخبار جولتنا منذ الصباح ، صوت حوافر البغله وهي تصطدم بالصخور ، تناهى إلى مسامعنا صوت ضوضاء مخيفة صادرة عن حلوق غاضبة وتنبعث من كل المنازل "أخرجوا .. أبعدوا عن هنا" ، محاولين بذلك منع أي نصراني من دخول ذلك المكان . يضاف إلى ذلك ، أنهم وسموا رفيقي الذي كان منهم بأنه "أبو نصراني Abu

(*) النقوش النبطية : توجد هذه النقوش النبطية في أماكن كثيرة من العالم القديم ، إلا أن انتشارها الواسع كان في حدود مملكتهم والمناطق التي يصل إليها تجارهم داخل شبه الجزيرة العربية من دمشق والرقيم وصحراء النقب شمالا إلى صحراء سيناء والصحراء الشرقية لمصر غربا ، وإلى العلا وقرية الفاو جنوبا ، وإلى سهول حوران في الشمال الشرقي . (المراجع)

Nasrâny (بمعنى محرض المسيحيين أو معينهم على الشر) ؛ وبعد أن اكتشفوا تلك الصيحة المُرة ، ترددت فيما بينهم بطريقة سافرة توحى بالغضب . وراح المسكين ، الذى كان يرافقنى ، يشد شعره ، ورفع كفيه وراح يصلى تضرعا وأَلمًا طالبًا النجاة من الله : وهنا راح يُسَرِّع من سير البغلة على جانب الجبل البارد ليقترب من هؤلاء الناس ؛ ثم رجعنا إلى الأعلى مرة ثانية لنعود بعد ذلك فى ساعة متأخرة ، أثناء الظلام ، إلى الخيام مرة ثانية . إلى هنا أكون قد تحدثت كثيرا عن آثار بيترا ، حتى يمكننا بعد ذلك ، مقارنة تلك الآثار مع آثار مدائن صالح . كان بعض الأشخاص الثقات قد تحدثوا معى عن آثار أخرى مماثلة ، ولكنها قليلة جداً ، والتى يمكن مشاهدتها فى منطقة البحر الميت فيما بين جبل شراة Sherra وجبل خليل Khalil؛ هذا المكان هو الذى يطلقون عليه اسم مدائن Medain لوط Lût . أبلغنى تاجر مثقف ، كان من بين معارفى ، أن تلك الآثار كانت عبارة عن واجهات بلا نقوش .

تقع معان على بعد مسير خمس ساعات فقط من بيترا ؛ وأثناء عودتى ، فى الطريق إلى هناك ، شاهدت الأنقاض المبنية بالطريقة الجافة (أى بدون ملاط) ، والتى يطلقون عليها اسم جراف Graaf، تلك الآثار التى تجىء فى الأهمية بعد آثار يوذيراح Utherah الواقعة فى أرض عيسو Esau المرتفعة ؛ وعدد الآثار هنا ، كما هو الحال فى موءاب يقدر بحوالى "ثلاثمائة وستين" ، هذا يعنى وجود الكثير من الآثار التى يقولون لها بلغة القوم خرابات Khurbets . أهل هذه المنطقة ، الذين لا يعرفون شيئا عن الآثار التراثية القديمة ، يكررون على مسامع من يلقونه مرات ومرات 'أن المواطنين الأثريين وكذلك البناة الذين جاءوا قبلهم كانوا أصحاب قامات طويلة' . ومعروف أن الكتاب المقدس يعزو الحكمة والفهم لسكان إيدوم Edom، تلك الحكمة هى التى جعلت منازلهم بسيطة جداً ، وخالية من الأشياء غير الضرورية ، استشعارا منهم بأن حياواتهم ملك أيديهم ، شأنهم شأن الأجيال التى جاءت قبلهم ، وأن تلك الحياة قد لا تستمر أو تدوم سوى لحظة . كانت عمون Ammon ، وموءاب وكذلك إيدوم أراضى مجاورة للبدو الرُّحل ، الذين هم أناس من أقاربهم أو من جنسهم ؛ وكان من غير المحتمل أن يضطر أولئك السكان إلى أن يكون لديهم طموح أكبر من طموح البدو الرحل فيما يتعلق ببناء

منازلهم . ويشهد أحد المزامير على أن بعضا من سكان موءاب وإيدوم كانوا من سكان الخيام . وإيدوم في سفر إشعيا هي أرض أوز Uz .

معروف أن إيدوم Edom وجيشورن Jeshurun بينهما تنافس شديد ، ومعروف أيضا مدى قسوة الأسلحة العبرانية في تلك البلاد . وعندما كان داود ملكا على هذه البلاد ، أقبل جوءاب Joab ولد أخته على قتل اثني عشر ألفا من أهل إيدوم في قرية غور ، كما أقبل آبشاى Abishai شقيق جوءاب على قتل ثمانية عشر ألفا من هؤلاء السكان ، هذا إن كانت هذه الأرقام السامية صحيحة ؛ يجب ألا يغيب عن بالنا ، أن كلا من إيدوم وموءاب وكذلك عمون ، كانت دولا إذا ما قارناها ببلداننا الصغيرة . مضى سيف جوءاب في كل أنحاء إيدوم طوال ستة أشهر ، إلى أن أنهى على حياة كل الذكور في عيسو ، ومن المحتمل أيضا أن يكون قد تأكد من الإجهاز على دويج Doeg خصم الملك ، وضحك الأتقياء حتى استلقوا على قفاهم ، من تلك المصيبة التي نزلت بذلك الرجل ؛ ولكن الجميع كانوا يعارضون كلام موسى "لن نستطيع تخويف أو ترويع الإيدومي لأنه شقيقك ." أرسل داود حاميات إلى كل أنحاء إيدوم : وفي الأجيال التي جاءت بعده من أهله ، نجد أن أمزياح Amaziah قتل من الإيدوميين الآلاف العشرة الذين يخصونه ، وفي قرية الغور نفسها ؛ يضاف إلى ذلك أن الجبل الإيدومي بسواحله العالية ربما كان صعبا عليهم . أما الآلاف العشر الأخرى ، الذين أسرهم أمزياح فقد أحضرهم إلى قمة الصخرة (التي شاهدناها بالقرب من الشوبك ، ويا لعمق هذا المكان السحيق المخيف فوق قرية الغور) ، وجعل منهم بهلوانات للملك ، بأن ألقى بهم على الفور ليسقطهم في تلك الهوة السحيقة على الصخور الحادة ، مما أسفر عن تقطيعهم إربا . وفي الكتاب العبرى المقدس نسمع صوت ابنة من إيدوم وهي تعبر عن كراهيتها للمدينة الدامية ، صائحة تقول : "أنزلوا كل ذلك ، أنزلوا كل ذلك ، أنزلوه إلى الأرض ." إنهم يهللون لتدمير يهوذا وإسرائيل ، ومن الطبيعي أنهم يرغبون حاليا أيضا في الحصول على الأراضي الجرداء المجاورة ، لتكون إرثا لهم هم أنفسهم . وهذا هو "جدال صهيون" ، الذي يؤلم أنبياء العبرانيين إيلاما يشبه آلام المخاض عند المرأة . 'على أرض عيسو Esau الرب غاضب إلى الأبد : كلمته التي تسبح في السماء سوف

تضرب بقوة وعنف على الناس الذين أصابتهم لعنته ، وسوف تنزل أيضا على إيدوم(*) وسوف تغرق الأرض فى الدم . يوم ثأر الرب ، تعويضه عن جدل صهيون : سوف يمد على إيدوم خيط الإرباك والفوضى كما سيمد عليها أيضا خيط الخواء والفراغ ؛ وسوف تنمو فيها الأشواك ، وأشوال الجمال ، وأبخرة النبات Aettles، وسوف تكثر فيها الوحوش الكاسرة ، والتنين ، والبوم والمخلوقات الأسطورية التى نصفها العلوى إنسان ونصفها السفلى حيوان ، وكذلك غربان الليل ، كل ذلك سيعيش فى ذلك المكان . أنا ضدك ، سوف أجعل جبل سعير أكثر قحولة وأكثر خرابا ، والسبب فى ذلك أن كراهيتك مستمرة كما أنك سفكت دم إسرائيل ، فى زمن الكارثة . سوف أملأ جبالك بالقتلى ، وأجعلك خربًا وقفرا دائمًا لأنك قلت إن بلديهما سيكونا ملكى . ولأنك فرحت بإرث إسرائيل فى أن تكون خرابا يبابا : ولأن إيدوم اتبع أخيه بالسيف واستبعد كل الرحمة وأبقى على غضبه إلى الأبد . ملاشى Malachi يتحدث عن الأرض كما لو كانت خرابا بالفعل ، "أحببت يعقوب وكرهت عيسو . فى حين يقول إيدوم : سوف نعود لنبنى الأماكن الخراب الجرداء ، والرب يقول : إنها سوف تبنى ، ولكنى سوف ألقى (ذلك) أرضا ." ونقرأ عند اثنين من الأنبياء لازمة قوية عن اجتثاث عيسو بحيث لا يتبقى منها شيئ . "إذا جاءك اللصوص أثناء الليل ، هل يعنى ذلك أنهم لم يسرقوا ولكن إلا بعد أن يكون لديهم الكثير والكثير ؟ إذا جاءك قاطفو الأعناب ألن يتركوا شيئا من فضلاتها ؟" وهذا العم ، كان يشعر بالمرارة عندما قال : "عندما تفرح الدنيا كلها ، سأجعلك أنت خرابا يبابا ."

(*) إيدوم : ورد اسم إيدوم فى العهد القديم ، وعرفها الإغريق باسم إيدومة . وإيدوم كانت موطن سلالة عيسو – أخو يعقوب عليه السلام – حاصرها بومبى وتراجان دون طائل ، ثم غدت مدينة ميتة . وتحققت لعنة الأنبياء التى صبوها على إيدوم المتكبرة كما جاء ذلك فى العهد القديم :

هكذا تكلم الرب يهوه
حين ترتعش الأرض كلها
سزجعلك يبابا
ستكتسح يا جبل سعير
وكذلك إيدومى كلها
" أرمياس وعيدياس وحزقيال ١٥-٣٥ " . (المراجع)

قضى الحجاج اليوم التالى كله فى الراحة داخل مخيمهم . ويتعين علىَّ هنا ، عند هذا الحد أن أتكلم باختصـار عن الطـريق من هذه المنطقـة فى إيـدوم إلى عيـلة Ayla، (بالقرب من إزيون Ezion جابر Gaber) : فى نفس هـذه المنطقة ، طبقا لموروثات الحج وتقاليده ، يوجد الممر القديم ، الذى يمتد فى اتجاه جنوب طريق الحج الكبير ، الذى يدخل (عند رأس خليج العقبة) (*) ليلتقى بالمسار المصرى المؤدى إلى المدينتين المقدستين . هذا الخليج هو عبارة عن وادى غارق من منخفض عرابة الأرضى الكبير . ونظرا لأننا سوف نتجه من العقبة صاعدين إلى إيدوم ، فإن طريقنا سوف يمر على امتداد عدة أميال خلال وادى العرابة الوسيع المفتوح ؛ ثم يدخل عن طريق وادى جانبى إلى ساحل جبال الجرانيت ، التى تعلوها حفر بركانية يصل ارتفاعها إلى مئات الأقدام كما هـو الحال فى سيناء . وهذا هو وادى لثم Lithm، تحيط به ضفاف قوية من تربة الفيضـان القديمة . فى مصب ذلك الوادى هنـاك أنقاض سد قديم ، مبنى من الحجر الجيرى الغشيم المثبت بالملاط . وبعد مسير إثنى عشر ميل نرى من فوقنا أعلى تلك الجبال الجرانيتية ألا وهو جبل بكر Jebel Bakr الجرانيتى ، وعنده مررنا على حجر عليه نقش نبطى : والعرب كلمونى وحكوا لى عن تمثال لشخص كان فى هذه المنطقة ، وقالوا إن ذلك التمثال كان لرأس إنسان أو هيكل إنسـان . وعلى بعد ثلاثين ميلا من العقبة وصلنا إلى أرض مرتفعة تسر الخاطر ، وجدنا فيها أرضا زراعية فى الصحراء ، تزينها خضرة نباتات القمح الذى كان يتغذى من ماء المطر فقط ؛ وقد دهشت عندما سمعت أن الزراعة كانت للحويطات الأُلُّوين Allowîn . رجال الصحراء هؤلاء تغلب عليهم الحياة المدنية ، فضلا عن كونهم أرباب أطيان مثل عيسو Esau . رأيت بعضا آخر من قبيلة الحويطات يعيشون فى خيام ، يسمعون حفيف رمال الصحراء بالقرب من غزة Gaza؛ ومحراث هذه الفئة من الحويطات عبارة عن وتد مدبب له سن من الحديد ، ويجره جمل واحد . والمزارع العربى يمكن أن يعلق شجرة المحراث على كتفه ، ويركب دابة العمل ، وهو يغنى ، ويجىء ويروح حسب اتجاه المحراث . حدث بعد ذلك شجار بين أقارب الحويطات على تلك المناطق الزراعية من الصحراء ؛ وهرب القسم

الضعيف من هؤلاء القبليين ، (فى المرة السابقة عندما كنت فى معان) إلى أقربائهم فى جبل شراة ، الذين وزعوا عليهم ، بحكم الإنسانية القديمة التى تسود الصحراء ، بعضا من مواشيهم . وكلام الحويطات ينم عن الزراعة والفلاحة ، وينسحب ذلك أيضاً على كلام الحويطات الذين يعيشون فى أقاصى الجزيرة العربية . كل هذه البلاد الوسيعة النبيلة مازالت جرداء وقاحلة ، ولا تزرع بالقمح . ومع طلوع نهار اليوم التالى مررنا على حوض ماء مدمر وقناة لنقل الماء ، وذلك عند سفح جبل Jebel شافى Shâfy، الذى تتكون قمته من نفس الأحجار الرملية المعرَّقة ببعض الخطوط فى منطقة بيترا .

هنا ، فى منطقة الحدود الجرانيتية ، توجد بداية بلاد (قرية) الحِسمة el- Hisma أو Hessma، التى تمتد إلى مسافة بعيدة داخل الجزيرة العربية . فى هذا المكان نجد أن بعضا من البدو الذين كانوا يزرعون الشعير بالأمس ، قد أقاموا لهم مخيما فى هذا المكان : وشيخ هؤلاء البدو هو ابن جاد Jad Ibn، الذى نحن فى حضرته حاليا ، وهو سيد هذا القسم من الريف . هذا الأسد العجوز الكريم (ولكنهم يقولون ، أنه عدو غير كريم) تقدم وهو يلبس بشته (عباءته) للقائنا ، وبتحية ودية اقتادنى من يدى إلى ظل إحدى الخيام البدوية . هذا الشيخ هو وأتباعه يعيشون فى حوالى ٣٠ خيمة منصوبة على شكل بيضاوى ، الذى يميز أسلوب هؤلاء البدو فى هذا الجزء من البلاد . وحكى لى ابن جاد Jad Ibn عن تقسيم المياه ، إلى كل من البحر الأحمر والبحر الميت ، وأن ذلك التقسيم يقع على بعد مسير "ساعة واحدة" من هذا المكان فى اتجاه الشمال . أحسسنا بحرارة ظهيرة فصل الربيع فى هذا المكان . ولم يبلغنى أن الشيخ العجوز كان قد ذبح شاة لضيوفه ؛ وجاء كل رجال المخيم وتجمعوا لتناول وجبة الضيافة بعد العصر ، معنا ؛ فى هذه المناسبة قام رجلان بإحضار عشاء طيب ، طبقا لأصول الكرم البدوى . كان الطبق الخشبى الكبير يحمل كومة لحم الشاة المسلوق مع كمية كبيرة من الخبز الحار الذى جاء لتوه من فرن ، أو إن شئت فقل : تنور ربة البيت . كل هؤلاء القبليين ينعمون بوفرة المخبوزات بحكم اشتغالهم بزراعة الحبوب ؛ فضلا عن أنهم لا يعرفون الجوع . وإذا ما نظرنا إلى ذلك الشال الذى يلفه بدو الحويطات حول رءوسهم ،

وإلى أجسامهم التى تشبه أجسام الفلاحين ، أجدنى لم أر قط نظيرا لتلك الأخوَّة التى بين هؤلاء الخصَّافين ، الذين تشبه أنوفهم أكواز الذرة ولهم وجوه متلبدة . وهنا بدأ ابن جاد تقطيع قطع من اللحم ، ووضع كل واحدة منها فى خُبْزَة ونادى اسم شخص محدد ثم أعطاه رغيفا من تلك الأرغفة المحشوة باللحم ؛ كان العدد كبيرا جدًا ، مما حال دون جلوس الجميع حول ذلك الطبق الخشبى . والحسمه Hisma هنا عبارة عن أرض مرتفعة من الجبال على شكل مربع ، ويرتفع سطح الحسمة عن سطح السهل بحوالى مائتى قدم ، ويحتمل أن يصل ارتفاع قمم الجبال عن مستوى سطح البحر بحوالى ستة آلاف قدم . كان المساء قد حل عندما غادرنا مخيم ابن Ibn جاد Jad وبعد تمضية ساعتين فى الظلام ، اكتشفنا مخيما آخرا من مخيمات البدو أقيم تحت جبل من الحجر الرملى ، وقد أظهرت لنا (الأضواء الكثيرة الصادرة عن المخيم) خيالات لأناس يتحركون وماشية تتحرك أيضا . تلك كانت خيام السَّيدين Saidîn من الحويطات ، أو إن شئت فقل : أعراب الغور ، الذين يجيئون إلى هذه المنطقة لجودة المرعى فى فصل الربيع فى أراضى قريبهم ابن جاد المرتفعة . كان العرى كثيرا بين هؤلاء الأعراب ولكنهم لم يصيبوا سوى رفات قليل . وبعد أن ركبنا إبلنا واصلنا المسير فى تلك الليلة ؛ وعندما طلع النهار شاهدت ساحلا من أمامى ، هذا الساحل ، يمثل فى هذه المنطقة حافة جبل شراة . تربة الحجر الرملى التى تحت أقدامنا عامرة بصدأ الحديد ، ويمكن للبسطاء من الناس مقارنة حمرة هذه التربة بحمرة الدم ، الذى هو اسم لهذه الأرض (إيدوم) Edom .

من هذا المكان نصعد من منطقة الحجر الرملى الأحمر ، إلى الجانب الوعر من جبل شراة ، هذا الجانب من الجبل مكون من الحجر الجيرى الطينى المعرَّق بعروق من الصوَّان المعروف والمَجدْول . وبعد مسير ساعة أو ساعتين فوق ذلك الجانب من الجبل توجد بعض الخرائب والأنقاض الواسعة والعريضة ، يطلقون عليها اسم البِّطيرة el-Bettera وتقع داخل وادى واسع ومفتوح تعرقل السير فى جدران مخربة مبنية بطريقة البناء الجاف ، أى بدون استعمال الملاط . الجدار الأول ومعه بعض الأعمدة كان يقع فوق أرض مرتفعة . وخلف تلك الجدران فى الصحراء ، شاهدنا أكواما من الحجارة ، جرى جمعها من هذه الأفدنة التى كانت مثمرة فى يوم من الأيام ، بأيدى

المزارعين القدامى . والسبب فى ذلك أن هذه الأراضى كانت مزارع للكروم وحقول لإنتاج القمح ، ولكن "الأرض تحتفظ حاليا بعطالتها ." - من هذه التربة الجرداء القاحلة طارت القبرة السورية وهى تهفهف بجناحيها وتغنى فى اتجاه الشمس ؛ وترتفع قليلا ثم تنزل ثانية ، ولكن صوتها ليس له عذوبة أو حلاوة أصوات الطيور المغردة ، كما أن قوة طيران هذه القبرة السورية ليست فى مثل قوة الطائر الشقيق فى أوروبا . كانت هناك نسمة خفيفة فى تلك الأرض الجرداء القاحلة ؛ وكنا على بعد أميال قليلة من مَعَان . عندئذ رأيت منظرا طبيعيا يبعث على الحزن والأسف ، هذه هى بداية أرض الصوان على هذا الجانب ؛ والصوان فى هذه المنطقة مبعثر هنا وهناك (منذ الأزل) ، ومعرض لضوء الشمس والرياح ، ويمتد من الشمال إلى الجنوب مسافة حوالى خمسين ميلا ، ومن شرقى معان يستغرق السير فوق أرض الصوان حوالى يوم ونصف اليوم ، هذا يعنى أن مساحة هذه الأرض تقدر بحوالى ٢٥٠٠ ميل مربع ؛ نزلنا عن إبلنا عند أول تجويف أرضى كى ننال قسطا من الراحة إلى أن يرخى الليل سدوله علينا ؛ رفيقاى ، المصرى والبدوى لم يجرءا على اجتياز منظر طبيعى بمثل هذا الحجم ، فى ضوء الشمس أو إن شئت فقل : فى وضح النهار ، تجنبا لمخاطر احتكاك الخيالة البدو بنا . ورحلنا عن المكان عند الفجر . كان البرد شديدا أثناء الليل ونحن نسير عبر هذه الأراضى الخراب الجرداء المرتفعة : وعند منتصف الليل وصلنا قرية معان . خيم السكون على المكان كله أثناء الليل ، وواصلنا مسيرنا ونحن راكبين دوابنا على الطريق المذمر المفتوح ، لنصل إلى البوابة الداخلية ونتجاوزها نظراً لأنها كانت مفتوحة هى الأخرى ، لنصل بعد ذلك إلى السوق ، وشاهدنا فى السوق ماصات من الطين وفرشنا سجادنا من فوقها لنجلس فى الشارع . ومعروف أن العرب يشغلون أنفسهم باللصوص ويخشونهم فى الأماكن الغريبة عليهم ؛ ومن عادة العرب أن يربطوا حقائبهم قبل أن يناموا ، ويضعون الأشياء الصغيرة تحت رءوسهم . ونظرا لفرحنا وسعادتنا بالراحة التى حصلنا عليها فقد رحنا فى ثبات عميق ، نظرا لأننا لم نغمض جفوننا طلبا للنوم على امتداد ثلاثة أيام وليلتين ظللنا خلالها راكبين دوابنا . وهنا سمعنا صوتا متعاطفا معنا وهو يحيينا كما حيانا صوت آخر ونحن نخرج من المدخل المظلم ؛ وهنا ، نهض رفيقاى اللذين بلغا من الإعياء حداً حال بينهما وبين النوم ، وسألا وأجابا

قائلين : "أنت ولد ولاً بنت ؟" - لم يكن هناك أحد يرد على سؤالهما فقالا : "إنه عفريت ، بالله ." ولم يمض وقت طويل قبل أن أسمع ذلك الشيخ بالقرب من رأس السرير الذى أنام عليه ؛ وجلست معتدلا لأرى شكلا قذرا وهو يتسلل وتمتم بأشياء لا أعرف كنهها ؛ وعندما هددت ذلك الشيخ مرَّ من خلال مدخل مجاور ، وبدا وكأنه يقفل الترباس ، ولم أستطع تبين ذلك الباب بعد طلوع الفجر . ظننت أن ذلك ربما كان صبيا مجنونا أو امرأة ساقطة لعوب كانت تتسكع أثناء الليل ؛ وهذا يُرى فى الأماكن العربية .

عندما كانت قافلة الحج فى معان ، كنت أعيش فى خوف وفزع ، فقد عرفت أن باشا الحج كان قد أرسل فى طلبى ، فقد جرى إحضار الأجا الفارسى للمثول أمام المجلس ، ولكنه لعب دور التاجر ولم يستطع المجلس الخروج منه بأى شىء . وغمرتنى السعادة عندما سمعت فى اليوم الثانى صوت دانة المدفع إيذانا باستئناف المسير ؛ كانت الساعة الثامنة صباحا عندما استأنفنا المسير ثانية . والمعروف ، كما يتردد هنا ، أن الفرس يسيرون فى مؤخرة القافلة ؛ أما نحن فكنا آخر من تحرك من المنطقة التى خيمنا فيها بعد أن نزلنا من على ظهور دوابنا . (كانت تلك هى الوقفة التاسعة منذ أن غادرنا مزيريب) وقد عرفت ذلك عندما كنت أقرأ البارومتر المعدنى خلسه ، ولم أستطع إدراك الطريقة التى أوصلتنا إلى هنا . ونحن راكبين على دوابنا ، إلى هذه المجموعة من الناس ، الذين وقفوا يراقبونا : هذه المجموعة كانت من معارفى القدامى وهم النقيب الكردى Kurdy، وهو من أهل المكان وله لحية حمراء ، وبجانبه محمود السكرتير . والأرجح أنهما ربما جاءا ومعهما أوامر ، للبحث عنى . وتأملت الأمر ، وراودنى إحساس ، بأنهما قد لاحظانى ، ولكنى تمالكت نفسى ولم أهتز ، بل إنى لم ألق لهما بالا ، بل واقتربت منهما بلا تخوف . ولم يستطيعا التعرف علىّ بسهولة فى هذه المرة ، اعتبرانى واحدا من بين أفراد هذا الحشد الكبير ، يركب دابة ضعيفة وعلى مرأى ومسمع من الجميع ، ظنُّونى واحدا يرتدى - أو متنكرا فى - ملابسهم ، ولم يكن معى أو حولى أى شىء آخر سوى بضائعهم وملابسهم .

سمعت عن مدائن صالح فى زيارتى السابقة ؛ هذه المدائن التى ذكر لى القرويون أشياء عجيبة عنها عندما كنت فى وادى موسى ، على افتراض أننى وصلت إلى هناك عن طريق الحج قادما من الجنوب . قالوا لى إن هذه "المدائن" خمسة ، وهى محفورة

فى الصخر . وسمعت من محمود السكرتير ، وهو شخص ليس بأمى ، والذى زار تلك المدائن فى كثير من الأحيان ، سمعت منه عن النقوش وصور الطيور الموجودة على الواجهات الأمامية ؛ وبهذه الكلمات أصبح محمود أبا لأسفارى وترحالى المؤلم فى الجزيرة العربية . وعندما عرفت أن مدائن صالح لا تبتعد عن هنا أكثر من عشر وقفات ، بدأت أبحث عن وسيله تنقلنى إلى هناك ؛ ولكن رئيس المحطة أحبطنى ، بزعم الخطر - وأنه قد يوجه إليه اللوم إذا ما أصاب مكروه أجنبيا - الذى يترتب على السير فى طريق طويل فى أراضى البدو . كما منع أيضا كل الخاضعين للدولة (الإمبراطورية) من محاولة نقلى أو توصيلى إلى مدائن صالح . سمعت الكثير أيضا عن هذه المدائن من جنود معان ، الذين عادوا مؤخرا من حملة جرى تجريدها على قرية الجوف Jauf(*)، سمعت منهم عن أمير عظيم أطلقوا عليه اسم ابن الرشيد ، سلطان ، أو سيد ، مستنقعات البدو ، وحوالى "ستين" قرية من قرى التمر تقع فى الداخل وفى اتجاه الشرق . فى معان ، وفى ظل المناخ السائد فى الجوف ، لا يوجد سوى قلة قليلة من جذوع النخيل التى لا فائدة لها سوى تزيين القرية الطينية . والنبات قد لا ينمو عند هذا المستوى من الارتفاع ؛ ومع ذلك نجد الأرض هى والماء هنا يتمتعان بالحلاوة والعذوبة - يضاف إلى ذلك أن الوقفات العشر من هنا إلى دمشق يمكن أن يقطعها الجمَّالة الذين ينقلون البريد ، (دون مِقْودْ) ، فى ثلاثة أيام ونصف اليوم .

بينما كنا نواصل مسيرنا كانت ظاهرة السراب تتجلى فوق حجر الصوَّان المضىء بالرغم من أن اسوداده يماثل اسوداد الفحم ، كانت هذه الظاهرة أمامنا على الأرض التى يكسوها حصى الصوَّان ، والتى كانت تفوح منها رائحة الدفء فى شمس الغابة الجنوبية . هذه التربة التى يشيع فيها عنصر الحديد ، ليس فيها أى أثر من آثار الأقدام . وهذه القلة القليلة من السيول ، كما هو الحال فى معان ، تصرف مياهها خلال وقت قصير فى السهل الصحراوى ، الذى يتجه ، حسب ملاحظتى ، على شكل

(*) قرية الجوف : تقع هذه القرية فى وسط دائرة من الجبال الصغيرة الكلسية ، ويفتخر سكانها بتسميتها " جوف الدنيا " لأنها تقع على بعد متساو من مختلف تخوم الجزء الشمالى من الجزيرة العربية وجنوبيها . وقد امتد نفوذ آل رشيد إليها . (المراجع)

رف فى اتجاه الشرق إلى خط طول معان . عالية هى أصوات باعة النار الفقراء الذين يقفون على جانبى الطريق ، وذلك بأن يضعوا فحمة مشتعلة فوق حجر شيشة رجل غنى ؛ الله موجود ، وحبيبك النبى ! وبعد ثمانى ساعات وصلنا إلى مخيمنا ، الذى كان جاهزا ينتظرنا فى السهل ، ذلك المكان الذى يطلقون عليه اسم غدير Ghar-adîr أم عياش Umm - Ayash وهذا اسم يطلقونه على كل موقع من مواقع الصحراء .

وهنا يتعين على أن أقول شيئا عن مناطق التخييم الموسوية ؛ أسماء هذه الأماكن قد لا نجدها بعد ذلك فى هذه البلاد – وما هو سبب ذلك ؟ السبب هو أن هذه الأسماء كانت أسماء لمسافرين ، وأن هؤلاء المسافرين فى غياب حق ملكيتهم للأرض لا يستطيعون البقاء فى الصحراء ، وهذه الأسماء موجودة فى غرفة أسماء الرعاة القدامى . هناك نوع آخر من الأسماء ، ليست أسماء لأجزاء من هذه البلاد ، كما أنها ليست معروفة للبدو ، وهى بدورها أسماء لبعض الناس الذين شاركوا فى القوافل . أفراد القافلة كانوا يمرون بسرعة ، تخوفا من البدو الرحل ، ولم يكونوا على معرفة بتلك الأرض اليباب الواسعة دون أن تكون هناك علامات أرضية ؛ يضاف إلى ذلك أن أفراد القوافل لم يكونوا يعرفون الأسماء الأرضية معرفة دقيقة . إذن ، فما هو العجب إذا لم نجد بعض أسماء أفراد القوافل فى البيانات التفصيلية لخطوط سير الرحلات ! (*)

الفصل الثالث

رحلة الحج فى الجزيرة العربية

إحتشاد الغزلان . جبين بلاد العرب . بطن الغول . درويش يصاب بالإعياء والإغماء . "شهداء" الحج . الغورال أو غول الصحراء . إيرام . بدو بنى عطية الرُّحل أو المعازى . "رزمة نقود العذراء " فن الترحال . صحراء بلاد العرب . قبطان الحج . الجمال تصاب بالإعياء . إشارات صاروخية فى الليل . سطح الصحراء . حروب المروج . حلّة عمار . ذلك الحج . "البقرة البرية" . بدو الشرارات الرحل (بدو المُكليب) . الحجاج الفُرس . الفارسيات فى الحج . يجوز للحجاج ركوب عربات الشحن . تعليم فضلات البغال بصليب يونانى . مقارنة الحج "بحج آلاف الإسرائيليين" . المحمل . الحجاج على اختلاف عناصرهم . خدمة المشاة . الاسْوَد . المُعتَرون . مذبحة المسيحيين فى دمشق . خطاب المبتدئين . إبل الحج . تخت الروم . نقل الفرس المحتضرين فى كروسات الجمال . حج المريضة . تناقضات الطريق . المؤذنون من فوق ظهور الجمال . الحجاج الفرس ، وحرقهم فى المدينة ، لتدنيسهم قبر الرسول . لص القافلة . السكرتير الإمبراطورى . الباشا . كلاب الحج من سوريا . ديك فى الحج . اقتفاء أثر أرانب الصحراء البرية . الثُّب . الكا . مسيرة الليل إلى تبوك . القرية القديمة . جبل الوعظ . القروين . صرّاف الرواتب لدى الباشا . قصة حياته . لعبة الطريق . الحُرة .

محطة الأخضر . السويفلى . زيارة القلعة . "حديقة القاضى" . وادى السانى . "الدُّب" . محطة مؤدَّم . ندرة الماء . شجرة الصمغ العربى . محطة الدار الحمرة . عام الكوليرا فى الحج . عودة رجل من القبر إلى دمشق . أبو طاقة . مبرك الناقة . الجمل المعجزة . صيحة بين الحجيج .

بعد منتصف الليل بثلاث ساعات ونصف الساعة غادرت قافلة الحج هذه المحطة :- ومن الآن فصاعداً تبدأ رحلات الحج العظيمة داخل الجزيرة العربية . وقبل طلوع النهار بفترة قصيرة إنطلقت من المقدمة دانة المدفع لتتوقف القافلة ، مدة نصف ساعة تناول خلالها عظماء رجال القافلة القهوة . وبعد مسير ساعتين ، يوجد فوق العقبة أمامنا موقع يطلقون عليه اسم خان الزبيب **ez-Zebîb Khân**؛ كان محمد سعيد باشا ، فى عودته الأخيرة من الحج ، يركب فرسة فى مقدمة القافلة ، (كان ذلك مع بداية فصل الربيع فى الجزيرة العربية) ، وباغت قطيعا كبيرا من الغزلان وقتل بطلقات مسدسه عدداً كبيراً من الغزلان ، الأمر الذى أدى إلى تقديم لحم الغزلان فى تلك الليلة على موائد كبار ضباط الحج فى الأماكن المخصصة لهم . وعند الظهيرة كنا قد وصلنا إلى منصة مرتفعة من الحجر الجيرى هى منصة جبل شراة **Sherra**، أو مشارف الشام **es-Shem Masharîf** الخاصة بأهل الكتاب الإسلاميين ، أو إن شئت فقل "جبهة سوريا أو الشمال" . وفى أسفل هذه المنصة توجد الجزيرة العربية ، أو إن شئت فقل : بلاد الأعراب **Béled el-Aarab** : - ولكن هذه المفارقات لا يعرفها السكان البدو .

يقع طريق الحج النازل فى أرض مجوفة ، كما لو كانت هذه الأرض وادى يمتد على جانب تل من تلال ، مكون من رفوف حادة من ألواح الصوَّان والحجر الجيرى . نحن هنا على وشك النزول إلى منطقة من الأحجار الرملية ،- التى تتكون منها الغالبية العظمى من رمال الجزيرة العربية . وأنا أرى عن يسارنا هنا انقاض قلعة وصهريج أو خزان مياه . وهاهو طابور القافلة يقترب من مدخل المضيق الضيق ، وها نحن قد تأخرنا مدة ثلاثين دقيقة فى المؤخرة . وأفراد القافلة يطلقون على هذا المكان إسم عقبة **Akaba** أى "مطلع" ؛ وهذا "المطلع" أو العقبة هو ما يطلقون عليه اسم الشامية **Shemiya**

السورية أو شامية الشمال . كنا فى هذه المنطقة على ارتفاع ٤١٣٥ قدم . وعلى صخرة حتمت أن يكون نزولنا على شكل خط مستقيم ، كان يجلس تحت مظلة بيضاء ، باشا الحج بنفسه ومعه كبار الضباط : وبسبب ذلك أننا التقينا للمرة الثانية هنا فى اليوم الرابع والعشرين من شهر نوفمبر أشعه الشمس الممتعه إذ كان فصل الصيف لم ينته بعد . صفوف وطوابير القافلة مفككة جداً وطويلة بسبب نزولنا المنحدر ، الذى تحيط به الصخور ، إلى حد ما ، من فوقه . ونظرا لتعذر مرور الإبل هنا على شكل ثنائيات فى آن واحد ، فذلك يتيح للباشا فى وقت فراغه ، اصطفاف الحجاج وهم يمرون من أمامه ببطئ ، وهاهم الحجاج قد نزلوا من الصناديق المحملة على الإبل وراحوا كلهم يسيرون على أقدامهم . ومن سوء حظ ناقتى الجديدة ، التى كنت قد اشتريتها من البدو فى معان ، ولم تتعود بعد على هذه المسيرة ، أن قطعت "حكمتها" (لجامها) عندما كانت على مقربة تماما من قدمى الباشا ، الأمر الذى أحدث شيئا من الفوضى والاضطراب ، وحتم على أن أسارع إلى استعادة الأمور إلى ما كانت عليه من قبل . ولكنى كنت على ثقة ، بالرغم من رؤية الباشا لى وأنا أرتدى الملابس العربية فى دمشق ، بأنه لن يستطيع التعرف علىّ . والعقبة طويلة ، ولكنها أقل صعوبة من بعد المكان الذى يجلس عليه الباشا . والبدو يطلقون على ذلك "المنحدر" بطن الغول Batn el-Ghrôl أو قد يسمونه "المكان الخانق" Skangling - Place، وهو ما يقولون له بلغة القوم : "فن يغرُلُّون الزلامى Fen yughurullûnez-zillamy؛ هذا المنحدر عبارة عن منخفض قاحل بين هذه الأنقاض ذات اللون البنى الضارب إلى الحمرة فى جبال الحجر الرملى الجافة ، ويخيم عليه صمت أبدى ، ولا نرى فيه أى مؤشر من مؤشرات الحياة . والعقبة ليست شديدة الإنحدار ، هذا هو ما اكتشفته فى النهاية ، فى المنطقة التى عاد الحجاج عندها إلى ركوب دوابهم ، إذ بلغت المسافة التى قطعناها خلال العقبة إلى ما يقرب من ٢٥٠ قدم . كان طول القافلة فى هذه المنطقة يقرب من حوالى ساعة واحدة ، ولم تقع أية حوادث أثناء نزول ذلك المنحدر . والإبل ، فى مثل هذا المُنَزلْ ، وبسبب صعوبة استعمالها لأطرافها الأمامية ، تصبح بطيئة جداً ؛ هذه الحيوانات الغبية ، إذا لم تكن راغبة فى الحركة فهى تترك لنفسها العنان وتنزل بثقلها ، مما يضر بمفاصلها مع كل خطوة تخطوها على ذلك المنحدر . هذه الأحجار الرملية المربعة والطاردة تشبه جبال الحجر الرملى الجرداء القاحلة الموجودة حول شرم Sherm(الشيخ) فى سيناء .

في الأسفل ، نحن نقف على قاع من الرمل ، وعن اليمين وعن الشمال سور من الحجر الرملي ، والممر الطويل المفتوح بين هذين السورين ينزل هابطا على شكل وادي من أمامنا . وعن الشمال ، هذه هي الصخور الوعرة في الأعلى وقد اكتست بطبقة من الحجر الرسوبي الذي يميل لونه إلى الاسوداد ، والذي تساقط البعض منه ليستقر عند السفح ، حيث أكوام الحصى التي تلمع في ضوء الشمس ، وصُقِلت بفعل رمال الصحراء المتحركة . هذه هي حافة حقل صغير من حقول الحمم البركانية ، أو إن شئت فقل حَرَّة(*) : وقد سبق لي أن رأيت أيضا بعض صخور البازلت التي انبعثت من البراكين في مَنْزَلْ العقبة . وبعد ثلاثة أميال ينسلخ الطريق عن الجبال المستقيمة ، وهنا نجد أنفسنا نسير في سهل رملي كبير يطلقون عليه اسم دبيبة الشام **Debibat es-Shem** أو إن شئت فقل : أرض الجدَّار **Jiddar Ard**؛ ورمل هذا السهل من النوع الثقيل الذي يصعب التعامل معه لأنه يفلت من خلال الأصابع ، وعلى بعد أميال قليلة من الطريق الذي عن يميننا ، هاهي سلسلة جبال حسمة **Hisma** القاحلة التي تتراءى لنا على شكل سلسلة من الجبال الجرداء التي تشبه السحاب .

شاهدت رجلا ساقطا في الرمل نصفه جالس على الأرض والنصف الثاني يتكئ على يديه . هذا متسول متدين ، أو إن شئت فقل : درويش بائس يرتدي عباءة الشحاذ أو ملابس الشحاذة إن صح التعبير ، راح يتأوه بصوت عال ، وهو يمد يديه كما لو كانتا مخالب نسر من النسور ، على أمل أن يتصيد بها إحسان المحسنين . وباعتباري آخر من يسير في ذلك الطابور الطويل فقد مررت عليه بدوري . حقيبة سندات الشحاذة المملوءة بكسر الخبز ، سقطت أو انفلتت من عنقة وقد تناثر كل ما فيها أمام ذلك الدرويش . كان ذلك البائس يعبر عن حزنه وألمه أمام طوابير الحجاج المتجهة إلى مكة ، والذي لا شك فيه أن أعداداً كبيرة من هؤلاء الحجاج مرت بذلك الشحاذ ، ومن الطبيعي وهم يمرون عليه ، أن يتمنوا ألا يصيروا إلى ما صار إليه ذلك الدرويش . ويندفع بعض

(*) حرة : الحرة - وجمعها حرات أو حرار - هي أثر من آثار ماتخرجه البراكين من جوف الصحراء . وهي غالبا ما تكون مستديرة الشكل . والحرار كثيرة في الجزيرة العربية حيث تبدأ من سهل حوران وتمتد متناثرة حتى المدينة المنورة . (المراجع)

المحسنين الذين يعملون فى خدمة الحجاج ، أو إن شئت فقل : بعض الدمشقيين ، نحو ذلك الشحاذ ويقفون إلى جانبه ليسمعوا ما يقول ؛ تنهد الدرويش منتحبا وهو يقول : أنا ميت . وهنا تقدم واحد من مجموعتنا ، والذى كان يقوم على خدمتى أيضا ، وأحد الخارجين الصناديد على القانون ، وسليط اللسان ولكنه يقوم ببعض الأعمال الإنسانية ، تقدم ذلك الرجل ومعه جمل غير مُحَمَّل ، ثم رفع ذلك الدرويش بين ذراعيه ووضعه فوق مؤخرة سرج الجمل . وهنا صرخ ذلك الدرويش صرخة ضعيفة تشبه صرخات الأطفال ، ثم نهض الجمل واقفا بعد ذلك حاملا ذلك المسكين ، بعد أن جمعوا الخبز المبعثر ووضعوه فى مخلته التى وضعوها معه على الجمل ، وكان الدرويش يتمتم تعبيراً عن شكره وامتنانه ، ويرتعد خوفا فى ذات الوقت . خدمات الإسعاف لا تتوفر فى جيش الحج غير المنظم ؛ يضاف إلى ذلك أن مسألة الإحسان والخير ، تصاب بالبرود فى تلك الأرض القاحلة الجرداء المريعة ، عند هذه الجموع التى يرهقها ذلك الطريق المتعب الطويل .

بعد ذلك ، كانت هناك بعض الوفيات اليومية فى قافلة الحج . كانوا يقومون بتحريز أشياء المتوفى ، ثم يقوم الحجاج بغسله وتكفينه فى وقفة الليل ، ثم يدفنون الجثمان فى حفرة ضحلة يحفرونها بأيديهم ، ثم يضعون فوق ذلك القبر بعضا من الأحجار التى يجمعونها من على جانبى الطريق ، لتكون بمثابة شاهد للقبر . وهم يطلقون على الحجاج الذين يموتون خلال هذه الرحلة الدينية ، اسم شهود **Shahud**، أى (شهداء) . ولكن الرجل الذى يكون وحيداً ومعدماً ، وبلا نجدة أو غوث ، إذا ما مات فى تلك الأرض الجرداء القاحلة والخالية يكون هو الآخر منبوذا ومهجورا فى واقع الأمر . وقافلة الحج عندما تفوت رجلا من هذا القبيل ، وإذا ما نسيه الجنس البشرى ، فإن البدو إذا ما وجدوه يحتضر ، فالأرجح أنهم يجردونه من كل ما معه ، بالرغم من أنهم يعلمون أنه لم يمت بعد . والجثث التى لا يجرى دفنها تأكلها الضباع التى تتبع رائحة القافلة . هؤلاء العجيل ليس فى قلوبهم رحمة ، وبخاصة أنهم يسيرون وراء القافلة . وليس هناك أحد على استعداد للقيام ، على طريق الحج بأى عمل من الأعمال الطيبة إلا "مقابل الفضه" أى (نظير أجر يتقاضاه)- ونحن إذا ما حيينا حياة طيبة ، فسوف نموت فى أمن وسلام ؛ وهذا هو ما نرجوه من الله ، فى حضور أصدقائنا !-

هناك بعض الذين يصابون بالإغماء وتخلفهم القافلة وراءها على امتداد سنوات الحج ؛ رجال من نسيج قديم ، وبشرة مريضة ، كان أملهم يتمثل فى الله سبحانه وتعالى ، ولكنهم يعيشون على جانبى طريق الحج الطويل ، على صدقات المتصدقين ، ولكنهم لا يستطيعون القيام بهذه الرحلة الطويلة إلى مكة . ومن يسقط ميتا ، من هؤلاء الناس ، وبخاصة عندما يكون كبير السن ، فذلك يعنى أنه لم يشبع مطلقا أثناء الحج ، كما يعنى أيضا أن مثل هذا الرجل قطع حوالى مائتى ميل سيرا على قدميه اعتبارا من محطه مزيريب . (..........) (*) ومع ذلك ، فقد فهمت ، أن هناك أساسا دينيا ، راسخا منذ عهود السلاطين العثمانيين القدماء ، ويتمثل ذلك فى قيام هؤلاء السلاطين ، فى كل عام ، بإرسال أو بنقل عدد محدد من هؤلاء الدراويش المساكين ومعهم مؤنهم إلى الأماكن المقدسة . هذا يقضى بتخصيص جمل وقربه ماء لكل أثنين أو ثلاثه من الدراويش ، كما تخصص أيضا خيمة لكل مجموعة من هؤلاء المساكين . هؤلاء الدراويش قليلين جدًا ؛ أو إن شئت فقل : رجال "يرتدون الملابس الخشنة والرثة" ، هم أيضا من أصحاب الكلام الأجوف الذين يطلقون شعورهم ويربونها على شكل خصل طويلة ، أو قد يكونون من "المخبولين" الذين قد يهربون من كل الأصقاع سعيا وراء المحسن فى دمشق ؛ يفعلون ذلك من أجل أن يدرجوا تحت اسم أبناء النبى وبصحبة الشحاذين المساكين : هؤلاء المتدينون يجدون متعة فى الصرف على أنفسهم ولكن ليس من جيوبهم أو أموالهم الخاصة . وقالوا لى إن الحج فى الماضى لم يكن يمر عن طريق العقبة وإنما عن طريق مَنْزَل آخر فى الناحية الجنوبية الغربية ، التى تنساب إليها مياه السيول قادمة من جبل شراة . هذا جدًّار Jiddar؛ وقد قال لى أحدهم إن 'من السهل تمهيد طريق للعربات فى ذلك المَنْزل أو إن شئت فقل : الجدًّار.'

الغرول ghrôl أو ghrûl (ويقصد به 'الغول') وحش من وحوش الصحراء الذى يؤمن بوجوده كل من الأطفال والنساء وكذلك الرجال . وليس هناك من أحد أتى على ذكر هذا المخلوق الذى يتحدث عنه العرب سوى فيلمون : Philemon والغولة عند البدوى لها عين واحدة مثل 'عين المارد الأعور' وهذه العين موضوعة فى وسط رأسها

(*) عبارات غير لائقة تمس الشعائر الاسلامية رأينا استبعادها . (المراجع)

الذى يشبه رأس الإنسان ، ولها منقار طويل ذو فكين ، ولها سن مدبب فى كل طرف من طرفى المنقار ، كما أن لها عنقا طويلا ؛ وجناحا الغولة يشبهان جناحى الصوص الصغير ، وأصابع يدى الغولة ليست مفصولة عن بعضها ؛ وجسم الغولة ضخم مثل جسم الجمل ، ولكنه من حيث الشكل يشبه جسم النعامة ؛ والغولة لا توجد إلا على شكل أنثى ، وأحد قدميها يشبه حافر جحش صغير ، والقدم الأخرى مثل قدم النعامة . والغولة تغوى المارة ، وتنادى عليهم بأسمائهم ، عبر الأرض الخراب ، حتى توهمهم بأن ذلك الصوت إنما هو صوت أمهاتهم أو أخواتهم .' يقول البدوى ، إنه سبق أن شاهد ورأى ذلك الوحش ، 'الذى هو من نوع الجن ، وهو ميت فوق الأرض ، منذ زمن بعيد ، عندما كان يقوم بالغزو فى مضارب جهينة ؛ ولكن أحدا من جماعة الغزو لم يجرؤ على لمس ذلك الوحش الميت (الغولة) ' . وأقسم لى ذلك البدوى ، قسما مغلظا ، على أن روايته صحيحة 'أقسم لى باسم الله وبحياة ابنه أيضا .' كان ذلك الرجل واحداً من مساكين الصحراء ، أو إن شئت فقل واحدا اسمه دولان Doolan، فى مدائن صالح ، اشتهر بأنه من المغرمين برواية الأساطير . لم يصدق أغا(*) القلعة ، أو إن شئت فقل : المحطة ، كلام ذلك الرجل ، ولكنه هو بنفسه رد قائلا : 'هذا صحيح ، بالرغم من أن هناك مخلوق وحشى ، شوهد مرات كثيرة فى هذه الأجزاء من الأرض ، وأن ذلك المخلوق يشبه الغولة ، ويطلقون عليه إسم السَّلَعوَّة Salewwa . هذه السَّلعوَّة تشبه امرأة ، اللهم بإستثناء أن لها قدمان لهما حافران مثل حوافر الحمار الصغير" . وقد أقسم له كثير من الرجال بدينهم أنهم شاهدوا السَّلعوَّة ، إضافة إلى أنه يعرف خمسة عشر رجلا من رجال القبائل الذين شاهدوا السَّلعوَّة فى يوم من الأيام . وهذا هو "غزو كبير ، قوامه ثمانين رجلا من عرب أو بدو الشرارات ، شاهد الغولة عندما شبوا النار فى المساء ، ولكن عندما لم تجدى طلقائهم مع الغولة نفعا ؛ تناولوا جمار النار ليضربوا بها ذلك الشيطان المتمثل فى شكل إمرأة ، واستمروا فى ذلك الضرب طوال الليل ."

(*) أغا : من الألقاب التى استخدمها العثمانيون . وأصلها من الكلمة الفارسية " أقا " . وكان لقب الأغا يطلق على متولى الرئاسة فى الأوجاقات العثمانية كما استخدم للإشارة إلى أصحاب المناصب فى الدولة العثمانية . وفى القصور السلطانية للإشارة إلى كبير الخصيان أو على الخادم الخصى الذى يؤذن له بدخول غرف النساء . كما شاع إطلاق هذا اللقب على الرئيس أو القائد أو شيخ القبيلة . (المراجع)

وعلى بعد أميال قليلة غربى الطريق ، سمعت عن مكان فيه الكثير من الخرائب والأنقاض يطلقون عليه اسم عينة Ayîna؛ ومن يذهب إلى ذلك المكان يشاهد الكثير من الأعمدة القديمة . وتوجد فى هذا المكان عيون ، كما ينمو فيه الكثير من الإثل الذى اسمه العلمى grottha . وعين واحدة من محطات مياه الصيف التى يلجأ إليها البدو ، يضاف إلى ذلك أن الصخور من حول هذه المحطة مليئة برسوم هؤلاء البدو . ونقلا عن أبحاث سبرنجر Sprenger، الذى كان كتابه المعنون "جغرافية الجزيرة العربية" خير معين لى فى ترحالى ، فإن مدينه إيرام IRAM يحتمل أن تكون فى هذا المكان ، "مدينة الأعمدة ، الجنة الأرضية" . وفى داخل الحسمة Hisma، وإلى الجنوب قليلا من منتصف الطريق بين معان والعقبه ، يوجد موقع أثرى قديم يطلقون عليه اسم خربة khurbet الروم er-Rumm، وهى عبارة عن عين كبيرة من عيون المياه ، تحيط بها تربة جرداء قاحلة ؛ كما توجد فى ذلك المكان أيضا بعض الأعمدة التى انهارت وسقطت إلى الأرض(*) .

وصلنا إلى مخيمنا عند غروب الشمس . وفى منطقة ذلك المخيم توجد مضارب بنى عطيه ، الذين يطلق عليهم فى الأجزاء التى فى اتجاه مصر اسم شيخهم المعازى el-Maazy : ومعازى Maaz هو شقيق عناز Anâz، الذى هو شيخ العنزى (والاسم يدل فى الحالين على معنى كلمة 'ماعز') . وهناك جزء من المعازى ينتشر بصورة غريبه فى المنطقة الواقعة خلف البحر الأحمر . وهم يسكنون حاليا تلك الصحراء من سيناء التى يطلق عليها العرب إسم "بلاد الهاربين من دفع ما عليهم" ، أو إن شئت فقل : بَر العجم Burr el-Ajam، أو بلاد الناس الذين يتكلمون لغة غير لغتهم . أو بمعنى أصح قارة افريقيا الكبيرة . حدث على مر العصور الكثيرة الكثير من الانتشار والتوزع لتلك القبائل الجائلة ، وهناك بعض الروايات عن قبائل هاجرت إلى أماكن بعيدة ، الأمر الذى جعلهم ينسون التربة التى نشأوا منها ، ولكنهم لم ينسوا عميدهم أو شيخهم ، ولم ينسوا وسمهم الذى بقى منهم وعرفهم به الناس !

(*) يذكر الرحالة الفرنسى ڤولنى Volney الذى قام برحلاته بين عامى ١٧٨٢-١٧٨٦ بأنه سمع من البدو عن وجود مدن خربة مقفرة كليا من السكان ، وفيها بعض الأبنية ذات أعمدة ، وأن البدو يأخذون إليها مواشيهم فى بعض الأحيان وإن كانوا كثيرا مايتجنبونها لكثرة العقارب الضخمة فيها . واستنتج ڤولنى أن تلك الخرائب لابد أن تكون أطلال مدن المنطقة التى ذكرت فى التوراة باسم ريدوم وعرفها الإغريق باسم إيدومة . وربما تكون هى نفسها التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى " إرم ذات العماد " وإرم نسبة إلى سلالة سام بن نوح الذين كانوا يسكنون بيوتا ذات أعمدة . (المراجع)

يتلقى بنو عطية من إدارة الحج صُرَّة نظير كل القلاع والمحطات الواقعة على الطريق الصحراوى اعتبارا من هذه المنطقة إلى مدينة تبوك . والصُرْة (نفس المبلغ الذى يجرى توزيعة كل عام) تدفع للشيوخ حسب مكانتهم ، وطبقا لأسمائهم المسجلة فى كشف وزير الخزانة فى دمشق . والغريب بحق هو ارتباط روح أولئك الساميون بالغنيمة النقدية ، التى يحصلون عليها دون القيام بأى عمل من الأعمال ؛ من هنا يتعين على باشا الحج العام أن يكون رجلا حازما وله خبرة وحصافة آسيوية واسعة ، هذا يعنى أن ذلك الرجل يجب أن يكون له مكر الثعالب وشجاعة لها وزنها (وهذا هو حال النباتات ذات الألياف القوية ، التى تنبت من كومة من الزبالة والقاذورات فى بلاد الشرق) ، حتى يتسنى له قيادة قافلتة عبر كل المغامرات التى يقوم بها البدو المندفعين ، على طريق طويل وقاحل مثل هذا الطريق المؤدى إلى المدينتين المقدستين . وهناك روايات عن أن هؤلاء البدو ، إنقضوا قبل عشرين عاما ، غرة على الحج ، وهاجموه هجوما شديدا إلى حد ضرب الحراس والإستيلاء على الفور ، على المئات من إبل الحج وهى محملة بأحمالها . حدث ذلك نظير شىء بسيط يطلقون عليه إسم صُرْه Sarrat البنت el-bint أو إن شئت فقل "رزمة نقود الفتاة" . الذى حدث أن صُراف الباشا فى ذلك الحج وهو يوزع على الشيوخ المجتمعين ، فى محطتهم ، العطايا الفضيه ، والهدايا من الملبوسات والأوانى ، رفض أن يعطى هؤلاء الشيوخ تلك الصرة التى كانت مستحقة لاسم والد الفتاة ، وذلك عندما تأكد الصراف من وفاة والد تلك الفتاة قبل عام أو عامين ، ولكن البدو أخفوا خبر وفاة ذلك الرجل . كان الخير الذى يصيب ذلك الرجل فى تلك السنوات ، قد آل إلى ابنته اليتيمة ؛ وجرى عندئذ اكتشاف ذلك الخطأ ولكن أقارب الرجل طالبوا "بمستحقات البنت" ، كان والد تلك الفتاة هو الأخير من سلالة شيوخ بنى عطية ، وكان مبلغ صرته لا يتعدى ثلاثين شلنا ، أو إن شئت فقل ستة كراونات . وهنا انتهز أولئك الأعراب الأشرار الجشعين الفرصة وهاجموا القافلة ، وتصرفوا كما لو كان الحجاج الحضر أعداءً لهم ، وقتلوا بعض الأشخاص الأبرياء . هؤلاء هم قبيلة العجيلات الثانوية التى تعمل فى نقل الحجاج بين معان وتبوك .

هانحن قد نزلنا إلى أرض الجزيرة العربية ، وبذلك نكون قد تجاوزنا وتخطينا العلامات الأرضية المعروفة . هناك خطران رئيسيان فى الجزيرة العربية هما : القحط

أو المجاعة والقسوة الدينية المريعة ، أما الخطر الثالث فيتمثل فى سلاح اللصوص (...)(*) المتهورين(**) ، هـذا يعـنى ، أنه ينبغى أن يكون فى عيون هؤلاء الرجال ، رجل جدير بالعيش تحت السماء التى خلقها الله ، وإن قدر لمثل هذا الرجل أن يكون بلا دين : فلابد أن يكون قلبه نظيفا وأن يعانى طويلا تحت قميصه العارى ؛ وهذا يكفى ، وبالرغم من أن الطريق قد يكون مليئا بالأخطار والأضرار ، فمن حقه أن ينتقل فى كل أطراف الأرض . الأرض هنا ميتة ، وبالتالى إذا لم يمت ذلك الرجل ، فسوف لا يعود بشىء سوى الإرهاق المستمر الذى يصيب عظامه . الساميون يشبهون رجلا جالسا فى الوحل حتى عينيه ، ومع ذلك يلامس حاجباه السماء . ومن بين الآثار العظيمه للصحراء الساميه ، أن هناك لحظة فى كل مغامرة من المغامرات ، يستطيع الإنسان خلالها أن يسالم أولئك الساميين ، وبذلك يكون قد عرف العرب . أدى التشدد الوهابى إلى قسوة قلوب البدو فى أيامنا هذه ، ولكن كل خيمة من خيام البدو تعد مظهرا فى أرض إسماعيل (وبالتالى لا يمكن أن يوجد داخل هذه الخيمة أى جائل ملعون) . والشخص المطرود ، أو إن شئت فقل : الغريب أو الخارج على القانون ، إذا ما جاء وحده إلى خيمة غريبة من خيام البدو ، فلابد أن يقترب من تلك الخيمة بجرأة وشجاعة ، وبالتالى يهبون لاستقباله . ويكفى أن يسمعوا عنه تقريرا طيبا ؛ والمعروف أن العرب كلهم يعجبهم فى البداية الكلام الطيب . والقرى التى على شكل واحات أكثر خطورة . مستعمرات البدو فى البداية أفسدت تقاليد الصحراء العريقة . أرواح هؤلاء البدو عبارة عن بؤر للتشدد . وفيما يتعلق بى بوصفى كاتبا أو مؤلفا ، آمل ألا يبحث أحد فى هذا الكتاب عن شىء سوى رجل جوعان ، ومرهق أشد الإرهاق ؛ وفى غير ذلك ، فقد حولتنى الشمس إلى عربى ، ولكنها لم تلغينى أو تجعل منى شرقيا على وجه الإطلاق . والجزء العالى من بلاد العرب ليس كله رمال ؛ وإنما هو تربه جافة ، لا ترى قطرات

(*) كلمة غير لائقة رأينا استبعادها . (المراجع)

(**) لم تكن رحلة الحج نزهة ، إذ كان الحجاج يقضون عدة أشهر من العذاب . والكثير من المدونات العربية والأجنبية تفيض بما كان يلقاه الحجاج من أخطار الطريق ومن ظواهر طبيعية لايستطيعون لها دفعا كالحر اللافح أو البرد القارس أو السيل الجارف ، أو من عدوان العشائر البدوية فيموت منهم الألوف ويعود الباقون فى أشأم حال . وبالإضافة إلى ماروواة " دوتى " أنظر على سبيل المثال : حوادث دمشق اليومية لأحمد البيرى ، تحقيق عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٥٩ . (المراجع)

المطر . وكل ما هو طرى ، مكون من الرمال ؛ يضاف إلى ذلك أن هناك بعض المروج الصخرية ، وكثيرا من الحصى والزلط ، يضاف إلى ذلك أن التربة الجرداء القاحلة تذروها الرياح . كما أن أحزمة الرمال العميقة وكذلك الحدود التى تحيط بالأحجار الرملية الجبلية ، والتى يطلقون عليها اسم النفود ربما كانت شبيهة بتلك الأحجار التى نطلق عليها فى بريطانيا اسم "الرمال الخضراء" greensands . وصحراء الجزيرة العربية ، بشكل عام ، عبارة عن أرض شاسعة جرداء وقاحلة ، ولا ينبت فيها العشب على نحو يكفى لإعاشة أى مخلوق من المخلوقات . ففى المساحة الصحراوية التى تساوى مساحة بيت بكامله ، لا تجد كثيرا من أنصال النبات أو أوراقة ، كما يندر أيضا العثور على أجمة أو دغل من الأدغال الصحراوية ، وإن وجدت تلك الأدغال فثلثى أجزائها لا تصلح غذاء للماشية وإنما هى لا شىء على الإطلاق .

فى المنطقة ما بعد معان لا يوجد أى أثر لطريق الحج فى تلك الأرض الجرداء القاحلة ، الأرض هنا تشبه البحر ، ولا يمكن الاستدلال على الطريق إلا بالعلامات الأرضية : ولكن هناك طريقا طبيعيا فى الأرض المجوفة فيما بين العقبة ومكة . وأنا لم أر إلا نادرا بعض العلامات الأرضية التى على شكل أكوام من الحجر، التى تحدد مسار هذا الطريق القديم من طرق القوافل ، وتظهر تلك العلامات بالقرب من قرية معان ، كما تظهر أيضا عند تفريعة وادى Wady الأخضر el-Akhdar . وهناك واحدة من العلامات التى يطلقون عليها اسم ، دليل Dalil الحج ، التى يهتدى بها الحج ليلا ونهارا ، على امتداد تلك الرحلة الطويلة التى يصل طولها إلى ما يقرب من تسعمائة ميل بدءا من مزيريب حتى مكة . هذه العلامة الأرضيه يمثلها شخص دمشقى ، اعتاد القيام برحلة الحج كل عام منذ صباه وشبابه : وهذه الوظيفة الإرشادية يعينون فيها الحضر ، لأنهم لا يريدون أن يسلموا أمر الحجاج إلى البدو ، وأنا أرى فى أى مكان هياكل الإبل العظيمة المبعثرة هنا وهناك ، ولم أر أيضا جبال الرمال التى انهالت على أجساد تلك الإبل . ومرد ذلك إلى أن العرب يبلغون من الفقر حداً يعجزهم عن فقدان المواشى أو ضياعها ؛ ولكن هذه الحكايات هى وغيرها ذات توجهية أوروبية مشرقية أكثر منها شبها بالخبرة أو التجربة العامة . والحج من سوريا يعد أهم قوافل العالم الشرقى الصحراوية ، هناك بعض الإبل التى تصاب بالإعياء بسبب ضعف أخفافها (واحدة

خف الجمل) ، بفعل طول الرحلة وسرعة المسير . وإذا ما أصيب جمل فى خفه ، وأدى ذلك إلى النزيف ، فإن مثل هذا الجمل يباع للبدو مقابل شلنات قليلة ، وبعد راحة قد تستمر عدة أسابيع يعود مثل هذا الجمل إلى حاله السابق ، ولكن إذا لم يوجد المشترى الذى يمكن أن يشترى مثل هذا الجمل ، فإن المسئولين عن القافلة يبادرون إلى ذبح الجمل حتى يتسنى لهم أخذ جلده ، ثم يستأنفون المسير بعد ذلك . وعندما تعثر الضباع ، والذئاب والثعالب التى تتعقب القافله ، تأتى على اللحم وتترك العظام متناثرة هنا وهناك . وأنا لم أرى مطلقا أى هيكل عظمى فى الصحراء أو مدفونا بفعل الرياح المحملة بالرمال ، التى تهب هبوبا خفيفًا ، ويندر أن تهب على المناطق الداخلية من الجزيرة العربية .

وفى المنطقة ما بعد معان ، ليست هناك محطات لراحة الحج وإنما يستمر المسير ويتواصل ليلا ونهارا ، ولذلك بدأنا السير عند الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل . وعند طلوع النهار شاهدنا صاروخاً وقد انطلق إلى الأعلى ، يؤذن بالتوقف لأداء الصلاة وقضاء نصف ساعة فى الراحة : وبعد نزول الجميع من فوق الدواب ، استلقوا جميعا على الأرض ، هذه هى ظهورنا وقد انكسرت بفعل ركوبنا الإبل فترة طويلة . أما الجمال التى يتعذر إنزال حمولتها عنها ، فتقف الواحد بعد الآخر مع الجماعة التابعة لها ، ويجرى ربط كل هذه الإبل ، حتى يسهل سوقها وقيادتها ، وهذا شأن يخص المسئولين عن أسلوب تحريك القافلة ، وليس بأسلوب البدو . نحن الآن فى سهل رملى نراه مثل رف من أمامنا ، ولكننا لا نميزه تماما ؛ فى اتجاه الغرب ، وعلى بعد أميال قليله من الطريق ، أرى حدود جبال الحسمة Hisma المدمرة ، وتتجلى لى من خلال أشكالها على إنها من الحجر الرملى . وعلى الجانب الآخر أرى مرتفعات منخفضة لها الشكل نفسه ، ولكنها على مسافة أبعد بكثير من المسافة التى تبعدها عنى حدود جبال الحسمة ؛ هذه المرتفعات المنخفضة تمتد داخل أرض بدو الشرارات الرُّحل ، كما تتجه تلك المرتفعات المنخفضة نحو الطريق أيضا . هاهو الرمل الناعم من تحت أقدامنا ، وهاهم الشبان الدمشقيين الذين يخدمون الحجاج ، يجرون ويسقطون على الرمل الواحد فوق الآخر ، ابتهاجا بقطع هذه المسافة الطويلة على ذلك الطريق المقدس ؛ وفى بعض الأماكن الأخرى نرى تربة هذا المكان على شكل رصيف من الأحجار الرملية

وهى تتماوج فى تلك البحار الكوكبية القديمة . وقبل حلول موعد الظهر بساعة واحدة ، كنا قد صعدنا مسافه ثلاثة أميال خلال حزام منخفض من الأحجار الرملية الصخرية ، التى تمتد على شكل سلسلة إبتداء من قرية الحسمة Hisma، وتواصل امتدادها هابطة إلى حفرة فى السهل قبل قلعة أو إن شئت فقل : محطة المدوَّرة Medowwara، التى وصلنا فيها إلى الماء . المكان هنا قاحل ؛ والقلعة ، أو المحطة مبنية بجوار عين من عيون الماء ، وهى محمية حاليا بواسطه قبو من تعدى البدو عليها ؛ أحسسنا هنا بحرارة الظهيرة الشديدة كما أحسسنا أيضا بالشمس وهى تحملق فينا من بين الرمال ، ومن ثم كنا بين حرارتين .

عن يميننا يوجد جزء من الصحراء يطلق الحجاج عليه اسم حلة Hallat عمار Ammar، والتى يقولون عنها ، إنها كان محلها مدينة قديمة ..عمار هذا كان مقوماً من مقومى الحج ، ذهب إلى ذلك المكان بحثا عن الماء فى وقت قائظ شديد الحرارة ، ولم يجد فى ذلك المكان أى شيء سوى أرض يتصاعد منها البخار والدخان ، هناك من يقولون شيئا آخرا أفضل من ذلك : "حلة العمَّار تقع عند الممر الوعر الواقع بين المدوَّره وذات Dzat (ويصح فيه أيضا That-el) الحج Haj؛ حيث أدت حرارة الشمس المحرقة ، إلى جفاف قراب المياه ، التى كانت مع الحجاج ، الأمر الذى أدى إلى تبخر ماء القرب متحولا إلى دخان الأمر الذى أسفر عن احتضار القافلة" . أخبرنى البعض أنهم شاهدوا بعض النقوش . وعند الساعة السادسة صباحا ، وبينما كنا نصعد من ذلك الحزام من تلال الحجر الرملى المنخفضة ، بدأنا نسير من جديد فوق سهل من الرمال الزلقة الضحلة . ومع شروق الشمس شاهدت أول اخضرار للنباتات ، بعد أن غادرنا جبهة العقبة ، وها نحن الآن نجتاز منطقة من الزلط المكون من الحصى الناعم ؛ هذا الحصى الصخرى الرملى الذى يكثر فى الأراضى القاحلة الجرداء . كانت السماء العربية صافية من فوقنا ، وفجأة سكن الهواء وازدادت حرارة الشمس . سرنا نحو ساعة أو ساعتين ونحن نصعد تقاطعا آخرا من الصخور الرملية وصخور الحديد : وعند الساعة الرابعة عصرا وصلنا إلى خيامنا ، التى نصبوها بالقرب من دغل من أدغال النخيل البرى الذى لا يحمل ثمرا ؛ وفى ذلك القاع الرملى شاهدنا نمواً كثيفا من الشجيرات الصحراوية ، وكل هذه مؤشرات إلى أن المياه الأرضية فى منطقة

الحسمة ليست على بعد كبير . فى هذه المنطقة كانت ترتع قطعان الرعى من إبل أولئك البدو الرحل الذين يتتبعون قافلة الحج . فى هذا المكان الأخضر الذى يسر الناظرين الدمشقيين ، جرى تشييد قلعة ، او إن شئت فقل محطة من محطات الحج . ومن حولها نخل باسقات على شكل بستان يطلق البدو عليه اسم الحج el-haj ويصح فيه أيضا ذات الحج Thàt Haj' . توجد فى منطقة البستان هذه صهاريج للمياه مغطاة بأقبية ، ولم يكن هناك ماء إلا فى واحد فقط من تلك الصهاريج المبنية ، وهذا يدل على أن عظمة وبهاء الحج تناقصت عما كانت عليه من قبل . والماء ينساب إلى تلك الصهاريج من عين لا تبعد مسافة كبيرة عن تلك الصهاريج ؛ وطعم هذا الماء تفوح منه رائحة الكبريت . والصُرَّة ، فى هذه المنطقة ، تدفع للربيلات Robillat، الذين هم من بنى عطية . وقالوا لى إن المياه التى يجىء من سيل جبل شراة ، تنزل إلى هذا المكان !- هل يصدق هذا؟ ! وبعد حرارة النهار كان القسم الأخير من الليل بارداً . وفى الصباح الباكر انتشر الخدم من حولنا وهم يرددون اللازمة القديمة "بالسلامة : bes-salamy هؤلاء الخدم يعرفون أن هذه المنطقة ، فى هذه المحطة تمثل ثلث طول طريق الحج الطويل إلى مكة .

استأنفنا المسير عند الساعة السادسة ، وكانت تنتظرنا رحلة طويلة ، فى تربة صحراوية أكثر تماسكا وأشد صلابة ، يتخللها فى الوقت الراهن بعض الحصى البركانى . وفى اتجاه الغرب ، مازلنا نرى ساحل الحسمة الجبلى هو هو لم يتغير ، وفى اتجاه الشرق مازلنا نرى تلال الشرارت المكونة من الحجر الرملى . فى هذه البلاد توجد "الأبقار البرية" وذلك المخلوق الذى لم يعرف فى أوروبا منذ ذلك الحين - هذه "البقرة الوحشية" أو إن شئت فقل البقرة البرية - هى نوع من الوعول . هذه الوعول تتجمع على شكل فردين أو ثلاثة أفراد ، وتجرى بأقصى ما يمكنها من سرعة عبر تلك الرمال الخالية من الماء ، حيث لا تشرب الماء مطلقا . قامت الحامية القائمة على أمر محطة الحج بتربية واحد من تلك الوعول ، والتى سبق للبدو الرُحل الإمساك به ، عندما كنت فى معان فى المرة السابقة ، وكان بوسعى شراء ذلك الوعل مقابل عشرة جنيهات إسترلينية . بلغنى بعد ذلك أن هذا المخلوق الجميل ، جرى نقله فى موسم الحج التالى ، بعد وضعه فى صندوق من الصناديق التى تحمل على البغال ، ثم جرى نقله إلى دمشق ، ومن دمشق جرى نقله إلى القسطنطينية ، على سبيل الهدية من ضابط الحج

الإمبراطورى إلى السلطان عبد العزيز ،– والشرارات هم بنى مُكْلب Müklib Beny من البدو الشعراء : والشرارات ليسوا من البدو الرُّحل ، وقد أبلغونى ذلك بأنفسهم ، ولا علاقة لتسميتهم بجبل شراة Sherra على الإطلاق .

ركبنا إبلنا طوال ذلك اليوم القائظ ، ونحن منحنون مع خطوات الإبل الواسعة ، على أعناق الإبل ، راكعين ما يقرب من خمسين مرة فى الدقيقة الواحدة ، سواء شئنا أو لم نشأ ، ونحن فى طريقنا إلى مكة . كان عدد الحجاج الفرس ، الذين يركبون جمالا من حولى ، يقدر بحوالى سبعمائة حاج ، القسم الأكبر منهم من الفلاحين ، نظرا لأن الأثرياء هم ومن يعيشون حياتهم بنعومة يكونون أقل حماسا للمقدسات عن تلك الأجسام الضعيفة التى لا راحة ولا عزاء لها فى هذه الدنيا . ولما كان أولئك الحجاج الفلاحون الفرس متمنطقين ، فقد كانوا يرتدون معاطف تنزل إلى ما بعد الركبة ، وكانوا يرتدون من تحت تلك المعاطف ملابس رخيصة وفضفاضة مصنوعة من القطن ؛ كما كانوا يضعون فوق رءوسهم أغطية رأس عالية مفرَّاة كما لو كانوا من الإسكلافونين . بلغنى أن "تكريم ذلك الفلاح الفارسى لرأسه" على هذا النحو يكلفه حوالى ثلاثة جنيهات إنجليزية . هؤلاء المسافرون يحملون معهم عباءة سوداء اللون ، نسيجها من شعر الماعز الناعم الجميل أو من الصوف . هؤلاء الحجاج الفرس ، ذوى اللحى الحمراء ، وأصحاب اللحى المصبوغة باللون الأحمر ، وأصحاب السلوكيات اللطيفة ، يشبهون إلى حد كبير ، فى الأديان الأخرى ، الحجاج المسكوفيين الشرقيين الذين يجيئون إلى القدس . هؤلاء يقتصدون فى إنفاقهم سنوات كثيرة ، حتى يؤقلموا أنفسهم على تلك الرحلة الدينية العظيمة . جزء آخر من هؤلاء الناس ، عبارة عن متطفلين ، يقطعون هذه المسافة كلها لزيارة المدن الغربية ، وأنا كنت على يقين أن من بين هؤلاء الناس أناس جاءوا من ديار تقع فى جبال فى الجزء الخلفى من بلاد فارس ، هذا يعنى أن صعود هؤلاء الناس للسواحل الحادة ونزولهم منها ، استمر حوالى ثلاثة أشهر عبر ذلك البلد وعر المسالك ؛ هذا يعنى أن سفر هؤلاء الناس قد يستمر قرابة الاثنى عشر شهرا بدءًا من الرحلة حتى الوصول إلى المدينه المقدسة (القدس) . وقد أبلغنى ، أحد زبائن الأغا ، الذى كان واحدا من مرضاى ، والذى كان يقود دابة الأغا فى الطريق إلى دمشق ، أبلغنى أنه كان يمضى كل عام أحد عشر شهرا من بين الاثنى عشر شهرا فى السير

على قدميه على طريق الحج العظيم . وعندما سألته عن كيفية تحمله لمثل هذه المشقه ، رد على رد المسلمين قائلا "الله!" بمعنى الله يكفينى أو الله هو معينى . كان ذلك الرجل واهنا وهزيلا قبل أن يصل إلى منتصف العمر ، ومن غير المحتمل له أن يعيش بقية حياته . ليت أمه كانت عاقرا ، بدلا من أن يحمل رحمها حياة شاقة مؤسفة من هذا القبيل ! والحجاج الفرس يلبسون أفضل النِّعال ، والنعلة التى من هذا القبيل عبارة عن نعلة سمكها فى حجم ارتفاع الإصبع ، وهى مصنوعة من طبقات القطن المضغوط ، ولذلك فهذه النعلة تكون خفيفة ولينة من تحت القدم ، عمرها أطول من عمر النعلة المصنوعة من الجلد الخالص . هؤلاء الفرس متحضرين ومتجانسين (ولكن ذلك لا ينطبق على العرق البدوى من الساميين) ؛ ولكن هؤلاء الفرس يتمتعون بدهاء نخر من الناحية الدينية ، فهم خطاءون فى حق هذا العالم وخطاءون فى حق أرواحهم . هذا يعنى أن خيالك إذا ما مر على الطبق الذى يأكلون منه فذلك يعنى أن ذلك اللحم أصبح نجسا وملوثا ، وبالتالى لا يأكلون من مثل هذا الطعام ، كما أنهم لا يأكلون مع أى من المسلمين السلفيين ، أو إن شئت فقل : من السنة . وسرج الدواب التى يركبونها تعلق فيها زمازم معدنية لحفظ الماء ، الذى ينعزلون فى كل مناسبة ليستخدمونه استخداما خرافيا ، فى الاغتسال بطريقة كريهة .

فى موكب الحج يركب رجل واحد فقط على الجمل ، ومعه خرجين مصنوعين من السجاد ، يضع فيهما إلى جوار مؤنه ، بعض السلع التجارية للسوق المقدسة فى مكة ، ومبلغ علمى أن هؤلاء الحجاج لا يستعملون الإبل فى بلادهم ، حيث يوجد كثير من الماء فى الطرق الصحراوية ، ولكنهم يفضلون أو إن شئت فقل يركبون البغال . وهذه قلة قليلة فى الوقفات الطويلة ، وكلهم من الكتبة ، يتناولون كتب الصلاة ، ومن هذه الكتب (كما هو الحال عند معظم أهل الشرق) يروحون يترنمون وينشدون كلاما يدل على الإخلاص والطاعة والولاء ، وهم يقطعون الأميال . راكبين فوق سُرُج الإبل غير المريحة ، قاصدين الأماكن المقدسة . وشاهدت من بين هؤلاء المنشدين امرأة ، زنجية ، تخدم بعض النساء الفارسيات ، واللاتى ترتدين ملابس وكأنهن ذاهبات لحضور مأتم أو جنازة من الجنازات ، كانت تلك النسوة يركبن فى صندوق من صناديق الإبل التى كانت تسير أمامنا ، كما شاهدت معهن طفلا أيضا . وبخلاف هؤلاء النسوة لا أذكر

أننى شاهدت أحداً غيرهن ومعهن ذلك الطفل الصغير فى القافلة كلها . ومن دمشق كانت هناك نسوة كثيرات متدينات قاصدات مكة لأداء الحج ، ولكنهن فى الوقت الراهن أصبحن يركبن البحر إلى جدة ومنها بعد ذلك إلى مكة بطريق البر ؛ والسبب فى ذلك أن الرحلة البرية قاسية تماما على النساء ، فضلا عن التكلفة الكبيرة التى تتحملها أسر هؤلاء النساء ؛ كما أن من يصطحب حريمه فى الحج يكون عرضة للسخرية والانتقاد . وبالرغم من ذلك فإن باشا الحج يكون بصحبته فى بعض الأحيان واحدة أو اثنتين من ربات البيوت المتدينات ، ومعاناة هاتين المرأتين تكون أقل من معاناة النسوة اللاتى يركبن فى صناديق مغطاة بالرغم من أن خطو الجمل الطويل المنحدر ليس بالسهل مطلقا . يضاف إلى ذلك أن الكثير من تلك الصناديق التى يركب فيها البشر تُحَمَّل أيضا على ظهور البغال ، وبذلك تكون ركوبة مريحة ، كما تُحَمَّلُ تلك الصناديق أيضا على ظهور الخيول .

وهنا يجب ألا يغيب عنا أن هؤلاء الناس لو كانوا يفكرون بطريقة صحيحة لحملوا معهم كل أشيائهم فى عربات مغطاة ، شأنهم شأن بعض شيوخ بنى إسرائيل الذين تجولوا فى تلك الأرض الجرداء القاحلة فى الأزمان القديمة . والطريق بكامله هنا عبارة عن سهل إضافة إلى أن العقبة نفسها لم تكن بمثل هذه الوعورة . وبخاصة فى المنطقة التى تستطيع الأورطة(*) عندها الهبوط ومعها مدفع ميدانى مصنوع من النحاس الأصفر وعياره خمس بوصات ومجرور على عجلات ؛ ولكن ذلك ليس هو الاستعمال أو الأمر الشائع ! إذ ما يزال الصندوق الدمشقى الذى يشبه مهد الطفل من حيث الشكل ، والذى لا يحمل سوى شخص واحد ، وبالتالى يركب شخص واحد فى كل جانب من جانبى هذين الصندوقين ، اللذين يوضعان فوق ظهر الدابة ، حتى يكون هناك شىء من التوازن ؛ يجرى أيضا ضم اثنين من هذه الصناديق على شكل هيكل سرير من فوقه تندة من القماش . وكان من عادتى أن أشاهد كل يوم ، هيكلا من تلك الهياكل ، وهو

(*) الأورطة ، كلمة تركيه الأصل Jurdeh ويصح فيها أيضا Jurdy ، ويقصد بها الطابور العسكرى الذى يغادر دمشق بعد بدء الحج بشهرين ويسرع الخطى على أمل لقاء الحجاج عند عودتهم فى مدائن صالح ليقوم بتغيير الحرس استعاضة المون . (المترجم)

يتأرجح من فوق ظهر بغل متين ، على بعد مسافة قريبة من أمامنا ، ومن فوق هذه التندة شاهدت صليبا يونانيا جميلا مطرزا باللون الأحمر ، ولا أدرى إن كان ذلك من قبيل التعاويذ أم من قبيل الزينة . وفى بعض الأحيان قد تخيط النساء المسلمات صليبا على ملابس أطفالهن المرضى أو المعتوهين ، وقد تلجأن إلى تعميد أطفالهن بواسطة قس إغريقى على سبيل الرقى أو التعاويذ ، أو قد يرشهن القس نفسه بالماء ، (طلبا لزيادة الخصوبة !) أو قد تشربن ما يسمى بالماء المقدس على سبيل الخرافة . وهناك بين الفرس فئة قليلة من الناس يدخلون فى عداد المنفقين الأسخياء يركبون دوابهم ومعهم شياشهم المشتعلة التى تفوح منها رائحة التبغ الفارسى الحلوة ، كل ذلك وهم راكبين داخل تلك المهاد أو التندات الدمشقية . الحجاج الأغنى من ذلك ، كانوا عبارة عن اثنين أو ثلاثه من سلالة كبار الشخصيات الفارسية الذين أقيم لهم جناح واسع فى كل محطة من المحطات : وباستثناء تلك القلة القليلة التى صادفتها ، فأنا أرى أن أعيان الفرس هم أصحاب القلوب السوداء والنوايا السيئة والمتجهمين أيضا من بين الأمم كلها . كان الأغا الذى نتبعه يجىء ترتيبه بعد هذه الفئة القليلة من حيث الفكر ، اللهم باستثناء أن هؤلاء الأعيان ، وهم يعيشون حياتهم فى دمشق كانوا يبتسمون ابتسامة تسر الخاطر مثل ابتسامة العرب تماما .

ربما يصل معدل سير طوابير الحج البطىء ، فى هذه السهول ، إلى حوالى مائة خطوة . ترى كم كان معدل سير قافلة سيدنا موسى عليه السلام ؟ ونحن إذا ما عرفنا أن عدد بنى إسرائيل يقدر بحوالى ٢٥٠٠٠٠٠ نسمة ، وأربعة من الإبل تسير كلها فى صف واحد ، فإن ذلك من واقع ملاحظتى ، أكبر بكثير من سعة المرور فى وديان سيناء المستقيمة التى تحيط بها من الجانبين كتل الصخور التى تساقطت من الجبال على جانبى الطريق . هذا يعنى أن قافلة إسرئيل يجب أن تكون أربعة أضعاف قافلة الحج أو إن شئت يزيد طولها على مائتى فرسخ (*) ؛ ومعروف أيضا أنه إبتداء من السحابة أو إن شئت فقل : النار إلى آخر رجل من مشاة يعقوب **Jacob**، فإن المسافة تكون أكبر بكثير مما تقطعه قافلة الحج فى أطول شهر من شهور السنة ! ولكن ماذا عن

(*) معروف أن الفرسخ يعادل ثلاثة أميال . (المترجم)

دواب بنى إسرائيل فى تلك المتاهة المريعة والمخيفة ؟ وبفرض أن عدد إبل بنى إسرائيل كان يقدر بما يتراوح بين ٣٠٠٠٠٠ و ٦٠٠٠٠٠ جمل ، وبفرض أيضا أن ماشيتهم الصغيرة كانت تقدر بحوالى ٧٠٠٠٠٠ رأس ؛ هذا بالإضافة إلى ما كان لديهم من الثيران والحمير ! فهل يمكن لنا أن نتصور أو نتخيل ، أن سيناء ، التى تعد أفقر المراعى الصحراوية قاطبة ، يمكن أن تتحمل عددا من هذا القبيل ، أو أن هذه الصحراء فيها ما يمكن أن يكفى لإطعام هذا العدد من الماشية والدواب مدة ثلاثة أيام ؟

كنت ، فى بعض الأحيان ، أرى شيئا ثقيلا يتدحرج فوق كل رءوس الناس والدواب . وسط القافلة التى تواصل مسيرها ، ذلك هو الإطار الخارجي للمحمل وأعمدة ذلك المحمل المقدس الذى يحمله جمل من الجمال ؛ والمحمل يشبه هيكل سرير من الأسرة ، وهو يشبه الهودج الذى تركب فيه النساء البدويات . والمحمل مكسو من أعلى بغطاء جميل من القطيفة خضراء اللون ، ذلك اللون الذى كان يفضلة النبى (ﷺ) ، يضاف إلى ذلك أن الأعمدة الأربعة يعلو كل واحد منها غطاء من الفضة اللامعة . كما فهمت من كبار علماء الحج أن ذلك الصندوق ، هو النمط أو النموذج المتفق عليه فى الحج ، فيما يتعلق بالتنكر الأثرى فى الجزيرة العربية ، بل إن هذا النموذج هو النموذج الوحيد المتبقى بين البدو ؛ هذا الهودج يستعمل أيضا فى حالة نشوب القتال بين القبائل ، إذ تركب فيه امرأة جميلة من بنات شيخ القبيلة ، تلهب بحدائها ، قلوب شبان قبيلتها الصغار ، وهم يواجهون أعدائهم ، ليتزايد على إثر ذلك عدد القتلى فى الرقصات العسكرية التى تكون من هذا القبيل . يوضع داخل صندوق المحمل الذى يرافق الحج ، ذلك الذى يسمونه الكسوة ، أو إن شئت فقل : هدية سلطان الإسلام ، الجديدة المصنوعة من الحرير ، والتى تستعمل غطاء للكعبة فى مكة ، التى "أسسها (سيدنا) إبراهيم عليه السلام ". شاهدت ذلك المحمل ، أو إن شئت فقل : ذلك النموذج ، فى كل المحطات التى توقف الحج عندها ، وهم يضعونه أمام الجناح المخصص لباشا الحج : شاهدت أيضا مع القافلة صندوقين طويلين فيهما أغطية لقبر محمد (ﷺ) (*) . وإذا ما نظرنا إلى الحجاج الأتقياء ، نجد أنهم عبارة عن جيش غريب ، يضاف إلى ذلك أن

(*) الأصح أن يقال الحجرة النبوية الشريفة . (المراجع)

المكر والخداع فى قلوبهم الآسيوية أكثر من الدين ؛ كما أن صحبة القديسين فى الأرض جد قليلة (*) . وقد عجبت عندما رأيت خدم الحج ، والكثيرين منهم لهم نزعات مدنية ، لا يملكون لها حراكا فى مواطنهم . ويقطعون من أجل هذه النزعات مسير أربعين يوما إلى كل من مكة ومنى . طوال هذه الرحلة يندر الماء بشكل عام وتسوء نوعيته ؛ يضاف إلى ذلك أن هؤلاء السوريين الذين يسكنون بلاد الحجر الجيرى معتادون على شرب أنقى أنواع الماء . وهم يسيرون طوال النهار ولا يضعون الطعام فى أفواههم إلا فى وقفات المساء فقط ، حيث يقومون بطهى وجبة من طحين القمح على شكل خليط مع أشياء أخرى ؛ ويندر على هؤلاء السوريين أن يشتروا اللحم من مالهم الخاص . ولكن كما يقول المثل : الناس لا يعرفون ألم المعاناة إلا بعد المحاولة ، يضاف إلى ذلك ، أن البشر تزداد قدرتهم على التحمل عندما يكونون فى جماعات . قلة قليلة من الناس هم الذين يصيبهم الإعياء ؛ أضف إلى ذلك أن الطبيعة السامية بحكم ضعفها وعدم صلابة معدنها لها مزاج عجيب وتعانى الكثير حبا فى الله . وكل واحد منهم يضفى على نفسه هالة (وقد يكون مجرمًا بحكم قانون البشر) وهو يسعى "إلى بيت الله الحرام" : وعند العودة يستصوب ذلك التحمل للإنسان رؤيته لبيته وأهله وأصدقائه .

أجر سائق الجمل الذى يسير على قدميه إلى مكة يقدر بحوالى ٨ جنيهات إنجليزية ؛ ولما كان القسم الأكبر من الحج يعود بواسطة البحر ، فذلك يحتم على الكثيرين من أولئك الخدم الذين يجرى الاستغناء عنهم ، البحث عن وردية جديدة عند العودة . فى مجموعتنا التى وصل عددها إلى عشرين شخصا كان السواد الأعظم منهم من التلاميذ الدنيويين المبتدئين قليلى الخبرة : وكان المقومون يزهون بهؤلاء الصبية الذين كانوا يخدمونهم بلا أجر ، سوى نقل طعامهم ومائهم . والمعروف أن مقاولى العُمَّال يلتحقون كل عام بقافلة الحج ، لأنهم يكسبون القسم الأكبرمن عيشهم من هذه الرحلة : يضاف إلى ذلك أن هناك أناسا كثيرين يستمرئون ذلك التعب تماما الذى يلاقونه على ذلك الطريق المقدس ، إلى حد أنهم يعاودون الاشتراك فى تلك الرحلة مرة بعد الأخرى ، ولا يتنازلون عن ذلك مطلقا . وبالرغم من وسم سائقى قافلة الحج بالقسوة والوحشية والوقاحة ، إلا أنه لم يكن بين أفراد مجموعتنا سوى واحد أو اثنين

(*) هذا هو رأى المؤلف فى الحجاج وهو يعكس التعصب الغربى ضد المسلمين ، وقد رأيت من الأفضل الالتزام بترجمة النص كاملاً لمعرفة فكر الرجل وإعطاء الفرصة لتغير هذا الرأى وإبطاله (الناشر) .

من أولئك الصبية القساة ، أما البقية فكانت من شباب دمشق المساكين ، الذين يشيع عنهم أنهم يتسمون بالصدق والأمانة . كان الرِّيس يتلقى مبلغا مضاعفا ، أى ١٦ جنيها إنجليزيا : كان ذلك الريس واحداً من أولئك المتمرسين تماما على ذلك الطريق ، وكانوا يطلقون عليه اسم أبو رشيد Rashid Abu ومن صناع "القباقيب" وضعيف أيضا ضعف الفاجرين الداعرين ، كان ذلك الريس يمضى ثلثى العام فى سوق محل إقامته ، أسفل الجامع الكبير فى دمشق : ولكن عندما يدخل شهر الحج (الذى يسبقه شهر الصوم عندهم ، والذى يعكر صفو الجسم ، ويكون بمثابة استعداد سيئ لتلك الرحلة) فإن ذلك الرِّيس ، يهجر كل شىء ، ويتغيب طيلة أربعة أشهر ليعاود زيارة الحرمين الشريفين ويحضر معه من تلك الأعمال التطهيرية المرهقة ، قليلا من النقود التى يعول بها أسرته الأمينة ، ثانى العمال المهرة من بين أفراد جماعتنا هو ذلك السائق الذى كان يسوق جملى ويخدمنى ؛ هذا الرجل صاحب بنية قوية وقلب جرئ ، ميال بحكم طبيعته ، إلى الخير ، ولكنه قد تخونه طبيعته بحكم شائبة صغيرة من شوائب التهور الإجرامى ، تترسب داخل هؤلاء الناس ، الأمر الذى قد يجر مثل هؤلاء الناس إلى أساليب السوء والشر فى هذه الدنيا . ورفاق هذا الرجل يطلقون عليه اسم الأسود el-Eswed، لأن بشرته تميل إلى اللون البنى ، والتى يعزونها إلى شىء من التشوه . هذا الرجل كان فى يوم من الأيام واحداً من عصبة الخطر فى دمشق والتى يطلقون على أفرادها اسم "المعترين" ؛ هؤلاء المعترون تشيع بينهم البشرة الداكنة والقوة الساحقة ، وهم يعيشون حياتهم معتمدين على العنف . وقبل سنوات قليله من تجنيده ، نجح فى الهرب ، وراح يسافر هنا وهناك بعيدا عن طائلة القانون ، بل وصل به الأمر إلى حد السفر هنا وهناك عن طريق البحر ؛ هذا الرجل يعيش حاليا متخفيا ومستترا فى دمشق ، كما يعمل أيضا جامعاً للأعشاب . والأسود Eswad يتقاضى من المقوم ١٢ جنيها إنجليزيا إلى مكة : يضاف إلى ذلك أن الخارجين على القانون لا تجرى ملاحقتهم فى قافلة الحج .

كل أفراد الخدم الدمشقيين الذين كانوا يصاحبون الجماعة الفارسية كانوا يعلمون أنى نصرانيا ؛ وواصل هؤلاء الخدم ثرثرتهم حول ذلك الأمر ولكن بدرجة أقل من تلك الثرثرة التى عزلتنا الجماعة الفارسية بها عن بقية الجماعات التى تتكلم اللغة

العربية . وكالعادة تسلط عليَّ اثنان من معكرى الصفو اللذان لا يعرفان معنى الحياة ساعة بعد أخرى ، وراح الأسود Eswad يؤنبهما ويوبخهما توبيخًا شديدا قائلا : "فين دينك" ؟ كان الأسود يركب جمله بطريقة أنيقة ورشيقة ، كما كان منتصب القامة كما لو كان مشعابا أو عصا تتحكم تحكما شديدا فى محفة مدرب الإبل بقوة لا بأس بها ، وفى المسيرات الكبيرة كنت أنزل من فوق دابتى وأسير على الأرض بضعة أميال عله يركب ويستريح بعض الشىء . والعرب ، بحكم انشغالهم التام بتوافههم ، يضيقون ذرعا بمعارضة الغرباء لهم ، وعندما كانت القناعة المتزمتة ، التى تمتلئ القلوب فيها بألم الطريق واضطراباته ، تجعله يتبرم من النصرانى ، كنت أقول له : "ما رأى أبو سعد فى ذلك !" كان ذلك الرجل مسكينا صائب الرأى تعرفت عليه مصادفة فى دمشق : وتصادف أن يكون ذلك الرجل سيدا لأسود Eswad نفسه ، ولذلك كان من عادته أن يناديه بلقب الأب ؛ هو واحد من هؤلاء الذين تصالحوا مع الدين واسترضوه ، عن طريق الصوم يومين كل أسبوع . ولكن أبا سعد بحكم الخميرة القديمة التى كانت فيه كان يتفاخر ويتباهى بأن "الناس المعترين Muatters كانوا يخشونه ويخافون منه : " وهذا هو أسود Eswad ينظر إلىَّ مليا عندما ذكرت اسم أبا سعد . تعرفت على أبى سعد بوصفه أحد معارف الأسر المسيحية فى دمشق . فى تلك المذبحة التى وقعت للمسيحين منذ سنوات بعيده ولَّت وانتهت(*) ، شاهد أبو سعد بينما كان يجرى فى الشارع واحدا من أفراد الأسرة ، يحاصره القتلة المسلمون فى ركن من الأركان ، ويصيحون فى نفس واحد : "هيا ، اهجموا على النصرانى واقتلوه ." ربما كان الموقف الذى كان يكابده ذلك الرجل النصرانى الذى كان يرتعد خوفا كفيل بإنهاء حياته ، ولكنه فكر برهة من الوقت ، ثم لمس بيده واحدة من تلك العمائم البيضاء ، وبعد أن تعرف صاحبها ، قال له : "أنا دخيلك"، أو إن شئت فقل : "أتوسل إليك." وعندما أحس

(*) من الواضح أن المؤلف يشير فى هذا المقام إلى حوادث الستين (١٨٦٠) فى الشام ، التى بدأت كحركة إقطاعية ثم اتخذت شكلا دينيا حينما ثار الدروز فى المناطق المختلطة على سادتهم من النصارى ، وكذلك فعل النصارى وامتدت الفتن من جبل لبنان إلى دمشق . ودارت بين الدول الأوروبية الكبرى محادثات انتهت بأن أرسلت فرنسا على عهد الإمبراطور نابليون الثالث باسم أوروبا حملة عسكرية إلى بيروت (١٨٦٤) . وفى تلك المذابح ظهر كثير من المسلمين الأتقياء الذين أبدوا تعاطفا مع المسيحيين . (المراجع)

أبو سعد ، باستثارة نخوته ، تناول مسدسه الذى كان معلقا فى حزامه ، نظرا لأن كل من كانوا فى الشارع كانوا يحملون أسلحتهم ، ثم وضع ذلك المسدس بين فكيه ممسكا به بأسنانه . ثم حمل ذلك النصرانى على ظهره ، وطلب إلى الحاضرين إفساح الطريق وإلا فسوف يفسحه هو بالقوه ؛ وراح الرجل يمشى مترنحا ومن فوقه ذلك الحمل المسيحى ، إلى أن وصل به إلى باب داره ، ثم وضعه على عتبة الباب ، هذه الأسرة ، أمكن إنقاذها وأطلق أبو سعد عليهم اسم "إخوانه من النصارى" ؛ والرجل يزور هذه الأسرة التى تستضيفه كل عام عدة أشهر فى منازلهم ، إنه حامل الأحجار بعد اقتطاعها من الجبل ، وهم يعطونه دوما كل احتياجاته من ثرائهم ويصيبه شىء من رفاههم .

هناك أمثله كثيره من المسيحيين الذين جرت اغاثتهم ونجدتهم من تلك المذبحة بأيدى المسلمين الرحماء المساكين ، الذين قاموا بذلك العمل ، ودون أن ينتظروا عليه أجرًا ؛ فعل هؤلاء المسلمون ذلك فى ضوء تعاليم الرب (الله) وفى ضوء الرحمة الإنسانية ، وبخاصة فى المناطق القروية الواسعة والمفتوحة وفى مناطق الإتجار مع المناطق البدوية ، التى يطلقون عليها اسم الميدان **el-Medân**، الذى من بين مواطنيه واحد يعد منقذ الروح الموقره والمبجلة فى الصحراء السامية **Semitie** . فى تلك المذبحة تولى بعض المسلمين الطيبين أمور الأطفال المسيحيين ، فى الأماكن التى كانوا يصادفونهم فيها ، وربوهم وأخفوهم فى منازلهم . كانت غنائم الشوارع المحترقة المكونه من منازل المسيحيين ما تزال فى أيدى المسلمين الهمجيين . وبيع القسم الأكبر من تلك الغنائم ، بما فى ذلك المجوهرات والذهب ، لليهود ، نظير مبالغ نقدية زهيدة ، هؤلاء اليهود الذين يحبذون ذلك الجشع والدهاء حفاظا منهم على تكتم أسرار تلك العمليات الدموية . تناهى إلى مسامعى أيضا أن المسلمين يشتكون ويقولون وهم يقسمون : "بالله ، إن كل ما فعلناه ، قمنا به من أجل اليهود ، وقد استغفل اليهود المسلمين وجعلوا منهم أغبياء !" يقال أيضا ، إن بعضا من المسيحيين الذين أنقذوا أثروا على حساب بضائع النصارى المساكين الآخرين ، التى نقلوها إلى منازلهم للحفاظ عليها ، بعد أن قتل أصحابها ، الأمر الذى أدى إلى ضياع تلك البضاعة ، نظرا لأنه لم تكن هناك أية سجلات بالأماكن التى جرى التحفظ عليها فيها ؛ والسبب

فى ذلك أن هناك فجوة فى تلك البلاد التركية ، قادرة على ابتلاع الآخر ، بما فى ذلك أفراد النوع نفسه ، أو إن شئت فقل : قادرة على ابتلاع أبناء جلدتهم . من بين أفراد جماعتنا أيضا كان هناك واحد من بين أولئك الذين يسبحون فى الحمام القريب من القنصلية الفارسية ، وهو رجل من أولئك الذين يتحملون مسير مائتى فرسخ إلى مكة ؛ وكان من بين أفراد الجماعة أيضا صبى طحّان من باب توما Tooma Bab فى الحى المسيحى من مدينة دمشق ؛ وكان هناك أيضا رجل من حِمْص Hums (Emesa) تلك البلدة الكبيرة التى تقع فى اتجاه حلب : كان ذلك الرجل لا يتوقف عن الضحك والسخرية والمسخرة طوال الطريق (*) . قال الرفاق عنه : "إنه أحمق ، إذ أن كل آل - حمص من المستهترين ." ومن بين هؤلاء التلاميذ الدينيين المبتدئين كان هناك رجل فارع الطول صافى الذهن ؛ هذا الرجل لم تستطع مصاعب الطريق أو الرحلة أن تحول بينه وبين سلوكه اللطيف الذى يقوم على الفضيلة . ذات يوم ، وفى أثناء فترة من فترات الراحة قال ولد الأغا Aga على مسمع كل الحاضرين : "ما رأيكم فى النصارى ؟ يقول الناس ، إن دينهم دين طيب ، وأنهم يقدسون عيسى مثلما نفعل مع محمد ﷺ ومثلما يفعل اليهود مع موسى ؛ من ذا الذى يمكن أن يقول : إن دينهم ليس على ما يرام ، أو إن ديننا أفضل من دينهم ؟ وهل بوسعكم أن تغيروا دينكم وتصبحوا غير المسلمين ؟ وإذا ما أعطانى شخص فى يدى الآن ألف جنيه إنجليزى ، فأنا أشك فى عدم موافقتى على اعتناق دينهم ." وهنا تكلم ذلك التلميذ الدينى المبتدئ ، كلاما طيبا ، "قال التلميذ ، أنا يستحيل أن غير دينى مقابل خير الدنيا ، لأن الدنيا فانية . قال الدمشقى الفارس الشاب : "يا خليل أفندى ، إذا دخلت فى ديننا ، فأصحبنا حاليا فى رحلتنا إلى مكة وسوف نجعلك تزور الأماكن المقدسة كلها ، وهذا أفضل لك من مغادرة القافلة والتخلى عنها عند مدائن صالح ، التى أستطيع أن أقسم ، بأن البدو فيها سوف يذبحوك بعد أن تغادر قافلة الحج ديارهم . تساءلت عن نوعية أولئك البدو الرحل الذين فى مدائن صالح : وجاءنى الرد أنهم "من الفكارة ، الذين يدل اسمهم على (فقير ،

(*) المعروف عن أهل حمص أنهم يتميزون بالذكاء الحاد والروح المرحة مما يسبب غيرة كثير من أهالى المدن السورية ، خاصة دمشق وحلب من أهل حمص . (المراجع)

أو درويش) ، وهم يشبهون الغجر أكثر من البدو ، إنهم على قدر عال من اللصوصية ونحن نخافهم ونخشاهم أكثر من أى إنسان آخر على الطريق ؛ أقسم بالله ، أن الفكارة هم أسوأ أنواع البدو . ولا يمكن لأحد أن يأمن على نفسه وهو بينهم : ولكن يتعين عليك الذهاب إلى القلعة ، أو إن شئت فقل : المحطة ، وأنزل فيها ، وهنا سوف يكلف الباشا جنود الحامية بالمحافظة على سلامتك لحين عودة الحج ."

إبل الحج العظيمة ، على العكس من ماشية البدو الرحل الصغيرة (التى تعيش على ما تجده فى الصحراء الجافة ،) لاترعى الكلأ مطلقا على الطريق ، ولكن يجرى تغذية تلك الإبل أثناء الوقفات ، كما هو الحال فى سوريا ، بحبوب القطَّانى المسلوقة ، على شكل دُفعات تتكون الواحدة منها من خمسة أو ست حبات يجرى وضعها بين فكى الجمال المتعبة ، وبالتالى يمكن إشباع تلك المعدة الجائعة . يضاف إلى ذلك أن أصحاب الجمال يشترون من بعض المحطات ، عليق أو علف للدواب يقولون له ثُورم Thurrm، وهو نوع من الحشائش الطويلة ذات العقد ؛ وهم يشترون ذلك العلف من أناس معينين من البدو الرحل (وهم ليسوا أصلا من البدو) ، وتجتره إبلهم فى ساعات الراحة . ويجرى ربط الإبل على شكل صفوف ، ويجرى رعاة هذه الإبل على حبل يمتد على الأرض فيما بين الخوابير الحديدية . وجرى بعد ذلك اصطحاب التلاميذ الدينيين المبتدئين ، الذين كانوا يرافقوننا إلى بعض الرجال غير الرئيسيين ، وذلك بقيادة كل من الرَّيس وأسود ، بعد أن أنزلوا من كوشة الجمل ، أو إن شئت فقل : 'تخت الروم' ، إلى مركبة ومَعيّةَ الأغا الفارسى ، التى يجرى حملها على نحو تمتد فيه كل مركبة ، عن طريق الأعمدة الأربعة فيما بين كاهلى جمل أمامى وكتفى جمل خلفى . وإلى جوار كل عمود يوجد صبى ، وفى الوسط صبى ، وعلى الجانبين ست لكل تخت أو إن شئت فقل : كوشة . وفى الأماكن الوعرة من الطريق ، يستعمل هؤلاء الصبية قوة أذرعهم فى التحكم فى هذه الحمولة المرتفعة غير المريحة . كل كوشة ، أو تخت من تلك التخوت ، مدهون ومزين ، والمكان داخل أى من تلك الكوش أو التخوت يسمح لمن يكون بداخلها بالاستلقاء ممددًا أو الجلوس . والباشا هو وقلة قليلة من الأثرياء هم الذين يركبون مركبات من هذا القبيل إلى مكة ، أو إن شئت فقل : إنهم يركبون مركبات عالية الكلفة : من هنا فقد تعجبت عندما رأيت مركبات الأعجمى خالية ، ولكن الأسود أبلغنى ، أنه

كان يحظى كل عام من حكومته بمعرض سنوى ، يضاف إلى ذلك ، أننى كان يتحتم علىَّ أن أرى على وجه السرعة بعض من يُحْمَلُون فى تلك المركبات : والسبب فى ذلك أن أى فقير من الفقراء عندما يصيبه مرض الموت وهو بصحبة جماعته ، فإنه يتعين عليه أن يدفع يوميا مائة قرش نظير إيجار المركبة التى يركبها طوال الساعات القليلة المتبقية من حياته . ومن تحت طقم الجمل الذى يحمل كوشة أو إن شئت فقل : تختا توجد دروع قرمزية اللون ، مرصعة بالمرايا ، ولها أعراف من ريش النعام ، ومحاطة بصفوف من الأجراس الصغيرة ، التى يصدر عنها صوت مميز مع كل حركة من حركات قدم الجمل ؛ صوت عجيب لغرابته ، ويحظى بقليل من الرضا فى مسمعى . والجمل الخلفى يمشى بطريقة غير أنيقة تماما ، من هنا فإن الجمل الخلفى قد لا يضع بوزه ، أو إن شئت فقل : أنفه وفكاه خلال اللوحة الزجاجية ، نظرا لأن رأسه وعنقه الطويل جداً يُسْحبُ نحو الأرض ومن فوقه حمله الثقيل ، الذى يكون تحت ارتفاع كتفيه ، وهو أمر يؤلم هذا الحيوان أشد الإيلام وبخاصة فى الرحلات ، أو إن شئت فقل : المسيرات الطويلة . صناديق هذه الجمال لها منظر جميل تماما ، ولها سلالم وكذلك شراريب مرحة ، تتمايل فى الطريق الصحراوى الخالى ؛ - ربما كانت تلك الشراريب من بقايا عبادة الأصنام البيزنطية . ويندر أن يختل نظام تلك الكوش أو التخوت أثناء مسير الإبل سواء أكان ذلك السير ليلا أم نهارا . كل هذا الجمع الكبير من الرجال والدواب ، وكذلك الإنفاق الحكومى الكبير ، يمكن الاقتصاد فيه تماما إذا ما سافر الحجاج بالبحر إلى مكة(*) ؛ ولكن السفر بهذه الطريقة قليل التقدير والثناء : إذ بدون هذا الإفناء غير المنطقى أو غير المعقول ، للجسد فى عبادة الله واهب الحياة لا يكون الحجاج حجاجا فى واقع الأمر . كان الأغا وولده يركبان فى سيارة أجرة ؛ ولكن أجرة النقل غالية جداً ، فيما يتعلق بالشعير والماء الذى يحتاجانه يوميا . كان هناك عبداً من الجالا Galla يمشى من ورائهما حاملا النار فى مغرفة من الحديد ، حتى يتسنى لهما الاستفادة من تلك النار فى الشيشنين اللتين يستعملانهما فى تدخين التبغ الفارسى ؛ وتحريك جمار النار يجعل الفحم يزداد اشتعالا .

(*) الأصح إلى جدة ، ويعنى ذلك أن يستخدم الحجاج طريق الحج المصرى الذى يصل إلى البحر الأحمر ، خاصة بعد افتتاح قناة السويس للملاحة وانتشار السفن البخارية (المراجع) .

مع مواصلة السير ، شاهدت التخوت أو إن شئت فقل : كوشات الإبل وبداخلها أحد الأفراد ، وإن ذلك الذى كان يدور فى تلك التخوت إنما كان بدايات لجنازة واحد من أفراد قافلة الحج . إذ وضع ذلك الفرد ملفوفا فى عباءته المصنوعة من الشعر داخل واحدة من تلك التخوت ، لكى يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وهكذا ظل ذلك الصندوق الفخم مثوى لذلك الفرد قبل دخول فترة المساء . لم أرى أيا من تلك الوجوه السمراء التى جاءت إلى التخت وتركته والرجل فيه حى . وهم يعجلون برحيل هذه الحياة مستخدمين فى ذلك أسلوب الطريقة العنيفة ، الخالى من رحمة وعزاء الحنان الإنسانى ، يفعلون ذلك وسط استنزال اللعنات القاذعة ، التى تعج بها أفواه سائقى الإبل الدمشقيين ؛ وعندما يموت إنسان ، فإن كل واحد من هؤلاء السائقين يقول لزميله ، بعد أن يلقى نظرة على الشخص المسجى ، 'مات'! وبعد الوصول إلى محطة من المحطات يخرجون جثة الميت من التخت ورأسه وعقبيه على الأرض ، ثم ينقلونه إلى الساحة . وأثناء المسير شاهدت بعضا من شهود القبور التى هى مجرد قطع من الحجر الرملى وضعت فوق قبور من الرمل . والمغامرة الغريبة فى ذلك الحج تتمثل فى وفاة سيدة من النساء الفارسيات ، فقد ماتت تلك السيدة فى بلدة معان ، وكانت قد أوصت بدفنها فى أرض مكة المقدسة على بعد مسير ثلاثين وقفة ، وقد أراد خادم تلك السيدة الأمين تنفيذ وصيتها . قام ذلك الخادم بشراء جمل (من صاحب جمالنا الفارسى) ، ثم ذبح الجمل ، ثم وضع جثمان سيدته داخل الجلد وخاطه ثم وضع من فوقه بعض جلود الغنم غير المدبوغة ؛ ثم وضع أعمدة ربط من حول كل ذلك ، ثم أعاد كل هذه اللفة إلى الصندوق الذى كانت تركب فيه تلك السيدة على ظهر الجمل ، وسار ضمن قافلة الحج . وبعد وقفات ، وصل الخبر إلى مسامع باشا الحج ؛ فقد شاهد أناس بعينهم ذلك الخادم وهو يجلس تحت شجرة شوكية ، جعل منها مهجعا له أثناء الليل ، حتى يظل مستيقظا بجوار ذلك النعش ، أو إن شئت فقل : المتاع المفزع . وعقد الباشا مجلسه ، وصدر قراره بأنه يجوز أن تكون تلك الجنازة فى رفقة الحج ولكن على بعد مسافة قصيرة من مؤخرته ؛ كما منع الباشا أيضا ذلك الخادم من الدخول بالمتوفاة داخل المحطات التى تتوقف فيها القافلة ، أو إن شئت فقل : منعه الباشا من إدخال الجثه إلى المخيم .- وكما هو الحال عندما يعم الطوفان أرضا بكاملها ، فإن المصائب والأحزان

تفعل الشيء نفسه في الدنيا كلها ! وتصادف ، أن أكابد أنا نفسي كل ذلك ، وتعين علي منذ أن ركبت مع القافلة من قريه معان ، أن أكون واحداً من أولئك المكلومين المحزونين ؛ حدث ذلك ، لأن الجمل الذي ذبح كان هو الجمل الذي أركبه .

منذ مغادرتنا مزيريب ، وأنا أسمع صاحب الجمل يتمتم يوميا بما مفاده أن حملي الزائد عن الحد سوف يقصم ظهر الجمل ؛ كان يقول أيضا ، إنه بسبب ذلك الحمل الثقيل أو سبب آخر كان الجمل يعاني وأصابه المرض . وفي معان أبلغوني جميعا ، وهم يحلفون أيمانا مغلظة ، أن الجمل الذي كنت أركبه قد نفق . وقالوا لي أيضا ، إن صاحب الجمل أشترى في معان من الأعراب ، ناقة صغيرة سوداء برية وغير مدربة لتكون ركوبة لي على الطريق : هذا التغيير في الركوبة لم يكن موفقا وتحول إلى مصدر للإزعاج والقلق . ولما كانت تلك الناقة غير متعودة على السير وهي مربوطة ، في رحلات طويلة من هذا القبيل ، وهي تحمل حملا ثقيلا ، فقد كانت تتعثر وتسقط على ركبتيها ، فيما بين صفوف الجمال الماشية ، وتروح تشد حَكمة قيادتها ، وتثير المتاعب لكل من هم بعدها من الإبل ، التي تداهمها بعد سقوطها . وقد تسبب ذلك في كثير من الانتقادات التي انهالت عليَّ من كثير من الأشخاص الذين كانوا يضيقون ذرعا بمثل هذا السقوط ، والخطر كل الخطر كان يتمثل في السير أثناء الليل في الظلام . ولم أتمكن من التغلب على ذلك العيب ، وبالرغم من أن ذلك كان على النقيض مما قاله ووعد به المقاول الدمشقي ، إلا أن الجميع كانوا يتصايحون عليَّ ويؤنبونني ، بأني أنا الذي قتلت جمل ذلك الرجل . ومن باب الابتزاز إلى حد ما ، كان صاحب الجمل يرفض إرسال الجمل إليَّ مع بداية كل تحرك من التحركات ؛ وعندما كان الآخرون يستعدون للرحيل ، وبعد سماع إشارة بدء التحرك ، كانوا يتركونني وحدي في الصحراء ، واقفا في الظلام ، إلى جوار أغراضي وحقائبي . وعندما كان الأمر يصل إلى هذا الحد كنت أمسك بالأسود el-Eswad، ولا أسمح له بأن يتركني ، والسبب في ذلك أنهم بعد أن كانوا يحضرون الناقة إليَّ ، كنت أجد نفسي عاجزا عن تحميل أغراضي عليها وحدي أو إن شئت قل بمفردي ؛ وفي بعض الأحيان كان صاحب الجمل يقسم بأن يترك جسدي تحت الرمل الذي أقف عليه. كان أولئك الغجر سليطي الألسنة يمثلون مهزلة سيئة ؛ وعندما وجدت الخطر محدقا ، سحبت أمامهم جميعا مسدسي : وبعد ذلك بأيام

توقفوا عن مضايقتي وإثارة المتاعب أمامي . والمعروف أن متاعب الطريق وهمومه تغير أرواح الناس جميعا ، وهذا التصرف يدينه كل المسلمين فى سوريا إذا ما قام به أحد فى رحلة الحج ؛ ويقولون إنه يتعارض مع فريضة الحج ." والشائع أن التشدد فى الدين يتزايد كلما اقترب جداً من خيوط الحجاج القدامى : هذا يعنى أن هؤلاء الحجاج القدامى يصلون إلى حد التيه والخيلاء بأنفسهم فى مسألة الدين ؛ ومع ذلك فالحج ليس فيه جدال ! يضاف إلى ذلك أن مخاوف أهل الحضر من بلاد البدو ، هى التى تجعلهم يتكاتفون ويتراصون بشكل يجعلهم يظنون أنه لا خلاص من القافلة .

وكلما زاد اقتراب الحجاج من الأماكن المقدسة (الحرمين الشريفين) يزداد أيضا تذكرهم لصلواتهم وأورادهم ، فى تلك المسيرات الجبرية ، كان بعض الرجال المتدينين ، فى أوقات بعينها ، يقومون بدور المؤذنين ، ويروحون يؤذنون للصلاة وهم راكبين فوق ظهور دوابهم . وعلى الفور تبدأ آلاف الحناجر الرجالية فى ترديد ذلك النداء ، وهنا كما هو الحال ، فى كل عام ، تتردد أصداء ذلك النداء مدوية فى الصحراء ، بفعل هذه الآلاف المؤلفة من أصوات الرجال . وهاهم الفرس يرددون ذلك النداء فى المؤخرة ، إلا أنهم يضعون اعترافهم ممثلا فى اسم على ﷺ قبل اسم محمد ﷺ . وهذا سبب رئيسى من أسباب نزاع الشيعة أو جدالهم مع عامة المسلمين الذين يطلقون عليهم اسم "الشيعة" ، ومع أهل السنه عندما يثور بينهم جدل أو نزاع عام . وجدالهم ليس بالقليل فى الخليج الفارسى ، على مرأى ومسمع من المسافرين البريطانيين على السفن البريطانية ، ويصل الأمر إلى حد تدخل الضباط البريطانيين فيما بينهم لفض ذلك النزاع أو إنهاء ذلك الجدال . كان من ضمن أفراد جماعتنا ، رجل يرافق الإسود ، وهو تاجر شاب من أهل دمشق ؛ هذان الصديقان ظلا يلهوان طول الطريق ، وراحا (كما هو الحال بين أهل الجنوب) ، يتضافران معًا ، ويصيحان وهما يسخران من عبارة "إلهنا على" Our lord Aly، كما لو كان صوتيهما يعادلا عشرة أصوات من أصوات الرجال . وفى بعض الأحيان كانت تصيب بعض الفرس الغاضبين المتهورين أضرار كبيرة فى المدينة (المنورة) .

شاهدت من خلال الضوء الصادر عن المصابيح المعلقة ، رجلا عجوزا ، يمكن أن يحسبه الناظر إليه شيخا محترما من شيوخ قريته ، كان يجلس جلسة "واحد من

الحكام" ، فوق حمار بغدادى أبيض اللون ، وكنت كلما نظرت إليه يحييني ببشر وبشاشة وهو يقول : "كيف حالك ، يا خليل أفندى ؟" وكانت عيناه المسنتان تتلألأن من تحت حاجبيه كما لو كانتا نجمين فى ليلة من ليالى الصقيع والجليد . كان ذلك الرجل يركب وهو منحن قليلا إلى الأمام فوق دابته ، وكان يبدو أن شكله لم يكن غريبا تماما علىَّ ، لأن ذلك الشخص هو الذى سبق أن ضُرب ضربا مبرحا من قبل ، فى وادى الزرقاء Zerka . هذا يعنى أن ضمير لص الصناديق قد استيقظ وعاد إلى رشده بعد العقاب الذى نزل به ، ومع ذلك لم تكسر عظمة أنفه بعد ؛ وبالرغم من أن فعلته كانت معروفة للجميع ، إلا أنه لم يشعر بالكسوف أو الخجل .

السير أمين ، الذى يلقبونه بأمير الحج ، ضابط ، كان فى الأيام الخوالى واحدا من أبناء السلاطين ؛ ولكن فى أيامنا كان واحدا من أفراد البلاط المقربين إلى إستانبول Stambûl من ناحية ، وقادر من الناحية الأخرى على مواصلة ركوب الإبل . رأيت أمير الحج محمولا فى كوشة ، أو إن شئت فقل : تخت مزركش محمولا بين بغلين متينين ، على كل واحد منهما جَلٌ أحمر اللون ومزركش ؛ وشاهدت من خلفه مجموعة من العمال لأداء الخدمات بالتناوب ، وعندما كان يروق له الحال ، كان يركب حصانا جميلا جنبا إلى جنب مع باشا الحج ، الذى يتولى مسئولية قيادة قافلة الحج . أمير الحج هذا لم يكن ممن تعودوا الاستيقاظ المبكر ، أو التحرك قبل طلوع الفجر ، وكان من الطبيعى أن يلحق بالقافلة ، الصندوق الذى يركب فيه مع طلوع النهار . أما فيما يتعلق بباشا الحج ، فبالرغم من تقدمه فى السن ، لم يكن من بين القافلة كلها أحد مثله فى البكور أو فى التأخير . ولما كان باشا الحج ، هو 'محافظ' الحج ، أو إن شئت فقل : المسئول عن الحج ، فقد كان يشغل أيضا منصب صرَّاف الرواتب أو الأجور العسكرية ، أثناء الطريق ، وللبدو أيضا . هذا الرجل الخادم ، قوى البنية ، شديد البأس تعلم منذ صباه تحمل المتاعب والمصاعب ، وهو لا ينام من الليل سوى ساعتين (وهذا نقلا عن المقربين إليه ، وعن معارفه أيضا) طوال رحلة الحج . وهو ينال قسطا من الراحة ، أثناء السير فى جوف الليل ، فى تخت الروم ، أو إن شئت فقل : فى الكوشة ، التى تحملها إبله ، وهذه الكوشة أو ذلك التخت يكون ترتيبه الأول بين تخوت القافلة : ويسير إلى جانب كوشة باشا الحج دليل القافلة أو إن شئت فقل : ربَّانها . مرور الباشا أثناء النهار لم

يكن مثيرا للضيق مثل السير البطىء الذى كنا عليه ؛ ترتيب الباشا فى الركوب يكون فى المقدمة ، وهو يركب على ظهر الفرس المخصصة له ؛ وبصحبته ضباطه وعدد قليل من الجنود ، ويكون على بعد يتراوح بين فرسخين وثلاثة فراسخ فى مقدمة القافلة ؛ وعند توقف القافلة ، ينزل ركب الباشا عن دوابهم . وتُشَبُّ النار ويجلسون لتناول القهوة وتدخين النرجيلة ، إلى أن يقترب الحج منهم ؛ ويمضى النهار على هذه الشاكلة والوتيرة المتكررة . وعند دخول وقت الظهر تنصب خيمة لباشا الحج وخيمة أخرى للسير أمين ، أو إن شئت فقل : لأمير الحج ، ليتناول كل منهما إفطاره ؛ ومعروف أن هذه البلاد الرملية تحرق مثل احتراق جمرات الفحم فى شمس الشتاء .

الشىء الغريب علىَّ ، هو ذلك المشهد اليومى الذى كنت أرى فيه حوالى عشرة من الكلاب السورية التى كانت تتتبعً قافلة الحج : ففى كل عام تذهب بعض الكلاب السورية إلى مكة برفقه قافلة الحج ، بصحبة مدينة الخيام وتعود من مكة ثانية . رجال الشرق المتدينين ، ينظرون إلى تلك المخلوقات المسكينة التى ترافق الحج ، ولها من الذكاء مثلما لدوابهم ، باعتبارها من بين شهود الله سبحانة وتعالى على الدين الصحيح . كان الأسود ، كلما رأى كلبا يلهث ، يغريه فى الوقفه التالية ، ويصب قليلا من الماء الثمين لذلك الحيوان غير الطاهر ، مستخدما لذلك خفه الذى كان يلبسه فى قدميه . وكانت الكلاب الغريبة تقطع إربا إربا بين الحجاج ، إذا ما دخلت تلك الكلاب منطقة أخرى من مناطق مدينة الحج ؛ وعندما تصل قافلة الحج إلى مكة ، كانت تلك الكلاب تبقى خارج المدينة بصحبة المخيم الخاص بمتاع ومتعلقات الحجاج . أطرف الأشياء فى مجموعة الحجاج الفارسيين كان يتمثل فى ذلك الديك الأبيض ؛ خطر ببالى ، أن ذلك الطائر الشجاع ربما أصبح بيرقا للفارسيين بعد الأسد ، هذا الطائر كان يركب وحيداً مربوطا إلى سلسلة بشريطين من الحرير الأحمر القانى . كان ذلك الديك يقف بصعوبة وهو يوازن نفسه بإستعمال جناحيه ، فوق أعلى نقطة فى تخت الروم ، أو إن شئت فقل : الكوشة ، التى كان يحملها أحد الجمال ، وأثناء الليل ، كان الديك ينام وحده فى تلك الكوشة ، أو قد ينام وهو مربوط بالسلسلة ، مثلما يربط الدب إلى العمود ، داخل المكان الواسع المخصص للحجاج الفارسيين . كان الديك يصيح : "كوكو ، كوكو" وهو يرفرف بجناحيه ، إلى أن فقد مرحه الذى كان يستقبلنا به فى صباح الصحراء ؛

طائر الباشا هذا ، أحنى عُرْفه ، نظرا لأن مسئولى القافلة لم يجلبوا له بعض حريمه معه ! - وأنا لم أستطع الوصول إلى تفسير للغز الديك هذا ؛ الشخص الوحيد الذى أجاب على تساؤلاتى ، كان هو الأسود ، عندما قال لى : "هذا الطائر لى أنا ، إنه ملكى." وإرهاق هذه الرحلة يقطع صوت الإنسان عندما يصل إلى شفتيه ، ويقلل فهمه ؛ وأنا لم أستطع أن أعرف أكثر مما قلته هنا ، ولربما كان ذلك الديك سراً من أسرار الدين . من الذى سينفق حيويته فى تلك المسيرة الطويلة ؟ لا يقولون شيئا غير اللعنات والسباب ، ومع ذلك يجلس الفرس أثناء الإستراحات الليلية يروون حكايات تحت النجوم عن نيران عَشَائهم .

انقضت ساعات طوال ، ونحن نواصل السير فيما بين صف مزدوج من الجبال ؛ وهاهم الحجاج وقد غالبهم النوم وهم فوق ظهور جمالهم . نظرا لأنهم كانوا منحنين ومائلين إلى الأمام تحت حرارة الشمس الشديدة . وعلى امتداد الطريق الطويل ، نسمع فى بعض الأحيان ، على جانبى الطريق ، صياحا مفاجئا ، على جانبى القافلة الماضية قدما على الطريق ؛ هؤلاء هم أناس يجرون ، وذلك هو وابل من العصى والأحجار . والمستهدف بكل ذلك ، هو هذا الأرنب البرى الذى أفزعوه فى مخبئه ، وهم يطلقون على ذلك الأرنب البرى إسم الضَّب Thôb؛ كانت تلك الأرنبة البرية تهرب من الموت إلى أن أصابتها فى النهاية ، ضربه عنيفه قضت على حياتها ؛ أو بالأحرى شاهدتها وهى تدوسها أقدام الرجال وهى تجرى هنا وهناك بحثا عن ملاذ بين أقدام الإبل ، ونجحت فى الهرب بمعجَزه . هذا الضَّب Thôb، من السحالى الزاحفة التى يأكل الناس لحومها ؛ ويصل طول حيوان الضَّب مكتمل النمو إلى حوالى ياردة تقريبا بما فى ذلك الذيل أيضا ، والعرب يقولون إن لحمه لذيذ وحلو جداً . وقطعة لحم من هذا القبيل يعدها أفراد القوافل لذيذة الطعم : والأيسر حالا من بين أفراد القبائل يحملون معهم شيئا من اللحم المدخَّنَ وكذلك اللحم المقدد الذى يمكن الحصول عليه جيداً تماما ورخيصا من مدينة دمشق . ولحوم الضأن التى يذبحها البدو تعرض للبيع فى المحطات التى تتوقف فيها قافلة الحج ، وبخاصة المحطات الرئيسة . وأشهى الطعام ، هو الذى يقدم فى جماعة باشا الحج ، الذى يذبح مطبخه الحكومى طليا صغيرا كل يوم ؛ هذه الطليان يجرى تسمينها فى بعض المحطات التى شاهدنا فيها تلك الأغنام وهى تساق لتسير فى ركب القافلة .

فيما بعد الظهر مباشرة ، كان هناك سراب من أمامنا : لقد شاهدت ظاهرة السراب هذه أكثر من مرة فى المنطقة البدوية من الجزيرة العربية ، التى لا ترى الندى مطلقا ، وليس فيها أى شىء من الرطوبة الأرضية ؛ هناك سراب أيضا ينتج عن اهتزاز الهواء الساخن وقليل الكثافة وتحوله إلى ما يشبه الدخان فوق التربة التى تضربها أشعة الشمس . وعلى بعد عشرة أميال ، عن يميننا فى اتجاه الغرب ، هناك موقع أثرى قديم يطلقون عليه اسم الجيرية Gereyih، يحكى عنه البدو الذين يسكنون ذلك المكان الكثير من الخرفات العجيبة ، ولكنى أسمع من الأشخاص الموثوق بهم أن ذلك الموقع لا قيمة له . وصلنا بعد ذلك مباشرة إلى أسقف الخيام المصنوعة من قماش قلاع المراكب ، تلك الأسقف التى كانت معلقة بدون أجناب ، فى سهل واسع كبير يطلقون عليه اسم 'إلقا' el-Kà . كانت تلك المحطة مخصصة لأخذ قسط قصير من الراحة ، والتزود بالطعام ، نظرا لأننا كان يتعين علينا أن نصل مسير الليلة القادمة بما تبقى من ضوء النهار . وأرسلت شخصا إلى سوق المخيم لابتياع شىء من اللحم ، ولكنه عاد بخفى حنين ، نظرا لأنه لم يجد فى السوق لحما معروضا للبيع ، إضافة إلى أن أحداً من التجار لم يفتح بالات بضاعته من أجل البيع . والناس هنا ، فى القافله يطلقون اسم 'السوق' على ذلك السوق الذى يصاحب المدينة المتنقلة المصاحبة للقافلة ، والتى تصنع خيامها من قماش قلاع المراكب ؛ هذا السوق عبارة عن شارع قصير مكون من خيام تجار القافلة ، وهو مقام على طريق النزول فى اتجاه الجنوب . هناك بعض البضائع المعروضة للبدو ، (الذين جاءوا من أماكن بعيدة على جانبى 'درب الحج' ،) أو إن شئت فقل : طريق الحج ، وهذه البضاعة تشتمل على الأقمشة والسجاد ، وكثير من السلع الصغيرة المتنوعة : وفى ذلك السوق أيضا ، يوجد بائعون أيضا يبيعون للحجاج البسكويت وكذلك المعجنات المصنوعة من القمح وما إلى ذلك من الأشياء الأخرى ؛ فى هذا السوق يجرى أيضا البيع والشراء عن طريق السمسار والدلال . وباعة الأقمشة لا يصلون إلى مكة ؛ ولكن البعض من أولئك الباعة ، يعودون كل عام مع قافلة الحج ، ثم ينفصلون عنها ذاهبين إلى مناطقهم البدوية المترحلة الكثيرة ، ويبقون فى تلك المناطق لحين عودة الحجاج بعد أداء مناسك الحج . والغالبية العظمى من أولئك الباعة ، هم من الميدان Medan؛ والبعض منهم من أمهات بدويات . وهؤلاء الباعة ،

يقولون : إن إجمالى الربح الذى يحصلون عليه لا يزيد على خمسة وعشرين بالمئة ؛ ولكن العرب عندما يدفعـون لهم الثمـن زبـدا ، فذلك يشكل ميزة أخرى لأولئك التجار أو الباعة عندما يكونون فى دمشق .

انتهى نهار الصحراء من فوقنا بوهج واسع من السحب المنخفضة التى لها حمرة النار : أخذت الشمس فى الغروب ، اللهم باستثناء قلة قليلة من الابتسامات المتلألئة ، من خلف جبال الحسمة . وفى أثناء تلك اللحظات الذهبية ، وبعد راحة دامت ساعتين على إثر تناولنا العشاء ، سمعنا انطلاق دانة مدفع جديدة تنذر القافلة باستئناف المسير . مضينا قدما فى تلك الظُلمة الخفيفة التى لا تستمر سوى دقائق قليلة فى الجزيرة العربية ، وبعدها يصبح الظلام دامسا : ويتعين علينا السير طيلة إحدى عشرة ساعة أخرى حتى نتمكن من الوصول إلى محطة الاستراحة فى تبوك . كان القمر يضىء مسيرتنا فى تلك الليلة التى كانت توافق يوم الأحد الثالث من الشهر ؛ ذلك اليوم الذى يقدره الناس فى أرض المسيحيين ، والذى يمثل الراحة والصمت من معظم أخطار ، وإرهاق ، وإزعاج هذه الدنيا . كان على مقربة منى فى الخلف سائق من سائقى القافلة الفرس ، سمعته يغنى طول الليل ، حتى يعلم زميله الوقح ، الذى يقترب من الأراضى المقدسة ، الابتهالات الشرعية ، وكانت للغة حلاوة وعذوبة على لسانه الفارسى وهو يقول : الحمد لله رب العالمين ؛ أى كلمات سورة الفاتحة من القرآن : ظلوا يرددون هذه الترنيمة فيما بينهم إلى أن طلع عليهم النهار . وعقب منتصف الليل مباشرة جاء انطلاق صاروخين بمثابة مؤشر إلى التوقف لنيل قسط من الراحة ؛ نمنا على الرمل مدة ساعة : وبعد دانة إنذار ثانية تعين علينا الاستيقاظ واستئناف المسير قدما . وعندما غاب القمر عند الساعة الثالثة صباحًا ، كنا نسير على هدى أضواء المصابيح الورقية . ثم صدرت إشارة ثانية قبيل الفجر توقفنا بعدها مدة أربعين دقيقة : وشروق الشمس فى الجزيرة العربية يكون شديد الحرارة لأنه لا يسبح فى ضوء مشوب بالندى . وتمضى القافلة قدما من جديد ، وسط خليط من التعب والإرهاق ، وبين النعاس والصحيان ، أشرفنا عند الساعة الثامنة على مشارف مدينه تبوك . كنا قد قطعنا من الساعات الست والعشرين ، أو إن شئت فقل : ما يزيد على دورة من دورات الكوكب ، حوالى أربع وعشرين ساعة ، وقطعنا ما يقرب من خمسين ميلا على أقل تقدير : ومن العجيب حقا أن نرى كثيرين من أفراد القافلة ما زالوا يمشون على أقدامهم .

قرية تبوك القديمة ، التى بنيت من الطين الذى له لون المُغْرة(*) ، تقف شامخة من أمام واحدة من بيارات النخيل ، وسط عالم من الصحراء التى تجلب التعب وتنهك القوى ، والتى تتناثر فيها قطع الأحجار الرملية . اكتشفت أننا هنا على ارتفاع ٢٩٠٠ قدم ؛ وهذه بقع من أراضى القمح الخضراء تتقدم ذلك المكان ، فى منطقة الرمال التى يطالها الرى(**) . وفى أقصى اليسار ، وفوق ذلك الجانب البرى من الجبال ، تقع قمة الجبل الحادة التى يطلق عليها أفراد القبائل السوريين اسم 'منبر الرسول' ، نظرا لأن هذه القمة تشبه من حيث الشكل ، الماصة (المنضدة) المائلة ، أو لأنها تشبه المنبر الذى يقف عليه الواعظ فى المساجد الكبيرة . والناس هنا يقولون : إن محمدا ﷺ عندما مر على تبوك وقف فوق ذلك المكان المرتفع من هذا الجبل الذى يبدو أسود اللون ، وأنه خطب فى أهل الجزيرة العربية : والبدو يطلقون على ذلك المرتفع إسم شرورة Sherôra، وهذا المرتفع يمثل علامة أرضية ، فى مضارب الشرارات (وفى حدود فهمى فإن القمة من الحجر الجيرى أما بقية المرتفع فمن الحجر الرملى) . وكان من العبث سؤال أفراد القوافل عن أسماء هذه الأماكن : هاهى الحسمة Hisma قد بدأت تتلاشى من خلفنا وتختفى عن أنظارنا . والمنطقة على امتداد طريق الحج اعتبارا من هذه المنطقة فصاعداً كلها قرى من قرى الزمن القديم ؛ الأمر الذى يتمكن معه عابر السبيل من تناول الإفطار فى إحدى القرى وتناول العشاء فى قرية أخرى : هذا يعنى أن عابرى الطريق ، فى تلك المنطقة لم يكونوا بحاجة إلى أن يحملوا معهم طعامهم وشرابهم .

وجدنا فى تبوك مرطبات من الليمون الحلو ، ومن عصير الطماطم ، وعصير الرمان ، وكان ذلك أول لقاء لنا بتمر الجزيرة العربية ، ولكن التمر فى هذه المنطقة من *النوع الطرى* ، وأفضل أنواع التمور تأتى من قرية تيماء Teyma . والناس هنا يطلقون على القرويين اسم الحميدات el-Humeydat ولكنهم يطلقون على انفسهم اسم 'عرب الكابنى

(*) المغُرة : بضم الميم وتسكين الغين هى : تراب صلصالى يستعمل فى صناعة الألوان السمراء والصفراء والحمراء (المترجم) .

(**) انظر ملحق صور الكتاب : الصورة هذه بقع أراضى القمح الخضراء تتقدم ذلك المكان فى منطقة الرمال التى يطالها الرى . (المترجم)

el-Kaabeny Arab، وهم قلة قليلة من البشر الفقراء ، والمعروف أن القلعة أو المحطة هى التى تدافع عن تلك المجموعة من العرب التى لا يزيد عدد أفرادها على أربعين شخصاً ، كما أنها هى التى تحميهم من عسف واستبداد البدو بهم ؛ والماء فى هذه المنطقة يوجد على عمق صغير جداً ، ودافئ إلى حدما ، وليس نقيا تماما من الناحية الصحية ؛ ومن الطبيعى أن يكون ذلك المنخفض الصحراوى مكانا مرتفعا من أماكن المياه الجوفية . وعين تبوك عباره عن نبع قديم ومجرى قديم أيضا ، ولكن هذا المجرى انسد بفعل الأنقاض التى نجمت عن الأحجار الضخمة التى سقطت فى ذلك المجرى . والذى يتلقى الصُّرة ، فى هذا البرج هو شيخ بنى عطية . تبوك اسم قديم ؛ وبالرغم من ذلك ، فالبدو هنا يقولون : إن هذا المكان كان يطلق عليه فى الماضى اسم اليرموك Yarmûk . وهنا يتعين علينا أن نرتاح هنا يوما كاملا . وبينما كنا نسير فى الليلة الماضية ، جاء بعض الجنود يسألونى عن هويتى وصناعتى ؟ وهنا التزمت البقاء فى الخيام وبينها ، مخافة أن يصل خبر وجودى بين أفراد القافلة ، إلى مسامع باشا الحج ، الأمر الذى قد يجعله يتركنى هنا فى تبوك . هاهم الفرس جالسون فى وقت فراغهم يتمتعون بالشاى الحلو ، الذى يصنعونه ، أو إن شئت فقل : يُصَلِّحُونه فى ماكينات من النحاس الأصفر مثل أهل موسكو تماما ، كما يدخنون معه الشيش والنرجيلات المعطرة . والشخص الوحيد الذى يكون مشغولا طول اليوم فى القلعة هو باشا الحج نفسه ، باعتباره صراف الرواتب العسكرية فى القافلة ، فضلا عن إنشغاله أيضا مع شيوخ البدو ، الذين يتوافدون على ذلك المكان للحصول على المبالغ المخصصة لهم .

وظيفة صراف الرواتب العسكرية فى القافلة هى التى تملأ حافظة نقود ذلك العجوز : من هنا فهو الذى يتولى عملية الإنفاق المالى حتى يتسنى له بقاء بعض من قشور الحية فى حوزته . زد على ذلك ، أن مسألة التلاعب التركى الذى يمكن المرء من أن يكون لصا عاما ومواطنا رسميا أمينا فى الوقت نفسه ، جدير بأخذها بعين الاعتبار ! وعلى سبيل المثال ، المجيدى التركى ، أو إن شئت فقل قطعة النقود العثمانية التى تعادل كراون واحد ، تساوى عشرين قرشا بالسعر الحكومى ، فى حين تساوى اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين قرشا فى معاملات التجار فى أسواق دمشق . والمبلغ

المخصص لنفقات الحج يسلم لصراف الرواتب العسكرية التابع للباشا ، منذ بدء الرحلة ، وذلك بواقع الكراون ، أو إن شئت فقل المجيدى الواحد ، يساوى عشرين قرشا : وصراف الرواتب العسكرية : يمضى فى دفع المبالغ المخصصة للبدو الخلص على طول الطريق بواقع اثنين وعشرين قرشا ونصف القرش للكراون ، أو إن شئت فقل ، المجيدى الواحد ، ويحلف بالله أمام شيوخ البدو الرحل ، الذين لا يجيدون فن القياس ، ويستشهد بكل الرجال أن الكراون يساوى عدداً كبيرا من القروش ! هذه الأرواح التركية تبدو لنفسها وكأنها لا تعيش فى عالم من الفساد ، ولكنهم يواصلون الأكل من ذلك العالم الفاسد إلى حد ما : هذه الوسيلة تحول مثل هذا الصرّاف إلى رجل عظيم وتوصى بانضمامه إلى عضوية حكومتهم الإجرامية . هذا يعنى أن الصندوق لا يطرأ عليه أى نوع من أنواع التسرب ، هذا لا يعنى أيضا إنقاص إيرادات السلطان ، وإنما يعنى بالدرجة الأولى عض أصابع البدو الملعونين . صحيح أن ذلك الصرّاف يتعامل بنفس الطريقة مع أجور الحاميات العسكرية ، ولكنه يسحب البطانة من داخل حقائبهم الخاوية ؛ ومع ذلك يتحمل الجنود ذلك القانون الذى يفرض عليهم أثناء المسير ، وهم يبتسمون على مضض ، والسبب فى ذلك أن ذلك الصراف يعطى لحراس البرج مبالغ توزع على عدد أكبر بكثير من العدد الذى ينبغى أن يقوم بمثل هذا العمل . يضاف إلى ذلك أن الضابط المتين العجوز يحب متاعب رئيسه العظيمة حباً جمًا ، تلك المتاعب التى تعطيه هبة سخية كل عام ؛ وراتب هذا الضابط المتين العجوز فى حدود ألفى جنيه تركى ، هذا بالإضافة إلى بعض البدلات الخاصة بالترفيه اليومى عن كثير من الأشخاص والدواب .

كان محمد سعيد أمكر الرءوس فى سوريا كلها ولم يكن طاهر اليد أيضا . ومحمد سعيد ، شأنه شأن الشخصيات الكبيرة فى البلاد العربية ، يعد واحدا من الرجال الذين يسهل الحديث معهم وإليهم : وهو شخصية مرحة مرحا إنسانيا كما أن اعتداده الدينى يوحى بالاعتدال وعدم التطرف . كما اكتشفت أيضا أن ملاحظات ذلك الرجل تصيب كبد الحقيقة ؛ وبالرغم من كل ذلك فإن الشخصيات التى تكون من هذا القبيل تولد فى ظل ظروف تجعلها تتطلع إلى بريق المال وبهرجه . فى ظل حكومة مثل هذه الحكومة ، لا يتوقع ظهور أى بطل من الأبطال : وما هى الأمثلة التى يمكن أن

يراها مثل هؤلاء الناس ، فى أيام شبابهم ، والتى تعبر عن المقاصد النبيلة والأعمال الجليلة فى حياة الرجال ! وإذا ما قدر لروح طيبة أن تنشأ وتتربى بين أناس من هذا القبيل ، فإنها لا تملك إلا أن ترضع شيئا من الارتياح الناتج عن الدراسات والاطلاع ، فى ظل المهمة الفارغة للرسائل العربية ؛ مثل هذه الروح ، إن قدر لها ذلك سوف تنمو نحو الأسفل وليس نحو الأعلى . الباشا الكردى فى هذه الأيام لديه ممتلكات ممولة تمويلا جيداً ؛ وكلها موجودة فى دمشق ، (التى بنى لنفسه فيها قصراً منيفا) ويزيد إيجارها السنوى على أكثر من ١٠٠٠٠ جنيه ، إن قدر لنا تصديق كل ذلك : والمعروف أن والد محمد سعيد لم يكن سوى أغا فقير الحال من قبله . ومحمد سعيد شأنه شأن الكبار العظام الذين تربى بينهم ، كان رجلا محبا لعنف القتال والمعارك وسفك الدماء منذ صباه وشبابه . وعندما عين محمد سعيد مع مرور الزمن حاكما على عكا Acre، عندما رفض القائد المغربى Moghreby التنازل أو التخلى عن منصبه ، انتهزوا الفرصة ودخلوا معه فى معركة دارت فى عكا : جرى ذلك الصراع فى زمن ، أو إن شئت فقل : فى أيام خلت من سلطة القانون ، بين الأكراد والمرتزقة المغاربة ، كما جرى ذلك الصراع أيضا بين هاتين الفئتين وبين الألبانيين الذين لا يقلون عنهم صخبا واضطرابا ؛ أسفرت هذه الانقسامات عن حدوث تورمات فى ذلك الجزء من الإمبراطورية التركية . وهنا راح القسم الخاص ، أو الجزء الخاص بمحمد سعيد ، يطارد الباقين إلى بحيرة طبرية ، وواصل قتالهم وإنزال الإصابات بهم إلى أن عبروا جسر يعقوب على نهر الأردن ، ومات شقيق محمد سعيد فى ذلك المكان ، وقد أبلغنى أحد الأصدقاء المقربين من باشا الحج أن الحكومة التركية تتباطأ فى التدخل فى مشاجرات تلك القوميات العنيدة ، بل إنها تتركهم فى غيِّهم يزهقون أرواحهم بأنفسهم ويهدرون دماءهم بأيديهم : كما أبلغنى أيضا أن الأتراك يحكمون أيضا عن طريق استغلال التعارض بين الأديان : وهم بهذه الطريقة يضعون حلقة فى أنف سوريا .

ونظرا لأن الكردى العجوز كان أكثر تعلقا بمنصبه ، فقد أصبح هو نفسه واحداً من ملاَّك الإبل فى القافلة ، إذ كان له خمسين جملا كانت تحمل البضائع والأغراض المرسلة إلى الأراضى المقدسة ، التى من قبيل المؤن السنوية من الزيت الذى كان يتم إرساله للحرمين الشريفين ؛ ويجب ألا يغيب عنا هنا أن الحِمْل من المواد المقدسة يزن

ستين رطلا فقط ، فى حين أن الحمل المعتاد يزن مائة رطل . هذا يعنى أن ذلك الكردى العجوز كان يلحس الدسم من كل اللحى وهو يسير على طريق الحج ، فضلا عن رضاه عن تلقى هبات السلام من رعاة القلاع المساكين ، والتى كانت تتمثل فى هدايا من البيض الطازج ، والدجاج ، وهدايا من الليمون الحلو وما إلى ذلك ! أطفال ذلك الكردى العجوز كانوا ابنة واحدة فقط ، بلغ حبه لها أكثر من حبه لنفسه . وأنا عندما عدت ثانية من رحلة الجزيرة العربية إلى دمشق ، ذهبت للسلام عليه فى قصره الذى صنعوا له سلما من الرخام ؛ – ذلك الأب التعيس ! الذى كانت ابنته العزيزة قد ماتت منذ أيام قلائل . وا أسفاه لهذا الرجل المكلوم ، الذى دُفِن جزء منه ، فما هو ذلك الذى يمكن أن يعيش من أجله بعد ذلك ؟ ولمن ستئول تلك الثروات الضخمة ، فى القريب العاجل ، عندما يتعين حمله لإخراجه من منزله ، بعد الوفاة ، ورجلاه متجهتان نحو الأمام ! كان لذلك الكردى العجوز أخوة بطبيعة الحال ؛ فقد التقيت بأخيه الصغير ، الذى كان ضابط صف ، التقيته قبل وقت قليل من القيام برحلتى ، والذى صاح ، عندما علم بخبر التحاقى بقافله الحج ، وهو يعبر عن ضيقه الشديد قائلا : "الله يُحرِّم ذلك : هل يسمح لأى نصرانى بدخول الحجاز !" – هاهو قائمقام معان يتقاضى ٢٠ جنيها إنجليزيا فى الشهر ، وهو يعيش من تموين الشعير الذى يصرف علفا لحصانه . وهو بالإضافة إلى صرف القمح والأجور المطلوبة لحامية قوامها ستين رجلا ، لا يحتفظ من ذلك العدد سوى بعشرين رجل فقط ، منهم عشرة رجال فقط من الجنود الدمشقيين. أما بقية الحامية فهم من الفلاحين الذين يجلبهم من القرى المجاروة ويتقاضون أجورا متدنية ، هذا يعنى أن ذلك القائمقام يوفر لنفسه هو أجور أربعين من الرجال الذين يمكن أن يعيشوا عيشة كريمة ؛ هذا الوفر يجرى تقسيمه بطبيعه الحال فيما بينه وبين كبار ضباطه ! هذه هى لعبة درب الحج ، أو إن شئت فقل : طريق الحج ، التى يساند كل واحد منه الآخر ويعينه على تحقيق المكاسب ، وكلهم متضامنون مع بعضم البعض ؛ وبذلك يصبح اسم حكومة السلطان علامة على مجموعة ، أو إن شئت فقل : عصابة من اللصوص .

صدرت فى الصباح طلقة الإشارة واستأنفت القافلة سيرها من جديد ؛ قبل ساعتين من طلوع النهار ، كنا نسير فى مكان ملئ بالأشواك وأشجار الإثل ، هذا

مؤشر على وجود الماء ؛ جمعنا كمية كبيرة من الحطب . والتربة الرملية المفككة هنا تتخللها أحجار أو حصوات بركانية سوداء ، جاءت من الحرَّة Harra بكل تأكيد . هذه هي التلال وقد بدأت تتلاشى في اتجاه الشرق ، وهذا هو الريف بدأت ملامحه تتضح من أمامنا . وفي اتجاه الغرب ، نشاهد الآن ، خلف الحدود المنخفضة سلسلة من قمم الأحجار الرملية ، التي تتوالى صفا بعد صف ، وبعض هذه القمم سوداء اللون وعلى شكل منصة جبلية ، وتلك هي الحرَّة . هذه الرءوس عبارة عن براكين خمدت وانتهت . ويصل ارتفاعها إلى ارتفاع الحرَّة ، وهي تقع على بعد حوالي عشرين ميلا في الخلف ! (*) وبعد مسير دام عشر ساعات عبرنا حزاما من التلال ، كان يعترض طريقنا على امتداد ساعة كاملة . وخيمنا بعد ذلك على بعد حوالي أربعين ميلا من مدينة تبوك ، إذ نصبوا الخيام على أرض خالية يطلقون عليها اسم دار المر el-Mûghr Dâr أو دار الكلندري el- Kalandary Dâr؛ والحرة الواقعة خلف منطقة المخيم هي حرة بدو سدنين الرُّحل Sidenyîn ، وهم فرع من بني عطيه ، الذين تعقص كل واحدة من نسائهم خصلة شعرها الأمامية على شكل قرن من قرون الحيوان ، وتضع خرزة على جبهتها .

عند الساعة الثالثة من ظلمة الصباح نزلنا عن دوابنا لنترجل مرة ثانية . وبدأنا نسمع من جديد ضجيج الفوضى الناتج عن عملية الترجل ، والذي أصاب قلوبنا بالقلق وعدم الارتياح ! تخيل تلك الجلبة المفاجئة ، في جوف الليل ، وجؤار الآلاف من الإبل . واصلنا مسيرنا خلال حزام من الجبال ، في أرض مجوفة ، واصلنا صعودنا فيها ، إلى أن وصلنا عند الساعة التاسعة ، إلى أعلى نقطة في الطريق . وها نحن الآن سوف ننزل حالا عن طريق تلك الرأس التي هي في حقيقتها عبارة عن وادٍ ضيق طويل يطلقون عليه اسم بوغاز الأخضر el-Akhdar Boghrâz ، والذي يصل عمقه إلى حوالي مائة قدم داخل صخر رملي شديد الكثافة : ولما كانت تلك مضايق خطيرة فإن البدو يطوقونها ويحاصرونها من كل مكان ، يضاف إلى ذلك أن تلك المضايق لا تسمح بمرور أكثر من جملين اثنين يسيران جنبا إلى جنب . ورأيت على وجه حجر من الأحجار ،

(*) انظر ملحق صور الكتاب ، والصور المحشَّاة : هذه الرءوس عبارة عن براكين خمدت وانتهت ويصل ارتفاعها إلى ارتفاع الحرَّة ، وهي تقع على بعد حوالي عشرين ميلا من الخلف . (المترجم)

على جانب الطريق ، نقشا نبطيا من سطرين ، وهذا هو أول نقش أصادفه فى هذه البلاد : عندئذ قفزت من فوق الجمل الذى كنت أركبه ، وكان يتحتم على أن أدون وعلى وجه السرعة تلك الحروف الغريبة ، ولكن إن هى إلا لحظة واحدة ، وجدتنى بعدها وقد تخطانى مد كبير من أفراد القافلة الذين كانوا يسيرون خلفى ، بل إن البعض منهم راحوا يسبون ويلعنون ذلك الحاج الذى اعترض طريقهم ، بعض آخر كانوا يمرون على ويتعجبون منى ، هذا المضيق يفضى ، بعد مسير ساعة من الزمن ، إلى قاع واد رملى يصل انخفاضه إلى حوالى مائة وخمسين قدما عن المضيق السابق ، وشاهدت فى ذلك الوادى بعض الأدغال والنباتات الصحراوية : وبذلك نكون قد وصلنا إلى قلعة ، أو إن شئت فقل : محطة أو استراحة الأخضر ، قبل ساعة واحدة من دخول وقت الظهيرة ، لننال قسطاً من الراحة ونتزود بالماء . والأعراب فى هذه المنطقة يطلقون على كل من الوادى والبرج ، أو إن شئت فقل : القلعة اسم الخُضْر el-Khuthr، وشيخ البدو الذى يجاورهم (المساعيد ، هو وأتباعه من بنى عطية) يلقب بالخضيرى . el- khûthery وسيدنا خضر Khithr هو ذلك البدوى الغريب الذى ورد ذكره فى الإنجيل ، إيليا Elijah النبى ، ونحن نرى داخل القلعة ، معبدا من الخرق الباليه للابتهالات إليه أو التوسل به . والنبى إيليا Elijah يخلط السوريون بينه وبين القديس Saint جورج George . والنبى إيليا هذا نبى قوى وعظيم عند كل من السوريين ، والمسلمين وكذلك المسيحيين اليونانيين : وهم جميعا يتكهنون ، إعتبارا من يوم مولده كل عام ، أى فى فصل الخريف ، بالتحول الذى سيطرأ على الطقس ، الذى يكونون متأكدين منه تماما ، ولم يحدث أن خذلهم أو خيب ظنهم فى مرة من المرات . وقد ظهر ذلك التشبايت(*) Tishbite النارى الذى يرفع بسرعة إلى السماء ، لبعض الناس فى ذلك الوادى المهجور ؛ والمسلمون الذين لا يعرفون تقاليدنا أو تراثنا الإنجيلى يقولون عنه : "هو ذلك النبى ، الذى هو فى الأرض وفى السماء أيضا ."

فوق مدخل تلك القلعة يوجد نقش عربى ، محفور داخل إطار ، ومشكل على شكل لائحة تحمل شعارا رومانيا . والخزان الكبير ثلاثى الأجزاء ؛ ولا يستخدم من هذا

(*) كلمة التشبايت : كلمة غير عربية ، عبرية الأصل بمعنى " الوهج " (المترجم)

الخزان هنا سوى الثلث فقط ؛ ويجرى جلب الماء من بئر ضحلة موجودة داخل القلعة . عملية سقيا هذا العدد الهائل من البشر ومن الماشية عملية شاقة تماما ، والعجيب بحق أن هؤلاء الرجال أصحاب الأجسام المهدودة والذين يتغذون بطريقة سيئة للغاية لديهم قدرة غريبة على التحمل . شاهدت خلف مخيم الحجاج بعض الكبائن البائسة ، وعلى مستوى منخفض من القلعة ، التى يعيش فيها بعض البدو الرحُّل الذين يتوارثون مهنة بيع الأعلاف الجافة لقافلة الحج : والبدو ليسوا على استعداد لتسخير أنفسهم لأى عمل من الأعمال التى يعدونها أعمالا دنيئة أو خسيسة . ومعروف أن البدو الذين احتقروا العائلات الصحراوية ، التى يطلقون عليها اسم السويفلى **Sweyfly**، هم بدو الشرارات . ورأس هذا الوادى تقع فى المنطقة التى يطلق عليها اسم الرَّاحة **er-Raha** فى الحرَّة ، أسفل تلال الشيبان **Sheyban** والوتر **Witr** البركانية العالية . ومن صخرة فى أعلى قمة الوادى ، ينساب نحو الأسفل نهير صغير من الماء الدافئ ، الذى تحيط به فى المناطق المنخفضة الزائدة ، نباتات القصب من كل جانب ، وتعيش فى هذه المياه الصحراوية بعض الأسماك الصغيرة . من هذه البرك يسقى الأعراب إبلهم ، أما هم فلا يشربون من هذه المياه ، لأنها سيئة المذاق ؛ أما الماء العذب فيوجد على بعد مسافة قصيرة من هذا المكان ، ويجرى الحفر للحصول عليه من جديد . فى هذه المنطقة يتجة الوادى شمالا ، ثم يمتد بعد ذلك ، خارجا ليصل إلى محيط تبوك حسبما بلغنى من البدو الرحل فى هذه المنطقة . والبدو الذين لهم حق فى أرض ذلك البرج ، أو إن شئت فقل : القلعة ، والذين لهم أيضا الحق فى تلقى الصُّرَّة كل عام ، فضلا عن حقهم فى نقل الحجاج هم بدو الموءاهيب **Moahîb**، الذين أصبحوا من أصدقائى فيما بعد (وهم أعراب الحره المنخفضة التالية) ومعهم أيضا أعراب الفجير **Fejîr** والفقارة **Fukara**؛ وهم جميعا من القبائل العنزية **Annezy** التى تعيش حول مدائن صالح .

شاهدت على جانبى ذلك الوادى رُجُمًا أو إن شئت فقل : إشارات من الحجارة ؛ سائقو إبل الحج يطلقون على واحد هذه الرُّجم اسم منطار **Mantar** . شاهدت هنا أيضا الكثير من مقابر الحجاج الذين دفنوا على عجل ؛ "شواهد القبور هنا كثيرة فى هذه المحطة ؛ دوَّن الأصدقاء على رءوس تلك الشواهد الكلمات التى كانت أسماء لهؤلاء المتوفين . لقد مضت أيام وليال كثيرة لم يغير خلالها هؤلاء المساكين ملابسهم ،

الأمر الذى يجعل كل هؤلاء الذين يسكنون ويعيشون بالقرب من أنهار دمشق ، إلى دراويش مساكين . ولكن الإنسان إذا لم يستطع ، فى زمن محدد ، تخليص نفسه من المتاعب التى من هذا القبيل ، دافعا بذلك ضريبة للطبيعة لقاء هذه المصاعب ، لا يحق له أن يطلق على نفسه اسم إنسان : ومن يخاف إذا ما طلعت عليه الأسود ، لا يحق له أن يطلق على نفسه اسم "ابن السبيل" فى هذه البلاد المخيفة .

بعد أن أرخى الليل سدوله تسللت مع الأسود إلى داخل المخيم ، حتى يتسنى لى زيارة بعض النقوش الموجودة داخل القلعة . اقتربنا متحفظين من الجناح المخصص لباشا الحج ، هذا الجناح عبارة عن خيمة مزدوجة يميل لونها إلى الاخضرار ، وهى كما يقول إنجليزية الصنع ومصنوعة من الحرير ، هذا يعنى أن مصنعية تلك الخيمة من أفضل المصنعيات الإفرنجية ؛ ومع كل خطوة نخطوها كنا نتعثر فى الحبال الممتدة والأوتاد المغروسة فى الأرض ، تلك كانت حبال خيام الحجاج ، التى تبدو مثل خيوط العنكبوت بعد نصبها ، وهى تعج بالإزعاج من الداخل ، ويصحوا النائمون فيها على أصوات مزعجة وطنين وقح فى آذانهم . ويصيح صوت : "من هناك!" ، ويتوجب علينا الرد برقة قائلين : "عفوا ، نحن أصدقاء" ، ويتواصل تعثرنا بعد ذلك . كانت القلعة مفتوحة ، وفى مدخلها أضأنا فوانيسنا ، وبعدها أطلعنى الأسود على النقوش ، التى كانت عبارة عن قلة قليلة على أحجار الجدران . وتصادف أن جاء بعض أفراد الحامية الذين كانوا يتجولون ، وهم أصلا من المغاربة ، واندهشوا عندما رأونى أكتب وأدون ، وعندما تكلموا وصلوا على النبى ، لم أرد ببنت شفة ، لأنى فى داخلى لم أستطع ذلك أو أتمكن منه . ألقينا نظرة على غرفة خرق إلياس Elias، ثم رحلنا عن المكان على وجه السرعة ؛ كانت القافلة على وشك استئناف التحرك من جديد ، وأن يستمر التحرك طوال الليل نظرا لأن الحج جهاد .

بدأت القافلة تتحرك عند الساعة العاشرة مساءً فى ليل عَمُرتْ سماؤه بالنجوم ، ومضينا نازلين إلى أرض منخفضة تتناثر فيها قمم صخرية عالية ، وواصلنا المسير إلى الساعة الثانية صباحا ، وعندها بدأت الضفة الشرقية تذوى متحولة إلى سهل واسع من أمامنا . كانت ليلة ليلاء هبت فيها ريح باردة ؛ جعلت المشاة يوقدون النار فى حطب

الأدغال الجافة ويتوقفون لحظات ابتغاء شيء من الدفء . أمضينا حوالى ساعة أو ساعتين ونحن نسير فى مكان عامر بأشجار السنط ، ويطلق عليه أفراد القافله اسم "جنينات Jeneynat القاضى" el-Kâdy ؛ والمعروف أن كل الأدغال الخضراء هى والأشجار الخضراء يطلق عليها . فى الصحراء ، اسم "جُنينة" . وبعد أن قطعنا مسافة عشرين ميلا دخلنا وادٍ منخفض وسيع ؛ وقبيل طلوع الشمس توقفت القافلة مدة أربعين دقيقة . واعتبارا من هذه النقطة بدأنا ندخل وادٍ ضيق طويل هو وادى Wady سانى Sâny الذى تعد صخوره فراشا صخريا كثيفا من حجر الحديد الرملى وتنتشر فى هذا القاع الرملى بعض البقايا البركانية ، التى يميل لونها الرمادى إلى الزرقة ، فضلا عن ثقلها وصلابتها ، وتآكلها لتصبح على شكل أحجار حادة ، أو أحجار اسفنجية خفَّافة ، أو حمم بركانية سوداء اللون . وتتوقف هذه الأكوام . عدة أميال ، لتبدأ فى الظهور من جديد ؛ شاهدت تلك الصخور المنجرفة وقد تساقطت فوق رفوف الضفة الغربية للوادى ، وهذه الصخور تنتمى وبلا أدنى شك إلى الحرَّه Harra، التى تمتد محاذية للطريق اعتبارا من مدينة تبوك ، بالرغم من عدم ظهور ذلك لنا بصورة واضحة . كانت أرض هذه المنطقة تناسب بل وتصلح للسير فيها على الأقدام ، ولذلك نزل الكثيرون من فوق دوابهم كى يسيروا على أقدامهم لمدة قصيرة . سارع بعض الفرس ، من جيرانى ليعرضوا علىَّ (أنا الذى حسبونى حكيما) قطعا صغيرة من البللور النقى ليتحققوا من عدم اكتشافهم للماس ؛ والسبب فى ذلك أن البسطاء من أمثال هؤلاء الناس يحسبون عندما يكونون بعيدين عن ديارهم أنهم قد اقتربوا كثيرا من ثروات هذا العالم ومن عجائبه أيضا . فى هذه المنطقة وعدنى الأسود بمشاهدة الكثير من النقوش ، ولكنى لم أجد سوى أشياء بسيطة لا قيمة لها ، وجدت هذه النقوش البسيطة على قطع صلبة من الأحجار الرملية المبعثرة على أرض الوادى . وفى الوقت الذى استغرقته فى تدوين تلك النقوش البسيطة كانت القافلة قد تركتنا وراءها منذ حوالى نصف ساعة ، ومر علينا البدو الحمَّالون ، وهم أناس توحى نظراتهم بالشك ، وهم مختلفين تمام الأختلاف عن الحَّمالين الدمشقيين الذين توحى وجوههم بالسماحة . كان هؤلاء البدو الحمالون يرتدون ملابس رثة ، ويركبون فوق حمولات المتاع والأثاث الجائرة التى وضعوها فوق ظهور إبلهم الصحراوية صغيرة الحجم ؛ هؤلاء البدو ، هم الذين

استضافوني فيما بعد في تلك الأرض القاحلة . والحجاج يعجبون في أعلى الجانب الشرقي من الوادي بتمثال يشبه الدُّب ، سواء أكان ذلك من عمل الفن البدائي أم بفعل سخرية الطبيعة من نفسها . هذا التمثال ، من وجهة نظري ، يشبه الخرتيت الذي يقف على أقدامه من فوق قاعدة (*) . وقد يخطر ببال من ينظر إلى هذا التمثال أنه صنم من الأصنام ؛ وسمعت من بعض الذين تسلقوا ذلك التمثال ، أن صورة هذا التمثال طبيعية . وأنا أرجح ذلك الرأي نظرا لأن الأحجار الرملية في بعض مناطق الحديد ، بل وفي بعض الأماكن الأخرى قد تكون لها أشكال غريبة كثيرة .

عند الساعة الرابعة مساءً ، وصلنا بعد صعود مستمر في جزء شديد الارتفاع من هذه الأرض ، إلى مخيمنا ، بعد مسير دام تسعة عشر ساعة . وهم هنا يطلقون على هذا المكان بركة المعضَّم Moaddam Birket، التي توجد بها قلعة مهجورة ، هي أجمل وأكبر القلاع الموجودة على طريق الحج ، وفيها أيضا صهريج مياه ضخم ؛ وهي من أعمال الإحسان التي قام بها السلطان سليم ، والحدود في هذه المنطقة تنحصر بين الفجير Fejir والخضيرة Khuthéra، وهم من البدو الرحَّل ؛ ويصل ارتفاع الأرض إلى حوالي ٣٧٠٠ قدم ؛ هذه واحدة من المحطات الجميلة وبخاصة عندما تشتد درجة حرارة الصيف . والبركة هنا خربة وليس فيها ماء ؛ وهذا يضطرنا إلى القيام بمسيرات طويلة بحثا عن المياه ، والأمل الوحيد في العثور على الماء اعتبارا من محطة الأخضر el-Akhdar قبل مدائن صالح ، يقع على بعد حوالي خمسين فرسخا ، ويتمثل في المحطة التالية التي يطلقون عليها اسم الدار الحمراء el-Hamra Dâr والتي لا يوجد الماء فيها بشكل عام أو دائم . وكل ما في الأمر أن تلك المنطقة فيها خزان كبير للمياه في مجرى سيل من السيول يمتلئ بالماء بفعل ماء المطر غير المضمون ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الماء عندما يجري أو يتوفر في ذلك المجرى أو في الخزان ، فإنه يتبخر خلال فترة وجيزة ولا يتبقى منه سوى الحثالة التي تطفح بالديدان . ورحلة الحج ، تعمل ليلا ونهارا ، على الوصول إلى مكان السقاية قبل نفوق الداوب والمواشي ، التي تحمل بضاعتهم

(*) هذال التمثال يشبه الخرتيت الذي يقف على أقدامه فوق قاعدة .

وأغراضـهم بل وحـياواتهم أيضـا . هـذا السـير الطويل ، الذى يصل طوله إلى حـوالى ١٥٠ ميـلا ، يؤدى إلى وفـاة الكثـيرين من الرجال الذين يرهقـهم الطريق ويأتـى على قـواهم . وأنا نفسـى ، رأيت بعض رجـال القـافلة الأشداء ، الذين كنت أعـدهم من الشـجعان الجسـورين ، وهم يرتعدون عندما يروون ذكرياتهم القديمة المؤلمة عن أهوال هـذه الرحلة . والمرعب بحق ، أن يأتى موعد الحج ، فى ضوء الدورة القمرية التى تستمر ثلاثين عاما ، فى ذروة فصل الصيف ؛ فى مثل هذا الوقت تكون سماء الجزيرة العربية من فوق رءوس هـؤلاء الحجاج ، وكأنها نحاس يحتـرق ، وتكون الرمال مثل الفحم المشتعل من تحت أقدامهم . ولكن فى هذا العام وصلت إلى دمشق أخبارا طيبه ، عن سقوط الوابل والأمطار ، وأن هناك سيلا أدى إلى امتلاء الخزان بالماء . بالقرب من هذه المحطة توجد صخرة يطلق عليها البدو اسم قبة التماثيل Khubbat et-Timathîl، وفيها أيضا بعض النقوش . واعتبارا من هـذه المنطقة يتولى القسم الجنوبى من ولاد على Welad Aly مهمة نقل أمتعه وبضائع وأغراض الحج ، ومناطق تجوال ولاد على تجاور مضارب أقاربهم من الفقارة Fukara، بل تمتد إلى ما بعدها ، حتى تصل إلى سَوْرة Sawre، المحطة الرابعة قبل المدينة (المنورة) . ويصل عدد خيام ولاد على إلى حوالى أربعمائة خيمة . وأولاد على ليسوا محاربين ، وهم خونة ، ومتقلبون ، ولكن كرمهم لا يحوم حوله شك أو شبهات . أولاد على هـؤلاء توقفوا فى الفترة الأخيرة عن دفع الزكاة لأبن الرشيد ، أمير شمّر العظيم ، كما باعوا أيضا منطقة خيبر للحكام الأتراك فى المدينة (المنورة) ، كل ذلك أوغر صدر ابن الرشيد وجعله يهجم على أولاد على فى فصل الصيف ، فى معركة ، دارت فى مدائن صالح ، استولى فيها على إبلهم وعلى خيامهم بكل مشتملاتها .

استـأنفت القافلة مسيرها عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ؛ وبعد بضعة أميال قليلة مررنا خلال أحزمة من الأشواك الصحراوية ، التى تعد أشجار السنط أشهر نباتاتها التى يحصل الناس منها على الصمغ العربى . واصلت القافلة مسيرها فى السهل الرملى الواسع ، الذى تحف به التلال من الجانبين ، وعند طلوع النهار وجدت أننا كنا على ارتفاع حوالى ٤٠٠٠ قدم . الأرض فى هذه المنطقة مكشوفة للطقس بصورة دائمة ولا تسقط عليها الأمطار . لم أرى فى هذه الأرض الجرداء أى

مجرى من مجارى السيول ، وذلك اعتبارا من وصولنا إلى هنا قادمين من العقبة ، وربما استطاع البدو تبين مثل هذه المجارى أما نحن فلا نستطيع ذلك : والمعروف أن أصقاعا واسعة من صحراء الجزيرة العربية تخلو من مجارى السيول . داخل الدائرة التالية ، أو إن شئت فقل : مدائن صالح ، لم يسقط المطر طوال السنوات الثلاثة الماضية سوى مرة أو مرتين . وأرض الوادى من أمامنا تنتشر فيها الصخور البركانية المنجرفة على امتداد أميال عدة ؛ وبالرغم من اختفاء حدود الحَّرة ، إلا أنها ليست بعيدة عن الطريق الذى نسير عليه . يضاف إلى ذلك أن الرمل تنتشر فيه حبيبات بلورية صغيرة ، يشبهها الحجاج بحبات الأرز . وإلى ناحية الشرق من الطريق ، أرى مجموعة من قمم الحجر الرملى شديدة الأسوداد ، والتى تشبه أبراج مدينة من المدن المدمرة .

وصلنا قبل غروب الشمس إلى خيامنا البيضاء التى نصبت بجوار القلعة المدمرة ، التى لم يكن لها باب وكانت شبه مهجورة تماما ، ويطلق الناس عليها اسم 'الدار الحمراء' . هذه القلعة مبنية من صخر وردى اللون ، مثل لون الأرض تماما . كانت القلعة تبدو مرتفعة ومرعبة فى ضوء السَّحرْ وسط هذا الجزء القاحل من العالم . نحن هنا فى هذه المنطقة على ارتفاع حوالى ٤٢٠٠ قدم . وبعد أن قطعنا ما يزيد على مائة ميل خلال ثلاث وأربعين ساعة وصلنا إلى حيث يوجد الماء - هذا الماء هو حثالة الماء وتشغى فيه الديدان . ليالى الصيف فى هذا المكان منعشة فى هذه المنطقة فيما بعد غروب الشمس ، ليالى الصيف تكون هنا باردة فى الربيع وفى الخريف ، وهذا يعد خطرا على صحة من يقومون برحلة الحج ، وبخاصة عند عودتهم منهكين من مناخ مكة المدارى . حكى لى الأسود حكاية غريبة عن عام من أعوام الكوليرا ، الذى مضى عليه الآن ثلاثة أو أربعة أعوام ، أثناء الصعود للحج : من رأى الأسود ، أن عدد الذين كانوا يموتون أثناء السير وفى المحطات الليلية ، كان (كثيراً جداً) يقدر بحوالى مائة حاج أو شخص فى اليوم الواحد . وكان يجرى ربط المتوفين ومن هم فى النزع الأخير من حياتهم إلى ظهور الإبل إلى أن نصل إلى هذا المكان ، طبقا لما قاله الأسود ؛ وكان الكل خائفين ، ولم يغب عن بال أى أحد من أفراد القافلة أنه ربما كان عليه الدور فى الوفاة بعد ذلك ، وقد لا يعود إلى داره وأهله مرة ثانية ؛ كان ذلك اليوم مطيرا ،

واستمر سقوط المطر طول الليل . ثم انطلق مدفع الإشارة فى ساعة مبكره قبل الفجر ، وبدأت قافلة الحج تتحرك مسرعة ، مخلفة وراءها على أرض الصحراء السوداء المبتلة ، ما يقرب على حد قوله ، من مائة وخمسين جثة من جثث الموتى ومن هم فى النزع الأخير من الحياة . وفى النهاية ، يصل أولئك الذين بقوا على قيد الحياة ، إلى مرتفعات الصوان الصحية ، ليجرى احتجازهم ليجرى تطهيرهم فى الحجر الصحى فى مدينة الزرقه ez-Zerka مدة ثمانية أيام . ومن رأى الأسود ، أن حوالى نصف القافلة هم الذين بقوا على قيد الحياة ليعودوا ثانية إلى بوابة الله ، ويمروا من خلالها داخلين إلى شوارع دمشق الجميلة . كثيرة حكايا هؤلاء الناس عن الحج وبخاصة الحكايا التى تتعلق أو تتصل بسنوات مرض الكوليرا ، ومن بينها هذه الحكاية . حدث أن كان هناك رجل يحتضر على الطريق ، وراح أصدقاؤه يحضرون قبرا له بأيديهم ، ثم وضعوا جثمانه بداخله ؛ وعجلوا بتكويم التراب فوق جثة ذلك الميت ، ثم استأنفوا مسيرهم مع القافلة . وبالتدريج . بدأ الميت خلال ذلك الدفء الجاف ، يفيق ويصحو من جديد ، وينهض الميت من ذلك القبر الضحل ، ويتمالك نفسه ليدرك أنه كان فى عالم خال من حوله وأن الحج قد فاته وتركه . وراح ذلك المريض يمشى مترنحا فى إثر القافلة فى تلك الصحراء الجرداء القاحلة ، وراح يتنقل من محطة إلى محطة ، أو إن شئت فقل : من قلعة إلى قلعة ، ومن بدو رُحَّل إلى بدو آخرين ، إلى أن وصل سيرا على الأقدام عبر تلك القفار إلى دمشق ومنها إلى داره ؛ التى استقبله فيها أقرب أقاربه ، الذين تجادلوا من باب الإحسان فى حقيقة ذلك الرجل ، نظرا لأن البعض من هؤلاء الأقارب هم الذين سبق لهم أن دفنوا جثته بعد وفاته ، فى قبر فى الجزيرة العربية . لقد أمضوا بشأنه فترة الحداد ؛ وهاهو يعود إليهم بغير مناسبة ، بعد أن تقاسموا ثروته وماله فيما بينهم .

أخذنا قسطا من النوم ، ونحن نحس بالنَّصب والبرد ، ثم استأنفت القافلة مسيرها قبل ساعة من طلوع نهار اليوم التالى ؛ الأرض فى هذه المنطقة عالية وعلى شكل مطلع من الأحجار الرملية الوعرة ، التى تتخللها وتنتشر فيها حبات بلَّورية تشبه حبات الأرز . وأفراد القافلة يطلقون على هذا المكان اسم شوك العجوز el-Ajuz Shuk، والناس هنا يقولون : إن سيدة من القدماء ، سقطت ذات يوم فى ذلك الطريق الوعر ، وأنها هى التى قدمت المال اللازم لتمهيد الطريق . أما عن الارتفاع فقد اكتشفت أننا

كنا على ارتفاع حوالى ٤٥٠٠ قدم : وأنا أرى حاليا من هذا المكان الواجهة السوداء لهضبة جبل الحرّة الضخم الذى يمتد ناحية الأسفل قادما من اتجاه الشمال . نزلنا بعد ذلك إلى سهل رملى يسير على شكل رف ، يطلق عليه البدو الرحل اسم مَنْزَل الحج Menzil . el-Haj وعلى بعد حوالى عشرين ميلا من الدار الحمراء ، يسير جزء من الطريق ، بين الصخور الرملية الوعرة ومنطقة من الرمال العميقة يطلق الناس عليها اسم الزلاقات ez-Zelakât، توقفنا فيها مدة ساعة من الزمن ، وكان النهار خانق الحرارة وساكن الريح . بلغنى أنهم شاهدوا نقوشا فى هذا المكان . وأفراد القافلة يطلقون على الجبل الموجود عن يسارنا اسم أبو طاقه Abu Tâka، وهم يروون القافية التالية عن ذلك الجبل : 'جبل أبو طاقة فيه أربع وعشرين زلاقة'؛ وهنا أيضا على بعض الصخور ، توجد بعض النقوش السورية ، التى تزدرى وتستهجن حماقة أى حج من الحجاج الذين يصحبون معهم الحريم الثرثار فى تلك الرحلة : "ابن الكرَّة الذى بيحاجز المره "(*) . كان سائقو إبل قافلة الحج من حولى ينادون علىَّ ، وهم سائرين على اقدامهم المرهقة : "يا خليل أفندى ، ألم ترى بعد الخيام من فوق ظهر جملك ؟" واستمر الحال على ذلك المنوال إلى أن حان موعد الرد على تساؤلهم وقلت لهم : "أنا شايف" ، بمعنى "أنا أرى الخيام عن بعد " . وصلنا إلى مخيمنا الأبيض الذى نصبت خيامه فى منخفض رملى تحيط به التلال ، ويطلق عليه أفراد القافلة اسم "مفارش الرُّز "Mufarish er-Ruz"، والسبب فى تلك التسمية هو أن حبيبات الصخر البللورى تنتشر فى أنحاء هذا المكان . عند هذا الحد أكون قد شارفت على الوصول إلى نهاية رحلتى مع الحج ؛ والمحطة التالية ستكون مدائن صالح الأسطورية ، التى جئت من بلاد بعيدة ، باحثا عنها فى الجزيرة العربية ، أو إن شئت فقل : فى بلاد العرب . والمسافة من هنا إلى مدائن صالح قصيرة نسبياً ، ومن المقرر أن نصلها فى الصباح الباكر ، وفيها تصل القافلة إلى الماء وإلى السقيا .

(*) هذه عبارة عامية سورية معناها : أن من يصحب معه الحريم فى رحلة الحج مغفل وأحمق . (المترجم)

استأنفت القافلة مسيرها بعد ساعة من منتصف الليل : كان هواء الليل جميلا من حولنا ، هواء بلاد العرب الدافئة . أخيرا وفى ظلمة سحر الصباح . وبينما كنا نواصل المسير ، دخلنا منطقة رملية ومنزل على شكل مضيق يقع بين قمم صخور من الحجر الرملى . وسمعت صياحا قادما من المقدمة ، وهنا طلب منى الأسود أن أنظر إلى الأعلى ، كان ذلك هو مكان "مَبرْك الناقة الشهير" ويصح فيه أيضا "مبرك الناجة" . ومعنى "مبرك الناقة" باللغة الإنجليزية ، مفاده "المكان الذى بركت الناقة فيه لتموت"؛ وهذه الناقة الأسطورية التى ولدت من صخرة من الصخور بناء على شفاعة سيدنا صالح الذى سميت المدائن باسمه(*) ، والتى أراها أمامى الآن . وقد رأيت فى هذا الضوء الخافت أكواما من الأحجار فوق الكتل الصخرية التى سقطت على الأرض ، وهذا مؤشر على أن ذلك مكان لعين أو ملعون أو إن شئت فقل : حلت عليه اللعنه . هذه الناقة المقدسة اخْتُرقت إلى حد النفوق فى ذلك الممر ، وذلك بفعل رمى نبال بعض أبناء بليال Belial، ومن ثم فإن الحجاج يطلقون أو يفتحون نيران مسدساتهم ، ويحدثون هرجا ومرجا ، مخافة أن ينزل الخوف بدوابهم بفعل أنين ناقة النبى صالح الذى يتردد بين الصخور كما لو كان صادرا عن أشباح . وبدو هذه المنطقة ، (...) (**) ، يعرفون ذلك المكان باسم "المَزْحَمْ" el-Mézham بمعنى "مكان الزحام" . وهذا المزحم قصير عند المنحدر الأول ، ثم يفتح بعد ذلك على سهل الحجر الذى هو مدائن صالح ؛ وعندما أشرقت الشمس كشفت لنا عن منظر الأرض الطبيعى الفريد لذلك الوادى الذى يشبه السهل ، والذى تحيط به جروف هائلة من الصخر الرملى (الذى يشبه سلسلة من حوائط المدن وجدرانها ، وأبراج خيالية ، وبنايات تشبه القلاع ،) ومن فوق كل ذلك يوجد كتف من الرمل المنجرف . والقاع من الرمل ، وبه بعض المنجرفات البركانية . وفى اتجاه الغرب يرى الناظر اسودادًا جبليا هائلا ، كما يرى أيضا الانخفاض المريع للحرَّة .

(*) ناقة النبى صالح : يؤخذ من القصص الدينى أن عبدة الأصنام من قوم ثمود طالبوا النبى صالح بمعجزة تثبت أنه رسول الله . وشاءت إرادة الله أن تستجيب لطلبهم حيث إن صخرة فى الجبل انشقت وخرجت منها ناقة . وأمر النبى صالح قومه بعدم المساس بها ولكنهم قتلوا الناقة فانشقت السماء عن صيحة واحدة صعقتهم جميعا . (المراجع)

(**) عبارة تمس المعتقدات الدينية رأينا حذفها . (المراجع)

سألتهم : "وأين تكون مدائن صالح ؟" وأجابونى : "مدائن صالح ليست فى أى جرف من الجروف المحيطة بنا ، ولكنها توجد فى ذلك الجبل البعيد ،" (إثلب [*] Ethlib (الذى بدت جروفه وقمم جباله المخروطية التى تشبه الأهرامات ، تظهر من فوق خضرة أشجار السنط الصحراوية القليلة المتناثرة هنا وهناك ، تلك الأشجار التى تكثر فى هذه المنطقة كما لو كانت غابة من غابات الأخشاب . أضاف البعض ممن كانوا يرافقونى قائلين : "وأنت ، يا خليل ، سوف ترى اليوم عجائب على شكل منازل مبعثرة فى الصخر . سوف ترى ، بالله ، بيوتا مبعثرة مقلوبة رأسا على عقب ، بفعل المعجزة !" وأردف رجال آخرون أكثر سذاجة قائلين : "نحن لم نر ذلك ، ولكن يجب أن تعرف يا خليل ، أن طريقك انتهى عند هذا الحد ، وهانحن قد أوصلناك إلى المدائن ، التى ننصحك بعدم تعريض نفسك فيها لخطر البدو ، ولكن اتجه إلى القلعة (المحطة) التى تقع هنالك وفيها بعض النخيل ؛ وهى مكان طيب " .

بدأت رحلة الحج يوم الأحد ، وصباح هذا اليوم يوافق رابع أيام الآحاد ، طوال سيرنا على طريق الحج ، ومن ثم شعرت بسلام الدنيا من حولى ، ومع ذلك رحت أتأمل ذلك الذى يمكن أن يحدث لحياتى فى مدائن صالح التى لا تبعد سوى أميال قلائل عن هذا المكان . وبينما كنا نتحدث سويا ، سمعت من أمامى ذلك الصوت الفظيع الذى يقول : "اكتشفنا الآن فقط ، أن هناك نصرانيا آخر فى القافلة ، لعنة الله على والده ، وسوف نتعامل معه على وجه السرعة " . وهنا وجدتنى أسأل الأسود قائلاً : "ماذا حدث ؟" ولكنه لم يرد على تساؤلى للمرة الثانية . واستطعت عن طريق الحدس أن أخمن أنهم اكتشفوا سائقا مسيحيا كان من بين سائقى الإبل فى القافلة ، وببالى فعل شىء ما ، فأنا أيضا أوروبى والقافلة فيها الكثير من العقلاء ؛ ولكنى لم ألاحظ أى شىء على ذلك السائق المسيحى ، ولم أسمع عنه أكثر مما بلغنى . خطرت ببالى أيضا حادثة ذلك

(*) جبل إثلب : يعتقد أنه من الجبال المقدسة نظرا لما احتوى عليه من آثار دينية ، ومن بينها النصب التى تسمح للمتعبدين بالدوران حولها إلى جانب المحاريب الأخرى التى توجد فى جنوبه وأشهرها معبد الديوان . (المراجع)

(**) الدين الإسلامى لا يبح قتل النصارى كما ذهب المؤلف . (المراجع)

المكارى ، أو إن شئت فقل البغَّال السورى المسيحى ، الذى تعرفت على أصدقائه فى دمشق ؛ هذا البغَّال الذى اشترك فى قافلة الحج بوصفه سائقًا ، مرات عدة إلى الحرمين . كان شريك ذلك البغَّال ، على الطرق السورية ، واحدًا من المسلمين ، الذين كانوا يشاركون كل عام فى قافلة الحج بوصفهم سائقين للإبل ؛ وكان ذلك الشريك المسلم يصطحب معه زميله كل عام ، بالرغم من أن الرحلة كانت تحتم عليه الذهاب إلى مكة . كان المسيحى يرغب فى ذلك . ولذلك علمه شريكه الصلاة والركوع والسجود على النحو الذى يتفق مع أحوال هؤلاء الشباب الصغار البسيطة وهكذا كان المختن وغير المختن يذهبان كل عام ، ويعودان ويتندران بما يفعلان معًا .

الفصل الرابع

مدائن صالح(*)

التخييم فى مدائن صالح . السكنى فى القلعة . Kella قلة قليلة من الحجاج تشاهد الآثار . رحيل الحج إلى المدينة (المنورة) . البدو فى القلعة . القلاع التى استولى عليها البدو . الحامية المغربية . الحاج نجم . محمد على . البدو يستاءون من حكومة الحج . عنف محمد على . الشيخ مطلق . القلعة . هجرة الجغرافيين القدامى . فهجات . مركز طريق تجارة الذهب والبخور . قصة آل . ثمود القرآنية . العثور على أشجار البخور . وصول حاج تائه من الدراويش . موسيقى البدو . بؤس الحج . درويش وحيد يقطع مسافة ستمائة ميل قادما من مكة إلى مُعان . متروكات الحج . العثور على الدرويش ميتا فى الصحراء . ريح السَّموم . دين محمد . جلب التزمت من مكة . الشيخ زيد . البياض والسواد . قلاع بناها بناؤن مسيحيون . زيارة الآثار . "عريش العذراء" . القصر Kasr، والقلعة Kalla، والبرج Borj . النقش الأول . العمارة المنحوتة . الغرفة المنحوتة . آثار البرج . الآثار كلها أضرحة . ثمود "ذوى القامات الفارعة" . "منزل" الحداد . قصة حب الحداد والعذراء التى أنتهت نهايه مأساوية . قصور بثينى . مدائن صالح . كنوز مختبئة . بلاد العرب أرض

(*) مدائن صالح : تقع إلى الشمال من واحة العلا ، وتتميز بغلبة الآثار والنقوش النبطية عليها . (المراجع)

تحللت فى أيامنا . الواحة القديمة أو مدينة القوافل . الطيور . بيت الخريمات . "مجلس الشيوخ" . الأحرف النبطية المنسية فى عهد محمد (ﷺ) . الأعمال الخشبية فى الآثار . عدم العثور على الرخام .

وصلنا بعد مسير ساعتين عبر واد رملى طينى ، وفى جو دافئ يحيط بهوائه ضباب رقيق ، إلى مدائن صالح ، التى تمثل المحطة أو المركز الثانى على الطريق ، كما أنها تقع فى منتصف تلك الرحلة الطويلة ؛ كان الناس يحيون القافلة فى الأماكن التى تصل إليها ، وبخاصة من الحقول ، ثم نزلنا بعد ذلك من على ظهور دوابنا فى المنطقة التى نصبت فيها خيامنا بيضاء اللون ، أو بالأحرى فى مكان يبعد مسافه قليلة عن القلعة .

كان الأعجمى يود منى أن اكتب له على الفور ورقة تفيد عدم مسئوليته عنى وقيامه بالواجب . وهنا خطر ببالى ، أن من الأفضل لى ، إذا ما استطعت ذلك ، أن أقيم فى القلعة ؛ وكان راعى هذه القلعة والقلعة التى تليها ، قد وعدنى ذات مرة ، عندما كنت فى دمشق ، أنه سوف يستقبلنى فى هذه القلعة لو قدر لى المجيئ إليها فى يوم من الأيام . وبلغنى أيضا أن البدو وصلوا إلى القلعة منذ ثلاثة أيام ، وأنهم سوف يغادرونها فى صباح اليوم التالى عائدين إلى مضاربهم . وطلبت إلى الفارسى نقل عفشى وأمتعتى ، ولكنه امتنع عن القيام بذلك نظرا للوفاء بالوعد الذى قطعه على نفسه ، وذلك بالرغم من أنه كان مدينا لى طوال مسيرنا على الطريق بكثير من الأدوية التى أخذها منى مجانا وبدون مقابل ، وبالقدر الذى كان يريده . هؤلاء الشرقيون الطيبون ، تنعدم طيبتهم فى النهاية ، ومن ثم فهم لا ينجحون مطلقا ! فى ذات الوقت ، كان الناس الذين أضناهم الطريق قد ابتاعوا لأنفسهم لحما من اللحامين (الجزارين) البدو ، فى سوق اللحم ، وترتب على ذلك تعليق أوصال من اللحم الطرى أمام خيام الحجاج جمعيا . وهنا إنهمك السكان الدمشقيون الذين جاءوا من مدينة تقع على نهر من الأنهار ، انهمكوا فى غسل ملابسهم . وقام أولئك الذين يقومون بدور الطهاة والطباخين بجمع الحطب وشب النار فى حفر صغيرة ؛ وبدأ المخيم كله يدب بالحركة ، والعمل .

الحجاج هنا يأخذون حذرهم ، لأنهم يظنون ، أن هذه أشد المحطات لصوصية على الطريق المؤدية إلى المدينة المنورة ، وأن "اللصوص" هنا هم من البدو الفقراء . وهناك حكاية يرويها الناس هنا ويرددونها كل عام عن ذكاء الطهاة والطباخين وكيف أن واحداً منهم ، بالله استدار ليحضر شيئا من الحطب ، ولكنه عندما اعتدل ثانيه

اكتشف ضياع قدر الطعام من أمامه . وهنا راح ذلك الطباخ يجرى على قدميه ، خلال الصفوف ، ثم أمسك بأول بدوى لقيه حافى القدمين ؛ وأتضح أن ذلك البدوى هو ذلك الشخص اللعين الذى سرق قدر الطعام الحار ، وكان يغطيه بملابسه الرثة . كما طلب منى أحبائى أن أكون حريصا ومنتبها ، مخافة أن يضيع منى أى شيء فى لحظة ويصعب على بعد ذلك علاج الأمر . وانتشر بيننا فى المخيم بعض البدو الرُحل ؛ وكان الحجاج الحضر يصيحون فيهم قائلين : "إنكشحوا !" بعض آخر من الحجاج كانوا يطعنون هؤلاء البدو بدرجات السلم الخشبى ، بعض ثالث كانوا يدفعونهم من اكتافهم كما يدفعون الحيوانات البرية ؛ وكان من بين الفرس أناس سلحوا أنفسهم بالحجارة تحسبا للسطو عليهم . - أخيرا عرفت أن كل هؤلاء الناس كانوا من الجيران الأصدقاء المساكين ، الذين لم يرتكبوا ذنبا أو جريرة . كما جاءت إلينا أيضا نساء هؤلاء البدو ، تعرضن علينا مجموعات من ريش النعام الذى اصطاده رجالهم فى الصحراء . وهنا قام سائقوا القافلة بإعطائهن شيئا من بقايا البسكويت ؛ ومع ذلك ، فإن تلك الرياش القصيرة كانت تساوى ضعف وزنها فضه فى دمشق . إستاء أسود ، لكونه رفيقا لطيفا ، مـن تلك المكاسرة ، وانعكس ذلك الاستياء على حركات ذلك الرجل ؛ تعجبت امرأه شابة مسكينة قائلة : "تبًا لك ، عار عليك أيها الصبى !" :- معروف أن البدو الرُحل يحتقرون التصرفات الوقحة التى يأتيها الحضر . مشيت خلال المخيم إلى أن وصلت إلى القلعة حيث يوجد باعة المُسكرَّات ، ومعهم أثقال موازنة من الحجارة ، ويبيعون التمر الذى نشروه فوق بشوتهم أو إن شئت فقل : عباءاتهم ؛ التى جرى العرف فى الصحراء على تحميلها على ظهور الحمير . وتكلمت مع واحد من هؤلاء الباعة كى يقرضنى حماره لقاء مبلغ من النقود حتى يتسنى لى نقل عفشى وامتعتى . (رد على ذلك العجوز ، الذى ظن أنى واحداً من أفراد الحامية المغربيه) "يا ولدى ، أنا بحاجة إلى الحمار ، ولا يمكن لى أن أعيرك إياه ." عدت إلى الأعجمى ؛ وكان على استعداد لأن يعيرنى بغلا ، وعندما كتبت له المخالصة تغير جوُّ ذلك الوغد تغييرا تاما : رأيت فى وجهه عندئذ فيضا من الابتسامات ، والكلام الحلو ، كما لو كان يتغذى مثل النحل على رحيق الزهور ، كما طُلب إلى الأسود توصيل أمتعتى ، فأنجز ذلك العمل بكياسة الشرق وأدبه المصطنع . وبينما كنت أغادر المكان (قال أفضل سائقى القافله ..)

"سامحنا يا خليل أغا !" كانوا يودون بذلك أن أنسى سلوكهم الوقح وتصرفاتهم البذيئه ، التى كانت تحدث فى بعض الأحيان ، ونحن نسير فى الطريق . وجدنا راعى القلعه واقفا أمام قلعته ، (وشاهدت نقشا عربيا فوق بوابة القلعة) ؛ كان راعى القلعة مشغولا باستلام طعام الحامية ومخزونات القافلة . ورحب الرجل بى وطلب منى الدخول ، إلى أن يفرغ من عمله . كاد أفراد الحامية أن يمنعونى من الدخول ، قائلين إن الغرباء غير مسموح لهم بدخول القلعة .

لكن ، يا لهذه اللامبالاه من جانب هؤلاء الحجاج المرهقين ! إذ لم أرى أحداً منهم يبادر بالذهاب لرؤية تلك الآثار ، بالرغم من اشتهار تلك الآثار فى دينهم كما هو الحال بالنسبة لمدينة سدوم Sodom ومدينة عمورة Gomorrah(*)، اللتان ورد ذكر أشياء أسطورية(**) عنهما فى القرآن . يا للأسف ، لم يشاهد محمد ﷺ بلدة البتراء(***) Petra ! ربما يكون قد وصل إلى وادى موسى : وأهل بالميرا(****) ، الذين يخافون من العرب ويخشونهم ، لا يستطيعون المغامرة بالمضى قدما منفردين ، وإنما بأعداد كبيرة تصل إلى العشرين فرداً . ونظرا لأن الحجاج يرحلون عن هذه المنطقة أثناء الليل ، فهم لا يرون مدائن صالح ، ولكن الحجاج الصاعدين يتمكنون من رؤية هذه المدائن . جاء الأسود إلى القلعة فى الليل وتمنى لى وصولا سريعا وطلب إلى أن أكون حريصا ؛ والسبب فى ذلك أن حاميات البرج ، او إن شئت فقل : القلعه ، يشيع عنهم أنهم عنيفون ، مثل بقيه العاملين فى خدمة الحج . وبعد ذلك وصل راعى القلعة ، الذى

(*) سدوم وعمورة : كانت قافلة الحج الشامى تصل إلى هاتين المدينتين اللتين كان يقيم فيهما عدد كبير من اليهود الذين يعتقدون - كما يقول أحد الرحالة " عبد الكريم الكشميرى" - أن ما من شئ يسر الله أكثر من ذبح حاج يؤم مكة . وعلى الرغم من جميع هاتين المدينتين إلا أن ذلك لم يحل دون اختطاف بعض الحجاج وقتلهم . (المراجع)

(**) قصصية وليست أسطورية كما ذهب المؤلف . (المراجع)

(***) البتراء : عاصمة الأقباط ، واسمها فى حد ذاته ترجمة حرفية لكلمة بترا Petra اللاتينية التى تعنى الصخرة أو الحجرة . كما عرفت باسم " سيلع " أى الصخرة فى نصوص التوراة ، وفى المصادر العربية باسم الرقيم حيث يزعم الإخباريون أنها هى التى أقام بها أهل الكهف الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم . (المراجع)

(****) بالميرا : تقع بالقرب من مدينة حمص وعلى مسافة تبعد نحو مائة وخمسين كيلومترا إلى الشمال الشرقى من دمشق . ويرى بعض الباحثين أن كلمة بالميرا مشتقة من كلمة Palma اللاتينية التى تعنى النخيل ، وأن بالميرا هى نفسها مدينة تدمر التى عرفت عند الأغريق باسم بالميرا . (المراجع)

خصص لى غرفه تشبه الزنزانة . وهنا وصل أحد الأفراد واستدعى راعى القلعة لمقابلة باشا الحج ؛ وعلمت فيما بعد أن ذلك الاستدعاء كان بسببى . وقبيل منتصف الليل دوت دانة المدفع فى كل أنحاء المخيم لتنذر الجميع باستئناف المسير ، ثم تلت ذلك دانة أخرى إيذانا بالتحرك ؛ وسمعت للمرة الأخيرة عبارات الاستعداد التى تصدر عن الحج وإن هى إلا لحظات قليلة حتى بدأت تتناهى إلى مسامعى الأصوات التى كانت تصدر فى جوف الليل ، عن "تخوت الحج" . أو إن شئت فقل : كوش أو هوادج الحج المحمولة على ظهور الجمال ، ضمن قافلة الحج . وبعد أميال قليلة بدأت القافلة تجتاز 'بوغراز' أو إن شئت فقل : مضيقًا بين الجبال . والمحطة التى تلى ذلك المضيق هى محطة الزمرُّد **Zumurrûd**، وهى قلعة مهجورة ؛ وبعد مسيرة أخرى يصلون إلى قلعة السوره **Sowra**، ثم قلعة حيديه **Hedîeh**، ثم قلعة سُجْوة **Sujwa**، وبعدها قلعة برًّاجة **Barraga**، وأخيرا قلعه عوينات **Oweynat**البدن **el - Beden**؛ وفى منطقة هذه القلعة الأخيره يجرى نصب مخيم الحج على بعد مسافة قصيرة من المدينة (المنورة) . ومع كل خطوة يخطوها الحجاج المتجهين إلى مكة ، تشعر قلوبهم بالإرتياح ، وتزداد ثقتهم فى أنهم سيرون ويشاهدون الأماكن المقدسة ؛ عند هذا الحد يكون الحجاج قد قطعوا أكثر من منتصف تلك المسافه الطويلة . وفى ضوء السَّحَر ، سمعت شائعة أخرى تتردد ، عن قيام بعض البدو الرحل البائسين الأشقياء ، بتفتيش أرض ذلك المخيم المهجور ، كما لو كانوا طيور جارحة تبحث عن الرمم والجيف .

مع طلوع النهار بدأ أولئك البدو يتوافدون على البرج ، أو إن شئت فقل : القلعة ، وداهمونا على أمتداد يوم كامل . قال محمد على راعى القلعه : "والله ، نحن لا نستطيع التأكد بين ساعة وساعة ؛ ولكن إذا ما تغير مزاجهم فقد يحاولون التعدى على القلعه !" وقد سبق أن استولى بدو الفجير **Fejir** بهذه الطريقة نفسها على القلعه قبل سنوات قلائل ، وذلك عندما قامت الحكومة بتطبيق نظام اقتصادى جديد على طريق الحج ، وربما تكون قد انقصت مبلغ الصرة الذى كانت تعطى للبدو الرحل . وبعد رحيل القافلة ، قام الأعراب الذين كانوا فى القلعة ، هم وشيخهم مطلق **Motlog**، بالهجوم فجأة على الحرس الضعيف ، ولم يصيبوا أفراد الحرس بأى أذى وأرسلوهم فى أمن وسلام

إلى العلى .el - Ally وقاموا بعد ذلك بفتح الغرف المغلقه بالشمع ، ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم ، والمتمثل فى مخزونات الحج ومخزونات الأورطة(*) العسكريه ، مضاف إليها المخزونات التى وصلت مؤخرا والمتمثلة فى الأطعمة المطلوبة لهذه القلعة وبقية القلاع التابعة لمدائن صالح . كانت القبائل فى ذلك العام سببا من أسباب عدم مرور قافله الحج مرورا آمنا وسليما ، يضاف إلى ذلك أن هذه القبائل داهمت بعض القلاع الأخرى بنفس الأسلوب وسيطرت عليها ؛ هذا يعنى أن القلعة التى كانت تقع أسفل مدائن صالح ، وكذلك قلعة سُجْوة Sujwa جرى السطو عليهما وسرقتهما من قبل ولاد على .. وكان البدو يقولون : إنهم لم يبحثوا إلا على ممتلكاتهم وحقوقهم ؛ واعتبارا من ذلك اليوم جرى الالتزام بتقليد الصرة ، أو إن شئت فقل : المبلغ الذى كان يدفع نظير حق المرور من الطريق ، ولا يستطيع أحد الخروج عليه او إلغائه فى الوقت الراهن .

وفى موسم الحج التالى جرى إرسال كتيبه من كتائب الخيالة ، لحمايه هاتين القلعتين ، وجرى وضع تلك الكتيبة فى بلدة العلا el-Ally، ولكن البدو (ومعظمهم من ولاد على) قاموا ، بعد أن غادرت قافلة الحج المكان ، بمحاصرة واحة العلا ، واستمر حصارهم لتلك المحطة حتى العام التالى . وأنا كنت قد قلت للبدو : "لو قام حراس القلعة بغلق أبوابهم المعدنية عليهم ، فماذا كانت ستفعل تهديداتكم لهم ؟" لم يكن لدى العرب أية فكرة عن كيفية فتح الأبواب المعدنية المغلقة عن طريق استعمال شعا ع من اللهب ، أو عن طريق تكويم حطب الوقود وإشعال النار فيه وبالتالى يؤدى إلى احتراق البطانة الخشبية الداخلية للباب المغلق ، ولم تكن لديهم أية فكرة عن الشجاعة الشعبيه والمغامرة بحياواتهم تحت الجدران المحصنة . أجابونى على سؤالى قائلين : "لا يمكن لمن يكون داخل القلعه أن يغلقها دوننا بصورة مستمرة ، إذ إن لدى البدو الكثير من البدائل الماكرة ؛ وإذا لم نتمكن من الدخول بهذه الوسائل الماكرة الأخرى ، تكون أمامنا طريقة الذبيحة (خروف أو حيوان آخر يذبح) ، هذا يعنى أننا لن نعدم وسيلة الدخول إلى القلعه ."

(*) الأورطة : من التركية بمعنى الوسط والمتوسط وهى اصطلاح عسكرى إنكشارى كان يستعمل بمعنى كلمة (طابور) (المراجع) .

كان الحاج نجم ، ذلك المغربى الفزّانى(*) ، محافظا للقلعه ؛ أما محافظوا أو قيِّمو القلاع الأخرى فكانوا : الحاج حسن ، مغربى من مُراكش ، سبقت له الخدمة فى هذه القلعه ، وعندما جاء إليها بصحبة الحج قادما من دمشق ، جرى استبقاؤه مرة ثانيه ، بناء على رجاء من الحاج نجم . هنا أيضا المحافظ عبد القادر ، وهو شاب سمى على إسم الأمير الجزائرى النبيل ، كما أنه أحد أبناء رئيس خدم ذلك الأمير : تربى الحاج حسن مع المعترين فى دمشق ، وكان "عمه" (الذى كان يتمتع بسلطة مطلقه فى كل ما يتعلق بالهجرة المغربية) قد أبعد هذا الرجل ضخم الجسم ، بصورة مؤقتة ، لمدة عام فى الصحارى الرئيسية فى مسئولية محمد على . المحافظ الرابع واسمه محمد ، صبى من البدو المخلطين ، وابن من أبناء أحد محافظى القلاع الدمشقيين السابقين ، أنجبه أبوه من زوجة من البدو الرحل ؛ كما كان هناك أيضا عبد واحد ورجل مسكين آخر جرى إيفادهما للمحافظة على الماء فى بنى معضَّم Moaddam .

كانت تلك القلة القليلة المغربية تتجول وهى مسلحة وسط البدو الخونة ؛ هذا هو الحاج نجم ، يجلس بين ضيوفه من البدو الرُّحل ؛ فى غرفة القهوة وغدَّارته ، أو إن شئت فقل : بندقيته القصيرة ، من فوق ركبتيه ومتعامدة عليهما . كان الحاج نجم ضعيفا وكبيرا فى السن ، فى حين كان حسن هو الرجل الوحيد القوى بينهم جميعا . هذا الرجل الصنديد ، أو إن شئت فقل : شديد البأس كان يغنى طول اليوم أثناء تأدية عمله ، كما كان يبتسم مع نفسه بسرور لا يعرف الحدود . كان الحاج حسن محبا لنفسه وذكيا على نحو يتمكن معه من وجود مخرج لكل حيلة من الحيل ، وهو ما كان يسهل عليه الأمور إلى حد بعيد ، وفى غياب أفقه الصغير يصبح فهمه وتفاهمه بربريا وغير متحضر ؛ الأمر الذى كان يجعل محمد على يشتكى من تشدده وعناده ، "والله أنت بربرى ، يا حسن !" (البرابره ، غالبا ما تكون عيونهم زرقاء اللون ، وشعورهم شقراء صفراء ، وهم من بقايا شعوب البربر السابقة) مضى على حسن فى الشرق اثنا عشر عاما ، وما زال يبدو عليه وكأنه فى منتصف العمر ، ولكنه يقول إن عمره

(*) الفزانى : من أهالى فزان ، إحدى الولايات الليبية . ومن الواضح أن " دوتى " كان يعنى بالمغاربة جميع أهالى الشمال الإفريقى . (المراجع)

خمسين عاما أو أكثر من ذلك ، (ويردف قائلا وهو يضحك من جديد) : "ولعلك تلاحظ أن قلبي ما يزال أخضرا ." معروف أن المغاربة يولدون في أبراج النجوم الدوارة . والكثيرون منهم يلبسون البرنس الأبيض ، وهم يحجون كل عام إلى مكة ؛ ومن مكة يتفرقون إلى سوريا ، وإلى بلاد الرافدين ، وإلى كل أنحاء المشرق العربي بحثا عن الثراء وعن العمل . والمغاربة يمارسون حرفهم القديمة في بلاد جديدة ، أما هؤلاء الذين ليس لهم حرف يمارسونها ، (وهم جميعا يجيدون حمل السلاح) فيتخذون من الجنديه حرفة لهم . والمغاربة في مجال العمل في الجندية ، مفضلون على غيرهم ، ويرجع ذلك إلى طباعهم الحادة ونزوعهم إلى الشك ، وهم يجرى استئجارهم في دمشق لحراسة البساتين وكثير من الأعمال الخاصة يعهد بها إلى هؤلاء المغاربة الشجعان . هؤلاء الرجال المغاربة يتميزون بكلامهم الذى يصدر من البطن ، أو إن شئت فقل : الكلام بدون تحريك الشفتين ، كما يتميزون أيضا بأصواتهم الأجنبية .

بعد أن أمضى الحاج نجم فترة طويلة على هذه الضفة من ضفتي البحر أصبح واهنا أكثر من تقدمه في السن ؛ لم يكن الحاج نجم يتوقع رؤية فزان مرة ثانية ، تلك التربة التي كان يتحدث عنها طول الوقت وعلى وجهه ابتسامة بسيطه سبق للحاج نجم التجوال في ولايات البربر ، فضلا عن معرفته أيضا للصحراء الجزائرية ؛ لقد عمل في تونس بعضا من الوقت ، كما عمل في مصر أيضا في منطقة بعيدة من مناطق النيل ؛ ثم عمل جنديا بعد ذلك في سوريا ، ثم جنديا على طريق الحج ، في أحد المعسكرات في مدينة معان : صحيح أنه مسلم متحمس ، ولكنه واحد من أولئك الذين جابوا الدنيا وعانوا الكثير فيها ؛ كان رجلا سمحا ، واستقبلني استقبالا طيبا . قال الحاج نجم : "الإنجليز في جبل تار Tar Jebel (أي جبل طارق) كانوا جيرانا لشعبه عبر المضيق ." كان يحب الإنجليز أكثر من الإسطمبوليين ، أو إن شئت فقل : الأتراك الذين كانوا فسقة ولم يكونوا مسلمين بحق . وهذا هو الباشا أمين ، قد ترك عندهم في العام الماضي فقط ، داخل القلعة برميلا صغيرا من الخمر سعته عشرة جالونات لحين عودته من الحج : (قال) "ملعون من يشرب من ذلك الشيء المحرم على المسلمين !" كان

الحاج نجم أبا لطفلين ، ولكنهما كانا بنتين ، ويبدو أنه لم يكن يرعاهما ؛ لأن البنات تشكلن شيئا قليلا من الفرح فى الأسرة المسلمة الفقيره ؛ لأن والد الفتاه يتلقى مهرا زهيدا ، عندما تنفصل بناته عن منزله .

شاءت الطبيعة أن تكون حياة الصبى محمد تعيسة ؛ ولما كان ذلك الصبى مغرورا وخوّافا ، فقد كان يتطلع أيضا أن يكون هو نفسه شيئا ما ، ولكن عن طريق المحاولات الرذيلة . ولما كان ذلك الرجل متراخيا فى عمله ، ومجرد حيوان رخو لا قيمة له فى الصباح ، فقد سمعت محمد على عندما كان ينهره ويعنفه ويؤنبه على النحو التالى ؛ "من الصواب يا ولدى ، أن تستيقظ (عند طلوع الفجر) ، أى فى وقت صلاة الصبح . ففى ذلك الوقت تذهب ملائكة الليل ، وتجيئ ملائكة النهار ، ولكن أولئك الذين يواصلون النوم ، يتملكهم الشيطان .

كان عبد القادر "جاهلا" أكثر من الجهل نفسه ، وضخم الجثة ، إلى حد أن حسنا قال عنه وهو ينظر إليه ذات مرة : "رأس عبد القادر كبير مثل رأس بغلنا الأبيض وليس فيه أى شىء" . ولذلك فهم يستهزئون بذلك الغندور فى القلعة إلى أن يفيق مما هو فيه ؛ وبالتدريج جرى طرد ذلك الآدمى ليجرب الحياة مع شخص آخر من بنى مُعَضَّم .

محمد على (وكنيته) المحجوب ، الذى كان راعيا للقلاع فيما بين تبوك والمدينة (المنورة) كان عربيدا مشاكسا ومحبوبا ، كسير الرأس إلى حد ما ، تلونت طبيعته العنيفة (شأنه شأن الكثيرين من أمثاله) بلون مدرسة الحكم التركى ؛ لم تكن تصله أية رسائل . كانت أسرته تسكن منطقة جبلية (على حد قوله ، "سلوكياتها وأخلاقها القديمة لم يصبها أو يتطرق إليها الفساد") فى الجزائر : وأثناء الغزو(*) ، وبدلا من أن يصبحوا رعايا للنصارى ، فقد أبحروا بمحض اختيارهم فى سفن الحكومة الفرنسية لينزلوا بعد ذلك فى سوريا . ومن بين التقاليد التى سرت بين أسلافهم وأجدادهم ،

(*) المقصود بالغزو الاحتلال الفرنسى للجزائر فى عام ١٨٣٠ . (المراجع)

ما مفاده "أنهم احتلوا فى الزمن القديم كل المنطقة المحيطة بمدينة معان ، وهى المنطقة التى أطعم فيها (سيدنا) موسى قطعان النبى جيثرو Jethro(*) ؛ وأن بنى إسرائيل جردوهم من ممتلكاتهم ." وبعد التحاق محمد على بالخدمة العسكرية ، حارب وقاسى مع القوات السورية فى الجهاد المرير ضد المسكوفيين ، فى جبال القوقاز ، التى جرح فيها مرتين . ويبدو أن الطلقة التى أصابته ، بعد أن أرانى أثرها ، كانت قد دخلت من الخلف ، إلى حد أن أثرها ما يزال يؤلمه عندما يسوء الطقس . وفى فترة لاحقة ، خدم محمد على ، على رأس قوة صغيرة من الخيالة ، فى فلسطين وفى الأراضى الواقعة خلف الأردن ، رابطا مصيره بمصير محمد سعيد ، الذى حصل منه على منصبه الحالى . هذا الرجل بحكم شراسته ، كان بوسعه الإفصاح بوضوح عما يدور بخلده ؛ ونظرا لأن كل مد يكون مصحوبا بجزر فقد كان يبدو على ذلك الرجل العطف والحنان : هذا من منطلق أن المسلمين على اختلاف مشاربهم يستطيعون مخاطبة الغير بأسلوب دينى تماما . كانت شجاعة المغاربة متأصلة فى ذلك الرجل على نحو لا مثيل له ، وبالتالى كانت معارضته أو مجادلته تعد أمرا خطيرا ؛ كان ذلك يشبه النمر إذا ما تعكر صفو مزاجه ، وعرفه الناس من قبل على طريق الحج ، بهذه الغلظة والقسوة . وفى الوقت الذى كان فيه قيِّمًا على معان أعدم (على حد قوله) ثلاثه رجال شنقا . وعندما أوكل إلى محمد على مسألة بناء قبة فوق عين الماء فى منطقة قلعة المدوَّره ، وعندما طلب إليه الاحتراز من هؤلاء الأعراب الأعداء ، قام بأسر البعض من هؤلاء الأعراب ، وبالذات الشيوخ الذين كانوا يتهمون بالسطو على قافلة الحج ، وقام بتقييدهم ، ولم يكن يطعمهم طوال اليوم ، داخل القلعة ، سوى بواقع قطعتان من البسكويت لكل واحد منهم ، وكان يحتم عليهم كل يوم طحن وجبة من الحبوب فى طاحونة بدوية (ثقيله الوزن تماما) كانوا يديرونها بصدورهم ؛ إلى أن استسلموا جميعا لكل هذه المصاعب والمبالغات ، التى تحملوها بقوة الرجال ، ولكن هؤلاء الرجال كانوا يرسلون لمحمد على فدية ، حتى لا يقوموا بذلك العمل ؛ وكان الرجل يستولى على

(*) جيثرو : عرف فى التوراة باسم رعوئيل وأغدق العبرانيون عليه لقب يثرون بمعنى الكاهن . وعرف لدى المسلمين بشعيب الذى صاهره سيدنا موسى حين لجأ إلى أرض مدين هربا من مصر بعد أن قتل فيها أحد خصومه . (المراجع)

تلك الفدية ويأخذها لنفسه . كان جسم محمد على واهنا وعليلا ، ومليئًا بالقرح ، وتجاوز منتصف العمر ، إلى حد أنه كان يبدو وكأن بقية حياته لا تعدو أن تكون أياما معدودات ، كان وجهه يشبه وجه الطاغية ، ومعتما بفعل روحه الخبيثة ؛ كان يصيح بصوت عال ومفاجئ أثناء الكلام ، إلى حد أن صوته كان يشبه صوت الغول : كان ذلك الصوت يصدر من قلب مظلم يحكمه رأس ضعيف ، كان الإزعاج يحيط بنا فى كل حين ونحن فى هذه القلعة المنعزلة . كانت لديه القدرة على التعبير عن قصده (بسياقات معروفه ومحددة) سواء أكان ذلك عن طريق الإطاله أو الاختصار . هؤلاء الشرقيون لا يدرسون ولا يقرءون طوال جلوسهم بلا عمل لتناول القهوه فى مجتمعات الذكور : كل ما يتعلموه فى مدرسة القهوة هذه ، التى تقوم فى الأساس على ملاحظة البشر ، هو كيفية مخاطبة قلوب بعضهم البعض . حكايات ذلك الرجل التى كان يزينها بالأقوال المأثورة ، أو إن شئت فقل : بحكمة غير المتعلمين ، دامت أكثر من شهرين ، كانت تلك الحكايات تبدو وكأنها لن تنتهى . كان الرجل يروى تلك الحكايات بحيوية دافقة تشد الناظرين ، ويضيف إليها من خبراته وتجاربه الغريبة . وفى ضوء هذا اللسان العسكرى المحترف ، وفى إطار هذه البقية الباقية من الفهم الجيد ، وفى ضوء الغرائز الوحشية المجنونة وما يترتب عليها من وخز وتأنيب الضمير ، فى ضوء كل ذلك ، ربما تهيأت لذلك الكديش الهزيل الظروف المناسبة (إذا ما تهيأت له فرصة أكبر) لأن يصبح شخصيه تيبيرية(*) Tiberius جديدة . بالرغم من كل ذلك ، كان محمد على مخلصا بقدر المستطاع ، كما كان مدققا فى تفاصيل دينه ؛ فقد أنبه ضميره كثيرا ، وهو ينادى النصرانى بإسم 'خليل' ، بل إنه غيّر إسم خليل خمس مرات كان يناديني فيها بإسم 'إبراهيم' . كان يدخل إلى صلاته وهو ملتزم التزاما عجيبا ، لأنه كان يرى فيها طعما حلوًا يوحى بنعيم الجنه والفردوس ؛ كانت الصلاه هى العزاء الوحيد هنا لهذا الرجل فى صحراء ذهنه الفاسد . ولما كان محمد على نفسه ، واحدًا من الديدان الزاحفة ، فقد كان بوسعه انتقاد الإدارة العثمانية المجرمة ، ويستطيع تصيد وإبراز تصرفات العثمانيين السيئه

(*) نسبة إلى الإمبراطور تيبريوس ، وهو الإمبراطور الثانى فى الإمبراطورية الرومانية وكانت له حروبه وتوسعاته المتعددة فى أوروبا . " ٤٢ ق.م – ٣٧م " . (المراجع)

كلها . فى دمشق كان اسم محمد على مدونا فى سجل الرعايا الجزائريين الفرنسيين ؛ ولكنه ترك ذلك الثقب ليزحف إذا ما اضطرته الظروف إلى ذلك - على الجانب الموالى للإمبراطورية العثمانية ؛ وفى وقت الضيق والمتاعب ، فإن كل من كانوا يطلبون الحماية لأنفسهم فى البلاد التركية ، كانوا يسارعون بالذهاب إلى القناصل الأجانب .

البدو الرحل لديهم فكرة سيئة عن حكومة الحج التركية ، إذ يرون من خلال هذه الفكرة السلوك الاستبدادى والوحشى لهؤلاء الحكام الأدعياء ، من خلال صرافى الرواتب والنفقات العسكرية . وأهل الحضر يسبون هؤلاء الحكام ويلعنوهم مرارا باعتبار أنهم يشكلون أبغض عصابة من عصابات اللصوص . والبدوى المترحل إذا ما ارتكب خطأ من الأخطاء ، سمعت صوت ملاك التدمير يصيح قائلاً : "أبعدو هذا البدوى ، وقيدوه فى عجلة من عجلات المدفع ." كان محمد على غاضبا دائما سواء أكان فى زهوه المغربى أم فى يأسه الشديد ؛ ومحمد على لم يجرؤ على مجادلة باشا الحج إلا فى العام الماضى فقط ، وفى هذه الصحراء . ومخزونات الحكومة موضوعة فى غرفة فى الدور الأرضى ومختومة بالشمع الأحمر ، فضلا أيضا عن الأمانات الخاصة بالمقومين وكذلك أمتعتهم : أما بقية الأمتعة والأشياء فكانت ترسل إلى داخل القلعة بواسطة الباشا صراف نفقات الحج العسكرية ، ومعها كيس من الريالات من المال العام . وعندما كان المقومون يعودون من الحج كان الباشا يوفد خادمه لتلقى ، أو إن شئت فقل : استلام الفضة (النقود) . وبعد أن أمسك الرجل فى يده ذلك الكيس المملوء بالنقود الفضية ، وبعد أن خيل له أن ذلك الكيس سوف يتسرب على وجه السرعة ، بعد كل ذلك راح يكيل الاتهامات إلى محمد على ، نظرا لأن الأعراب دائما ما تراودهم الشكوك ؛ ولكن المغربى يشهر سيفه الأحدب ذو الحد الواحد ، ويقطع رأس ذلك العبد الأعزل ، ويشده إلى الخارج من عقبيه ، وهو فى قمة غضبه ويغلق دونه الباب الحديدى . وهنا أرسل الباشا مرة ثانية فى طلب محمد على ليشرح له سبب ذلك الغضب ؛ ولكن المغربى السورى كان يغلى من داخله ، أقسم بأنه لن يذهب إلا بعد أن يشفى غليله - "إذهبوا وقولوا هذا الكلام الصادر من محمد على إلى الباشا ، قولوا له : إذا كان محمد سعيد لديه مدافع فأنا لدى المدفعية فوق أرض هذه القلعة ، - ونحن نقسم بالله أننا سوف نصمد حتى النهاية ؛ ولعله يذّكر أننا مغاربة !" كان ذلك ، من

قبيل استنفاد الصداقة وجلب المتاعب ، ولكن محمد على كان على يقين من أن خدمته القديمة ستشفع له عند الباشا ؛ وهو فى أسوأ الأحوال سوف يلتمس لنفسه عذرا ، فى الجراح التى أصابته فى سبيل دينهم ؛ كما أن بوسعه أيضا أن يشتكى قائلا : "والله ، إن رأسه لم تكن دوما على ما يرام ، وأنه مغربى أولا وقبل كل شىء ،" وقد يقول : إن ذلك شكل من أشكال طبيعته أو طبعه الحاد المتهور : وإذا ما تفاقم الأمر ، وبلغ السيل الزبى ، ويثبت لهم أنه غريب المولد وأحد الرعايا الفرنسيين . مدفعيته (التى كانت مظهرا من مظاهر تفاخر العرب) كانت عبارة عن قطعتين صغيرتين جداً علاهما الصدأ ، وصناعتهما توحى بأنهما من عمل حداد من البدو الرحل : وأن هذين المدفعين جرى إحضارهما منذ سنوات مضت من البرج Borj، ذلك المكان الأثرى الذى يقع على بعد حوالى نصف ميل فى اتجاه الآثار ؛ ويقال إن هذين المدفعين استخدما فى صراع بدوى قديم دار بين قبيلى العنزى وحرب .

قبل أن ينصرف الأعراب لحال سبيلهم ، جاء إلىَّ شيخهم مطلق Motlog وهو يتساءل ؛ "وين هو ، وين هو" بمعنى "أين هو ذلك الموظف الحكومى ؟" دق ذلك الرجل بابى ، ورأيت أمامى رجلا أسمر اللون أو داكن البشرة ، من البدو ، وقف يحملق فى وجهى ويطيل النظر إلىَّ كما لو كنت عدوا له . سبق أن قال محمد على لهم إننى السِّير Sir أمين ، وإننى سكرتير معين ، موفد فى مهمة حكومية . كان ذلك فيه شىء قليل من الخداع والتضليل ، والسبب فى ذلك أن المسلمين يُصَلُّون على الملأ ، ولكنهم لم يشاهدوا خليلا Khalil يصلى ، وهذا جعلهم يتقولون أن خليلا من خارج الدين ، أو إن شئت فقل : ليس مسلمًا . كان محمد على كارهًا لكل من هو ليس على عقيدته أو إن شئت فقل : دينه ؛ يضاف إلى ذلك أنه كان يشعر بالغيرة والحسد على الاستبداد المتنامى فى عالم النصارى الخطرين ؛ ومع ذلك ، كان محمد على ينظر إلىَّ نظره أفضل وأيسر ، إذ كان يعدنى فليسوفا ، فى داخله رأى طبيعى ينطوى على الكثير من التسامح فى كل ما يتعلق بموضوع الدين . - كان هؤلاء هم سكان القلعة ، ذلك البرج الذى يقع على بعد حوالى سبعين قدما ، على جانب الطريق ، ومبنى على شكل مربع . هذه المحطات المائية ، ملونة من الداخل بألوان صارخة ، وجميع الأماكن التى دخلتها

من هذا النوع كلها من طراز واحد . ففى وسط البرج يوجد بئر الماء ، ومن حوله الإسطبل ، والعلف والغرف الخاصة بالتخزين . السلالم الداخليه توصل إلى رواق موصل إلى الأعلى ، حيث توجد فى الجانبين الشمالى والجنوبى صفوف من الحجر الصغيرة المبنية من الأحجار . ومن هذا الرواق ، أو إن شئت فقل : الممر يوصِّل السلم الثابت إلى سطح الشرفة ، الذى قد تلجأ إليه الحامية فجأة ، إذا دعت الضرورة ، إلى الدفاع عن القلعة .

هذا البرج مبنى حول بئر قديمة ، يطلقون عليه اسم بير الناقه en-Nâga' Bîr الذى شربت منه الناقة المعجزة(*) ؛ هذا هو الماء الوحيد الذى يمكن أن يشربه رجل متدين ، من منظور علمائهم ، فى ذلك البلد "المخرَّب" : ولكنى أخشى أن يكون ذلك البئر فرصة مهيأة لنقل الأمراض الخطيره ، بسبب تسرب مياه البالوعة ، أو إن شئت فقل : مياه المجارى ، إليه . هذا البئر شأنه شأن الآبار القديمة الأخرى الموجودة فى السهل ، مبطن بمبانى لم يستعمل فيها الملاط ، ويصل عمقه إلى ستة وعشرين قدما عند مستوى المياه الجوفية ، التى تنبثق من البئر حارة ولها رائحة كريهة وبخاصة فى صباحات أيام الشتاء ، وتصل درجة حرارة الماء إلى ٦٦° فهرنهيتية ؛ – وأنا لم أعثر فى الجزيرة العربية على بئر لم يكن ماؤها حاراً . يقول العلماء إن صلوات الرجال لا ترفع إلى السماء من أرض مدائن صالح ، يضاف إلى ذلك أن الحرفيين من هؤلاء العلماء يحملون معهم ماءهم من المحطات السابقة ، ويرفضون الشرب من ماء بئر الناقة(**) . وحوض ماء القلعة الموجود فى الخارج فى الناحية الجنوبية يصل عرضه إلى ثمانية عشر خطوة وطوله حوالى إثنين وعشرين خطوة ؛ ويصل عمق ذلك الحوض ، أو إن شئت فقل : الصهاريج إلى حوالى ثلاث قامات (***) . ويتناوب على تشغيل ماكينة مياه البئر ، بغلان من بغال دمشق ، ويعمل كل من هذين البغلين أربع ساعات يوميا ؛ هذه الماكينة كانت مصممة أو مصنوعة بطريقة سيئه جداً ، إلى حد أن ما يقدر بحوالى ثلث

(*) ناقة النبى صالح عليه السلام . (المراجع)

(**) يقال إن النبى (ﷺ) قد حرم شرب هذه المياه ربما لتأكيد كراهية الكافرين ، أو لأنه توجس أن تكون آبارها وعيونها قد سممت لإيقاع بالمسلمين . (المراجع)

(***) القامة : مقياس من مقاييس العمق ، ويقدر طول القامة بستة أقدام . (المترجم)

الماء الذى كان يجرى جلبه بواسطة الدلاء ، من البئر كان يضيع هباء قبل الوصول إلى السطح ؛ يضاف إلى ذلك أن قسما كبيرا من الماء الذى يصل إلى البركة أو إن شئت فقل : الصهريج ، يضيع عن طريق التسرب من خلال أرضية الصهريج ، أو لأن ذلك الصهريج يستغرق ملؤه بالماء عشرة أو اثنى عشر يوما . ومسألة تجديد معدات هذا البئر أو آبار القلاع التالية تتطلب جلب الأدوات والمخزونات اللازمة لذلك من دمشق أثناء موسم الحج .

من المهم هنا القول : إن كل قلاع طريق الحج إلى ما قبل المدينه المنورة ، قام ببنائها النصارى ؛ زد على ذلك ، أن البنائين المسيحيين ، منذ سنوات قلائل ، هم الذين قاموا بترميم قلعة مدائن صالح ؛ هذا يعنى أننى لم أكن المسيحى الوحيد الذى شوهد داخل أسوار هذه القلعه البعيدة ؛ ويذكر الناس لهؤلاء البنائين هدوئهم وكرمهم . معروف أيضا أن أساسات هذه القلعة مبنية من الحجر وبدون وضع ملاط على القاع الطينى ؛ والجدران المقامة من فوق هذه الأحجار ليست سوى أحجار غشيمة مقامة داخل الطين ؛ والملاط لا يستخدم إلا لمجرد إصلاح الجدران من الخارج . يضاف إلى ذلك أن الأحجار الجيرية يتعين إحضارها محملة على ظهور الإبل البدوية من جبل عيص(*) Iss، هذا الجبل عبارة عن جبل من الحجر الرملي المحمل بالحجر الجيرى فى وادى يحمل الاسم نفسه ، وببعد مسافة وقفتين ، أسفل الحُرَيِّرة(**) ، الموجوده أسفل العلا(***) . هذا الوادى ليس هو وادى Wady العيص el- Iss الأثرى ، الذى نشاهد فيه عيونا مائية كثيرة حولها الكثير من نخيل الدوم ، كما نشاهد فى ذلك الوادى أيضا أنقاض قرى كثيرة ، التى تتدحرج فى النزول اعتبارا من بلاد جهينة ، لتبدأ رحلة طويلة

(*) عيص : يقع إلى الشمال الغربى من المدينة المنورة وإلى الشمال من ينبع . وورد ذكر عيص فى التوراة باسم عوص سكانها " بنى قدم " وهو وصف يعنى سكن الشرق أى السكان الذين يقطنون إلى شرقى العبرانيين . (المراجع)

(**) الحريرة : تصغير كلمة الحرة . (المراجع)

(***) العلا : واحة من واحات وادى القرى ، كانت حاضرة لدولة ددان أو لحيان التى اعتمدت اقتصادياتها على الزراعة لوفرة المياه فى واحة العلا وخصوبة أرضها ، كما اعتمدت أيضا على التجارة نظرا لموقع العلا على طريق القوافل الرئيسى الممتد فى غرب شبه الجزيرة العربية من أطراف منطقة الجوف جنوبا إلى أطراف الهلال الخصيب شمالا . (المراجع)

فوق ينبع ، ولتمتد بعد ذلك إلى وادى الحمض el- Humth الذى يقولون له أيضا : وادى جزّل Jizzl Wady .

سمعت عندما كنت فى دمشق شيئا عن الموقع الجميل لهذه القلعة ومن حولها بستان من النخيل . كانت تنمو فى هذه القلعة ثلاث نخلات ، ومعها نخلة ذكر حتى يصبح النخيل الإناث مثمرا . كان الحاج نجم ، يقضى ساعات إجازته فى هذا البستان الذى كان يحيط به سور من الطين ، فى إطار تلك البرية شديدة الاصطباغ بالطابع البدوى ، كما كان يزرع فى ذلك البستان نباتات السلطة والأعشاب ، وكذلك نباتات الأصص التى تضفى على طعامه العربى نكهة خاصة . تقع القلعه على بعد حوالى نصف ميل قبل جبل إثلب Ethlib، وتكاد تكون فى منتصف سهل وادى المدائن . هذا الحجر الذى ورد ذكره فى القرآن(*) ، هو حجر البدو . هذا المكان اسمه 'إيابا' Eypa فى جغرافية بطليموس ؛ فى ذلك الوقت ، كان ذلك المكان سوقا تجارية كبيرة على طريق القوافل بين اليمن وسوريا الذى أطلق عليه منذ ذلك الحين اسم درب الحج . ومن فوق سطح القلعة يمكن وصف اثنين من أكبر الآثار ، كما يرى الناظر أن السهل من فوق سطح القلعة تطوقه القمم الصخرية من كل جانب . والسهل لا يبدو مفتوحًا إلا بعد جبل إثلب من الناحية اليمنى ، كما توجد رفوف رملية ترتفع إلى ما فوق الأفق فى الاتجاه الجنوبى الشرقى : إذ من هذا المكان يمر طريق الحج . وفيما بيننا وبين الصحراء ، يوجد عرب البوّابة ، وهم أسر بعينها من البدو الرّحل ، الذين كانت خيامهم تنصب دائمًا أمام باب القلعة الحديدى . هؤلاء العرب عبارة عن أسر 'فجيره' (Fejir فقيره Fekir) ، (الذين لا يستطيعون تتبع مخيمات قبائلهم المتجولة بسبب افتقارهم إلى الإبل ،) ، إضافه إلى ست خيام مهلهلة من عرب الفهيجات Fehijat، الذين هم فرع صغير وفقير جداً من عرب الحطيم Heteym، ويحتقرهم الغير باعتبارهم منبوذين ؛ وعرب الفهجات هؤلاء ، عملاء لبدو الفكارة ، إضافة إلى أنهم يقومون على أمر خدمة القلعة منذ زمن بعيد ، إضافة إلى أنهم يبيعون أيضا علف الإبل ، شأنهم شأن أعراب

(*) ورد فى سورة الحجر قوله تعالى « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين » وأصحاب الحجر هم قوم صالح عليه السلام . (المراجع)

السويفلى فى قلعة الأخضر ، وهم يبيعون حمولات إبلهم من العلف إلى قافلة الحج ، نظير سعر تحدده الحكومة ، ويقدر بريال واحد للحمل الواحد . وهناك نكتة على شكل قافية بذيئه تتردد فى موسم الحج عن عرب الفهجات ، وعرب السويفلى ، وكذلك عرب الحميدات فى تبوك . مفاد هذه القافية البذيئه : 'رافقنا بناتهم مقابل كراون (*) واحد '. وعرب البدونة Bedôwna من بين باعة العلف فى موسم الحج فى تلك المنطقه أيضا ، وهم أيضا من بدو الحُطيم ؛ وهؤلاء البدونة يسكنون جبل Jeble دُخان Dokhan أسفل العلا : هؤلاء البدونة لا يزيد عددهم على خمسينَ أسرة ، يعملون هنا باعة للعلف ، كما يبيعون العلف نفسه فى بلدة السوّرة Sawra؛ وهذا العشب الذى يبيعونه ينمو فى الأماكن الرملية المنخفضة عند سفح جبال الصحراء ؛ هذا العلف لا تستسيغه الإبل البدوية الصغيرة . والعرب يلومون هذه البلاد (المنطقة) ويكنونها 'بلاد الجوع Béled eJ.jûe' ؛ والأسر فى هذه المنطقة يندر أن تطبخ أى شيء ، والشيء الأكثر شيوعا بينهم هو قبضة من التمر المُتَخَثِّر : والعرب أيضا يطلقون على هذه المنطقه أيضا اسم 'بلاد Béled الحرامية 'el-haramîeh بمعنى 'أرض اللصوص' . هذا السهل يعد ممرًا لكثير من 'الغزوات' (أى الغزو) للقبائل المعادية ، إلى حد أنه لا يكاد يخلو يوما واحدا من الضجيج والإزعاج .

مدائن صالح ، كما وردت فى القرآن ، هى بيوت محفورة فى صخور قبيله ثمود التى كانت تعبد الأصنام ، من بين سكان الجزيرة العربية(**) ، وهذه القبيلة جرى تدميرها ، طبقا لما ورد فى القرآن ، فى زمن جثرو Jethro، رسول الله إلى أهل مدين . وجثرو ، طبقا لما ورد فى القرآن ، يعظ أهل قبيلته المتشككين بالأحكام التى حاقت بشعوب أخرى احتقرت الأنبياء فى زمن من الأزمان . 'والهجرة' أو 'الحجرة' Hejra عند كل من بطليموس Ptolemy وبلاينى Pliny، هى عباره عن بلدة واحية مستقرة من

(*) كراون : وحدة نقدية تساوى خمس شلنات . (المترجم)

(**) يبدو ذلك فى قوله تعالى « وتنحتون من الجبال بيوتا فارهة » . وهذه الجبال تسمى الأثالب ويتوقف عندها الحجاج وهم فى طريقهم إلى مكة المكرمة . (المراجع)

بلدات 'طريق قافلة الذهب والبخور' القادمة من بلاد العرب السعيدة (*) . وخلال الأجيال التالية ، لابد لهذه البلده أن تكون قد تحللت واندثرت ، نظرا لأن هذا الطريق الشمالى تزايد الاستغناء عنه وعدم استعماله أكثر فأكثر إلى أن جرى التخلى عنه تماما فى النهاية لصالح النقل البحرى . وفى زمن محمد ﷺ ، أى بعد ذلك بحوالى خمسمائة عام ، كانت تلك المدينة المهجورة الجرداء ، قد اندثرت إلى حد أن الاسم نفسه أصبح ضربًا من الخرافة العظيمة . ومحمد ﷺ ، عندما مر على هذه المدينه ، أو البلدة ، ضمن قوافل مكة ، لابد وأن يكون قد تأثر عندما شاهد من الطريق العمارة القديمة المحفورة لتلك "الأماكن الجرداء" : (لا يمكن لأحد أن ينظر بلا انفعال إلى تلك القسمات أو الملامح الصارمة والمزهوة لتلك السلاسل من القوافل المهيبة !) وقد رأى محمد ﷺ في تلك الأماكن أيضا أنها دليل أيضا من دلائل التراث الشعبى . وخيال العرب الأميين المُتكلف إلى حد بعيد فى حِكَمه ومواعظه ، وهو أيضا الخيال الذى لا يثق بقلب الإنسان ، ملئ بسذاجة الأطفال التى تصدق بسرعة وسهولة كل ما يتعلق بالدين ؛ يضاف إلى ذلك أن المتدين الشاب كان يدور فى داخله إحساس بمهمة سماوية ، أو إن شئت فقل : مقدسة ، فى أعماق روحه الهادئة . فى حياة نبوة محمد ﷺ كان تدمير ثمود ، مرتبطا بحالات الادعاء فى عاد ، أهل مدين ، ومرتبطا أيضا بمدائن لوط ، التى "كذبت رسل الله" ، هذا الارتباط مثار جدل كبير فى القرآن ؛ كلمات الاقتناع الحالى الخاصة بالخوف لا يمكن الرد عليها بسهولة ، نظرا لأن زور ، وزيف هذه الكلمات يمكن التأكد منه عن طريق الأحداث . 'الحجر' التى هى عنوان سورة من سور القرآن ، كما أن سور القرآن يصل عددها إلى مائة وأربعة وعشرين سورة(**) ، هذه الأسطوره(***) ورد ذكرها فى أكثر من عشرين موضعًا فى سور القرآن .

قصة مدين الأسطورية الموحشة تسير على النحو التالى : هزمت عاد ثمود (كلاهما من شعوب اليمن أو إن شئت فقل : اليمن السعيد) . نزحت ثمود وهاجرت

(*) المؤلف هنا استعمل المصطلح Arabia the Happy ويقصد به Arabia Felix ومعناها " اليمن السعيد " . (المترجم)

(**) من سور القرآن ١١٤ وليس كما أورد المؤلف ١٢٤ . (الناشر)

(***) القصة الدينية وليست الأسطورة كما ذهب المؤلف خطئا . (المراجع)

شمالا حيث نزلت فى وادى الحجر(*) ، فى ظل جبل إثلب . وفى أجيال لاحقة جاء أمر الله إلى هؤلاء الخطائين ، الذين قاموا من باب الثقة الزائدة عن الحد والمغرورة بحفر منازل لأنفسهم فى الصخور ، بالقرب من فتحة صالح ، الذى كان أميرا على أمتهم . طلب آل ثمود عبدة الأصنام من صالح أن يقدم لهم آية أو علامة : "قالوا : أجعل الجبل يأتى لنا بناقة ضاعت منذ عشرة أشهر وهى عشار ، وسوف يصدقوه" . وهنا انتحب الجبل ، كما لو كان يكابد آلام الولادة ، ثم طلعت بعد ذلك من ذلك الرحم الصخرى تلك الناقة التى طلبوها من نبى الله . وبعد ذلك بشهرين ، وعندما وضعت قعودها الصغير (نظراً لأن حمل الناقة يصل إلى اثنى عشر شهراً ،) وأصبح حليبها يكفى كل هؤلاء الذين يعيشون فى ذلك السهل . ولكن تلك الناقه المعجزة كانت تخيف ماشيتهم عندما كانت ترعى فى البرية ، يضاف إلى ذلك أن تلك الناقة عندما كانت تشرب كل ثلاثة أيام ، كانت تأتى على كل مياه آبار آل - ثمود الحاقدين . وبعد أن ضجوا منها ، قام البعض منهم ، الأشرار ، بالتآمر للإضرار بالناقة الأمر الذى جعلهم يقتلوها بسهامهم ، (كما سبق أن أوضحنا) فى الممر الذى يعرف باسم مَبْرك الناقة - حزن آل - ثمود لنفوق الناقة المقدسه ؛ وهنا طلب النبى صالح منهم أحضار وليدها ، حتى يمكن أن يغفر الله لهم خطأهم . ولكن وليد الناقة جأر خوفا . "قال صالح ، الجئير ثلاثة أيام ؛ أبقوا فى مساكنكم ، وبعدها ستحل عليكم المصيبة والكارثة" . فى ذلك الوقت ، تقدم بعض الأشرار ليتربصوا بالنبى صالح ، ولكن الملائكه أحبطوا أعمالهم . وبعد انقضاء الأيام الثلاثة ، هبت عليهم ريح صرصر عاتية ، اهتزت الارض على إثرها ، وسمع صوت قادم من السماء ، ومع طلوع الصبح عُثِر على عبدة الاصنام منكفئين على وجوههم (بنفس الطريقه التى ينام بها البدو الرُّحل) جثثا ميتة ، وخلت الأرض منهم ، كما لو كانت لم يسكنها أحد من قبل . والمسلمون السوريون يعرضون صخرة ضخمة (صخرة الحوراء) فى هذا السهل ، التى فتحت صدرها واستقبلت وليد الناقة اليتيم مرة ثانية .

(*) ثمود : كانت ثمود تتألف من قبائل وعشائر متعددة ، ولم يكونوا دولة مستقرة واضحة المعالم وعلى أثر هجرتهم من اليمن انتشروا فى شمال الحجاز وسيطروا على بعض أجزائه وخاصة فى وادى القرى ، وكانت مدينة الحجر من أهم الحواضر التى عاشوا فيها . (المراجع)

مضى علينا حتى الآن أسبوع ونحن محبوسين فى هذه القلعة ، وكنا ما نزال مرهقين بفعل الوقفات التى وقفناها اعتباراً من خروجنا من سوريا . ومحمد على يرفض أن أخرج من القلعة للتجوال وحدى ؛ ولكنه كان قد اتفق مع زيد Zeyd، وهو شيخ بدوى كبير ، الذى سوف يعود بعد عدة أيام ليصبحنى إلى منطقة الآثار . قال الحاج نجم عن المدائن "إنها معجزة ، إن إنت القيت نظرة على أسواقهم Sûks، وعلى الحفر المسمارية التى كانوا يعلقون عليها بضاعتهم أمام أبواب الدكاكين ، وعلى كثير من الرفوف فى كثير من الدكاكين ، وعلى الأقبية الصغيرة التى كانوا يعرضون تحتها بضاعتهم ؛ ووالله ، قد ترى كل عظام قوم ثمود ؛ لقد كانوا كفارا ، لم يؤمنوا بالله إلى أن أماتهم الله ، بريح صرصر عاتيه" . ؛ كان ذلك المغربى المحترم يتكلم بطريقة تجمع بين البساطة المرتبكة وبين فكر شبه أمين إلى الحد الذى جعلنى أرى أن جدله كان ينطوى على شيء من النقص : "(قال للأغا) ألا تدرى أن هناك شيئا جديدا جرى اكتشافه مؤخرا ؛ بعض النسوة اللاتى كن يبحثن عن ملح البارود فى تلك 'المنازل' ، عثرن على مادة تشبه المخدر ، إذا ما طرحت على الفحم المشتعل أنتجت رائحة طيبة مثل رائحة البخور . والله ، لقد بعن تلك المادة بمبلغ كبير فى العلا el-Ally ." وغاب الرجل عنا ليحضر قبضة صغيرة . على شكل قطع صغيرة ، كان لونها بنيا مشوبا بالابيضاض ؛ "واصل كلامه ، إنتبه يا أنت ، وهو ثلاثه أنواع ، بخور ، عود (*) ، ومبارك ." وألقى بتلك القبضة الصغيرة فوق نار الوجار (**) لتنبعث منها رائحة أرضية ضعيفة ، بها رائحة طحلبية تميل قليلا إلى رائحة البخور . معروف أن البخور لم يعد ينتج بعد فى اليمن السعيد ، ومع ذلك فإن لذلك العطر وزن كبير عند أهل بلاد العرب . ويجرى إحضار القسم الأكبر من ذلك البخور من جزر الملايو إلى مكة فى موسم الحج ؛ ثم ينتشر بعد ذلك فى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية ، بل ويصل أيضا إلى كل أسرة من أسرها . هذا الطيب جميل الرائحة يريح النفس المتدينة وينبه المخ : ومسألة اعتقادنا فى دينية رائحة البخور يحتمل إنها ترجع إلى التراث الأممى (غير اليهودى)

(*) نوع من أنواع الطيب (البخور) عند أهل الجزيرة العربية وبخاصة المنطقة الوسطى . (المترجم)
(**) الوجار : عند أهل الجزيرة العربية ، هو موقد القهوة . (المترجم)

لطريق الذهب والبخور . وأهل الجزيرة العربية يضعون قطعة من البخور فوق مبخرة يجرى تناقلها من يد إلى يد أثناء شرب القهوة ، وبخاصة فى قرى الواحات فى أيام الأعياد : ويقوم كل من يتسلم تلك المبخرة بوضعها لحظة تحت 'بشته' (عباءته) ، حتى يعطر ملابسه ؛ ثم يشم الرائحة الطيبه مرة أو مرتين ، ثم ينقل المبخرة بعد ذلك لمن يجلس بجواره .

رَحَلَ البدو . وفى إحدى الأمسيات جلسنا مجتمعين فى غرفة القهوة الصغيرة (التى تقع فوق الممر العلوى) ، من حول نار الشتاء المشتعلة بفعل خشب أشجار السنط الجاف ، وهنا ظننا ونحن نستمع إلى ضربات هاون البن أننا سمعنا شخصا ينادى من تحت منفذ من المنافذ ! أصخى الجميع السمع ؛ - سمعنا صوتا رخيما وهو ينادينا مُتْعَبًا . ونادى عليه محمد على باللغة التركية ، التى تعلمها عندما عمل بالجندية ، حيَّاه : ورد عليه المنادى بنفس اللغه التركية . "آهٍ" ، قالها الأغا وهو يسحب رأسه ، "إنه حاج مسكين ؛ إنهض يا حسن ، وأنت يا محمد إنزل على وجه السرعة وافتح الباب :" وهنا سارع الإثنان بدافع من الدين إلى فتح الباب والسماح لذلك الحاج المسكين بالدخول . اقتادوا إلينا فقيرا مسكينا ، طيب المحيا ، ومتقدم فى السن ؛ كان المسكين شبه عارٍ ويرتعد بفعل برد الليل . كان ذلك الرجل درويشا تركيا قطع المسافة إلى هذا المكان سيرا على الأقدام ، قادما من مقر إقامته فى آسيا الصغرى ، وقد تصل هذه المسافة إلى ما يقرب من ستمائة ميل ؛ ولكن بالرغم من بنيته المتينة إلا ان معاناته الإنسانيه كانت قليلة فى ضوء طول الطريق . توعكت صحة ذلك الدرويش بعض الشىء بعد أن غادر بلدة معان ، وبعد أن غادرت قافلة الحج بلده المدوَّرة ، خلفت وراءها ذلك الدرويش نائما فى البرية ؛ وترتب على ذلك أن قطع تلك المسافة التى تقدر بحوالى مائتى ميل ، عبر الصحراء ، مقتفيا بذلك أثر القافلة ، ولم يكن يرتاح إلا فى القلاع ! لم يستطع عابر السبيل هذا اللحاق بالحجاج ، الذين كانوا يسبقونه دوما بفعل المسيرات المحددة لهم والمفروضة عليهم . أحضر محمد على له ثوبًا من اللباد الحلبى ، لف به نفسه احتماء من البرد ، نظرا لأن الأعراب كانوا قد جردوه من ملابسه قبل مدائن صالح بثلاث ساعات .

استقبل الجميع ذلك الدرويش استقبالا حانيا ، وبينما كانوا يُحضِّرُون له العشاء ، طلبوا منه أن يرتاح قائلين له : فى العام القادم ، إن شاء الله ، ستؤدى فريضة الحج ؛ أما الآن فيفضل له البقاء معهم ، وأنهم سوف يستضيفونه ، خلال هذين الشهرين ونصف الشهر إلى أن يعود الحج من جديد . ولكنه رفض ذلك العرض ! لقد ترك محل إقامته فى بلده لكى يشقى فى بلاد غريبة ؛ وإذا لم يرى المدينتين المقدستين المباركتين فلن يستطيع العودة ثانية . كان ذلك الدرويش يجلس معنا حول وجار القهوة ووجهه يعبر عن شكره وإمتنانه من ناحية وتواضعه وبساطته من الناحية الأخرى . وبعد أن أحس بأخوة الجنس البشرى ، إتضح أنه مسكين يدل سلوكه على طيبته وبراعته الشديدة . وعندما استعدنا مرحنا مرة ثانية ، استأنف واحد من بدو البوابة ، موسيقى الصحراء ، وفتح فاه ليضحكنا ، وراح يعوى بأغنية بدويه على أوتار الرَّبابة . كان ذلك هو وادى بدو الفجير ، شخصية كوميدية ؛ بين الصحبه المتحلقه حول نار الوجار ، وجهه أسود . هذا الرجل سبق له أن أمضى عاما فى مدينة دمشق ، تحول على أثرها إلى وغد فى ضوء مظهره الطبيعى الخارجى ، ولما كان ذلك الرجل ينحدر من أحد الشيوخ ، ويحمل وجهه البسيط سمة النبالة ، فقد كان يبدو كما لو كان طفلا حظيظا ، ولكنه لم يكن لديه أى شىء من الإبل ؛ كانت خيمته منصوبة دوما أمام القلعه : كان تردده على غرفة القهوة فى البرج أكثر من تردد الذباب ؛ كان ذلك الرجل وهو يدور بعينيه البيضاويتين الكبيرتين ، يتردد ساعة بعد ساعة على محمد على ، وهو يفتح فمه لتظهر منه أسنانه البيضاء ، ويقول : "الله أكبر !" مطريا كل الأقوال المأثورة التى تقولها هذه الشخصيه العظيمة فى القلعة .

تأخر ذلك الدرويش المسكين ، بعد أن لف نفسه فى ثيابه ، يوما آخرا ، بسبب تلك الراحة الحلوة التى لقيها بعد متاعبه الكثيرة . وبعد انتهاء اليوم الثالث ، آخر أيام الضيافة المعتادة ، بدءوا يتبرمون منه ؛ وهنا يضع محمد على فى يد ذلك الدرويش وجبة من الطعام ، ووضع على كتفه قربة ماء صغيرة ، ثم اقتاده إلى قارعة الطريق ، وأراه الاتجاه الذى ينبغى عليه السير فيه ، وطلب منه أن يتتبع آثار أقدام القافلة ، وتمنى له السلامة . متاعب الحج لا نهاية لها وهى كثيرة ؛ والدين وعد بأشياء

طيبة قادمة ، لأمثال هذا المسكين ، والكثير من هؤلاء المساكين معوزين وخاوين الوفاض . (......................) (*)

جاء درويش عربى شاب أثناء زيارتى الأولى لبلدة معان ؛ وكان ذلك الدرويش ممن يسكنون ، أو إن شئت فقل : يعيشون فى منطقة بلدان الحدود العربية الفارسية المشتركة ، الواقعة فيما وراء مدينة بغداد . كان "ابن السبيل ، هذا يلبس لباساً قطنيا فضفاضا ، ووصل وحده قادما إلى معان من مكة ، (التى تبعد عن معان أكثر من ستمائة ميل ،) وصل إلى معان ، سيرا على الأقدام ، بعد ستة أشهر تقريبا من عودة قافلة الحج . كان غوثه على الطريق يتمثل فى اللجوء إلى القلاع ، أو إن شئت فقل : محطات الحج ، وفى بعض الأحيان الأخرى كان يقيم مع الأعراب الذين كان يلقاهم فى الطريق ، ويقضى معهم شيئا من الوقت فى مخيماتهم . سألته عن الطريقة التى استطاع بها تعرف طريقه دون أن يجرده البدو مما كان معه ؟ أجابنى قائلا : "أيها الرجل ، أنا لا أملك شيئا سوى ذلك القميص الذى تراه على كتفى ، وهذا الصحن الخشبى الذى تراه فى يدى ." ولما كان ذلك الرجل يبدو عفيا ، لم يظهر عليه التعب بعد . كان بين هذا الرجل وبين دمشق مسافة تقدر بحوالى مائتين وخمسين ميلا ؛ وبعد وصوله إلى دمشق يتعين عليه أيضا أن يرافق إحدى القوافل طوال شهرين من الزمن إلى أن يصل إلى بلاد الرافدين ، ثم يترك بلاد الرافدين سيرا على الأقدام مسافة طويلة أخرى حتى يصل إلى موطنه . وبالرغم من أن الرحلة إلى المدينة وإلى مكة لا تكون رائعة دوما ، إلا أن الحجاج يقومون بها سيرا على الأقدام وبخفه ومهاره ! هذا الرجل ، خلفته قافله الحج مريضا وراءها فى مكه ، فى إحدى المستشفيات ، الخيرية الخاصة باستقبال الغرباء - ومن يموت فقيرا فى المدينة المقدسة ، يدفن من المبالغ التى يجرى الحصول عليها من صندوق الصدقات الموجود فى المسجد الحرام : كما يجرى أيضا كسوة البؤساء العراه بواقع قميص لكل واحد منهم .

(*) عبارات فيها مساس بالدين رأينا استبعادها . (المراجع)

كان من بين أولئك الذين خلّفهم الحج رجل آخر يعيش فى القلعة ، وهو فقير الحال من بلده حمص Emesa (فى أعالى سوريا) ، وكان يعمل من قبل ضمن قوات الشرطة . وضع ذلك الرجل نفسه على طريق الحج ، دون أن يكون معه فلسا واحداً ، وأجّر نفسه نظير الطعام ، لواحد من تجار ومقاولى الإبل ، ليقوم برعى الإبل . وهذا العمل شاق جداً إذ يتعين على ذلك الرجل أن يصحو أثناء الليل بعد مسيره الطويل أثناء النهار . هذا الرجل تورمت قدماه بعد أن قطع مسافه خمسمائة ميل ، كما تورمت ساقاه أيضا . هذا الرجل تأخر مسيرة أو مسيرتين ، أو إن شئت فقل : وقفه أو وقفتين ، ثم سمح لنفسه بالتأخير عدة أميال قلائل عن مدائن صالح ، وبالتالى فاتته قافله الحج . عثر باشا الحج نفسه على ذلك الرجل التعيس عندما كان يركب فى مؤخرة القافلة ؛ قال الباشا : "من أنت ؟" . "هل يرضيك أن ساقاى لا يقويان بعد على حملى ؛ الرحمه ، يا جناب الباشا ، لقد كنت أعمل من قبل بالجندية ، وأنا أخشى أن أموت هنا ." – "إنهض ! (صاح الرئيس العسكرى) إنهض وواصل المسير !" ثم هوى التركى على ذلك الرجل بكرباجه المصنوع من الجلد . "وأسفاه أنا لا أقوى على السير خطوة واحدة ، ومع ذلك اجلدنى حتى أموت هنا ." وهنا أصدر باشا الحج أوامره إلى واحد من العجيل ، بأن يحمل ذلك الرجل على ناقته ويوصله إلى القلعة : حيث يمكنه الانتظار فيها إلى حين عودة الحج ، وطلب إلى راعى القلعة أن يقدم له الماء والغذاء . كان اسم ذلك الرجل نصار Nasar، وكان بليد الحس ومكروها من أهل القلعة نظرا لأنهم كانوا مضطرين إلى التخفيف عنه ؛ وبعد أيام الضيافة الثلاثه ، طردوه من غرفة القهوة ، وأعطوه سكنا مثل الحيوانات فى مخزن العلف الموجود فى الدور السفلى من القلعة . داويت ذلك المسكين ، الذى عبر لى عن عظيم امتنانه ؛ نظرا لأن حيوية دم ذلك الرجل ، كانت تعتمد على الأرز والماء فقط ، الأمر الذى جعله لم يتحسن قبل عودة الحج .

هنا دخل بعض البدو الذين سبق لهم رؤية ذلك الدرويش وهو يسير ببطئ على طريق الحج المنخفض : كانت السماء صحو ، وكانت شمس الشتاء تشيع الدفئ فى ظهيرة النهار ، غير أن الفصل كان باردا على نحو يصعب معه على ذلك الرجل المرهق النوم فى الخارج أثناء الليل . وبعد ذلك بأسابيع ، وصل أيضا بعض البدو قادمين من المدينة (المنورة) وسألناهم إن كانوا شاهدوا أو رأوا ذلك الدرويش ؟ وعندما حكينا

لهم عن لباس ذلك الدرويش ، ردوا علينا قائلين : "حقا ، بالله ، لقد رأيناه وهو يكاد يحتضر ؛ وكان اللبَّاد من تحته ؛ كان يرقد على جانب الطريق ، بالقرب من قرية سورة Sawra (أى ليس على مسافة بعيدة من هنا) ، وعلى مقربة من القلعه ." وحزن من أحسنوا إليه ، لأن ذلك الذى طردوه حيا منذ أيام قلائل أصبح الآن مجرد جثه فى تلك الأرض الجرداء القاحلة ؛ وقد يحدث لهم الشيء نفسه فى يوم من الأيام فى هذه الصحراء الكبيرة . وصاحت الأصوات كلها دفعة واحدة ، "مات الرجل من العطش !" وقد ظنوا أنه ربما تخلص من قربة الماء الثقيلة التى كان يحملها على عنقه فى أوقات الظهيرة . لم يكن ذلك المنظر جديداً على البدو ، منظر أولئك المسافرين التعساء الذين كانوا يتساقطون ميتين على طريق الحج بلا رفيق ؛ إنهم (يقول ذلك البدو على مرأى ومسمع منى) يرون ، فى كثير من الأحيان ، الضباع وهى تتوثب استعداد الالتهام تلك الجثث ، عقب خروج آخر نفس من تلك الأجساد الدافئه . يمر البدو على تلك الأجساد :- والبدو لا يعرفون الإحسان المجانى لدفن الغرباء . - وقد أبلغنى محمد أنه فى كل موسم من مواسم الحج يسقط بعض الحجاج ويتركون ليموتون . وتشتد معاناة الحجاج فيما بين الحرمين ، "حيث ، تقف الجبال ، يا خليل ! كما لو كانت جدرانا تطاول عنان السماء على الجانبين !" وفى هذا الهواء الساكن لا يوجد أى ساتر أو غطاء سوى الشمس المجردة : ونظرا لهبوب رياح السموم الخانقه عليهم فهم يسقطون مغشيا عليهم ويختنقون . صحيح أن هناك ماء على جانب الطريق ، حتى عندما تصل الحرارة إلى أقصى مدى لها ، ولكن البدو الملعونين ، لا يهمهم سقيا أو عدم سقيا عابر السبيل ، اللهم إلا إذا حصلوا على المزيد والمزيد من الهدايا والعطايا من باشا الحج : ليس هناك علاج ، أو حل لوادى الموت هذا ، الذى هو بمثابه نهاية لكل الأخطار المميتة . يضاف إلى ذلك ، إن أرض المخيمات فى مكة تبعد كثيرا عن الحرم ، ولذلك يتعين على هؤلاء الغرباء المساكين أن يستأجروا لأنفسهم غرفا للسكنى فى المدينه المقدسة : من هنا فإن عددا كبيرا من هؤلاء الناس يتكدسون داخل غرفة ضيقة واحدة . والمعروف أن السواد الأعظم من هؤلاء الحجاج يصلون من تلك الوقفات وهم فى منتهى الضعف والوهن ، الأمر الذى يزيد من اعتلال أجسادهم ، وتفشى الاضطرابات المخيفة بينهم : - ومن موسم الحج إلى مكة يتفشى الكثير من الأوبئة العامة التى تصل إلى أبعد المناطق التى يعيش فيها الجنس البشرى . -

إنقضت أيام أُخر ، ومحمد على يقول لى كل مساء : 'إنه سوف يصبحنى فى الصباح إلى الآثار' . كانت وعود ذلك الرجل من النوع التركى ، هذا يعنى أننى كان على أن أتعامل مع شخص هو فى داخله قد افترس النصرانى : عندما كان محمد على فى سوريا كان يبدو إعجابه بالشراهة العجيبة التى وجد عليها بعض المسافرين الإفرنج عندما كانوا يشترون الأشياء الأثرية القديمة ' . "قال محمد على ، ما الذى ستعطينى إياه ، حتى يمكن لك أن ترى الآثار ؟ ويجب ألا يغيب عنك أننى حاميك الوحيد هنا فى هذه الأرض الجرداء الخراب . إن فى القلعة من يريدون قتلك ، ولكنى أنا الذى أمنع ذلك : والله العظيم ، انا أقول لك الحق ." قلت له : "حدد السعر الذى تريده لخدماتك وسوف أعطيه صكا أدفعه له عند العودة إلى دمشق :" – ولكن الوعود بعيدة الأمد لا يقبلها العرب ، لأن عالمهم خالى من الثقة ، فضلا عن إنهم هم أنفسهم لا يعترفون حتى بالاتفاقات شديدة الدقة .

عند هذا الحد ، وصل زيد **Zeyd**، أحد شيوخ بدو الفجير(*) ، والذى كان يركب جملا قادما من الصحراء ، ومن خلفه حامل بندقيته ، كما كان معه أيضا ولده الصغير يركب على ظهر فرسه . زيد هذا ، سبق له أن زار دمشق وتعلم كل حيل السلوكيات العثمانية ، التى تمكنهم من الدخول إلى حظوة المسئولين عن طريق استعمال الرشوة . قبل عامين ، وعندما ولدت الفرس مهراً وليس فرسا أو إن شئت فقل : فلوة ، (نظرا لأن البدو لا يعتدون بذكور الخيل ويعتبرونها لا تستحق شرب لبن النياق) ، قام ذلك البدوى المكار بإهداء ذلك المهر العقيم إلى محمد على ذلك الذئب المغربى ؛ وعاد راعى القلعة راكبا ذلك المهر الصغير قادما من سوريا . ولم يرى زيد بعد ذلك سوى وعود ليس إلا : ها هو الآن قد جاء دوره مع النصرانى ، وكان من 'رأيهما هما الاثنان إننى يتعين على أن أظل غاديا رائحًا بينهما . "أعط زيد عشرة جنيهات ، يا خليل ، وسوف يحملك على ظهر فرسه ، ويتجول بك بين وحول الآثار كلها ." وأبعد أثر من تلك الآثار لم يكن يبعد عن المكان الذى كنا فيه أكثر من ميلين ، كما أن الغالبية العظمى من تلك الآثار لم تكن تبعد أكثر من ميل واحد عن البرج ، أو إن شئت فقل : القلعه . وادعى زيد أن هناك شيئا آخرا يمكن أن أراه بجانب الآثار 'فى بئر الغرنَّم **el- Ghran- Bir**

(*) بدو الفجير هم أيضًا بدو الفقارة ، أو بدو الفقراء . (المترجم)

nem'، الذى يتعين علينا عنده اصطحاب رفيق من أعراب Aarab البلِّى(*) . 'Billi
وهم يحسبون كل ذلك ضمن بلاد الحجر التى أصبح عاليها سالفها ، وتقع فيما بين مُبْرك الناقة وبير (بئر) الغرنَّم ، التى تبعد عن القلعة مسافة ثلاثين ميلا تقريبا ؛ وعلى جانب طريق التجارة القديم توجد أنقاض بعض القرى التى تمتد إلى المدينة المنورة . ولكن البدو الرحل يقولون فى صوت واحد ، لا يوجد فى أى مكان من هذه الأنحاء بيوت byût أو بيبان bebán، هذا يعنى أنه ليس هناك غرف منحوته فى الصخر مثل بيوت الحجر أو إن شئت فقل : مدائن صالح .

كان زيد مشغولا بالمرور على خيام أفراد قبيلته ، وقد سبق له ربط كل هؤلاء الأفراد بالصيغة "جيراك" Jirak التى معناها "أنا جارك" . وأنا إذا ما رفضت زيدا قد لا أتمكن من استئجار أى أحد منهم . وهكذا قدِّر لنا أن نترافق طوال فترة طويله قادمة . كان زيد شيخا من شيوخ الصحراء وكان داكن البشرة إلى حد السواد ، متوسط القامة وفى منتصف العمر أيضا وتبدو فى وجهه عضة الجوع . اللون الداكن الذى من هذا القبيل لم يتعود العرب على رؤيته ، نظرا لأن عرب هذه المنطقة يميل لون بشرتهم إلى اللون البنى الغامق . هؤلاء العرب يظنون أن ذلك اللون يشبه لون الدم الدنيئ الذى تنحدر منه أعراق العبيد ؛ ومن ثم يصبح الشعر المجعَّد والأكرت عيبا من وجهة نظرهم . ولعلنا نذكر أن ترانيم الكتاب المقدس ، تظهر لنا الحبيبة وهى تعتذر عن ملامحها الجميلة داكنة اللون ، "أنا سوداء ولكنى جذابة ، وأنتم يا بنات أورشليم (القدس) ، بشرتكم تشبه خيام البدو ، كما تشبه أيضا لون قماش خيام (سيدنا) سليمان ؛" هذه هى العشيقة أو الحبيبة تعظم ابيضاض حبيبها المتورد . الظُلمه ، الحرمان من الضوء ، هو لون الموت ، (الموت الأسود el-aswad mawt)، وبالمثل أيضا المصيبة والشر ؛ ولذلك يوصف قلب الرجل الشرير بالسواد (القلب kalb الأسود el-aswad) وطبقا لهذه الرؤيا ، فإن قاضى الأرض كلها فى ساعة الحساب الأخيرة سيكون له أسلوب سريع فى مراجعة الحسابات ، ولن ينتظر المفاوضات مع كل روح فى بحر الأجيال ، والسبب فى ذلك أن برص الصحراء الشريرة وجزامها سوف يظهر على وجوههم ، وسوف يظهر ذلك البرص والجزام على وجوه الأشرار على شكل اسوداد

(*) البلى : قبيلة تقع مضاربها على مقربة من مدينة تيماء . (المراجع)

مخيف ومرعب . وبلغة الإنجيل سوف يجرى فصل الأغنام عن الماعز ، - وفى ذلك مقارنة للون - وسوف يسطع العدل مثل ضوء الشمس . والعرب يقولون عن الحياة الإنسانية النقية ، 'قلبة أبيض kalb-hu : abiâth' ونحن بدورنا نقول 'صريح' . candid كان زيد يُحمِّل صوته أعمق النغمات التى يمكن أن تصدر من حنجرة بشرية ؛ هذه هى الصورة التى يمكن لرسام أن يرسمها لمسلم من مسلمى الصحراء . كان زيد غائر الخدين ، عيناه توحيان بالصرامة ، قادم من أرض الجوع الخالية من القانون ، التى يتغذى فيها على شرب القهوة بدءا من الصباح ، وتدخين التبغ ؛ ولما كانت فضيلة البدو الكبرى هى الصبر ، فإن الشجاع هو من يتحمل الجوع ويصبر عليه . "حقا بالله (قال زيد) ، الأعراب el-Aarab فاسدين fasidîn هم والدولة (الإمبراطوريه)" : كان البلاء فى قلب ذلك الرجل ؛ كان ذلك الفليسوف البدوى ينظر إلى الأمور البشرية كلها نظرة شك وارتياب تقوم على التسامح . ولما كان زيد شيخا من أفراد قبيلته الذين هم من أصول راسخة ، فإن تقديره وتقييم الغير له لم يكن تقديرا كريما أو مشرفا ؛ يضاف إلى ذلك ، أن كرمه من النوع البائس ، وهذا بحد ذاته يعد سبَّه للبدو فى تلك الصحراء الخالية . فهم زيد كان فهما ليبراليا (حرًا) وراقيًا ، جعله واحدًا من رجال المجالس ، الذين تربوا فى هذه المدرسة البرلمانية القبلية الكاملة منذ نعومة أظفارهم ؛ لم يكن زيد همجيا أو بربريا فى تصرفاته ؛ مشيته كانت تنم عن رشاقة حركة المخلوقات البرية . لم أر فى شخصية زيد أية مسحة تنم عن النزوع إلى التشدد . كان يتحدث معى وهو يبتسم عن قوته مع أهل البلد ؛ ومن رأى زيد ، أنه يتصور أن الله قادر على حكم الدنيا كلها دون وساطة من البشر . لم يكن زيد من المغامرين ، ولم يكن يعرِّض أى شىء للخطر . كانت سياسته فى بيته هى سياسة المساكين ، التى تقوم على البخل الشديد ؛ كان زيد بدويا شديد الحذر من الغير ، كما كان حذره أكثر من بعد نظره . كانت صداقة زيد صادقة فى أساسها ، ولم يكن أحد يخشى أو يخاف من عدائه . تراه كريما فى المواقف التى لا تكلفه شيئا ، ومن حيث حرصه بوصفه شيخا للقبيلة ، لم يكن يتعجل فى الوساطة فى الأمور التى لا تحقق له منفعة .

كان زيد (بحكم دهائه ومكره الصحراوى) قد أحضر معه إلى القلعة خمسة أفواه : وبالتالى يشكل هذا الكرم نوعا من أنواع العبئ على مضيفيه ، يضاف إلى ذلك أن محمد على ، الذى ظن أن الطرفة انقلبت عليه هو ، حضر إلى غرفتى فى الصباح وهو متجهم الوجه . سألنى محمد على 'إن كنت لا أدرى أن كل تلك الحنطة والقمح

يتعين نقله على ظهور الإبل من دمشق ؟' أجبته ، وأنا لا أعرف تماما أساليبهم الماكرة ، بأنني لم أستدع أو أوجه الدعوى إلى أحد منهم ؛ – ردَّ عليَّ محمد على بصوت عالٍ : 'اتفقا مع بعضهما البعض ، أولا يتعين عليك احتجازه أو تعطيله ، يا خليل ، إنه شيخ من شيوخ الأعراب ؛ ألا تعلم أن قلب كل واحد من البدو يكون متعلقا بأسرته ، وأن غيابه يشعره بالقلق على تلك الأسرة ، وذلك من باب الخوف أيضا على الماشية التى تركها وراءه فى البرية الواسعة ؟' سألته ، ألم يكن من الأفضل ، قبل أى كلام آخر ، أن أزور الآثار وأراها ؟ رد على قائلا : 'هذا كلام معقول' . وأردف قائلا : 'إن زيدا يتعين أن يصحبنى إلى الأبواب beban القريبة' .– "إسمع يا خليل ! إن مسألة رؤية أى مسيحى فى هذه البلاد أمر لم يخطر على بال أحد من الناس هنا" ، (حتى وإن كان ذلك على مجرد أبواب هذه الأماكن المقدسة) . أجبته وأنا أضع يدى على أحجار القلعة الغشيمة ، "ولكن هذه المسارات تشهد لى ، إنها مبنية بأيدى رجال مسيحيين" .– "هذا كلام جيد ، ونحن جميعا هنا أصبحنا لك أصدقاءً : مسلم أو نصرانى ، لقد أصبح خليل واحداً منا ؛ والله ، لن نتألم لهذا الأمر مرة ثانية . ولكن هيا ، إذهب مع زيد الأن ، وسوف نتفق معه فيما بعد ، هذا إذا لم أرسلك أنا بنفسى ، بصحبة بعض رجال القلعة لزيارة الآثار ."

وصلنا بعد مسير نصف ميل إلى تلك الآبار ، التى هى فى الوقت الحالى سقيا لبدو هذا الجزء من البلاد . وهذه الآبار عميقة شأنها شأن البئر الموجوده داخل القلعة ، ويصل اتساع الواحد منها عند فتحته من أعلى حوالى عشرة أو أثنى عشر قدما ؛ وحواف تلك الأبيار مربعة الشكل عند الأجناب كما لو كانت قواعد لعمل أعمال الرى القديمة التى كانت تعتمد على استعمال العجلة . وبطانة البئر من الحجر الغشيم ، ولا يستخدم فيها الملاط ، وهذه البطانة (من ذا الذى يمكن أن ينظر إلى هذه الأشياء دونما انفعال ؟) تظهر عليها خدوش عميقة حدثت بفعل تأثير الحبال الناعمة الكثيرة التى تعاقبت على هذه البطانة ، عبر أجيال كثيرة . وأنا أرى حاليا (أنظر ص ١٤٦ الصورة رقم ٧) على مقربه منى ، منظر أول أثر من تلك الآثار (أنظر الصورة رقم ٦) ، وأرى أيضا أثرًا آخرا محفورا من فوقه ، كما لو كان رأسا لواجهة ضخمة ، التى لا يوجد فيها سوى باب واحد غائر قليلا داخل الصخر وبدون غرفة من خلفه . هذا النحت

الطموح ، الذى يصل عرضه إلى سبعين قدمًا يطلق الناس عليه هنا اسم 'قصر kasr البنت el-Bint' . (*) هذا المكان ليس محظور الدخول إليه كما يقولون ؛ والسبب فى ذلك ، أن رفاقى بعد أن ارتقوا سلما قديما ، ملحقا بالطرف البعيد من تلك الصخرة ، تمكنوا من الوصول إلى مقدمة أو إن شئت فقل : الواجهة الأمامية لذلك الأثر . شاهدت ، فى الأسفل ، تلك الواجهة الطويلة ذات الشكل الغريب ، كانت تلك الواجهة فيها شيء من التناسق البللورى ، وتوحى بالوقار ، كما كان فيها زخارف عجيبة من الزخارف التى فى آثار بيترا Petra؛ يضاف إلى ذلك أن تلك الصخرة هى من الحجر الرملى الذى يجمع لونه بين اللونين الأصفر والرمادى ناعم الحبيبات ، والذى تتخلله أيضا عروق من الحصى وحصوات من حجر الصوان الشفاف المتبلور – كلمة 'قصر' جمعها 'قصور' تعنى بشكل عام فى الجزيرة العربية 'المنزل الإسطبل' سواء أكان مصنوعا من الطين أو الحجر ، وهو عكس 'بيت beyt شَعر Shear'، أو إن شئت فقل : البيت المتنقل ، الذى ينتمى إلى البدو الرُّحل . يضاف إلى ذلك أن الأكواخ الصغيرة المصنوعة من الطين ، التى نشاهدها حول الأراضى المزروعة بالحبوب فى البرية ، والتى لا يسكنها أصحابها بصورة مستمرة ، يطلقون عليها أيضا اسم 'قصور' . وفى حائل وكذلك فى الرياض يطلق على منزل الأمير أسم 'القصر' el-kasr، كما لو كان "القلعة" . كلمة 'قصر' فى بعض القرى الصحراوية ، تعنى مجموعة من المنازل ، التى يحيط بها سور واحد ؛ من هنا فالناس هنا يقولون عن قرية سميراء " Semîra إنها ثلاثة قصور" . والناس هنا يطلقون على أى مبنى حصين من حيث الدفاع والأمن ، (وتلك أمور شائعة فى الجزيرة العربية) اسم الجِلَّه أو الكلا التى تعنى 'القلعة' . والواضح أن كلمة 'برج' التى معناها 'برج دفاعى' كلمة أجنبية ، ولم أسمعها فى منطقة نجد من الجزيرة العربية .

وبعد أن عدنا من صخرة البرج ، وصلنا إلى منطقة أسفل واحد من الآثار الرئيسية (انظر الصورة رقم ٦) ؛ على واجهه ذلك الأثر شاهدت طاوله ونقش من

(*) يطلق سكان مدائن صالح على الآثار النبطية اسم القصور . فهناك قصر البنت ، وقصر أبى البنت ، وقصر الصانع ... إلخ . غير أن النصوص النبطية المنقوشة على واجهات تلك الآثار لا تترك مجالا للشك فى كونها مقابر ، ولكنها مقابر تدل على ما بلغه أهلها من تنعم وثراء ، وما بلغته المملكة النبطية فى عصرها من تحضر ورخاء . (المراجع)

النقوش ، وكذلك طائر أيضا ! وهذه كلها أمور مألوفة فى واجهات الحجر ؛ ويصل عرض العمارة المنحوتة هى والكرانيش والأعمدة إلى حوالى اثنين وعشرين قدما – وهنا رحت أتأمل ذلك اللغز الذى يكمن وراء تلك الحروف الزاحفة الغريبة التى قطعت لها تلك المسافة الكبيرة طمعا فى رؤيتها والبحث عنها ! كل الحروف محفورة فى الصخر ؛ هذا هو خليج جرى حفره فى الصخرة الطرية ، وفى وسط ذلك الخليج جرى نحت ذلك الأثر الذى يشبه المعبد . والواجهة إغريقية(*) الطراز وهى عبارة عن ذروة مدرجة (انظر الصورة رقم ٩) هذه حلية آسيوية ولكنها غريبة جداً على العيون الأوروبيه – لقد رأيت تلك الحليه مستعمله فى البيوت المبنية من الطين فى حائل (انظر الصورة رقم ٨) . الأعمدة المسطحه هى بمثابة الركائز فى هذا النوع من العمارة ؛ يضاف إلى ذلك أن تيجان الأعمدة لها تصميم فريد ، فهى مجوّفة ومربعة الشكل ، مثل الأعمدة والتيجان الأخرى التى سبق أن رأيتها فى بيترا Petra . فى منتصف هذه الواجهة المزوّرة من واجهات المعابد ، أرى نحتا لمدخل مسقوف لأحد المبانى الفخمة ، وعليه الحليات المعمارية نفسها . وعندما دخلت ذلك الأثر لم أجد سوى حجرة محفورة ، وهذه الحجرة ليست عالية ، ولكنها لا تتفق مع جلال ووقار الواجهة ؛ (نحن الآن داخل قبر من القبور) . شاهدت فى هذه الغرفة المعتمة بعض الفتحات الحائطية أو إن شئت فقل : فتحات للتثبيت ؛ والأرضية كلها مملوءة بالرمل المضغوط . وهنا خطر ببالى أننى قد أستطيع بمساعدة التلسكوب ، نقل أو تدوين الكتابة الموجودة على شاهد القبر ، التى كانت تبدو خافتة فى ضوء الشمس ؛ ولكن جيوش الذباب كانت تملأ عينيا فى كلّ لحظة ، يقول العرب هنا ، إن السبب الرئيسى وراء هذه السحب الكثيفه من الذباب ترجع إلى عدم سقوط المطر هنا خلال السنوات القليله الماضية .

كانت ظهيرة ذلك اليوم الشتوى ساكنة الريح ؛ وهذه الحشرات التى تعافها النفس ، والتى كانت تحملق من خلال الرمل ، من خلال الهواء الساكن ، وهى تقف تحت تلك الآثار التى تضربها الشمس ، هذه الحشرات كانت تلقى علينا بعبق القبور القديمة .

(*) استخدم المؤلف كلمة Corinth والأصل الإغريقى القديم لهذه الكلمة هو Korinthos ، وهو يدل على بلاد اليونان القديمة . (المترجم)

وهنا قال زيد : إن الشمس شديدة الحرارة وإنه لن يستطيع التقدم أكثر من ذلك ، فضلا عن إنه كان متعبا بالفعل . عدنا عن طريق صخور البرج ؛ ورأيت في ذلك الطريق قلة قليلة من الآثار (انظر الصورة رقم ١٠) ، التي يذيع صيتها أيضا بين واجهات آثار الحجر : ونظرا لأن تلك القلة القليلة من الآثار هي الأقرب إلى مخيم قافلة الحج ، ونظرا أيضا لأنها هي الأقرب للقلعة ، فهي بمثابة أول الآثار التي يقوم الحجاج بزيارتها . وتحت المدخل المسقوف لواحد من تلك الآثار ، ومن فوق ذلك المدخل مباشرة ، رأيت حيوانا منحوتا له أربعة أقدام كما لو كان يشكل دعامات لذلك المدخل ؛ ولم أرى مثيلا لذلك الحيوان في الآثار الأخرى . رأيت أيضا أن الزينات أو الحليات الجانبية التي تشبه الهاون والتي كانت موجودة على الآثار الأخرى ، كانت هي الأخرى تشبه طائر العنقاء ، ذلك الطائر الخرافي الذي له رأس وجناحي نسر وجسم أسد ؛ هذه الحليات فريدة هي الأخرى بحد ذاتها . اللوح في هذا الأثر ، كما هو في الآثار الأخرى ، مزين بإطار على شكل زهرة (ربما تكون زهرة الرُّمان) بها ست بتلات . وعلى مدخل ثالث شاهدت تمثالا لطائر منحوت نحتا دقيقا على اللوح ، وبنحت غائر ، لم يتبقى منه سوى الرأس . في حين أن كل طائر آخر منحوت على هذه الآثار ، شاهدناه منحوتا بمعالم طبيعية ، وواقفا على هاون ، منحوتة على جدار الواجهة ، الذي ينبثق من سلسلة من الحليات في أعلى واجهة البناء : ولكن الشيء المشترك بين كل هذه الحليات هو عدم وجود الرأس ؛ وذلك بغض النظر عن ضياع تلك الرءوس بفعل تآكل الأحجار نتيجة دوسها من قبل الرعاة على امتداد أجيال كثيرة ، أو بفعل عوامل الطقس نفسها . بعد أن دخلت الكثير من كل هذه الآثار ، لاحظت أن جميع غرف هذه الآثار لها طابع القبور (انظر الصورة رقم ١٢) . لاحظت أيضا أن الفتحات الحائطية في الجدران المنخفضة المحفورة في جدران هذه الغرف كانت ضحلة كما لو كانت رفوفا ، كما لاحظت أيضا أن تلك الفتحات كانت ، من حيث الطول ، تناسب طول الجسم البشري ، بدءا من الطفل إلى الرجل الكبير ؛ ومع ذلك ، فإن ضحالة تلك الفتحات بلغت حدًا ، يستحيل معه ، من وجهة نظري استقبال أجسام الموتى . أشاهد في الأرضيات الصخرية حفرا غائرة على شكل قبور تقف جنبا إلى جنب ، وفيها الكثير

بل ومملوءة بعظام البشر ، فضلا عن تناثر العظام على الأرضيات المغطاة بالرمل . الرائحة التى أشمها هنا ، هى رائحة المومياوات ، التى فى بعض الآثار ، وهذه الرائحة ثقيلة الوقع على الأنف ؛ وخطر ببالنا أن العباءات (البشوت) التى كنا نلبسها ، أمسكت بها تلك الرائحة فى الوقت الذى لم نبقى فيه داخل هذا المكان سوى دقائق معدودات . وفى أثر آخر من تلك الآثار ، والذى يطلقون عليه اسم 'بيت Beyt الشيخ es-sheykh' ، شاهدت أرض ذلك الأثر وقد امتلأت بالخرق المتعفنة ، التى كانت تتقاذفها الرياح ، وعندما تناولت تلك الخرق ، اكتشفت أنها الأكفان التى كانت تستر عظام الموتى !

ناداني محمد على قائلا : "يا خليل ، أرى أن تعطى زيدا ثلاثمائه قرش ." وافقت على ما قاله محمد على ، ولكن الشيخ لم يكن راضيا إلا بألف قرش لا تقل فلسًا واحدًا . ولو كنت قد استسلمت لجشعهم الخيالى ، لذاعت تلك الشائعة فى كل أنحاء المنطقه وأصبحت رحلاتى المستقبلية محفوفة بالمخاطر البالغة . ولكنى وضعت فى يدى زيد ، عند رحيله ، شيئا من الذهب ، حتى لا يعود إلى محل إقامته كسير الخاطر ؛ ووعد الرجل بالحضور إلى خصيصا عند عودة الحج ، لكى ينقلنى ويحملنى للعيش معه وسط البدو : وتمنى زيد أيضا أن يفيد من مهارتى فى التحصين والتطعيم . أما الأغا ، فقد كان له رأى آخر ، إذ كان يطمع فى بندقيتى ، التى كانت واحدة من بنادق الخيالة البريطانيين : والمعروف أن أهل هذه المنطقة يعلقون قيمه كبيرة على الأسلحة الجيدة . "وإذا ما أعطيتنى تلك يا خليل ، فسوف أوفدك كل يوم بصحبة بعض الناس من القلعة ، إلى أن تتمكن من رؤية كل الآثار التى تود رؤيتها أو مشاهدتها ؛ بل إننى سوف أوفدك لمشاهدة المزيد من هذه الآثار ، فى بلدة العلا el-Ally : أكثر من ذلك ، سوف أوفدك لابن الرشيد ، وسوف أحصل على الموافقة اللازمة لذهابك إلى هناك ."

خرجت بعد ذلك ، بصحبة بعض ممن كانوا فى القلعة لمشاهدة قصر البنت بيبان (انظر الصورة رقم ١١) . البيبان ، عبارة عن سلاسل من الواجهات على الجانبين من حول محيط هذه الصخرة الشامخة ؛ وأنا أرى صورة الطائر هو وشاهد القبر على

الكثير من تلك الواجهات . هذه هى بعض الكهوف المعمارية المهيبة فى بلدة الحجر(*) ، وأرضيات تلك الكهوف مليئة بعظام الرجال والبشر ؛ ولكن ذلك لا ينسحب على أرضيات هذه الكهوف جميعا . تفرجت بعد ذلك على أثر مرتفع "هذا الأثر (قال لى رفاقى) هو بيت والد البنت ، وانظر ، يا خليل ! هذا هو أثر آخر ، هذا هو بيت شيخ رقيق الأرض ، والذى ماتوا فيه جميعا ." فى منزل شيخ رقيق الأرض هذا شاهدت أكثر العظام تناثرا : وطلب منى رفاقى أن أبدى إعجابى بقامة آل - ثمود الفارعة . ولكنى وجدت تلك القامة أمرا عاديا تماما ؛ ولكنهم فى إطار الدين تكون لهم رؤية مختلفة عن رؤية أصحاب العيون اليقظة الذين لا يحلمون . بعض الغرف لا يُرى فيها سوى أرضيات ليس إلا ؛ هذا يعنى أن مثل هذه الغرف ليست فيها فتحات حائطية . وبالقرب من السلم القديم المحفور ، عند نهاية الصخرة ، أرى غرفة مزدوجة غير منتظمة ، وهذه الغرفة وحدها هى التى يبدو أنها ليست من غرف المقابر ؛ ومع ذلك يوجد على الجدار المشترك نقش بدائى من نقوش القبور (انظر الملحق رقم ١٧) .

عبرنا المكان حتى يتسنى لنا زيارة الصخور الوسطى (وأنا أميزها هنا طلبا لمزيد من الوضوح) ، حيث يوجد المزيد والمزيد من الواجهات والتجاويف أو الكهوف الخاصة بها ، غير أن هذه الواجهات أقل مهابة من الواجهات السابقة (إذ إن هذه الواجهات لا يوجد عليها رسوم لنسور القبور) ، وهذه الواجهات محفورة فى واجهة الصخرة التى تحيط بها . وجدت فى هذه الواجهات شاهد قبر على شكل لوح معلق فوق الباب ، ومرفوع إلى الأعلى بفعل الرمل المنقول ، وذلك حتى يصبح فى متناول الإنسان الوصول بيديه إلى ذلك اللوح الذى كتب عليه نقش شاهد من شواهد القبور . وبين هذه الواجهات شاهدت أثرا غير مهم مهجور عند بدايته ، ولا يوجد فيه سوى رأس الفتحة هى والأجزاء العليا مسحوبة إلى الخارج (انظر الصورة رقم ١٣) . ومن ذلك المكان وصلنا إلى تلك الواجهة التى يستطيع الناظر إليها من القلعة أن يراها ، وهذه الواجهة

(*) بلدة الحجر : كانت هذه البلدة مزدهرة فى نهاية القرن الأول ق.م وفى القرن الأول الميلادى . وكان يسكنها اللحيانيون وبعض الأقباط مما تدل عليه النقوش النبطية فى العديد من آثارها . (المراجع)

يطلق الناس عليها هنا اسم بيت الساني ' Beyt ' es-Sâny التي معناها "بيت الحدَّاد" . كما أروني أيضا 'دم الحدّاد' ، الذي لا يعدو أن يكون مجرد بقعة من الصدأ ، أقصد صدأ الحديد ، موجودة فوق الأسوار الدفاعية . 'يقول البدو : هذا 'الساني' أو إن شئت فقل : هذا الحداد ، هتك عرض بنت أو إن شئت فقل : كريمة شيخ 'المدائن' . وعندما وجد أنها أصبحت حاملا ، تحرك الشيخ ، والدها للثأر لنفسه ؛ وهنا خرج الحدّاد الشجاع ومعه رمحه للقائهم ، وفي أرض شيخ رقيق الأرض (التي وجدناها ممتلئة بالعظام البشرية) ، سقطوا جميعا قتلى' . والمدخل بسيط ، ويبدو وكأنه ، أصابته ثقوب تشبه الثقوب التي تنتج عن دق المسامير ، وتلك هي الثقوب التي سبق أن نوه لي عنها من قبل الحاج نجم ؛ وهذه الثقوب لها مثيل أيضا شاهدناه حول مداخل بعض الآثار القليله الأخرى (انظر الصورة رقم ١٤) . (ذكر لي السيد جيمس فيرجسون -Fergus son إن تلك الثقوب ربما تكون قد صنعت لاستعمالها في تثبيت المسامير المستخدمة في تثبيت الأطر الخشبية التي كانت تركب على بعض من تلك الواجهات ، التي لا يصلح لها استعمال الأحجار .)

زرنا بعد ذلك الصخور الغربية التي يطلقون عليها اسم 'قُصُور' k'ssûr أو 'قصُور' البثيني B'theyny kassûr (انظر الصورة رقم ١٤) - وهذا الاسم ينطبق أيضا على آثار الحجر كلها ، فيما عدا الأثر الذي يطلقون عليه اسم بيت 'الساني' أو إن شئت فقل : 'بيت الحدَّاد' . يضاف إلى ذلك ، أن هناك الكثير من الواجهات في الجانب غير المنتظم من هذه الصخرة وفي تجاويفها ، وبخاصة أن هذه الصخره لها نفس طابع العمارة الغائرة ، وقسم كبير جداً من آثار هذه الصخرة يحمل رسم النسر ، كما أن بعض هذه الآثار ليس لها شواهد قبور ؛ وقد شاهدت بعض الآثار التي لها شواهد قبور على شكل ألواح ولكنها خالية من أية نقوش أو كتابات . بعض من هذه الواجهات أيضا تكاد تكون شبه بالية ، وطمس الطقس معالمها (انظر الصورة رقم ١٦) .

الصخور المليئة بكل هذه الآثار هي التي يطلق الناس هنا عليها اسم "مدائن صالح" . كنا حتى تلك اللحظة قد مضى علينا خمس ساعات خارج القلعة : وكان

رفاقى مسلحين ببنادق غير متقدمة ، ولم يكونوا يسمحوا لى بإطالة الوقوف فى أى مكان ولو للحظة التقط فيها أنفاسى ، إذ كانوا يقولون : "المنطقة هنا أخطر مما تتصور ؛ ويحتمل أن يهجم علينا من هذه الصخور أو من هذه الغرف بعض البدو المعادين لنا ." حياة أهل الجزيرة العربية مليئة بالشك ؛ كانوا يلفون رءوسهم بين الحين والآخر تعبيرا منهم عن خوفهم المستمر ، ويحملقون بدقة فى كل الأماكن المحيطة بهم ؛ يضاف إلى ذلك أن الحاج نجم سبق له أن أهدر فى يوم من الأيام دم 'ولاد على Aly' Welad، ولذلك فهو يخشى أن يؤخذ على غرة عندما يكون خارج القلعة . فى هذا القاع الذى يشبه سهلا من السهول المستوية ، والذى مررنا فيه ، بين الصخور والآثار ، شاهدت أحواضا من الخزف المكسر وكذلك قطعا من الزجاج المكسر . (انظر الصورة رقم ١٥) . التقطنا أيضا قطعا صغيرة من النحاس الأحمر يطلق البدو عليها اسم 'حمَّاريت' -him marit (وربما يقولون لها أيضا 'حميا ريدت 'Himyaridt (وهى قطعه من النقود المعدنية التى علاها الصدأ . وقطع النقود الفضية والذهبية يندر أن يعثر عليها الأعراب فى الأرض التى يحتمل أن تكون الإبل قد داستها بأقدامها . وقد سبق أن عثر أحد القرويين ، قبل ثلاثين عاما ، على إناء من الحجر ، وهو عبارة عن مكيال للعملات الفضية القديمة . يضاف إلى ذلك أن اثنين آخرين من أفراد قبيلة 'ولاد' على ، وأنا أعرف واحدا منهما ، سبق لهم العثور على كنز من هذا القبيل فى سنوات لاحقة . من بين هذه العملات الحميرية(*) Himmarit، ظهر أن بعضا منها لم يكن قد تآكل تماما ، إنما مطبوع عليها صورة بومة أثينية Athenian، وتكاد تكون تقليداً ومحاكاة تامة للنقود اليونانية ؛ هذه النقود حميرية . والمعروف أن قطع الخزف هى والزجاج ، من المواد التى يصعب تدميرها ، وقد جرى العثور عليها فى كل المواقع القديمة فى الجزيرة العربية : ولا أحد فى أيامنا هذه يستعمل أى من هاتين المادتين الهشتين ، وإنما نحن نستعمل أوعيه من الخشب ومن النحاس الأحمر . هذا يعنى أن الجزيرة العربيه كانت

(*) العملات الحميرية التى عثر عليها فى منطقة الحجر تدل دلالة قاطعة على وجود الصلات التجارية القديمة بين اليمن وبلاد الشام . (المراجع)

أكثر تحضرا مع طرق العالم القديم التجارية ! ولكن الجزيرة العربية فى الزمن الذى زرتها فيه كانت تبدو عليها سمة التحلل . كل شعوب الدنيا كانت تتاجر طلبا للذهب من ناحية والبخور المقدس من الناحية الأخرى ، لجلبه إلى اليمن السعيد : والعالم كله حاليا لم يعد بحاجة إلى ابنة الجزيرة العربيه ؛ هذا يعنى أن ابنة الجزيرة العربيه تخلى الناس عنها وأصبحت أرضا خاوية جرداء .

لم يعد يتبقى من أجيال الحجر القديمة المتحضرة سوى القليل جداً ، فمثلاً فى مدينة القافلة ، شوارعها الممهدة باستعمال الطين ليست سوى مجرد التراب الذى حملته الريح إلى هذه الأرض الجرداء . قصة هؤلاء القوم مدونة لنا على شكل شخابيط على كثير من الصخور البدائية الموجودة فى المنطقة المحيطه بنا ، كما نجدها مدونة أيضا فى العناوين المحفورة على آثارهم الجنائزية التى تحولت فى يومنا هذا إلى صخور منفصلة ، يعجب بها المسافر الذى يملؤه الخوف فى تلك الجبال الجرداء الخاوية . يضاف إلى ذلك أن الأماكن التى توجد فيها البقايا الخزفية والزجاجية ، قد تدل على أنها كانت مناطق مأهولة بالسكان ، وربما كانت مجموعة من القرى فى يوم من الأيام . المكان هنا يوحى بأن تلك المستوطنات كانت من المستوطنات السامية المعتادة فى البلاد الواحية Oasis، التى تجعل الناس ينشئون تلك المستوطنات على عروق المياه الجوفية ، ربما كانت هذه المنطقة سوقا Sûk، وربما كانت هذه الضواحى سوقا تجارية كبيرة ، تحيط بها بيارات النخيل ويطوقها من الخارج سور دائرى .

وعلى جانب طريق العودة إلى القلعة ، هناك صخرة منخفضة مليئة بالكهوف والتجاويف غير الواضحة ، وخالية من أى نوع من الأعمال الزينية . شاهدت فى ذلك الطريق جميع الطيور تقريبًا المألوفة التى شاهدناها على واجهات مدائن صالح . والعرب يقولون عن هذه الطيور إنها من الحيوانات البحرية . والحجاج السوريون يشبهون تلك الطيور بالصقور ؛ وهذه الطيور محفورة فى كتل من الصخر ، كما هو الحال فى الصخر الرملى الذى لا يمكن نحت أى شىء فيه نحتا دقيقا وواضحًا . والحليات مثلثة الشكل تحمل شبها كبيرا بالزينات أو الحليات الجانبية المعروفة فى سائر أنحاء الكون ، وهى من النوع الصلب ، ويجرى نحتها فى الصخر .

في بعض الأيام الأخرى ، كنت أزور الآثار في وقت فراغي ، واستطعت الوصول إلى آخر تلك الآثار وأبرزها . والناس هنا في الأغلب الأعم يطلقون على ذلك الأثر الأخير البارز ، اسم بيت Beyt أخريمات Akhreymát . فيما بين الأفاريز الحائطية . أو إن شئت فقل : الكرانيش الحائطية شاهدت أربعة أعمدة حائطية داعمة . وهذه الأعمدة خالية من رسوم الطيور المنحوتة ولا يوجد عليها سوى الهاون ؛ وبدلا من القوارير أو الجرار الجميلة هناك بعض الصور الجانبية لبعض الوحوش ، وربما كانت صور لكلاب أو بعض الحيوانات الأسطورية . يضاف إلى ذلك أن الفرجة فيما بين أعمدة الأثر (الذي توجد فيه بعض التجاويف الحائطيـة الضحلة ، مثل تلك التجاويف الموجودة في غرف القبور) ليست محفورة تماما بحيث يصل الحفر إلى الأرض ؛ والسبب في ذلك هو تمكين الجزء السفلي من تلك الأعمدة الجانبية الداعمة ، من الوصول إلى سفح الصخرة ، الأمر الذي يزيد من صلابة ذلك الحجر الرملي المنحوت والضعيف . ومن ينظر إلى هذا الأثر يرى الفن المقلد بطريقة مزورة وهو يتآلف تآلفا غريبا مع خلود الطبيعة السرمدي الفوضوي . ومن حول مدخل الباب توجد بعض الحليات التي جرى إضافتها إلى العمارة بطريقة همجية أو إن شئت فقل : غير منظمة . رأيت في هذا العمل الجميل أنه لا يمت إلى التوازن المعماري بأي شكل من الأشكال ؛ لاحظت أيضا أن بعض الواجهات جرى تنعيمها تنعيما تاما باستخدام الآلات اللازمة لذلك . ونحن نرجح هنا أن هؤلاء الحرفيين القدامى (يحتمل أن يكون جرى استئجارهم من البتراء Petra) جاءوا من أناس عملوا في بناء الطين ؛ العمل الذي أنجزه أولئك البناؤن في مجال محاكاة أو تقليد قبور المعابد : (شاهدنا شيئا من هذا القبيل في نقود التجارة في جنوبي الجزيرة العربية) (انظر الصورة رقم ١٧) . هؤلاء العمال ، أو إن شئت فقل البناؤن كانوا ساميين ، تطلعهم للفتح أكثر من فضولهم ، ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء العمال ناقصي خبرة ومهارة .– ويجب ألا يغيب عنا هنا أن قراءة النقوش وتفسيرها أكد كل هذا الحدس أو التخمين .

وصلنا في النهاية إلى ما يطلقون عليه اسم محل المجلس el-Mejlis Mahal، أو إن شئت فقل مجلس الشيوخ (انظر الصورة رقم ٢٠) وفية نجد واجهة صخرة واحدة

محفورة على شكل أثر يزيد عرضه على أربعين قدم ، ويتميز بقدر كبير من البساطة . ولاحظت هنا أن الأعمدة الجانبية على شكل أزواج ، وهذا هو ما لم ألاحظه فى أى أثر آخر ؛ وبالرغم من كل هذه الروعة ، فإن القسم الأكبر من الواجهة لم يكتمل . ترى من كان مؤلف هذه البداية الذى يكاد يعيش وحده فى هذا التيه المقابرى الضخم ؟ وبالرغم من كل ذلك فإن كل الغرف لا تعدو أن تكون مجرد زنزانة صغيرة فيها قبر واحد أو قبرين . والذى لاشك فيه أن اسم صاحب هذا الأثر كان محفوراً فوق لوحة الإعلان الضخمة ، على شكل سطر واحد (انظر الصورة رقم ١٩) فيه من العظمة ما ليس فى أى اسم آخر منقوش على أى أثر آخر ، وحروفه ملتوية (وقد استطاع المترجمون المتعلمون فك رموز ذلك السطر على أنه 'لحايل بن دونا وأحفاده' : (انظر الملحق رقم ,٢٢) هذه الألقاب لم يتمكن أحد من فك رموزها فى عصر محمد أو إن شئت فقل : إن النبى(.......)(*) ، لم يعبر عن احتقاره لهذه التجاويف ، أو أنه لم يستطع الفكاك من ذلك الازدراء . المدخل غير المكتمل المحفور عليه صورة نسر ، وبه بعض الزينات الجانبية ، ترك على ما هو عليه كما لو كان مقطوعا داخل كتلة واحدة . يضاف إلى ذلك أن الأعمدة الجانبية ليست مقطوعة من الحجر بحيث يصل القطع إلى الأرض ؛ زد على ذلك أن الشراع يبرز أمام الأثر . ومركب داخل كتل تكاد تكون جاهزة للنقل ، - ويرى الناظر إلى ذلك الشراع طريقة قطع تلك الأحجار وتحويلها إلى أدوات لقطع الأحجار . وبعد أن أطلعنى رفاقى على تلك الكتل قالوا : "هذه الكتل كانت المقاعد الذى يجلس عليها مستشارو البلده ."

كانت أغطية القبور وأبواب هذه "المنازل الموحشه" كلها مصنوعة من الخشب فى هذه المنطقة ، أو إن شئت فقل : هذا الجزء من البلاد (والذى يخلو أيضا من الأحجار التى على شكل أعلام أو بيارق) ويحتمل أن يكون ذلك الخشب من أشجار السنط أو من أخشاب أشجار الإثل ، التى كانت تستخدم ، وبلا أدنى شك ، حطبا للوقود من قبل البدو الرحل ؛ يضاف إلى ذلك أن هؤلاء البدو الرحل لم يكن

(*) وصف خاطئ من المؤلف للنبى (ﷺ) . (المراجع)

الدين حائلا بينهم وبين تألية أو عبادة الموتى ، وبالرغم من روعة محاكاة هؤلاء التجار (الرومانيين) للسبئيين(*) ، لا يوجد بين آثارهم كلها لوح رخامى ، بين الأشياء المتناثرة فى سهل الحجر . ويكفى هؤلاء التجار أنهم "كتبوا باستعمال مسمار من الحديد وإلى الأبد" على الصخر الرملى الناعم فى هذه الجبال من جبال الجزيرة العربية . وقد شاهدنا نقراً فى كل قائمين من قوائم أبواب المداخل ، كما لو كان ذلك النقر مجهزا لاستقبال قفل ، أو إن شئت فقل ترباس من الخشب (انظر الصورة رقم ١١ والصورة رقم ١٢) . يضاف إلى ذلك أن الواجهات منقوش عليها وسوم(**) . وتأملت كثيرا لأكتشف مدى تشابه كل تلك الوسوم مع الحروف الحميرية التى تشبه شخبطة الأطفال .

(*) السبئيون : على الرغم من أن السبائيين يقصد بهم أهالى مدينة سبأ فى جنوب الجزيرة العربية ، إلا أنه من المعروف - بحكم التبادل التجارى بين اليمن وبلاد الشام - كانت هناك مدينة أخرى أطلق عليها أيضا اسم سبأ فى الشمال الغربى من الجزيرة العربية . وقد ورد ذكرها فى سجلات بعض الملوك الأشوريين على أنها إحدى المدن القريبة من المنطقة السورية . وهناك من الباحثين من يرى أن السبئيين عاشوا أصلا فى شمال شبة الجزيرة العربية قرب منطقة الجوف الشمالى واستمروا فيها على البداوة زمنا طويلا ثم دفعتهم دوافع معينة إلى الاتجاه نحو الجنوب ولكن جالية منهم اتجهت خلال القرن الثامن ق.م أو قبله بقليل إلى الشمال وأقامت قرب واحة تيماء لترعى المصالح التجارية لقومها فى شمال الجزيرة العربية وعلى طرق القوافل المتجهة إلى بلاد الشام والهلال الخصيب . (المراجع)

(*) واحده " وسم " وهو الإشارة أو الرمز المخصص لكل قبيلة من القبائل ويجرى التعرف به عليها . (المترجم)

الفصل الخامس

مدائن صالح والعلا

الديوان . محطة الحج . زيارة البدو للقلعة . كلفة إعاشة وإدارة القلعة . والأكراد السوريون وحراس الأبراج المغاربية . القبائل الصحراوية حول الحجر . وسام البدو الرحل . يوم فى القلعة . ثلاثه أنماط للنطق فى الكلام العربى . كلام العرب الأسطورى . "يهود خيبر" . بنى كلب . صيد الماعز البرى فى الجبال . نقوش عمودية أثرية قديمة . تسوية الخبز تحت رماد النار . الليل فى الجبل : سماع صوت الغول . حيوان الشيهم المبذول ، أوالدُلدل : يقطين الحنظل الصحراوى . النعامة . الصخور الممسوخه . المنطقة البركانية المجاورة . نقوش صخرية سانجة . المحاجر العتيقة أو الأثرية . هجره مبنية من الطين . علامة الصليب . القرى القديمة فيما بين الحجر والمدينة (المنورة) . المستعمرون فى الحجر . عيد الميلاد فى المدائن . سوانى تيماء . الطريق إلى العلا . أطلال الخريبى . العلا . الشيخ ضاهر . إيماءات دينية مقدسة وسرية . البلدة التى أنشأها دروايش البربر . صوت المؤذن – ضاهر يستجوب الغريب . الناس وبلدهم . القفل الخشبى العربى . البدو يكرهون حياة المدينة (الحضر) . الملكة البريطانية هى الحاكم الرئيسى فى الإسلام . العلا بلد مدنى فى الحجاز . هجوم بن مسعود على العلا . القاضى . المناخ السقيم . حمل السلاح فى الشوارع . مظاهرات الحجاز . والمعارك التى شنت مع أركان الحى ، تاريخ المكان . سقوط المطر . التمر . النساء . أساطير المسيحيين واليهود .

بعد مشاهدة كل تلك الغرف المعمارية الموجودة فى تلك السلسلة الصغيرة من صخور ذلك السهل ؛ اقتادنى رفاقى لإلقاء نظرة على الديوان Diwan، الذى ينفرد عن بقيه آثار الحجر كلها بوجوده فى جبل إثلب ، فى ممر يقع خلف واحد من الكثبان الرملية البيضاء عند واجهة القلعة(*) . هذا 'الليوان' Liwan الذى يصح فيه أيضا 'الديوان' يدل عند هؤلاء الناس ، على 'صالة أو غرفة المجلس' ، هو الوحيد من بين كل آثار الحجر المحفورة ، أو إن شئت فقل المنحوتة ، (إضافة إلى قلة قليلة من التجاويف الضحلة) الذى لا يظهر ولا يغلب عليه طابع القبور . زد على ذلك أن الديوان وحده واسع وكبير ، ومحفور حفراً جيداً داخل الصخر ، وله كورنيش أو إن شئت فقل إطار خارجى ، وأعمدة جانبية ، ويميل شكله إلى المربع وحوائطه مستقيمة وإن كانت مائلة بعض الشىء . والديوان وحده هو الغرفة الوحيدة المفتوحة . ومقدمة الديوان بسيطة للغاية ، إذ يوجد بها عمودان جانبيان يصل إرتفاع الواحد منهما إلى عرض الغرفة المحفورة ، والمفتوحة مثل خيمة البدو . والعتبة المرتكزة على رأس العمود متصلة بالجزء الأمامى من السقف المستوى . أما الصالة فيصل عرضها إلى عشر خطوات وعمقها إلى إحدى عشر خطوة ، كما يصل إرتفاعها إلى نصف عمقها ؛ هذه الصالة تطل على الجهة الشمالية . هذا الممر يصل طوله إلى حوالى خمسين خطوة لا تشرق الشمس عليه مطلقا ، بل أن الريح تهب عليه بصورة مستمرة ، بما فى ذلك فصل الصيف : هذا يوضح أن هذا المكان البارد جرى إختياره فى هذا الجزء راكد الهواء من البلاد . وهناك كمية كبيرة من الرمال التى جرفتها الريح فوق أرض ذلك الديوان : والأعراب فى هذه المنطقة يحفرون تحت الجدران بحثا عن "ملح البارود" ، (هذا الكهف أو التجويف يستخدم ملاذا وملجئا لقطعان البدو الرحل فى وقت الظهيرة ،) ، والمنطقة خالية من العظام ، ولا يوجد أى أثر فيها يدل على الدفن أو ما يتعلق به . والمكان هنا يشبه موقع السّيك Sîk وفى وادى Wady موسى Mûsa، الذى توجد فيه خزنة(**) فرعون Pharôun Khazna، وقد رأيت فى هذين المكانين ، وبدرجه أكبر فى موقع

(*) استغل الأنباط مغارة طبيعية فى جوف صخرة ذات قمة تشبه القبة فى جبل إثلب وشكلوها على هيئة بهو كبير يطلق الأهالى عليه اسم الديوان ولعل قدسية جبل إثلب نبعت من وجود هذا المعبد به أو قد يكون المعبد قد نحت فى الجبل لقدسيته عند الأنباط . (المراجع)

(**) خزنة فرعون : تعرضت هذه الخزنة لرصاص البنادق مما أحدث بها العديد من الكسور حيث كان الناس يعتقدون أن بداخلها كنزا من الذهب . (المراجع)

الديوان هذا (أنظر الصورة ٢٢ ، ٢٣) الأشكال الغريبة نفسها والتى هى عبارة عن قواعد صغيرة من القواعد التى ترتكز عليها الأعمدة ، كما شاهدت أيضا عددا كبيرا من الألواح . هذه القواعد الصغيرة منها الفردى ومنها الزوجى ومنها الثلاثى ، وكلها تقع إلى جوار بعضها ولكنها غير متساوية الارتفاع ، أو قد يرى الناظر إلى تلك القواعد واحدة منها وهى متشعبه فى الأعلى إلى رأسين (رقم ٤ من الصورة ٢٢) ؛ وقلة قليلة من تلك القواعد هى التى عليها بعض الشعارات التى يجرى نحتها على الآثار الجنائزيه الكبيرة : ونحن لا يمكن أن ننكر هنا القيمة الدينية أو المغزى الدينى لمثل هذه الشعارات . هناك أسطورة نبطية متصلة بصخرة من الصخور الموجودة فوق واحدة من تلك القواعد (رقم ٥ من الصورة ٢٢) . [هذه الأسطورة النبطية ترجمت حاليا على أنها 'هذا هو المسجد (بيت Beth أو حجر السجود) ، وضع أو أقيم للإله العظيم أعرا 'Aera وهذا يوضح أن تلك الأحجار كانت أصناما .] – النقش رقم ١ .)

شاهدنا على الجدران الداخلية ، بعضا قليلا من أسماء المسافرين المسلمين القدامى ، كما شاهدنا أيضا سطرا أو سطرين من النقوش النبطية ، كما شاهدنا أيضا بداية كلمة أو اسم من أسماء الفأل الحسن ، أو إن شئت فقل العرافة الحسنة ؛ هذه الكلمة أو الاسم هو الكلمة Eyty؛ هذه الحروف اليونانية فقط هى التى عثرت عليها فى مدائن صالح . كما شاهدت أيضا بعض المخططات غير الدقيقة مكتوبة أو مدونة بالطباشير ، وبطريقة الرعاه الذين يرعون الأغنام ؛ وهذه المخططات يسمونها الغررّه ghrerra، (وهى مثل تلك الغررّة التى يستعملونها فى تمييز قطعان الأغنام فى سوريا) وهى تعزى إلى بنى Beni هلال Helál . كما شاهدت أيضا على صخرتى الممر كثيرا من النقوش النبطية Nabateans . ويرتفع من بين رفوف الجبل هذا المضيق نحو الأعلى أكثر فأكثر ، والجبل هنا ملئ بالفلوق Clefts التى من هذا القبيل لأن تلك هى طبيعة الحجر الرملى . ومن هذا الممر تتفرع تحويلة أخرى صغيرة تؤدى إلى الجانب الصخرى (وبالتالى إلى السّيك Sik)، كما لو كانت عملت خصيصا من أجل تجميع مياه المطر ، وهذه التحويلة الصغيرة تنتهى إلى غرفة صغيرة على شكل خزان يقع فوق الديوان ؛ وربما يكون ذلك لتوفير الماء لتلك الصالة العامة أو إن شئت فقل ذلك المعبد . ومن حول هذا الخزان يوجد حوالى أربعة أو خمسة تجاويف ضحلة محفورة فى

الصخر الطرى . كان المرافقان من عرب الفهجات Fehjât مسلحان ، وكنا معهما شخصان أيضا من القلعة ، اسم أولهما محمد والثانى عبد القادر ؛ وبينما كانا مشغولين بما نحن فيه ، غاب عنا الاثنان اللذان كانا من رجال القلعة ، بعد أن رأيا بعض الغرباء الراكبين فى السهل ، بغية المحافظة على سلامتهما . ولم يبق معى سوى الرجلين اللذين كانا من عرب الفهجات ؛ وعندما سألتهما ، هل ستهربان أنتما أيضا ؟ رد على أكبرهما سنا بقلب جرئ قائلا : "أنا عنترى وهو أيضا عنترى (أى أبناء عنتر) ، ولن نخذلك أو نضحى بك أو نتخلى عنك ! "(معروف أن البطل عنتر بن الشداد كان من هذه المنطقة ، وأنه عاش قبل محمد (بفترة قصيرة .) ولم يكن محتملا أن يقوم أحد من البدو بالتعدى على عرب الفهجات الفقراء المحتقرين .

وبعد أربعة عشر يوما من مرور الحج جاء النجّاب ، أو إن شئت فقل جمّال الحج قادما من المدينة (المنورة) ؛ كان ذلك النجاب يحمل معه حقيبة صغيرة فيها كل رسائل الحجاج لتوصيلها إلى دمشق . كان وكيل البريد فى تلك البرارى هو شيخ ولاد علي ، وهو من معارفى : وقد أستأجر ذلك الرجل الشرارى (*) ليكون ساعى البريد بينه وبين سوريا . هذا الرجل كان يمر بحوالى عشر أو اثنتى عشرة محطة ليلية طوال رحلته إلى سوريا ؛ هذه المحطات ليست سوى محطات للتزود بالماء والسقيا إضافه إلى كونها مجرد مواقع جرداء فى الصحراء هى على وجه التحديد الجنّى ومحطة غريدة ، ومحطة غرّوب ، ومحطة العجيلى ، ومحطه ولاد الحوجه ، ومحطة مغريدة ، ومحطة الحوسة ، وأخيرا محطة باير . Bayir وعندما يصل بريد الحج إلى دمشق يجرى إعلام الناس بذلك عن طريق إطلاق دانة واحدة من أحد المدافع . وفى اليوم التالى يجرى إغلاق زكيبة البريد المتجهة إلى الحرمين بالشمع الأحمر . حمل ذلك الساعى البريدى رسائلى معه إلى دمشق نظير قطعة من النقود .

كانت الأيام التى أمضيتها داخل القلعة كثيرة جدًا : إذ كان يصل إليها البدو كل ثلاثة أيام ، وكان أفراد حامية القلعة يقومون على استقبال أولئك البدو وهم يحملون

(*) نسبة إلى قبيلة الشرارات . (المترجم)

سلاحهم فى أيديهم ؛ فى بعض الأيام الأخرى ، كنا نسمع إنذارات تحذر من الغزو، أو كنا نرى أثر أقدام غريبة فى السهل ، ولكن الباب الحديدى كان مغلقا . لم يكن يسمح لكثير من البدو بالدخول مرة أو دفعة واحدة إلى القلعة ، وبالتالى كان الباب يغلق فى وجه البقية الباقية خارجة . جاء إلى القلعة بدو من الفجير ، ومن المواهيب ، الذين هم من بدو الحرَّة المجاورة ، كما وصل إلى القلعة أيضا بدو من البلِّى : Billī كان هدف كل هؤلاء هو شرب القهوة ، أو تمضية الليل وتناول العشاء فى القلعة . وبلاد بدو البلِّى هى المنطقة الوعرة من تهامة ، فى المنطقة الواقعة خلف الحرَّة . وبلاد البلِّى ينطقون الجيم بالطريقة المصرية . وهؤلاء هم ثلاثة رجال من بدو البلِّى وصلوا متأخرين فى المساء وشربوا منهم شربة واحدة من جرادل غرفة القهوة التى كانت مملوءة بالماء البارد بفعل برودة الليل ، ثم "صاحوا" حمداً لله ! ، بعد أن شبعوا ، والله نحن نسير فوق هذه الحرة طوال يومين لم نذق الماء على امتدادهما !" كان الرجال الثلاثة يقودون مجموعة قليله من الأغنام وفاء للأخوة ، أو إن شئت فقل : وفاء لدين الأخوَّة لبدو الفكارة ، نظير السماح لهم بالمرور سالمين ، لمزاولة التجارة فى سوق الحج . قال محمد على : "إنتبه جيداً إلى حياة البدو وإلى عوزهم ! هل ستضع حياتك تحت رحمة هؤلاء الأشقياء الأجلاف يوما آخرا ؟ هل تبينت الطريقة التى يودون العيش عليها ،– إنهم يودون العيش على ابتلاع بعضهم البعض ! ليس من الصعب على هؤلاء البدو السير بدون شرب الماء ، وهم يأكلون ، إذا ما وجدوا شيئا يأكلوه . والبدو شياطين كيف ستكون حياتك بينهم ، هذه الحياة ، التى أقسم بالله أننا لا نطيقها ، ونحن أنفسنا من أهل المدينة أو إن شئت فقل : من الحضر .

كيف يمكن المحافظة على استمرارية كرم القلعة ؟ أقسم الأغا قائلا : "هذا كله على حسابنا وليس على حساب الحكومة ." والأعراب يظنون ، بل ويعتقدون أن مبلغا محددا من صندوق الحج يخصص لهذا الغرض ؛ ولكن الواقع أن ذلك يأتى من الوفر فى الأجور بناء على اتفاق بين كل من الأغا وصراف القلعة ؛ والأغا هو والصراف يتفقان سويا على استئجار نصف العدد المطلوب لحامية القلعة . يضاف إلى ذلك أن تزويد طريق الحج بالأطعمة والغذاء كان يحدد له من قبل ثمانية عشر جملا (تحمل حوالى ثلاثة أطنان من القمح السورى على وجه التقريب) ، وحوالى ٣٠ عبوة من

عبوات بسكويت القافلة الذى يسمونه بالتركية (أوزمات Ozmat)، وأيضا ثلاثين وزنة من البرغل الذى هو عبارة عن قمح مجروش ، يجرى سلقه وتجفيفه فى ضوء الشمس (وهو غذاء السوريين الرئيسى) إضافة إلى ٤٠ رطلا من السمن . ولكن تلك المخصصات القديمة جرى تخفيضها فى الوقت الراهن ، من قبل الإدارة الجديدة ، الأمر الذى أصبح معه التموين السنوى لقافلة الحج يقتصر على التعينيات (من القمح فقط) ولعشرة رجال (أنفار) ، على أن يصرف لكل واحد منهم راتبا مقداره ١٠٠٠ قرش ، أو ما يعادل ثمانية جنيهات إنجليزية ، ولكن الصراف كان يتسلم راتبا لنفرين فقط : من هنا كانت القلعة تكلف الحكومة السوريه مبلغ ٢٢٠ جنيها إنجليزيا فى العام الواحد . لم يكن هناك صراف واحد من بين صيارفة القلاع الموجودة على طريق الحج ، لم يتعلم الفنون التركية أو يتقنها ؛ هذا يعنى أن هؤلاء الصيارفة مع قلة الأجر استطاعوا أن يبتكروا من الحيل ما يجعلهم يزدهرون بفضل عقولهم الشكورة . هذا القيِّم على أمر القلعة ، هو الذى يقوم فيها بدور الصراف ، وبالتالى فهو يستأجر فقط خمسة أفراد لحامية القلعة بدلا من عشرة أفراد إضافة إلى أنه لا يستأجر هؤلاء الخمسة بالأجر المحدد لكل واحد منهم . وبالتالى فإن باشا الحج لن يطالب ذلك القيم باصطفاف هؤلاء العشرة كى يقوم الباشا بالمناداة عليهم والتأكد من عددهم ؛ والمعروف إنهم جميعا يساعدون بعضهم بعضا ، ويبتلعون المال العام ويقسمونه فيما بينهم : وكل شيء على ما يرام طالما كانت القلعة موجودة ، وطالما استطاعت قافلة الحج الحصول على الماء من تلك القلاع .- ترى كيف يمكن الحفاظ على قلعة من القلاع ، وهى ليست مؤهلة للدفاع عن نفسها ، فى أرض إسماعيل عليه السلام ؟ لا يمكن فى ظل مثل هذه الظروف ، تحقيق ذلك إلا عن طريق اتخاذ البدو حلفاء ، وذلك من باب تقديس العيش والملح : من هنا إذا كان أجر أى رجل من الرجال ، ينفق طوال اثنى عشر شهرا ، على القهوة والقمح والسمن ، فذلك يعنى أن القيِّم على أمر القلعة لابد أن يجزل له العطاء تماما :- هذا يعنى اختلاس كمية الشعير التى كانت تصرف لاثنين من البغال . ولكنى سمعت نجم العجوز وهو يشتكي من أن محمد على كان يلحس كل الدسم من فوق لحيته (*) .

(*) المقصود هنا أن محمد على كان يأخذ لنفسه نصيب الأسد ويترك لنجم النفايات . (المترجم)

فيما بين وادى Wady زرقاء Zerka فى الشمال وحدية Hedieh فى منتصف الطريق بين مدائن صالح والمدينة (المنورة) ، توجد حوالى أحدى عشرة أو اثنى عشرة قلعة ، (تقول السجلات) إن فيها من الرجال مائة وعشرين نفرا ، وهذا نقلا عن كلام محمد على ، أى بواقع عشرة أنفار أو أفراد لكل قلعة ، ولكنه سمِحَ فيما بعد بسبعين رجلا فقط . معنى ذلك أن الحامية الواحدة تكون مكونة من ستة أفراد ، كما أن بعض القلاع كان فيها أقل من ذلك العدد ؛ هذا يعنى أن المبلغ الذى يدفع للبقية التى تقدر بخمسين رجلا فى كشف المرتبات (والذى يقدر بحوالى ١٣٠٠ جنيه إنجليزى ،) كان يبتلعه الرسميون . كان عدد أفراد تلك الحاميات الاثنى عشرة يقدر بحوالى خمسمائة فرد ، أى بواقع أربعين فرداً لكل قلعة واحدة ؛ وبعد ذلك انخفض العدد إلى خمسة وعشرين فردا لكل قلعة ، كلهم دمشقيون من الميدان Medan . ولكن السوريين بحكم نشأتهم فى بلاد أسعد كانت أرواحهم طيبة ، إذ كانوا يغلقون أبوابهم الحديدية عقب تجاوز قافلة الحج لقلاعهم ، وتمضى عليهم عشرة أشهر قبل أن يروا أو يشاهدوا عودة الحج الجديد : هؤلاء السوريون مع هذه الأجور البسيطة ، والإمداد الجيد بالمؤن والطعام ، كانوا راضين بالمعاناة التى كانوا يلقونها كل عام بسبب هذه الحياة فى الصحراء . أما القلاع التى كانت تقع أسفل بلدة معان ، فقد كان الأكراد يقومون على أمرها ، وهؤلاء الأكراد رجال أشداء من الشمال ، كلامهم غريب عن كلام أهل هذه المنطقة ، إضافة إلى أن خفة ظلهم فيها شىء من السماجة : ولكن المعروف أن أية أمة تكون غريبة على الجزيرة العربية لا يطول مقامها فيها . وهذا هو الأمير عبد القادر بعد أن وطَّن نفسه فى دمشق والتفاف المهاجرين المغاربة حوله ، بدءوا يسجلون أنفسهم للعمل على طريق الحج . واعتبارا من ذلك التاريخ أصبح عدد المغاربة يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين مغربيا فى كل قلعة من القلاع ، وبذلك ظلت الأبواب الحديدية مفتوحة طوال النهار . والمعروف أن العرب المغاربة الشجعان يحظون بقبول أهل الجزيرة العربية لهم ؛ وأهل الجزيرة العربية يقولون عن المغاربة إنهم "سكان الحجاز القديم ، وأبناء إخوة بنى هلال ." هؤلاء المغاربة المغامرون فى الحاميات ، كانوا يقومون بغزو البدو الأعداء ، وكانوا يعودون إلى القلاع ومعهم غنائم صغيرة من الماشية والإبل .

فيما يلى أسماء القبائل البدويه المجاورة لهذا المكان : البلّى (وواحده البلوًى Belûwy) ومنطقتهم أو إن شئت فقل : مضاربهم فوق الحرّه ؛ وإلى الشمال منهم يوجد الحويطات (واحده حويطى) : وإلى الجنوب من الحويطات توجد جهينة ، وهى قبيلة قديمة (هى بلغة غير اليهود جيهين Jehin)، ولما كان الجهاينة من البدو ومن القرويين ، فإن بلادهم تمتد من ينبع إلى درب الحج . هناك بعض أفخاذ أخرى من الجهاينة مثل الكليبات el-Kleybat (على الطريق فيما بين سوره Sawra وشُجوة Suj-wa) ، وهناك العروة Aroa، والجاعضة Gadah، والمروين Merowîn والزبيان Zubbi-an، وكذلك الجرون ، ومن حول ينبع يوجد كل منْ بنى Beny إبراهيم ، وسيِّدة Sieyda والسراسرَّة . Seràserra وفوق المدينة على درب الحج هناك السَّعادين Saadîn (واحده سعدانى Saadanny) وهم من قبيلة حرب ، وفى الغرب توجد بشر Bishr وبعض أفخاذ من الحطيم Heteym فى اتجاه خيبر (أنظر الصورة رقم ٢٤) . يقول الناس هنا إن القبائل التى توالت على الحجر بعد بنى هلال ، أو إن شئت فقل : أعراب نجد الذين تحدثت الأساطير عن بطولاتهم ، هم بدو الشرارات (الذين هم أصلا من بنى هلال) - هؤلاء الشرارات كانوا فى ذلك الوقت يحتلون الحرة ، حيث كان يرمز لماشيتهم بالدبُّوس ، أو إن شئت فقل : العُكَّاز ، الذى مازال مسجلا على صخور البراكين - ومن بعد الشرارات جاء بنو سعيد Saîd، ومن بعدهم الضُّفير Duffîr، ثم الشيخ بن سويد Sweyd) هم حاليا على حدود بلاد الرافدين) ، الذين طردهم بنو صخر ؛ وقامت الفكارة هم والمواهيب (وهم حاليا قبيلة صغيرة جداً) بطرد بنى صخر من جاو Jau . والمواهيب وصلت أجيالهم فى هذه المنطقة إلى ثلاثة عشر جيلا ؛ وقد حدثنى أحد شيوخهم وهو يعد على أصابعه أسلافه حتى الجد الثانى عشر ؛ هذا يصل إلى حوالى أربعة قرون على وجه التقريب . والأماكن التى كانت تنزلها أية قبيلة من القبائل ، كانت تحفل صخورها بوسوم تلك القبائل ؛ وهذه الوسوم هى بمثابة سجلات البدو الوحيدة وتبقى مئات السنين .

أمضينا يوما فى القلعة على هذه الشاكلة ؛ ومع انبلاج نور الفجر راح كل واحد فى غرفته الضيقة يستعد لأداء صلاة الفجر بتؤدة ووقار . وجرى تعليق بغل من البغلين فى دولاب أو إن شئت فقل ماكينة بئر الماء وراح فرد من الأفراد يقود ذلك البغل عن

طريق المناداة عليه من أعلى الممر . وهاهى بقايا نار الأمس يجرى شبها من جديد فى وجار القهوة ، الذى يحتل ، من حوله ، كل من قيِّم القلعة بغليونه الكبير ، والأغا بوجهه المعتاد وعليه سعوطة (نشوقة) فى مكانيهما المعتاد . هذا هو البن يجرى تحميصه أمامنا ، وجرشه ثم غليه لتحضير قهوة الصباح المرَّة ، كما هى عادة كل العرب فى هذه الأيام ؛ وربما كانت هذه القلعة أقدم من تاريخ شرب القهوة أول مرة ، فى آسيا كلها ! وعند الساعة العاشرة تقريبا ، يختلى كل واحد بنفسه ، لتناول طعام الإفطار . ورفع الماء من البئر هو الشغل الشاغل لكل أفراد القلعة : إذ يجرى تعليق البغل مدة أربع ساعات ، فى عجلة ماء البئر ويتم فكه بعدها ؛ على أن يتم تعليق البغل الثانى مدة أربع ساعات أخرى فى فترة العصر . وقبيل دخول وقت المغرب يجرى تخزين هذا الماء الثمين فى جرادل أو إن شئت فقل دلاء داخل غرف السكن العديدة الشبيهة بزنازين السجون . وهنا تأتى زوجات العرب المقيمين بالقرب من بوابة القلعة لملئ قراب مياههن ، وبعد أداء الصلاة يجلس أهل القلعة من جديد لتصليح القهوة . وعند غروب الشمس ، يكون الجميع قد تناولوا العشاء ، والتزم كل واحد منهم بغرفته الخاصة به ، وذلك بعد الانتهاء من صلاة العشاء ، بطبيعة الحال : وبعد أن يفرغ الجميع من تناول الطعام البسيط المكون من الحبوب أو الأرز ، يتوجهون لشرب القهوة المسائية معًا . وهنا يلتزم كل واحد بمكانه المعتاد حول وجار القهوة ؛ ويمضى الجميع فترة المساء العربية الطويلة فى شرب القهوة وتدخين التبغ .

وليس من طبيعة محمد على الصمت لفترة طويلة ، وعندما يفتح فمه ويبدأ الحديث ، كنا نستمع إلى حكاياه على إمتداد ساعات طوال ، وكلها حكايات جيدة المحتوى وتمتاز بالفصاحة والطلاقة ، (وكما يقول غير المتعلمين) ، والتى هى من صميم الخبرة الإنسانيه ؛ وبذلك استطعنا اكتشاف ما يدور فى ذهن ذلك الرجل ، من منطلق أن كل ما يقوله ليس كله من قبيل الحكمة . كان بقية المغاربة الشجعان يردون على محمد على بمرح شديد ، وهم يعبرون عن إعجابهم الشديد بالأغا وحكمته العالمية ، ولم يكن ذلك من قبيل الحب لذلك الرجل : كان عرب البوابة يجلسون صامتين ويبتسمون . ولقد تعجبت كثيرا من الطريقة التى استطاع بها كلام مغاربة الشرق ملامسه أوروبا ! يقول هؤلاء المغاربة : إن الإنجليز كانوا أصدقاء للمسلمين . وفرنسا تتخذ منهم مطايا فيما

يتعلق بالبربر : والعرب يعجبون عندما يسمعون أن تلك الدولة القوية ، التى استطاعت السيطرة على مغاربة الجزائر خلال أربعة عشر عاما ، قد هزمت خلال عدة أيام قلائل من أمة تحمل اسما جديدا هو بروسيا : Borusia (*) ويقسم محمد على بصوت عالٍ إن الفديه(**) المطلوبة من فرنسا إذا ما كوِّمت فإنها قد تملأ ما بين جدران القلعة الأربعة ! والمعروف أن هؤلاء الفرنجة يقومون بدور التجار (على نحو أكبر بكثير مما هو معروف) ؛ وهذه هى مانشستر هى التى تكسوهم إلى حد ما ؛ فضلا عن أن فناجيل القهوة ، ودلال القهوة ، وكذلك الطرابيش المغربية الحمراء يجرى صنعها فى أوربا لحساب تلك الأسواق . كان الحاج نجم ينظر إلىّ فى بعض الأحيان ، بابتسامة الرجل العجوز الساذجة ، ليردد على مسامعى معرفته لبعض كلمات الساحل الإفرنجى المجاور ، والتى يشيع استعمالها بين البربر مثل Sordi, Muchacho, nino, agua؛ "(أردف الرجل يقول) تلك هى كلماتهم " . لقد سبق لمحمد على رؤية دولنا البحرية فى موانئ بلاده ؛ سبق له رؤية الفلامينيين Flamingies (أى الهولنديين) ، والأمريكان وكذلك الطليان . - "كان الطليان عبيدا (كان محمد على يعتقد أنهم كذلك بسبب وجوه بحارتهم التى كان لونها يميل إلى اللون البنى !) للإنجليز ."

هذا الأغا غير المتعلم ، ضليع فى لغته الأم ، ميز لنا ثلاثة أنواع من السياقات العربية أولها السياق العالى ، وهو اللغه التى يستعملها الإنسان عندما يتعين عليه مخاطبة الشخصيات الكبيرة ؛ والسياق الوسط ، وهو كلام الناس الوضيع المعتاد ، أو هو على وجه التحديد كلام الناس فى تعاملات الحياة اليومية ؛ ثم السياق الدُّون ، أو المتدنى ، وهو ذلك الكلام المكسر ، ولا يربط بينه رابط - "وبالله ، هو مثل ذلك الكلام الذى يتحدث به خليل " . ومع ذلك ، فإن ذلك الكلام السهل ، الذى يجرى على ألسنة

(*) تمكنت مملكة بروسيا خلال تزعمها لحركة الوحدة الألمانية من هزيمة فرنسا هزيمة فادحة فى حرب خاطفة عرفت بالحرب الفرنسية البروسية فى عام ١٨٧٠ . وكان من نتيجة تلك الهزيمة سقوط الإمبراطورية الفرنسية الثانية وتنازل فرنسا عن إقليمى الالزاس واللورين وإعلان قيام الإمبراطورية الألمانية أو فيما عرفت بالرايخ الثانى . (المراجع)

(**) المقصود بالفدية تعويضات الحرب التى فرضتها بروسيا على فرنسا وكانت تعويضات مبالغ فيها . (المراجع)

البدو ، هو فوق اللغة المدرسية التى يجرى تعلمها فى مدارس الحضر . كانت بقية المجموعة من العرب الصامتين ، وكان الأغا ينظر من حوله شذرا ، عندما ينتهى كلامه ، ليقف على من يتعين عليه الكلام بعده . كان ذكاء الحاج حسن يكمن فى يديه القويتين ، إذا لم يكن لديه ما يقوله ؛ أما نجم ذلك الرجل العجوز ، فقد كان فيه شىء من التواضع الساذج ، ولم يكن يقوى على الكلام إلا بعد أن يفرد راحتى يديه الضعيفتين ويعرضهما لدفئ النار ، وكان دائما يطرق بناظريه إلى الأرض إذا ما حملق فيه أحد الحاضرين . هؤلاء الرجال كانوا يجلسون فى وقار ، وكل واحد منهم معه غليونه ، "ويشربون" الدخان (التبغ) . "كان محمد على يصيح فى مرح ينم عن سعادته قائلا : والله إننى صديق ." كان الجميع يخشون صوته الأجش عندما يتكلم . "ماذا حدث ! أليس عند أحدكم شيئا يقوله ؟ إذن يجب أن يروى خليل لنا حكاية من حكاياته . قل أى شىء يا خليل ، حدثنا عن بلادك ، وما ستقوله سيكون جديدا علينا ومبهجا لنا جميعا . أنصتوا ، يا عرب ! ها هو خليل سيبدأ الحديث . هذه ستكون حكاية يتعين عليكم تخيلها عن بلاد خليل وعن الإنجليز الذين هم شعب عظيم أى والله ، ولا يقلون كثيرا عن إمبراطورية السلطان ." ولكنى رددت عليه قائلا : "ليس عندى ما أقوله . وليست لدى حكاية جاهزه على لسانى ، وغير معروفة من الحكايات التى سادت هذا العام ، لقد قلتم ذلك بأنفسكم ." وخطر ببالى أن الصمت أمر جميل ، وسط هذه الرءوس المغربية الجامدة ، إلى أن يحين موعد عودة الحج إلى هذه المنطقة بعد اكتمال مناسكه . وهنا كنت أسمع محمد على يقول : "لماذا تجلسون أيها الأعراب مثل الخرس والبكم ؟ هيا ، دعونا نستمع إلى حكايه طريفة يرويها علينا واحد منكم ؛ خبرونا فقط عن حسن الصحبة ."كانت حكاية حياة محمد على يوم أن كان فى الجندية قد جابت كل مضارب البدو الرحل فى سوريا ؛ كان محمد على يعرف كلام (لغة) البدو معرفة جيدة ، وكان يحاول تقليد تلك اللغة وهو جالس بيننا ، ومع ذلك قال لى محمد على ، إنه لم يستطع متابعة هؤلاء البدو عندما يشتد وطيس كلامهم وينخرطون فى قوافيهم . هناك أشياء كثيرة ومصطلحات كثيرة أيضا فى كلام هؤلاء الشعراء الرعاة فى الصحراء ، تنغلق ويصعب فهمها على السوريين من أهل الحضر . وهنا رد البدو المبتسمون مقاطعين محمد على مرة ثانية ، بأنهم ليس لديهم حكايات ، إلا عن ماشيتهم وإبلهم الصغيرة ،

أو التحدث عن الغزو . هذا يعنى أن حياة هؤلاء البدو إنما تكون فى القفار : هذا يعنى أيضا أن العالم المتمدين الرائع إنما يعد خارج نطاق معرفتهم أو إن شئت فقل : لم يسمعوا عنه . ووقت الفراغ الذى يزجونه يعدون خلاله على أصابعهم عدد الرحلات التى قامت بها قوافل الحج ، وبالتالى يعرفون الموعد الذى يصل الحجاج فيه إلى كل محطة من محطات الحج . والمسافة من هنا ، من مدائن صالح ، إلى المدينة المنورة تقدر بحوالى مائة وثلاثين ميلا ، وهم هنا يحسبون هذه المسافة بواقع ثلاث من الرحلات التى يقوم بها ركاب الإبل أو النياق .

كانت حكايات محمد على مصطبغة دوما بصبغة الأساطير والخرافات ، وبخاصة عندما كان يتطرق إلى بعض الأشياء الخارجه على نطاق معرفته . كان محمد على يخدم على ظهر واحدة من السفن ، أثناء الاضطرابات العقدية فى سوريا(*) ، (كانت أساطيل أوروبا فى ميناء بيروت فى ذلك الوقت ؛) وهو الآن يحكى لنا أن 'مدافع تلك الأساطيل كانت ثلاثمائة ، وكان طول المدفع الواحد تسع ياردات ، إضافة إلى أن مواسير تلك المدافع بلغت من الكبر حداً يصعب معه على ثلاثة رجال أن يحيطوا الماسورة الواحدة بأذرعهم ؛ وقال أيضا إن أحد طوابق تلك السفن عبارة عن سوق ، شاهد فيه كل أنواع الطعام الذى يباع للراكبين والمسافرين ؛ وقال أيضا إن عدد أفراد ذلك الأسطول يقدر بحوالى ٢٥٠٠٠ رجل .' كان محمد على يؤكد بالقسم وجود تلك الأشياء وهذه الأمور - وهذا ليس بغريب على حكايات العرب . كنت قد جلست مندهشا لأسمع حكاية عن بلد أو إن شئت فقل : منطقة غريبة فى الجزيرة العربية ، تقع جنوبى مكة ، وأن هذه المنطقة فيها مدن متحضرة وقرى متحضرة : تحولت فى العصر الأخير فقط إلى الإسلام ، وأن هذه المنطقة كانوا يطلقون عليها اسم بلاد Béled جوَّة Jawwa وعندما سألت محمد على عن تاريخ ذلك الذى يحكى عنه ، رد الرجل على ، بعد أن سيطرت روح الغموض عليه ، قائلا : 'نعم ، يا خليل ، لقد رأيت هؤلاء الناس فى موسم

(*) الإشارة فى هذا السياق إلى الاضطرابات الدينية بين الموارنه والدروز فيما عرفت باسم حوادث الستين والتى على أثرها أرسلت فرنسا فى عام ١٨٦٤ - ممثلة عن الدول الأوروبية - حملة عسكرية إلى ميناء بيروت لقمع تلك الاضطرابات . (المراجع)

الحج فى مكة ، وهم يسكنون بلدا فى اليمن ، وهؤلاء الناس ليست لهم لحى .'وفهمت بعد ذلك ، أن ما كان يتحدث عنه محمد على ، كان المقصود به هم الجاويون أو إن شئت فقل : سكان جزيرة جاوة ، الذين يحسبونهم من سكان شبه الجزيرة العربية . وأنا أكرر هنا أن الحجاج السوريين يخافون أفراد قبيلة حرب ويخشونهم ؛ والسبب فى ذلك أن اللصوص وقطّاع طريق القوافل بين الحرمين ينتمون إلى هذه القبيلة البدوية المترحلة . "قال محمد على : قبيلة حرب قبيلة مريعة ، وهذا هو ما تدل عليه تقاليدهم وأعرافهم أكثر من أى شىء آخر ، من تلك التقاليد ، أن الذكور لا يختتون عندما يكونو أطفالا ، ولكن عملية الطهاره هذه تجرى للذكور عندما يبلغون ويصبحون قادرين على الزواج ؛ عند هذه المرحلة يطلب أصدقاء ذلك الشاب منه إجراء هذه الجراحة التى يتم فيها الطهارة وسلخ جلد العانة على مرأى من العروس نفسها ، وإذا ما اقشعر جسد حبيبها ، أو إن شئت فقل : زوجها المرتقب ، أو تأوه فإنها سوف تستنكر أن يكون بعلاً لها ." وقد توجهت عندما وصلت بعد ذلك إلى حرب بسؤال يقول : "أصحيح أن الختان عندهم بتلك الطريقة ؟" "ردوا قائلين : يا الله ! متعجبين من ذيوع مثل هذه الأشياء الغريبة عنهم ، هؤلاء المساكين ! ولكن ، اسمع ، يا خليل ، هذه الأشياء تقال عن الختان" . وهذا ينطبق على أمة بعيدة ، أمة أخرى بعيدة عنا تماما .

أساطير الحج السورية فيها الكثير من الجدل المشترك حول يهود خيبر ، ويهود خيبر هذا اسم قديم بحق وينزل الكثير الخوف فى آذان الحجاج السوريين الأكثر سذاجة . وخيبر ، التى هى حاليا قرية متواضعة(*) ، (التى زرتها فيما بعد متكبدا فى سبيل ذلك كثيرا من الآلام والمتاعب) هى عبارة عن مكان اشتهر فى الحوليات والسجلات الإسلاميه ، بأنه جرت هزيمته أو فتحه مع بداية عهد محمد (ﷺ) . وخيبر يجرى تخيلها كواحدة من المدن القوية ، (التى لم تكن أكثر من مجرد قريه وبعض ضواحيها) . فى الطرف البعيد من الصحراء ؛ وأن أهلها كانوا قوما أشداء ومرعبين

(*) خيبر : تقع قرية خيبر قبل المدينة المنورة بقليل . ولفظة خيبر فى العبرية تعنى قصرا ، إذ كانت شبيهة بقصر عظيم غنى بالفاكهة وأشجار النخيل . وتشتمل القرية على سبعة وديان تقع جميعها فى جبل حرة الذى تكثر فيه ينابيع المياه العذبة . وكان سكانها ينتمون إلى سلالة العبيد الأحباش من قبيلتى عليدان وأولاد سليمان . (المراجع)

بحق ، وأنهم كانوا مسلمين ظاهريا ، ولكنهم فى باطنهم كانوا يهوداً قساه ، لا يسمحون لأى غريب بالعيش بينهم ونقلا عنهم ، كانت هناك قلعة عجيبة فى وسط البلدة ، وأن تلك القلعة بلغت من الارتفاع حداً كان يحول بين أشعة الشمس ووصولها إلى الأرض . وقيل أيضا إن تجارة وحرفة هؤلاء القوم كانت تتمثل فى الإغارة على الأراضى وقطع طريق الحج . وقيل أيضا إنهم أثناء غزوهم للأراضى وهروبهم قد يفوقون أى حصان فى عملية الجرى : والسبب فى ذلك أن عظمة الدوران فى الركبة يجرى كسرها فى طفولتهم ؛ يضاف إلى ذلك ، أن هؤلاء القوم ليس لسيقانهم بطون ، كما تروى ألاعيب كثيرة عن أهل خيبر منها على سبيل المثال : "أن ثلاثة من يهود خيبر جرى الإمساك بهم متلبسين فى قافلة الحج ، الأمر الذى جعل باشا الحج يأمر بدفنهم فى الرمل إلى آذانهم ؛ ونُفِّذ هذا الأمر ، وجرى حرمانهم وتفويت الحج عليهم . وقيل إن فهدا مر اثناء الليل ، وتشمم رائحة اثنين منهم ، وعندما اكتشف أنهما كانا ميتين تركهما ، ولكنه وجد الثالث منهم مازال يتنفس ، وحاول الفهد استخدام مخالبه فى الحفر إلى أن أخرجه من الرمل ؛ وعندما أفاق ذلك الرجل ووجد ذلك الوحش الكاسر يقف متحفزا له راح يجهش بصوت مرتفع من الخوف ، الأمر الذى جعل الفهد يفر خائفا . ونهض ذلك اليهودى وراح يجرى وراء قافلة الحج ، التى كانت سبقته بمسيرة كاملة ؛ ولكنه استطاع الوصول إلى مخيم قافلة الحج فى الليلة التالية ، وتسلق الرجل الحواجز ودخل من فوقها جناح باشا الحج . كان الضابط الكبير نائما واضعا رأسه فوق الخزينة ؛ بالرغم من كل هذه الاحتياطات أفلح اللص فى سرقة النقود الحكومية وأخذ منها كل ما يستطيع حمله . وفى محطة الليلة التالية عاد اللص ليحاول السرقة للمرة الثانية ، ولكن الحرس أمسك به ، وقيدوه لحين طلوع النهار . وأثناء اقتياد ذلك اليهودى لإعدامه ، أمر باشا الحج جنوده بالتحلق حول ذلك الرجل . ورد اليهودى قائلا : "سيدى ألست أنا ذلك الشخص الذى سبق أن أمرت بدفنه ؟ ومن الذى سرق الخزينة غيرى فى الليلة الماضية ؟ أنا لم أعد أخاف منك أو أخشاك بعد ." – "وكيف لك ايها الرجل اللعين ، ألا تخافنى ، أنا من بيدى سلطة الأمر بقتلك ؟" – "ليس هناك من يمكن أن يخيفنى من البشر ؟" – وبقفزة واحدة من رجليه ، تمكن اللص من القفز فوق أكتاف الرجال المتحلقين حوله ، وفر منهم هاربا أسرع من أى عدَّاء آخر."

الغرائب تروى أيضا عن بنى Beny كلب Kelb فى الجزيرة العربية ؛ وبنى كلب عبارة عن قبيلة من الكلاب البشرية . وكلمه 'كلب' التى تعد من باب الإهانه فى الوقت الراهن ، كانت من قبل كلمة طيبة الدلالة بين القبائل السامية . هؤلاء الساميون يقولون : "زوجات الكلب وبناته يشبهن النساء الشقراوات ، أما الكلاب الذكور ، التى ترتفع قامتها شبرا ، فيقولون لها ؛ كلاب بيضاء . وهم يشاهدون أى ضيف من الضيوف يكون وافدا عليهم ، يهرول الكلاب - الرجال للقائه واستقباله ، بحيث يضع كل واحد منهم طرف بشته (عباءته) فى فمه بين أسنانه ويقتادونه بلطف إلى خيامهم البدوية ." بعض آخر من الناس يقولون : "إن بنى كلب لا يسكنون فى الجزيرة العربية ، وإنما مضاربهم ، أو أماكن إقامتهم تقع فى بلاد خلف أراضى الفيضان ؛ ويقولون عنهم أيضا : إنهم يلتهمون كبار السن عندما يدب الشيب فى لحاهم ." وبينما سمعنا هذه الرواية فى يوم من الأيام أثناء تناول القهوة فى مدائن صالح ، صاح دولان Doolan، فجأة - ليقول لنا إنه التقى ببنى كلب فى جولة أخرى ، أو إن شئت فقل : حملة أخرى من حملاته البعيدة - "نعم بالله ! وقد جاءوا راكبين نياقا ." وذكر دولان أيضا بأن بنى كلب يعيشون أيضا فيما وراء البحار ، وأن رجالهم بينهم وبين الكلاب شبه كبير ، وتعجب قائلا : "وقد يكون ذلك صحيحاً ، والله أعلم ؛ والله ! أظن أنى رأيت بنى كلب ، ولكن ، بحياة هذه القهوة ! قد أكون مخطئا ." وحكى لى دولان فى يوم آخر أن أهل خيبر كان عددهم حوالى ستمائة ألف رجل ؛ - وأنهم جميعا كانوا أصحاب نخوة وشهامة إلى الحد الذى جعل دولان يكثر من أعدادهم فى الأساطير التى كان يرويها عنهم . هناك واحد آخر من عقلاء بدو الفجيرى قال لى الحقيقة فى حدود معرفته عندما أبلغنى : "مضارب بنى كلب تقع على بعد مسير حوالى خمسة أو ستة أيام شرقى مكه ، ولكنهم ليسوا مسلمين بحق وحقيقة ، وقال لى أيضا إن حملة البنادق البدائية (الفتيلية) بينهم يقدرون بحوالى عشرة آلاف رجل ." هذا يعنى أن قبيله بنى كلب كان يقدر تعدادها بحوالى خمسين ألف رجل ، أو إن شئت فقل : خمسين ألف نسمة ! - وهذه أمة قبلية لا مثيل لها فى الجزيرة العربيه كلها . وقبيله العنزى ، التى تشغل المساحة من المدينة (المنورة) إلى شمالى سوريا ، وهى مساحة من الأرض تقدر بما يزيد على خمسة عشر ألف ميل مربع ، أنا لا يمكن أن أقدر عدد أفرادها حتى ولو بنصف هذا

الرقم الذى عليه قبيلة بنى كلب ، ولكن يبدو أن عقول هؤلاء الحكائين لا تتخوف من الأرقام الكبيرة : وقد توصلت فى النهاية . وبشكل عام ، أن آلاف أولئك الحكائين تعنى المئات ليس إلا ، وفى ظل ذلك يكون معشار حكايتهم هو الذى يتفق مع فكرى وتقديراتى .

الحاج حسن الذى طالت يداه أكثر من بقية أفراد الحامية ، سيقوم خلال يوم واحد برحلة صيد إلى الجبل بصحبة بعض من عرب البوابة ، ويتعين علىَّ أن أكون بصحبته . وقد بلغنى أن هناك بعض النقوش على الطريق الواقع خلف صخور السهل فى الاتجاه الشرقى . وبعد مسير دام حوالى ساعتين ونصف الساعة ، وصلنا قبل الظهر إلى ركب Rikb الحجر el-Héjr؛ كان بعض العرب فى أرض الجوع هذه يشكون بالفعل من الشمس ، كما كانت سيقانهم الضعيفة كئيبة المنظر من خلال الرمال . هذا هو وادى Wady أحد هؤلاء العرب ، يرتدى أثمالا ، لأن هذه هى تقاليد جزيرة العرب المسلمة Ishmaelite، فيما يخص أى إنسان يتعين عليه القيام بمغامرة فى منطقة تبعد قليلا عن موطنه ، وهو يفعل ذلك مخافة أن يجرده الغزاه الآخرين من كل ما يرتديه أو يضعه على جسمه . تجاوزنا الصخرة الحاجزة عن طريق فلق عميق له ضفتين من الرمال . كان الجزء الخلفى من الجبل عبارة عن أرض جرداء من الحجر الرملى ، كانت تشبه الموت ، نظرا لأنها كانت تبدو كما لو كانت سكون الطبيعة الأبدى . ثم بدأ جبل الحجر الرملى يتفرع إلى خطوط متقاطعة ، شكلت متاهة فى هذه المنطقة ، متاهة من الكتل المتعرجة ، وفيها كثير من الشوارع المسدودة ، كما لو كانت هناك مدينة بين تلك الشوارع . من بين هذه الصخور المربعة ، كانت هناك بعض الصخور الطرية التى انصهرت وذابت بين الصخور الأخرى ، الأمر الذى أحدث بعض الفراغات بين الصخور الصلبة الأخرى . وهذه هى قمم بعض الصخور التى تآكلت بفعل عوامل التعرية متحولة إلى أشكال غريبة من الرءوس ورؤس الأعمدة . وهذه هى خطوط الحجر الرملى الرسوبية المقابلة يراها الناظر على ارتفاع واحد عند كل الجروف الهادية . واصلنا مسيرنا فى حرارة جو الشتاء ؛ وهذا هو ترمومتر وضعته فوق قطعة من القماش الأبيض ، فوق الرمل وعلى ارتفاع ٣٧٠٠ قدم يسجل درجة حرارة مقدارها ٨٦° فهرنهيتية : عند أعلى نقطة فى الجبل وعلى بعد حوالى ستة عشر ميلا من القلعة ،

وجدت أن الارتفاع حوالى ٤٠٠٠ قدم . من هذا المكان استطعنا عبر منظر أرضى قاحل وواسع فى إتجاه الشمال ، رؤية سقيا(*) تابعة لبدو الفجير الرُّحَّل . أحسسنا بصعوبة بالغة ، ونحن نسير بين ضفتين رمليتين فيما بينهما رمال عميقة ، رحنا نطلع وننزل خلالها ، ونجول خلال الممرات الصخرية المحيرة . وأثناء سيرنا عثرت على أسطوره حميرية من أساطير الصحراء ، مدونه فوق صخرة من الصخور ، بطريقة عمودية ، وفيها صور للنعام ، وللحصان وراكبه ، وصور للإبل . [أنظر وثيقة الكتابة المنقوشة اللوحة رقم ٢٠] . وصلنا بعد ذلك إلى كهف فى مكان رملى عميق كانت تنمو فيه أشجار السنط . كانت الشمس قد أوشكت على الغروب وبالتالى يتعين لهذا المكان أن يكون ملجأنا وملاذنا أثناء الليل .

كنا قد أحضرنا معنا عجينا ملفوفًا فى قطعة من القماش وذلك من باب الاقتصاد فى الماء ، من جانبنا ؛ كان ذلك العجين قد جرى تجهيزه فى الحجر ، من ذلك العجين ، كان المرء يصنع كعكات كبيرة مسطحة يقولون لها بلغتهم (عبود Abud)، ويجرى وضع ذلك الكعك تحت الرمل الساخن الذى تصل سخونته إلى درجة الاحمرار ، وذلك بمساعدة أيضا من بعض من الحطب الذى يجرى حرقه بعد بضع دقائق . ويجرى بعد ذلك رفع الخبز من الرمل قبل أن ينضج تماما ليدهك بعد ذلك مع التمر داخل تجويف جلد حيوانى ، ومع شىء من الماء ، حتى نقلل من احتياجنا لشرب الماء ولا نأتى بسرعة على وجبتنا الصغيرة ، نحن الخمسة . والبدو الرحل فى هذا الجزء من البلاد يحكون أيديهم بالرمل ؛ بعض آخر من تلك الغربان الفظة ، فى خصل شعرهم الذى يشبه شعر الجن . كانت تلك الليلة ذات السماء الصافية باردة من حولنا ، ونظرا لأننا كنا نحس بشىء من الخدر ، لم يطرق النوم جفوننا ؛ وقبل طلوع النهار وجدت أن درجة الحرارة على مقياس الحرارة كانت حوالى ٣٨ ْ فهرنيتية . وفجأه سمعنا ضوضاء غريبة داخل تجويف كهفنا الموجود فى الأعلى . وهنا تفاخر دولان الذى كان يرافقنا بأن قال : "لقد سمعنا كلنا ، بالله ، الغول ، نعم ، بل وسمعه أيضا ولد عمه خليل الذى يتشكك فى كل شىء :" ولكنى فسرت تلك الضوضاء على أنها مجرد حركة فى جسد كلب الصيد ،

(*) السقيا : مكان للتزود بالماء ، ويسقى البدو منه إبلهم ومواشيهم (المترجم)

الذى كان وادى قد جلبه معه ، والذى كاد يموت جوعا وعطشا لأننا لم يكن لدينا ماءً أو كسرة خبز حتى نلقيها له ، ومع ذلك كان يرقد فى الأعلى فى حالة من الإغماء الشديد . نهضنا من أسرتنا الصخرية بعد انتصاف الليل وعظامنا تؤلمنا ، لكى نشب نار الحراسة . وتناولنا الإفطار مما تبقى معنا من الخبز السابق إعداده ، كما شرب كل واحد منا جرعة ماء . ثم تناول كل واحد منهم بندقيته الطويلة وراحو يبحثون عن 'البدون' أو إن شئت فقل 'الماعز البرى' الضخم الذى يعيش فى الجبال . أما أنا فقد بقيت بالقرب من قربة الماء على الطريق الذى يتعين علينا العودة منه ، هذا فى الوقت الذى راحوا هم فيه يتسلقون المسافات فيما بين الصخور الجرداء . ومع دخول وقت الظهر ، لم يكن أحد منهم قد اصطاد شيئا اللهم باستثناء وادى الذى فتح نيران بندقيته على تيس برى كان يجرى ، ومع ذلك أخطأه ولم يصيبه ، وهذا هو ما يفعله البدو بواقع مرة واحدة من بين كل عشر مرات . وبينما كنا نسير عائدين إلى القلعة داهمتنا جماعة مكونة من عشرة بدون (ماعز جبلى) قفزوا أمامنا فوق الرفوف الصخرية : وهنا قام حملة البنادق التابعين لنا بملاحقة تلك المجموعة مدة ساعة ، ولكن تمكنت الطريدة من الفرار .

ذات يوم عاد إلينا صيادونا ومعهم دُلدلا ، أو إن شئت فقل : حيوان الشيهم المبذول ، الذى يقولون له بلغتهم 'نيس' nîs فقد عثروا على جحره الذى يشبه حجر الأرنب ، ثم ضربوه بعصا على رأسه . وجرى تقسيم لحم ذلك الدلدل بالتساوى (وهذه فضيلة من فضائل دين العرب) على كل من كانوا فى القلعة ، والمعروف أن حيوان الدلدل لا يسلخ ، إذا بالإمكان أكل جلده اللزج مع لحمه ، الذى تفوح منه رائحه تشبه رائحه السمك . سلقوا لحم الدلدل ، وراح كل واحد منهم بعد العشاء يشكو من الحموضة ، أما أنا فلم أحس بتلك الحموضة . ومن بين خرافات العرب أيضا أن حيوان الدلدل يمكن أن يستعمل شوكه فى الدفاع عن نفسه ضد أعدائه . والمعروف أيضا أن الماعز البرى ، وكذلك الحمر الوحشية ، وكذلك الدلادل تتغذى بطريقة شرهة على نبات الحنظل ، الذى يعد شديد المرارة بالنسبة للإنسان ، إلى حد أن مجرد ورقة واحدة من أوراق الحنظل يمكن أن يكون مطهرا فعالا تماما ، والعرب يقولون أن ورقه واحدة من أوراق الحنظل كفيلة بأن تجعل الإنسان يفقد وعيه ، وأن مثل هذا الإنسان يمكن أن

يسترد وعيه وقوته إذا ما أكل لحما . وهذا هو بالتأكيد ما يسميه دراويش عليشة "الموت فى الإناء" . أحضر لنا واحد من البدو بيضة كبيرة من بيوض النعام ، وقام بتسويتها مع السمن والطحين فى طاسة ، على شكل بيض مخفوق طيب المذاق .

والنعام ينزل إلى سهل مدائن صالح ؛ وقد شاهدت واحدة من النعام فى جبل إثلب . ودولان Doolan شأنه شأن أمة الحطيم يعمل بصيد النعام ؛ وهو فى موسم النعام يركب ناقته ويجرى مغامرا فى القفار ، وعندما يشاء الله ، يعثر دولان على نعامة من النعام ، وهنا يقوم بتخبئة نفسه ، وينتظر طول اليوم ، وبندقيته على أهبة الاستعداد ، إلى أن تمر عليه النعامة : ولكن صبر هذا الرجل كان يضيع هباء فى مرات كثيرة اللهم إلا إذا عثر على عش النعام . فى واحدة من المرات عاد إلى منزله ومعه فرخين من فراخ النعام ، جرت تربيتهما فى القلعة ، ولكن فى يوم من الأيام تغذى هذان الفرخان على الفول ، وعندما حاولا ابتلاعه سد زوريهما وخنقهما . هذا الدولان كان فقيراً جداً ، ولم يكن يجد ما يأكله كل يوم ، ومع ذلك كانت أدوات صيده من النوع الممتاز ؛ كانت بندقيته أثمن من أى شىء آخر فى ذلك الجانب من الصحراء ، كانت تلك البندقية لا تساوى سوى أربعين ريالا . كان دولان ، فى معظم السنوات يجهز جلدين من جلود النعام لكل موسم من مواسم الحج ، الذى كان يذهب خلاله إلى واحد من تجار ريش النعام فى دمشق ، ليشترى منه ومن البدو الآخرين جلود النعام على طريق الحج ، ويدفع نظير الجلد الواحد ما يتراوح بين أربعين وخمسة وأربعين ريالا . والنعام يتغذى عن طريق المراعى متنقلا من دغل إلى آخر ، "شأنه شأن الإبل" . والصيادون يأكلون صدر النعام ، الذى هو من اللحم غير الطرى ؛ ودهن النعام ثمين أيضا ، وملئ فنجال قهوة من ذلك الدهن يباع بنصف مجيدى ؛ والبدو يظنون أن دهن النعام علاج ناجح لارتفاع درجة الحرارة والبرد ، كما يعالجون به أمراضا كثيرة أخرى . ساكنو الخلاء فى موسم الشتاء هم الأبقار ، والخطاطيف (الأسود والرمادى منها) ، وحمام الصخر الأزرق . وطوال الليالى التى أمضيناها فى القلعة كانت تغزونا جموع هائلة من الخنافس الصفراء االصغيرة ، التى كانت تخترق الخضاضات الجلدية وتتغذى على الطعام : وأنا لم أشاهد هذه الخنافس فى أى مكان آخر من الجزيرة العربية .

بعد أن تعود العرب على النصراني وألفوه ، بدأت أتجول وحدى ، فى كل منطقة أو إن شئت فقل : مواقع مدائن صالح . والأغا هو الوحيد الذى سمح لى بالصعود ومعى نظارتى فوق صخور البرج ، كما سمح لى أيضا بالمغامرة إذا لم أجد أحداً يتحرك فى السهل . وعن طريق ذلك الاستكشاف اليومى ، استطعت التمعن أكثر وأكثر فى العديد من الواجهات والغرف . وارتفاع صخور البرج ، يعد متواضعا كما هو الحال فى المقابر السطحيه الضحلة ؛ وأهل هذا البلد الذى لا تسقط فيه الأمطار يتخذون من تلك المقابر الضحلة خزانات لهم يخزنون فيها مياه الأمطار إذا ما سقطت على بلادهم . هذه التجاويف الضحلة تنتشر هنا وهناك ، البعض منها فى الشمال والبعض منها فى الجنوب ، وبعض ثالث فى الشرق وبعض رابع أيضا فى الغرب ، ولكن عمق الواحدة منها لا يزيد على شبر واحد ؛ ولا يرى خلف البرج سوى حفرتين فقط من حفر القبور تلك . كما يرى الرائى خلف البرج أيضا بعض الرفوف الصخرية المنتشرة خلال السهل ، وبصحبتها أيضا أماكن الدفن الضحله أيضًا ؛ وكما هو الحال فى الصخور الموجوده تحت قصر البنت ، تقع تلك الحفر الضحلة أمام عتبة واحدة من أجمل الواجهات (انظر الصورة رقم ٢٥) . والبرج هنا عبارة عن مبنى شبه مربع قليل الارتفاع ، مبنى من الأحجار الغشيمة ، وبدون ملاط ، وأبعاده ست خطوات طول وخمس خطوات عرض ، ولا يعرف عمر هذا البرج على وجه التحديد : ويصل سمك الجدار إلى حوالى ياردة واحده ، ويقل ذلك السمك مع الارتفاع ؛ والبيارق فى الداخل يجرى استعمالها للاسترشاد بها فى ارتقاء الدرج (السلُّم) .

شاهدت فى كل أنحاء السهل حصوات منجرفة من الحجر الخفَّاف ونواتج الحمم البركانية ، وهذا بطبيعة الحال جاء من الحرَّة السوداء الموجودة فى الخلف ، التى اكتشفت فى نهاية المطاف أنها عبارة عن جبل من الحجر الرملى الناتج عن انسياب أنهار شديدة الكثافة من الحمم البركانية البازلتية ؛ يضاف إلى ذلك أن التلال السوداء التى أراها فوق الجبل ، هى بمثابة فوهات براكين جامدة اعتبارا من هذه المنطقة . ومع ذلك ليس هناك أى دليل أو علامة على سقاط البراكين أو ترابها الذى يمكن أن يكون قد تساقط على ذلك السهل فى الزمن القديم ؛ - هذا هو بالتأكيد أصل ما حدث فى الحجر . عثرت أيضا فى الصخور البرية على كثير من النقوش القديمة المدونة فوق تلك

الصخور . شاهدت أيضا على الجروف ، التى كنت أعجب لرؤيتها ، والتى كانت ترتفع إلى مسافة حوالى خمسة وعشرين قدما أو أكثر عن الأرض ، صورا قديمة وأثرية للحيوانات ، وهذه الصور لا يمكن الوصول إليها فى الوقت الراهن إلا عن طريق سلم نقّال : بل إن أطول الرجال يعجز أن يطال تلك الصور حتى عندما يقف فوق ظهر جمله ! - "من الواضح (حسب قول العرب) أن رجال الأزمان السالفة كانوا أصحاب قامات فارعة !" وهنا كان الأغا يرد عليهم قائلا : "ربما تكون التربة هى التى مارت وانخفضت ، وذلك بفعل الطقس والرياح ، على مر الأزمان ؛" ولكنى أرى أن هذين السببين لا علاقة لهما بالأمر ، وبخاصة عندما نأخذ بعين اعتبارانا أفاريز الأبواب فى الآثار الجنائزية ، نظرا لأن تلك الأفاريز تحازى سطح الأرض فى الوقت الحالى . عثرت أيضا على أحجار نارية غريبة الشكل ، فى ثنايا الركام البركانى الأسود ؛ وقد سبق لى مشاهدة مثيل لتلك الأحجار النارية متناثرة فى وادى بيترا . شاهدت أيضا بعض الأوانى الحجرية (مثل الجرن jurn أو النجّار nejjar) التى تشبه أحجار أحواض المَعْمُوديَّة ، والتى يصل عرض الواحد منها إلى حوالى ياردة واحدة ؛ ومن بين هذه الأوانى (أنظر الصورة رقم ٢٦) توجد آنية واحدة مخصصة للشرب داخل القلعة . وفى السهل الموجود تحت جبل إثلب ، عثرت على حجريات قديمة ، محفور على جدارها ، كما لو كان ذلك بفعل إزميل عامل من العمال ، الأسطورة الحميرية التالية ، التى تكاد تكون فريدة بين النقوش النبطية الموجودة فى مدائن صالح (الصورة رقم ٢٧) ؛ عثرت أيضا على حجرية ثانية قديمة من المنطقة الخلفية فى الصخور الغربيه . - ولكن حجريتان صغيرتان لا تكفيان للدلالة على أحجار أو الأعمال الحجرية فى بلدة من البلدان ؛ وبالرغم من أن هاتين الحجريتين كان عليهما بعض المخلفات الحجرية الناتجة عن الآثار الجنائزية المجوَّفة : إلا أن البلده التى عثرت فيها على هاتين الحجريتين كانت مبنية من الطين ، يضاف إلى ذلك أن جدران المنزل الطينية كانت مقامة على قطعة أو اثنتين من الأحجار الغشيمة وغير الممهدة . ولم أرى سوى قله قليله من المنازل الأثرية المتبقية ، فى ذلك الموقع القديم . وأنا أرى أن الرمل الذى انجرف إلى هذه المنطقة لم يغطى أو يطمس الكثير من تلك المنازل الأثرية ، ومن رأيى أيضا أن الأحجار ، الموجودة فى هذا المكان ، جرى إحضارها منذ زمن بعيد لبناء القلعة . كانت تلك المنازل

القديمة قليلة العدد ، ويجب أن لا ننظر إليها باعتبارها أكواخا ؛ زد على ذلك ، أن المنازل القديمة المبنية من الحجر الغشيم ، ليست أكبر من المنازل الأثرية المبنية من الطين ؛ أضف إلى ذلك أنني شاهدت المنازل الحجرية تلك التى ما تزال باقية حول بلدة خيبر ، منذ عصر محمد ﷺ إلى يومنا هذا .

كنت أجلس تحت صخور البرج فى كثير من الأحيان ، وأروح أتدبر صورة الصليب الموجود داخل إطار محدد ، والمرسوم بالمغرة حمراء اللون . ترى ، ماذا يمكن أن يكون ذلك الصليب ؟ – هل هو وسم من وسوم الحيوان ؟– أم إنه الإشاره إلى موت المسيح وتذكار لملكته الأبدية؟ التى خلفّها مسافر ناصرى Nasrean (*) لتظل شاهداً على مبدع خلاصه ، على صخور أصنام الحجر ! يضاف إلى ذلك أن علامة الصليب حرف من حروف النقوش الحميرية ، ينظر إليه العرب الأميون على إنه دليل مؤكد ، على أن بلادهم كلها كانت ملكا للنصارى فى الزمن القديم . – وأنا لم أعثر على ما يدل على أساسيات الدين المسيحى فى هذه البلاد ، اللهم إلا إذا كان ذلك فى اسم مكتوب بالحروف اليونانية ، التى رأيتها فيما بعد مسجلة على صخور مَبْرك الناقة ، (Kyp a koc) .

فى القرن العاشر الميلادى كانت الحجر ما تزال قرية صغيرة(**) ؛ إذ كانت ما تزال هناك قرى كثيرة صغيرة فى الأرض المجوفة اعتبارا من هذا وفى اتجاه المدينة المنورة ، بل إن هذه القرى كانت مليئة بالسكان فى زمن الحروب الصليبية : هذه القرى أصبحت الآن مجرد مواقع أثريه يخيم عليها السكون ، بل إن أهل هذه البلاد لا يذكرون أو لا يجيء على بالهم أسماء هذه القرى . وإلى جوار صخور البرج توجد بعض أسوار مهدمة لبستان من بساتين النخيل ، وهذا البستان فيه بقايا لمنازل من الطين ؛ وهذه المنازل لا يزيد عمرها على قرن من الزمان . يضاف إلى ذلك ، أن جد

(*) نسبة إلى مدينة الناصرة . (المترجم)

(**) كانت الحجر من المناطق التى عاشت فيها قبائل ثمود حيث عثر فيها على نقوش ثمودية . وقد حددها بعض الباحثين المحدثين بقرية الخريبة التى تبعد بنحو عشرة أميال عن مدائن صالح . (المراجع)

زيد Zeyd ، الذى كان شيخا للقبيلة ، استقدم من قرية تيماء(*) بعض المتخصصين فى الزراعة حتى يقوموا برى وزراعة ذلك اللهم (الغرين) الخصب ، ويقيمون فى ظل حمايته لهم . هؤلاء المتخصصون انتجوا محاصيل كبيرة ، وكانوا يبيعونها مباشرة للبدو . هؤلاء المستعمرون التيماويون ، بدأت أحوالهم تزدهر وتروج شيئا فشيئا ، بالرغم من أنهم كانوا يدفعون لملاك الأرض ، الذين كانوا من البدو الرحل ، قسما من تلك المحاصيل وذلك الحصاد . واستطاع هؤلاء المتخصصون أن يثروا على نحو مكنهم من شراء آبارهم الخاصة بهم ، كما أشتروا أيضا بعض الأراضى ، عندما عادوا إلى قرية تيماء . سألتهم عن الأسباب التى جعلت هؤلاء المتخصصين يهجرون ذلك المكان الذى ازدهر فيه عمالهم . ورد على زيد قائلا : "إن هذه المنطقة خالية" ، وقد كان يعنى بكلمة 'خالية' أن الأرض كانت منعزلة وخالية وخراب إلى الحد الذى جعلهم لا يستشعرون مطلقا أن حياتهم فى أمن وسلام . وعلى بعد ميل واحد من القلعه فى اتجاه الغرب ، عثرت على جدران كبيرة مبنية من الطين من فوق أساس من الحجر الغشيم وبدون استعمال الملاط ؛ هذه البنايات المهجورة ، كانت جزءا من بيوت ريفية كبيرة نائية ، وهى من قبيل تلك المنازل التى شاهدناها فى منطقة نجد . هذه الجدران المبنية من الطين ليس إلا ، تستطيع الصمود أمام هذا المناخ القاسى أزمانا كثيرة . زد على ذلك ، أن خصوبة لهم (غرين) الحجر معروفة فى كل أنحاء البلاد ؛ قام الكثيرون بالبذر والحصاد فى هذه المنطقة ، وبعد فترة أبلغنى العرب أن هؤلاء الزراع كانوا يجنون عائدًا طيبا ، غير أنهم فى موسم الحصاد ، أو إن شئت فقل : فى موسم جمع المحصول ، كان واحد منهم يموت فى كل مرة . من هنا كانوا يظنون أن مكروها سيئا يكمن فى هذه التربة ، التى سبق أن خربتها إرادة الماء ، على نحو يحول ، إلى الأبد ، بينها وبين فلاحتها أو السكنى فيها مرة ثانية . الناس فى الجزيرة العربية يعزون مرض التربة الخبيث فى هذه المنطقة ، إلى شياطين الأرض ، التى يطلقون عليها اسم 'الجان' أو 'أهل الأرض' . من هنا فإن المتخصصين الزراعيين ، فى هذه المنطقة ، درجوا على

(*) تقع قرية تيماء إلى الشمال المغربى من مدائن صالح . وكانت تسكنها إحدى القبائل الثمودية وقد يكون هناك ارتباطا بين اسم تيماء وقبائل بنى تميم . وكانت منطقة نفوذ سكان وقبائل تيماء تمتد من حدود إيدوم غربا إلى الفرات شرقا . (المراجع)

رش دم ذبيحة على كل أرض جديدة يقومون بزراعتها فى هذه المنطقة : وهذا التقليد نفسه يتبع عندما ، يبنون منزلا جديدا ، إذ يقومون برش الدم على أحجاره ، مخافة أن تتعرض حياة العمال للسوء أو الخطر . وقبل مدة لم تتجاوز العشرين عاما قام أحد بدو الفهيج (هؤلاء البدو الذين تقوم قلة قليلة من عائلاتهم ، بزراعة النخيل ، خارج أسوار قرية تيماء) بإنشاء سور حول قطعة من الأرض فى قرية الحجر ، وعلى بعد مسافة قصيرة من القلعة . قام ذلك الرجل بحفر بئر وزرع نخلا وبذر فى الأرض قمحًا . وأعطته الأرض محصولا وفيرا ، وكان يقطينه(*) وبطيخه لا مثيل له بين اليقطين أو البطيخ الذى كان يزرع فى القاع الرملى فى قرية العلا ؛ ولكن مصيره المحتوم عاجله فى منتصف هذه البداية الطيبة ، ومات ذلك الشاب ، وبذلك تخلى عن هذا المشروع الممتاز .

صادفت مناسبة عيد الميلاد مناسبة دينية إسلامية هى الضّحيّة ، التى تقوم خلالها كل أسرة قادرة ، بذبح شاه ، يوزعون جزءا من لحمها على الجيران الفقراء . ومع طلوع الصبح راح الجميع يفتحون نيران بنادقهم فى القلعة وجلسوا جميعا لتناول طعام الإفطار سويا وعلى مائدة واحدة . والبدو الرحل يراعون هذه المناسبهة بكل دقة : وهناك رجال فقراء كثيرون ينحرون جملا لآبائهم ، الذين ماتوا مؤخرا .

وصل من تيماء قبل دخول وقت الظهر بعض الصُّنَّاع (أى من سكان الجزيرة العربيه الذين يمتهنون الحدادة) ؛ هؤلاء الحدادون بدءوا يمارسون مهنتهم بالرغم من أن اليوم كان عيداً ؛ هؤلاء الحدادون يصنعون لأنفسهم كيرا فى تجويف داخل الرمل . وواحد من هؤلاء الصناع يقوم بعملية الحدادة ، فى حين يقوم الآخر بدور نافخ الكير ، المصنوع من جلد الحيوان ؛ كان المطلوب من هؤلاء الحدادين ، طلاء الأوعية المصنوعة من النحاس الأحمر بالقصدير (**) استعداد للعام الجديد ، وكان مطلوبا منهم أيضا

(*) اليقطين : ويعرف أيضا بـ (الدباء) ، وهو نوع من الخضار الغنى بالقيمة الغذائية ، ويتبع نبات العائلة القرعية ، وهو منتشر فى كثير من مناطق الجزيرة العربية وماؤه يقطع العطش . واليقطين يطلق عادة على قرع العسل . (المراجع) .

(**) اللفظة العامية المستعملة فى معنى طلاء الأوانى المصنوعة من النحاس الأحمر بالقصدير هى " تبيض النحاس " و " مبيض النحاس " شخصية فولكلورية مازالت موجودة إلى يومنا هذا فى بعض قرى مصر . (المترجم)

إصـلاح البنـادق المعطلة ، وكذلك إصلاح سـيوف الحـج نجم ، وذلك من داخل سـلاح القلعة : والمعروف أن هذا العجـوز الطاعن فى السن ، أو إن شئت فقل : هـذا المغربى الشجاع ، كان قد استخدم القسم الأكبر من تلك البنادق والسيوف فى مطاردة الغزو المعـادى . هـؤلاء الحـدادون ، بالرغم من السِّناج الذى يـغطى وجـوههم هنـا ، هـم من أعيان تيماء ويسكنون فى منازل جيدة شاهدتها أنا بنفسى فيما بعد . هؤلاء الحدادون الأذكياء والموهوبين يحققون مكاسب مستمرة ، وهم غالبا من أصحاب العقول الراجحة ؛ ونظرا أيضا لأن هؤلاء الحدادون ، يختلطون دوما بالرأى العام ، فهم أكثر تسامحا من الآخرين . وهم يصلون إلى هذا المكان من هذا البلد ، مرة واحدة كل عام ، ويتـجولون فى أنحاء قرية العلا يزاولون مهنه الحدادة طوال شـهرين من الزمان ؛ وسـوف يـرحل هؤلاء الحدادون هذه الليلة مع بعض أفراد الحامية إلى القرية ليقايضوا الحكومة دقيقا بأرز ، ويحضرون علفا للبغال . وخطر ببالى أنا الآخر ، زيارة الواحة بصحبتهم .

بدأنا نتحرك عند دخول وقت العصر ، كان حسن والصبى محمد من أفراد القلعة . هذه التوقيتات من النوع الخطر ؛ نظرا لأن الجـهاد كان معلنا فى الوقت الراهن ضـد قسم من العالم المسيحى(*) . ففى دمشق ، على سبيل المثال ، كنا نخشى منذ زمن طويل قيام إنتـفاضـة سـاحقة ونصب مذبحـة عامة للنصـارى ؛ يضـاف إلى ذلك ، أن سـاعى البريد يـحتمل أن يجىء إلينا بأخبار مزعجة ، ومن حسن الحظ أننى كنت قد رحلت عن الأغا ونحن أصدقاء ، ذلك الأغا الذى تابعنى بالكلمات التالية : "خليل ، بالله ، رجل من الذين تربوا بيننا ." وذكرّت الحاج نجم ، وأيدينا تتشابك ، أننا كنا جيرانا فى الغرب . "ورد الرجل ، نعم ، والله جيران ." وانضـم إلينا الصُّنَّاع وجمـاعة من نسـاء الفهجات اللاتى كن ذاهبات إلى المدينة ليبعن تلك الأشياء التافهة التى عثرن عليها على أرض مخيم الحج ، أو كما يقول حسن (لأن العرب جميعا سليطو الألسنه) ، لتجعلن من أنفسهن تجارة غير شريفة . من بين هؤلاء النسوة كانت هناك كثافة **Kathâfa**، كريمة دولان ، التى تقدمت جماعة النسـاء ، وهى تحمل بندقية والدها على كتفـها ؛

(*) كانت الدولة العثمانية قد أعلنت الجهاد فى عام ١٨٧٧ ضد روسيا التى أعلنت عليها الحرب فيما عرف بالحرب الروسية التركية . (المراجع)

والسبب فى ذلك أن الطريق بطوله إلى قرية العلا ، مليئ من ناحية بالصخور الوعره ، وبالمضايق ، فيما قبل القرية بمسافة قصيرة ، ويحاصر الحباليص ، أى عصابات اللصوص القادمة من تهامة ، من الناحية الأخرى تلك الصخور والمضايق ؛ وغالبية هؤلاء اللصوص من بدو الحويطات . وحكى لنا الحاج نجم كيف فتحوا النار عليه عندما كان فى المضيق ، وكيف أن الطلقة دوت مارقة من جوار طربوشه الأحمر ، وكيف مرت طلقة أخرى من جوار خده ثم اصطدمت بالصخره القريبة التى كانت تقع إلى الخلف منه . وفى العام الماضى حدث هجوم على محمد على بينما كان ذاهبا بصحبة بعض أفراد الحامية إلى قرية العلا . فقد هجم عليهم البدو الأعداء ، الذين كانوا يختفون فى دغل من أشجار الإثل ، وهم يصوبون إليهم رماحهم ، ويقفزون ويصيحون ويصرخون . قال حسن القوى ، إننا إذا ما هوجمنا فسوف نحتمى بجانب الجبل ؛ – والعرب يظنون ، عندما يستفيدون من الأرض أنهم أصبحوا ، إلى حد ما ، فى مأمن من الخطر ، وأن ذلك يمكنهم من فتح نيرانهم على أعدائهم .

لما كان حسن ومحمد يسيران وهما راكبان البغلين ، بأقصى سرعة ممكنة ، طلبت منهما أن يبطئا السرعة قليلا ؛ يضاف إلى ذلك أن الأغا كان قد أصدر أوامره أن يكون ركوب الدواب بالتناوب ، ولما لم تكن صحتى على ما يرام تماما ، فقد وجدت من الصعب علىّ مواصلة الطريق كله معهم سيرا على الأقدام . "قال حسن ، نحن لن نجرؤ على تجاوز المضايق بعد غروب الشمس ؛ كان الوقت متأخرا بالفعل ، وأنا إذا لم أستطع مواصلة السير معه فسوف يخلفنى وراءه ، مثلما قد يتخلى– بحق الإله الحى – عن والده الذى أنجبه ؛ وإذا ما حدث لى مكروه فسوف يقول إن اللصوص هاجمونى ، وأننى سقطت قتيلا فى ذلك الاشتباك . ثم صاح قائلا : هل أنا الرجل الذى يتعين عليه أن يطيع أوامر الأغا !" وهنا أمسكت بسرج البغل وواصلت السير معهم ، إلى أن تجاوزنا منتصف الطريق ، وعندما وجد حسن أننى لا أقوى على السير أكثر من ذلك ، طلب من العسكرى أن ينزل من فوق الدابة قائلا لى : "ذلك البدوى" ، ثم أركبونى بعد ذلك فوق سرج البغل ، وسألت الصُنَّاع قائلا :" أين تسكنون فى قرية العلا ، هل تسكنون فى منزل الشيخ ؟" وأجابونى قائلين : "المكان الذى نحن ذاهبين إليه ليس فيه من الكرم شىء ، أهل قرية العلا كلاب ."– هؤلاء الناس لا يراعون ، فى الأراضى

الحجازية المنخفضة ، تقاليد وأعراف الكرم الأصيل الذى يشيع فى نجد أو إن شئت فقل : فى الجزء المرتفع من الجزيرة العربية .

كانت بقية الطريق تسير بحذاء الركن الجنوبى الشرقى من الحرَّة ، وخلال متاهة من صخور الحجر الرملى ، يطلقون عليها اسم 'الأخمه' ، التى هى صخور نحتية من الجبل نفسه . كان طريق الحج السابق يمر من هذه المنطقة ، وكان يمر أيضا بقرية العلا ؛ وحدث منذ سنوات قليلة أن قام أحد باشوات الحج بقيادة قافله الحج ، من هذا الطريق ، إلى بير الغنيم el-Ghrannem Bîr : - ثم جرى التخلى بعد ذلك عن هذا الطريق لخطورته نظرًا لأنه كانت تحيط به الصخور والممرات الضيقة . وقاع هذا الطريق هو فى معظمه من الرمل الكثيف ؛ وفى الأماكن المنخفضة تحت الصخور تنمو أشجار الإثل ، التى لها مذاق مالح ، وفيها أيضا الكثير من العشب والحشائش الخشنة . وعلى بعد أربعة أو خمسة أميال من العلا ، وصلنا إلى (وهذا يحدث دوما عند القدوم من الحجر) بعض الآبار الصغيرة القديمة التى يصل عمقها إلى ثلاثة قامات ، ويطلقون عليها اسم 'الأثيب' el-Atheyb، ومياهها لا تصلح للشرب . ولما كنا نشعر بالعطش بفعل شمس الشتاء ، توقفنا ، ونزل الصبى محمد ، كما هى العادة فى الشرق ، ليجلب لنا شيئا من الماء . وعلى مقربة من هنا يبدأ مضيق العلا ، فيما بين القمم الصخرية المرتفعة المكونة من الحجر الرملى ، والتى يطلقون عليها اسم معلق Moallak الحميدى el-Hameydy، من بين أجزاء الحرّة ، والجروف العالية من ذلك الحاجز البرى المكون من الجبال المنخفضة التى تغلق سهل مدائن صالح من ناحية الجنوب ؛ والناس هنا يطلقون على تلك الجروف العالية اسم الحذيبة el-Hûtheba، وجبل Jebel روم Rumm والمعتدل Moâtidal . يوجد أسفل هذا الجانب الأيسر من المضيق حائط عريض من أكوام الحجارة المختلطة بالغرين ، والواضح أن هذه أرض أثرية لمدينة كانت بيوتها مبنية من الأحجار ، التى تهاوت وسقطت مختلطة بالطين الذى كان يمسكها إلى بعضها . هذا هو الموقع الذى يطلقون عليه اسم الخريبة el-Khreby، الذى رأيت فى وسطه الخزان الصخرى الشهير (الصورة رقم ٢٩) ، الذى يقولون له : نِّجار أو جُرن ، وشكله يشبه شكل تلك الخزانات الأصغر منه التى سبق لنا أن رأيناها فى سهل الحجر ، والتى يطلقون عليها اسم "إناء حلب ناقة النبى صالح ." وعندما غربت الشمس ، راح

رفاقى يعجلون بالمرور من المضيق . شاهدت الأبواب كما لو كانت محفورة فى تلك الصخور ، بدت لى كما لو كانت شكلاً من أشكال غرف الدفن . وقد أرانى رفاقى فوق القمة الصخرية ، أى فى القلعة ، ذروة مربعة الشكل ، يعتقدون أن بداخلها كنز عظيم . قال الحاج حسن : "يا خليل ! أليس لديك طريقة يمكن الحصول بها على تلك الثروة ، وبذلك تأخذ نصفها لك ونصف لنا ؟ قسمها بهذا الشكل ، فنحن أصدقاء لك ."

عند هذا الحد شاهدنا النخيل الموجود على أطراف القرية أمامنا ؛ وهذه هى سلسلة من الحفر ، وفتحات الهواء ، لواحد من المجارى المائية ، يمتد تحت الأرض متجها إلى الواحة ،– وهذا مجرد عمل ، من قبيل الأعمال التى من هذا القبيل ، التى قام بها سكان الجزيرة العربية القدامى . ثم عبرنا حوض ذلك المجرى الذى ينحدر نازلا من مدائن صالح ، والذى لم يحدث مطلقا أن امتلأ بمياه المطر ، وهنا يتجه مجرى السيل ، من تحتنا إلى وادى الحجاز الكبير الذى يقولون له وادى Wady الحمث el-Humth؛ هذا الوادى يسمى فى هذه المنطقه باسم وادى Wadyالجزّل el-Jizzl . وهنا سمعنا على الفور إعلانهم غير المتحضر عن عيدهم ، وهذا الإعلان عبارة عن إطلاق لطلقات البنادق ودق وضجيج للطبول . ولما كانت القرية لم تظهر بعد أمامنا ، فقد تحول رفاقى نحوى ليسألونى عن مدى جرأتى على الدخول إلى تلك القرية ، وهنا أجبتهم بطريقتهم ، وقلت : "أوكلت أمرى لله ." يقول الأعراب Aarab، إن العلاونة (*) تعتمل فى داخلهم روح الاستبداد وهم بين نخيلهم الخاص بهم ، ولكن قلوبهم ضعيفة عندما يكونون فى أرض الميدان . واقع الأمر أن أعراب الحضر ، الذين لا يتساهلون فى الدين ، يكونون مصدرا للخطر عندما يغتاظون ، وعندما تستثار حميتهم ويكون السلاح فى أيديهم . وهنا صدر صوت من بين أفراد جماعتنا ، صوت امرأة حمقاء كانت تصيح قائله : "أجهزوا على هذا الكافر !" وهنا كان يمكن إنهاء حياتى بطلقة طائشة . أسرّ حسن لى بذلك ؛ كان حسن فى ذلك اليوم مستاءً أو على غير وفاق مع الأغا ، ولم يحدث أن وقف ذلك الحسن فى صفى ، فى أى نزاع يخصنى أو يتعلق بى ، ولكنه أكتشف بنفسه أن ذلك كان أمرا أعوجًا . وعندما وصلنا أمام بوابة القرية ، فى ميدان

(*) المقصود " بالعلاونة " هنا هم " أهل قرية " العلا " (المترجم)

واسع ، يقع على جانب الحرَّة ، حيث يوجد جمع كبير من القرويين لقضاء العطلة ، تقدم أحد أفراد الجماعة ، ليربط بغله الأبيض ، وفاء لدين قديم للحاج نجم . وهنا هاج المغربى وماج ، ولم يستطع التحكم فى نفسه ؛ وهنا تكاثر عليه العلاونة . وهنا شحب لون وجه حسن فى ضوء الغسق ، وهنا انصرف المتماحكان مع واحد من الأوباش ، ومعهم البغل ، لأداء اليمين أمام قاضى القرية .

رحت أتجول مع الصبى محمد ، فى شوارع القرية الكئيبة ، إلى أن وصلنا إلى منزل شيخ قرية العلا واسمه ضاهر Dâhir؛ وعندما خرج الشيخ للقائى ، دهشت فى ذلك الضوء الخافت ، عندما وجدت أن فيه شىء من الزنوجة ، فضلا عن اندهاشى أيضا عندما سمعت صوته الإفريقى . اقتادنى ضاهر إلى الجزء العلوى من منزله ، والذى هو بمثابة المسكن الذى يعيشون فيه ، نظرا لرطوبة الأرض فى واحات الحجاز . وهنا تلى الصبى محمد على ضاهر الرسالة التى حمَّلها له الأغا ، ثم تناول الصبى محمد حبله المتين ولفه حول عنق ضاهر قائلا : "هذا هو أمر محمد على ، وأنه ينبغى أن يكون مسئولا عنى . حياة الساميين مليئة بالإشارات وعلامات من هذا القبيل ، ولها أيضا دلالاتها القيمة . والمسيحى سرعان ما يبتعد عن الطبيعة الخاطئة القديمة لينخرط فى درب حياة جديدة ؛ فهو يتناول الخبز والملح مع يسوع على مائدة الرب ؛ والإشارات التى من هذا القبيل يقال إنها ضرورية للخلاص . ضاهر هذا ، الذى له شفتان إثيوبيتان (حبشيتان) ، وشعر حبشى أيضا ، وكذلك عينان حبشيتان ، ولكن عوده مثل العود العربى ، يتفاخر بأنه شيخ تمتد سلالته النسبية إلى قبيلة حرب ، وهو يقول : إنه تولى الشياخة بعد والده ، طبقا لتقاليد الشياخة البدوية ، أى عن طريق الوراثة . ومبلغ علمى أن عدداً قليلا جداً من أهل قرية العلا ، هم الذين لا يجرى فى عروقهم خليط من الدم الإفريقى ؛ ومع ذلك ، يذكر أصحاب الدم المخلط هذه الحقيقة ، ويعزون سلالتهم النسبية إلى المستعمرين المغاربة ، وإلى قبيلة جهينة ، وقبيله حرب ، وإلى بنى صخر أيضا : ولكن المغاربة ربما يكونون هم أيضا زنوج مغاربة ، نظرا لأن اسم القبيلة العربية أو الأمة يعنى كلا من الحرية والقيد . والبدو الرحل يرون أن تلك الوجوه القذرة والملونة إنما هى نتاج للمناخ الذى يسود الوادى الذى يعيشون فيه . صحيح أن هناك مستوطنين خُلَّص من قبيلة حرب ، يعيشون فى الواحات الكثيرة الحارة ، التى

تقع فى المنطقة ما بين الحرمين ، ولون بشرتهم فى هذه المناطق يميل إلى الاسوداد ، شأنهم شأن الأفارقه تماما ، ولكن أصولهم عربية بحق .

مسألة إعادة استيطان الأرض وتأسيس قرية العلا يرجع إلى مجموعة تقدر بأربعين فردا من الدراويش البربر . كان هؤلاء الدراويش يتجولون على طريق الحج السورى ، بصحبة إمامهم الدينى ، قادمين من مكة والمدينة (المنورة) ، فأعجبهم هذا المكان المنعزل ، الذى عثروا فيه على بعض الأطلال الأثرية . وطلب الإمام من أتباعه انتظاره فى ذلك المكان ، إلى أن يعود بعد أداء الصلاة فى القدس ." ردوا عليه قائلين : كيف لنا فى هذا المكان الصحراوى ، بتحمل الحياة ، وليس فى هذا المكان ماءًا نشربه ؟ ". وهنا ضرب القديس الرمل بعصاه ، فخرج منه ينبوع من الماء ؛ هذا هو الغدير ذو الماء الدافئ الذى يروى قريتهم ويسقيها : كما ضربت عصا يعقوب جذورها متحولة أيضا إلى نخلة .

أقام ضاهر لى وليمة فاخره بشىء قليل من الأرز المسلوق ؛ وهذا بحد ذاته طعام متواضع من وجهه نظر البدو الرحل ليقدم فى وجبة العشاء لغريب من الغرباء : كما قدم لنا ضاهر أيضا قهوة من بن ضاعت نكهته كلها ، وبوجه كالح ، رجانى أن أقول له : إن كان ذلك البن صالح للشرب أم لا . ونحن نلاحظ فى حياة العرب أن المعوزين هم الأكثر كرما . والجوع يلازم الناس فى الصحراء ، من هنا فمن شهامة الرجال ونبلهم وضع الطعام وتقديمه لعابرى السبيل ، كان شيخ قرية العلى يجلس مرتديا عباءة (بشتا) قرمزى اللون ؛ والسبب فى ذلك ، أن من تقاليد الإمبراطورية العثمانية ، أن تعطى كل شيخ من الشيوخ بشتا أو إن شئت فقل عباءة من هذا القبيل ، باعتبار أن ذلك رمزا من رموز الحكومة . كان شيخ قرية العلا رجلا فطنا وذكيا ، ومسالمًا جداً فى كلامه وفى أحاديثه ؛ استطاع ضاهر أن يستشف من كلامى نوعية البلد الذى جئت منه . وهنا إنطلق فجأة صوت المؤذن قادما من مسجد القرية ، المجاور لنا ، وهنا بدأ شيخ العلا ، بقلب سليم ، يناسب عقيدة الإسلام ، يردد وراء المؤذن الكلمات نفسها التى كان يقولها نبى العرب ﷺ "الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ." وهنا تحول ضاهر ناحيتى ليراقبنى ، ليرى إن كنت مسلما أم لا ، وأننى إذا كنت مسلما فإن قلبى يتعين عليه أن يرقص على نغمات الزمّار : وعندما وقف

على برودى إزاء هذا الموضوع ، أكد له ذلك ما سبق أن توصل إليه ؛ والسبب فى ذلك أن ، أى مسلم سواء أكان صالحا أم طالحا ، لابد أن يتعلق قلبه بدين الرسول ، ولابد أيضا أن يصلى بإخلاص . وهنا قال الشيخ ضاهر : "إذا لم تكن مسلما ، فقل لى ماذا تكون ، يا خليل ، وأنا مثيل والدك ، أليست هذه قرية من قرى المسلمين ؟" كان يقول إن برية البدو ليست موجودة فى هذه القرية ، ولكن الحياة فيها حياة مسالمة متحضرة تقوم على الخوف من الله ، فى ظل الدين الحقيقى .

خرج الشيخ ضاهر لأداء الصلاه فى المسجد ؛ وبعد أن غاب برهة قصيرة ، عاد هذا الرجل الكبير ليجد زوجته الشابة ، وأم ابنيه الصغيرين ، جالسة فى مكانه أمام وجار القهوة ، وكلها شغف فى التحدث إلى رجل غريب ، وراح الرجل يوبخها كما لو كانت قد نسيت أدبها وتواضعها قائلا : "يا امرأة ، أنت تسببين لى مشكله كل يوم ، وأنا سوف أُسرِّحك !" ثم طلب منها أن تغرب عن المكان ، وتنتقل إلى ركن مظلم من أركان الغرفة ؛ وبهذه الطريقة يجرى حرمان زوجاتهم المسكينات من الدفئ ومن الضوء الذى يكون فى المقهى (غرفة القهوة) ، بأن يجلس الزوج وحده مع أصدقائه ، فى منازلهم ، هذا إن لم يكن أفراد تلك الصحبة من أقاربهم المقربين . فى نجد ، كما هو الحال فى خيمة البدو الرُّحل ، يكون هناك مكان للنساء . ومبلغ علمى أن الناس هنا لا يتزوج أحد منهم بأكثر من زوجة ، إلا فئة قليلة جداً منهم ، يضاف إلى ذلك أن كل هؤلاء الذين تعرفت عليهم هنا كانوا عبارة عن زوج وزوجة رقيقا الحال ، وعندما سألنى ضاهر بعد ذلك ، أجبته : "آمل ألا يسبب ذلك مشكلة لى عندما تعرف أنى واحد من الإنجليز ، الذين هم حلفاء للسلطان ، كما تعلم ، وأن هؤلاء الإنجليز هم نصارى ، وأنا بدورى نصرانى ، فهل هذا يغضبك أو يسيء إليك ؟ هناك نصارى كثيرون فى بلاد السلطان إلى حد أن اسطنبول تكاد تكون مليئة بالمسيحيين ". قال ضاهر : "يا خليل ! أرح نفسك هنا بلاعناء هذه الليلة ، وسوف نتبين ما يجب أن نفعله فى الغد ."

طلع النهار ، وأنا أتمشى فى شرفة المنزل ، وسمعت الأطفال وهم يصيحون من المنزل المجاور : "ها هو ، ذلك الذى لا يصلى ولا يصوم ،- إنه هو ." وهنا عرفت أن بعض الألسنة السليطة من الزمرة التى رافقتنا من الحجر ، قد أفشت سرى لهؤلاء الناس . وعندما سمعت ذلك الصياح ، كان من الأفضل لى الخروج من القرية ، نظرا

لأن الناس كرروا عليَّ مراراً حول وجار القهوة فى القلعة أن هؤلاء القرويين يتعصبون جداً لدينهم وأنهم على استعداد لقتلى . كان الشيخ ضاهر ، خارج المنزل فى ذلك الوقت ؛ ونظرا لأن حسن كان قد عاد إلى المنزل ، بعد أن أمضى الليل فى بيت القاضى ، فقد رافقته وخرجت معه من المنزل ، وواصلنا مسيرنا خلال الطرق الضيقة قاصدين مقهى القاضى ، وفى ذلك المقهى أفسح شاربو القهوة ، عن طيب خاطر ، المكان أمام الغريب ، وهنا تقدم من يصب القهوة ، وأعطانى فنجال الكرم ، جلسوا جميعا وقد علت وجوههم نظرات العلاونة الخالصة ، كما لو كانو يعانون من أعراض الحمى فى ظل مناخ بشع وفظيع ؛ وهذه هى روح أهل الحجاز ، وذلك على العكس من روح الشهامة والخفة التى يتمتع بها البدو الرُّحل ، أو إن شئت فقل : منطقة نجد من الجزيرة العربية . كان الشباب الصغار فى الخارج متعطرين ، ويتجولون هنا وهناك فى الشوارع بمناسبة يوم العيد ، ويستمر ذلك الاحتفال ثلاثة أيام ؛ وهاهى أظافرهم وكفوف أيديهم وقد خضبوها بالحناء الصفراء . وهذه من وجهه نظرهم شىء يميز الشبان الصغار ؛ والبعض من هؤلاء الشبان كانوا يصففون شعورهم ، التى تشبه شعور الغنم ، على شكل ضفائر أو جدائل صغيرة كثيرة ، ليست مثل جدائل البدو الرحل ، وإنما على الطريقة الحبشية .

شوارع البلده ضيقة جداً ولكنها فى منتهى النظافة ، غير أنها تكاد تكون مظلمة بسبب ارتفاع المبانى ، يضاف إلى ذلك أنه ليس هناك متسع فى الأدوار الأرضية ، لهوائها الساكن ، ولذلك يلجأ السكان إلى الغرف العلوية طلبا لتجدد الهواء . وعند كل باب من أبواب المنازل توجد مصطبة من الطين مبنية بالطريقة العربية ، حيث يجلس عليها أصحاب المنازل هم والمسافرون ، جلسة ودية "يشربون" خلالها الدخان (التبغ) . والناس هنا لا يرمون النفايات فى الشوارع ، يضاف إلى ذلك أن الكلاب غير مسموح لها بدخول المكان ، الذى أحسن بناؤه فضلا عن كونه أيضا أكثر انسجاما من أية قرية سورية أخرى . وقرية العلا ليس فيها أسواق مفتوحة ، ولكن البضائع الصغيرة اللازمة للاستعمال اليومى يجرى بيعها بعد شروق الشمس على نواصى الشوارع ؛ يضاف إلى ذلك أن القصابين يبيعون لحم الضأن ولحم الماعز فى فترة العصر خارج أسوار القرية : وكل فرد من أفراد قرية العلى يعد تاجراً فيما يتعلق بالفواكه والثمار التى تنتجها

أرضه ، أى فى وطنه وداخل منزله . وهذا هو حسن ، عندما عدنا للسير من جديد فى الشارع ، بدأ يصادف بعضا من خصومه القدامى ، وراح يتحداهم ويتصايح معهم ؛ هذا يعنى أن قلبه الكبير بدأ يتورم داخل صدره المغربى إلى حد أن أحداً من العلاونة (أى أهل قرية العلا) لم يقو على حتى مجرد وضع يده على البغل الأبيض "إستهدافا لتعطيل خدمة السلطان ." جلست وسط الجالسين على المصطبة ؛ كان الناس مسالمين ويتكلمون معى بطريقة ودية ، ولم يوبخنى أو يؤنبنى أى أحد منهم . وهنا حضر ولد ضاهر ليدعونى لتناول طعام الإفطار ، وبينما كنت فى طريقى لتناول الإفطار شاهدت نقشا حميريا منحوتاً نحتا جيداً ، على شكل حروف بارزة ، على شباك واحدة من الغرف العلوية ، وبينما وقفت لنسخ ، أو لنقل ذلك النقش ، لم يؤنبنى أحد أو يعترض على . وهنا اصطحبنى ضاهر بعد ذلك إلى مقهاه (قهوته) ، نظرا لأن كل شيخ من شيوخ القرى له قهوة من هذا القبيل ، يجرى خلالها تقديم القهوة فى أوقات معينة من النهار . المقاهى هنا عبارة عن غرف فى الدور الأرضى ، وغالبا ما تكون تحت الدرج (السلم) الذى يكون سكن المضيف فوقه .

البيوت كلها هنا مبنية من الحجر الغشيم ، الذى جرى جلبه من الخريبة ، ويجرى وضعه فى الغرين حتى يقوم بدور الملاط . وقرية العلا ، واحدة من القرى المسلمة المبنية من الحجر ، وبطريقة القدماء ، وبالرغم من أن العرب المسلمين يكادوا يكونون من بناة الطين ؛– وليس مرد ذلك إلى أن الغرين لن يمسك بالصخور . والعرب يصنعون العوارض الخشبية من شجر الإثل (واحده إثله) ، أو إن شئت فقل تلك الأشجار العالية التى يقال لها أشجار الطرفاء ، كما يصنعون تلك العوارض أيضا من فلوق النخيل ، وهم يصنعون الأبواب أيضا من ألواح النخيل بعد تسويتها بالبلطة تسوية بدائية . وفى وسط كل باب من أبواب المنازل توجد علامة (لم يستطع أى أحد منهم أن يشرح لى معناها) تكون مدهونة دوما باللون الأحمر ، أو قد تكون مسوَّدة بلون الفحم النباتى ؛ ويحتمل أن تكون تلك العلامة عبارة عن وسم من وسوم أجداد العرب الرحل فى هذه القريه . وفوق تلك العلامة يكتبون دوما آيه من آيات القرآن . أما مزلاج الباب ، وكما هو الحال فى الأماكن العربية كلها ، فهو عبارة عن قفل من الخشب . وترباس الباب يجرى حجزه عن طريق أسنان صغيره تسقط من أعلى لتدخل فى ثقوب فى

الأسفل ، ومفتاح هذا القفل يصنع من الخشب ، والبعض قد يصنعون ذلك المفتاح من المعدن ، بحيث تكون له أسنان تناسب ثقوب القفل : والمفتاح يوضع فى القفل من الأسفل ، ثم يجرى إدخال الأسنان فى الفتحات ثم يجرى بعد ذلك سحب اللسان فينفتح القفل . دخلت علينا جماعة من الناس ، أثناء رنين هون طحن البن ؛ كانت تلك الجماعة من أولئك الذين يجلسون على المصاطب فى الشارع لا شغل أو مشغلة . لم يغير أى واحد منهم سلوكه أو تصرفاته عندما شاهدوا المسيحى بينهم ، كانوا يتسامرون وتمر عليهم فناجيل القهوة ؛ ولكنهم بعد تناول القهوة قالو : "يا خليل ، ها أنت هنا آمن فى بلدة من بلاد الإسلام . الصحبة فى قريه العلا طيبة ، كما ترى ، وكل ما يحتاجه المرء يجده فى متناوله ؛ أليس من المبهج أن تعيش هنا ، بدلا من السكن مع هؤلاء العسكر فى الحجر ؟" كانوا يتكلمون بهذه الطريقة نظرا لأنه لا يوجد أحد ليست لديه فكره سيئة عن هذه القرية . هؤلاء البدو الرحل يشتكون ، كما هو الحال فى أماكن الاستقرار ، من الوخم ، أو إن شئت فقل : القذارة أو الدنس ، أو النفايات (بالرغم من التخلص منها خارج أسوار القرية) ، ومن الهواء الساكن ، كما كانوا يشتكون أيضا من رائحة العفن (الذى له رائحة الكبريت) التى كانت تفوح من ماء الغدير ، الذى لو شربوا من مائه حتى الارتواء ، فإنهم قد يخاطرون بالإصابة بحمى الواحة .

كان من المفترض أن أعود بصحبه حسن إلى مدائن صالح ، التى كنت أتطلع إلى العثور على طريقة من الطرق التى تعيننى على تقشير الواجهات العالية ؛ يضاف إلى ذلك أن الأغا سبق أن وعدنى بإعطائى عمود البئر القديم فى القلعة ، والذى يحتمل أن استعمله سلما لذلك الغرض . كان مفترضا أيضا أن استشعر الراحة الكبيرة والمتعة الكبيرة أيضا من مسألة بقائى لأيام قليلة مقبلة ، وتمضية تلك الأيام فى حوار ممتع فى بيارات الليمون بقرية العلا .- ولكن شاءت الأقدار أن يحزم حسن أغراضه ويرحل عن القرية . وعندما حمل رفاق القهوة متاعى إلى البوابة ، شاهدنا حسنا بالفعل وهو على بعد مسافة كبيرة منا : ثم حضر الصبى محمد ، ومعه عذره ، من بعدى . حمَّل القرويون حقائبى على البغل الذى كان محمد يقوده ، ولكنه ألقى بالحقائب على الأرض مرة ثانية ، وعندما أصدرت على تحميل الحقائب على البغل وجه هذا الصبى الجبان ، بندقيته إلى صدرى . وهنا طلب منى ضاهر ، عدم التعويل على ذلك الصبى التافه ،

وأنه سيقوم بنفسه بتوصيلى إلى القلعة ؛ ولما كان أفراد الحامية يحتقرون العلاونة ولا يقيمون لهم وزنا ، فإن العلاونة لا يضمرون الخير "لأنفار" الحامية . اتجهنا بعد ذلك إلى المنزل ، وهنا قال لى الشيخ ضاهر : "لقد نشأت بيننا الآن أخوةٌ ، وأصبحت ، يا خليل ، فى منزلة ولدى ."

وبينما كنا نجلس على المصاطب راحوا يسألونى بطريقه ودية ، وطبقا لنظرتهم إلى العالم عن أمور مثل : "ما مقدار الضريبة ، التى يتعين عليكم ، أنتم أيها النصارى ، أن تدفعوها للسلطان ،" وأجبتهم على ذلك السؤال قائلا : "سيدتنا جلالة الملكة ، إمبراطورة الهند هى أعظم سلاطين الإسلام (*) . وهنا سألونى : أليست الهند أرضا من أراضى المسلمين ؟- وا أسفاه ! راح الإسلام ! إذن ، ما هى ضريبة الرأس التى يدفعها المسلمون للحكام النصارى ، يا خليل ؟" وعندما أجبتهم بأن رعايا السلطانة جميعهم يتمتعون بحقوق مدنية متساوية ، بغض النظر عن جنسهم ، أو دينهم ، وجدوا أن ذلك أمرا طيبا ، نظرا لأن الأمر بهذه الطريقة سيكون لصالح المسلمين : لكن ، أستحلفك بالله ! أن تقول لنا ما الذى جاء بك إلى هنا ؟" - "لم إجيئ إلى هنا إلا لزيارة الحجر ." وأخذنى العجب أن أرى شعبا يقرأ القرآن ، وقد نشأ فى هذا الوادى المنعزل من الجبال الجرداء وسط هذه الصحراء الشاسعة ، يتصرف على هذا النحو ، وله مثل هذا الفهم فيما يتعلق بالمسائل المدنية ، ولكنهم ليسوا جميعا على هذه الشاكلة ؛ والأطفال هنا لا يتعلمون إلا من آبائهم : كل ما هنالك عبارة عن مدرستين أو ثلاث مدارس تتخذ من المساجد مقرا لها ، فى شهر رمضان . فى هذا البلد البدائى ، الساذج ، البسيط ، بعض أهل قرية العلا (التى يطلقون عليها فى معظم الأحيان اسم المدينة) من العلماء الكبار فى مجال القرآن . والنطق فى هذه المدينة مُسَطَّح مثل طبيعة هؤلاء البشر ، وهم ينطقون كلمة "الماء" el-mà على إنها كلمة "مىّ" me، مثل الكلمة الدالة على ثغاء الغنم . قال لى البعض منهم : "لغتنا هنا ساذجة وبسيطة ،

(*) الملكة فيكتوريا وصلت إلى عرش بريطانيا وأيرلندا فى عام ١٨٣٧ وفى عام ١٨٧٦ أضافت إلى لقبها لقب إمبراطورة الهند بعد أن نجحت بريطانيا فى السيطرة على معظم الأقاليم الهندية وتوفيت فى عام ١٩٠١ بعد حكم دام ٦٤ عاما . (المراجع)

نحن نتكلم لغة البدو ." ومبلغ علمي أن عربية الحجاز ، هى التى سمعتها فيما بعد على لسان بدو قبيلة حرب فى المدينة المنورة . وهم يرون أن قرية العلا هى "بداية الحجاز" .

وأهل العلا مخلصون للدين ، ومعتدلون ، ومتأملون ، وسياسيون أكثر منهم متشددين ، وكان محمد ﷺ على هذه الشاكلة ؛ ولكن أهل نجد ، من أصحاب الدم البدوى ، حادى الطبع ومتسرعين فى تشددهم ، هؤلاء الحضر (سواء أكانوا منحدرين عنهم أم لا) يتبعون المذهب المغربى ، أى أنهم من المالكيَّة . وقد رأيت الكثيرين ، ومن بينهم الشيخ ضاهر ، يدققون ويمتنعون عن شرب الدخان ، أكثر من كونهم رجال جديرين بالمنازلة أو إن شئت فقل : أنداداً .

قرية العلا لم يحدث أن أُخضعت على الإطلاق ؛ ومع ذلك فإن هؤلاء القرويين يفرضون على أنفسهم ، وعلى تمورهم ، وعلى حنطتهم وقمحهم ضريبة ، كل عام ، ويقدمونها عن طيب خاطر "للنبى" أى لمسجد الرسول فى المدينة ، وأهل العلا راضون ومقتنعون بما يقال عن إنهم أصدقاء للإمبراطورية العثمانية . وذات مرة ، فى أيام الحكم الوهابى القوى ، أى منذ حوالى خمسين عاما مضت ، جاء بن سعود ومعه جماعته وقطعة واحدة من المدفعية واحتل قرية العلا . وبقوا فترة من الوقت أمام تلك القرية ، ولم يستطيعوا مطلقا التعجيل باحتلال القرية ، نظرا لأنهم لم يفلحوا فى إطلاق النار من ذلك المدفع : هذا هو ما قاله الوهابيون ، "هذه إرادة الله ؛ إنتبهوا ! هيا بنا نغرب ونرحل عن هذا المكان ، لأن بقاءنا أمام قرية العلا لا جدوى منه ، ولا طائل من ورائه ؛" – ثم أداروا ظهورهم للقرية ، يقول البدو : "العلاونة واثقون من أنفسهم داخل مزارعهم ، ولكنهم خارج تلك المزارع يكونون أقل من النساء ." معروف أن واحة وادى قرّة Kurra Wady تبعد عن العلا حوالى ثلث ميل (أنظر الصورة رقم ١٣) . وادى قرَّة (قورة Kora) هو عبارة عن تلك الأرض المجوفة التى تبدأ من العلا إلى المدينة المنورة ، ويطلق الناس عليها هنا اسم وادى Wady الديدبان Deydibbàn؛ بالرغم من أن ذلك ليس واديا بمعنى الكلمة . إنه عباره عن مجارى مائية جافة لواديين ينحدران ، ويلتقيان عند المنتصف ؛ وهما على وجه التحديد وادى Wadyجزّل Jizzl، الذى ينحدر قادما من

تلك المناطق الشمالية ووادى الحمض Humth الذى ينحدر نازلا إلى المدينة قادما من الحنكية Henakîeh، ليمر من بين جبل أحد أو إن شئت فقل : جبل حمزة ومدينة الرسول .

يعيش العلاونة ، فى هدوء ، فى ظل حكم شيوخهم . وهذا هو الشيخ ضاهر ، حصل على المشيخه عن طريق الوراثة ؛ وهذا هو أيضا القاضى موسى الذى لا تقل سلطته أو قدره عن سلطة وقدر الشيخ ضاهر ؛ ومنصب القاضى ، هنا أيضا ، يكون عن طريق الوراثة ، ويتمثل عمله فى الحكم فى الخلافات التى تنشب بين العرب ، القاضى موسى ، الذى يستطيع القراءة ، كان محاميا شرعيا ؛ وقضاة القرية (وهذا أمر عجيب) لا يتعاملون مع موضوعات الرشاوى أو إساءه استعمال العدالة ، وإنما يتقاضون أتعابا صغيره نظير العمل الذى يقومون به . كانت روح صريحة وعادلة على نحو لا يشيع بين العرب ؛ كان بدو القبائل المترحلة ، يلجأون إلى موسى للبت فى خلافاتهم طبقا "لسيف الله"(*) ؛ هذا بالرغم من أن هؤلاء البدو لهم قضاتهم ومحكميهم وشيوخهم الخاصين بهم فى مضاربهم ، طبقا لتقاليد الصحراء وأعرافها . والقاضى فى مثل هذا المنصب هو الذى يحدد الحق فى الجرائم الصغرى ، وكذلك جرائم الدم (القتل) ، أو إن شئت فقل : الدِّيَة . القضاة يعيشون هنا فى هدوء ، ويحيط بهم البدو الأعداء من كل جانب ؛ والجريمة الإنسانية يصعب أن تنشأ أو تتكاثر فى مثل هذه التربة التى تنعم بالولاء والطاعة . والشباب فى ظل هذا المناخ القاسى يثوب إلى رشده ، ويندر أن تجد من بين هؤلاء الشباب من يفقد هدوءه بسرعة واندفاع . وعندما تحدث جريمة قتل أو أيه جريمه أخرى ، فإن القاتل وأقرب أقاربه يتعين عليهم الهرب من المكان . وبعد سبع سنوات يعود القاتل هو وأقاربه ويتفقون على الدِّية التى ينبغى دفعها .

كنت أتجول فى الشوارع ، فى قرية العلا ، دون أن يلقى لى أى أحد بالا ، وكنت أدون النقوش (وكلها هنا نقوش حميرية)، التى كنت أصادفها مرارا على أحجار البناء ، أو تلك النقوش التى كان يدلنى عليها الأشخاص الذين يحسون تجاهى بالود . قالوا لى

(*) الإشارة هنا إلى القرآن الكريم ، الذى يصفه المسلمون ، والبدو خاصة بـ " سيف الله " .

أيضـا ، إن هناك نقوشاً أخرى على الجدران الداخلية فى بعض المنازل . ومع ذلك ، كانت روح عدم التسامح والتساهل تمنع هؤلاء الأشخاص من القيام من على المصاطب التى يجلسون عليها ، عندما كنا نمر عليهم . وهنا كنت أتجول وحدى خلال الأسواق ، أو إن شئت فقل : أجزاء القرية المختلفه ؛ التى وصل عددها إلى أربع وعشرين سوقا أو منطقة ، والتى سمعت فيها كلها أصوات ضربات أيدى الهاونات التى تستعمل فى طحن البن ، (إشاره إلى مقهى شيخ المنطقة) ، وقد دخلت كل هذه المقاهى ..وكل مقهى من تلك المقاهى خاص بأخوة وحزب شيخ بعينة ، كما يجرى أيضا الترحيب فى تلك المقاهى بالغرباء ، الذين عادة ما يكونون من البدو الذين جاءوا للتسوق : يضاف إلى ذلك أن الجيران يجلسون يتسامرون "ويشربون الدخان" ؛ ولكن مقاهى الجيران وكذلك قهوتهم تكون أقل ، والسبب فى ذلك أن الجميع فى قرية العلى يميلون إلى الاقتصاد فى نفقات معيشتهم . والملاحظ على الجميع هنا ، أن العلاونة يمشون فى شوارعهم وهم مسلحون ؛ – وربما يرجع ذلك إلى زمن كان الحضر يشكلون فيه قلة قليلة من الأعراب . وهم يمضون مسلحين لأداء الصلاة فى المساجد ؛ وكبار السن يحملون سيوفهم أو رماحا قصيرة فى أيديهم ، أما فقراء الحال فيسيرون وهم يحملون عصى من خشب السنديان أو إن شئت فقل : من خشب البلوط ، وهم يطلقون على تلك العصى اسم "النّبُّوت"(*) أو "الشون "Shûn(**)وهذا هو السلاح الشعبى فى الحجاز ، كما أن هناك بعض الأحياء أو المناطق المتمردة فى مكة ما تزال تسير وتراعى تلك التقاليد القديمة (بالرغم من قداسة الأرض والحاميات التركية القوية) الخاصة بتكسير الجباه والعظام على مدار العام ،– وهنا يتعين على الجنود التدخل لفض تلك المظاهرات والاشتباكات . معروف أن مضرب القتال هو سلاح سامى قديم : وقد ورد ذكر عصى (عكاكيز) اليد فى الكتاب المقدس فى إصحاح صمويل وحزقيال . وورد فى الكتاب المقدس أيضا أن عصابة من فسقة ، جهنم التابعة لكبير القساوسة جاءت هى وعصابة المواكب ، مسلحين إلى الحديقة ، ليأخذوا يسوع بالسيوف والعكاكيز (***) . والناس

(*) النبوت : كلمة عربية فصيحة تطلق على " العصا الطويلة المستوية " . (المترجم)
(**) الشون : صحيح هذه الكلمة هو " الشوم " وهو نوع من الخشب الصلد . (المترجم)
(***) العكاكيز : كلمة عربية فصيحة ، واحدها " عكاز " وهو " العصا التى يتوكأ عليها " . (المترجم)

هنا فى قريه العلا ، عندما يدخلون المساجد يتركون نبابيتهم مسنودة إلى جدار المدخل الذى يخلعون فيه نعلاتهم : ورؤية تلك النبابيت هى والنعلات عند باب أى منزل من المنازل ، إنما تكون مؤشرا للغرباء على أن ذلك المكان مقهى من مقاهى قرية العلى . والناس يفرشون هنا أرضية تلك المقاهى بنوع من الحصير المصنوع من سعف النخيل ، الذى تجدله أو إن شئت فقل : تُضفِّره النساء فى مستوطنات النخيل كلها ، كما شاهدت أيضا انتشار تعليق الدرع أو الترس الذى يطلقون عليه اسم "الدَّراجة" Darra-ga عند أول سلم المنزل ، الذى دخلته ؛ وهذا الاستعمال قاصر على الحجاز وحده ، ولكنى لم أشاهد ذلك الترس أو الدرع فى أعالى الجزيرة العربية . ملامح هؤلاء الذين يشربون القهوة توحى بأنهم من أكلة التمر ، وأنهم لا يرتدون ثيابا جيدة . وهذا هو منديل (غترة) البدو سائبة فوق رؤسهم ، أو إن شئت فقل ، ليست محكومة بالعقال ، – الذى يعد علامة الوقار فى الزى العربى . وهذه هى السترات المصنوعة من الخام الأبيض وقد تجلدت وتصلبت فوق ظهورهم بفعل الغبار والعرق ؛ وسبب ذلك أن الصابون (الذى يأتى من سوريا) يعد أمرا نادرا وعزيزا وشحيحا أيضا عند العلاونة . ولاحظت أيضا أن طنين الذباب فى قرية التمر ، فى فصل الشتاء ، أقل منه فى صخور القبور فى قرية الحجر .

الجد ، أو إن شئت فقل جد آل – على ، (وهو طبقا للأعراف السامية ذلك الشخص الذى يكون له جلاله ومهابته عند كل شعب من الشعوب ،– من هنا وجه أهل الجزيرة العربية لى السؤال التالى : "من هو جد الإنجليز ؟) الذى يطلقون عليه اسم العلوِّى Allowîy، الذى قام شعبه بطرد بنى صخر . كانت تلك القرية يطلق عليها فى ذلك الزمن اسم بيت Baith نعام Naam، وبعض آخر يقول لها شعب Shaab النعام en-Naam . وفى مرحلة لاحقه اكتشفوا أن تلك القرية مدونة فى جلود الرق القديمه على إنها بندر Bundur عولانشى Aul?nshy (علوشى) Alûshy أو بندر Bundur علوط Alût . ويقال إنه ماتزال هناك إلى يومنا هذا بعض العائلات البدوية من بنى صخر ، الذين يحصلون على نصيبهم السنوى من قرية العلا . ومعروف أن نزوح القبائل البدوية عن مكان ما إنما يكون بسبب الجفاف أو الحرب ؛ هذا يعنى حدوث تغييرات كبيرة وجوهرية ، خلال قرون قليلة ، فى مسألة احتلال البدو لمناطق الجزيرة العربية .

بعد يومين من مجيئى طلع الصباح علينا برعده وأمطاره ؛ التى استمرت حتى صباح اليوم التالى : لم يشهد الناس أمطارا كتلك الأمطار على امتداد ثلاث سنوات . كانت الغرفة التى أقيم فيها هى الغرفة العليا من منزل الشيخ ضاهر ، شيخ قرية العلا ؛ ومعروف أن كل واحد من أكابر قرية العلا له بيتان أو ثلاثة : - بيت يسكن فيه بنفسه هو وزوجته ، وكذلك ربما يكون له منزل آخر لأطفاله من زوجة أخرى ، أو قد يكون منزلا لولد متزوج ، ثم منزلا ثالثا يستعمله كمستودع . كانت جدران غرفة الشيخ ضاهر العليا مزينة ببعض المشغولات الدقيقة المصنوعة من ليف النخيل ، ومزينة بأربطة حمراء اللون وأصداف البحر الصغيرة ، (وهذا طابع أفريقى بكل تأكيد لأنه لا يتفق مع الفضول أو التطلع العربى !) ؛ كما كان فى الغرفة حصير مصنوع أيضا من سعف النخيل ، يطلقون عليه اسم "السُّفرة ، ويضعه القرويون العرب ، عند تناول الطعام ، أسفل صوانى الطعام ، وأنا أرى أن روح الدعابة التى يتمتع بها أهل الحجاز إنما هى روح إفريقية . هنا ، فى العلا ، تقوم صناعة ، تمارسها عائلات القرية ، وتقوم على نسج عباءات (بشوت) صيفية خشنة بيضاء اللون من صوف البدو ، ويطلقون على تلك العباءات اسم "بردان" . berdan

سكان الجزيرة العربية يقيمون فى أرض جرداء عامرة بالجوع ، ليس فيها من طعام سوى من التمر ، الذى يتعين عليهم أن يأكلونه فى الوديان القليلة التى تعتمد على عملية الرى . هذا التمر يعطى طاقة زائدة ، وهو مزعج ويثير الاضطرابات البدنية فى ظل هذا المناخ الخانق ساكن الريح ؛ يضاف إلى ذلك ، إن شدة حلاوة ذلك التمر تصيب بالتخمة ولا تفيد منه العضلات أو العظام ؛ ومن هنا فإن من يعيشون على ذلك التمر توحى وجوههم بالضعف ، وبخاصة أهل القرى النجدية ، فى الوقت الذى نجد فيه أن وجوه أولئك الذين يتغذون ، من بين أهل الواحات ، تغذية سليمة ، توحى وجوههم بالبشر والسرور : ومن يلقى نظرة سريعة على هؤلاء السكان يستطيع أن يميز من بينهم أولئك البدو الذين يشربون الحليب . وفى المناطق التى يعيش الناس فيها على التمر فقط ، وهذا من وجهه نظرهم ، تجد الطبيعة البشرية متحللة ، أى أن الناس يكونون ضعافا ، وهم فى تلك المناطق يشربون مياها جوفية دافئة ، يندر أن تكون صحية فى تلك المناطق من العالم . وأنا لم يسبق لى أن شاهدت فى أى مكان من

الجزيرة العربية مثيلا لتلك التعبيرات التى تظهر على وجوه الناس هنا (والمختلطة بالدم الزنجى) فى قرية العلا ، مع أن تمر العلا يعد واحداً من أنواع التمور الممتازة فى البلاد كلها ، عجبا لتشوه العظام ! فالجزء العلوى من الوجه غائر ومستوى ، كما أن الفك يشبه فك الحيوان ولا ذقن له . ومع ذلك هناك بعض الأسر نقية الدم ، وهم أصحاب بشرة تميل إلى الابيضاض ومتوردة ، والقاضى موسى واحد من هؤلاء ، وقد انحدر هو وخلفه من بنى صخر . ووجوه هؤلاء الناس فريدة إلى حد أنى أستطيع تمييز أى واحد من العلاونة ، حتى عندما لا يكون مرتديا عباءته (بشته) البيضاء ، من بين جموع الناس فى سوق دمشق المكتظ بالبشر .

نساء قريه العلا منقبات ، وهن يعشن فى ظل استبداد أزواجهن (المغاربه أو الحجازيين) ؛ وثيابهن الطويلة الواسعة محملة بأصداف لامعة يأتين بها من قرية الوجه . كانت نساء معارفى ، اللاتى شاهدتهن وهن شبه منقبات فى بيوتهن ، تبدو الوضاعة على وجوههن ، كما كن تبدين غير ناضجات ، ولا يبدو على وجوههن بشر الأنوثة . وخزام أنف المرأة السامى هنا ، وهو من قبيل الخزام الذى أحضره كبير خدم (سيدنا) إبراهيم إلى ربقة Rebekah(*) الجميلة ، (وقد حرك ذلك غضب النبى إشعيا على رؤية تلك الأخزمة فى الوجوه الجميلة لأهل مدينته ،) هذا الخزام هنا ، فى قريه العلا ، واسع مثل فوهة فنجال القهوة ، والمرأة تعلقه فى فتحة أنفها اليمنى وتعلق فيه قطعا صغيرة من العملة الفضية ؛ وجباه هؤلاء النساء مزينة أيضا بمجموعات من النقود الفضية ، التى يضعنها فى خصل شعورهن . هذه القطع النقودية ، تجعل تلك النسوة ، كما هو حال بنات القدس ؛ تجلجلن أثناء سيرهن ، وهن يعطرن ثيابهن ؛ ورائحة العطر نفاذة تظل فى الشوارع التى يتصادف مرور النساء فيها . والنساء تحذرن الكلام الكثير مخافة تعنيف الرجال لهن : والبنات الصغيرات تلبسن عقوداً مستديرة من الأصداف تتدلى فوق صدورهن ، يضاف إلى ذلك أن رءوس هؤلاء البنات الصغيرات تجمل بخيوط وعناقيد من النقود الفضية الصغيرة .

(*) Rebekah : ربقة أو رفقة وهى زوجة سيدنا إسحق عليه السلام . (المراجع)

وبينما كنت أسير فى الشوارع ، كان الرجال يوبخون الصغار ، عندما يصيحون وهم ينادون قائلين : "ها هو النصرانى !" . وكنت كلما جلست فى مقهى من المقاهى ، كنت أسمع الناس يرددون فيما بينهم عبارة مريحة تقول :"كل واحد على دينه" . كانت الشخصيات الكبيرة ، تتحاشى توجيه الأسئلة إلى الغريب ، مخافة أن يكشفوا عن جهلهم ؛ ولكنهم كانوا يتظاهرون بعدم الانتباه عندما كان العامة يسألونى عن أشياء كثيرة ، منها على سبيل المثال : "بالله ! ألا توجد فى البحار المسيحية ، أرض يربون فيها السود ليأكلوهم ؟" روى شخص سبق له أن زار دمشق ، أن المسيحيين فى مناسبة عيدهم الذى يجيئ فى منتصف الشتاء (عيد الميلاد) كانوا يقدمون مسلما قربانا ؛ ولكن آخرين الذين سبق لهم زيارة الشمال ، عارضوا هذا القول ، قائلين له إن الأمر لم يكن كذلك . قال بعضهم : "النصارى ليس لديهم غلا من هذا القبيل نحو المسلمين ، وإنما اليهود الذين لديهم مثل هذا الغل ؛ اليهود من عبدة الأوثان ودينهم دين سرى ." قال آخر : "لا ، ولكنهم يعبدون الثور (أى عجل قارون .)" قلت لهم : "اليهود لديهم شريعة إلهية جاءت على يدى (سيدنا) موسى ، وهى التى تسمونها التوراة ، وهم يعبدون الله وحده ." وردوا على : "إذا كان الأمر كذلك ، فهم على حق ، ولكن اليهود جنس ملعون ، وهم يقتلون المسلمين فى السر ."

الفصل السادس

العلا . والخريبة . والمدائن

وصول أحد اليهود إلى العلا . نفى باشا تركى إلى هناك . غدير الواحة الحار . البساتين . السكان . وفرة الأرز الذى يأتى من الوجه . حديث ضاهر . أبو رشيد . شعار عربى أجوف مبتذل . ممارسة الطبابة . التشدد فى الحضر . تجوال العرب فى أنحاء أفريقيا منذ زمن بعيد . مسيحى (هارب) تحول هنا إلى مسلم . الخريبة واحدة من قرى الهجرة . المقابر والنقوش الحميرية . المبيعات . كورْة . عنترة ، الشاعر البطل . رقة ضاهر ودماسته . العودة إلى المدائن . عنف محمد على . أعذاره . عارضة السلم فى قياس الآثار . مرثيات شواهد القبور . المطر فى بلاد العرب . الطيور المنحوتة . الأقنعة البشرية المنحوتة . الشرق السامى أرض الأضرحة . الدفن الإسلامى البسيط . "جانبا الحفرة" عند إشعياء وحزقيال . طريقة الدفن عند الأنباط . كنز مغلق فوق صخرة حوراء ؛ إزالة الصخرة يعنى مجيىء نهاية العالم . ساحر مغربى لرفع الكنز المخبأ . معجزات الشرق . مسيح سورى فى دمشق . زيارة بيت الحمقى . صوت الجمل التجديفى . قبر النبى يونس . ضعف القرار الأوروبى بسبب التجوال فى الشرق . الأنهار والمياه . وصول النجّاب . الحياة الأسرية الأوروبية والإسلامية . كل مشكلات الدنيا سببها الحريم . يثقون بالنصارى أكثر من ثقتهم بأنفسهم . اللصوص البدو فى الحج . إنذار ليلى . الحباليص أو اللصوص المشاة . الإنذارات تحيط بنا دوما . تقويم الحريم باستعمال العصا .

سمعت هنا ، من كثير من الأشخاص الثقات ، أن يهوديا جاءهم ذات يوم منذ سنوات عدة ، وهم يظنون أنه جاءهم من ناحية الساحل ؛ بعض آخر يقول إن ذلك اليهودى جاء من القدس . وقالوا إنهم استحسنوا خطاب ذلك الشخص الغريب ؛ نظرا لأن ذلك اليهودى كان يتكلم العربية ، وأنه كان ضليعا وطليق اللسان فى تلك اللغة العربية : سمعوا من ذلك الرجل أيضا كثيرا من الأشياء العجيبة عن الكتاب اليهودى المقدس ، "وأن تلك الأشياء لم تكن بعيدة عن أفكارهم ، وتتفق مع كثير من مواضع 'كلمة الله' ." يضاف إلى ذلك أن بعض الشخصيات الرئيسية قامت بدعوة ذلك اليهودى إلى تناول الطعام معهم ، ويقال أيضا : إن اليهودى ذهب فى يوم من الأيام لزيارة مدائن صالح ، وعاد ليقول إن تلك الآثار القديمة هى من آثار النصارى ، (فاليهود والمسلمون ليس لديهم فضول أو تطلع طبيعى إلى العمارة) . ولم يستطع أولئك الذين رعوا كل ذلك أن يخبرونى بما حدث لذلك اليهودى ؛ ظن البعض أنه غادرهم إلى خيبر . ثم تحدث إلىّ بعد ذلك شيخ قرية تيماء ، عن شخص غريب مر بتلك القرية منذ سنوات قلائل ، وأن ذلك الشخص أقام معه فى بيته يوما أو يومين ، "وأن ذلك الشخص لم يكن يسافر فى يوم السبت ." وعندما وصلت بعد ذلك إلى قرية خيبر ، حدثنى أهل هذه القرية عن يهودى ، جاء إلى خيبر قادما من قرية العلا على حد زعمهم ، نظرا لأن العرب ، الذين يهملون فى الحاضر ، يشيع عنهم أنهم يتقاعسون تماما عن الزمن الماضى . 'أقام الرجل فى قريتهم (وديارهم) بحثا عن كنز من الكنوز ؛ وقيل إنه اكتشف أمره مع إحدى نساء القرية ؛ ثم مرض ومات' ، ولم أعرف منهم كيف مات ذلك اليهودى ؛- ربما لم يقولوا لى الحقيقة . وعندما طلب منى شاربو القهوة أن أروى لهم شيئا طيبا عن دينى ، قلت لهم : "أكرموا أباكم وأكرموا أمكم ،" وانشرحت صدورهم تماما بذلك الكلام . وبالرغم من أن هؤلاء الناس كانوا يقظين ومتدينين ، إلا أنى شاهدت لعب الورق يسود وينتشر بينهم ؛ وقد انتشر لعب الورق هذا إلى الحجاز وقراه قادما إليها من مقاهى الحضر من ناحية ومن ثكنات الجنود الماجنين فى المدينة (المنورة) . وفى المدينة المنورة . يجرى تعاطى الرأك ، ذلك النوع من القنّب الفظ عن طريق التدخين ، والإفراط فى الحياة البذئية .

اهتم ضاهر بى اهتماما كبيرا بعد أن علم أن مسئولى الحج جعلوا رعاة القلعة مسئولين عن أمنى وسلامتى . كما تذكر ضاهر ، واحدا من الباشوات ، انفضح أمره فى اسطنبول :- عندما طلب السلطان فى جزء قصى من ممتلكاته طرد أو إبعاد ذلك

الباشا من الدنيا إلى الأبد ؛ردوا عليه قائلين : "إن هناك خلف سوريا واحة صغيرة من واحات النخيل تقع بالقرب من طريق الحج ، في أرض البدو Beduw ". أبعدوا ذلك الباشا المسكين إلى قرية العلا بصورة مؤقتة ، وأقام مدة عامين في منزل شيخ قرية العلا ، أي والد ضاهر الشيخ الحالي . وبعد هذين العامين تذكر السلطان عطفه القديم ، وأرسل في طلب ذلك الباشا المنفي وأعاد له اعتباره ، وأمر السلطان بضرورة إعطاء شيء من المال لشيخ قرية العلا ، كما أصدر فرمانا إمبراطوريا يقضي بإعطاء ذلك الشيخ لقب "فاعل خير للإمبراطوريه"

بيارات النخيل ، هي وغيطان القمح ، في كل أنحاء وادي القرى(*) تُسقى من غدير ماؤه دافئ ، ومن بعض العيون الأخرى التي تتفجر في وسط الواحة ، ومياهها كلها مالحة الطعم وعسرة ، ولها رائحه نفاذه ، مثل رائحة الكبريت التي تفوح من عين الماء في بالميرا . وجدت في كل تلك العيون ، أصدافا من نوع واحد ، كما عثرت في جانب ذلك الغدير على نمو كبير من نوع من أنواع إسفنج الماء العذب . وجدت أيضا أن درجة حرارة قناة المياه الجارية ، التي يصل عمقها إلى حوالي قدمين ونصف القدم ، كانت بصفة مستمرة ٩٢° فهرنهيتية ؛ كان ذلك في القرية على بعد مسافة تتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة خطوة عن مصب ذلك المجرى المائي ، وحوالي ثلاثة أضعاف هذه المسافة عن المنبع . هذا المجرى تفوح منه رائحة نتنة طوال فترة برودة الصباح : وأهل القرية يغتسلون من ذلك المجرى ، عندما يذهبون إلى المساجد لأداء الصلاة ، كما أقام أهل القرية هنا أماكن مغلقة للاستحمام ، خاصة بالنساء . وجدت أن ارتفاع الواحة مساويا لارتفاع الأرض في دمشق ! ولم يكن بوسعي الوقوف على ذلك لولا وجود آله القياس ، ولكن العرب كانوا يخمنون ذلك الارتفاع ، كان من رأي الحاج نجم دوما أن سهل مدائن صالح لا بد وأن يكون أعلى بقليل من مستوى تربة دمشق . ولكن النخيل البعيد الذي يكون فوق مستوى العيون ، يجري ريه من حفر يحفرها الناس ويصل عمقها إلى

(*) وادي القرى : يقع هذا الوادي بين العلا والمدينة المنورة ، ويتصل به وادي جزل في الشمال ووادي حمض في الجنوب . ويشتمل الوادي على عدد من القرى . (المراجع)

حوالى سبعة وعشرين قدما فى الرمل فى حين يصل اتساعها أو عرضها إلى حوالى عشرين قدما . ويجرى جلب المياه الجوفية ، التى هى أبرد من المياه السطحية ، ومالغة المذاق ، عن طريق الأبقار الصغيرة ذوات الأسنام .

يجرى هنا الاستفادة من بساتين النخيل والليمون الحلو . ويجرى هنا حفر الأراضى المرتفعة الواقعة على جانبى الوادى إلى أعماق سحيقة حتى تصل إلى مستوى مياه عيونِ الرى ، ترتب على ذلك ارتفاع مستوى الممرات العامة كما لو كانت جدرانا عريضة تفصل بين تلك المزارع ، ورءوس النخيل الجميلة التى تنتشر هنا وهناك ، والتى لا تبدو طويلة أو مرتفعة فى هذا المكان ، وإنما تبدو كما لو كانت ترتفع من مجرد سطح الأرض ليس إلا . وهناك الكثير من جذوع النخيل التى تنبت من ساق واحدة ؛ وهذا النوع من النخيل عبارة عن فروخ قديمة نمت بعد سقوط النخله الأم . والناس هنا فى الحجاز يبيعون ليمونهم الحلو المنعش للحجاج : والمساومة على أسعار الثمار والفواكه (لأنها ليست من الطعام أو التمور) أمر غير مقبول فى المنطقة الغربية من نجد . والبرتقال غير معروف هنا ، على حد علمى ، فى الجزيرة العربية . أما الأعناب فهى ليست كثيرة هنا ، غير أن كل عائلة لديها شجرة أو شجرتين من أشجار العنب ، التى لا يشذبونها مطلقا ، والتى تتسلق الأشجار ، أو فى تعريشات ، حتى ينعم الناس بظلها فى منتصف الصيف . والناس هنا ، ليس لديهم من فواكه النوى سوى البرقوق ، بالرغم من أن بعض شباب قرية العلا يقصدون دمشق كل عام ويزوروها ، حتى يستأجرهم أهل دمشق للعمل فى الزراعة . وهم يزرعون فوق الأرض هنا ، كما هو الحال فى قرى الجزيرة العربية ، نوعا من اليقطين ، يطلقون عليه اسم الدباء dibba، وهم يخلطون ذلك القرع العسلى (اليقطين) ، كما لو كان لحما سمينا ، مع العصيدة الضعيفة ، وهم بذلك يعتقدون أن العشاء الذى يكون من هذا القبيل يصلح تقديمه للضيوف . ومن الجميل حقا أن يشاهد المرء كل هذا الحمل الأخضر على التربة التى هى عبارة عن قاع من الغرين (الطمى) ليس إلا ، ومن الرمال الصحراوية المنقولة . وهم يستعملون قلة قليلة من الحمر الضعيفة فى عملية النقل والحمل إلى جانب استعمال الأبقار ذات السنام فى أعمال الزراعة ، وكل أسرة يتحتم أن يكون لها عنزة أو اثنتان للحليب فضلا عن الدواجن . والقرية بكاملها لم يكن فيها سوى حصانين فقط ؛

فما فائدة حيوانات الحرب عند أناس غير محاربين ؟ والعلاونة لا يدفعون "خوة" للبدو فداء لقريتهم ، التى لا يبرحونها أو يغادرونها مطلقا ، إلا إذا كانوا ، منضمين فى مرة من المرات إلى قافلة الحج ، قاصدين الأماكن المقدسة ، أو ملتحقين بالقافلة نفسها عند عودتها إلى سوريا .

الواحة المنزرعه كلها لا تزيد مساحتها على ما يقرب من ميلين ، والقرية ضيقة ، وتقع على جانب الطريق ، أسفل الحرَّة . ومن فوق تلك القمم الصخرية ، أرى وأشاهد منازل القرية كلها والتى أقدرها بحوالى أربعمائة منزل . وقد قدرت عدد سكان هذه القرية بحوالى ١٣٠٠ نسمة ، ومع ذلك فإن أهل القرية أنفسهم يقدرون عددهم بما يتراوح ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ نسمه ! والبدو يقولون إنهم حوالى ١٥٠٠ بندقية ، وهذا حسب ما استقيته من اعترافاتهم يعد رواية صحيحة تؤكد أن عدد سكان القرية هو ١٥٠٠ نسمة ، هؤلاء السكان يزرعون من النخيل ومن أراضى القمح ما يزيد على احتياجاتهم ؛ وهم يبيعون ذلك الذى يزيد عن حاجتهم إلى البدو نظير النقود ، ويقال أيضا إن هناك الكثير من الريالات المكنوزة داخل القرية . والناس هنا يتناولون مع التمر كمية كبيرة من الأرز الهندى الذى يجرى إحضاره إلى هنا فى جوالات من قرية الوجه el-Wejh (الذى يقولون لها أيضا "الوش" el-Wésh)، تلك القرية التى تقع على شاطئ البحر الأحمر ، والتى تعد سوقًا للأرز فى الركن الشمالى الغربى كله من الجزيرة العربية ؛ هذا الأرز الذى يصل إلى العلا يباع مرة ثانية للبدو الرحل . والسماسرة فى هذه العملية هم من بدو البِلِّى : وناقل الأرز البدوى Beduwy يأخذ حمله من الأرز من تجار قرية الوجه ، بواقع جوالين لكل جمل من الجمال ، نظير عشرة ريالات لكل جوال . وفى قرية العلا ، وبعد ستة محطات أو إن شئت فقل : رحلات ، يقطعها ناقل الأرز خلال ديرته الآمنة ، يستطيع ذلك الرجل بيع الجوال الواحد من الأرز نظير ما يتراوح بين ستة عشر وعشرين ريالا ، أو قد يعود ذلك الناقل ، من تلك السوق الرخيصة ، بحمل من التمور الموضوعة فى بالات مصنوعة من سعف النخيل ، ومع ذلك فإن البدو الفقراء لا تجذبهم تلك المكاسب التى تعود عليهم من هذه الصناعة الأمينة ، كما أنهم لا يعيرون الطريق اهتماما طالما أن لديهم ما يأكلونه مع أسرهم فى المنازل . ونحن نرى فى العلا أبسط شكل من أشكال الاتجار وتبادل السلع . وسعر الأرز فى المناطق الداخليه يرتفع بسبب

تكاليف النقل بالإبل ، والذى يصعب الحصول عليه حتى فى قرية تيماء . والبدو فيما وراء قرية العلا يستعملون الأطعمة المصنوعة من القمح أو دقيقه ، أو قد يجلبون أرز الأنهار الذى يطلقون عليه اسم التِّمن Temmn من بلاد الرافدين . وتمر الحلو ، من بين تمور قرية العلا ، هو الذى يطلقون عليه إسم الحلو ، وهو من النوع الطرى ، وتصل حلاوته إلى حلاوة عسل النحل ، ويجرى وضعه فى زنابيل قديمة يطلقون عليها اسم 'شنًّا' Shenna أو 'مجلَّد' Mujellad؛ وعندما يبدأ تمر الحلو فى الجفاف يتبلور . ويجرى كل عام نقل الكثير من زنابيل ذلك النوع من التمر بصحبة الحج السورى ، يضاف إلى ذلك أن تمر قرية العلى العسلى يقدم تحية للضيوف فى بيوت المسلمين ، فى دمشق . وتمر البرنى ، وهو نوع من التمر الطويل الشاحب أو الباهت اللون ، هو بمثابة الطعام المحلى رخيص الثمن ، وهو متوفر فى شكل أنواع عدة ، وقرية العلا محاطة بسور أسفل الحرَّة التى تحجب عنهم رياح البحر الصحية أو إن شئت فقل : رياح البحر الغربية ؛ والقرية مفتوحة من ناحية البساتين . والقرية لها بوابتان رئيسيتان ، إضافة إلى بعض الأبواب من ناحية الصحراء ، وقد رأيت أن الأعمال الخشبية كانت مدمره فى الوقت الذى زرت فيه قريه العلا ؛ فقد وجدت أن تلك الأبواب لم تكن تغلق على الإطلاق .

كانت الأمسيات تطول حول وجار قهوة ضاهر ، التى لم يكن يتردد عليها ضيوف زائرون . كان ضاهر كيِّسًا ومقنعا فى أن يسألنى عن الموقع الذى أشغله فى بلدى ؛ وعندما وقف على اهتمام الإمبراطوريه العثمانية بى ، لم يتمكن من معرفه نوعية ذلك الرجل الذى تحت عباءتى العربية . وأمام إصراره أجبته قائلا : "أنا لا مهنة لى غير الفلسفة(*) ، ومن الأفضل الانسحاب من القرية إلى الصحراء الهادئة التى يخيم عليها السكون ." "وهل هذه الفلسفه هى التى أحضرتك إلى هنا وحدك إلى قرية الحجر ، فى الوقت الذى من الأفضل لك أن تكون فيه فى بلدك ،- بدلا من أرض الأعراب الخطرة ، لتعانى من المرض ؟"- "لماذا نخشى الموت أو الحياة ، وهما مكتوبان لنا على الطريق القويم ؟ والقلب عندما يطمئن تهون الأمور كلها ." - "إنه كلام ، يا ولدى ؛ ومهمتك

(*) وردت الكلمة الدالة على " الفلسفة " باللغة اليونانية فى ثنايا النص الإنجليزى . (المترجم)

واحدة من المهام العبثية التى لا طائل من ورائها ، والسبب فى ذلك أنك بعيد عن الطريق ، ولست داخلا فى زمرة الدين المنقذ ." لم يستطع الشيخ ضاهر التغلب علىّ عندما قلت له : "إن سليمان والد داود"، أو عندما امتدحت الفلسفة ، وهى كلمه أخرى تحظى عندهم بالتقدير ، أو عندما زعمت له أن العلم الواسع فوق كل مباهج الدنيا . "سألنى ضاهر ، وما هو الداعى إلى كل هذا العلم ؟ إن كل ما يلزم هو شىء واحد ، أن الإنسان يتعين عليه أن يعرف أن الله إله واحد ، وأن محمداً رسوله ؛ وكل ما عدا ذلك لا فائدة منه أو جدوى له . ألم يكن من الأفضل لك ترك كل هذه المباهج ، وتعتنق عقيدة الإسلام ؟ وتبدأ من الآن فصاعداً تعيش حياة الاستقامة وتسير فى طريق الدين القويم ، الذى سيكون فى صالح سلامتك الروحية فى النهاية ." وهنا ابتسم ضاهر ابتسامة يعزى بها نفسه ، ثم تنهد ونظر إلىّ نظرة تنم عن تشبثه بموقفه ؛ وراح يختصر فى حديثه الدينى كما لو كان واحداً من المناوئين .

كان فى قرية العلا تاجران دمشقيان جاءا من حى الميدان ، ومعهما بعض الأقمشة التى كانا يبيعانها للبدو فى موسم الحج . وذهبت إلى هذين التاجرين ، بناء على طلبهما ، لتمضيه فترة المساء معهما . كان التاجران أبناء لأناس قدامى كانوا قيمين على القلعة فى وقت من الأوقات ، فى مدائن صالح . أحدهما ، الذى يدعى أبو رشيد كان قد سافر إلى مصر ، وكان بوسعه أن يحكى أعاجيب عن مدن كبيرة كانت تضاء بالغاز ، ويحكى أعاجيب أيضا عن شبكات للمياه وسكك حديدية ، وكلها ، حسب توكيده ، من صنع الإنجليز الذين امتدحهم على إنهم أكثر الأمم عبقرية واستقامة بين الأمم الإفرنجية . وهو سوف يلحق ولده ، حسبما قال لنا ، بالمدارس الإنجليزية فى سوريا هذا العام : - وشهية هؤلاء العرب المسلمين فى الوقت الراهن تنصب على التدريب الفنى الجديد (الذى يظنون أنه الشىء الوحيد الذى ينقصهم عن أوروبا) . تناول أبو رشيد كتابا مجلداً بجلد أحمر اللون ، كان يتعلم منه الدين والفلسفة ، راح يقرأ من الكتاب فى الجزء الخاص بالمذهب الأفلاطونى . هاهم المؤلفون العرب غير المتحضرين ، الذين لا يعرفون شيئا عن اللغات أو الأزمان ، يتكلمون ، بغباء يثير الاحتقار ، عن أنبل الأرواح البشريه التى عاشت قبل بداية عصرهم بألف عام تقريبا ،

ولم يعرفوا شيئا عن محمد (نبى العرب) . عندما لاحظ أبو رشيد كلامى غير الكامل وغير المتأنى قال : "هؤلاء الفرنجة يتعاملون بالسياق العربى ، نظرا لأن لغتهم ليست مرنة : ولكن اللسان (اللغة) العربى سلس ومرن ويدور مثل العجلة ، يضاف إلى ذلك أن العرب فى مختلف الأرجاء لغتهم واحدة لأن الفم والبلعوم هما أعضاء الكلام ، أما كلامكم أنتم فهو يولد مشوها وعندما يخرج من أفواهكم يكون قد أشرف على الموت . - ما رأيك فى كلام هذا الجزء من البلاد ؟ ألم تضحك من كلام البدو ؟ ما هذا 'الجوطار'(*) ها - ها - ها !- والبدو يقولون أيضا لأى فترة من فترات النهار 'جوَّاك(**)' gowwak، والبدو يقولون أيضا 'كيف Keyf أمورك ' Mûrak ويقصدون بها 'كيف أحوالك ؟' من الذى سمع مثل هذه اللغة ! "قال أبو رشيد الكلام نفسه عن الكلام المصرى قال : إن كتيبة من جنود إبراهيم باشا جرى حصارها وتجريدها من سلاحها بواسطة الدروز الشجعان ، فى منطقة الليجا Leja (التى هى حقل بركانى فى منطقه الحوران) . وعندما هم الدروز بتقطيع الأسرى ، أو إن شئت فقل : المحاصرين ، إربا إربا ، تقدم جندى دمشقى من بين الحاضرين وصاح قائلا : مهلا ! أيها الجيران ، 'دخيلاكم' (بمعنى 'أطلب حمايتكم') ، للشوام (السوريين) على أقل تقدير ، الذين هم 'أولاد' ' Owlad الوطن' el-Watn، بمعنى أطفال أو أبناء الأرض نفسها معكم ! " وردوا عليه قائلين : 'سوف يحموهم إذا ما استطاعوا معرفتهم أو تمييزهم .' قال الدمشقى : اتركوا هذا الأمر كله لى ؛- وأنهم إذا ما تركوا الجنود يمرون الواحد بعد الآخر ، فإنه سوف يتمكن من تمييزهم .' وأعطوه ما أراد ، وتحداهم ذلك الدمشقى على النحو التالى قائلا : "راجل Ragel (الكلمه المصرية لكلمة Rajil)، إسمع أيها الرجل ، قل 'جمل' "!Gamel كل سورى كان يقول 'جمل' Jamel؛ واستطاع الجندى السورى بهذه الطريقه إنقاذ إخوانه المواطنين وكذلك الدمشقيين .

خطر ببالى أن أبدأ هنا فى قرية العلا عملية التحصين أو التطعيم ضد المرض وممارسة مهنة الطب . ولكن أولياء الأمور لم يرسلوا لى أطفالهم ، ولم يزرنى سوى عدد

(*) " الجوطار " كلمة يستعملها البدو فى معنى " القطار " . (المترجم)
(**) " جوَّاك " كلمة يستعملها البدو فى معنى " قوَّاك الله . (المترجم)

قليل من المرضى ، الذين كانوا حالات ميئوس منها ، جاءوا طلبا للدواء ؛ حتى هؤلاء المرضى عادوا إلى منازلهم عندما علموا أنهم يتعين عليهم دفع ثمن الدواء ، بالرغم من أن ذلك الثمن كان يتراوح بين اثنين وثلاثة مكاييل من القمح المجروش . كنت عندما أسألهم : أليس الدواء عطية من الله ؟ كانوا يجيبونى قائلين : "نحن نثق بالله ." – ولكن ، فى يوم آخر عندما يكون المرض بينكم وأطفالكم يموتون أمام أعينكم ؟" – لا يحدث شىء إلا بمشيئة الله" . هذه هى طبيعة العرب المتبلدة ، أو إن شئت فقل : إهمالهم لأنفسهم ، وانتظارهم للسماء أن تفعل لهم كل شىء ، وهو ما يسلم به العرب عن طيب خاطر فى عقيدتهم : *هذا المزاج الهادئ الذى دخل دينهم* ، نحن نطلق عليه قدرية المسلمين . فى قريه الحجر طلب منى عرب البوابه أن أضع لهم أحجبة **hijabs** أو إن شئت فقل : تعاويذ أو تمائم ؛ أى تلك الأوراق التى يكتب فيها اسم الله ، ثم يذيبونها فى الماء ، ويظنون أنهم يحسون بالسعادة بعد أن يشربوا ذلك الماء .

عندما يدخل البهلوانات قرية من القرى يحس أهلها بأن ذلك شيئا جديداً عليهم ولكنهم بعد أن يعتادوا على أولئك البهلوانات سرعان ما يَمَلُّونهم ؛ من هنا فقد مضت وولت تلك الأيام القليلة ، من هنا وجدت تعبيرات وجوه الناس لم تعد توحى بالصداقة والود ؛ وهنا بدأت بعض القلوب المتشدده تتورم لرؤية إنسان يمشى بينهم وهو رافض لدين رسول الله المنقذ والمغيث . وإذا كان الأطفال يصيحون خلف ذلك الرجل الكافر ، فإن الكبار ، أو إن شئت فقل : الآباء ، لم يعودوا على استعداد لنهرهم ومنعهم من ذلك الصياح . يضاف إلى ذلك ، أن قلة قليلة من أصحاب الدماء غير النقية كانوا يهمهمون ويبرطمون كلما مررت من أمام مصاطب منازلهم قائلين : "قل محمد رسول الله !" ، ولكن الآخرين كانوا يلومونهم على ذلك . ذات مساء كنت قد تجولت إلى أن وصلت إلى جانب الواحة ؛ وسرعان ما تجمع فى ذلك المكان قطيع من أطفال القرية الذين كانوا يحملون السيوف والمضارب ، راحوا كلهم يتعقبونى ويصيحون قائلين : "النصرانى ! النصرانى !" ويتحلقون من حول الكافر ، يرسمون الصليب على الرمل من أمامى (..........) ، (*) هؤلاء الأولاد الأوغاد يتتبعونى بذلك الصياح كما لو كانوا يطاردون

(*) عبارات وقواف غير لائقة تمس الدين المسيحى رأينا استبعادها . (المراجع)

وحشا كريها أمامهم ، واستمروا فى ذلك إلى أن وصلت الجانب الآخر من الواحة ، وهناك بدءوا يقذفوننى بالحجارة . وكان من بين هؤلاء الأطفال الوقحين طفل واحد ، كان هو الذى يقاوم البقية بعنف ، وراح يلعن ، بكل ما أوتى من قوة ، آباءهم الذين أنجبوهم . راح ذلك الطفل والدموع فى عينيه يسير ناحية الخلف معترضا سير أولئك الأطفال ، كما لو كان يحاول افتدائى وحمايتى بواسطة جسمه الصغير ؛ "أيها الأطفال ، هذا ابن (ولد) حلال ، فكروا فى أن تكونوا مثله ، أنتم جميعا ، بدلا من احتقار الغريب ، والغريب ضيف الله ." سلوك الأطفال هذا ، كان دليلا على ما يعنيه الكبار ، الذين سمعوا منهم ، وبلا أدنى شك ، تلك القافية البذيئه :- هذه كانت القافيه نفسها التى كان يتغنى بها أطفال المسلمين فى دمشق ، طوال أيام قلائل قبل مذبحة النصارى . والمعروف أن الأديان السامية لا تطيق أن يلتقط أى أحد أنفاسه غيرها ، ولا تتصل بأى أحد يكون خارج أطرها :- تلك كانت الأعمال غير الإنسانية التى سبق لمحمد (ﷺ) أن لاحظها خلال أوقاته العصيبه مع اليهود الأشرار .

والشاب المسكين من العلاونة ، على استعداد للسفر إلى دمشق ، أى مسافه ٥٥٠ ميلا ، على ظهر بعير مع عجيل قافلة الحج ، نظير دولار واحد أو دولارين : هؤلاء العلاونة يتتلمذون ، فى أغلب الأحيان ، فى المدينة السورية على تعلم بناء الأحجار على أيدى النصارى . عثرت هنا ، على رجل طويل ، كان يعمل بالجندية منذ سنوات فى الجهاد فى القرم Crimea(*) قال لى ذلك الرجل : إن ذلك الجهاد كان فى بلاد بعيدة فيما وراء البحار(**) ؛ وهذا هو آخر ما يمكن أن يقوله أناس من هذا القبيل عن المناطق البعيدة والنائية التى زاروها ، والسبب فى ذلك أن خريطة العالم غير معروفة لهؤلاء الناس . هناك بعض العرب الذين يتجولون فى أصقاع بعيدة مثل القارات ويعودون من ذلك التجوال (شأنهم شأن المتخلفين غير المتعلمين) وهم عاجزين عن أن

(*) واحدة من بلدان اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية السابق . (المترجم)

(**) يقصد بهذا الجهاد حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٦) التى دارت بين روسيا القيصرية والدولة العثمانية . وقد ساندت معظم الدول الأوروبية الدولة العثمانية خوفا من أن تتمكن روسيا من الوصول إلى البحر المتوسط عبر منافذ الدردنيل والبوسفور . وقد انتهت هذه الحرب بتوقيع معاهدة باريس فى عام ١٨٥٦ . (المراجع)

يفصحوا لنا عما يدور فى عقولهم : العرب سبق لهم منذ أزمان بعيدة أن جابوا إفريقيا كلها ، ولكنهم لم يدونوا أى شىء عن ذلك التجوال(*) . شاهدت هنا شابا سوريا يعيش هنا فى قرية العلا متواريا أو مستترا ؛ مجنداً ، وقد هرب من اليمن ، ومدينة ذلك الشاب هى الناصرة ، ولذلك أحس بالاضطراب إلى حد ما عندما التقيته .

فى يوم آخر تجولت حتى وصلت إلى نهاية حدود الواحة ، حيث يقوم الصبية الرعاة على أمر ذلك العدد القليل من ماعز القرية .- وفجأة طلع علينا من بين أشجار الإثل بدوى شبيه بالشيطان ، تسبب فى صراخ الرعاة لأنهم لم يكونوا يعرفونه وقالوا : "هو واحد من الحويطات ،" وهنا رفع هؤلاء الرعاة عكاكيزهم وعصيهم ، على ذلك الحويطانى ، وطلبوا إليه أن يغرب عن المكان . وهنا ثبت ذلك الشقى علىّ عينى اللص ، وسأل الرعاة قائلا : "أى رجل هذا ! وهل هو منكم ؟" قلت له : "ملعون أبيك ! أغرب عن هنا ! "- "هيا ، هيا ! إنكشح ،" ويختفى ذلك الحويطانى وهو يصيح صياحا غريبا ، كما لو كان يستدعى رفاقا له من بين الأدغال . قال الرعاة : "سيهجم علينا الأعداء ،" ثم سارعوا بعد ذلك إلى دفع الماعز إلى داخل الجدران ، وعند المساء أنبنى الشيخ ضاهر تأنيبًا شديدًا ، قائلا إننى صاحب علم ، ولكنى لم أكن عاقلا أو حكيما ، وأننى كنت يوميا لا أطيع مشورته أو أعمل بها . "فتّح عينك ، يا خليل ، قبل أن تحدث لك كارثة أو مكروه كبير ؛ ولكنى سبق أن حذرتك ." وهنا أردف ضاهر قائلا بابتسامة صفراء تليق بإيمانه غير الإنسانى ، 'إنه لا يمكن أن يُلام ،' (- سيقل عدد الكافرين فرداً واحدا فى دنيا الله .) وفى مرة أخرى ، كنت أجلس خارج بوابة القرية ، أسفل الحرّه ، مع رجل من قرية العلا ، وانهالت علينا الأحجار كالمطر ، تراجعنا إلى الوراء وشاهدنا شقيا يتسلق الصخرة التى فوقنا . قام رفيقى ، فى ضوء الاستياء العربى البطىء ، بتجهيز بندقيته الفتيلية ، وصاح فى ذلك الشقى طالبا منه أن يعود من حيث أتى - كان مفروضا أن أكون قد عدت إلى الحجر قبل وقوع ذلك الحادث ؛ ولكن ضاهر

(*) هذه الأقوال خاطئة إذ إن عددا كبيرا من الرحالة والجغرافيين العرب كتبوا عن إفريقيا . واعتمدت حركة الكشف الجغرافى الأوروبى على تلك المدونات العربية ، وإن كان كثير منها قد اندرست أو فقدت بفعل الزمان . (المراجع)

طلب منى الاصطبار عدة أيام قلائل إلى أن تتم مشاهدة آثار أقدام الحويطات فى البوغاز ، أو إن شئت فقل : فى الممر بين الجبلين . سألتهم عن الطريقة التى تمكنهم من معرفة القبيلة على هذا النحو ؟– "عن طريق طول أقدامهم ، التى هى أطول من اقدام كل البدو المحيطين بهم :" ومع ذلك يقال إن "أقدام أفراد هذه القبيلة صغيرة مثل اقدام النساء ." يضاف إلى ذلك أن غالبية البدو الرحل فى هذه الأماكن ، الذين يمشون بلا نعال طول الوقت ، لهم أقدام ثقيلة مستوية .

أحسن شيخ القرية إلىَّ عندما أرسلنى إلى صخور وآثار الخريبة ، مع واحد من أهل البلده الذى قدم تلك الخدمة على ما يرام وعن طيب خاطر . هذا الواحد ، كان اسمه صالح Salih المسلمانى el-Moslemany، واحد من كبار التجار فى سوق البدو الرحل فى البلدة ، فضلا عن كونه أيضا واحدا من عملاء الشيخ ضاهر . كان الرجل متعاطفا معى لأن أقارب والده كانوا مسيحيين . جاء والد صالح إلى هنا قادما من مصر (وربما كان هاربا) : وحتى يتسنى له العيش فى قرية العلا ، كان يتعين عليه الدخول فى الإسلام ، ولذلك أعطوه اسمه الجديد 'المسلمانى' . أما ولده ، الذى أصبح مسلما بحق ، والذى قام بزيارة مدينة النبى أكثر من مرة ، فقد كان يتعاطف مع اسم النصارى حبا لوالده . وقد تحدى البعض صالحا Salih بتعاطفه ومحاباته للنصارى ؛ ومن رأى صالح أنه أكره على اعتناق العقيدة ، بأن نطق على مسمع منهم بشهادة "لا إله إلا الله" والتأكيد على "محمد (رسول الله ." والتمس صالح لنفسه العذر هذا الصباح قائلا : "لقد تأخرنا ، لأن هؤلاء الذين ذهبوا لجمع الحطب من ذلك المكان قد أوشكوا على العودة ؛" ولكن ضاهر قال : إن بوسعنا الذهاب إلى الخريبة (انظر الصورة رقم ٣٢) وأوفد معنا ولد أخيه .

جاء الرجلان وهما يرتديان ثيابهما القديمة وكل واحد منهما يحمل بندقيته الفتيلية . تجاوزنا منطقة النخيل الموجود خارج القرية ثم عبرنا مجرى السيل إلى أن وصلنا إلى منطقة رأس العين el-Ayn Ras، التى هى منبع غدير الماء عندهم ؛ ورأس العين هذه عبارة عن حفرة مظلمة يصل عمقها إلى خمسة وعشرين قدما تقريبا تندفع بعدها المياه الجوفية . بعد رأس العين هذه توجد منطقة الخريبة التى توجد فيها الآثار ؛ وصلنا إلى "إناء حلب الناقه" أو إن شئت فقل : 'مَحْلب ناقة النبى صالح'، أو إن شئت فقل أيضا :

حلويات helwîat النبى (انظر الصورة رقم ٢٩) . هذا المحلب عبارة عن صخرة تحولت إلى خزان . اكتشفت أن عرضها كان اثنى عشر قدما . وعندما قستها من الخارج وجدت ارتفاعها فى أعلى أجزائها حوالى سبعة أقدام ونصف القدم : وأظن أن عمقها كان حوالى ثلاث عشر بوصة . يضاف إلى ذلك أن الخزان الكلى منقوش عليه من الخارج ومن الداخل علامات أخرى تدل على الماشية وليس على قبائل البدو الرحل الذين يسكنون ذلك الجزء من البلاد فى الوقت الراهن . وتتناثر فى هذه الأرض التى تتكوم فيها الآثار ، شقاف بعض الأوانى الفخارية ، التى استطعنا تجاوزها بصعوبة مشيا فوق ضفتين مكونتين من أحجار البناء المفككة والسائبة . كانت البيوت الأثرية مبنية من الحجر الرملى ، والقسم الأكبر منها من الأحجار الغشيمة الموضوعة فى الطين ؛ لاحظت تحت هذه الأكوام شيئا من الملاط المصنوع من الطين ؛ وقد جرى مؤخرا نقل بعض الأحجار من تلك الأكوام : وقد بنيت قرية العلا بهذه الطريقة ، ولكن تبقت بعد ذلك صخور تكفى لبناء قرية مثل قرية العلا ، مرة ثانية . البيوت القديمة كانت أصغر من البيوت الجديدة ، وربما كانت هنا بلدة من البلدان ، يقدر عدد سكانها بحوالى أربعه آلاف نسمة . والمتعلمون فى قرية العلا يقولون : إن تلك أيضا هى قرية Keriat الحجر ، وهنا تلوا علىّ كلمات لعنة الله التى حلت بقرى السهل "على ألا تقوم لهم قائمة مرة أخرى ."

وصلنا بعد ذلك إلى الصخرة التى يجرى تقطيع الصخور منها ، وكان محفورا عليها نقوش حميرية بارزة مكونة من عدة أسطر . وعندما بدأت أدون أو أنقل أول نقش من تلك النقوش فاجأنا صوت ، وهنا ينبغى القول : إن أى منظر أو مشهد جديد أو صوت جديد يثير الخوف فى ظل فوضى الصحراء هذه . وهنا تعجب صالح قائلا : "والله Wellah صه hess زلاّمى ez-Zillamy(*)؛" وهنا أنتج الرجلان شررا وأشعلا ، على وجه السرعه فتيلى بندقيتيهما الطويلتين ، وهنا إنبرى صالح ، بالرغم من جسمه العليل ، واقفا بعد أن إستعد بأدواته وأصبح جاهزا للقتال مثل الرجال . وهنا سمعنا ، على حد زعمهم ، "حويطانيا قادما نحونا وهو يغنى "؛ وربما كان رفاقه اللصوص

(*) تستخدم هذه الكلمة فى بلاد الشام بمعنى رجل " زلمة " . (المراجع)

يسيرون خلفه ، وكانوا قد أخفوا أنفسهم وهذا أمر سهل في ذلك المكان الوعر . سبب هذا القلق كله ، لم يكن أحد' سوى ذلك الزنجي التعيس الذى يعمل خادما مع الشيخ ضاهر ، وهذا الزنجي واحدا من الذين هربوا من خيبر ؛ كان ذلك التعيس قد خيب أملنا ولم يتمكن من اللحاق بنا فى ذلك اليوم ، بل لقد كان نوما معى أنا على هذا الحال ، وهذا هو حال كل الخيابره ، وهذا أمر يؤسف له . اكتشفت أن الصخرة مليئة بالنقوش وأن كل النقوش كانت حميرية ؛ أما النقوش التى كانت فى مدائن صالح فهى نقوش نبطية . كان رفيقاى يذكرانى طول الوقت ، بل وفى كل لحظة تمر علينا ، بأن الشمس بدأت تغرب ، كما كانا يذاكرنى بالخطر الذى قد نتعرض له فى ذلك المكان . نقلت الأساطير الحميرية القديمة كلها ، فيما عدا تلك النقوش التى واجهتنا فجأة ، كما قمت أيضا بزيارة الغرف كلها ، هذه الغرف ليست كثيرة ؛ وفتحات تلك الغرف ، على حد زعمهم ، تظهر على شكل نوافذ مظلمة فى الصخر : بعض آخر من تلك الفتحات كانت تبدو مثل الكهوف البدائية ؛ وقد وجدت فى بعض تلك الغرف غرفة صغيرة وبعض المقابر السطحية البسيطة . وكل قبر من هذه القبور لا يعدو أن يكون مجرد مكان مربع محفور بدءا من المدخل حتى طول الجسم البشرى ، وربما كان ذلك الخط منحرفا فى بعض القبور ؛ وربما كان عبدة النجوم هؤلاء يدعون السماء بطريقة ما فى مقابرهم التى تتجه ناحية الغرب ، ثم وصلنا بعد ذلك إلى الزنازين (انظر الصورة رقم ٣٣) التى هى أغرب الغرائب ؛ والتى لا تبعد عن البلدة أكثر من ميل واحد ، ومع ذلك فإن أفراداً من العلاونة ، يعدون على أصابع اليد الواحدة ، هم الذين رأوا هذه الزنازين فى حياتهم . فوق تلك الصخورالموجودة فى الأركان البعيده ، وفى منتصف واحدة منها ، توجد بعض الألواح المحفورة ، المنحوت عليها بعض الصور ، التى تشبه صناديق المومياوات فى مصر ، والبدو الرحل يطلقون على هذه الصور اسم 'بنات' **benat**، أليست هذه المنحوتات (بشكلها البدائى الحالى) لها سيقان عارية ، وأجسام مغطّاة ، ورءوس مغطاة ببشانيق ، وعلى شكل نساء حضريات ؟

فيما بين البنات هناك لوح مربع الشكل معلق فوق سطح الصخرة الناعم ، كما لو كان شاهدا من شواهد القبور ، ولكنه خال من النقوش ؛ وهناك لقب مقطوع بإزميل على الصخرة التى أسفل ذلك اللوح مباشرة ، غير أن الأحرف الحميرية كانت أصغر من أن

أقف عليها بالعين المجردة . وعلى مسافة أبعد قليلا فى تجويف الصخرة يوجد موقعين آخرين لهما طابع القبور ، ومعلق فوقهما لوح يحمل صورة لاثنين من البنات ؛ رأس هاتين البنتين منحوتتين : وعلى حد علمى ، "لا يوجد أى شىء آخر" غير هاتين البنتين . عثرنا أيضا على شكل إنسانى أثرى منحوت أيضا على تلك الصخور ؛ - والعرب فى هذه الأيام لايدرسون حياة البحيرات . كان ساكن الجزيرة العربية القديم يلبس رداء ضيقا يصل إلى ركبتيه ، ويضع فوق رأسه غطاء يستره من أعلى ومن الخلف ومن الجانبين . (ما يشبه الفترة الحالية) . يضاف إلى ذلك أن شخصا احضر لى ، عندما كنت فى قرية العلا ، صورة قديمة لرأس رجل ، وكانت تلك الصورة منحوتة فى الحجر الرملى ، ومن فوق قمة رأس ، أو إن شئت فقل : نافوخ تلك الصورة ، كانت هناك قبعة منخفضة مدببة . وعندما طلب منى ذلك الشخص مبلغا أكبر مما كان فى ذهنى ، وجدت أن من الأفضل رفض دفع ذلك المبلغ . عثرت أيضا ، فى أنقاض الخريبة ، على لوح أثرى لا يزيد عرضه على أربع عشرة بوصة ، فيه بعض الأوعية المجوّفة ، وربما كان ذلك اللوح ماصه لواحد من الصيارفه (الصورة رقم ٣٤) وربما كان أيضا ماصة من ماصات تقديم القرابين أو الذبائح : وقد شاهدت أيضا ثلاثه أو أربع ألواح من هذا القبيل مركبه فى جدران منازل البلده .

هذا يعنى أن طريقة البناء فى الخريبة ، وكذلك طريقة الدفن ، وأيضا طريقة الكتابة تختلف عن مثيلاتها فى قريه الحجر التى لا تبعد عنها سوى عشرة أميال فقط !

عثرنا فى الرمل الذى كانت ضبعة من الضِّباع قد مرت عليه مؤخرا على حفرة : سألنى صالح إن كنت أعرفها أم لا . ولقد سبق ، فى كثير من الأحيان ، رؤية مثل هذه الآثار الحيوانية فى هذه المناطق ، وفى سيناء ، ولكنى لم أر مثل هذه الآثار فى الأراضى المرتفعة من الجزيرة العربية (نجد) : وحيوان واحد من هذه الحيوانات التى تجوب الأرض يمكن أن يخلف وراءه ، فى ليلة واحدة ، آثاراً لأقدامه فى سائر أنحاء منطقة كبيرة . هذا النوع من الحيوانات لابد أن يكون قليل العدد لأنها تعيش فى بلاد الحياة فيها شبه معدومة . يتحدث العلاونة حديثا طيبا عن الأساطير الحميرية ويقولون إن "النقوش الحميرية تشبه الحبشى "The Habash (أى الكتابه الحبشية) . وقد استوقفنى أحد المتشددين ذات مرة فى الشارع ليقول لى : إن لديه فى منزله كتابين

مكتوبين بهذه الحروف ! ولم أستطع إقناعه بإطلاعى عليهما ، نظرا لأنه لا يمكن أن يتسبب فى إسعاد كافر من الكفار .

حدثنى القرويون والبدو الرحل عن موقع أثرى فى تلك المناطق ، وهم يطلقون عليه اسم 'المُبيَّط' . el-mubbiat هذه الكلمة فى صيغة الجمع ، وربما تدل على مواقع العديد من الكفور والهجر الأثرية فى واحة من الواحات ، وهم يقولون أيضا إن هناك كنوزا مدفونة فى هذه المنطقة ، وأن تلك المنطقه كانت تشكل فى الماضى واحدة من البلدان الرئيسية . هذه الأرض التى تبعد مسافة ستة أميال عن قرية العلا ، عبارة عن سهل عامر بأشجار السنط ، ويفصله عن وادى القرى شريط جبلى ضيق : والأرض فى هذه المنطقة عباره عن غرين وقاع طينى تعلوه قشرة من الملح . "البخور" موجود فى هذه المنطقة ، كما يوجد فيها أيضا عظاما بشرية ، كما هو الحال فى مدائن صالح ، كما يوجد فيها قطعا مكسرة من الخزف ومن الزجاج أيضا الذى على شكل خواتم ، "كما لو كان ذلك الزجاج والخزف المكسر بقايا من أساور النساء ." شاهدت أيضا بعض المنازل الطينية الأثرية ، وقلة قليلة من المنازل المصنوعة من الطين والحجر ؛ ولكن حسبما صارحنى صالح ، ليست هناك غرف محفورة فى الصخور أو نقوش منحوتة عليها . أبلغنى ضاهر ، شيخ القرية ، أنه سوف يرسلنى إلى تلك المنطقة ، ولكنى وجدت أن ذلك خارج نطاق الهدف المحدد . كان البعض من بدو أولاد على قد عثروا على قطع من النقود فى المُبَّيط ، وبلغنى أن الكتابة التى كانت عليها كوفية "لا إله .إلا الله" : وأنا أرى أن الجزيرة العربية خالية من التقاليد الطويلة ، وأنا لم أعثر على أى شىء فى هذا البلد له علاقة ببلدة قورة Korh، التى أتى على ذكرها بعض الرحالة المسلمين . وسألت بين كل *البدو الرُّحل* عن هذه *البلدة* ، ولكنى لم يصلنى أو أسمع شيئا عنها ، يضاف إلى ذلك أن من يقرءون ويكتبون فى قرية العلا ليست لديهم أيه فكرة عن ذلك الاسم . كنت أتطلع بصحبة محمد على إلى مشاهدة تلك الأرض الجرداء التى تمتد جنوبا إلى الزُّمرُّد ؛ وبخاصة أن محمد على كان ينتظر وصول أوامر له بزيارة تلك القلعة الأثرية . وفى *الوديان الجبلية التالية* وفى *اتجاه* المدينة (المنورة) توجد مواقع أثرية ليست بالقليلة ، وهى عبارة عن آثار لقرى جيدة ؛ وربما تكون هناك نقوش كثيرة منحوتة فوق أحجار هذا البلد الرملية .

تستقبل الحدية Hedieh، أحدى قلاع الحج فى وادى حمض Humth مياه السيول التى تجىء من خيبر . وفى أقصى الجنوب الشرقى هناك وادى جانبى ينزل هابطا إلى وادى قرّة أو إن شئت فقل مجرى الحمث ، الذى توجد فيه آثار بارزة وملحوظة يطلقون عليها كورة Korh وهذا المكان ، فى رأى البدو ، أعظم من قرية العلا ، والأرض هنا وعرة فيما بين التلال ، كما أن الوادى هنا أوسع قليلا عما هو عليه فى قرية العلا . من يذهب إلى هذا المكان يشاهد مواقع كثيرة من المبانى القديمة ، التى من بينها قلعة مدمرة . وبنى وهاب Wahab لا تشيع بينهم تقاليد قورة(*) ، بالرغم من أن هذه المنطقه ، هى منطقتهم من قديم الأزل . لو كان هذا المكان هو قورة Korh (Ghorh) لنطق أهل هذا المكان هذا الاسم حورة (أى بتحويل القاف إلى جيم) ، أو لفظوه على أنه حورة Jorh (أى بجيم سورية بدلا من الجيم المصرية) ؛ أما أهل هذه المنطقة فهم ينطقون ذلك الاسم على أنه "قورة" Korh . وفى هذا المكان يقع مسقط رأس الشاعر البطل عنترة العبسى : ذلك الرجل الذى لم يتفوق عليه أحد من البدو الرحل القدامى سواء فى شجاعة الحرب أو أغانى الصحراء ؛ وعنترة هو أحد مؤلفى القصائد الذهبية السبع . وبالقرب من القلعة التالية ، ألا وهى قلعة سجوة Sujwa، هناك جبل يطلق الناس عليه اسم إسطبل Istabal عنتر Antar . على قمه ذلك الجبل ، ترى أعين الناس الخرافية هنا ، "متجرا"(**) أو إن شئت فقل : مربطا كبيرا ، وكذلك الحلقات الصخرية ، "التى كانت تربط فيها خيول ذلك البطل" ؛ والناس هنا يرون أن قامة عنتره كانت تصل إلى ما يتردد بين خمس وست قامات . أبلغنى الحاج نجم المغربى أنه شاهد فى ذلك المكان ، "خطا حديديا" ؛ هؤلاء الناس السُّذج يصدقون عن طيب خاطر أن التلغراف والخطوط الحديدية انحدرت إلينا منذ بداية الخليقة . والصخر هنا من الحجر الرملى ، الذى تتخلله عروق من حجر الحديد .

(*) قورة : مدينة تجارية ذكرت فى كتابات المؤلفين المسلمين فى العصور الوسطى وكانت تقع فى وادى القرى أعلى المدينة المنورة . وموقعها غير معروف فى وقتنا الحاضر . (المراجع)

(**) المتجر : بفتح الميم وتسكين التاء . مكان يتخذ للتجارة . (المترجم)

تعين عليَّ هنا التعجيل بالعودة إلى مدائن صالح ، حتى يتسنى لى تدوين أو نقل النقوش المدونة على شواهد القبور ، وأنتهى تماما من هذه العملية . وقد وافق الشيخ ضاهر ، شيخ القرية ، أكثر من مرة ، على توصيلى إلى مدائن صالح مع البدو الرحل الذين يجيئون للتسوق ، ولكن أولئك البدو كانوا يخيبون ظننا عند الرحيل . وهنا راح ضاهر يؤنب ويلوم بمنطقه الحضرى أولئك البدو ، الذين لم يرى فى أعينهم أى أثر لمفعول سلطته على القرية ، قائلا لهم : "اسمكم البدو" . يضاف إلى ذلك ، أن الحضر ، فى بلدة العلا ، يعاملون أولئك البدو المهلهلين الذين يأتون إلى هذه البلدة ، معاملة جافة وخشنة . كان ضاهر متدينا أكثر منه رجلا طيب القلب ؛ كان محيا ذلك الرجل الأسود الذى كان يتغير خلال لحظات ، هو وضعف سلطته مصدر قلق لى ؛ لم أكن أعلق مطلقا أى أمل على الشيخ ضاهر . سألت ضاهر ، إن كان قد سافر إلى بعض البلدان ، وبخاصة دمشق ؟ "رد على ، وما الذى يدعونى أو يضطرنى إلى زيارة الشام ، ألسنا هنا على مايرام ؟"– صحيح أن ضاهر لا يمكن أن يكون إلا حضريا ، إضافة إلى أنه لم تكن هناك حياة تصطبغ بالطابع المدنى أكثر من الحياه فى دمشق . هنا أبلغت من كانوا معى أننى سوف أعود إلى الحجر سيرا على الأقدام . "قال ضاهر : سوف أوصلك إليها أنا بنفسى ، فالبدو 'أقاريط' !" – و'أقاريط' هذه كلمة خسيسة من كلمات المدينة (المنورة) إذا ما جاءت على لسان الأمناء الأوفياء من الناس ! وعندما سمع صالح خبر رحيلى ، سألنى ، فيما بيننا نحن الاثنين ، إن كنت قد توصلت عن طريق الحدس ، إلى أن الفرصة كانت مهيأة للقيام بالرحلة فى ذلك اليوم ؟ وعندما سألته عن فنه هذا الخاص بالرجم بالغيب "رد علىّ قائلا : ماذا تقول ! ألا تعرف ذلك الفن ؟ تسألنى كيف ، عن طريق رسم خطوط معينة فى الرمل ! والناس هنا يكثرون من استعمال هذا الفن هنا فى قرية العلى ." طلب منى الشيخ ضاهر العودة إذا ما استقبلنى عسكر القلعة إستقبالا فاترا ، لكى أمضى معه بضعة أسابيع قليله كانت متبقية للحج ؛ ومع ذلك تمنى لنا كلنا السلامة متهكما وبكلام لاذع ؛ ومعروف أن ذلك التهكم هو والكلام اللاذع كانا سببين من أسباب متاعب الشيخ ضاهر ؛ "رحم الله والد محمد على ، ورحم الله الإمبراطورية العثمانية ، ورحم الله أيضا أبا بلد خليل !" كانت لدى الشيخ ضاهر ستة بنادق جاهزة ، ولذلك أوفد معى ولده ليرافقنى إلى منطقة الآبار ؛

كما جاء خادمه الزنجي التعيس الخيبرى ، راكبا جحشا صغيرا ، حمَّل متاعى على ظهره . فى الخربية إنتحيت جانبا حتى يتسنى لى تدوين ، أو إن شئت فقل : نقل النقوش المنحوتة ، التى سبق أن أدهشتنا من قبل (الوثائق الخاصة بشهود القبور اللوحة رقم ١٥) التربة هنا من النوع الغرينى الجيد ، ووجدنا الأحجار هنا مرصوصة بطريقة كل حجرين معا بالطريقة القديمة . وهنا تعجب رفاقى قائلين : "عجبا ! تلك كانت علاماتهم الأرضية القديمة ، ونحن لم نلق لها بالا من قبل !" وبعد أن عادوا ، واصلت أنا مسيرى مع الخيبرى . وبعد مسير استمر ثلاث ساعات فى أرض جرداء قاحلة ووعرة ، وصلنا إلى مقدمة ساحل الحجر ، حيث بدا جبل إثلب من أمامنا ، هذا الجبل عبارة عن قمم جبلية مدببة ؛ وسرعان ما استطعنا تمييز الصخور (التى يطلق العلاونة عليها اسم جبل شاخوناب Shakhûnab، بالرغم من أن هذا الاسم يطلق ، فيما بين البدو الرحل ، على الجبل الذى يقع شمال المزحام The Mezham) بعمارتها المنحوتة المدهشة ، كما شاهدنا أيضا البرج وقلعة طريق الحج .

طلبت ، فى الصباح ، من محمد على استبعادى طوال تلك الليلة ، إذ كان الوقت أقل من المطلوب لتنفيذ مشروع مدائن صالح . وأنا ، فى حديثى معه ، لم أتكلم صراحة عن هذه الرغبة . ولكن مبلغ علمى أنه فهم ما أقول . "أظن أنك لم تنس أنك أعطيتنى وعوداً محددًه !"-"سوف أعطيك البندقيه مرة ثانية ." حدث ذلك فى غرفتى : نهض محمد على واقفا ومحتداً وغاضبا ، الأمر الذى أدهشنى كثيرا ، ثم اتجه إلى غرفته ليعود إلى غرفتى مرة ثانية ومعه البندقية ، ثم أدار ظهره لى وتركنى وحدى . وهنا أعدت البندقية ثانية ، فى شيء من الود ، ووضعتها عند باب غرفته ، - "أخرج من هنا ! " قالها ذلك الشقى غير المتحضر وهو يصيح ، ثم قفز بعد ذلك وأمسك بتلابيب عباءتى (بشتى) : وبينما كنا فى الطرقة فاجأنى ذلك الوغد المغربى بأن صفعنى على وجهى وبكل قوته ، الأمر الذى جعلنى أشرف على السقوط فى الفناء الذى كان أسفل منى ، ثم صاح محمد على بصوت ينم عن الوحشية قائلا : "ألم تعرفنى بعد إلى الآن ؟" ثم اتجه بعد ذلك إلى القهوة (المقهى) ، وتبعته أنا إليها ، ولاحظت بعض البدو الرحل ، موجودين داخل القهوة ،- ومعروف أن البدو الرحل ، الذين يتابعون مسألة الدين فى الصحراء يكرهون الغضب والتصايح المحلى . قلت لهؤلاء البدو : "ياربَّاه (أيها الرفاق)

أنتم شهود على ما يفعله ذلك الرجل ." نظر البدو إلى وهم مذهولين ، إذ إن مسألة ممارسة العنف على الضيف أمر فظيع عند هؤلاء البدو ، لأن الضيف هو ضيف الله . وهنا اشتد غضب محمد على وأصابه مس من الجنون وراح يرتعش ويهب واقفا فى مكانه ، ليضربنى من جديد عند مدخل الغرفة ، بكل قوته الجبروتية التى تشبه قوه النمر ؛ وبينما كان يكيل إلى الضربات أمسكت برسغيه وأحكمت يداى عليهما بشده . "قلت له : ها أنا أمسك بك ، أو يجب أن تعرف أنى رجل قوى ." ناضل محمد على محاولا تخليص نفسه منى ، وسقط الطربوش التركى ، أحمر اللون من فوق رأسه ، وهنا اشتد غضبه ثانية بسبب هذه الإهانة الجديدة ، واستطاع تخليص نفسه منى . هذا القائد العسكرى القيم الذى يقود جنوداً مشاكسين كانت له قوه قصاب من القصابين خلال فترة زمنية قصيرة ، ومبلغ علمى أن ثلاثة من الرجال المسالمين لم يكونوا كافين للإمساك بذلك الرجل والسيطرة عليه خلال ثورة غضبه تلك ، وفيما يتعلق بحرس القلعه الذين لم يكونوا يحبون محمد على حبا جما ، فقد وقفوا بعيدا عنا إلى جانب الحاج نجم وكأنهم كانوا يتشككون فى كل ما يجرى ، وهم يعلمون علم اليقين أن الأمر بإهدار دمى إنما يكون على أيديهم ويأمر من باشا الحج . حاول البدو الرحل ترضية محمد على عن طريق الكلام الطيب فقط ، ولم يجرؤ أى أحد منهم على التدخل فى الأمر ، فيما بين الأغا والنصرانى .– تبا ! والله ! صاح ذلك وهو يقول : سوف أقتلك حالاً ." ولو قدر له أن يكون فى حزامه آلة حادة أو مسدس لفعل ذلك على الفور ؛ لكن هذا الوغد المشاكس جذبنى من لحيتى ، وراح يلفنى هنا وهناك ، فى شكل اعتداء سافر . عند هذا الحد هدأت موجة الغضب فى جسم هذا الرجل المريض ، كما شعر بالارتباك إلى حد ما عندما لاحظ نظرات الناس من حوله ، وبعد أن رأى دم النصرانى يسيل ، ذلك النصرانى الذى أوكل باشا الحج أمره إلى محمد على ، وهنا عجل بالدخول إلى القهوة (المقهى) مرة أخرى فى حين تركت أنا المكان . تأثر كل من كانوا فى القلعة بما حدث لى ؛ يضاف إلى ذلك أن الحاج حسن الذى كان يتباهى بنفسه تأثر تأثرا شديدا بما لحق بى أو إن شئت فقل : بما أنزله بى محمد على : ولكنهم جميعا كانوا من أصحاب السوابق فى قتل الغير، يضاف إلى ذلك أن ذلك الأغا (محمد على) كان هو المسئول عن صرف الرواتب العسكرية ، وبالرغم أيضا من أنه كان يقتطع

لنفسه جزءا من رواتبهم ، إضافه إلى كونه أيضا من الأمة المغربية مثلهم ومن دينهم أيضا . لو قدر لمحمد على أن يصب علىَّ جام غضبه مرة ثانية ، وإذا ما تهدد الخطر حياتى مرة ثانية ، فلابد من اللجوء إلى مسدسى مرة ثانية دفاعا عن نفسى ، ذلك المسدس الذى كان ينطوى ، وهذا لم يكن معروفا لهم ، على أرواح ستة من أولئك القتلة العرب ، الذين انهالوا مثل الكلاب على غريب فى بلادهم : هذا يعنى أن حياة هؤلاء أصبحت مقابلا لحياتى أنا وحدى . ومثلما يصحو الإنسان ، فى بعض الأحيان ، على أثر حلم من الأحلام الفظيعة ، كان لابد لى من اختراق ذلك الضرر ، أو تجاوز ذلك الضرر البالغ وأنا فى طريقى إلى الصحراء ؛ ولكن حياتى دُفع فيها ثمنا باهظا ، عندما تحتم علىَّ المضى قدما فى تجوالى ، فضلا عن أن ارتكاب القتل الخطأ ، لايمكن أن يساعدنى أو يعيننى فى هذه الأرض الجرداء المعادية . وبدأ يتضح لى أن كل المتاعب التى لقيتها فى الرحله بدءًا من سوريا بدأت تضيع وتنتهى ، نظرا لأنى لن أعانى ، مرة ثانية ، من ذلك العنف الذى أصابنى ، جاء البغل محمد على واقترب منى عندما كنت جالسا فى هدوء أقرأ أمام باب غرفتى ، وطلب منى بلغة فظة ترك ذلك المكان ، وآخذ أغراضى معى وانتقل إلى الليوان(*) ، أو إن شئت فقل 'الإيوان' ، والليوان هذا عبارة عن غرفة بها عقود فى اتجاه الشمال على الطريقة الدمشقية ، وفى هذا الليوان يجرى وضع وجار القهوة فى فصل الصيف ، ولكنه حاليا فى منتهى البرودة أثناء الليل ، وبخاصة فى فصل الشتاء ، وفى هذه المنطقة المرتفع . ترتب على ذلك ، أن أعطى محمد على ، غرفتى لشخص آخر، وبذلك تعين على الانتقال إلى زنزانة ذلك الرجل الباردة ، التى كانت قريبة من البالوعة ، ومعرضة للروائح التى تنبعث من تلك البالوعة (المجارى) عندما تهب الريح على القلعة . بعد ذلك ، أوفد محمد على الشاب محمد الصغير ليطلب منى مرة ثانية ، على سبيل الرهن ، تلك البندقيه التى سبق تركها فى مدخل بابى ، وهنا حملت التبدقيه واتجهت إلى محمد على : كان يجلس فى ذلك الوقت فى غرفته مطرقا ويحملق فى الأرض .

(*) الليوان : كهف صناعى مفتوح من الخارج برواق كان يستخدم كمكان للصلاة أو الاجتماعات . (المراجع)

ذهبت فى العصر إلى القهوة ؛ حيث كان الحاج نجم هو ومحمد على يجلسان فيها . وهنا يتعين على تأكيد ما وصل إليه الأمر ، وتبين ما إذا كان بوسعى العيش معهم فتره أطول فى القلعه ، أم أن الأفضل لى هو الانسحاب والعودة إلى قريه العلا . وهنا وضعت أمامهما 'بيورلدى' biuruldi (*)، أو إن شئت فقل : جواز سفرى مستدير الشكل ، الذى حصلت عليه من أحد حكام سوريا السابقين .– "عجيب ! عندى من هذا ثلاثين فرمانا إحتفظ بها فى منزلى ."– 'ألست واحدا ممن يخضعون لإمبراطورية السلطان ؟'– "أنا لا أهتم بشيئ . ولا أخشى أى مخلوق . نحن هنا اليوم مغاربه ، وغداً سنكون مغاربه أيضا فى مكان آخر ، وسواء أكانت الدوله هى إسطنبول أم Mambûl فهى لا تعنى لنا شيئ ؟"– "وهل تستطيع أن تضربنى فى دمشق ؟"– "والله العظيم ، الناس يضربون ويقتلون كل يوم فى الشام – عجبا إنجليزى ، أو عجبا ! فرنسى ، أو عجبا ! عثمانى ، هل تود لى أن أتذكر هذه الأسماء فى أرض الأعراب ؟"– "أنت ، فى أضعف الأحوال تحترم السيد es-Seyid (عبد القادر(**)) وتوقره – وإذا ما قدر لى أن أقول له ذلك فى يوم آخر !"– "السيِّد لسعة غضبه أقوى من لسعة غضبى : ترى من الذى عنده لسعة غضب أقوى من لسعة السيد ؟ هل هو الحاج نجم ؟ الله ، فى الشام لا يوجد غير السيد ومحمد على (نفسه) . (قال متفاخرا) لدى هناك ، فى الشام سبعمائه بندقيه !" – "لقد ضربتنى ، فهل لك أن تقول لى لماذا فعلت ذلك ، ومبلغ علمى أنى لم أسيئ إليك بأى حال من الأحوال ." – "والله ، كنت سأقذف بك فى الطرقه ، ولكنى خشيت الله : ولو فعلت ذلك ، ما سأل أى أحد عن أسباب موتك . وقد استنكر قنصلك صراحه أمام والينا (حاكم سوريا) كل الاتهام الخاص بموضوعك ، وقال وهو يتناول قبعته فى يده ، إنك لا تعنى له أى شيئ أكثر من تلك القبعه القديمه ." –"القنصل الذى من هذا القبيل قد يستدعى فى يوم من الأيام ليبرر لماذا فعل تلك الفعله ."– نعم ، هذا صحيح ، وأنا أفهم ذلك جيداً يا حاج نجم ، أفهم أنه كان ينظر إليه من باشاواتنا فى الشام على أنه خنزير (حيوان لا يأكله الأتراك) ، وبالتالى فأنا لا أقيم له وزنا : –

(*) بيورلدى ك كلمة تركية تطلق على الأمر المكتوب بالرسم الهمايونى الصادر من الصدر الأعظم أو من أحد الولاة العثمانيين . (المراجع)
(**) عبد القادر الجزائرى . (المراجع)

يضاف إلى ذلك أن النجاّب Najjab (ساعى البريد) كان قد قام بتوصيل رسائل خليل إلى دمشق .- معروف فى دمشق حاليا ، أنك موجود هنا فى هذه المنطقة ، وبالتالى سنكون مسئولين عن حياتك وسلامتك ." قال الحاج نجم : "نعم ، وهذا واحد من أولئك الذين تُدَمَّرُ من أجل حياة الواحد منهم مدينة من مدن المسلمين ." (ومعروف أن قصف جدة وسوريا بالقنابل كان على سبيل التأديب إبان حياة كل من محمد على والحاج نجم .) "قلت ، انتبه يا حاج نجم ، إن ذلك الرجل ليس على ما يرام فى فهم الأمور ." وهنا بدأ محمد على ، يبدى اعتذاراته بطريقة أقل عنفا قائلا : 'إنه كان خادما للإمبراطورية العثمانية طوال ثلاثين عاما ، وأن الجراح التى فى جسده تشهد على ذلك ؛ إضافة إلى أن محمد على كان رجلا طيبا عندما تعرَّف كل الرجال .'- "كفى ، كفى ذلك بينكما !" قالها الحاج نجم بأعلى صوته وهو يحاول مصالحتنا على بعضنا ؛ وهنا ، بدأ يتظاهر محمد على بالتدين ، وراح ذلك الوغد البشرى يطلق علىَّ لفظ 'حبيب' Habib ! وشربنا دورا من القهوة وانصرفنا أصدقاء .- وعرفت بعد ذلك السبب الأول لكل ذلك الذى حدث ، والذى تمثل فى ذلك الجنِّى التعيس الذى جاء من الخريبة قاصدا ضاهر ، والذى اقتدته بطريقه وقحه وغير إنسانية ليرتاح مدة ساعة واحدة من الزمن ، داخل القلعة ، ويشرب شيئا من القهوة : وعندما ابتعد عنى ذلك الجنى ، بالرغم من أنى دفعت له أجره فى قرية العلا ، طلب منى الأغا إعطاؤه قميصا من القماش . وقد أدى ذلك إلى إغضاب المخ التركى الذى يفكر به محمد على ، الذى ظن أن ذلك الجنى لم يأخذ حقه أو أجره كاملا منى :- والأكثر من هذا ، وهو ما جعله يصل إلى هذا الحد فى معاملتى ، أننى طلبت من البدو الرحل أن يكونوا شهوداً على ما فعله معى محمد على . وعندما سأله ، فيما بعد ، بعض هؤلاء البدو الرحل ، عن الأسباب التى دفعته إلى ذلك قال كاذبا : 'هذا الخليل ، قد أطاح بقبعته (طربوشه) الأحمر ؛- وبالله لقد أتعب النصرانى رسغى محمد على عندما أمسك بهما ، إلى حد أنه عجز عن رفعهما إلى السماء أثناء الصلاة على امتداد عدة أيام بعد ذلك ؛ يضاف إلى ذلك ، أن ذلك الوغد تفاخر وتباهى أمام هؤلاء الذين لم يكونوا يودون سماعه ، إنه 'جذب خليلا من لحيته .'

مرت تلك العاصفة ، بلا أحداث سيئة ، وهنا بدأ كل من كانوا فى القلعة يضعوننى فى عين اعتبارهم ؛ وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، وبعد أن تركوا وراءهم

فرداً واحداً يقوم بتشغيل ماكينة المياه ، قام الجميع مع كل من الحاج نجم ، ومحمد على راكبا حصانه ، بمرافقة النصراني في التجوال بين الآثار ، ولم يفطر الجميع إلا عندما أوشكت الشمس على الغروب ، وفي الأيام التي تلت ذلك ، كان يرافقني البعض منهم صبيحة كل يوم . اشتريت من الحاج نجم عارضة من خشب الإثل كانت تستخدم في أحد الآبار ، وجرى إحضارها من قرية العلا : وأحدث الرجل العجوز (الحاج نجم) حزوزا(*) حتى يمكن الاستفاده منها في التسلق والصعود والنزول ، ثم جرى نقل هذا السلم النقالي على كتفي اثنين من الرجال إلى منطقة البيبان ، وكان يجرى نقل ذلك السلم من أثر إلى آخر كلما تطلب الأمر ذلك . صعدت فوق السلم وبصحبتي فروخ كبيرة من ورق الشفاف ، والماء ، وفرشة دهّان ، إضافة إلى قطعة من الإسفنج ، حتى يتسنى لي شَفُّ النقش . أعطاني ورق الشفاف المبلل بالماء طابعا رقيقا وأمينا (كانت ترى فيه كل حبة من حبات الرمل) لكل من اللوح الحجرى وكذلك الحروف . كان الحاج نجم نفسه يرافقنا كي يسند لنا عارضة الخشب (السلم) ، (حتى لا أسقط من فوقها ،) وبخاصة أنه قال إنه وقعت له أحداث كثيرة من هذا القبيل . استطعت خلال أيام قلائل شف كل النقوش التي لم تكن على ارتفاعات عالية في واجهات الآثار ، (انظر الصورة رقم ٣٨،) ومضينا قدما في شف بعض النقوش الأخرى في الوقت الذى كان يجرى فيه تجفيف الفروخ الورقية السابقة . أثناء العودة من تلك الأرض الجرداء ، كان المنظر جديدا علينا جميعا ، أن نرى أن الآثار المحفورة أو الغائرة على شكل تحفة أثرية تحت منحدر جبلي شاهق ، وقد تعلق الورق الأبيض من فوقها في ضوء الشمس كما لو كان فراشا أبيضا ؟- ولكني عرفت أنهم أضافوا إليها ، في أضعف الأحوال ، لغزهم الغريب القديم ! شواهد القبور هنا غير متحللة تماما ، بعض آخر منها تأثر بفعل الطقس وبمرور الزمن . وأسعدنا الحظ بإنهاء أو إنجاز العمل المطلوب ، ومع ذلك تبقى أكثر من نصف الألواح التي كانت تحمل نقوشا ولكنها كانت أعلى بكثير عما يمكنني الوصول إليه .

(*) واحدة حز ، وهو نوع من التثليم في طرف قطعة من الخشب . (المترجم)

توقف خروجنا فى الأيام التى تلت ذلك بسبب حادث سعيد فى الجزيرة العربية يتمثل فى سقوط الأمطار . كان هناك سديم يميل لونه إلى الزرقة ، يغطى كل حدود الحرّة ، وهنا أرعدت السماء المضطربة ؛ وعندما داهمتنا قطرات المطر ، راح العرب يحمون بنادقهم الفتيلية تحت بشوتهم (عباءاتهم) الكبيرة ، وأخذوا يجرون فى اتجاه القلعة . بدأت الريح تهب أسفل السحب ، وراح الوابل يتساقط ، واستمر سقوط المطر إلى ما بعد دخول الليل . وهنا قال العرب : "الحمد لله ، سيزيد السمن هذا العام ." وفى الصباح أمطرت السماء أيضا ، ومن برج القلعة شاهدنا الصحراء الجافة وهى تنبعث منها أصوات طرطشة الماء ؛ وبالرغم من كل ذلك لم يفض سيل الحجر ؛ إذ لم أجد سوى قلة قليلة من برك مياه المطر العذبة ." – قالوا عندئذ ، ياليت يحمينا الله من الجراد !" الذى قال عنه المسنون منهم إنه قد يعود فى ذلك العام : هؤلاء المسنين لديهم إعتقاد مفاده أن بيوض الجراد من السنوات السابقة تفقس فى الأرض بعد سقوط الأمطار . أما السمن ، الذى هو ثروة الصحراء ، كان يباع بعد فترة طويلة من الجفاف بواقع ريال واحد لكل ثمن جالون ، وذلك فى قرية العلا .

ولكن ماذا عن ذلك الطائر المنحوت على واجهات الأقبية والسراديب التى تحفظ فيها رفاة الموتى ؟ [انظر الصورة رقم ٣٥]كان من بين أفكار العرب عبدة الأوثان ، أن الروح كانت تخرج من مخ الإنسان على شكل طير جائل ، وهى تشكو ، وسط ذلك العطش ، من الأخطاء التى لم يجر التكفير عنها ، ومن هنا كان الأصدقاء يسكبون على قبور أصدقائهم النبيذ إكراما لأرواح أصدقائهم . وهم يقولون لذلك الطائر "الطير الأخضر" ، وبعض آخر من العرب يقولون إن ذلك الطير عبارة عن بومة أو نسر . ومعروف أن عمر النسر يقدر بحوالى ألف عام ، وذلك نقلا عن تراث الساميين وأعرافهم . وفى سوريا عثرت على بعض المسيحيين الإغريق (اليونانيين) الذين أقروا تحت ذلك الطير على هذه الشاكلة ، "سيجدد شبابه مثل نسر من النسور ." هذا الطير الأثرى يجرى نحته دوما . كما لو كان يستعد للطيران ، بأن يظهر جناحاه مفرودان أو شبه مفرودان .

منحوت فى جدول قلة قليلة من الآثار ذات حليات مثلثة الشكل موجودة فى أعلى البناء ، وبخاصة فى صخور قصر البنت ، ومنحوت أيضا شكل عام (شبه مستهلك)

لتمثال عبارة عن وجه بشرى (انظر الصورة رقم ٣٦) . وبعد أن وقفت على السلم العارضة ، أسعدنى الحظ بأن أصبحت قريبا جداً من أحد تلك الأشكال العامة هو الوحيد الذى بقى سليما ولم يلحق به الضرر ؛ ونظرا لأن الكرانيش المنخفضة المنحوته كانت تشكل عائقا ، فلم أستطع تمييز ذلك الشكل العام من الأرض . اكتشفت أن رأس ذلك التمثال كانت تشبه القناع الكوميدى ، وكان لها أنف أفطس وذقن غير كثة من حول وجه يشبه الشمس . هذه الصورة القبورية (*) كانت تكشر عن أنيابها وتبرز لسانها . وكان شعر ذلك الرأس يتدلى فوق الأذنين مثل "قرن" طويل ، أو إن شئت فقل على شكل خصلة شعر البدو . والإنسان إذا ما نظر إلى هذه البرقة ، قد تخطر على باله من جديد كلمات (النبى) إشعياء ، أحد كبار أنبياء اليهود عندما يقول : "ضد من فغَرْتَ فاهك ، وأخرجت لسانك ؟" استدعيت رفاقى الذين صعدوا السلم الدعامة من بعدى ، وبعد أن ألقوا نظرة على الساخر الحجرى العجوز ، واستهزءوا به مرة ثانية ، نزلوا من السلم وهم يضحكون بصوت مرتفع ويتعجبون .

الشرق السامى هو أرض المقابر ، وسوريا ذلك البلد المكون من الحجر الجيرى ، ملىء بالمقابر ، المحفورة تحت كل جانب من جوانب التلال . هذه المقابر تحولت فى الوقت الراهن إلى مراحات وإسطبلات للرعاة ، ومنها ما تحول أيضا إلى أوكار للمخلوقات البرية ، "ملوك ومستشارو الأرض بنوا تلك المقابر لتكون أماكن قاحلة ومهجورة" ؛ ولكن (النبى) إشعياء سخر فى زمنه من "مساكن الموتى" هذه .– هذه هى أراضى عقيدة البعث ، هذه الأراضى هى بالميرا ، وبيترا **Petra**، والحجر **Hejra**، التى تقع على طرق البلدان الصحراوية ، كانت كلها عبارة عن واحات للزراع أكثر منها محطات للقوافل . فى كل هذه البلدان يشاهد المرء الكثير من المقابر الفاخره ، كانوا يستعملون المبانى الطينية ليمضوا فيها حياواتهم القصيرة ، كما كانوا يستعملون الأحجار والأعمدة المربعة للإشارة إلى حياة الدولة . ومعروف أن الاهتمام بالقبر ، وكذلك الوقوف على فناء الإنسان ، من أجل الوصول إلى الخلود كلها كانت أمور لا يرقى إليها الشك فى الأديان القديمة ، أو إن شئت فقل الأديان الخالية من الضعة

(*) نسبة إلى القبر . (المترجم)

والهوان وإجمالي الغرف الجنائزية في مدائن صالح ، لا يزيد من وجهة نظرى عن مائة غرفة . هذا يعنى أن حوالى مائة أثر لحوالى مائة أسرة من أجيال عدة لا يمكن اعتبارها إشارة إلى مدينة عظيمة . ومن هذه المعطيات يمكن لنا تقدير عدد السكان العرب بما يقدر بحوالى ثمانية آلاف نسمة ؛ أى بما يقدر بعدد سكان بلدة عنيزة فى هذه الأيام ، والتى تعد عاصمة لنجد .

طبقا للدين الجديد يجرى لف الميت فى قميص من القماش البفتة الأبيض (وهذا ينطبق على الجميع بدءا من الأمراء إلى أفقر الفقراء ، وبدءاً أيضا من القرويين إلى البدو المترحلين ،) ثم يوضع جثمان الميت فى حفرة ضحلة من الأرض الجافة ، ويضع أصدقاءه فوق قبره رأسا (شاهدا) من كتل أحجار الصحراء . حزقيال يتحدث عن دفن الأمم القوية العاتية فى جهنم حيث يقول : جهنم ، حفرة القبر ، هى بعمق الأرض ، مملكة الموتى ، القبور متوزعة (كما رأينا فى مدائن صالح) فى أركان الحفرة من حول حوض جنائزى (الذى هو هنا الأرضية الموجودة فى الوسط) . ونحن نقرأ عند إشعياء أشياء من هذا القبيل : "سوف تؤخذ بابل إلى جهنم ، إلى جوانب تلك الحفرة ." مسألة الدفن فى جوانب الحفرة ما هى إلا استعمال خرافى جاء به سكان الجزيرة العربية القدامى وربما كان ذلك خوفا من الضبع . كيف كان الموتى يوضعون فى المقابر فى الحجر ؟ لقد عثرنا على البخور أو مادة تشبه التوابل ، وعثرنا أيضا على قماش التكفين ، وبعض اللفائف الأخرى ، كما عثرنا أيضا على أكفان من الجلد ، فى بعض الآثار : لم نجد سوى انجرافات رملية عميقة فى السواد الأعظم من الأماكن ، بل إننا لم نشاهد عظاما على الإطلاق ؛ يضاف إلى ذلك أن أرضية الغرفة فى كثير من تلك المقابر لم تكن سوى مجرد صخر ليس إلا ، ومن المحتمل أن يكون أهل الحجر قد دفنوا الموتى مثلما كان يفعل اليهود فى ذلك الوقت (راجع يوحنا السورة ١٩ الآية ٤٠) ولوقا السورة ١٦ الآيه رقم ١) ، حيث كانوا يعطرون الجثث ، كما كانوا يلفون الجثه بعدة لفائف من أنواع مختلفة من الكتان (عثرت على ثلاثة من تلك اللفائف ، بنية اللون وتفوح منها رائحة العقاقير التى يستخدمها المُحنطون) ومخيطة فى قطعة من الجلد الداخلى المدهون باللون الأحمر ، كما عثرت أيضا على جلد خارجى ، ربما كان جلد ماعز أو جلد جمل ، وكانت مخيطة بخيوط من الجلد ، ومضمخة بالأسفلت (الزفت) .

ولكنى لم أر لحم أية مومياء من المومياوات ، ولم أر أى نوع من الشعر أيضا . وفى البلدان المسالمة يمكن بحث واستكشاف الآثار بتأن خلال متسع من الوقت . وأنا لم أذهب قط إلى ذلك المكان على انفراد ، ولكنى مع ذلك غامرت بحياتى .

كنت فى تعاملى مع العرب أحتقر حرصهم البالغ المشوب بالخوف . وأنا عندما قلت لمحمد على أن غرف تلك القصور كانت مقابرا ، ابتسم ، كما لوكان سهما قد اخترق كتابه المقدس(...) (*) ، وسامحنى فيما قلت ، من منطلق أنه يرانى على أننى فيلسوف طبيعى فى مسألة الدين . قال محمد على "عجيب!" وهو يطيل النظر إلىَّ مسرورا ؛ وقد سبق له رؤية الصخور وهى مليئة بالقبور فى أجزاء كثيرة من سوريا : ويبدو أن الكلمة التى قلتها أقنعت فيما بعد كلاً من أفراد الأورطة السورية وضباط الحاج نجم ، بالرغم من أن قلوبهم الإسلامية كانت تحتقر كفر ذلك المسيحى .

فوق صخرة الحوراء el-Howwâra، التى فى سهل مدائن صالح يكمن كنز كبير (من وجهة نظر المغاربة الموجودين فى القلعة) مخبأ فى غرفة صخرية تشبه البرج الصغير ؛ وهذا الكنز يرعاه ويحرسه عفريت . وهم يطلقون كلمة عفريت على أرواح الميتين الأشرار ، التى تحوم – مثلما يحوم الذباب حول مقلب القمامة – حول أماكن الدفن (المقابر) . والعرب يقولون : إن أخذ ذلك الكنز عملية مميتة ، إذ "سيقاتل الملوك بعضهم بعضا ، وستدمر القبائل العربية بعضها بعضا . وفى ذلك اليوم لن يغيث الصديق صديقه ، ولا الشقيق شقيقه :" حسبما قاله الحاج نجم . كنت قد سبق لى إلقاء نظرة على صخرة الحوراء من فوق الحرّة ، ومن هنا فأنا أقطع وأؤكد أن سطح تلك الصخرة مستوٍ، وليس سوى حلبة سوداء من الحمم البركانية المتجمدة ؛ منها إلى حوالى مائة قامة (أى ما يعادل ستمائة قدم) (انظر الصفحة رقم ١٢٣) . أكثر من ذلك ، أن الحاج نجم روى لنا عن مجىء أحد المغاربة إلى تلك المنطقة قادما من المدينة المنورة ، منذ سنوات قلائل ، بعد موسم الحج بفترة قصيرة ؛ كان ذلك المغربى فى طريقه إلى سوريا ، وبقى فترة قصيرة فى القلعة . ونظر ذلك الرجل الحكيم فى كتب

(*) وصف غير لائق للقرآن ، يدل على تعصب مذموم من قبل المؤلف للمقدسات الإسلامية رأينا استبعاده . (المراجع)

السحر ، واتضح له أن الثروة موجودة فعلا فوق صخرة الحوراء ؛ ولكنه قال : إنه لن يجرؤ على رفع هذا الكنز . "أنا لا أريد شيئا لنفسى ، وقد وجدت أنه مكتوب أيضا أنه إذا ما أخذ ذلك الكنز ، فسوف تحدث كوارث هائلة ومصائب كبيرة ." هذا المغربى نفسه ، وهذا نقلا عنهم ، بكل معرفته وتراثه الأدبى الأسود ، كان روحا طيبة ، وتصادف أن وصل بعد ذلك إلى بلدة معان ، استقبله الأغا الكردى فى المنطقة استقبالا وديا ؛ وكان ذلك الأغا الكردى قد تزوج من الابنه الوحيدة لمحمد سعيد باشا : وقيل أيضا إن ذلك الضيف الحكيم ، قام من باب احترامه وتقديره لمضيفه ، باكتشاف شىء ما ، قبل رحيله ، فى تلك الآثار القديمة (الحمَّام) ، التى تقع خارج القرية . فقد تسلل الضيف والمضيف فى جوف الليل إلى ذلك المكان ، وملأ ذلك الأغا الكردى الحظيظ عينى خرجه بالنقود التى كانت كلها من الذهب الأحمر ؛ ومع ذلك لم يأخذ ذلك الفيلسوف شيئا لنفسه . "صاح محمد على قائلا : أستطيع تأكيد كل ذلك ، نظرا لأنى فى ذلك الوقت كنت أخدم فى بلدة معان ، وأنا أقسم بالله على ذلك ، وأقسم أنى رأيت ذلك الذهب ، فضلا عن ثقتى بما قاله الأغا ."

خرافات الشرق رائعة ؛ ومع أن الحقائق قد تكون على ألسنة الكثير من الشهود ، إلا أنه من الصعب تصديقها ، ومع ذلك تظل الدنيا عندهم مليئة بالمعجزات والخوارق . فى الوقت الذى قمت خلاله بزيارتى كان فى سوريا مسيحيان ؛ كان أحدهما شخص غريب ينتمى إلى الديانة الفارسية(*) ، جرى وضعه ، بواسطة الحكومة العثمانية ، بصعوبة بالغة فى منطقة غزة . أما المسيح الثانى ، فقد كان كتلة من الجهل والنفاق الصوفى ، وحالم دينى على المستوى الأكبر . ولما كان ذلك الشخص قد ولد فى ظل الديانة المسيحية ، فقد راح يتقلب بين اليهودية والإسلام ؛ 'أخبرنى بصوت مرعب ومخيف ، أن اسم الله منحوت بين حاجبيه :' ويجب ألا يغيب عنا أن تلك الكتابة السماوية كانت باللغة العربية ؛ هذا يعنى أن هذا الرجل كان بين حاجبيه علامات تشبه إلى حد ما النقش الذى يدل على كلمة *'الله'* . بهذا النص ، هو يوصِّل إلينا نحن المسيحيين وبطريقة غامضة ، أن اسمه الصوفى كان سماويا ! وأنه هو نفسه كان

(*) من المرجح أن المؤلف يعنى بالديانة الفارسية المذهب الشيعى . (المراجع)

مسيح Messias الظهور الثاني . كان ذلك الشخص من مواليد اللاذقية ، ومن خلال هذا المولد أيضا ، هو والجهل الهمجي الوحشي بالحروف الإغريقية ، وجد في نفسه شاهداً من شواهد الكتاب المقدس . هذا الرجل تنبأ لهم بثقة شديدة ، أن الوقت قد أصبح وشيكا ، والذي سيتعين عليه فيه أن يتحرك راكبا من سوق الخيول في دمشق في طريقة إلى العظمة السرمدية ، وقال أيضا إن كل الأشياء تحققت فيه ، وأن أبناء أدم يتعين عليهم العودة إلى ربهم ، وأن كل ذلك ينبغي أن يظهر بوضوح في العالم كله .
كان ذلك الشخص مسلما عندما يكون بين المسلمين . وقد استمعت إلى نكات المسلمين البذيئة التي تحتقر وتزدري ذلك الشخص ، سمعت تلك النكات ذات مرة بينما كنت أمشي معه في الجامع الرئيسي ، وهو يقول (وبخاصة عندما يقابل البسيطات والساذجات من الحريم والنساء ، بالقرب من البوابة) بصوت عال مهمهمًا : "يا لعظمة محمد ! نعم ، أيها الناس ! إنه رسول الله !" كانوا يسخرون منه قائلين : "مرحبا ، يا بني !" لم يثق المسيحيون بذلك الشخص . بل أنني نفسي سمعت بعض النساء الساذجات ، وهن تخفن وتخشين رجلا على هذا القدر من التصرفات التي يُهْدَف من ورائها إلى التضليل والخداع ، وتطلبن منه أن يتنبأ لهن بالأحداث الخطيرة في تلك الأيام ،- أو بالأحرى : "هل سيذبح النصارى أم لا ؟" كان ذلك الشخص يتنبأ لهؤلاء النسوه بأشياء مريحة ؛ قال إنهن لن يصيبهن أي أذى ، وأن تلك المتاعب ينبغي أن تنتهي أو تزول في وقت قريب ، وتسود بعدها مملكة المسيح . يضاف إلى ذلك أن ذلك الشخص ، كان يكشف لبعض المؤمنين الذين كانوا يلجئون إليه في لحظات معينة ، عن أدلة لبعض المعجزات ، من ذلك مثلا ، أن ذلك الشخص السماوي هو وزوجته كانا يقومان بحركة مهيبة يصليان بعدها على قليل من الماء ، ثم يتلو على ذلك الماء بعض الحكم الصوفية ، ثم يفرد يديه ، ثم يتحول الماء بعد ذلك إلى نبيذ . وقد رأى هذا العمل رجلا مسيحيا ساذجا من الرجال الذين أعرفهم . وذات مرة صادفت ذلك الشخص في الشارع وطلبت منه أن نيمم السير ، من باب إحسانه هو ، إلى دار المعتوهين ، أو إن شئت فقل : نيمم السير إلى المورستان : ظنا مني أننا قد نستطيع بفضل قوته المستمدة من الله ، شفاء جسم سقيم ، ووافق الرجل على ذلك .- وعندما دخلنا المورستان بعد أن تجاوزنا القضبان والبوابات ، تسلم ذلك الرجل من البوّاب كأسا من

الماء حمله في يده ، ثم اقتادني بثقه إلى هؤلاء المساكين . كان ذلك الرجل قد وعدني أنه إذا ما عثر على معتوه غاضب وثائر فسوف يعيده إلى الهدوء مرة ثانية بذكر اسم الله فقط : ولكن نظرا لأن كل المعتوهين كانوا هادئين وغير غاضبين أو ثائرين ، فقد اقترب ذلك الشخص من رجل مسكين كان يجلس في قفص من الأقفاص ، وسأله عن اسمه وعن بلده وعن حاله أيضا . وأجاب هذا السجين الحزين عن كل الأسئلة إجابة جيدة ومتحضرة ومؤدبة أيضا . قام ذلك الرجل الكذاب ، بعد أن صاح قائلا 'الله!' وبعد أن نفخ في الماء ، ناوله للمعتوه من خلال قضبان القفص ، طالبا منه أن يشرب منه أكبر كمية ممكنة ، وأنه سوف تعود إليه صحته ، بمشيئة الله : وتلقى المعتوه ذلك الماء شاكرا . (قال صانع المعجزات) : ألم ترى ما فعلت ! هيا بنا نعود من حيث جئنا ." وبعد أسبوع أرسل لي ذلك الشخص كلمته السماوية التي مفادها أن حال ذلك المعتوه قد تغير وتعدل وأنه كان على وشك العودة إلى منزله وهو بكامل قواه العقليه ؛ – وألازلت لا أصدقه ؟ ' صانع الأعاجيب هذا ، بعد أن تجول خلال كل النِّحل المسيحية ، وخلال اليهودية ، ثم اعتنق الإسلام بعد ذلك ، على أمل ، كما قال جيرانه المسيحيون ، الدخول مره ثانية في نحلته الأساسية : كان ذلك بعد أن وضع كل ميراثه الضئيل في ربًا usu-ary آثم ، عند المسلمين المعسرين غير القادرين على السداد :– وهم بعد أن ابتلعوا خير النصراني ، احتقروه ؛ والمسيحي لا يعلق أمالا كبيرة على مقاعد العدالة الإسلامية . وبذلك يكون ذلك البائس قد سقط بين مقعدى دينه الطبيعي ودينه المنتحل ، فضلا عن أن معاشه الضئيل انتقل من بين يديه هو إلى أيدى أخرى شرسة الطباع ، وكان ذلك هو مصدر كل أحزانه : هذا يعني أن ذلك المرتد لم يجد إحسانا لا في دينه الطبيعي أو دينه المنتحل . زد على ذلك ، أن همس الشعب المسيحي ألصق به ذنبا بشعا . في أيام الرخاء كان هناك صبي يخدم ذلك المرتد ، وذاع عنه أنه كان يضرب ذلك الصبي ضربا مبرحا . وبعد ذلك بفترة من الزمن ، عندما لم يعثر الناس على الصبي ، تهامس الجيران ، "بأنه قتل ذلك الصبي ودفنه !" في آخر مرة شاهدت فيها ذلك المتقلب الديني ، كان قد تحول إلى رجل صامت أكثر حزنا وغما ؛ هذا السكير الكبير أصبح يضع على باب كوخه صليبا كبيرا ، في الحي المسيحي . قال عندئذ بصوت رخيم : "إنه لم يكن سوى مخطئ وأنكر علي وهو يهز رداءه الأسود وقد علا الرعب محياه ، بأن ما رأيته

عليه كان هو مظهره السابق . "لا وألف لا !" وحاول ذلك الرجل صاحب الكلام المعسول أن يقنعنى أن "الأمر كله لا يعدو أن يكون مجرد كلام يتشدق به الناس" وجدت ذلك المتقلب الدينى منكبا ويكاد يبكى على كتاب ، أخبرنى "أنه حكمة عجيبة وصحة للروح ، كما أخبرنى أيضا أن نسخ هذا الكتاب كلفه الكثير من المال ." والجدل فى ذلك الكتاب يدور حول مخلوقات الله ، وحول الوحوش ، وكيف أن كل وحش وحيوان من الحيوانات (بعد تلك الوحوش والحيوانات التى ورد ذكرها فى المزمور ، المعنون "يشكر الله من الأرض ، كل الوحوش والحيوانات ، والأشياء الزاحفة ، والطيور ذات الريش ") يسلم حياة العبادة لله . قرأ علىَّ ذلك الشخص درسه الأخير "عن أصوات المخلوقات الحية " ، وعندما وصل إلى الجمل قلت : "انظر هناك ! كل صوت من أصوات الجمال يشبه اللعنه ، إنه حيوان لعين " وقال ذلك المتقلب : "أنت مخطئ ، هذا الصوت الذى يحدثه الجمل فى حلقه إنما هو أنين الجمل وشكواه إلى الله .- انظر إنه مدوّن هنا ! - صلاته من أجل الصبر تحت وطأة الضغوط ، بقدر ما يكون شريكا فى متاعب الإنسان ." كما أبلغنى جيران ذلك الرجل ، أن القسم الأكبر من إعاشة ذلك الرجل المؤسف المذرى ، تتجاوز حدود كيسه ، إلى الأعشاب ، ذلك الغذاء المرطب الذى لديه المتسع من الوقت ليقوم هو بجمعه من الحقول البريه .

وبينما كنت أتجول فى فلسطين وصلت إلى مكان أرانى فيه المسلمون قبرا للنبى يونس . وقد منعنى الراعى الأعمى المبجل الذى كان يقوم على أمر ذلك الكنيس ، من الدخول إلى ما بعد الغرفة الأثرية ، وروى لرفاقى كيف أن شابين متهورين من شباب القرية تجرئا منذ سنوات قلائل ، على الدخول إلى قبر النبى ، "ولكن ، آه ! والله يا سادة ، لقد خرجا من القبر عميانا !" وهنا هز ذلك الشايب الريفى رأسه أسفا مرة ثانية . هنا كان بوسع هؤلاء الأشخاص السذج من الناس ، بعد التركيز على المعجزة ، أن يصطحبوا نصف سكان القرية ليشهدوا على ذلك . ومن الواضح أن الإنسان كلما طال مقامه فى زمن الأساطير أو فى بلد من بلاد الأساطير والخرافات ، ضعف حكمه وتمييزه . صحيح ومؤكد أننى سمعت أساطير لها قيمتها عن العرب من أفواه كثير من الأوروبين الذين أمضوا فترات طويلة فى الشرق East . لقد شعرت مرارا بالعزله والخراب فى مسكنى ، وأنا أحاول ، فى ذلك العالم المعادى ، محاولة جادة : العثور على

دليل أو برهان واحد على أقاويل الناس (شبه العقلانية) التى تتعارض مع منطقى أنا وحدى ؛ وبالتالى ألا يتعين أن أبدو لهم ، وبخاصة عندما أختلف معهم فى الرأى – شخصا منحرفا ومصراً على المضى قدما فى انحرافه ، وغير عقلانى ؟ يضاف إلى ذلك ، أن الكثير من الأشياء العجيبة تتهاوى كل يوم طبقا لعقيدتهم اللهم إلا إذا لم نصدق هذه الأشياء كلها ؛ إضافة إلى أن عالم هؤلاء العرب يبدو لروحك كما لو كان كوكبا آخرا من كواكب الطبيعة . من ذلك مثلا أن سحرتهم الدينين يتكلمون مع الجان ، وهناك الكثيرون من الشهود المؤمنين الذين يؤكدون يوميا الاكتشاف القبلانى(*) للأشياء المخبأة . ولأن العرب مغرمين إلى حد ما بالترقب والتوقع والانتظار ، حتى معى أنا الغريب عنهم ، فقد أشاعوا عنى فيما بعد ، فى قرية تيماء ، أننى أثبت بعض المعجزات . هناك البعض منهم الذين أكدوا بالقسم أن "خليلا شوهد أثناء الليل وهو يرفع الأحجار ، من الوزن المخيف ، ليخرجها من حفرة البئر الأثرية ، وأنه كان يفعل ذلك . بمجرد لمسة واحدة من أصابعه ؛" فى الوقت الذى كنت أنا فيه غارقا فى النوم ، داخل مخيم الأعراب ، على بعد مسافة نصف ميل تقريبا .

وأنا عندما كنت أسأل أى واحد من أولئك البدو الرحل الذين يعيشون فى تلك الحرّة الكبيرة ، عن الفراغ أو الوديان الرئيسية ، كان يبدأ فى أغلب الأحيان إجابته بضرب الرمل مستخدما فى ذلك مشعابه ، أو باستخدام أحد أصابعه فى المسحوق الناعم الذى يغطى أرضية القلعة ، كى يوضح لى اتجاه الوديان . وقد أخبرونى أن تلك الأجزاء لم تكن سوى سيل فى وادى جزل Jizzl؛ وقال بعض منهم إنها جزء "من وادى الحمض" el-Humth ؛ ثم قالوا لى بعد ذلك "إن الجزّل والحمض إنما هما وادٍ واحد ." ووادى الحمض ينحدر من خلف المدينة (المنورة) عن طريق الحنكية . ووادى جزل يستقبل الأمطار القادمة من جانبى الحرّة ، ثم يمتد متجها صوب المنطقة السفلى من قرية العلا فى وادى الحمض ، الذى يتجه غربا من خلال تهامة(**) ، ثم يتجه بعد ذلك

(*) القبالة : هى التعليم النقلى التصوفى عند اليهود (المترجم) .

(**) سميت تهامة بذلك الاسم نسبة إلى " التهم ؛ وهو شدة الحرارة وركود الريح . كما سميت أيضا " بالغور " لانخفاض أرضها . وتمتد منطقة تهامة من السواحل الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر من اليمن جنوبا إلى العقبة شمالا ، ويحجزها عن داخل شبه الجزيرة العربية سلسلة جبال الشرات التى تعد أعظم جبال العرب . (المراجع)

نحو البحر الأحمر في المنطقة ما بين الوجه وينبع . ووادى الحمض واحد من الوديان العظيمة – وقد مثلوه بوادى الرماح . (انظر الخريطة التى فى نهاية الجزء الأول) ثم سمعت بعد ذلك فى خيبر أن وادى الحمض يبدأ من نجد فى بلاد أكثر ارتفاعا من منطقة مكة . هذان الواديان الكبيران يصل طول الواحد منهما إلى ما يقرب من عشر درجات ، وهما مثل سائر كل وديان الجزيرة العربية يخلوان من الماء بصورة مستمرة . وقد سمى وادى الحمض بذلك الاسم نظرا لكثرة نمو أشجار وأدغال الحمض الصحراوية ، والتى تعد طعاما جيداً للإبل ، وبخاصة فى منطقة تهامة .

وصل النَّجاب (ساعى البريد) : وأفاد بأن الهدوء يسود دمشق . وقال إنه فوجئ بطقس بارد وضباب كثيف فى أرض Ard الصوَّان es-Suwwan، وأقسم لنا ذلك الشرارى Sherary بأغلظ الإيمان أنه لم يكن يرى يديه طوال يومين ، وأنه كاد أن يموت . كان صبى من ولاد Welád على Aly ينتظر مجيء النجاب كي يواصل المسير بحقائب البريد المتجهة إلى المدينة (المنورة) .– وصلت رسائل من دمشق إلى محمد على ، وأوفد الصبى محمد ليستمع إلى تلك الرسائل وهى تقرأ عليه فى قرية العلا ثم يعود لإبلاغ ذلك الذى قرئ عليه . كانوا يظنون أن بمقدورى قراءة البطاقة البريدية ؛ وبينما كنت أتفحص تلك البطاقة فى ضوء وجار القهوه قال نجم Nejm : " قد يكون ذلك سلام وتحية من الحريم ." – "(رد محمد على ، متجها بوجهه صوب نجم قائلا :) منذ متي يرسل الحريم (وهم يحسبون أن مهمتهن فقط هى أعمال المنزل) تحياتهن ؟ ومن هو ذلك الرجل الذى يهتم بإرسال تحية إلى الحريم !"

فيما يتعلق بالحياة العائلية هناك فجوة فيما بيننا وبين العرب ؛ فالعرب يعتبرون حب الزوجة أمر لا يمت إلى الرجولة بصلة . وفى إحدى المرات لمس محمد على هذه المسألة أو إن شئت فقل : ذلك الفارق على مسمع ومرأى منى عندما قال : "أثناء خدمتى فى بلدة معان جاء أحد الفرنجة ومعه زوجته إلى وادى موسى Mûsa، ومعهما مجموعة من الجمال التى كانت محملة بالمتاع والخدم ؛ الأمر الذى جعلهم يبدون لنا وكأنهم من نسل الأمراء . وقام حادى إبلهم بعد أن دخل وادى موسى بتقديم الهدايا لشيوخ الحويطات كما قدم هدية أيضا لشيخ قرية العلجى . ولكن عندما ترك ذلك الفرنجى زوجته لتنال قسطا من الراحة فى الخيمة ، وذهب لمشاهدة الآثار القريبة من

المكان ، سارع بعض آخر من بدو هذا المكان الرحل المهلهلين ، بالنزول من الجبل ، ودخلوا مخيم الفرنجي وهم يصيحون ويحملون العكاكيز في أيديهم ؛ وعندما وجدوا المرأة لوحدها ولم يجدوا من يعترض طريقهم أو يوقفهم عند حدهم ، وضعوا أيديهم السوداء عليها ، وهم يصيحون قائلين : "فلوس ، فلوس !" – ورجع الزوج على أثر سماع ذلك الصياح والضجيج الصادر عن البدو ، وكانوا قد رأوه أثناء قدومه ، وهنا استل كل واحد منهم سيفه القصير ، واستعدوا كما لو كانوا سيغمدون سيوفهم في عنق زوجته ؛ ولو توقف ولو للحظة ، كي يتبادل معهم التواصل عن طريق الإشارات ، فلربما وصلت سيوفهم إلى حلق زوجته . وهنا استدعى مترجمه وهو شبه يائس وطلب منه أن يعطيهم أي شيء ، بل وكل ما يريدونه . وهكذا يعود ذلك الفرنجي مبهوتا ، ليرى زوجته يائسة ومهجورة بين أولئك الشياطين ، الذين لم يكن يعنيهم سوى أخذ شيء من مال هؤلاء الفرنجة . " وأردف محمد علي يقول : "كم هذا الرجل الفرنجي مفرط في حب زوجته !" كان هذا في رأي محمد علي ، هو سفر الفرنجة أو ترحالهم في البلاد السورية ، – وهذا هو الحب الزيجي المقيت (حسبما قال محمد علي) "في الحياة الإفرنجيه المقيتة أيضا ."

اقترب موعد عوده قافلة الحج ، وبالتالي زادت نسبة الخطر في البلاد . وها هي زوجات بدو الفهجي Fehjy غادرن المكان ذات صباح ومعهن الجمال كي يحضرن حزم الأعشاب والحشائش التي كن يكومنها في الثنيات التي بين جبال الصحراء . لم تعدن تلك الزوجات مع حلول المساء ، ومعروف أن مثل هذه المسافة تسمح لهن بالمجيء والذهاب مرتين على أقل تقدير خلال هذه الفترة الزمنية ؛ وهنا خطر ببالنا أن تلك الزوجات ربما تكن قد ضللن طريقهن وربما يكون الغزاة قد استولوا منهن على الجمال . كانت الشمس قد غربت عندما شاهدناهن قادمات . هذا يعني أن هؤلاء النساء قد تسكعن طلبا للتريض على الطريق ؛ ولكن واحداً من أزواجهن الذي مرت الساعات عليه ثقالا صاح قائلا : "والله ، كل الهموم التي تصيب حياة الرجال هي من فعل الحريم الملاعين !" – ويتعين على الضعفاء تحمل الأحمال كلها ، ويتعين أن يقع اللوم كله على الحريم ، في حياة البدو المترحلين . كان ذلك بائسا مرفها ؛ وهم يطلقون على مثل هذا الرجل اسم فردوس Fardûs، وهو شخص زائف ، مثل العرق الذي ينتمي إليه ؛

شخص من عالم قديم ، كان يتحفنا إلى حد ما بمزاحه البطيئ الذى يشبه مزاح الغجر .
ونظرا لأن هذا البائس كان يفهم أن النصارى أكثر صدقا من المسلمين ، فقد جاء إلىَّ ذلك الرجل ليستودعنى فى غرفتى ، وعلى مرأى من الأغا ، ومعه جوالا بداخله معدات الشحاذة ، وبعض النقود . قلت له إنى لن أقبل هذه الوديعة ، إلا إذا أطلعنى على تلك النقود وأرانى فى أى ركن من الجوال يحفظها : وأرانا بالفعل المكان الذى خبأ فيه النقود ، التى كانت عبارة عن ثمانية ريالات كسبها من قافلة الحج ، وكان قد وضع تلك النقود داخل رقعة ركنية عند فتحة الجوال ؛ والبدو يستخدمون ذلك النوع من الجوالات فى نقل الحصى . "قال محمد على : انتبه إلى ألاعيبهم ! الأعراب مكارين !" يضاف إلى ذلك ، أن أرملة مسكينة من عرب البوابة مرت على ذات مرة عندما كانت تقصد الذهاب إلى الصحراء ، وأودعت عندى قدر طبخها الكبير ، إضافة إلى مهرها الضئيل ؛ وفى يوم وصول قافلة الحج جاء حسن إلىَّ ليضع عشر بنادق فتيلية جاهزة للاستعمال ، فى غرفتى ، وذلك من باب الدفاع عن هذا الركن من أركان القلعة ، كما وضعوا عندى أيضا حمولات بعض الإبل ، والتى كانت عبارة عن مخزونات من مخزونات الحج ؛ كانوا جميعا واثقين من أمانة النصرانى . هذا الرأى الذى تكوَّن لديهم عن أمانتى ، من بعد النظرات الشرسة التى تدل على التعصب وعدم التسامح عند الساميين ، كان لصالحى ولمصلحتى فى مناسبات كثيرة فيما بعد ، الأمر الذى أدى إلى قبول كلامى بلا قسم أو حلف فى الجزيرة العربية .

كانت بركة المياه تقف عند مستوى معين ، وذلك من باب تعويض الماء الذى يتسرب من خلال أرضية البركة ، الأمر الذى كان يستوجب تشغيل آلة جلب الماء مدة نصف يوم بصورة مستمرة . حدث ذات يوم عندما كنت وحدى خارج القلعة ، وأثناء عودتى فى ساعة مبكرة إليها ، أن شاهدت كثيرا من البدو أمام القلعة فى حين كانت البوابة الحديديه مغلقة ، وبعد أن تلكؤا فى السماح لى بالدخول ، قال لى حسن : "جوم ، يا خليل ! هؤلاء أعداء ، وما الذى دفعك إلى البقاء خارج القلعة فى مثل هذه الأوقات الخطرة ؟" كان الواقفون أمام القلعة من ولاد على ، وقد أحضروا معهم حملا من الأقمشة أُخِذ من بضائع الحج ، التى جرى إسقاطها من على ظهر الجمل الذى كان يحملها بواسطة البدو الذين سرقوها ليلة أن كانت قافلة الحج قد تجاوزت قرية الأخضر

بمسافة صغيرة فى مضارب بنى عطية . لم يكن بالإمكان التعرف على اللصوص بسبب الظلام ؛ ولكن كان من المفهوم ضمنًا أنهم من أفراد قبيلة ولاد على : وقد حتم ذلك على شيوخ هذه القبيلة رد الحق إلى صاحبه الشرعى ، وإلا فإن ثمن هذه البضاعة سوف يخصم من قيمة الصرَّه التى سيحصلون عليها فى العام القادم . قام أصغر أولاد الشيخ مطلق ، شيخ ولاد على الكبير ، بإحضار تلك البالات المفقودة ؛ كان ذلك الولد يلبس عباءة (بشت) الحكم حمراء اللون ويتمنطق بحزام عسكرى ، كان يتدلى منه مسدسان قديمان من طراز الحصان . وراح البدو يعدون الأشياء التى كانوا يسلمونها فى القلعة ، وهى عبارة عن سترات للبدل العسكرية ، من النوع الذى يشد بالحزام ، وملابس نسائية زرقاء اللون ، وقليلا من العباءات ، حوالى اثنين وثمانين عباءة ؛ ولكن الأشياء الفخمة كلها لم تكن موجودة . هذه السرقات تحدث كل عام ، وياليت الأمر لا يمتد إلى اقتطاع بعض الإبل من القافلة أثناء مسيرها فى جوف الليل . فى العام السابق ، قام بنو عطية ، ذات صباح ، بالسطو على قافلة الحج ، التى كان يقودها هذا الباشا نفسه ، واقتادوا ما يقرب من مائتى جمل من جمال القافلة . وهنا قام محمد سعيد باشا ، الذى أمضى حياته منتصرا فى هذا النوع من العمليات الحربية ، بتجميع جنوده وأصدر أمرا بتوقف قافلة الحج : وجرى على وجه السرعة إحضار قطع مدفعية الميدان ونصبها ، ثم قام بإطلاق عدة دانات من تلك المدافع فوق رءوس اللصوص ، ثم أرسل جنوده بعد ذلك لمطاردتهم . وهنا ترك البدو غنيمتهم وتراجعوا ؛ وجرى بعد ذلك إحضار الجمال واستأنفت قافلة الحج مسيرها من جديد ،- واسم محمد سعيد باشا له وزنه فى كل أنحاء الصحراء هنا . وفى العام الذى غادرت فيه الجزيرة العربية ، سطا البدو على قافلة الحج المسافرة فى المنطقة ما بين الحرمين وقتلت (حسبما ورد فى التقارير) عشرين من رجال القافلة ، واستولت على الكثير من الغنائم ؛ كان الأعراب يصيحون أن ذلك السطو كان مفروضا عليهم ، نظرا لأنهم لم يتسلموا مبلغ الصرة كاملا . والمؤكد أنه حدث شىء من التلاعب فى توزيع النقود الحكومية ، وأن بعض الكبار تصرفوا فى المال الذى كانوا مؤتمنين عليه لمصلحتهم الشخصية الأمر الذى أودى بحياة كثير من الحجاج المساكين الفقراء العزّل . وقد أخاف ذلك الضابط التركى العظيم ، إلى حد أنه رفض الحج بطريق البر ، تحاشيا منه لرؤية هؤلاء البدو الهمجيين

الذين اسودت وجوههم بفعل الشمس ، وفضل على ذلك الحج عن طريق البحر على ظهر واحدة من السفن .

أدى الصراخ الذى سمعناه فى جوف الليل ، قادما من خارج القلعة ، إلى إيقاظنا من منامنا فوق الأحجار الباردة ؛ وراحت كلاب البدو الرحل تنبح بأعلى أصواتها ، وهنا راح عرب البوابة يصيحون منادين على من هم داخل القلعة ، وهم يقولون إن غزوا سطا عليهم !' عند هذا الحد جرى حراس القلعة ، فى ضوء القمر الضعيف ، وهم يحملون بنادقهم الفتيلية ، فوق أرض شرفه القلعة . وهنا جاء بعدهم مشجعا لهم ، محمد الصغير ، ذلك الجبان ، الذى كان قد وضع فى موقد القهوة (الوجار) حفنة من الفحم كى يتمكن الحرس من إشعال فتائل بنادقهم . وهذا هو محمد على وقد ارتدى عباءته العسكرية ، ووقف فى باب غرفته ، وراح يصرخ مصدرا أوامره بصوت يشبه صوت الوحش الكاسر ، ويقول : "تعقبوهم أيها الشباب ، إفتحوا النار عليهم ، إفتحوا النار !" ثم سارع محمد على إلى الشرفة العليا ، الأمر الذى جعله يتعثر فى بندقيتى القصيرة وهو فى طريقه إلى رأس البرج . وهنا سمع الجميع أن الأمر قد انتهى وليس هناك ما يخيف ،– أى أن ذلك كان إنذارا كاذبا ؛ وهنا سارع حسن بالنزول ثانية لاستئناف النوم ، وهو يضحك بطريقته المغربية العجيبة . ونزل الحاج نجم وهو يزمجر ، نظرا لأنه لم يكن يرضى عن القيام بمثل هذا التدريب فى جوف الليل ، أو إن شئت فقل : فى مثل هذه الساعة من الليل ؛ ونادى رئيس الحرس نداء مرعبا حمد الجميع الله على أثره بطريقتهم الفجة الخالية من الإحساس .

عاد إلينا فى هذه الأثناء غلام ولاد على الذى سبق أن سافر راكبا دابة إلى المدينة (المنورة) لتوصيل البريد ، وحضر أخوه لمقابلته والإلتقاء به ، هذان الإخوان الحبوبان سوف يقومان بسرقه المواشى . هذان الأخوان لم يكن معهما سوى بندقية فتيلية واحدة ، وعصا لها سن مثلم من الحديد ، راحا يتجولان فى أنحاء المنطقة ، باعتبارهما لصوصا سيارين ، أو إن شئت فقل : حباليص (لصوص ماشية) ، وقد أراد هذان المخلوقان الخرافيان منى أن أنضم إليهما . وعندما رفضت طلبهما هذا وأنا أسخر منهما ـ ازدادا إلحاحا على إقناعى . قالا لى : "مما تخاف ، بعد أن وجدا أننى جئت إلى هذا المكان بلا خوف ؛ ولما لم يكن معى دابة أركبها ، فلربما كان من الأفضل لى ، وأنا

معهما أن أركب ناقة من النياق' . وقد ازدادت دهشتهما عندما أبلغهما الأغا ، وهو يضحك من قلبه ، 'النصرانى لم يكن لصا ، وإنه ليس أيضا من أولئك الذين يقبلون ، على سبيل الهدية ، أية دابة مسروقة . قال الأغا ، أنتم ترون أن النصارى أفضل منكم أيها البدو ، نظرا لأنهم يستطيعون التمييز بين الشرعى وغير الشرعى ؛ - أجاب الشابان "نحن لا نستطيع معرفة مدى عدم شرعية سرقة أولئك الذين يسرقونا ؛ وهذا ، فى أضعف الإيمان ، هو العرف السائد بين البدو ." لم يأخذا معهما سوى لفة صغيرة من التمر ، وقربة من الماء حملاها على أكتافهما ؛ ثم رحلا بعد ذلك . خطر ببالى أنهما ربما كانا ينويان التعامل معى من منطلق أنى كافر ؛ وأن إزهاق حياتى ، أثناء نومى ، ربما يكون عملا طيبا فى نظر البدو ؛ هم ينظرون إلى ذلك باعتباره تخليصا للبلاد من خطر أجنبى ؛ كما سيحصلان على غنيمة صغيرة من الملابس ، وهذه الغنيمة لها قيمة كبيرة عند أولئك السكان البؤساء الذين يعيشون فى الخلاء . تجريدهم للقتيل من ملابسه يشبه إلى حد بعيد بالتجريد (الكريم) للعدو من درعه فى العالم القديم : ولما كان هذان الشابان من أصحاب الأعمال الفذة فلربما فكرا فى اغتيالى . حضر إلى ولد من الأولاد ، وأقسم لى بالله أنه سوف يُفَرجنى على هذه المنطقة كلها : وراح بطريقة خرافية يكرر على أسماء قرى كثيرة ، وكيف أن الناس فى تلك القرى يلبسون الحرير ، وأورد اسم وادى خيت بيت Kheyt- beyt أو إن شئت فقل : 'وادى البُقلان' . وأنا لم أسمع شيئا من هذا القبيل من كل البدو المحيطين بى ؛ والبدو الرحل ، لا يرغبون فى تنفيذ هذه الحجّة ، حتى لا يدرجون ضمن طائفة الحباليص (لصوص الماشية) . ولما كنت قد دونت ذلك الكلام الذى اخترعه لسانه ، فقد دخلت غرفة القهوة ورحت أعيد قراءة الكلام مرة ثانية ، وهنا راح البدو الرحل ، كبار السن الموجودين فى الغرفة يتهكمون من تخاريف ذلك الصبى قائلين :"ألا تخاف الله !" كانت تلك هى روح ولاد على ، تلك القبيلة المراوغة جداً ، التى تأخذ الدنيا كلها عن طريق السماع ليس إلا .

كان الوقت مناسبا للقيام بالعمل المطلوب منى ، وكنت قد أوشكت تماما على إنجاز المطلوب . هذه هى قافلة الحج بدأت رحلة العودة فعلا قادمة من الحرمين ، وهذه هى الأورطة (الفرقه العسكرية) بدأت فى النزول قادمة من دمشق ، وسوف تصل هذه الفرقة إلى المركز ، هنا فى مدائن صالح . وهاهم البدو الرحل الأصدقاء بدءوا يتوافدون

على هذا المكان قادمين من ديارهم ليقوموا بالبيع والشراء فى سوق الحج . أما البدو الأعداء فقد راحوا يحومون حول الحدود لكي يتربصوا بالبدو الأصدقاء ، وما أكثر إنذاراتنا فى ذلك الوقت ، إذ لم يكن يفوت يوم واحد دون إنذار بغزو وشيك . وعلى إثر الغزو الذى قام به ستة عشر من الحباليص (اللصوص) ، على منطقة من السهل لا تبعد أكثر من ميل واحد عن القلعة ، جرى وعلى وجه السرعة إيفاد مراسل إلى دولان راعى القلعة هو وابنته اللذان كانا يرعيان فى الجبال بعض الأغنام والماعز التابعة لحامية القلعة . عاد الراعى فى مساء اليوم التالى ، ووصل إلى غرفتى ، وهو يحمل معه هديه من الحُميِّض الزراعى الذى نما فى أعقاب الأمطار التى سقطت مؤخرا ؛ وهذا العشب يعجب هؤلاء البدو الذين يأكلون التمور بسبب حموضته التى تعجبهم وتلذ لهم . كان مسكن ذلك الراعى هو وابنته فى الجبل يتمثل فى ذلك الكهف البارد الذى أمضينا الليل فيه يوم أن قمنا بالصيد . كانا ، فى ذلك المنزل ، يحلبان لبن ماعزهما على الحميِّض ، ويعيشان عليه هو والحليب الرائب ، وكذلك بعض الأعشاب البرية ؛ ولكنى تعلمت من التجربة أن ذلك الطعام يعد كافيا فى الصحراء . وعندما أبصر بعض الخدوش فى وجهى ، سألنى على الفور عن سبب تلك الإصابة . وعندما أجبته قائلاً : "ذلك الغول !" وأنا أشير بإصبعى إلى باب غرفهة محمد على ؛ قال ولد عنتر وهو يكشر عن أنيابه : "إخص ! ربنا سيفعل له الشىء نفسه ، هذا المستبد ، الذى هناك ؛ بتره الله ! " كان دولان نفسه هو وعرب البوابة الآخرين يعيشون فى ظل استبداد المغاربة الوحشى ، وفى خوف يومى على حياواتهم : يضاف إلى ذلك أنهم أنفسهم كانوا يحيون فى ظل قدر قليل جداً من الهدوء ، حياة البؤساء الذين لا يجدون فى معظم الأيام ما يأكلونه ، وأن الرجال ، من وجهة نظرهم ، يعيشون على ابتلاع بعضهم البعض . وفى أحد الأيام سمعت صوت صراع أو قتال دار بين النساء ؛ وعندما غضبن ، هجن ومُجن وملأن الجو صياحا ، وراحت كل واحدة منهن تسب جارتها وتلعنها . وهنا قام أزواجهن بتهدئتهن وصاحوا قائلين : "سكوت !" ثم جاءت أصوات (عبر جدران القلعة) تقول : "اسكتن أيها الحريم ، عليكن لعنة الله !" وهنا انبرى الشاب محمد الصغير وهو يحمل فى يده عصا وراح يجرى فى اتجاههن ، وراح يضرب الواحدة منهن بعد الأخرى ؛

كان رجال الخيام يتفرجون على ما يدور ، وبذلك أخرست ألسنة هؤلاء النسوة دون أن يبدى أى رجل من الرجال أى شىء من الامتعاض جراء ضرب زوجته .

عندما عدت مرة أخرى لزيارة الحجر ، بعد منتصف الصيف وبصحبتى عرب الفكارة ، طلب منى الذُّرية eth-Therryeh، أو إن شئت فقل : الابن الأكبر لشيخ القبيلة ، الذى كان يكن لى دوما الكثير من الود ، بعد أن علم بموجة غضب محمد على ، طلب منى وأنا فى خيمة والده أن أقول ما هو رأيى فى ذلك الشخص . وأجبته على الفور فى خيام ذلك الحر ، : "إنه ملعون أو بالأحرى مجنون !" وهنا وافق ، الذُّرية (الابن الأكبر لشيخ القبيلة) على ما قلته ، كما أومأ الشيخ الحصيف برأسه علامة الموافقة أيضا على ما قلته . وفى إحدى المرات الأخرى قال زيد . "كُبَّاك" بمعنى (لفظك وتخلص منك) مثل قشر الليمونة بعد مصِّها كما خدعك أيضا ؛ أربكه الله !" وسواء أكان محمد على يكفر عن عدوانه السابق ، الذى سوف أجره عليه فى دمشق ، أم حسن النية تجاهى ، فقد راح يعاملنى بحماس شديد ، ويطرينى أمام كل البدو الرحل ، الذين وصلوا إلى القلعة ، كما زكانى أيضا عند خدم ابن الرشيد الذين وصلوا من كل من حائل وتيماء ، كما زكّانى أيضا عند الباشا العائد من الحج . من هنا ، فإن قيام محمد على بكل ذلك من أجل إرضائى جعلنى أركز على ترحالى فى الجزيرة العربية .

ملحق الفصل السادس

النقوش النبطية الموجودة على الآثار التى اكتشفها السيد دوتى فى مدائن صالح : قام السيد إيرنست ERNEST ديفان (عضو المعهد) بترجمة النقوش .

(مأخوذة عن المجلد الذى نشرته أكاديمية النقوش والأدبيات ، "مجموعة الوثائق المكتوبة التى عثر عليها السيد شارلز دوتى فى شمالى الجزيرة العربية .")

أربعة أو خمسة أعمال مرتبطة بعضها ببعض ، والتى توجد مجتمعة ومشروحة . أعلم أن المخطوطات السامية سوف تعطى إيضاحات كبيرة . النقوش النبطية الاثنا والعشرون ، تتدرج فى الواقع بتواريخ دقيقة ، فى مساحة من الوقت حوالى ٨٠ عاما . نستطيع إذن تتبع سير الخط الآرامى خلال قرن تقريبا ، وأن نراه يأخذ من سنة إلى أخرى طابعا أسرع تدريجيا . إن المخطوطات الموجودة على آثارنا تعتبر كنقطة ارتكاز منها نستطيع أن نكتشف جيداً تشابه الخط الآرامى والخط اليهودى المربع ، والبلميرى ، والسينائيتى والاسترانغولى والكوفى والنسخى .

إن تاريخ الخط فى الجزيرة العربية القديمة يوجد بصورة واضحة فى معظم أجزائها . وهذا تقدم كبير ، إذا فكرنا أنه منذ ٧٥ سنة كان سيلفستر دى ساسى قد خصص واحدة من أبلغ مذكراته لإثبات أنه لم توجد كتابة فى الجزيرة العربية قبل محمد (ﷺ) .

إرنست رينان

إن حروف مخطوطات مدائن صالح تشهد بالحالة الاجتماعية حيث كانت الكتابة كثيرة وحيث كان الكتاب يميلون كثيرا للخط وهكذا حدث بعد ذلك للخط الكوفى .

مدائن صالح – كتبها 'فيليب برجيه' ، نائب أمين مكتبة المعهد . (الجزيرة العربية قبل محمد (ﷺ) حسب ما جاء فى النقوش : عقد مؤتمر فى السربون فى مارس ١٨٨٥) هذا هو وادى ملئ بمدافن العائلات : لأن كل من هذه الأبنية ليس بناء خاصا ؛ فهى مدافن عائلية حقيقية ، تخص كل من لديه الحق ، وهى محاطة بجميع الاجراءات والضمانات التى نعطيها لأعمالنا الرسمية .

ولكن إذن أين كانت المنازل ؟ هذه المشكلة – التى تقلقنا – كانت قد هزمت العرب فى عهد محمد (ﷺ) . من المعقول أنه فى وجود هذه الأبنية التى كانوا لا يفهمون معناها ، فقد قيل : إن هذه بيوت سكان البلد القدامى ، من الكافرين والعمالقة : الشيئان يتقابلان ؛ وأنه بالدخول إلى الداخل وعند رؤية الجثث فقدا اعتبروها رفات غير المخلصين ، عاقبتهم السماء فى منازلهم . وقد تأكد لهم هذا الرأى من رؤية هذه الأبنية . إن الشرفات التى تعلوها والتى هى نماذج مألوفه للعمارة الآشورية تبدو وكأنها حصون .

وعمل آخر يظهر من هذه الأساطير ، أنه فى عصر محمد(ص) لم تفهم هذه الكتابة التى ابتعدنا عنها تقريبا ٥٠٠ عام ، وهذا يشير لنا كيف كانت آفاق العرب محدودة من ناحية المصادر .

من يعلم إذا لم يكن عندهم بعد إحساس مبهم بالتقليد . هذه الكتابة التى تمثل اختلاط الآرامية والعربية تبدأ بكلمه ليست آرامية ، ولكنها عربية "دينا كافرة" "هذا هو المدفن" . غير أن نفس الكلمة تعنى بالعربية 'مقبرة' و 'كافر' . من يعلم ، فى عصر بعيد عن أسرة النبطيين ، عندما نذكر أن اللغة الآرامية بدأت تختفى ، إن الإبهام لم يحدث بين الكلمتين ، وإذا ترددت هذه العبارة آليا (بدون تفكير) فإن العرب لم يتداولونها . هؤلاء الكفار سحقتهم السماء فى بيوتهم .

هذه نقطة لم يخطئوا فيها : إن سكان هذا البلد القدامى كانوا كفارا وثنيين . فى أحد مداخل وادى مدائن صالح يوجد عنق مقطوع عموديا ، مشابه لكل الأعناق الموجودة فى هذه المنطقة . نرى من جانب بقايا قاعة محفورة فى الصخرة ، بدلا من أن تكون مغلقة من الأمام ، فهى مفتوحة على عرض الواجهة . ليس بها مشاكٍ : بعض الأشكال رسمت بطريقة بدائية على الجدران ؛ لا أكثر ، وهو البناء الوحيد الذى ليس له طابع جنائزى ، ويسمى ديوان ، وعلى الجدار المقابل للعنق ، وفى نفس المستوى ، ويسيطر على الحفرة (الهوّة) نكتشف سلسلة من المشاك بها حجارة مرصوصة أحيانا متفرقة وأحيانا مجتمعة فى مجموعات مكونة من اثنين أو ثلاثه .

رؤية هذه الأبنية التى رسمها بعناية السيد دوتى ، هى بمثابة وحى حقيقى لنا ، ولقد قابلنا من قبل أبنية مشابهة فى الجانب الآخر من العالم السامى . ومنذ ثلاثة أعوام لم نكن نعرف سوى نموذج واحد : رسم بارز وجد فى صقلية ويمثل رجل يتعبد أمام ثلاثة أحجار صغيرة . هذا البناء المنفصل ليس له تفسير ؛ ولكنه كان قد استرعى انتباه السيد رينان عندما حدث بعد ذلك (اكتشاف رجل يمشى وحده) ، وكان السيد القسيس "تريهيديه" قد جلب عديدا من هذه الأبنية من النوع نفسه ، وجرى إحضارها من "دادرومات" فى تونس ، هذه الحجارة المتزاوجة ثلاثيا كانت تمثل آلهة ، من أحجار ثلاثة ، وكان لا يوجد شك فى امتلاكها . وإذا كان مازال يتبقى منها شيئا ، فقد رفع عن طريق الاكتشاف الذى قام به السيد دوتى . هذه الألهة كان يعبدها سكان مدائن صالح . والنقوش الموجودة على واحد من تلك المشاك تؤكد ذلك صراحة إذ تقول : "هذا هو المسجدة" الذى شيده "سروه" ، ابن طوقه فى "عودا" أو (عائدا) ليستر الإله الأعظم . فى شهر نيسان من عام واحد للملك مالشو ."

مشكاة أخرى تحمل كتابه مشابهة . المسجده يعنى 'المسجد' ليست القاعة التى تقع فى الجانب الآخر من الحفرة (الهوة) ولكن المشكاة مع الحجر الذى بالداخل .. هذا هو "البتل" الذى كان النبطيون يسجدون أمامه . هذا الحجر لم يكن غير الإله "عوداً" .

نحن نسـأل ، ونتساءل ، وسط كل ذلك ، أين قرشيى الجزيرة العربية وأين محمد ؟ ويبدو لنا كلهجة محددة ، مثل لغة قبيلة صـغيرة والتى بعد سلسلة من الأطوار المحليه ، توصلت إلى درجة الكمال المدهش . وتدين للإسلام بتراثها .

لقد فرضت الديانة الإسلامية لغتها مع ديانتها على الجزيرة العربية كلها ومن هنا انتشر الإسلام إلى الأقرب فالأقرب ، فى أفريقيا وآسيا ، فى كل مكان حيث توجد قدرة تتوغل فى كل شىء ، ولكن تغلق الباب أمام كل ما هو ليس قدرة .

لم تتحقق الوحدة المطلقة فى أى مكان . ومن هنا تأتى العقبات التى تنشأ دائمًا والتى نجدها تغوص فى هذه البقع المتعصبة والخالية ، نجد عقبات كبيرة لدرجة أننا نتردد فى الحكم أن آخرين يحاولون تخطيها : الثمن غالى جدًا ؛ مع ذلك سوف يستطيعون تخطى تلك العقبات لأن هناك قدرة أخرى لا يستطيع أى شىء إيقافها ، وهى القوة الداخلية التى تدفع الإنسان إلى البحث عن الحقيقة .

بخور أو عقاقير المحنطين فى مدائن صالح . ملحوظة : بقلم البروفيسور جى . دى . لايفنج -. Living عينة من اللبان الراتنجى قدمها لى السيد دوتى كى أقوم بتحليلها وقد أخضعنا تلك العينة مرات عديدة لتفاعل البنزين والأيثير ، والكحول ، والماء وجاءت النتيجه على النحو التالى :

٢,٣٥ ٪ من تلك الماده يقبل الذوبان فى البنزين

٥,٤٥ ٪ من تلك المادة يقبل الذوبان فى الإيثير

١٢,٢٥ ٪ من تلك المادة يقبل الذوبان فى الكحول

٢٧,٣٦ ٪ من تلك المادة يقبل الذوبان فى الماء

كانت تتخلف كمية كبيرة من الراسب بعد استخلاص المادة عن طريق هذه السوائل . كانت الرواسب عبارة عن قسم كبير من الرمل وبعض ألياف الخشب ومواد أخرى مماثلة . وعندما حرقنا تلك الرواسب نتج عنها كمية مساوية تعادل حوالى ٣٨,١٦٪ من إجمالى العينة .

التوقيع

جى .دى . إل

خرق الكفن ، الخيوط الجلدية . ملحوظة : بقلم البروفيسور إيه ماكلستر Macalis-ter قطع القماش التى جرى الحصول عليها من مقابر الأنباط فى مدائن صالح يصعب تمييزها عن الكتان الذى كان يستعمل فى مصر فى لف المومياوات . وهذا الجلد السميك يحتمل أن يكون من جلود الإبل . والمادة الراتنجية (البخور) هى من طبيعة المادة نفسها التى جرى العثور عليها فى كثير من الأحيان مع المومياوات المصرية .

ثمود : THAMUD الهجرة Hejra عند بطليموس هى مدينة أو بلدة ثمود ، ومع ذلك نحن نعرف من شواهد القبور أن مدائن صالح كانت للأنباط ! مدائن صالح هى 'الحجر' Hijr (ويصح فيها أيضا Hejr) : - ولكن ما هو 'الحجر' ؟ الحجر فى موروث البلدان البدوية وعند العلاونة هو عبارة عن كل ذلك الوادى الذى على شكل سهل ، وكذلك أرض الوادى التى تمتد فيما بين المزحام وقرية العلى ويصح فيه أيضا (العلا el-?la)، ويصل ذلك الأمتداد إلى بئر الغرنمً . والمعروف إن الخريبة تدخل حاليا ضمن الحجر :- والخريبة التى شاهدناها حميرية ، أو إن شئت فقل : إن شعبها أو أهلها من الجنوب ، ولكن مدائن صالح تنتمى إلى عالم الشمال المتحضر . من هنا قد نستطيع القول ، إن الخريبة هى هجرة (حجر) ثمود ، وأن مدائن صالح ، التى تقع على بعد عشرة أميال فى اتجاه الشمال هى هجرة (حجر) الأنباط .

نحن نعثر على الاسم ثمود اعتبارا من القرن الخامس ، عندما جرى ضم بعض الخيالة الثموديين إلى الجيش الرومانى ، وأقدم إشارة تاريخية وردت عن قبيلة ثمود شوهدت على الأثار الآشورية "ضمن قائمة القبائل التى أخضعها فى واحدة من الحملات التى قام بها على الجزيرة العربية فى العام ٧١٥ قبل الميلاد . والقبائل الأخرى التى ورد ذكرها فى تلك المقطوعة هى : العباديد ، والمارسيمان ، والهيابة ، إذ كان يطلق على هذه البلاد اسم the Remote Bari (ولعل كلمه بارى مأخوذه من الكلمة العربية bariyeh التى تعنى 'الصحراء') ." (رسالة من السير هنرى س .راولنسون)

النقود فى الجزيرة العربية قديما . ملحوظة : بقلم : "السيد باركلى . فى . هيد" من المتحف البريطانى .ـ عملات الجزيرة العربية قبل عصر محمد (ﷺ) يمكن

تقسيمها إلى ثلاثة مستويات رئيسية : (١) نقود اليمن ، أو إن شئت فقل : النقود الحميرية ؛ (٢) نقود ملوك الانباط ؛ (٣) نقود مختلف المدن العربية فى ظل الحكم الروماني .

(١) نقود السبئيين والحميريين : هذه النقود تبدأ من القرن الرابع أوالقرن الثالث قبل الميلاد وهى فى الأساس عبارة عن تقليد ومحاكاة للدراخمة والتراخمة الآثينية الشهيرة . وكل هذه الاشياء المقلدة تأتينا من الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية ، ولكن مضاف إليها حروف أو نقوش حميرية ، زيادة على النقش الآثينى (الذى يتمثل فى رأس بالوس Pallus والبومة) فى القرن الثانى قبل الميلاد كانت تراخمات الأسكندر الأكبر تقلد فى جنوب الجزيرة العربية . وفى النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد ، كانت التراخمه الآثينية الجديدة ، التى عليها صورة البومة واقفة فوق المركب الإغريقية القديمة ذى الرأسين ، تستخدم فى التعامل من قبل الملوك السبئيين . وهذه التراخمة منها نوع مسكوك من الذهب ونوع آخر مسكوك من الفضة ، والنوع الفضى هو الاكثر انتشارا و قد اكتشف فى مدينة صنعاء Sana . هذه التراخمات يوجد على أحد وجهيها رأس الملك المحلى التى غُيرت بعد ذلك إلى رأس أغسطس (Augustus)، وعلى الوجه الآخر صورة البومة الآثينيةِ وهى واقفة فوق مركب يونانى ذى رأسين ، إضافه إلى نقوش بحروف لم نتمكن من قراءتها بعد ، ومع هذه النقوش حروف خاصة من الحروف الحميرية العادية . العملات المصنوعة من النحاس الأحمر كانت معاصرة أيضا للعملات الفضية التى سبق أن أشرنا إليها وتناولناها بالوصف . هذة العملات النحاسية سيئة الصنع جداً بالرغم من أنها تعتبر محاكاة فجة للعملات الآثينية الفضية ، والمرجح أنها كانت العملات المستخدمة فى المناطق الشمالية والمناطق الجنوبية من الجزيرة العربية ، والواضح أن هذه العملات جاءت بصورة أساسية من المناطق الشمالية . ففى القرن الأول الميلادى كانت العملة الوحيدة المستعملة فى اليمن تصنع من الفضة وعليها نقوش حميرية .

(٢) كانت نقود ملوك الأنباط ، فى شمالى الجزيرة العربية تبدأ من مالخوس -Mal chus الأول فى العام ١٤٥ قبل الميلادى وتنتهى بمالخوس الثالث فى القرن السابع الميلادى .

(٣) وفى عصر هادريان ، حلت محل العملة النبطية عمله محلية خاصة بأباطرة الرومان وكانت تلك العملة تسك فى بُصرى Bosra، وفى بيترا ، وفى أدرا adraa , وفى مدن أخرى . زالت تلك العملة وبطل استعمالها مع بداية حكم جالينوس Gallenus فى العام ٢٦٨ على وجه التقريب .

الفصل السابع

عودة الحج

النقش الأخير . ريثما يذهب محمد على هو ورجال الحامية إلى العلا ، تهجم اللصوص على جماعتنا . "الحظ" أو "القسمة" أو "النصيب" فى أفواه المسلمين . عشاء اللصوص . شجاعة الحاج نجم . نجم والأمير العربى ابن الرشيد . فصاحة الأمير . إهدار الأمير لدم أقرب الأقارب . الأشقياء الورعون . التخلص حول نار القهوة . معرفة قبيلة اللصوص من خلال كلامهم . محمد على يهتز : الإنذارات . ضيوف جدد على القلعة . الفرس الهدية من ابن الرشيد . وصول الأورطة . كلمات رئيسهم . بائعو الفاكهة فى العلا . البدو قد يسرقون اشياء تافهة من المخيم . محسن الكريم . الجنود يفتحون النار على البدو . محمد "أبو الأسنان" . القبض على بدوى من جهينة . مبعوثو بن الرشيد . عبد العزيز . البهجه العربية . أقوال محمد على المأثورة للتيامنة . النجديون ، رجال الصلاة . إطلاق قذيفة مدفع أثناء الحراسة الليلية . ساعات برد الليل القارس لمن لا يرتدون الملابس المناسبة ويسكنون خارج القلعة . الجدرى فى ذروة الحج . جمع الجراد لاستعماله بدلا من اللحم . تسامح الجموع : النصرانى بينهم . مزيد عن مغامرات النصرانى فى بلاد العرب . عجيلى من شرقى نجد . قوافل الحجاج تنساب مثل السيول المدمرة عبر أرض بلاد العرب . وصول الحج . المخيم والسوق . اتهام الفرس فى المدينة (المنورة) . السُّقيا . بدوى من مُرَّة . الباشا والسير أمين

يتهمان محمد على بالنصرانية . الباشا والضباط يثنون زيد عن عزمه . الدراويش الجزائريون . الأفراس النجدية . الرحيل مع الحج عند مدائن صالح . التباهى البدوى . جلب قليل من عبيد القارة الإفريقية فى موسم الحج . البدو يسدون مناخيرهم . درويش لطيف . أخبار الحرب . أقوال ضابط تركى . مُنَزل الحج . مُجبِّر العظام العسكرى . درويش الميدان العملاق . نيزك عجيليون . الإزاله . الاجتماع إلى محمد سعيد باشا . مغادرة قافلة الحج والدخول إلى صحراء البدو . كلام زيد إلى الغريب .

***

شاهدنا فى السهل أيضاً آثار أقدام غزو آخر مكون من سبعة أفراد . فى تلك الأيام بدأ محمد على يمنعنى من القيام بأية مغامرة بعيدا عن منطقة القلعة : كما منع عرب البوابة من مرافقتى أو أصطحابى إلى أى مكان ، مهددا إياهم وهو يقسم لهم بالله إن حياتهم جميعا ستكون مقابل حياتى أنا وحدى : حياتى التى سوف يطالبه بها محمد سعيد باشا ، خلال أيام قلائل .

لم يكن يتبقى لى سوى واجهة صخرية واحدة ، وهى واحدة من أواخر الآثار البعيده ، التى سبق أن تركتها فى ذلك المكان (نظراً لأن بوسعى الوصول إلى النقش بدون استعمال الدعامة التى صنعت منها سلما نقالا) . واستطعت بصعوبة بالغة الحصول على إذن أخير ، بالقيام بالرحلة الأخيره إلى مكان تلك الصخرة ، وذلك بصحبة شيخ مسكين من بدو الفجير Fejîr ، يدعى Mohammed الديبيس ed-Deybis، الذى هو واحد من أقرب أقارب زيد . كانت عينا رفيقى تراقب بدقة بالغة كل ما يحيط بنا أثناء سيرنا ، والسبب فى ذلك أنه قال لى : "أنا يتحتم على أن أكون مسئولا عنك ، وأنا خائف من هؤلاء الغزاة !"

نظرا لأن ورق الشفاف استغرق جفافه وقتا طويلا ، بحكم أن ذلك القبر يواجه الناحية الشماليه ، فقد أتاح ذلك لى فرصة زيارة المَعْظَمة(*) الموجودة داخل ذلك القبر : –

(*) المعظمة : بفتح الميم وتسكين الظاء ، هى قبو أو سرداب تحفظ فيه رفات الموتى . (المترجم)

يضاف إلى ذلك أن ذلك الأثر وحده كان يعد مثالا واضحا وكافيا على كل ما يمكن رؤيته أو مشاهدته فى مدائن صالح !

يوجد خارج هذا القبر لوح نعش وحيد ، جرى حفره بالفعل فى وقت كانت فيه عمارة الحجر الأدنى على وشك البداية . كانت غرفه الدفن مجهزة تجهيزاً كما لو كانت مكانا طويلا مخصصا للدفن : موجود هنا مواقع ، على شكل زنازين Cells أو إن شئت فقل : وحدات قبورية ، وعلى شكل قبور محفورة (غائرة) أيضا ، فضلا عن غرفة قبورية داخلية أيضا ؛ ولكن الواجهة لم تكتمل فى زمانهم وبقيت على ماهى عليه . ترى هل كان ذلك هو المسكن الأبدى لبعض العائلات الكبيرة ، التى لم يكن منها أعداد كبيرة فى العالم ؟ ؛ الذى نجد فيه شيئا من الاعتدال وخال تقريبا من التهديدات السماوية الخرافية والرسمية) .

سيقوم محمد على بزيارة قرية العلا ، قبل وصول قافلة الحج ، لشراء شىء من تمر الحلو لكل من باشا الحج وكبار ضباط الحج أيضا . والسبب فى ذلك أن محمد على ، جرى الهجوم عليه ، فى العام الماضى ، فى البوغاز (الوادى بين الجبلين) ، ولكنه فى هذه المرة سيسافر مسلحا ومعه كل العسكر ؛ ولم يبق معى فى القلعة سوى الحاج نجم . وعندما انصرف محمد على هو والعسكر ، خاطرت مرة أخرى بالذهاب إلى الآثار ، ولكنّى عندما رجعت مبكراً إلى القلعة اندهشت لأصوات الأعراب التى كانت تنبعث من بين الصخور . هذان هما بدويان جاءا يتبختران فوق ناقة (ذلول) قادمين من أسفل جبل إثلب Ethlib، وها هما الآن يرحبان بى قائلين : "يا وليد !" ونظرا لأنى لم أكن أعرف إن كانا عدوين أو صديقين ، فقد عجلت ، محتميا بصخور البنت وصخور البرج ، بالوصول إلى القلعة ، وعندما أدركانى ، كنت فى الخلاء وعلى مرأى من القلعة . وجاء تبادل التحية بيننا على النحو التالى : "أنت من ؟" - "وما عملك ؟ وما هو بلدك ؟" كانت البوابة مغلقة ، نظرا لأن الحج نجم كان وحده ، وبالتالى لم يتعجل بالنزول لفتح البوابة لنا . بعد أن جلسنا لشرب القهوة ، قال لنا الشابان ، اللذان كانا من ولاد على ، إنهما مرًا ، منذ فترة وجيزة جداً ، بآثار أقدام رجال كثيرين ومعهم غنم . "فى الخارج ! قالها الحاج نجم متعجبا ، سترك يارب ! - هذا يعنى أن

قطيعنا قد سرق !" - كان الراعى دولان هو وولده ، وشاب من شباب الفهجى Fehjy، قد قادوا القطيع أسفل جبل إثلب فى ذلك الصباح .

بعد شرب القهوة ركب البدو دوابهم ومضوا إلى حال سبيلهم . لم نأسف على رحيلهم ؛ والعرب المسلمون عندما يصبهم أسف من هذا القبيل ، يجلس الواحد منهم برهة قصيرة مندهشا ، وهنا تراهم يتحدثون بأنغام تحتية دون تبرم أو شكوى : وهم يرون ، أن كل شىء يسير حسب إرادة الله التى تسيطر عليهم جميعا : هذا يعنى أن الخسارة التى يعانونها اليوم إنما هى من صنع أنفسهم ، يضاف إلى ذلك أنهم يلقون بِشرٍ مماثل على الآخر . رحنا نراقب الأعراب من شرفة القلعة وهم يسيرون فى طريقهم ، وانقضت فترة العصر ، وبعدها لم نر شيئا ، وأثناء غروب الشمس ، شاهدت العيون الممتازه من بعد ، شيئا ما ؛ قالوا : "إنه الأغنام والماعز التى يرعاها الرعاة ،" والتى كانت عائدة من الجزء المقابل ، الذى يقع على مسافة بعيدة أسفل الحرّة . وهنا استهل حريم البوابة عملية الزغاريد ! كما بدأ الأطفال يصيحون معهن فرحا ، وهنا جرى بعض الرجال وربات البيوت متقدمين نحو الأمام على أمل أن يكونوا أول من يحصل على الأخبار : ولكن مع تقدم الماشية والرعاه ، قال أولئك الذين كنا نعتبرهم أعينا لنا ، إنهم لا يرون أمامهم سوى نصف المواشى فقط ، وأن عدد تلك المواشى كان أقل بكثير من عدد أولئك الذين خرجوا لاستقبالها . عند هذا الحد وصلت الماشية ، ثم تقدم دولان ، الراعى ، وهو يصيح محتجا وهو فى طريقه إلى غرفة تناول القهوة ، وبتنهيدة (تنم عن الحزن البالغ) ؛ فى تلك الأثناء كان الحاج نجم قد أشعل بالفعل نار المساء ، وأسلم أمره - نظرا لعدم وجود علاج لتلك المشكلة - كله إلى إرادة الله . قال الحاج نجم : "شوف البخت ، إن هذا الحادث لم يقع إلا فى هذا اليوم ، دونا عن سائر أيام العام كله ، الذى أخذنا فيه على غرة ." وهنا ابتدأ دولان جدلا حاميا وراح يدافع به عن نفسه بصوت عال ، ."كان الغزو مكونا من تسعة أفراد من المشاة ، كلهم مسلحين ببنادق ! وأقسم بالله ، أنه استطاع أن يعرفهم من كلامهم بأنهم من بنى عطية ؛ هؤلاء الغزاة كانوا يكمنون فى جبل إثلب طوال الليلة الماضية ، إضافه إلى أنهم كانوا يراقبون رحيل الأغا ومعه العسكر ، وهنا انبروا خارجين من مكمنهم ليسرقوا قطيع القلعة ." كان المكان مليئا بالصخور الوعره ، وكميات كبيرة من الرمال المنجرفه : من

هنا فقد استطاع هؤلاء الغزاه الهجوم على الرعاة فجأة وعلى غرة ودون أن يراهم أحد . كان أولئك اللصوص يتجولون ويسيرون على غير هدى فى ذلك الوادى منذ عدة أيام ، (والغريب أننا شاهدنا آثار أقدامهم) إلى أن بدءوا يحسون بالجوع فاتجهوا نازلين إلى قرية العلا لشراء شىء من التمر ؛ وفى قرية العلا ، حكى لهم بعض الأعداء كل ظروف قلعة الحجر . وقال لى دولان ، موجها كلامه إلىّ : "وأنت كنت على وشك السقوط فى أيديهم ، والسبب فى ذلك أن أولئك اللصوص بعد أن اقتادونا مع الشِّسَّاب ches-sab (الغنيمة) ، مررنا بآثار أقدام خليل ."

فى البداية كان الغزاه يفكرون فى قتل دولان "لأنه كان من بدو الفجير !" فضلا عن وجود صراع دموى مستمر بين هؤلاء الجيران ، أى بين بنى عطية وبدو الفجير .- "لا تقتلونى ، أنا أتوسل إليكم ، لأنى أنا دولان الفهجى ولست دولان الفجيرى" . - "إذا كنت دولان ، فافتح فمك ، أيها الرجل ، حتى نتأكد من عدم وجود الأسنان الأمامية ؛ ثم أخرج لسانك بعد ذلك" : وهنا أخبرنا هذا الفهجى المسكين وهو يجمع بين الابتسام والبكاء ، "جعلونى أخرج لهم لسانى على هيئة قوس !" - "نعم ! إن له لسانا مشقوقا ؛ أيها الرفاق ، إنه هو ." - هذا الرجل المسكين كان لسانه قد تشوه بفعل رمح من رماح الرولة أصابه فى فمه ، عندما كان يقوم بالتجوال فى الشمال . وهنا قام العجيد agid أو إن شئت فقل : رئيس عصابة اللصوص الغزاة ، بوضع حد سيفه على عنق ولد دولان الصغير ، وطلب من دولان ، أن يحلف بالله ، ويقول لهم لمن تكون كل نعجة وكل ماعز من هذا القطيع . وعندما قال لهم إن تلك الغنم والماعز هى غنم وماعز القلعة قالوا له : "نحن أصدقاء الإمبراطورية العثمانية ." تركوا لبدو الفهجات الموجودين عند البوابة جزءا من نصيبهم ، ثم أخذوا بقية القطيع ، الذى كان ينتمى إلى أفراد قبيلة الفُكَارة . كانت خسارة دولان من الماشية عبارة عن ثلاثه رءوس ، أما خسارة الفهجات الآخرين فكانت حوالى ستة رءوس ؛ وخسر الحاج نجم ثلاثة رءوس ؛ كما خسر وادى Wady رأسين من الماشية . "إذن سيحصل شيخ المنصر على أربعه أو خمسة رءوس (قال الحاج نجم) ؛ وسوف يتعشون الليلة بطلى ، وسيكون نصيب كل فرد من أفراد عصابة الغزو هذه إما نعجة أو عنزة (أى ما يساوى ثلاثة أو أربعة ريالات) ." وفيما بعد أمكن العثور على العظام المتبقية من عشاء أولئك الصقور، إلى جوار الرماد المتخلف عن نار

المساء ، وقد أوضحت العلامات التى عثرنا عليها ، أنهم ابتلعوا فيما بينهم حوالى خمسة رءوس ، يالهم من بائسين جوعانين : ولابد أن تلك الوجبة ، سوف تنعشهم وتقويهم ، بعد تعب استمر إسبوعين ، كانوا يتجولون خلالهما ، لصوصا ، فى مضارب معادية لهم ، هذا يعنى أنهم كانوا يخاطرون بحياتهم . ولكنهم يتكبدون هذه المتاعب بسرور وترحاب وهم يطاردون غنيمة غافلة ، ولكى يثبتوا لأنفسهم أيضا أنهم شباب يستطيعون القيام بالمهام الصعبة ، وأنهم عندما يعودون إلى مضاربهم بأى شىء مهما صغرت قيمته ، يعتبرون أنفسهم قد نالوا الجائزة . ومع ذلك ، من الصعب أن تجد بدويا بائسا ، على استعداد لأن يصحى من نومه ، فى خيمته المهلهلة ، للقيام بمحاولة صغيرة فى سبيل مكافأة من هذا القبيل . اللصوص الذين من هذا القبيل عندما يعودون إلى مضاربهم ، غالبا ما يصابون بالأمراض جراء معاناتهم السابقة ، ويعانون من إرهاق مميت على امتداد أيام طويلة بعد ذلك .

قال الحاج نجم (ولم يكن راضيا عن محمد على أو مقتنعا به) : "آه ! لو أن محمد على لم يأخذ معه العسكر جميعهم ! لكنا قد فزعنا وطاردناهم ." وهنا راح ذلك الرجل العجوز يحملق فى الهواء ويهدئ نفسه باعتصار أصابعه ؛ وما تزال الشجاعة المغربية تفيض فى داخله وما زال يغلى قلقا وتعجلا . - "والله ، لو كان العسكر هنا لكنا قد استعدنا ماشيتنا وأخذنا من اللصوص ماشيتهم أيضا ، تماما مثلما فعلنا فى المرة السابقة - هل تتذكر ذلك يا وادى Wady وهل تتذكره أنت أيضا يا دولان !- هل تذكر أن ذلك الذى حدث للغزاه الذين جاءوا من الشمر ؛ ولكن هنا (أخذ الحاج نجم يعد اللصوص على أصابعه) لا يوجد سوى وادى ، ودولان ، والصبى الفهجى ، ومحمد الدبيس ، هم الذين يمكن أن يحملوا البنادق وأنا معهم ، وأنا خامسهم ؛ وما الذى يمكن أن نفعله ونحن هنا قلة قليلة !" كان الحاج نجم يحكى عن معركة صغيرة دارت فى العام السابق مع بعض الغزاة الذين حاولوا سرقة قطيع القلعة ، كما قاموا أيضا بتجريد بعض النساء الفهجات المسكينات من جلابييهن المتواضعة بينما كن يجمعن الحطب من جبل إثلب :- وهذا عمل محرم بين البدو ؛ ولكن هؤلاء الغزاة أثبتوا فى مرات كثيرة أنهم لم يكونوا ملتزمين التزاما تاما بعقيدة الصحراء . فى تلك المعركة استطاع الحاج نجم هو واثنان آخران ، مطاردة اللصوص طول الليل إلى أن تمكنوا

من الإطباق على هؤلاء اللصوص البدويين ، الذين عجلوا بعد أن رأوا وشاهدوا شعار الإمبراطورية العثمانية ، وقبل أن يفتح الجنود النار عليهم ، وتركوا خلفهم قطيع الماشية ، وبادروا إلى تخليص أنفسهم ، وراحوا يسرعون المسير مبتعدين عن الخطر . هذا المغربي الشرس العجوز راح يصرخ مثل عفريت في جوف الليل ، واستولى على ناقتين من نياق اللصوص ، باعهما فيما بعد للعلاونه Alowna (أى أهل قرية العلا) ؛ قال الحاج نجم ، بكثير من الارتياح ، إنه "استباح لنفسه ثمن هاتين الناقتين ، وأنهما أصبحتا الآن في بدنه ." أهدانى الحاج نجم فيما بعد عدة مطرزة من عدتى هاتين الناقتين ، وكنت استثير حسد رفاقى من البدو الرحل كلما كنت أركب ناقة وأضع على ظهرها تلك العِدَّة .

عندما كان محمد بن الرشيد(*) هنا فى الصيف الماضى ، بصحبة جمّالته المسلحين ، وبعد استيلائه على مخيم ولاد على ، أمضى أياما عدة بجوار آبار صخور البرج ، وهنا التمس من راعى القلعة قائلا : 'إذا كان خائفا من الخروج من القلعة ، فسوف يرسل له واحداً يحضره .' ورد الحاج نجم على محمد بن الرشيد بأنه لا يخاف ولا يخشى أى شيء ؛ ثم ذهب إلى خيمة الأمير ، التى كان (العرب القائمون بالحراسة) يحيطون بها وهم مستلقين على الأرض ، وهنا سأل أمير بلاد البدو العظيم الحاج نجم عن أحواله . "الحال عال العال ، قال الحاج نجم ، الحال طيب تماما أيها الأمير ، اللهم باستثناء ما يقوم به بدوك (الشمر) فى بعض الأحيان : ولو كنت أمسكت بهم لكنت قد قطَّعت أعناقهم ، والله ، حتى ولو كنت (وهنا أفلتت الكلمة من فم ذلك الرجل العجوز) أنت نفسك !" لم يسبق لذلك المستبد الشمرى ، الذى يخشاه الأعراب ويخافونه خوف الموت ، أن سمع توبيخا أو لوما من هذا القبيل من أى شخص كان . وهناك قال الأمير

(*) الزمير محمد بن الرشيد : أمير جبل شمر ، تولى الحكم فى عام ١٨٧٢ – ١٨٩٧ وفى عهده قام دوتى برحلته إلى حائل عصمة آل رشيد . ويعد الأمير محمد بن رشيد من أبرز الحكام فى أسرة آل رشيد التي تولت الحكم فى جبل شمر فى عام ١٨٣٤ من قبل السعوديين . غير أنه على أثر ضعف الدولة السعودية الثانية بوفاة الإمام فيصل بن تركى فى عام ١٨٦٥ أخذ نجم آل رشيد فى التصاعد إلى أن تمكن الأمير محمد بن رشيد من الاستيلاء على الرياض فى عام ١٨٩١ وظل يحكم حكما مطلقا حتى وفاته فى عام ١٨٩٧ . (المراجع)

وهو يستدير صوب الحاج نجم ، ويطيل النظر إلى محيا ذلك المغربى العجوز ، الذى كان يقف أمام الأمير متصلبا وممثلا للإمبراطورية العثمانية . وهنا قام محمد بن الرشيد ، الذى كان يخبر شئون الدنيا ، ويحتفظ فى داخله بقلب طيب ، حتى وإن كانت يداه ملطختين بدم أقاربه ، هنا قام محمد ، بإعطاء الحاج نجم ممثل الإمبراطورية عباءه (بشت) جديدة وغترة ومعهما قميص من القماش (ما زال يلبسه إلى الآن) ، كما أعطاه أيضا عشرين مجيدى ، كما أعطى كل رجل من رجال القلعة خمسة مجيديات ، وغيارا من الملابس .

كان موقع مخيمهم من حول الآبار واضح المعالم تماما بحكم انتشار مخلفات حوالى ألف من الإبل فى ذلك المكان . كان الحاج نجم قد أرانى عندما كنا خارج القلعة المكان الذى كان يجرى فيه إشعال وجار قهوة الأمير ، كما أرانى أيضا المكان الذى كان يقام فيه مطبخ الأمير أيضا ، وكان كل ذلك فى فلج واحدة من الصخور الرملية الوعرة ؛ وكان المكان الذى يصلى الأمير فيه معزولا ،- عبارة عن قطعة من الأرض ، مفصولة عن العامة ، بفاصل ضيق من الأحجار على شكل حدوة حصان ، وكان محرابه يتجه صوب مكة . أماكن الصلاة التى من هذا القبيل ، رأيتها مرارا فى عرض الصحراء التى فى بلاد بن الرشيد . حكى لى الحاج نجم قصه تولى ذلك الرجل لهذه الإمارة ، بأن قتل حوالى عشرين فرداً تقريبا من أقاربه . سألته : "وماذا فعل هذا الرجل ، أو بالأحرى ، ذلك الشيطان بالدين بعد ذلك ؟ وما هى أسباب صلاة ذلك الرجل ؟ هذا الرجل الذى جعل أخاه عقيما ، ومن الذى قتل إخوانه ! هل يقبل الله القتله ؟" رد على محمد على قائلا : "لا ، والله ، وما تقوله هو الحق ؛ سفاك الدماء لا دور له فى الدين ." هذه الأضاحيك لا يرحب بها العرب ، لأنهم يشبهون الشرر الذى يجرى إيقاده فى قلوبهم الفطرية ، وذلك فى إطار الإظلام الدينى الذى يغشى ضميرهم السامى Semitic . وعندما سمعت أنه جرى تحرى وتقصى مسألة السماح لى بموقع ومكانة فى نطاق قرية العلا ، - كانوا يحسبون أن النصرانى لا يمكن أن يصلح لأى شىء فى ذلك المكان ، وأن كل ما كان يفعله هو "كتابة" صخورهم ، أو إن شئت فقل : شف الكتابة الموجودة على صخورهم - سمعت أيضا أن بعض عرب بوابة القلعة ، كانوا قد طلبوا من الأغا سراً ، إبعادى عن المكان ، قائلين لمحمد على ، "وليكن ذلك

الإبعاد إلى دمشق ، إذا كان لن يؤذيه ." – وسمعت أيضا أن ذلك الإبعاد كان قد تقرر ، غير أنهم كانوا يخشون العقاب الذى قد يترتب على ذلك من قبل الإمبراطورية العثمانية :– رددت على من حذرونى قائلا : كيف ! إن مسألة إهدار دم إنسان سهلة إلى هذا الحد ، وأن هذا الإنسان يردد كلمات صلواتهم اليوميه ، حسبما أسمعها تماما ، وبجديه كافيه ؟ خبرونى هل هؤلاء مسلمين بحق ؟ الإجابة : "عجبا ! هم يصلون ، وصلاتهم لا شىء ، لن يقبل الله منهم صلاتهم ، إنهم أناس شريرون : ولكن ماذا عنك يا خليل ، ماذا يقولون عنك جميعا فى هذا البلد ، 'قتل النصرانى مسألة مباحة ، وأن هذا القتل مسألة يرضى الله عنها : النصرانى عدو الله .'" الصلاة ، فى فهمهم ، هى تلاوة الخطبة الشرعية فى المواعيد المحددة لذلك دون المسح بالزيت ، وكذلك غسل الأيدى والركوع والسجود . وفى مرات أخرى اكتشفت بعض الأناجيل (مثل الإنجيل الخاص بالنظافة الحقيقية والصوم الحقيقى) . التى تضعف تباهيهم الحاقد ؛ كما اكتشفت أيضا أنهم بحكم طبيعة ذهنيتهم السامية ، كانوا مسرورين بتلك الأقوال المأثورة : من هنا قال أفضل من فيهم : "انتبهوا ! سوف يفتح (قاصدين بذلك فاتحة الكتاب) خليل الآن ."

ولكن دولان ، الراعى ، بالرغم من كل إيماناته المغلّظه لم يستطع حماية نفسه من تأنيب وتوبيخ بقية أعضاء القلعة الذين كان يرعى لهم أغنامهم . هذا هو وادى Wady، ذلك الرجل السيئ بحق ، لم يتوقف من خلال نظراته الموجعة عن الإساءة إلى دولان فى كل لحظة ، وهو يصيح قائلا : "عجبا لك أيها الفهجى !" هذا الراعى المسكين لا يلام إلا قليلا على ما حدث ، لأنه هو والصبى الذى كان معه ، غُلِبا على أمرهما من تسع من قطاع الطرق الأشقياء . أغلقوا الباب بعد سرقة الغنم ، وبالتالى أمضينا ثلاثة أيام داخل القلعة . ولتمضية الأمسيات مع صحبتنا الضعيفة التى تلتزم الصمت ، اقترح بل وقدم لنا الحاج نجم ، ذلك الرجل العجوز ، بعض الألغاز والأحاجى ونحن جلوس حول وجار القهوة . كان العرب مستعدين لذلك ، وقالو بالفعل ما لديهم من تلك الألغاز والأحاجى ، ورحنا نحن بدورنا نحزر المطلوب ؛ وعندما جاء علىَّ الدور ، قدمت لهم رمز أبى الهول قائلا : إن ذلك هو أشهر لغز فى الدنيا كلها . وعندما جاء الدور على الحاج نجم تكلم عن وحوش البرية ، وتعجب كثيرا من معنى ذلك الشىء الغريب ؛ وبخاصة عندما قلت أنا إننى سبق لى أن شاهدت مؤخرا آثار أقدام الحاج نجم فى السهل ،

وعلى بعد مسافه قريبة من القلعة . وعندما لم يستطيعوا فك لغز الكلمات المرتبطة بلغز أبى الهول ، انشرحت صدورهم عندما فسرت وشرحت لهم المقصود بتلك الكلمات . لقد اصطحبونى مرتين إلى مجالس الأحاجى فى الجزيرة العربية ، وكنت أقدم ذلك اللغز ، الذى لم أكن أعرف أى شىء غيره : ولد بدوى ، "ابن أوديب" جاهل كان جالسا بين السامعين يضايقهم بقشور علمه استطاع أن يفك لغزى فى تلك اللحظة ؛ والمعروف أن هذا النوع من الحكمة التى تقوم على الأمثال ، يكون وثيق الصلة بالإضحاك عند الساميين ، كما إنه يسر العرب ويشرح صدورهم .

فى اليوم الرابع ، عاد محمد على مرة ثانية من قرية العلا ، ومعه كل الأفراد ، وكانوا جميعا مبتلين بفعل الأمطار التى تساقطت عليهم . وبعد أن نفض عن نفسه ذلك الإبتلال غير المرغوب فيه ، وراح يدق الأرض بقدميه ، وأقسم يمينا مغلَّظا 'لن يضيع رأس واحد من الغنم ، مستحيل ! ولن يضيع رأس واحد من الماعز أيضا . إذ لابد أن يعود الحق إلى أهله وعلى وجه السرعة ، وأنا أقسم على ذلك : وأنا أقسم بالله ! لو ثبت أن هؤلاء اللصوص من بنى عطية ، فإنه عندما تصل قافلة الحج إلى تبوك فسوف يربط شيوخ بنى عطية فى فوهة مدفع من المدافع ! وكان من رأيه أيضا أن يسلبهم بعضا من إبلهم تعويضا لنفسه عن الضرر والإهانة التى لحقت به .' وأمكن التعرف من مجرد كلمات أولئك اللصوص ، على القبيلة التى ينتمون إليها والمضارب التى جاءوا منها ، وتأكد أيضا أن أولئك اللصوص كانوا من الخُذَاره Khuthéra، الذين يعيشون فى الطرف الشمالى المظلم من الحرَّة (أرض الصوَّان) التى يراها الناس عن بعد من قرية الحجر ، تلك الحره التى يجرى منها جلب أفضل أنواع البازلت التى تستعمل فى الطحن . ومعروف أن البدو العاطلون هم من أقدر الناس على تمييز أى شكل من أشكال الخطاب ؛ قال هؤلاء البدو العاطلون كلمة 'كرًّا' Kirra، التى معناها 'يستأجر' هذه الكلمة يرددها البدو المستقرون على إنها 'ركروَهْ' ، بينما ينطقها أهل قرية العلا على أنها 'كِرْوَا' . Kerwa

ولاد على ، كانوا هم مسببى السواد الأعظم من القلاقل والاضطرابات فى مدائن صالح ، وذلك بسبب تذبذبهم المستمر وانتقالهم من ذلك الجانب إلى الجانب الآخر ؛ وهم عندما اكتشفوا قلة حيلة الإمبراطورية العثمانية فى حمايتهم فى الصحراء ،

أصبحوا على قناعة بأنهم يتعين عليهم التضحية بالإمبراطورية العثمانية فى سبيل المصالحة مع ابن الرشيد . بلغنى أن أحد الأشراف (أحد كبراء سلالة محمد) جرت العادة لإحضاره من المدينة (المنورة) أثناء موسم الحج ، إلى مدائن صالح ليكون وسيطا عند ولاد على . وفى تلك الأيام كانت جماعة كبيرة من ولاد على تأتى لملاقاة قافله الحج ، بغرض الإتجار ، وكانت تضرب خيامها ، أو إن شئت فقل ، تقيم بجوار قصر Kasr الصانع es-Sâny، قيل إن تلك الجماعة سرت بينها شائعة ، بسبب سوء ضمائرهم ، ترتب عليها أن تركوا بضاعتهم على الأرض وانفضوا خوفا وفزعا على الإبل غير المحملة المتجهة إلى قرية العلا . وبعد تلك المباغتة ، اكتشفوا أن الأمر لم يكن سوى مجرد شائعه ، وترتب على ذلك عدم التخييم فى تلك المنطقة بعد ذلك ، ولكنهم بعد أن حملّوا أغراضهم دخلوا إلى الحدود والمناطق الوعرة فى تلك الحرّه القريبة . فى نفس ذلك اليوم ، جرى تجريد واحد من بدو الفهجى من قميصه كما سرقوا منه ناقته ، عندما كان فى أرض السهل . وفى الصباح جرى غزو بعض من ولاد على بالقرب من الحِجْر ، بواسطه عشرة من اللصوص أو إن شئت فقل الغزاة . وفى الفترة الأخيرة ، خرج الحباليص (اللصوص) الإخوة الصغار ، مبتعدين عنا ، ولما لم يعودوا ظننا أنهم ضاعوا أو ضلوا طريقهم . وبعد انقضاء أسبوعين عاد أولئك الحباليص ، وهم يبتسمون بكل أسنانهم البيضاء ، وهم يقتادون ثلاثة من الحُمُر ليبيعوها فى سوق الحجر ، كان الحباليص قد سرقوا تلك الحمير أثناء الليل عندما كان أصحابها نائمين ، سرقوها من مخيم من مخيمات الحطيم Heteym يقع خلف قرية خيبر ، وربما كان ذلك على بعد حوالى مائة ميل . كان الحباليص مرهقين تماما ، نظرا لطول المسافة التى مشوها ، فى ظل الخطر الذى كان يتهدد حياواتهم ، فى منطقة الحمم البركانية الوعرة ، داخل بلاد أعداء ، فضلا عن أنهم لم يكن معهم ما يأكلونه أو يقتاتون به .

نزل بعض التجار ، الذين هم من آباء دمشقيين ، على القلعة ضيوفا قادمين إليها من قرية تيماء : كانوا يودون شراء احتياجاتهم السنوية من الملابس ومن البن ، من سوق قافلة الحج وسوق الأورطة العسكرية . ووصل فى الليلة ذاتها خدم ابن الرشيد ، ومعهم المهرة النجدية التى يقدمونها هديه كل عام لباشا الحج . وفى الصباح . شاهدنا تلك الهدية المقدمة من الأمير ، واقفة وعليها عرّاقة مصنوعة من القماش الذى يصنع

العرب منه عباءاتهم (بشوتهم) ؛ ووجدنا تلك المهرة هزيلة ، وغير مُفْرْجنة ، ولم تكن تساوى فى نظرنا ، مجرد حمار ، بل أن المغاربة كانوا يسخرون منها قائلين . وهم يقسمون بالله ، إنها لا تعدو أن تكون كديشا(*) . كانت الأورطة (القوة العسكرية) على وشك الوصول : وكان كاتب الأورطة ، الذى يسميه الأعراب باشا الأورطة ، يتقدمها راكبا دابته ، وطرق باب القلعة الحديدى مع الساعات الأولى بعد انتصاف الليل . كاتب الأورطة هذا ، كان تركيا سوريا اسمه محمد طاهر أفندى ، وكان بصحبته قائد الحرس العسكرى ، وهو تركى أصيل ؛ وهو الذى جرى تعيينه من قبل على رأس قوة عسكرية لقمع ولاد على فى قرية العلا . حيانى كاتب الأورطة هو وقائده العسكرى تحيه فيها شىء من الانشراح ، عندما وجدانى بخير ودخلنا كلنا لشرب القهوة . ولما كان محمد طاهر متعبا من الرحلة ، فقد قال وهو يجلس : والله أنا شبعان من عمرى .– ورد عليه محمد على قائلا : "ما هذا الذى تقوله يا هذا !" من ذا الذى سمع هذه الكلمة على لسان رجل حظيظ ؟ – "أنا شبعان ، يضاف إلى ذلك ، أن مامر من حياتى يكفينى ، وأنا أقسم على ذلك ." كان محمد أفندى طاهر رجلا طيبا ، لايلقى بالا أو يهتم بالاحتفالات الخرافية ، كما كان أيضا صاحب نكتة فريدة ، كان محمد أفندى يتكلم من قلبه ، فى كل مناحى الحياة الإنسانية المضطربة ، كما كانت لديه القدرة أيضا على تطويع كلامه لسياق حديثه ؛ ومحمد أفندى ، شأنه شأن الأتراك ، كان مفتول العضلات ، فضلا عن بعض الصفات الطبيعية العظيمة . ومع انبلاج نور الصباح وصلت الأورطة العسكرية إلى القلعة ؛ وإن هى إلا نصف ساعة ، حتى نصب شارع كامل من الخيام التى تستعمل استعمال المحلات ، فضلا عن القرية البيضاء التى كانت مكونة من خيام الجنود ؛ كل ذلك أقيم أمام القلعة . والمعروف أن الأورطة (القوة العسكرية) تتجاوز مضارب البدو بطريقة عسكرية ، وتقدم لهم صُرَّة مثلما تفعل قافلة الحج قبلهم . الأورطة (*) تصل بعد قافلة الحج بوقت قصير ، وتكون محملة بمواد الإغاثه القادمة من سوريا ، لتلتقى بقافله الحج القادمة من مكه فى منتصف

(*) الكديش : الفرس العجوز الهزيل . (المترجم)

(**) المؤلف يستعمل كلمة Jurdy التركية للدلالة على الأورطة ، وواحد هذه الكلمة هو جريد Jerid ومعناه الرمح الخفيف . (المترجم)

الطريق . هذه القافلة التى كانت فى يوم من الأيام قافلة عظيمة ، لم تعد سوى مجموعة مرهقة مكونة من قلة قليلة من التجار ؛ الذين يقومون بتلك الرحلة فى حراسة أربعين من راكبى الخيول ، ويجرون معهم مدفع ميدانى كبير مصنوع من النحاس الأصفر ، كانوا يطلقونه مرات عدة حسب الحاجة أثناء وصولهم إلى المركز ، هنا فى مدائن صالح : كان يوم وصول الأورطة يوافق اليوم الثالث من شهر فبراير . فى نفس ذلك اليوم وصل باعة الفاكهة إلى القلعة ، فى فترة العصر ، وهم من العلاونة الذين جاءوا على إبل استأجروها من ولاد على ، ثم راحوا يعرضون بضاعتهم أمام القلعة فى العراء ؛ وصنعوا لأنفسهم مخيما من الأدغال كى يحتموا به من ريح الليل . أحضر القرويون التمور وسلالا مليئة بالليمون الحلو ، لقافلة الحج التى تعانى من العطش ؛ وأنا بنفسى اشتريت مائة ليمونه نظير نصف كراون (*)

فى أواخر ذلك اليوم ، وبينما كنت جالسا فى خيمة ضابط الأورطة (القوة العسكرية) ، سمعت ، فجأة انطلاق بعض الأعيرة النارية فى المخيم : وعلى الفور وقفنا وخرجنا للوقوف على ما يحدث . وجدنا الجنود السوريين ، فى مرح وطيش يتعقبون ، عن طريق إطلاق النار ، جماعة من البدو الهاربين ، الذين كانوا يحاولون سرقة سوق الأورطة والسطو عليه ، وأن كل هؤلاء البدو الهاربين كانوا من ولاد على . وجدت أيضا أن أسوار القلعة كان الرجال متأهبين خلفها ، كما شاهدت أيضا حامية القلعة الضعيفة وهم يفتحون نيران بنادقهم الفتيلية على اللصوص الهاربين ، كما شاهدت بوابة القلعة الحديدية وقد أوصدت . وهنا صاح جندى مناديا بصوت أجش يطلب من الجميع التخلى عن البنادق والبدء فى تعقب اللصوص :- الرعاة والذئاب ، وكذلك الجنود والبدو لا يمكن أن يتفقوا ؛ على الفور جرى إطلاق دانة مدفعية فوق رءوس اللصوص ، دوّى على أثرها الصوت على مسافة بعيدة فى تلك الأرض الرملية القاحلة . ومع ذلك ، كانت شخصيه كبيرة من ولاد على تجلس فى خيمة باشا الأورطة ؛ هذه الشخصية كان اسمها محسن **Mehsan** الضرير ، الذى كان يجىء من حيث المكانه بعد ولد عمه ، الذى كان يشغل منصب شيخ القبيلة ؛ كان محسن الضرير ثريًا

(*) قطعة نقود معدنية تساوى خمس شلنات (المترجم)

من بين شيوخ الصحراء ، يضاف إلى ذلك أن مآثر كرم ذلك الرجل كان الناس يتغنون بها فى كل أرجاء البرية ، كان محسن ضيفًا على المخيم فى ذلك اليوم ، إذ كان ينتظر وصول قافله الحج حتى يرحل معها ، أملاً فى معالجه نفسة من المياه البيضاء فى مدينه دمشق . وعندما سمع محسن تلك الجلبة هب واقفا ، وهو يحرك حدقتى عينيه المسكينتين ، وبدا عليه أنه يرثى لتلك الفعلة التى أتاها رجال قبيلته الأغبياء غير المتحضرين . كان محسن رجلا مفتول العضلات ، وهو الآن فى مرحلة الشيخوخة ، فضلا عن أن لحيته كانت تنم عن أنه بحق من أهل الجزيرة العربية ، هذه اللحية ، تدل فيما بين البدو ، على أن صاحبها لم يكابد الجوع طوال حياته . كان طعام الشيخ محسن الضرير يتمثل فى حليب الخض butter milk الذى كان يحصل عليه من قطيع أغنامه ، كما كان عشاءه يتمثل فى سلطانية من لبن النياق فى المساء : يضاف إلى ذلك أن ذلك الشيخ من شيوخ الصحراء كان له قلب كبير بحكم سعة صدره .

كان محسن يجلس شامخا فى ملابسه الجديده ، التى كان يتلقاها كل عام من إدارة الحج بصحبة الصرة السنوية أيضا : ولم يغب عن بال ذلك الرجل ، بحكم خفه ظله ، أنه كان ينزل ، فى كثير من الأحيان ، ضيفا على الحضر . وكان يعرف أيضا أن الحياة المستقرة فى كل من دمشق والمدينة المنورة هى بمثابة تغيير وتجديد لذلك البدو ، اللهم باستثناء عندما يحن ثانية إلى الهواء النقى . وقد ابتلى محسن فى قسم من طبيعتة الإنسانية التى تشكل تعاسة كبيرة لحبه للسامية Semitic : هذا يعنى أن محسناً كان بلا ولد Childless، أو إن شئت فقل : "عجِّر" Ajjr بلغة القوم ، والبدو يعتقدون أن الرجل يصبح "عجًّراً" على أثر إصابته بمرض حاد مزمن . هذا يعنى أيضا أن ورثة محسن هم الفقراء من القبيله وكذلك الغرباء عنه ، وكل هؤلاء يترددون يومياً على سماط ذلك الرجل الكريم . لم يكن للشيخ محسن الضرير سوى زوجة واحدة غير جميله تقوم على أمر كرمه وضيافته . (بلغنى) أن الشيخ محسن الضرير ، قام علي إثر الغزو الذى قام به ابن الرشيد على قبيلته ، بتوزيع مبلغ خمسمائة ريال على المحتاجين والمعوزين ؛ وذلك على الرغم من استيلاء ابن الرشيد أثناء الغزو ، على خيمة الشيخ محسن ، وعلى محتويات تلك الخيمة أيضا :- واقع الأمر أن ذلك المبلغ كان كبيرا ويصعب أن يتوفر لدى أى بدوى ، من البدو الرحل ، على شكل نقد سائل ، أو إن

شئت فقل : على شكل (صرَّة) : هذا بحد ذاته يوحى بقدر كبير من الفضيلة العامة فى شخصية ذلك الرجل الذى أنجبته الصحراء ، والذى كان يحيا حياة الصعاليك فى مجتمع العرب البدو والمساكين !

قام كل جندى من الجنود بتفريغ بندقيته القصيرة التى تتسع خزينتها لست عشرة طلقة ، ولكن لم أتبين إن كان أحد من الأعراب قد أصيب ؛ ومع ذلك ، قيل إن واحداً من الأعراب قد أصيب فى كتفه . الرماية التى من هذا القبيل هى التى تجعل البدو يستخفون بالأسلحة النارية العسكرية ، من منطلق أنها ليست دقيقه وبعيدة المدى ؛ والبدو يعتقدون أن بنادقهم الفتيلية أفضل بكثير من تلك القربينات Carbines، أو إن شئت فقل البنادق القصيرة .

هنا يجيء الدور على بدو البِشْر والغرباء من القبائل الأخرى المجاورة ، مثل البلِّى Billi وجهينه ؛ وبدو البشر هم والغرباء من أمثال البلى وجهينة يمكنهم التسوق فى سوق قافلة الحج : وهم يدفعون عن ذلك التسوق ، مبلغ ريال واحد عن كل فرد ، وهو ما يسمى بريال الخوة ؛ ويدفعون لشيخ بعينه من شيوخ البدو الرحل فى تلك المسيرات . وملاك الأرض هنا هم ، ولاد على ، والفجير ، وكذلك الموءاهيب ، وكلهم ينتمون إلى سلالة عنيزة . ومن بين الموءاهيب مغربى مرَّاكشى ، كان من قبل فى حامية قلعة الأخضر ، والذى ترك خدمة الإمبراطورية العثمانية التى كانت تعود عليه بأجر هزيل ، وتحول إلى ناقل للأرز من بلدة الوجه ، وهو يعيش حاليا بين الأعراب متزوجا من واحدة من نسائهن . كان اسم ذلك المغربى محمد ، ولكنهم أطلقوا عليه اسم أبو Abu سنون Sinûn، أو إن شئت فقل : والد الأسنان ، نظرا للتشوه الكبير الذى طرأ على أنيابه ، وقد اضطرته الأزمة التنفسية التى حلت به إلى اللجوء إلى الحياة البدوية المترحلة طلبا للهواء العليل . وعبر لى وهو يبتسم ابتسامة تنم عن الرضا ، عن سروره ، بالتقائه فى هذه الوحدة ، فى ذلك المكان البعيد من العالم ، رجلا إنجليزياً ؛ كان الإنجليز جيرانا لناسه ! وكنت كلما زرته فى مخيم الموءاهيب ، فى أى وقت من الأوقات ، يفرِّجنى على الحرّة الموجودة خلف المضارب التى يعيش فيها ، وينقلنى لزيارة المواقع الأثرية الموجودة فى نطاق أراضيهم البدوية .

شاهدت بدويا مقبوضًا عليه فى القلعة بسبب تذمره . كان ذلك البدوى من عرب جهينة : كان خطأ ذلك البدوى يتمثل فى دين قديم ، وكان الحاج حسن واقفا يهدد بمالا يقل عن قطع رأس ذلك البدوى . كان بعض البدو الرحل يتوسلون طلبا للصفح عن ذلك البدوى ، ولكن مُعذِّبيه كانوا قد قيدوه ، وألقوا به فى غرفة علف الماشيه ، وأغلقوا الباب عليه . عند هذا الحد ، نظر نحوى باشا الأورطة (القوة العسكرية) الذى كان يجلس عندئذ بالقرب من بئر القلعة ، ويهز كتفيه إشمئزازا من ذلك المنظر ، ليرى مدى تأثير ذلك على الشخص الأوروبى ! كان هناك عدد كبير من الضيوف فى القلعة فى ذلك الوقت ؛ وبخاصة أولئك الضيوف الذين جاءوا من حائل ومن قرية تيماء ، إضافه إلى الضيوف عابرى السبيل من أمثال الأعراب والعلاونة Alowna ، الأمر الذى أسفر عن امتلاء غرفه القهوة عن آخرها .

كان ضيوف الأمير ابن الرشيد ثلاثه يرتدون ملابس جديدة وهم من النجديين . كان عبد العزيز هو الشخصية الرئيسة بين هؤلاء الثلاثه ؛ وعبد العزيز هذا شخص حصيف ومحترم يحظى بثقة الأمير ؛ وبالرغم من أنه كان أبيضا مثل العرب ، إلا أننى فهمت أو عرفت أنه لم يكن من دم نقى خالص ، إذ كان والداه من العروض el-Aruth فى شرقى نجد . هناك كثير من الأجانب الذين استطاعوا تبوأ بعض المناصب ، وهم حاليا يترأسون خدمة ذلك الطاغية فى حائل . هؤلاء البيض الماجنون المنغمسون فى الملذات فى الجزيرة العربية ربما ينحدرون من سلالة الجالا Galla(*) وابيضاض هؤلاء البشر يشوبه شىء من الصفره ، الأمر الذى يجعلهم من سلالة غير السلالة الخالصة التى ينحدر منها أهل الجزيرة العربية . كان فى عبد العزيز شىء من اللطافة النبيلة ، بمعنى أنه كان عبارة عن خليط من السلوكيات النجدية والشجاعة النجدية أيضا ، وفى مثل هذا الخليط تمتزج حلاوة إنسانيتهم الأنثوية بخشونة الرجولة . يضاف إلى ذلك ، أن عبد العزيز ، كان يمثل هنا فى القلعة كرامة سيده ويحافظ عليها : إلى حد أنه عندما كان يدخل إلى غرفه القهوة ويرى بعض القرويين العلاونة ، الذين لا يمكن أن يخطئ ملامحهم المؤسفة ، كان يطلب إليهم الانسحاب على الفور من الغرفة . قال عبد

(*) الجالا : الأحباش (المترجم)

العزيز ، أنا لا يمكن أن أكون مثله ، وأجلس بصحبة أى أحد من العلاونة . قد يكون ذلك من قبيل حقد وهابى قديم ، الذى لم ينحنى فيه أولئك القرويون الحجازيون أمام الاستبداد النجدى . ولكن هذا العبد العزيز نفسه كان يجلس مع بدو ولاد على ويتودد إليهم ، وهم حاليا أعداء للأمير . كانوا يرتشفون فناجيل القهوة سويا فى ود وصداقة ، ومع ذلك ، فإن خيانات تلك القبية هى التى تسببت فى الدمار الكبير الذى وقع مؤخرا ، كما تسببت أيضا فى المذبحة التى نصبها الأمير للأعراب فى ممتلكاته . كان ابن الرشيد يتطلع إلى خضوع تلك القبيلة خلال وقت قصير ، طالما أنهم غير قادرين على مواجهته . هنا ضحك محمد على قائلا وهو يدخل غرفة القهوة : "آه ، لقد ظهر المستور ، هاهو الغريب وسط هؤلاء البدو ! إنهم سيذبحون بعضهم البعض فى الميدان ، وأنا أقسم بالله على ذلك ، وها أنتم ترونهم يشربون القهوة مع بعضهم البعض فى ود وحنان ." اتجهت بعد ذلك للجلوس معهم ؛- قال عبد العزيز وهو يتجه صوب أذن الشيخ الضرير : "يا محسن ، نصيحتى لك أن تستولى على الجبال وتلجأ إليها ، وتستكن فى الأماكن الوعرة ، التى يعز على ابن الرشيد الوصول إليها ، وبالتالى الوصول إليك ." ورد عليه محسن رداً معتدلا قائلا : "صدقت يا عبد العزيز ، وسوف نفعل ذلك ."

كان كرم القلعة الصباحى والمسائى عبارة عن طبق معدنى كبير تماما مكوم فوقه طعام عشرين أو ثلاثين رجلا ، كان يحمله رجلان ويضعاه على أرض الشرفة العليا ويدعيا إليه كل ضيوف القلعة ، كان طعام الحاج نجم العربى عبارة عن أرز بالزبد إضافة إلى خبز غير مكتمل النضج على شكل حلقات . واستطاع محمد على نفسه أن يبدو لطيفا مع كل الضيوف والغرباء الموجودين فى القلعة : فقد طلب إلى الرجال القادمين من بلدة تيماء أن يحدثوه عن الموقف فى بلدهم ؛ هل هو سهل أم وادى ؟ وأنه سوف يذهب لزيارتهم على ظهر راحلته (إذا ما استطاع موظف الحكومة إلى ذلك سبيلا) فى عام من الأعوام . كان التيامنة فى الصحراء يعرفون جيدا كيف يردون على كلماته التركيه الملوية المرة بعد الأخرى ؛ كان التيامنة يعرفون جيداً أن حكام المدينة (المنورة) قد أعدوا أمرهم على الاستيلاء على واحة تيماء ، التى كانوا يعيشون فيها ، عن طيب خاطر ، فى ظل حكم محمد بن الرشيد .

كان عبد العزيز يزورنى فى غرفتى كل يوم ؛ وكان يتحدث بحرية مع الغريب ، كما كان القادمون من تيماء يفعلون الشيء نفسه ؛ فقد استمعوا فى القلعة إلى تقرير طيب عن النصرانى ، وفهموا أنى أميل تماما إلى جانب المسلمين . ولما كان عبد العزيز رجل يعرف القراءة والكتابة ، فقد راح هو الآخر يتفحص كتبى ، ولما كان لم ير الحروف المطبوعة فى حياته فقد ظن كتبى مخطوطات وهو يقول : "– مكتوبة بدقة بالغة بلغة النصارى !" كتبهم وسيرهم وأغانيهم ، وكذلك القرآن ، كل ذلك مكتوب عندهم بخط اليد . يضاف إلى ذلك أن كلا من الحاج نجم ومحمد على كانا قد تباها أمام التيامنة بأن النصرانى لم يكذب مطلقا ، حتى وإن كان ذلك الكذب لمصلحته ؛ وعليه فقد كان يجيبنى بصدق وإخلاص ، عن كل ما سألته عنه . قال لى : إن بداية وادى الرماح er-Rummah العظيم كانت فى حرة خيبر ، كما قال لى أيضا : إن المخرج عند الزبير بالقرب من بُصرى . كما أبلغنى أيضا أننى يتعين علىَّ رؤية بعض النقوش الخاصة بحائل ، إذا ما سمحت ظروفى بالذهاب إلى هناك . ولما كان قد سمع بينهم عن صدقى وصراحتى ، فقد عاد إلىَّ وسألنى مرة ثانية ، عما إذا كنت "أشرب" الدخان ، – لأن ذلك أمر غير دينى بين النجديين . كما حكى لى أيضا أنه هو واثنين من الرفاق كانوا قد ركبوا النياق وداروا حول تيماء ، طوال عشر رحلات ، جرى خلالها اقتياد الفَرَس للمحافظة عليها ؛ وهذا هو المدى الذى وصل إليه أمن تلك المناطق البدوية فى ظل حكم ابن رشيد واسمه القوى . كان أهل نجد هم وأهل تيماء مثابرين ومحافظين تماما على ولائهم لدينهم ، إذ كانت الدلاء يجرى وضعها لهم فى شرفه القلعة ، حتى يتوضؤا منها قبل أداء الصلاة : وكان عبد العزيز ، مبعوث الأمير ، يؤمهم بعد ذلك ، فى أداء الصلاة.

تأخرت عودة قافلة الحج ، وهذا هو الجمهور البدوى ، الذين جاءوا للتسوق خارج نطاق خيامهم ، هاهم يحتمون بالأدغال من الليالى قارسة البرودة ؛ وهاهى دلائل نيران حراستهم التى تبعث الأمل فى النفوس ، تظهر على شكل ومضات هنا وهناك فى ظلام الليل ، بالقرب من المخيم ، فى الأرض الجرداء . وأثناء الوردية السابقة لوردية منتصف الليل ، قامت الأورطة (القوة العسكرية) بإطلاق بعض دانات المدفعية فى اتجاه الشرق ، وفى اتجاه الغرب أيضا فوق رءوس هؤلاء البدو الخونة ، فى المنطقة الجرداء الخاليه من البشر . كانت ليالى الشتاء طويلة وباردة عند هذا الارتفاع ؛ ولم يستطع

عرب البوابة النوم طوال هذين الشهرين وبخاصة فى الفترة ما بعد منتصف الليل ، إذ كانوا يرتعشون بفعل البرد القارس ، وهم ملتحفون بعباءاتهم البسيطة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، فوق الرمال الباردة وهم يتأوهون انتظارا لطلوع الصبح . ونساء هؤلاء البدو ، بصفة خاصة هن اللاتى تعانين معاناة شديدة داخل الخيام المهترئه : البعض منهن ، ليس على أجسادهن من شىء سوى ثياب واسعة فضفاضة تستر بها أجسادهن ؛ إذ من أين لهن بالفضة (النقود الفضية) التى تمكنهن من شراء العباءات التى تغطيهن ؟ والجليد هنا لا يسقط على السهل مطلقا ، وإنما يُبَيِّضُ سطح الحرَّة ، فى بعض الأعوام ، على ارتفاع يصل إلى حوالى ٣٠٠٠ قدم . هذا هو الجمَّال الذى أوفد لاستطلاع أخبار عودة قافلة الحج ، جاءنا بنبئ يفيد تأخر وصول القافلة ، فى مخيماتها ، بفعل الأمطار (المدارية) ، وبخاصة فى المنطقة فيما بين الحرمين . هذه هى قافله الحج قد بدأت تهل علينا ، وسرت شائعة مفادها أن الحجاج العائدين جلبوا معهم مرض الجدرى . هؤلاء البدو من معارفى ، الذين سبق لهم رفض تلقى الطُّعم على سبيل الهدية ، هم يتوسلون إلى الآن ، أن أبيع لهم ذلك الطُّعْم ؛ وهنا فى عز هذه الأزمة راحوا يؤنبوننى وأنا أستعد للرحيل ، ولكنى لم ألق بالا لما قالوه .

شاهدنا فى نفس تلك الليلة أسرابا من الجراد ، وهذا فأل سيئ على بداية فصل الربيع ؛ هذا يعنى أن تلك الأسراب سوف تلتهم الربيع . صاح الناس قائلين : "هذه الأسراب تأتينا من قرية العلا ." هذه الحشرات التى تشبه الطير ، التى تطير مستخدمة فى ذلك أجنحتها الضعيفة الشبيهة بالزجاج أثناء هبوب الرياح الجنوبية ، بدأت تحط فى كل أرجاء المخيم ؛ وعلى الفور شوى الناس كل ذلك الجراد فى نيران الخفارة وأكلوه . وفى الصباح كانت النساء قد جمعن كميات هائلة من ذلك الجراد على شكل أكوام كبيرة ، وكن منشغلات بتخزين تلك الأكوام داخل حفر صغيرة ويشوينها بنيران ضعيفة أشعلنها فى الأعشاب الجافة ، هذا الجراد المشوى تفوح منه رائحة مقززه مثل رائحة الزيت الذى ينتج عن شوى السمك . وبعد أن تتم معالجة الجراد ، أو إن شئت فقل ، تقديد الجراد بهذه الطريقة ، وبعد وضع شىء من الملح عليه ، تجرى تعبئته فى جوالات من الجلد ، وبذلك يجرى حفظه مدة طويلة مع هؤلاء البدو : وهم يخلطون ذلك الجراد المقدد ، مع طعامهم السائل الوحيد المتمثل فى لبن الخض **butter**

. milk وعند هؤلاء البدو ، لا يعد مسحوق الجراد طعاما يصح تقديمه للضيوف ؛ ولقد شاهدت فى أحيان كثيرة بعض البدو الرُّحَّل المساكين (معظمهم من النساء) يخجلون ، حفاظا على ماء وجوههم ، من الاعتراف بأنهم كانوا يأكلون هذا الفتات البائس حتى يسدوا به رمقهم . وأفضل أنواع الجراد ، تلك التى تأتى فى فصل الربيع ، "وتقضى على كل ما هو أخضر" ، والأعراب ينظرون إلى أكل الجراد باعتبار أن له فائدة طبية . أما السلالات التى تأتى بعد ذلك ، والتى يطلقون عليها إسم الدُّبَّة dubba، وهى التى تنتج عن إناث الجراد غير الكاملات ، والتى لا توجد إلا فى منطقة الأعشاب المحروقه ، فهى من السلالات الجافة وغير الصحية . هذا النوع من الجراد المبكر ، الذى يجرى شوية يعده أهل الحضر وأهل الصحراء قطعة من المسكِّرات .

خلال الفترة التى كنا ننتظر فيها عوده قافلة الحج كان الدمشقيون المنهكون الذين جاءوا مع الأورطة (القوة العسكرية) غير مبالين ، إلى حد أن جماعتين فقط من هؤلاء الدمشقيين ، وبناء على رواية مفادها أننى قمت بذلك من قبل ، ابتعدا مسافة ميل تقريبا عن القلعة مستهدفين من ذلك زيارة الآثار الموجودة فى مدائن صالح . زد على ذلك ، أن باشا الأورطة ، ومعه الملازم التركى هو وجنوده ، ذهبوا جميعا عدوا بقيادة محمد على على ظهور دوابهم ، للوقوف على ذلك الذى قطع ذلك الإنجليزى من أجله تلك المسافة الطويلة قادما من سوريا . وقد عشت ، مسيحيا وحيدا ، بين جمع كبير من السوريين المسلمين الذين تجمعوا فى الحجر ويثيرون القلاقل والمتاعب ، وفى ظل متاعب الغيرة والحسد اللذان كانا يعتصران قلوب ذلك النوع الأفضل والمتسامح من أهل الجزيرة العربية زد على ذلك ، أن محمد على زكاّنى أيضا عند كل أولئك الذين يمكن أن يعينونى على المضى قدما فى تجوالى ومغامراتى فى الجزيرة العربية ، تلك المغامرة التى حاول الأشخاص المخلصين محاولة مستميتة ومخلصة لمنعى من المضى قدما فيها : من منطلق أن عقولهم الدينية تحثهم على عدم تجربة أى شىء لم تسبق لهم تجربته من قبل . "قالوا لى : سوف أذهب إلى أماكن أخسر فيها نفسى ، فى أرض لا تعرف القانون ، وسوف أكون فيها خارجا على القانون ، لمجرد أن اسمى النصرانى ، وبعيدا جداً عن كل مظاهر نجدة الملهوف ؛ سوف أغامر فى مكان لا يستطيعون هم أنفسهم المغامرة فيه ، وهم أصلا من أتباع دين هذا المكان ولغته ؟ يا خليل ، فكر جيداً فى نفسك ، وعد

معنا ، والطريق مفتوح وآمن ، عد معنا وابتعد عن تلك الأرض الخراب التى عضها الجوع ، والتى أهلكتها الشمس ؛ إنك لم تولد ، ولم يكلفك الله ، بتلك المعاناة فى أرض لا يمكن أن يسكنها أحد سوى العفاريت ، البدو عفاريت ، ولكنك نصرانى ،- فى هذه الأرض سوف يقتلك كل من يراك ! ولو قدر أن الله سبحانه وتعالى حفظ عليك حياتك إلى النهاية ، فما هو ذلك الذى سوف تجنيه لقاء تلك المتاعب الكبيرة ؟ بعض آخر من الرجال يعرضون حياتهم للخطر بغية تحقيق المكاسب ، ولكنك سوف تخاطر بكل شىء ، بلا داع" . هكذا كان البعض الطيب منهم ينظرون إلىّ بعين العطف علىّ من ناحية والاندهاش من الناحية الأخرى ، وبخاصة أننى ولدت ونشأت فى ظل الحياة الإفرنجيه المليئة بالفضل والزيادة ، فكيف لى بتحمل حياة الأعراب البائسة ومعاناتهم . وقالوا أيضا : "سنعود خلال يوم أو يومين إلى سوريا ، تخلَّ عن تلك المغامرة ، وهيا رافقنا فى عودتنا : ثم أليست دمشق مكانا جميلا يمكن أن تعيش فيه ؟" قال محسن الضرير شيئا شبيها بذلك ، محاولا بذلك إثنائى عن عزمى ، من منطلق أنى واحد من الحضر ، ومن منطلق أنى نصرانى أيضا : قال الرجل : "إسمعنى ، فهذه نصيحة صادقة ؛ عد الآن ، يا خليل مع قافلة الحج إلى الشام : الأرض هنا ، هى أرض البدو ، ولا تخضع لأى شكل من أشكال الحكم ، وأنت معروف فى هذه الأرض بأنك نصرانى ؛ ولا تخاطر بحياتك : ومع ذلك إذا كنت بحاجة إلى المغامرة ، فالأعراب أناس طيبون ، وما عليك إلا أن توسّع صدرك وأنت بينهم ." وهنا رد عليه محمد على قائلا : "خليل يحب المغامرة حبا جما ، وليس هناك ما يمكن أن يثنيه عن عزمه ." قال أحد الشيوخ : "إذا ما ذهب رجل إلى الأعراب تعين عليه أن يحمل كفنه بين يديه !" قال آخرون : "يا خليل ، إحترس ولا تسلم نفسك لأى منهم مهما كان ؛ البدو شياطين ." ولامنى ضباط الأورطة قائلين : "ولماذا تضيّع حياتك ؟ وأنت لا تعرف البدو ، ولكن نحن نعرفهم ؛ البدو شياطين ." وقال الملازم العسكرى : "ونحن الذين نعمل بالجندية ، لا يمكن لنا المرور إلا بعد أن نعطيهم صرة من النقود . البدو متمردون (وأضاف بوصفه تركيا) ، ولا يستحقون سوى خسران رءوسهم . كم هم يجرؤن على معارضة حكم السلطان !" سألونى : "ما رأيك فى هذه الصحراء ؟" (رد محمد على الجزائرى قائلا : "أؤكد لك أن فرنسا إذا ما استولت على هذه الأرض فسوف تكون هناك بلدان وقرى ." وقلت لهم إن هذه البلاد لا

تستحق كل هذه المتاعب والآلام .

كان سكرتير الأورطة العسكرية عجيلي أسمر اللون من أهل الجزيرة العربية ، وكان شخصا مثقفا من البلاد الوهابية ، ويختلف تماما عن كل الوجوه السورية المحيطة به . ومع ذلك كانت عينا محياه الأسود تنظران إليّ نظرة ود وصداقة ، خالية من الحقد والحسد المتزمت ، كان ينظر إلي باعتبار أني مجرد نصراني جائل في أرض العرب : قال لي إنه سوف يحكي لي عن شيء غريب في بلده الذي ربما زرته في يوم من الأيام . "دوّن ! ... سدوس ، في وادي حنيفة (*) Halifa، في ديرة مسيلمة (**) Umseylmy، الكذّاب ، حيث يوجد هناك ميل (مسلة أو دعامة) عليها كتابة غير معروفة من آثار كتابة النصارى أو الكفار ، الذين سكنوا تلك الأرض في الأزمان القديمة ."

عند هذه المرحلة تأكد أن الحجيج عادوا وقد انتشر مرض الجدري بينهم . ومعروف أن مرض الجدري هو والكوليرا هما بمثابة الدمار الذي يحيق بالقسم البدوي المترحّل من الجزيرة العربية . وأجسام هؤلاء البدو الرحل الضعيفة لا تقوى تماما على مقاومة أي مرض من تلك الأمراض المعدية المخيفه . ومعروف أن قوافل الحج ، (التي يأتي الكثير منها من مختلف مناطق الجزيرة العربية ذاتها) هي بمثابة سيول المدن التي تنساب كل عام خلال شبه الجزيرة العربية الجرداء .

وفي صباح اليوم الثامن من ذلك الانتظار الطويل ، بدأت طلائع الحج ، التي واصلت المسيرة طوال الليل ، تلوح وتهل علينا في السهل . وهنا ركبت الأورطة دوابها ، وراحت تعدو مع ضباطها لتقديم التحية لباشا الحج . وصل في مقدمة قافلة الحج عمال نصب الخيام : وإن هي إلا دقائق قليلة حتى قاموا بنصب خيام مدينة الحجاج كاملة ، وذلك بالقرب من مخيم الأورطة العسكرية ، وهنا دوت في أذاننا من جديد أصوات الأجراس ، التي كانت مضبوطة على خطوات مسير الجمال التي كانت تحمل أشياء

(*) أورد المؤلف هذه الكلمة بالرسم الإنجليزي Halifa والصحيح هو " حنيفة " Hanifa (المترجم)
(**) أورد المؤلف هذه الكلمة بالرسم Umseylmy والصحيح هو Museylema (مسيلمة) (المترجم)

ضخمة ، تشبه الموكب ، والتى هى أصلا تخوت Takhts الرومّ er-Rûm (التى يعود منها عدد قليل) . ومن بعد هذه الجمال ، بدأت تلوح لنا جموع الحجيج . واستغرق مرور طوابير الحج حوالى نصف الساعة ، عندما وصل آخر تلك الطوابير إلى الخيام المخصصة له . هذه المدينة الخيامية تنصب مرتين كل عام وتستمر يوما واحدًا فى سهل ثمود ، وهى تغص حاليا بالحركة والنشاط ! وهؤلاء هم الخرَّازين يجلسون فى أركان السوق حتى يتسنى لهم ممارسة مهنتهم ؛ بجانب هؤلاء الخرَّازين ، توجد بعض النعال الطبيعية المصنوعة من جلود الإبل التى تساقطت على الطريق أثناء الرحلة ؛ وهم يصنعون من تلك النعال أحذية لأولئك الذين قطعوا تلك المسافة الطويلة سيرًا على الأقدام . وسرعان ما جرى توسيع مساحة سوق شارع الأورطة الذى يحتوى على خيام يستعملها الناس محلات للبيع والشراء ، عن طريق إضافة خيام التجار الجدد إليه . وأسعار السلع فى هذا السوق ، عند هذه المحطة التى تقع فى منتصف الطريق ، تتراوح بين خمسة وثمانية أضعاف مثيلاتها فى أسواق دمشق . هاهى الأورطة وقد جلبت معها زيتونا سوريا ، وكرَّاثا بشوشة ، كما أحضرت معها أيضا جبنا وبسكويتا أو إن شئت فقل خبزا من خبز القافلة . وهذا هو خباز الأورطة ، مشغول فى تنوره ، وأوانيه حتى يتمكن من إنتاج خبز أبيض مفرود ، نظير البنسات القليلة المتبقية مع الحجاج المساكين . وهذا هو الليمون الحلو والليمون الحامض ، وكذلك تمر الحلو ، هذه الأشياء جاءت كلها من قرية العلا ، وقد شاهدت هذه الأشياء وهى تباع عن آخرها على وجه السرعة . وهاهم التجار الذين جاءوا من دمشق على ظهور جمالهم ، وقد فتحوا بالاتهم فى الخيام ، وراحوا يعرضون فناجيل القهوة ، والأدوات الحديدية ، والسجاد الفاخر (الذى يشبه الحدائق بهيجة الألوان ، والذى له ملمس ناعم يشبه مروج الربيع ،) – وملابس كبار الشيوخ ! كما يعرضون للبيع أيضا أقمشة تصنع منها ملابس البدو ، والتجار العائدون من الحج يجلبون معهم بعض السلع عند عودتهم من مكة ؛ كما شاهدت فى خيام هؤلاء التجار السوريين أكواما من البن اليمنى (اليمن السعيد) .

وجدت فى الخيام الموجودة على أطراف السوق توابل معروضة للبيع جاء بها باعتها من جزر الملايو ، ومن الهند ، كما وجدت أيضا طيب مكة وعطورها ، وبضاعة

أخرى مصنوعة من الخزف والصينى جاء بها باعتها من بحار الصين ؛ كل هذه الأشياء أحضرها الحجاج المسلمون ، الذين تجمعوا فى السوق المقدسة ، من أمم بعيدة وغريبة . كان راعيا من رعاة هذه البضاعة يصيح ، بصوت عال ، مناديا على البدو وهو يقول : "هيا تعالوا واشتروا يا أعراب !" كانت النساء اللاتى كن يمشين بالقرب من هؤلاء التجار ، وهن يبحثن عن بعض التوابل والعقاقير ، يرددن على ذلك النداء ردًا رزينا وهن يقلن : "ماذا لديك أيها الشاب ؟" وعندما كن يغمغمن اعتراضًا على السعر وهن يقلن : "كيف ذلك ؟" (كان البائع يتعجب منهن) هل تعتبرننى واحدا من أولئك الذين يمكن أن يغشوكن ، أنا رجل ممن يراعون الله ويخافونه !"– وعندما أبصرنى ذلك الرجل الذى كان ينادى على بضاعته ، توقف عن الكلام لكى يحيينى ! هذا الرجل قدم لى كل أعذار الدنيا الزائفة التى كان يغطيها بابتسامة باسم ذلك الفارسى الذى يدعى محمد أغا ، عن أنه لن يمر بذلك الطريق مرة ثانية (نظرا لأنه سبق أن قدم لى وعداً مصطنعا ، بنقلى إلى الشام) ، لأنه انتقل بطريق البحر إلى بغداد . كان ذلك الفارسى يخشى فى داخله ، من أننى ربما اتهمته فى دمشق ، فى يوم من الأيام . رأيت ذلك الرجل مرة ثانية فى دمشق فى فترة لاحقه ؛ بعد أن عدت بسلام من الجزيرة العربية ، ولكن عوالم كثيره كانت قد مرت على ذهنى ، إلى حد أنه عندما تحدث إلىّ ونحن فى السوق لم أتذكره ، إذ لم يكن يتبقى لدى من ذلك المحيا الغض سوى ذكرى شاحبة وضئيلة تماما ومضطربة أيضا ؛ وربما كان ذلك الأغا على يقين من أنى لم أكن أضمر له سوءاً . "(قال ذلك الأغا لرفيقى ونحن فى دمشق) آهِ ! لقد عانيت الكثير من أجل نقل صديقك إلى مدائن صالح ، وفى معان ، وعلى طول الطريق بكامله ! وأنت لا تدرى عن ذلك الذى حدث لى بعد ذلك فى المدينة (المنورة) ! وأنا أقسم بالله ! أنى لن أفعل مثل هذا العمل مرة ثانيه – مستحيل ، حتى ولو كان ذلك بخمسة أضعاف المبلغ الذى أعطانى إياه . فى المدينة المنورة جرى استجوابى أمام مجلسهم ، يوما بيوم ، ولم يلقوا بالا للإيمان التى أقسمتها ، ولكنهم أجبرونى على الاعتراف بالمكان الذى خبأت فيه النصرانى . وأنا لم أقع من قبل فى ورطة من هذا القبيل على امتداد حياتى كلها ."

كان البدو المساكين يطوفون هنا وهناك فى كل أنحاء الشارع المكون من الخيام - الدّكانية ، بغيه أن يبيع الواحد منهم ما لديه من مقادير صغيرة جداً من السمن نظير شيء من النقود الفضية ، أملا فى أن يشترى لنفسه بتلك النقود عباءة (بشت) جديدة هذا العام ومعه قميص شامى (رداء دمشقى) مصنوع من القماش . أما الحجاج الذين كانوا قد واصلوا مسيرهم أثناء الليل ، فهاهم نائمين فى الخيام ينالون قسطا من الراحة ، وتلك هى النراجيل الجميلة ، هى وفناجيل القهوة يجرى تجهيزها حول المئات من وجارات(*) إعداد القهوة : ولكن الوجوه البيضاء الكبيرة لأولئك الدمشقيين الذين يتمنطقون بالأحزمة ، ويلفون على جباههم عمامات ثقيله وقورة ، وكذلك لباسهم الوطنى ، ومعهم أوعيتهم الضحلة التى يخصصونها لجمع تفل (حثالة) البن ، كل هذه الأشياء تكاد تكون غريبة على العين غير المعتادة عليها فى هذه الأرض الجرداء القاحلة . كان هناك أيضا حول بركة الماء رهط كبير من السقّائين حول البركة يملأون قراب الماء ، ويجلبون الماء لتشرب منه مئات الدواب . كان خزان ماء القلعة قد أخضر لون مائه وبدأ يتعفن بالفعل ، حتى أن البدو الرُّحل (الذين لم يعتادوا على العثور على الماء الجيد) ، يرفضون الشرب من ذلك الماء ؛ هذا الماء تحول ، بالنسبه لنا ، إلى شيء كريه بفعل عمليات الوضوء الرديئة التى يمارسها العلاونة (سكان العلا) استعدادا للصلاة ، وبخاصه أن هؤلاء العلاونة لا يراعون ضمائرهم وينزلون إلى خزان الماء بغية أن يستحموا ويغسلون أجسادهم فى ذلك الماء العام .

فى هذا الجمع الهائل من البشر التقيت ببدوى أسمر البشرة من أعراب قبيلة بنى مَرَّة **Murra**، تلك القبيلة الجنوبية ، بالقرب من وادى الدواسر . كان ذلك الرجل يرافق قافلة الحج متجها إلى سوريا ! وعندما سألت ذلك الرجل عن دياره ، أجابنى بذلك الكلام البدوى المؤسف قائلا : 'مالا بها خير' ، (بمعنى إنها ليس فيها أى شيء من الخير .) قال لى : "إنها تربة ، مجرد تربة ، أو إن شئت فقل : أرض شاسعة خالية من القرى ، أرض قحولة وجوع ." من عادة هؤلاء البدو أن يطلقوا العباره : 'بلاد بها خير' بمعنى "أرض طيبة " على تلك الديار التى يأكل فيها السكان ويشبعون .

(*) وجارات : واحدة ؛ وجار " وهو موقد إعداد القهوة (المترجم)

امتدحنى ضباط الأورطة وزكونى هم ومحمد على عند باشا الحج ؛ ولكنى كنت أرى أن الوقت كان ما يزال غير مناسب كى أقوم بزيارته للسلام عليه ، وبخاصة أن هذا الباشا الذى سبق له أن ا ختزن فى ذهنه استياءا شديدا جراء مجيئى إلى مدائن صالح . وقد وقفت على ذلك كله من لحظات صفو محمد على ومن لحظات غضبه أيضا . ففى ليلة من شهر ديسمبر التى ترحل فيها قافلة الحج عن مدائن صالح . كان السير أمين ذلك الرجل التركى ، هو ومحمد سعيد باشا ، قد أرسلا ، قبل تحرك القافلة ، فى طلب محمد على . "قالا له : بالله عليك ، ألم تخبئ النصرانى ، لترسله سرًا إلى كل من المدينة (المنورة) ومكة (المكرمة) ؟" "أنا أقول : لا لسيادتكما والله شاهدى على ما أقول ، ولكن المؤكد أن هذا الرجل غامر هنا ، فى هذه الديار ، وذهب فقط لزيارة مدائن صالح : ثقا بما أقول : إنه لم يتعد هذه الديار ولو بخطوة واحدة ، وفى كل الأحوال أنا أعرف الطريقة التى أمنعه بها من ذلك ؛ ولكنى سوف أذهب لإحضاره هنا أمامكما : وسوف ترياه يرد عن نفسه أمامكما ." قال الباشا : "لاتفعل ذلك ، فأنا لا أود أن أرى وجهه ، ويجب علىَّ الحفاظ على كرامتى ." (من المحتمل أننى عندما زرته فى دمشق أن أكون قد نسيت مخاطبة هذا المختلس العجوز للمال العام قائلا : "يا صاحب السعادة !") هنا رد السير أمين (الاسطمبولى) ، قائلا : "انتبه يا راعى القلعة ؛ لو قدر لذلك الإنجليزى أن يتبعنا ولو بخطوة واحدة نحو المدينة (المنورة) ، فذلك يعنى أنك ستمكننى من رأس الكلب ." الإنجليز ، الذين يعلمون هؤلاء البرابرة ذلك الذى لا يعرفونه فى إسطنبول ، قد يقتلونك فى السِّر ، ويدعون الأمور تجرى فى أعنتها ، فى كل من المدينة (المنورة) ومكة (المكرمة) ! وهنا قال الباشا لمحمد على : "احتفظ به معك هنا فى القلعة ، ويجب عليك أن توفده لزيارة الآثار ، حتى لا يأتى إلينا هنا المزيد من الفرنجة فيما بعد . انتبه ، واجتهد فى ألا يصيب ذلك الرجل أى مكروه : والسبب فى ذلك ، وأنا أقسم لك بالله ، هو أننا قد نطلب حياة ذلك الرجل على يديك أنت ." وقال السير أمين : "انتبه ، أقسم لك بالله العظيم ، إننا إن عدنا ولم نجد هذا الرجل حيا ، فسوف أعدمك شنقا على باب قلعتك ." لقد بدأ يعتريهم مؤخرا خوف شديد من

مساءلتهم عن حياة المواطنين الأوربيين . - حرص محمد على على أخذ كلامهما بعين اعتباره ، وأجابهما مقسما بلحيتيهما ، إنه "سوف يطيع أوامره ، ولكن قسما بالله العلى ، هو من المغاربة ، ولن يخيفه أى مخلوق مهمًا كان ." وهنا ينبغى أن أطلب من الباشا عطية ، وهى بالتحديد أن يزكينى عند البدو المتوحشين على الطريق . وعندما رحلت قافلة الحج فى الصباح ، تعين على الذهاب للتجوال والتسكع مع الأعراب فى تلك الأرض الخراب الشاسعة . كان ضباط الأورطة قد أثنوا زيداً Zeyd عن قصده ، كما فعل الباشا الشىء نفسه ؛ ولكن زيدا كان يتطلع إلى الحصول على النقود الفضية ، فضلا عن إنهم لم يكن لهم أى نوع من أنواع السلطة على أى واحد من البدو الأحرار .

نزل بعض الدراويش الجزائريين ضيوفا على القلعة فى ذلك المساء . وقد سمحوا لى عن طيب خاطر - ولربما ظنونى مسلما غريبا ،- من منطلق أنهم فى ظل حكامهم المسيحيين لهم مطلق الحرية فيما يتعلق بالدين والعدالة . كما نزل على القلعة ضيوف فى الأمسية نفسها بعض من العسكر المغاربة جاءوا من القلاع الجنوبية ؛ وسبب مجيئهم هو أنهم يتقاضون رواتبهم أو معاشاتهم التى يتقاضونها عن العام كله مقدما على طريق الحج ، بالرغم من أن كل رواتب وأجور الإمبراطورية العثمانية كانت إلى حد كبير تدفع مؤخرا : - ومن منهم من يود أن يظل معزولا ، وسط تلك الصحراء الشاسعة ، وهو ينتظر راتبه أو معاشه ؟ وهنا يصبح الأمر بالنسبة لهم كما لو كانوا لن يتسلموا رواتبهم مطلقا . هؤلاء الناس الذين يعيشون فى مضارب مستقرة يبدو عليهم المرح والفرح ، كما أنهم معتادون على الخيول المتينه ، وهم يلقون نظرة على الفرس الهزيلة التى أرسلها أمير نجد على سبيل الهدية . قال بعض البدو ، من بين الحاضرين "إرسال مثل هذه الجيفة ، هو احتقار ما بعده احتقار ، وهى لا تساوى ثلاثين كراونا ؛ يضاف إلى ذلك أن الباشا لن يقبلها !" قال بعض آخر من البدو وهم يتفاخرون إن ثمن تلك الفرس يعادل ثمن ثلاثين جملا . وقال أحد السوريين : "إن هذه الفرس إذا ما مر عليها شهر واحد فى الشام ستكون أحسن مما هى عليه الآن . فى عام من الأعوام كانت هناك فرس أخرى هزيلة ، أرسلها ذلك الأمير البدوى ، ابن الرشيد ، أوسَمَّه ما شئت ، كبرت ونمت فى إصطبل الباشا ، فى ظل توفر العلف الجاف والعلف الأخضر -

نعم كبرت لتشغل غرفة مثل غرفة القهوة هذه !" الأفراس الأصيلة ذات الدماء النقية ، لها قيمة كبيرة عند قبائل الأعراب ، والسبب فى ذلك هو ندرة هذه السلالات ، ثمن الفرس الواحده يقدر بحوالى خمسة وعشرين جملا ، أى حوالى ١٣٠ جنيهاً إنجليزيا على أقل تقدير ، أو ١٥٠ جنيها إسترلينيا فى أحسن الأحوال ؛ وأسوأ تلك الأفراس تقدر قيمة الواحدة منها بحوالى ثمن خمسة جمال ، وهو ما يعادل ثمن أفضل النياق . كانت الهدية السنوية التى يقدمها الأمير النجدى على شكل فرس لمحمد سعيد باشا ، كان ينظر إليها الباشا السورى العظيم على إنها نوع من أنواع الاسترضاء . كان باشا الحج عند عودته فى الموسم التالى يرسل مراسله من هنا ، من مدائن صالح ، إلى حائل ، حاملا معه إلى ذلك الأمير من أمراء الجزيرة العربية هدايا مقابلة لتلك الهدية . كانت تلك الهدايا عبارة عن مسدس ، وبنادق ، وتلسكوبات ، وما إلى ذلك من الملبوسات الغربية القادمة من إسطنبول .

بحلول الصباح ، وعند الساعة الثامنة صباحا ، وبعد إطلاق مدفع الإشاره ، استأنفت قافلة الحج مسيرها ، وتبعتها راكبا على جمل صغير كان زيد قد أشتراه لى بمبلغ ثلاثين ريالاً . وعند الرحيل كان زيد قد طلب إلى محمد على أن يتذكره فى دمشق (بالمُهْر الهدية) ، وأن يأتى إليه ، فى موسم الحج القادم ، على أقصى تقدير ، ومعه عباءة (بشت) شتويه مفرّاه (لبس المدينة : أى لباس سورى من ألبسة الأعراب المصنوعة من جلود الأغنام التى تشيع الدفئ فى الجسم ؛ وبدو سيناء يلبسون رداء يصنع من جلد الغزال أو من أنواع أخرى من الجلود التى تتدلى من حول العنق ، ويلفونها حول أجسادهم أثناء هبوب الريح) . لم يرد محمد على بشىء على هذا الطلب ؛ إذ إن كلاهما كان خادعا وغشاشا ، ولم نره بعد ذلك . تجولنا خلال سهل الحجر ، الملىء بالكثبان الرملية التى تحيط بأدغال أشجار الرمض . Rimth سبَّنى واحد من أفراد قبيلة ولاد على أثناء المسير ، (وولاد على يجاورون المدينه (المنورة) ، وأنا أعرف أنهم لم يتأثروا بنكهة أو مذاق تلك المدينة ، نظرا لحقدهم البدوى الشديد ،) سبَّنى فقال : "هل ستجلب علينا المسكوف (*) ؟ يالك من عدو ! (ثم وجه بندقيته

(*) نسبة إلى مدينة موسكو فى روسيا ، والمقصود بذلك هنا هو " الروس " . (المترجم)

الفتيليه نحوى ؛) ولكن اعلم أننا سوف نتصرف معهم مثلما فعلت معك الآن ، ونحن لدينا الكثير من هذه البنادق ، كما أن البدوى فى القتال يساوى ، قسما بالله ، عشرة من المسكوف(*) ." قلت له : "بدينى ، الواحد منهم فى اعتقادى يساوى الكثيرين منكم أيها الأولاد المتفاخرين العاطلين ؛ أنا لست عدوا أيها الساذج الغبى العبيط : ليس هناك فى الدنيا كلها أمة تحسدكم على صحاريكم الرملية . إعلم أنى من القسم الموالى للسلطان ، وضد المسكوف ، إذا ما جاءوا إلى هنا ." توقفنا لحظة حتى نسمح للقافلة بالمرور نحو الأعلى فى إتجاه مَبْرك الناقة ، كان مبعثا لفرحنا وسرورنا أن نسمع صياح الحجيج ، ونسمع أيضا الأصوات الصادرة عن فتح نيران مسدساتهم . والبدو الذين لا يعرفون القرآن حق المعرفة (كما يقال) ، ينظرون إلى هذا المكان باعتباره "مجرد مكان للتجمع والحشد" : ربما كان ذلك صحيحا فى أزمان سابقة عندما كان الحج جمعا غفيرا . وأثناء سيرنا ونحن راكبين دوابنا رأيت أن الصخزه الشرقية كانت مليئة بالنقوش الأثرية المدونة : ولكنى لم أتمكن فى ذلك الحين من النزول عن دابتى لنقل تلك النقوش وشفِّها . وعندما رحت أنظر من فوق جملى ، فى اتجاه سير القافله ، وجدت أن حجمها قد تضاءل تضاؤلا كبيرًا ؛ والواضح أن أقل من ثلثى القافلة هم الذين عادوا من تلك القافلة الكبيرة التى توجهت لأداء الحج فى مكة : لم يكن بين العائدين ضمن القافله أى من الفرس الذين يلبسون فوق رءوسهم أغطية مصنوعة من الفراء . وعادة الفرس أنهم بعد أداء الحج ، هى أن يعود الكثيرون منهم إلى بلادهم عن طريق البحر ؛ كما أن قلة قليلة منهم وافتها المنية على طريق الحج . وقافلة الحج العائدة من مكة ، تجلب معها العبيد الأفارقة ، إلى الشمال الغربى من العالم الإسلامى ، ولكنى بالرغم من تدقيقى وإطالة النظر هنا وهناك ، لم أحص من هؤلاء العبيد سوى خمسة فقط من بين هذا الجمع الكبير من الحجاج العائدين .

عندما وجدت بعضا من البدو المرافقين لنا قد سدوا فتحات أنوفهم ، سألت عن سبب ذلك ، أبلغنى هؤلاء الرجال أنهم لم يسبق لهم مطلقا التطعيم ضد الجدرى ،

(*) كانت الحروب مستمرة بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية منذ القرن السابع عشر الميلادى بسبب تطلع روسيا للسيطرة على الدردنيلى والبوسفور من أجل الوصول إلى المياه الدافئة فى البحر الأبيض المتوسط . (المراجع)

وأنهم كانوا يتشككون ويخافون تشمم رائحة الحج .' والمعروف أن البدو الرُّحَّل الذين يحيون دوما في جو نظيف وغير ملوث يكونون أكثر الناس تشمما للروائح الغريبة . هؤلاء البدو الرُّحل ، عند دخولهم المدن والبلدان التي يستشعرون فيها أجواء كريهة وغير مواتية ونفاذة وغريبة أيضا ، تراهم يتنفسون فيها بنوع من الاستياء والتأفف وهم يضعون غترهم (أغطية رءوسهم) فوق أنوفهم . كان عصر ذلك اليوم مالحا ، إضافة إلى إحساسنا بالعطش . وعندما سمعني درويش مسكين وبسيط الحال ، كان يسير إلى جوارنا على قدميه ، وأنا أنادي قائلا : "ماء" ، قام بوضع يده ، وهو يبتسم ابتسامة طيبة ، على سرج جملي ، رافعا قربته الصغيرة نحوي وهو يقول : "اشرب من هذه ، أيها الحاج ، وانعش نفسك ." وعندما لم أجد في تلك القربة سوى ماء آسن متغير اللون ، ناولته إياها مرة ثانية ؛ ولكنه لم يأخذ أعذاري بعين اعتباره . وبدا لي من نظراته أنه ظن أن راكب الجمل لم يقابل سماحته الدينية بالمثل ، بالرغم من برودة الإحسان طوال النضال على طريق الحج . حملق الرجل فيَّ لحظة ، أطال خلالها النظر إليّ وهو غاضب ، وفقد مروءته ، ومضى في طريقه مرهقا وهو يظن أو يحسب أن الرجل الذي رفض شرب الماء مع الحجاج الآخرين قد لا يكون مسلما بحق .

وصلت قافلة الحج إلى منطقة التخييم قبل غروب الشمس . وهنا نزلت من فوق دابتي وقصدت لأستودع لفافة النقوش الكبيرة ، التي شففتها من مدائن صالح ، عند محمد طاهر Tâhir؛ الذي قام بوضع وديعتي في صناديق جَمَله ، ووعد بروح طيبة أنه سوف يقوم بتسليم تلك النقوش للقنصلية البريطانية في دمشق :– وللحق أقول : إنه وفَّى بذلك بشرف وأمانة . سألت إن كانت هناك أخبار سياسية جديدة في المدينه (المنورة) . وأجابني الرجل على النحو التالي : 'أعربت الدول عن مطالب معينة من الباب العالي ، مهددة أنه إذا لم تجاب تلك المطالب فإنها قد تقوم بتحرك عام ضد السلطان(*) .' – "وماذا عن إنجلترا ؟" – "نعم ، وإنجلترا أيضا ! عجبا والآن أيضا !

(*) في عام ١٨٧٦ ثارت الشعوب المسيحية في البلقان ضد الدولة العثمانية التي بادرت بقمع تلك الثورات مما أثار سخط الدول الأوروبية التي بادرت بإرسال مذكرة إلى السلطان العثماني احتوت على عدة مطالب بالإصلاح وحسن معاملة الرعايا المسيحين . غير أن الدولة العثمانية لم تعبأ بتلك المطالب وردت عليها ردا جافا ومن ثم وجدت روسيا الفرصة سانحة أمامها لكي تعلن الحرب على الدولة الغانية في عام ١٨٧٧ وما ترتب على تلك الحرب من نتائج كان من أبرزها بداية تقسيم الدولة الثانية بين الدول الأوروبية . (المراجع)

هل هناك من يمكن أن يتنبأ بما سيحدث للعالم ؟" كان يقف بالقرب منا ضابط تركى شاب من عسكر الحج ، قال لى : "نحن نعلم أن الفرنجة يتحدثون منذ سنوات عن تقسيم إمبراطورية السلطان : ولكن ماذا يقول السلطان ؟ حسن ، ولابد أن يحدث ذلك ، دعهم يجيئون فرادى أو جماعات ؛ وإن الله سينصر من يشاء !" قال الضابط الشاب هذه العبارة وهو حزين حزن الشباب ، كما لو كانت إرادة السماء على وشك النفاذ ، وأنهم أصبح يتعين عليهم التعويل تماما على تلك المغامرة الأخيرة . - هذا هو أكثر الأقاليم الإسلاميه تشددا وشراسة يقف أمامهم ، والذى يعد اسم النصرانى فيه سبة وإساءة ؛ وكيف لى بالمرور وسط سكان دمويين ومتهيجين ، ولا يحسبوننى جاسوسا ، أو بمعنى آخر ، واحدا من اعدائهم الأزليين المتخيَّلين ؟ ولما كان كلام أولئك السكان السياسى مليئا بالهفوات ، خطر ببالى أن الحقيقة ربما تكون أقل من ذلك ، كما فكرت أيضا فى عدم العودة من هذا المشروع فى الوقت الراهن . ترى هل كان ذلك العام هو عام الجهاد ؟ وبالتالى يصبح من الصعب علىّ مرة ثانية الترحال فى الجزيرة العربية . وهنا نظر إلىّ الضابطان عن غير قصد وفهما من نظراتى والطريقة التى تلقيت بها وتمثلت بها أيضا نبأ أفول دينهم سواء أكان ذلك بالفرح سرًا أو علانية ؟ وعندما استشرفت أن الانتصار المسيحى بات وشيكا فى العالم : ولكن عندما لاحظ الضابطان أنى لم أكن سعيدا بأسفهما ، وإنما مستغرقا فى أفكارى ، رفعنى ذلك إلى قمة حسن نيتهما .

انتظرت زيداً Zeyd؛ وكان هذا البدوى المراوغ ، قد قال بعد أن نزلنا من على ظهور دوابنا ، أنه سوف يقتاد جملينا إلى المرعى ؛ ثم نذهب بعد ذلك لمقابلة الباشا . راح ذلك البدوى يراوغنى إلى أن أرخى الليل سدوله ، ولما كنت أشعر بالتعب والإرهاق ولم أتناول طعاما منذ الأمس ، فقد عدت من خلال الحرَّاس إلى النار التى أشعلها رفاقى من البدو : وجدت بينهم زيداً ، يشرب القهوة . أفسح الرجل لى مكانا ، وراح يفند الأمر وهو يبتسم . بعد ذلك ، وعندما دخلت منزل الحج للمرة الثانية ، ذهبت وحدى لزيارة الباشا ؛ ولكنى عندما تعثرت فى حبال سرادقه (خيمته) الكبير ، نظرا لانطفاء الأنوار ، فقد فهمت من الخفير أن ذلك الباشا العظيم كان ينال بالفعل قسطا من الراحة . كما شاهدت أيضا ، خارج المنزل هيكل جمل المحمل فارغا ؛ كما شاهدت

أيضا بجوار الخيمة الكبيرة فناء ملحقا بها مكون من عمود صغير وستاره ، "ليكون بمثابة مكان مخصص للحريم ." وصلت بعد ذلك إلى الجرّاح العسكرى ، الذى يطلقون عليه اسم الجبَّار ، أو إن شئت فقل مجبِّر العظام ؛ كان ذلك الجبار قد وعدنى بأن يتلو علىَّ درسا من دروس فن الطب . اكتشفت أن ذلك الرجل كان أهلا للمعرفة ، كما أفدت فيما بعد من تعليماته القليلة التى استغرق ساعة كاملة فى إلقائها علىَّ ؛ ويرجع ذلك إلى ضياع كتاب الصيدلة الذى كنت أحمله معى . كنت أستعيد أسماء أدويتى وأكررها المرة بعد الأخرى ، وكنت أدون أيضا استعمال كل دواء من تلك الأدوية ، حسبما يقوله ذلك الجبَّار . وبناء على طلب ذلك الجبار ، أحضرت له ، من أجل واحد من مرضاه ، قليلا من مسحوق اللودانوم(*)؛ كان ذلك الجبار مرهقا ومتعبا إلى الحد الذى عجز معه عن فتح صناديقه الميدانية . وتساءلت 'عما يمكن أن يحدث لإنسان أُعْطى عددا كبيرا من تلك الجرعات ليحتفظ بها معه ، ولكنه أخذها كلها عن جهل دفعة واحدة ، ثم يسكت القلب ؛' . كان المفروض أن أقول "وتوقف قلبه عن النبض ،" ولكنى بسبب التعب والإرهاق نطقت 'القاف' فى كلمه 'قلب' 'كافا' ، وبذلك يصبح المعنى "ثم يسكت الكلب ." وهنا دخلت كلمتى غير الصحيحه إلى ذهن الحكيم الطيب البشوش : وبعد أن ابتسم ذلك الحكيم فى البداية وراح يمسك لحيته دعابة ، وراح أيضا يتمالك نفسه من الضحك ، الذى احتفظ به (فى الوقت الذى تملكنى الخوف فيه) إلى صبيحه اليوم التالى التى سوف يتعين عليه خلالها التقاء الباشا على تناول طعام الإفطار . ويدخل فى خيمة الحكيم درويش شاب من قرية الميدان **Medân**، فارع الطول . سبق له أن رآنى مرات كثيرة ، بصفتى فرنجيا ، يتجول فى ذلك الحى الواسع من أحياء دمشق . دخل ذلك الدرويش يطلب صدقة من الرجال ، أو إن شئت فقل : شيئا من القراقيش ، أو البسكويت كى يقتات بها فى العشاء ؛ ولما كانت عينا ذلك الرجل ترتفع فوق عقبيه مسافة سبعة أقدام ، فقد وقف يحملق ويطيل النظر إلى واحد مثلى يجلس فى هذا المكان ضمن قافلة الحج ، وضمن هذه المجموعة الفخمة من الرجال . رد عليه الجرَّاح المُحسِن قائلا : "بسكويت (قراقيش) القافلة شحيح ، ولكن ذلك البسكويت سيكون غداً

(*) اللودانوم : هو مستحضر أو صبغة الأفيون (لتسكين الآلام) . (المترجم)

وبعد الغد متهاوداً فى السعر ، وهنا سأقوم بالشراء ، وعندها تعالى إلىَّ هنا ." والسلع المحمولة على ظهور الإبل ، هى وكل المؤن التى تكون فى سوق القافلة ، تتأثر أسعارها صعوداً أو هبوطا حسب الوقفات ، وبخاصة عندما تكون القافلة قريبة من منتصف الرحلة أو من نهايتها . كانت أسعار بيع بسكويت القافلة ، أو إن شئت فقل : قراقيش القافلة ، تباع ، فى مدائن صالح ، بسبعة أمثال أسعارها فى دمشق .

بعد أن عارضنى الحرَّاس بطريقة مهذبة ، انتقلت من المخيم إلى النار التى شبها العرب ، ثم عدت ثانية إلى دغلتنا البدوية ؛ التى أمضينا الليلة فيها على الرمل محتمين من الريح بسروج الجمال التى صنعنا منها مصداً للرياح . كان من بين هذه المجموعة واحد من بدو الفجيرى ، الذى كان قد سافر إلى الحرمين من قبل ، وهاهو يعود ثانية مع قافلة الحج ؛ كان ذلك الفجيرى مشغولا بعجن كعكة من الشعير ، عندما ومض فجأة شهاب فى السماء لحظة اختفى بعدها مخلِّفا وراءه شريطا مضيئا ، يلوح منه وميض أزرق عريض ، هوى وفرمل من أمام أعيننا . "(تنهد ذلك الرجل الذى ملئ عينيه برؤيه مكة (المكرمة) آهٍ ! هذه الأشياء التى لا نفهمها يا ربى هى من أعمالك العجيبة !" وبعد أن وضع ذلك الفجيرى الكعكة تحت الرماد ، وكانت أصابعه ما يزال يعلق بها شيء من العجين ، نهض فجأة عندما شاهد ناقة تبول ، وراح يجمع البول فى راحتى يديه ويغسلهما به :- والبدو الرحل يرون مخرجات المواشى ودوابهم طاهرة ، وهنا فهمت سبب شح الماء بصورة مستمرة فى منطقة الصحراء الخلفية ، التى سوف يتعين علينا المرور بها فى صبيحة اليوم التالى . قابلت وأنا بصحبة بعض البدو ، بعضا من رجال القصيم ؛ الذين سيعودون إلى ديارهم من هذا الطريق ، بعد أن تركوا العمل فى خدمة قافلة الحج السوريه ؛ وديارهم تبعد عن هنا مسافة تزيد على ثلاثمائة ميل ، سوف يقطعونها سيرا على الأقدام ، عن طريق قرية تيماء وجبل شمَّر . سألنى هؤلاء القصيميين إن كان قد سبق لى زيارة ديارهم ، وقالوا لى : إن حال أدويتى سيروج هناك . "وقالوا ، لماذا تطلق على نفسك نصرانيا ؟ بوسعك أن تفعل ذلك فى دمشق ، وليس فى نجد ، التى لا يعرف الناس فيها شيئا عن الدنيا (العالم) المحيطه بهم ، وهذا يمكن أن ينزل بك الكثير من الخطر ." وبعد أن انتهينا من شرب القهوة ،

رجونى أن أطلق على نفسى كلمة "مسلم" وأن أظل فى داخلى على ما أنا عليه ، (وهذا مسموح به فى القرآن لكل مسلم يشعر بالاضطهاد) - وهذا كلام لا يبعد كثيرا عن الحكمة ؛ ولقد سبق لى استشعار ذلك الحظ العاثر مرارا خلال تجوالى على هذا النحو ، وكرجل مارق (ومن ثم يحق قتلى من وجهة نظرهم) لمجرد أنى أحمل اسما غير مسلم فى الجزيرة العربية ...(*)

مع إطلاق الدانة الأخيرة ، قبل طلوع الفجر ، حرك البدو إبلهم وبدءوا الرحيل . وفى ضوء النجوم تبينت أن الطريق الذى كنا نسير فيه كان متجها صوب الشرق . ونظرا لأن الأعراب يملأهم دوما المكر والخداع الذى ربما يفيدهم ، فقد كان يراودنى شك فى الجماعه التى ترافقنى ، إلى أن طلع النهار ورأيت بنى صخر حمَّالى الحج ، وهم يفدون علينا مهرولين وهم يتغنون أيضا بأناشيدهم الدينية البدوية ؛ فى تلك الأثناء ، كان القسم الرئيسى من القافلة ، ما يزال بعيدًا جدًا فى المؤخرة ، وغير واضح الرؤية ، شاهدت أيضا آثار عجلات مدافع الأورطة ، واستنتجت من ذلك أننا كنا فعلا على الطريق الصحيح . ولكنى من باب التأكيد ، نزلت عن دابتى ورحت أمشى على قدمى ؛ وحصلت من زيد على قسم ، وهو الذى لم يتصل بى فى الأمس ، على أن يركب معى أمام باشا الحج . وبالتدريج بدأت تهل علينا طلعة باشا الحج ، وهو يركب راحلته فى مقدمة القافلة ، ومعه ضباطه وقلة قليلة من الجنود ؛ كان ذلك بالقرب من شوك Shuk el-Ajuz العجوز . ركبت عندئذ مع زيد على ناقته ، (إذ كان جملى مريضا ،) واتجهنا صوب الباشا وضباطه ونحن نسرع الخطى . وهنا قام زيد بأداء التحية على الطريقة البدوية الساذجة البسيطة ، مستخدمًا لذلك نغمات صوته الحاد ، وبصفته من ملاك الأرض فى دياره قائلا : "السلام عليكم". وعندما سمع محمد سعيد ، الصوت البدوى خلفه قال متعجبًا : "هيه!" ثانى ، دون أن يستدير إلينا ، ولكنه عندما نظر جانبا ورأى جديدا ، نظر إلىّ وعرفنى ؛ وهنا قال ، على الفور وبروح طيبة ، لرفيقى البدوى ، - "لقد عهدت به إليك ، و (وضع يده اليمنى على قلبه ،) فهل اعتنيت به كما لو كنت تعتنى

(*) عبارات ضد الدين الإسلامى وردت على لسان المؤلف رأينا استبعادها . (المراجع)

وتهتم بعينى أنا ." ثم خاطبنى سعيد باشا قائلا : "هل أنهيت كل شىء فى مدائن صالح ؟ وماذا عن شواهد القبور ؟ هل تعتقد أن فى بلادك من يستطيع قراءتها ؟ وماذا عن المنازل . ألم تقل إنها لم تكن منازل ، وإنما هى مقابر ؟- ولكن ، ألم تعثر على أى كنز من الكنوز ؟- *إلى اللقاء* ." وهنا لم أتوانى ، ورحت أتكلم مع *الباشا* عن *الجمل* المريض الذى كان زيد قد أشتراه لى : وهنا قال الباشا لزيد : "انتبه ! يجب عليك إعادة الجمل لصاحبه ، وتطلب منه أن يعيد إليك النقود ثانية ؛ - ثم (قال لى) إذا لم يفعل ذلك البدوى ذلك وينفذه فسوف أطلب منه تنفيذ ذلك فى دمشق .- (قال لزيد) أين أعرابك من هنا ؟" - "على بعد حوالى مسير يوم من هنا فى اتجاه الشرق ، وهم ميممون المسير إلى قرية تيماء ." ووجه الباشا لى سؤالا آخرا : "وإلى أين أنت ذاهب ؟" - "إلى تيماء ، وإلى حائل ، وآمل أيضا الذهاب إلى خيبر ." وهنا التقط الباشا أنفاسه ؛ لم يكن *الباشا* راضيا عن زيارتى لخيبر ، *التى* تقع فى نطاق دائرة *المدينة* (*المنورة*) : ورد على قائلا : "هذا أمر صعب جداً ." وهنا قال محمد طاهر ، الذى كان يركب دابته بصحبة الباشا ، قال بنغمة ودية : "إنه يحمل معه طعما ، وسوف يكون ذلك أمانا له بين الأعراب ؛ لقد رأيت ذلك الطعم بنفسى ." وأردف محمد طاهر قائلا : "هل كل نقوشك موجودة فى اللفافة التى استودعتنى إياها ؟" وهنا أجبته على الفور :"كلها فى تلك اللفافة ، وأنا أثق بالله فى أنى سوف أطلعك عليها فى يوم ما فى دمشق ." وهنا رد علىَّ الباشا قائلا : 'إن شاء الله' ، والمؤكد أنه كان يظن أنى قد لا أعود من تلك المغامرة العربية . - بعد ذلك ، وعندما راح زيد ، يتحدث فى خيام *البدو* الرحل عن خطاب الباشا ، استحلفنى بالكثير من قسم البدو ، ولم ينطق بكلمة واحدة ، إلى حد أنى كنت أستمع إليه كما لو كنت فى حلم .

بعد ابتعادنا عن القافلة ، تركنا طريق الحج جانباً وذهبنا لملئ قربة الماء من بركه من برك ماء المطر العذب . ثم بدأنا نتوغل شرقا داخل الأرض البرية المرتفعة المكونة من الحجر الرملى ، والتى يطلقون عليها اسم برج سلمان **Bori Selman**، لنجد أمامنا ثَوْل (سرب) من الجراد ، يطير دفعة واحدة ويحط أسفل *الأدغال الصحراوية* ، نظراً لأن هذا هو موعد تكاثر الجراد ؛ وبعد انتهاء تلك المهمة الطبيعية ، يبدو أن الجراد يبدأ بعدها فى الموت بصورة متدرجة . ونظرا لأننا كنا لم نتناول طعام الإفطار ، فقد عثر

زيد على بعض من نباتات الكراث البرى وبعض الدرنات البرية التى يقولون لها 'السبيدى' بلغة القوم ، التى لا تختلف عن درنة البطاطس بعد شويها . كما قطف زيد أيضا بعض أوراق لذيذة الطعم جاء بها من شجيرة من شجيرات السَّلْطه ، يقولون لها بلغة القوم 'ذالوك' Thalûk، كما قطف أيضا بعض أوراق الحُمِّيض الزراعى ، وأعطانى إياها لآكلها ؛ ثم تناول من خرج السرج كسرة من خبز الشعير ، كسرها ليقسمها بيننا . "قال : هذا بطبيعة الحال من صُرَّتنا (*) الخاصة ؛ فهل تستطيع أن تأكل خبز البدو ، يا خليل ؟" هذه الأرض المرتفعة التى تجاوزناها ، والتى يطلقون عليها اسم برج سلمان (وهذا اسم قديم من زمن بطولة بنى هلال) ، عبارة عن أرض جرداء واسعة من الزلط والرمل ، ومليئة بصخور الحجر الرملى الوعرة . قال زيد وهو يقلب التربة بيده القوية : هذه هى أرض البدو . وراح زيد يرافقنى وأنا أتحدث عن ديرة كانت ذات يوم فى الأرض الجرداء التى أمامنا . قال زيد : "استمع إلىَّ يا خليل ؛ سوف تعيش معنا هنا ، وسوف يرسل إليك معاشك كل عام إلى هنا مع مجىء قافلة الحج ، ونحن سوف نعطيك فتاة لتصبح لك زوجة : وإذا ما ولد لك طفل ، فإنك عندما سترحل عنا ، أو تترك هذا المكان ، سيكون أطفالك بمثابة أطفالى ، وأنا أقسم بالله على ذلك ، وسوف يبقون معى ." – وقال أيضا إنه سوف يعطينى من ماشيته جملا .

(*) المقصود هنا : إن هذا من جيبنا الخاص ، أو من مالنا الخاص . (المترجم)

الفصل الثامن

حياة العرب الرُّحَّل فى الصحراء

بدو الفجير حليب النياق . الذهاب إلى خيمة زيد . زوجته حرفة . الرِّحْلة . النساء فقط هن اللائى يقمن بأعمال المنزل . الماء الثمين . الربيع . الصخور "المكتوبة" . الإبل تصوم عن الماء ، وتنتعش فى الموسم الجديد . العام البدوى الترحالى . إقامة المخيم حيث يوجد المرعى . المزيد عن الرِّحْلة . شب النار فى المخيم الجديد . مخيِّم الفُكَاره . أعراب زيد . "إقامة" خيمة زيد . قهوة زيد . قهوة الشيخ . مصطلح "الأعراب" يعنى "الناس أو الشعب" أيضا . الخيمة العربية البدوية . الأدوات المنزلية . ضيوف الرحمن . حكايه زيد . قبيلة زيد . الأتراك والإنجليز من المنظور القبلى . زيجات زيد . حرفة . هروب حرفة . سماسرة الجمال من الحويطات . أمتهم البدويه . الكيف . البدو الرحل المستعمرون . هل الحويطات من الأنباط ؟ الرفيق . إعادة حرفة إلى المنزل من جديد . قسمة أو نصيب المرأه عندهم . زوجة عجوز من زوجات زيد . الأمومة عند البدو الرحل . خرافة المرأة الآسيوية . الاعراب ذوى الملامح الأنثوية . صلاة النساء . رأى الساميين فى جنس النساء . النساء : محجبات أم كاشفات . المرأة والأم فى الشريعة العبرية . حمل الأطفال فى الحياه الصحراوية . العادة العربية القديمة التى تقضى بدفن الأطفال

الإناث أحياءًا . الابن والابنة فى الأسرة الريفية المترحلة . البدو الرُحل لا يسهل عليهم تصور الحياة المستقبلية . تقديم الأضاحى من أجل الموتى . ذكرى الرجال لأبنائهم الأموات . فى مناطق الحدود تذهب النساء إلى المقابر للبكاء . أطفال البدو الرحل لا يضربون . "الكذب شينة" .

***

واصلنا ترحالنا بالتناوب بين المشى والركوب ، كما كنا نتبادل العباءات حسب رغبة زيد ، واستمر الحال على هذا المنوال إلى أواخر فترة العصر ؛ وراودت زيد الشكوك فى مسألة إدراكنا لمضارب الأعراب فى ضوء النهار . ونظرا لتحرك الأعراب المستمر لم يكن سهلاً على زيد تحديد منزل أولئك الأعراب فى نطاق عشرة أو عشرين ميلا على وجه التحديد . كان بصحبتنا واحد من العجيليين الذين كانوا معنا فى القلعة فى الليلة السابقة ؛ كان ذلك العجيلى مسلحا بمطرقة ، وكان يركب جملى المريض . وبينما كنا نبحث عن الأعراب وقعت أبصارنا فجأة على مجموعات كبيرة من الإبل تسير متباطئة ، كان حداتها يسوقونها فى اتجاه مخيم البدو . أو إن شئت فقل : فى اتجاه منزل البدو ، وهذا بدوره يبعد عنا مسافة ميل آخر . وعندما وصلنا إلى الرعاة ، نزلنا عن الماشية وجلسنا على الأرض ، وهنا تقدم واحد من هؤلاء الرعاه وتسلم منا سلطانياتنا ، وراح يجرى عدوا تحت نياقة ليجلب لنا حليب النياق . هذا خير الله ، ولا يمكن حجبه عن أى من عابرى السبيل ، حتى وإن أدى ذلك إلى بقاء ملاك تلك النياق بلا عشاء . وبعد ذلك ببرهة صغيرة سألنى رفاقى عما إذا كنت أشعر بتوعك أم لا ؛ "وهم يقولون : إن سبب السؤال هو أن الأعراب عادة ما يشعرون بتوعك ، بعد شرب لبن النياق لأول مرة ." هذا النوع من الحليب القوى إلى حد ما سرعان ما يتجبن أو يتخثر فى المعدة .

تراجعت إلى الوراء عندما اقتربنا من خيام البدو ، وكان معى العجيلى ، وراعينا فى ذلك أدب الصحراء ، بينما سبقنا مضيفنا زيد . اكتشفنا أن خيمته عبارة عن خيمة صيفية صغيرة ، أو إن شئت فقل : "خيمة هفهافة" من النوع الذى يطلق عليه البدو اسم هجرة "مبنية" (حسبما يقول البدو) فوق رمال الصحراء . كانت الخيمة منخفضة

ومسكينة الحال ، بما لا يليق بشيخ كبير ، ولم يكن بداخل الخيمة سجادة مرحة مفروشة على أرضها : كانت الخيمة خلوا من الأشياء التى سبق لى الوقوف عليها فى أماكن أخرى ، يعيش فيها بدو الشمال . اقتادنى زيد إلى داخل الخيمة وعلى شفتية ابتسامة حادة ؛ والذى أدهشنى بعض الشىء ، أننى كان يتعين علىَّ السير خلفة إلى المكان المخصص للنساء . هؤلاء البدو النازحون فى بعض الأحيان ، لا يشكون فى النصارى ، الذين عرفوهم فى الشمال ، وسمعوا أنهم أصحاب سمعة طيبة ، أحسن من سمعة المسلمين . وفى مكان الحريم قدمنى زيد لزوجته الشابة "قال : هذه عمتك (مُضيفتك) الجديدة ، وأنت يا حرفه Hirfa، هذا هو خليل ؛ وديرى بالك عليه ." قبل طلوع الصبح ، كان القبليون الغائبون قد عادوا قادمين من سوق الحج ؛ هذا يعنى أن البدو لم يقيموا سوى يوم واحد فى برج Borj سلمان : Selman ورحنا نحن فى صباح اليوم الثالث . كان ارتفاع هذا الجزء من البلاد يصل إلى حوالى ٤٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر.

تنقل مخيم الأعراب ، ومعهم ماشيتهم من مرعى إلى مرعى آخر هو ما يطلق عليه أولئك الأعراب اسم "رحْلَة" ، râhla .وقد سبق لأولئك البدو ، فى مجلس الأمس ، أن قرروا وحددوا مكان الرحيل وأسلوبه وطريقته وموعده أيضاً ؛ أو قد يكونوا قد أوكلوا الأمر كله إلى شيخهم ، وهذا يحتم على من يقيمون فى الخيام المجاورة ، عندما يطلع النهار ، مراقبة إذا ما كان حريم الشيخ سيقمن بتقويض الخيام ، وعندما يتأكدون من ذلك ، فهذا يعنى بداية "الرَّحْلَة" râhla . وعندئذ تسارع الزوجات البدويات إلى اقتلاع أوتاد الخيام ، ثم تسقط الخيام على إثر ذلك ؛ وهنا يجرى طى قماش الخيام ، وربط وتجميع أعمدة الخيام على شكل حزمة كبيرة شبيهة بحزم الحطب : ثم تقمن بعد ذلك بوضع مقتنيات المنازل (داخل جوالات هن اللاتى ينسجونها ،) حتى يتسنى بعد ذلك تحميل تلك الجوالات على ظهور إبل الحمل . وعندما يشاهد الجيران أولئك النسوة ، وعندما يشاهد جيران الجيران ذلك الذى يدور ، ترى الخيام كلها وقد سقطت على الأرض فى أماكن متناثرة من المنْزَل الذى يقيم فيه أولئك الأعراب . وهنا يتقدم الرعاة إلى الأمام ؛ ثم يركب الحريم بصحبة أمتعتهن ؛ ويركب الرجال وأسلحتهم ، أو سيوفهم ،

أو بنادقهم الفتيلية ، معلقة فى عِدَّةَ (سرج) الجمل من خلفهم ، ويمسكون الرماح الطويلة فى أيديهم ، وهم راكبين على نياقهم ، ويكونون بصحبة الشيخ :– وتلك هى مسيرة القرية الراحلة ، أو إن شئت فقل : القرية البدوية المترحّلة . أما إذا بقيت خيمة الشيخ منصوبة ، ومضى عليها ساعة بعد طلوع النهار ، وهو الوقت الذى يتعين فيه دفع الماشية إلى المرعى ، فإن الرجال يرددون العبارة التالية : "فلتذهب الماشية الآن للرعى ، فلن تكون هناك اليوم 'رحْلَة' ". râhla

هذا الفجر ، الذى يصادف اليوم السادس عشر من شهر فبراير ، كان بارداً بل وقارسا فى هذا الجزء المرتفع من البلاد . قال زيد : شَيْل ؛ وهنا قامت حرفة التى كانت ترتعد من البرد وتتنهد ، بتقويض وتعبئة محتويات المنزل . والأزواج الشيوخ لا يساعدون ربات البيوت الضعيفات فى جمع وحزم الأمتعة ؛ لأن فى ذلك تقليل من قيمة الرجل حتى فى نظر النساء . وهنا يجلس الرجال يدفئون أنفسهم على نيران الحطب الذى يجمعونه ، إلى آخر لحظة ، وقد جرت العادة أن يقوم زيد فى مثل هذه الظروف بعمل القهوة . وهنا يجرى جلب إبل الحمل وتبريكها بين الأحمال ؛ وكل ما يفعله الراعى ، هو مساعدة حرفة على وضع تلك الأمتعة فوق سروج الجمال المحمَّلة ، التى يطلقون عليها اسم 'الحداج' hadaj؛ هذا 'الحداج' عبارة عن إطار ، أو إن شئت فقل : هيكل يصنع من خشب أشجار السنط فى الصحراء ، والذين يصنعون هذا الحداج هم من البدو الصناع Sany أو من الصلوبية(*) . Solubby كما يجرى ملئ القماش الداخلى القديم فى الخيمة ، والذى يطلقون عليه اسم الوتر witter، ببعض من العشب الجاف ، ويجرى تخريم كل ذلك أسفل بطن الجمل بحبل صغير . نادانى زيد لأساعد معهم فى رفع الأحمال ، نظراً لأنها كانت أثقل من اللازم ، فعل ذلك وهو يتمتم غاضبا ويقول : 'هل الشيخ حمَّالا ، لرفع الأحمال ؟' كما ساعدتهم أيضا فى رفع الأحمال الخفيفة التى يجرى تحميلها على أجناب عِدّة (سرج) الجمل إلى أن جرى تحميل هذه الأحمال بطريقة متوازنة . كان زيد من سلالة مشايخ القبائل فى واحدة من القبائل المحترمة .

(*) الصلوبية : من قبائل الغجر . (المراجع)

والشيخ الذى يكون من هذا القبيل يتحتم عليه ، فى وجود الرجال ، ألا يضع يده فى أعمال من هذا القبيل ؛ وهو يترك الأعمال التى من هذا القبيل لمن يجيئون بعده من حيث المنزلة . والشيخ الكبير ، قد يقوم على أمر رعاية فرسه والاهتمام بها ، فى مَنْزَل القبيلة ، فى حين يقوم كل من هم أقل منه منزلة برعى الماشية فى الحقل ؛ ومع ذلك ، إذا ما اقتاد الشيخ فرسه إلى بئر الماء ، ورأى أى أحد من عامة أفراد القبيلة ، فإنه ينادى مثل هذا الشخص ويطلب منه جلب الماء للفرس . ومع ذلك ، فإن أبناء مشايخ القبائل أثناء طفولتهم ، ثم بعد ذلك فى مرحلة شبابهم عندما يتسلحون ، يكونون فى معظم الأوقات بصحبة الماشية ، ويرافقون الرعاه . وقد شاهدت بنفسى زيدا وهو يخرج ومعه منجل حش العشب ، لجلب شىء من العلف لفرسه ، ثم عاد إلينا وهو يحمل عباءته (بشته) بعد أن ملأها بالعلف ، ويحملها على ظهره ، ويغمغم بكلام غير مفهوم ، فى الوقت الذى كانت علامات الألم والتبرم تبدو على وجهه ، نظرا لأن تلك كانت مهمة ولده سليم : ونظرا لعصيان سليم فى كثير من الأحيان ، فقد كان والده يوبخه ويقول عنه إنه شيطان ، ولم يحدث أن هدده ولو مرة واحدة فى حياته ، نظرا لأن هذا التهديد هو أبعد ما يكون عن ذهن الوالد البدوى .

قطعنا مسافة عشرة أميال ، ثم نصبنا خيامنا مدة أربع ساعات فى المنطقة الواقعة شرقى الدار الحمراء . كانت النساء مشغولات "بنصب" خيامهن ؛ ولكن الرجال بعد أن نزلوا من فوق ظهور الماشية ، جلسوا بلا عمل ، وهذا هو حالهم عندما لا يقومون برعى الماشية ، أو الغزو ، إذ يجلسون اليوم بطوله فى البيت لا يقومون بشىء سوى التكاسل والأمر والنهى . "وهم يقولون : الجوَّار (ربّات البيوت البدويات) هن مخصصات للأعمال المنزلية وأن يطعن النظام والقواعد ." قام زيد ، بينما كنا نحتمى من الريح الشديدة خلف جسر من الرمل ، انتظارا لنصب البيوت (الخيام) ، بعمل وجار (موقد) فى الرمل ؛ ثم انحنى بعد ذلك ، وعلى وجهه بشر البدو ، ليوقد لنا نار الغجر . قام سليم بجمع الحطب ، وجلسنا حول النار نتدفأ ونشوى الجراد .

أمضينا يومين فى ذلك المكان ، ثم انتقلنا بعد ذلك شرقا على بعد مسافة أربع ساعات مسير خلال تلك الأرض الرملية العامرة بالمروج الخضراء ، والطقس المعتدل ، ثم نصبنا خيامنا بعد ذلك فى أرض التخييم التى يطلقون عليها اسم العنتريَّة . والهواء

فى تلك الصحراء المرتفعة عليل وخفيف ونقى أيضا ، ولكن الماء هنا نادر وملوث ببول الإبل . كانت حرفة ، تعطينى كل صباح ، وبناء على أوامر من زيد ، حوالى أوقية أو أوقيتين من الماء الثمين ، حتى اغتسل بهما "مثل الحضر" . كانت تظن أن ذلك نوعا من التبذير والإسراف فى الماء ، فى الوقت الذى ليس لدى أفراد القبيلة ما يكفيهم من ماء الشرب . وفى كثير من المرات ، وبخاصة فيما بين السقيا ، لا يكون هناك إناء واحد من أوانى الماء فى خيام الشيوخ الكبار ؛ وعندما يلتمس الشيخ من ربة بيته أن تملأ له طبق الماء ليصنع قهوة الضيوف ، فإنها هنا تجيب عليه قائلة : "ليس لدينا ماء ." وفرس شيخ القبيله تستهلك قسما كبيرا من مؤنه ؛ والمعروف أن الحصان ، دونا عن سائر كل أنواع الماشية فى الصحراء ، هو الذى لا يمكن أن يصبر كثيرا على العطش . وفى أحيان كثيره كان زيد يلجأ إلى ذلك العذر المقبول ، (هذا يعنى أنه وصل أيضا إلى حال البؤس فى تقديم القهوة ،) وراح يقول : "لا يوجد ماء" . حضر ، مطلق ، الشيخ الكبير ، إلىّ ذات يوم لزيارتى فى الصباح وسألنى : "هل شربت القهوة ؟" – "ليس اليوم ، فهم يقولون ، لا يوجد ماء ." – "ماذا تقول ! ثم سألنى ، ألم يقدم لك زيد قهوة فى هذا الصباح ؟" والسبب فى ذلك أن الشيوخ فقراء الحال ، لا يعجزون عن تقديم قهوة الغد ، كل لرفاقه وصحبته . كان مطلق يعرف ابن عمه زيدا ، ولذلك ابتسم قائلا : "ما هذا ، زيد ليس عنده ماء ! ولكن تعالى إلينا فى خيمتنا يا خليل ، وسوف أُصلِّح لك القهوة ." اقتادنى مطلق إلى خيمته ، التى لم تكن تبعد كثيرا عن خيمة زيد ، حيث جلس أمام وجار القهوة ، ونظرا لأنه كان شيخ القبيلة فقد قام بتحميص البن ، وتحضيره وغليه ، وصلحّ ذلك الفنجال الذى يدل على الكرم ، وقدمه للغريب النصرانى . تصادف أن ضاع من زيد جملا فى هذا المكان ، نظرا لهجوم الذئاب عليه . وفى الصباح ركب زيد فرسه ، مع طلوع النهار ، وهو يحمل رمحه على كتفه وراح يتعقب آثار تلك الذئاب . وفى اليوم التالى عاد إلينا زيد ، وهو يقتاد أمامه جمله الضائع : لقد عثر على الجمل بالقرب من بركة Birket مؤدم Moaddam .

بعد ثلاثه أيام تحرك الأعراب فى اتجاه الجنوب الشرقى مسافة اثنى عشر ميلا اخرى ، ونصبوا خيامهم فى منطقة التخييم التى يطلقون عليها اسم 'خص هركيش' Khussherkîsh . كان ذلك يصادف اليوم الثانى والعشرين من شهر فبراير ، وفى تلك

المنطقة شاهدنا الربيع ، أو بالأحرى الربيع الجديد ذى العشب اليانع الجميل ؛ كان معظم ذلك العشب من نوع السُّلجم البرى الذى يأكله الضأن ، ومن نوع اللُّبَّيْن ذى الزهور القرمزية ، وكذلك من الحميض البرى الذى يطلقون عليه اسم حمصيص humsîs . والربيع فى هذه المناطق هو بمثابة التغيير السنوى ، ولم لا ، إنه الحياة ، بالنسبة لماشية البدو الرُّحل . ومنظر الربيع يسر الخاطر ويروق للعيون وبخاصة فى الأراضى الصحراوية ، من خلال هذه الحديقة المتواضعة من الزهور المتفتحة . وعندما رآنى البدو وأنا أتأمل ما أراه مليا ، وأتدبر معجبا بتلك الهندسة والعمارة الإلهية لتلك الجوهرات الحية ، حسبوا ذلك مجرد إعجاب من قبيل إعجاب الأطفال يتبدى فى شخص غريب عليهم . ولو قدر لى أن أسأل هؤلاء البدو عن اسم كل عشب من تلك الأعشاب ، لردوا علىَّ قائلين : "اسمها كلها العشب el-usshb ، بمعنى 'علف الربيع' ، الذى يصلح تماما لماشيتنا وإبلنا ." وهكذا تتحول تلك البلاد شديدة الجفاف إلى سهل يستغرق عبوره عدة أيام ؛ وهذا السهل ، فى معظمه ، مكون من تربة رملية ومن زلط الحجر الرملى ، وخال من السيول والوديان ؛ إنه مجرد أرض مرتفعة ، لا تفيض عليها بأى حال من الأحوال مياه مطر الجزيرة العربية الخفيف .

كان زيد على علم بأنى شغفت بعض نقوش الحجر . إذ إن هناك الكثير من تلك النقوش محفور على صخور الصحراء ، ثم قال زيد : "غدا ، سوف نذهب سيرا على الأقدام إلى المُكَتَّبة M'kuttaba ،" وقال إنه سوف يفرِّجنى هناك على مجموعة هائلة من النقوش . المُكَتَّبة M'kuttaba هذه ، عبارة عن حوض طبيعى فى الصخور الرملية ، وهى مسمَّاه (كما هو الحال فى "الوادى valley المكتوب "written فى سيناء) نظرا لأن هذه الصخور منقوش عليها ألف أسطورة منحوتة بالحروف الحميرية البدائية : وكل نقش من تلك النقوش عبارة عن سطر واحد أو سطرين ، مجرد أسماء فقط ربما كانت لمياه قديمه ، وفيها صور قديمة للإبل . كان تأثير عوامل التعرية ظاهرا فى ذلك الصخر الطرى ، الأمر الذى أثر تأثيرا كبيرا على وضوح النقوش ؛ ومن الشائع العثور على تلك النقوش بالقرب من المساقى الصحراوية ، التى كانت فى مختلف الأزمان أماكن للتجوال والتسكع . العرب الرُّحَّل القدامى ، - إذ من المحتمل أن تكون تلك النقوش الفظة من صنعهم ، هل كان لديهم فى ذلك الوقت (وهو ما ليس لدى البدو المسلمين

حاليا) معرفة بالحروف ؟ أم أن كل هذه النقوش كانت من صنع أيادى المسافرين والرحالة القدامى ؟ هذه الصور الأثرية المحددة كلها مستديرة وتنبض بالحيوية ، بالرغم من أنها مرسومة منذ زمن طويل . والبدو فى هذه الأيام يصورون تلك التماثيل الحقيرة (التى خلفها الرعاة العاطلون على صخور الصحراء) ، على شكل أطفال يحبون . كان زيد يطلق على تلك الصور اسم تماثيل Temathîl الهلالات(*) ، el-Helalat، أو إن شئت فقل : "مصورات Imagery بنى هلال" .

الإبل التى تتغذى على أعشاب الربيع فى الوقت الراهن ، صائمة أو 'جزِّين' ، كما يقولون لها بلغتهم ، هذا يعنى أن تلك الإبل لا تشرب الماء حاليا . هذا يعنى أيضا أن تلك الإبل تصوم فى سنوات الربيع الوفيرة ، فى تلك الديار ، قرابة الشهرين ونصف الشهر ، معنى ذلك أن حداة الإبل ورعاتها لا يسوقونها إلى المساقى طوال تلك الفترة . ثم تضيع قوة الحياة من ذلك العشب الذى كان يانعا على الأرض منذ أيام ، ويبدأ فى الذوبان تحت وطأة حرارة الشمس ، ثم يجف بعد ذلك . ولو قدر لتلك الإبل الصائمة العثور ، بعد زخة من زخات المطر ، على ماء المطر فى أى تجويف من تجاويف الصخور ، فقد رأيتها وهى تبطئ الخطى وتروح تمد أعناقها الطويلة الثقيلة نحو ذلك الماء ؛ وتروح تلك الإبل تتشمم ذلك الماء ، ولا تضع فيه سوى أطراف شفاهها ، ثم تدفع شفاهها إلى الخارج وتهز رءوسها كما لو كانت تعرب عن استيائها وتقززها . إبل البدو الرحل ، تكون قوية ومرحه ، طوال فترة مرعى الربيع الدسم . وفى هذه الفترة تزداد لحوم الإبل ، وتخزن الشحوم فى أسنامها ، حتى تفيد منه خلال صيف الصحراء ، وطوال العام . هذه الإبل ، عندما يقودها حداتها ، بعد أن تملأ بطونها ، إلى مراحاتها عند غروب الشمس ، تمشى وهى تكاد تقفز مرحا أمام هؤلاء الرعاة : وهنا يخرج ملاك تلك الإبل من خيامهم ، ويحاولون توجيهها وهى تجرى بالقرب منهم ، وهم يقولون لها : 'وُلُو – وُلُو – وُلُو' ، محاولين توقيفها وهم يقولون لها : 'وُوه – هُو ، وُوه – هُو ، وُوه – هو !' ؛ وهنا يحاول أصحاب الإبل منعها من الاصطدام بحبال الخيام وهم يقولون : 'هتش hutch !' وهنا تبدأ الإبل فى التجمع على شكل قطعان من حولهم ، والقطيع

(*) الهلالات : نسبة إلى بنى هلال الذين عبروا تلك المناطق فى طريقهم إلى مصر والشمال الأفريقى . (المراجع)

الاكبر من بين تلك القطعان تراه يقف أمام الخيمة التى يعيش فيها صاحبه ؛ وأمام الخيام تبرك تلك الإبل طول الليل وهى تجتر ما سبق أن أكلته إلى أن يطلع نهار الصباح . والأعراب يقولون : إن إبلهم لا تنام مطلقا ؛ وأن كل ما يفعله ذلك الحيوان عندما يكون متعبا ، هو أن يفرد عنقه الطويل على الأرض ثم يغلق عينيه اللامعتين برهة من الزمن ؛ ولكنه بعد شىء من الوقت يرفع جثته من جديد ويبدأ الاجترار مرة ثانية . والإبل فى فصل الربيع الوفير تنهض واقفة لترعى من جديد فى ضوء القمر ، وتتجول مبتعدة عن خيام الأعراب النائمين ؛ ونظرا لأن الإبل خوَّافة بطبيعتها ، فهى لا تذهب إلى مسافات بعيدة فى تجوالها . وفى بعض الأحيان ، كنا نصحوا عند منتصف الليل أو بعده ، وأرى أن إبلنا قد ابتعدت عنا ، فأذهب وأعيدها إلى حيث كانت من قبل ؛ ولكن البدو كانوا يقولون لى : "واصل نومك ، يا خليل ، فلا داعى لذلك ؛ إترك الإبل تتغذى كما تشاء ." هذا يعنى أن البدو كانوا يودون لتلك الإبل أن ترعى وتتغذى إلى أبعد حد ؛ ولكن لصوص الليل يحرمون هؤلاء البدو من إبلهم فى كثير من الأحيان . والإبل تشكل كل شىء عند البدو الرُحَّل ، وهى أيضا الشىء الوحيد الذى يدور من حوله النزاع . والبدو يقولون : "نشيل ، على الإبل ، ونشرب حليبها ." حمل الناقة يستمر عاما كاملا ؛ وأن أوان ولادتها ، يصادف بداية الربيع . وعام البدو الرحل مقسم على النحو التالى : الربيع ، ومدته ثلاثة أشهر ، الغيث (منتصف الصيف) ومدته ثلاثة أشهر ، ثم السِّفرى (الخريف) ومدته أيضا ثلاثة أشهر ؛ وأخيرا الشتاء (وهم ينطقونه الشعتا es-sh'ta) التمرس على هذا النوع من الثقافة ، مسألة يتسودها البدو ، فضلا عن معرفتهم الجديدة بالنجوم . ومن عادة البدو أن يخيموا عندما يعثرون على مرعى جيد ، وبالتالى بقينا فى ذلك المكان مدة ثلاثة أو أربعة أيام ، ورحلنا عنه فى صباح اليوم الأخير . والأعراب الذين يقيمون يوما بطوله ، فى أى مكان يقولون عن أنفسهم "الأعراب أُمجمين" umjemmin) ومن عادة العرب فى الكلمات التى من قبيل umjemmin هذه أن يستعملوا حرف ' j' بدلا من حرف 'القاف' وبذلك يصبح معنى العبارة 'العرب مقيمين') ، أو إن شئت فقل : المخيم قائم أو مستمر أو منصوب . والرعاة هم الذين يبحثون عن المراعى فى الأماكن المجاورة لهم ويعودون بأخبارها ، والناس لا يتحركون إلا طبقا لما يحدده الشيوخ فى مجالسهم ، وعاده ما تتراوح

المسافة بين اثنى عشر وثلاثة عشر ميلا ؛ وبالتـالى فقـد كانوا ميممين الـسير فى اتجاه تيماء .

وعندما يكون المرعى على بعد مسافة قريبة نجد البدو يمشون الهوينا ، ويتركون دوابهم ترعى وهم ركوب على ظهورها . فى حين يتجمع الشيوخ فى مقدمة الركب ، ومن ورائهم تأتى النساء حسب تسلسلهن على ظهور إبل حمل الأمتعة ؛ وإذا ما حدث ما يعكر صفوهن ترى حداة الإبل أو رعاتها بالقرب منهن لتقديم يد العون لهن : والجيران ينزلون من فوق دوابهم لمساعدة جيرانهم بل وحتى الغرباء . والبدو يسوقون الماشية الكبيرة والصغيرة . مع مقتنيات المنازل . فالمرء بوسعه أن يرى ربات البيوت وهن ينزلن من فوق دوابهن ، ليرغين ويدردشن وهن سائرات حافيات (الجميع هنا حفاة فى هذه الدِّيرة ،) إضافة إلى أنهن يغزلن وهن يمشين إلى جوار إبلهن بطيئة الخطى . ولكن الأزواج البدو يقولون : "نحن نجعل الحريم يركبن دوما ، ولا يتعبن أنفسهن ، نظرا لكثرة أعمالهن فى المنازل ؛" ونساء الفكارة نزلن من فوق إبلهن ، قبل ساعة من دخول وقت الظهيرة ، أثناء المسير ، ليحلبن تلك القلة القلية من النعاج والماعز . وترى كل عائله ، بكل أفرادها وهى تسير بنفسها إلى جوار مواشيها . وبالتالى يتمكنون من الإنتشار فى مساحات واسعة ؛ فى تلك الأرض الشاسعة غير المستوية (القسم الأكبر منها عبارة عن سهل ولكنه ملىء بالصخور والأحجار الوعرة) ، وذلك على الرغم من بقاء المئات من البدو بالقرب من بعضهم البعض ، مما يجعلنا لا نفطن إلا إلى أولئك الذين ينسلخون عن الموكب ويتجهون صوب المناطق التى تحيط بنا . وما أن يصل البدو إلى المكان المحدد لنصب المخيم ، ترى زيدا يعود إلينا ؛ وفى المكان الذى يجده مناسبا يقوم بغرس رمحه االطويل ، أو إن شئت فقل : شلفاته الطويله من ناحية مؤخرتها فى الأرض) ، واضعا إياه داخل دغل من أدغال الصحراء الرملية : وبذلك يصبح ذلك الرمح الطويل بمثابة البيرق (العلم) الدال على أتباع زيد ، _ أولئك الذين يخيمون معه ويسمون أنفسهم أهله وأتباعه . وهنا تقوم حرفة ، زوجة زيد ، بتبريك جملها ؛ وتقوم بنصب الخيمة فى ذلك المكان : وهنا يتبعها بقية أتباع زيد وناسه ، وينزلون من فوق مواشيهم ، وتبتعد كل أسرة عن الأخرى مسافه قليله ، ويبدءون فى نصب خيامهم من حول خيمة الشيخ . هذا هو "مَنْزَل" (بفتح الميم وتسكين

النون وفتح الزاى) "زيد" ، والناس من حوله هم أعراب زيد . وهم يبرِّكون إبل الحمل على الأرض وهم يقولون لها : "إخ - إخ - إخ !" ومن فوقها أحمالها . والجمل الحرون يجرى ضرب عنقه المتصلب بلطف باستعمال المشعاب وجذبه نحو الأرض ، أو بوضع اليد على جسمه القوى المتين ؛ أما الجمال التى تستعصى على ذلك فيجرى جذبها من لحاها ؛ وهنا يضطر الجمل إلى النزول إلى الأرض باركا وهو يئن ويتوجع . وبعد إنزال الأحمال من فوق تلك الدواب ، وبعد رفع عددها (سروجها) من فوقها ، يقوم أصحاب أو حداة تلك الإبل برفسها رفسا خفيفا بأقدامهم لتنهض متثاقلة ليجرى بعد ذلك توجيهها نحو المرعى . وهنا يقمن ربات البيوت بفرد قماش الخيام على الأرض ، ويفردن أيضا أركان الخيام ومعها الحبال الجانبية ؛ وتحضر كل واحدة منهن قطعة من الحجر البرى لتكون معها بمثابه المطرقة أو الشاكوش ، وتروح كل واحدة منهن تدق أوتار الخيمة فى الأرض ومن تحت أعمده الخيمة تقوم ربة البيت بفرد قماشها : وبذلك تكون الخيمة قد نصبت . تدخل الزوجة بعد ذلك إلى الخيمة ، وبعد إحضار أغراضها إلى داخل الخيمة تقوم بتجهيز إفطار الرجل ؛ وهو عبارة عن سلطانية من اللبن الرايب ، الذى تجلبة من القربة التى تحفظ فيها اللبن الحامض أو إن شئت فقل : اللبن المختَّر ، أو قد يكون ذلك الإفطار عبارة عن بضع تمرات ومعها سلطانية من ماء الصحراء : أما الضيوف فيقدم لهم التمر مع اللبن الرايب ، أو إن شئت فقل : لبن الخض مع قطعة من الزبد . وتجلس ربة البيت بعد ذلك داخل الخيمة ، وتروح تهدهد على ركبتيها 'السِّميلة' أو إن شئت فقل : قربة خض اللبن ، لاستخلاص' الزبد من الحليب .

وكما هو الحال مع زيد ، فإن كل شخصية رئيسة من الشخصيات البدوية ، تكون رئيسة لمنْزَلٍ صغير خاص بها : هذا يعنى أن المخيم العام لا يكون موزعا على شكل دائرة رسمية ذات شكل معين (كما هو العرف السائد بين أعراب الشمال) . معنى ذلك أن البدو الرُّحل ، فى المسيرات التى من هذا القبيل ، ينصبون خيامهم فى كل أنحاء المنطقة التى ينزلون فيها من على ظهور دوابهم ، أو إن شئت فقل : حسبما يروق لهم . وبدو الفجير أو إن شئت فقل : بدو الفكارة لم يحدث لهم أن تجولوا فى 'الفرجان' ferjan (ويجب أن لا يغيب عنا هنا أن البدو فى كلمه 'فرجان' يستخدمون حرف (ج) بدلا من حرف 'القاف' أى أن اللفظ الصحيح لهذه الكلمة هو 'الفرقان') أو إن شئت

فقل : الهِجَر البدوية ، التى تتوزع هنا وهناك مثل أهليهم وأقاربهم ، طبقا لأسلوب البدو المترحلين ، وذلك بغية الانتفاع بالمرعى ؛ هؤلاء البدو ، أو إن شئت فقل : بدو الفجير أو الفكارة يتحركون ويخيمون مع بعضهم البعض كوحدة واحدة . هذا الأسلوب فى الترحال أفقد أولئك البدو كثيرا من أصدقائهم وجعلهم يعملون ألف حساب وحساب لمن هم على حدودهم ويناصبونهم العداء ؛ ويترتب على ذلك أن تظل مضارب هؤلاء البدو مفتوحة . كان أعراب زيد عبارة عن ستة خيام فقط : خيمة لزوجة مطلقة ، هى أم ولده الصغير الوحيد ، وكانت تلك الخيمة منصوبة إلى جوار خيمته ؛ والخيمة الثانية لربة بيت مهجورة لقاصر تحت وصايته يدعى سطَّام Settam ، والتى أنجب هو منها بنتا ؛ وإلى جانب هاتين الخيمتين (إذ لم يكن لدى زيد أقارب مقربين) ، قطيع من الإبل ومعه إبل من أيام والده ، هذا بالإضافة إلى راعى لتلك الإبل . يضاف إلى ذلك أن الأشخاص الذين يتخلى عنهم أهليهم أو قبائلهم يسعون لإلحاق أنفسهم بمنْزَلٍ من منازل أحد الشيوخ ، كما كانت بصحبتنا أيضا أرملة بائسة ، كانت تقوم بدور الأم عند أطفال ابنتها الأيتام ، وهم ولد بلغ من التشوه حداً جعله يزحف مثل الوحوش على الرمل (قالت تلك السيدة البائسة المسكينة : "يا لطيف !" ، قالت هذه العبارة وهى تتنهد متهكمة) – وفتاة شعرها يشبه شعر العفريت وعجيبة الشكل تماما . هذه الجدة ، هى وذلك الطفل وتلك الفتاة يعيشون فى العراء تحت سماء الله ، كان الطفل عاريا عندما دخل عالم الصحراء . وكان الجمل الذى يركبونه قد أعطى لهم على سبيل الإحسان ؛ أما عن طعامهم اليومى ، فالله وحده هو الذى يعلم ذلك الذى كانت تقتات به تلك المخلوقات ، وأنا على يقين إنه ليس من بين البدو من بلغت شناعته حداً يجعله يوبخ أو يؤنب ناسه ، أو يسخر من أولئك الذين ابتلاهم الله ببلاء شديد ؛ كما أنه ليس هناك من بين البدو من يعترض على أولئك الذين قُدِّر لهم أن يعيشوا وينزلوا فى تلك التربه القاحلة الجرداء . فى بعض الأحيان ، كنا نشاهد بين خيامنا خيمة غريبة ، يقيم فيها بدو مسافرين ، أو عائلة جرى نفيها أو التخلى عنها من قبيلة مجاورة : البشر الذين يكونون من هذا القبيل يجيئون وينصبون خيامهم بالقرب من خيام شيخ لهم به سابق معرفة .

كانت حرفة تطلب دوما من زوجها أن يحدد لها الاتجاه الذى تنصب فيه خيمتها . "وكان زيد يرد عليها قائلا : اجعلى وجه الخيمة فى ذلك الاتجاه ." مشيرا لها بيده نحو اتجاه الجنوب ، والسبب فى ذلك أنه إذا ما كان وجه الخيمة طول اليوم فى مواجهة الشمس ، فلن تجيء إليه سوى قلة قليلة من أولئك المتطفلين الذين يفدون عليه لشرب القهوة . ولما كان الشيوخ وحدهم هم الذين يتلقون الصرر الخاصة بقبائلهم ، فهذا يحتم عليهم أن يكونوا مضيفى قهوة حتى النخاع . ولقد شاهدت زيدا وهو يتحاشى شاربى القهوة عندما كانوا يقتربون منه ، أو أنه قد ينهض واقفا بطريقة غير بشوشة عندما يقدم مثل هؤلاء الناس أنفسهم إليه ، (ترى نصف الخيمة ، وبخاصة الجانب الخاص بالرجال ، مفتوحا طول الوقت ، ويستطيع أى إنسان الدخول إليه ، من تلك الصحراء الواسعة ،) وعندما يتذمرون ، يقول لهم ، مقسما بالله ، إن لديه بعض الأعمال والأمور التى تحتم عليه الانصراف ، وأنه يجب عليه التوجه فورا إلى المجلس ، وأنهم بوسعهم الذهاب لشرب القهوة فى مكان آخر ولكن لو كان بصحبة هؤلاء الرجال شيخ من الشيوخ يتحتم على زيد أن يجلس طائعا مختارا ليصلِّح القهوة ويقدمها لهم ؛ ولو تحتم عليه ألا يكون موجوداً ، فإن أى رجل من الرجال الذين لهم سمات الشيوخ ، يفد على خيمة شيخ من الشيوخ يتعين تصليح القهوة وتقديمها له ، اللهم إلا إذا ما اعتذر هو عن ذلك بطريقة لطيفة ، 'مقسما بأنه لن يشرب القهوة ' . ولما كانت حرفة ابنة شيخ من الشيوخ ، وواحدة من أقارب زيد المقربين ، فقد كانت رفيقة مخلصة وشريكة أمينة لزيد فى سياسته التى تقوم على التوفير والادخار .

ها هو مُنزَلنا منصوب الآن ، والناس يفدون إلى وجار قهوة زيد ، إذ لم يكن الشيخ قد ذهب هو بدوره إلى المجلس حتى يتسنى له شرب قهوة منتصف النهار هناك . هذه هى قلة قليلة من أعواد الحطب ملقاة على الأرض بجواره وجوار القهوة : ويقوم أحد الحاضرين ، باستعمال الزِّناد ، بتوليد شرر يستقبله فى الصُّوفان ، ثم يروح بعد ذلك ينفخ فى ذلك الشرر خلال بعض من روث الإبل الجاف محولا إياه إلى شعلة كبيرة ، يضعها تحت بعض عيدان القش الجافة ، ويروح يضع فوقها شيئا من مسحوق روث الإبل . وعندما تشتعل النار ، يبدأ الشيخ إحضار الدلال (أوعية صنع القهوة) التى تحفظ فى سلة خاصة يقولون لها "فاتية" Fatya ؛ هؤلاء الناس الذين يحيون حياة البدو

الرُّحل يضعون كل شيء من أشيائهم فى مكانه المناسب وإلا ضاع منهم أو فقدوه أثناء تحركاتهم اليومية . وينهض أحد الجالسين ليملأ الدَّله بالماء من قربة الماء المصنوعة من الجلد ، أو قد تقوم المرأة بإحضار سلطانية من الماء تناولها للرجال من وراء الستار ، فى الجانب المخصص للنساء ؛ وعندما تكون الدَّلة على النار ، تمد حرفة راحة يدها وقد ملأتها بحبوب البن الخضراء . نحن نجلس على شكل نصف دائرة حول وجار القهوة ؛ وربما ينضم إلينا بعض المعارف أو بعض رجال القبائل الذين يكونون يتجولون أو يمشون فيما بين المنازل المجاورة . كان زيد يصلح القهوة بصورة مستمرة ؛ ولكنه بعدما رآنى تعاف نفسى ماء القهوة ، كان يذهب لشرب قهوته فى الخارج ، أى بعيدا عن بيته . وما لم يذهب إلى المجلس ، فهو يخبئ نفسه مدة ساعتين أو ثلاث ساعات مثل البُوم ، أو مثل كلب من الكلاب كما يقولون ، داخل خيمتى الصغيرة المغلقة ، بالرغم من حرارتها الشديده بفعل شمس الظهيرة ورقة القماش التى صُنعت منه . كنت أفرح عندما أرى زيدا مستلقيا وقد أرهقه الحر الشديد ، كما يطلب منا أن نقول للوافدين على خيمته أنه 'ليس موجوداً' : وإذا ما أفلح أفراد قبيلته العفاريت فى اكتشاف أمره ، "(فإن البدو المستقرين) يقولون : يا لمكر البدو !" .

يتجمع الشيوخ هم والشخصيات الرئيسية فى خيمة الشيخ الكبير أو فى خيمه شيخ آخر من الشيوخ ، وذلك عندما يحل أولئك الشيوخ على منطقة جديدة من مناطق التخييم ؛ وهم يشربون القهوة عند ذلك الشيخ ، والسواد الأعظم منهم يمسك مشعابه فى يده كما لو كان صولجانا ؛ والبدو يقولون لذلك 'المشعاب' أيضا 'مهجان'أو 'باخورة' **Bakhorra** . وأول الموضوعات التى يطرقونها تتعلق فى الأغلب الأعم بالتوزيع الجديد لمنازلهم العديدة : وتكون على النحو التالى ، "رحيل ! (وهو شقيق الشيخ) ، فين أهلك ؟ بمعنى ، أين (نصب) ناسك خيمتهم ؟ - الذُّريه (ولد الشيخ) ، فين أهلك ؟ - محسن (ذلك الرجل البسيط الذى تزوج شقيقة زيد الوحيدة ،) - خلف هو وبقية الحاضرين ، أين منازلكم ؟- زيد ليس موجوداً هنا ! من منكم رأى زيدا ؟ - وأين مجول **Mijwel**، أين أعرابه ؟" هؤلاء البدو الرُّحَّل تضطرهم المسيرات الجديدة إلى تغيير أماكنهم ، وبالرغم من قصر الأفق فى الصحراء إلا أن المرء لا يستطيع أن يرى سوى قلة قليلة

جداً من الخيام هنا أو هناك . هؤلاء البدو يلتزمون الصمت عند تصليح القهوة ، نظرا لأنهم يكونون قد استنفدوا كلامهم المعتاد وأعادوه مائة مرة ، وكان البعض منهم وقد جلس يزجي وقته وهو يلعب بمشعابه في الرمل على غير هدى . هؤلاء البدو يسيرون في أثناء النهار وفي أيديهم تلك العصي المرحة : أما إن كانت منازلهم نائيه وبعيدة ، مسافة مسيرة ليلة ، تراهم يحملون السيف في أيديهم : ترى السيف يتدلى من كتف البدوي ، وهو معلق في حبل . وأحسن أنواع السيوف عند هؤلاء البدو ، هو الأعجمي ، وهو سيف مقوَّس بعض الشيء ، وله مقبض على شكل صليب (وهو جميل الشكل) ، وهذا المقبض ملفوف عليه سلك معدني ؛ ويجيء السيف الهندي في المرتبة الثانية بعد السيف الفارسي ، وهم يطلقون على السيف المصنوع في الهند اسم 'الهندي' .

كلمة أعراب ، وقعها في آذان البدو الرُّحل يعني "الناس" . والبدو المترحلون عندما يلتقون بعضهم بعضاً في الصحراء أو عندما يلتقون الرعاة يتسائلون : فين الأعراب ؟ بمعنى "أين يوجد الناس ؟" والبدو عندما يتحدثون عن صيغة الجموع من القبائل المترحلة شرقا وغربا ، يستعملون لفظ الجمع 'العربان' . هذه الكلمة 'بدوي' **Beduin**، التي دخلت إلى كل لغاتنا ، هي تعني في كلام الجزيرة العربية 'البدوي' **Bedùwy**؟ أو إن شئت فقل ساكن الأرض الجرداء (البادية) ، هذه الكلمة هي في صيغة الجمع "بُدوي" **Bedaùwy**، ولكن الشائع عند جمع هذه الكلمة هو 'البدو' . **el-Béduw** وبينما كنا جالسين ، دارت علينا مرتين الفناجيل الصغيرة ، التي فيها بضع قطرات من القهوة السوداء . وبعد أن ينتهي ابتلاع تلك الرشفات من القهوة وهي تغلي ، وبعد أن يتبادل الرجال فيما بينهم شيئا من الأخبار ، ينهضون الواحد بعد الآخر عائدين إلى منازلهم ، أو إن شئت فقل خيامهم ، وهم يسيرون على الرمل الحار : وكلهم حفاة ، إذ يندر أن تجد من بينهم من يلبس حذْوةً ، أو إن شئت فقلها : نَعْلَةً . يعود كل واحد منهم إلى منْزَله ، أو إن شئت فقل : إلى خيمته ، ويصلون الظهر ؛ وبعد أن ينتهوا من تناول طعام الإفطار ، فإنهم في أغلب الأحيان يقضون ساعات القيلولة نائمين في القسم الخاص بزوجاتهن . سألت واحدة من الزوجات الأمينات الصادقات . كيف يمضي هؤلاء الكسالى هذه الأيام الطويلة حتى المساء ؟ أجابت بابتسامة توحي بالاحتشام والخجل : "تسألني كيف ، يا سيدي ، في *الترويح مع الحريم* !" .

الهجرة ، أو إن شئت فقل : الخيمة الصغيره المنعزلة ، التى تفردها ربة البيت على الأرض بحيث تصل حبالها إلى الأوتاد المدقوقة فى الأرض ، قبل وضع العمدان أو الدعامات من تحتها ، يكون شكلها على النحو التالى : (انظر الصورة رقم ٤١) . هذا يعنى أن كل حبلين ، لهما وتدين ؛ وهذا يعنى أيضا أن هناك ثلاثة أوتاد لكل زوج من الحبال فى الحافة العليا للخيمة . الخيام الأكبر من هذا الحجم يجرى نصبها باستعمال المزيد من أزواج الحبال التى تتدلى من الحافة العليا للخيمة ، كما ترتكز على أضلاع أعلى وأطول من أضلاع الخيام الصغيرة . خيمة الأعراب ، التى يطلقون عليها اسم 'بيت' (الجمع 'بيوت') الشَعر' ، أى التى تصنع من صوف الغنم الخشن أسود اللون بعد نسجه ، يكون شكلها هى وسقفها المحبوس شبيها بشكل الكوخ . قماش بيت الشَعر القوى المتين ، تتم حمايته عن طريق شريط مخيط من تحت رءوس عمدان الخيمة ، وبذلك يمكن أن يعيش ، على حد قولهم ، طيلة جيل كامل ، ولا يحدث له أى شىء سوى أن يقل سمكه عن طريق البلى . ولكن قماش الخيمة عندما تكون خيوطه مكشوفة ، يتحول إلى ملجأ ضعيف ، تخترقه أشعة شمس الجزيرة العربية ، ويترتب على ذلك وجود ظل رمادى داخل الخيمة . وخيام الجزيرة العربية تكون مشدودة شدا محكما إلى كل ركائزها ، كما يجرى نصبها على أرض جيدة وثابتة ، وبذلك يتسنى لتلك الخيام مقاومة العواصف الشديدة والعاتية التى تحدث خلال العام ، وبخاصة فى بعض الوديان الجبلية العميقة . يضاف إلى ذلك ، أن الخيام التى قد تنصب أيضا فى الرمال الضعيفة يندر أن تطيح بها العواصف . والحبال ، التى يطلق عليها البدو اسم 'طُنُب البيت' ، والتى تجدلها النساء من الصوف الذى يغزلنه ، تنقطع فى معظم الأحيان : ومن تكون لديه القدرة المالية (مثل كبار الشيوخ) يستطيع شراء حبال من المدينة مصنوعة من الجوت أو القنب . والمعروف أن كل قبائل طريق الحج تتلقى كل عام ، حبالا ومعها أقمشة وأوانى ، وذلك بالإضافة إلى الصُرَّة التى تتلقاها كل قبيلة من القبائل بمناسبة الحج . وقماش الخيمة يجرى تمتينه بإضافة قطع على شكل شرائط ليست عريضه ، من القماش الصوفى الخشن الذى يغزلنه النساء وينسجنه أيضا ؛ والخيط الذى تستعمله النسوة فى صناعة ذلك القماش هو عبارة عن خليط من صوف الغنم ووبر الإبل وشعر الماعز . وهذا هو الذى يجعل لون ذلك القماش مائلا إلى

الاسوداد : ونحن نقرأ فى الكتاب العبرى المقدس : "أسود سواد خيام قيدار(*) ".
والنسّاجات الجيدات من الزوجات ينسجن لذلك القماش إطاراً أبيضا يصنعنه من صوف الغنم ، أو من خيوط القطن المنسوجة (وصوف القطن هذا يجرى شراؤه من المدينة (المنورة) أو من ساحل البحر) .

عندما يجرى فرد قماش الخيمة على الأعمدة ذات الأطراف المدببة ، يقوم البدو بتعليق ستارة الخيمة فى ذلك السقف ، والستارة ، فى أغلب الأحيان ، عبارة عن تنوره واحدة طويلة تقوم مقام الجدران فى خيمة البدو المترحلين : يجرى بعد ذلك ربط الأطراف الجانبيه إلى بعضها باستعمال سفافيد صغيرة مصنوعة من الخشب . وعادة ما تترك مقدمة الخيمة مفتوحة ، إلى المنتصف تقريبا حسب ما شاهدناه ، ليكون ذلك بمثابة النصف أو القسم المخصص للرجال ، والذى يطلقون عليه اسم "المَقْعَدْ" mukaad ، نظرا لأنه يكون مخصصا لجلوس الرجال : أما القسم الآخر ، الذى يخصص للنساء هن ومقتنيات المنزل ، فهو يكون مغلقا فى بعض الأحيان (وبخاصة عندما تود النسوة ألا يراهن أحد وهن نائمات أو عندما يطبخن ،) وهذا القسم النسائى له باب من القماش ؛ والقسم المخصص للنساء يكون دوما مفصولا عن قسم الرجال دائما بستاره معلقه لا يزيد ارتفاعها على مستوى الصدر أو العنق ، وذلك فى المنطقة القريبه من أعمدة الوسط فى الخيمة . والمُقْعَدْ لا يجرى مطلقا إحاطته من ناحية وجهته بسور من قماش الخيمة ، إلا أثناء المطر حيث يقوم البدو بإمالة العمدان وإنزال السقف نحو الأسفل بعض الشيء . وهنا تصبح خيام البدو الرحل مساكن سيئة جداً ، وهنا يعانى أولئك البدو ، الذين لا تزيد ملابسهم على أكفان الموتى ، من البرد ومن العواصف عند هبوبها . والبدو يقومون ، فى فصل الشتاء ، بوضع أحجار ثقيلة على أطراف قماش الخيمة المرتكز على الأرض ، ويقومون بوضع سور من الحطب الجاف أمام باب القسم المخصص للرجال . وقماش الخيام ، فى الأجناب ، يمكن رفعه حسب الحاجة ، طبقا لحالة الرياح والشمس : هذا يعنى أن الجزء الخلفى من خيمة البدو يمكن أن يتحول

(*) أسود سواد خيام قيدار : تعبر هذه العبارة عن سواد الخيام البدوية التى كانوا يصنعونها من صوف الغنم الأسود اللون . وقيدار من القبائل التوراتية القديمة . (المراجع)

خلال لحظات إلى مدخل جديد . وهذا بحد ذاته يجعل ربة البيت العاقلة تفكر على الفور في فك ستارة الخيمة وتغيير موضعها ، حتى يتسنى لضيوف زوجها أن ينعموا بالظل وبالهواء ، أو لتكون الخيمة ملجأ وملاذا طيبا .- والصورة رقم ٤٢ تبين خيمة شيخ القبيلة وخيمة من خيام أرامل بدو البلِّي في تهامه .

البدو يخزِّنون كل مؤنهم في القسم المخصص من الخيمة للحريم . وبالقرب من الستارة الخاصة بالقسم المخصص للحريم ، تضع ربة المنزل الجوالات القليلة المصنوعة من القماش ، والتي يضعون فيها أشياءهم البسيطة ، وهم يطلقون على تلك الجوالات اسم 'الجوش' èl-gush ؛ والبدو يخزِّنون في تلك الجوالات القمح والأرز إذا ما توفرا لديهم : كما يحتفظون فيها أيضا بشيء من الملح الصخري ، نظرا لأن البدو لا يأكلون الطعام المسيخ ؛ كما يوضع في تلك الجوالات أيضا الصوف الذي تقوم ربة البيت بغزله ، وكذلك الخيوط التي قامت هي أيضا بنسجها ، - لأن مسألة قيام الزوجة بغزل ونسج الصوف ، تعد أمرا مشرفًا لها بين نساء الأعراب ؛ كما تحتفظ ربات البيوت أيضا في ذلك القسم النسائي بقطعة من البفتة الجديدة يصل طولها إلى حوالي بضعة أقدام . وقد يوجد إلى جانب كل هذه الأشياء نوع من الجذور يقولون له 'إيرن' er'n ، وهو نوع من الخشب ، الذي يقوم البدو بوضع شرائحه القرمزية اللون في الماء ، وبعد يومين أو ثلاثه أيام ، فيما بين ترحال البدو ، يستعملونه في دبغ جلود الماعز ليصنعوا منها قراب الماء ، إضافة إلى دبغ الجلد اللازم لصنع دلاء اللبن ، وغدران الماء ، وبعضا آخرا من أشياء البدو . والزوجة لا يكون عندها سوى بعض الصناديق (التي غالبا ما تشتريها من الحضر ،) التي تضع فيها أدويتها المنزلية ، ومشطها ومرآتها ، التي يطلقون عليها اسم 'المرقوبة' mèrguba ، إضافة إلى أشياءها الزينية الموروثة مثل الحلق ، وحلقة الأنف التي تكون من الفضة أو من الذهب في بعض الأحيان (المتبقية لها من الأجيال السابقة) ؛ كما تحفظ مع هذه الأشياء أيضا الأشياء الصغيرة التي تخص زوجها ، (إذ لا يصنعون جيوبا لثيابهم ،) والتي تقوم هي على أمر المحافظة عليها . أما إذا كان زوجها ميسور الحال ، أي واحداً من الشيوخ الذين يتسلمون صرة أثناء موسم الحج ، فإن الزوجة يكون لديها صندوق بقفل تشتريه من المدينة (المنورة) ويكون مدهونا باللون الأحمر الزاهي ، تحفظ فيه حزم الريالات الخاصة بزوجها إضافة إلى

أشيائها الثمينة القليلة ، ويجرى وضع ذلك الصندوق فى مقدمة الأشياء التى يجرى تحميلها على الجمل الذى تركبه الزوجة (ليكون دليلا على أن زوجها واحد من الشيوخ) . – ولقد تأملت الأمر على هذه الشاكلة ، ووجدت أنه ربما كان شبيها بصندوق الأشياء المقدسة فى الدِّين العام ، الذى كان سائدا فى الحياة البدوية المترحلة التى كان يحياها بنو إسرائيل .

والشائع هنا أن يظهر مفتاح صندوق ربة البيت التى تكون من هذا القبيل ، لامعا متدليا على الجزء الخلفى من خمارها ؛ وهى تعلق ذلك المفتاح مع الكشتبان أو إن شئت فقل : قمع الخيط وكذلك الإبر (التى يستخدمونها لإخراج الأشواك من أقدامهم الحافية ،) وتكون كل هذه الأشياء مربوطة بحبل من الدانتيل الأحمر الجميل الفاقع ، يتدلى من عُصابة الرأس الدائرية الشكل . والبدو ، إذا ما كان لديهم شىء من التمر المتخثُّر ، يدسونه فى أكياس بالية ثقيلة يصنعونها من جلود الإبل ، ويراها المشاهد أثناء ترحال البدو ، وهى تهفهف مربوطة بسيور ، أو شرائط من الجلد ، فوق ظهور ماشية الحمل . زد على ذلك ، أن هذا اللباس ذو الفرنشات والشراريب هو من مستلزمات المزاج السامى Semitic، كما نقرأ عن أشياء من هذا القبيل عند (سيدنا) موسى (؛ ونراها أيضا فى المنحوتات الأثريه اليهودية القديمة . كما نقرأ أيضا عن خِرَجَة (جمع خُرْج) الإبل التى كانوا يصنعونها من الجلد ، وأن تلك الخُرج كانت مبللة بفعل العسل الناتج عن التمور ، كما كانوا يصنعون أفضل نعالهم من تلك الجلود . كما نقرأ أيضا عن وضع قراب الماء التى يصنعونها من جلود الماعز ، وقد ملئت بالماء ، لا على الأرض ، وإنما فوق نباتات يانعة حديثه النمو أو فوق أرض خضراء معشوشبة فى الصحراء ؛ ووسط كل قراب الماء هذه ، يوضع ذلك الإناء المصقول ، الذى يقولون له "جدَّة" Jidda، والذى يصقله من الداخل مبيض النحاس البدوى ، أو الحرفى الذى يقوم بذلك العمل لصالح البدو فى سوق القرية . والبدو يغلون زبدهم فى تلك "الجدّة" ، أو إن شئت فقل : فى ذلك الإناء ، (عندما يتوفر الزبد لديهم ، لكى يستخلصوا منه السمن ،) ، كما يسلقون فى ذلك الإناء أيضا أكلاتهم المنزلية القليلة ؛ والبدو يسلقون وجبه الضيف فى ذلك الوعاء عندما يقومون بالضيافة .

بيوت الشَعر التى يسكنها الأعراب هى خيام مصنوعة من القماش المصنوع من الشعر . وبيوت الشَعر هذه تناسب منظر هذه الأرض المؤسف المحزن ! والمعروف أن الخيمة هى البيت السامى : Semitic هذا يعنى أن بيوت البدو التى يصنعونها من الطين إنما تكون على الشاكلة نفسها ؛ معنى ذلك أن ذلك البيت يتكون من صالة عامة للرجال والضيوف ، وشقة داخلية للنساء ومحتويات المنزل . كان بيت (سيدنا) موسى المزين ، والخاص برب البدو الرحل ، مبنيا بهذه الطريقه نفسها فى الأرض القاحلة الجرداء . يضاف إلى ذلك ، أن القبة ، عند النبى العبرى ، عبارة عن مسكن يهودى قديم للأسرة الواحدة التى هى من خلق الله سبحانه وتعالى . هذه البيوت المتنقلة فى الأرض الجرداء ، والتى يسكنها اللصوص ، إنما هى ملاذات أيضا "لضيوف الله" ، ولأبناء السبيل ، ولكل من يتصادف نزوله عن راحلته ، مع وجوده أمام تلك البيوت . شذَّاب الآفاق الخطرين ، أو إن شئت فقل : رعاة الصحراء ، إنما هم ملوك فى بيوتهم ، وهم أيضا آباء الكرم لكل من يطلب منهم تمضية الليل فى تلك الديار . "يتساءل البدو الرُحَّل المساكين ، ألسنا كلنا ضيوف الله ؟" طالما أن الله أعطاهم ، فضيف الله يجب أن يشاركهم ويأخذ مما أعطاهم الله إياه : وما لم يعطوا مما أعطاهم الله سبحانه وتعالى فلن ينصلح حالهم . دخل الضيف ، وجلس بينهم ، ويلاحظون صمتا كريما ، لا يُسألون أسئلة غير مناسبة ، (لأن هذه هى مدرسة وتربية الصحراء ،) إلا بعد أن يكون الضيف قد أكل وشرب فى أضعف الأحوال ، وعن طريق "العيش والملح" يتأسس السلام بينهم ، مدة محددة (تقدر بحوالى ليلتين بينهما نهار ، فى الوقت الذى يكون طعامهم مازال فى جوفه . هذا هو العالم الذهبى ، وهذه هى "أحكام الله" فى وسط الصحراء الجرداء : والبدو المترحلين يصابون بالدهشة عندما يصادفون بخل الحضر الشديد ؛ – ولكن يستحيل على عرف البدو المترحلين ، أن يسود فى الحضر .

حكى زيد لنا عن تجربة قديمة حدثت له فى دمشق (عندما كانت قبيلته فى الشمال) ؛ حكى لنا عن خلاف بمعنى الكلمة حدث مؤخرا مع أحد موظفي ، أو إن شئت فقل : أحد رجال الإمبراطورية العثمانية ، الذى يقولون له بلغة القوم (دولانى) ؛ هذا الرجل كان ضابطا من ضباط الحج : دار النقاش أو الخلاف حول من هو الأقرب

إلى الله ، هل هم أهل الحضر أم الأعراب .- الضابط : "البعض منكم أيها البدو لا يصلون أو يصومون ، كما أن البدو يواصلون دوما عملية الغزو ؛ أنتم تقتلون البشر من أجل غنيمة صغيرة ، كما تغتصبون أشياء الآخرين . الله يعلم ، أنكم بالرغم من أن ألسنتكم تصلى على النبى ، إلا أنكم لستم أحسن حالا من الكفار (المارقين ، - اليهود والمسيحيين) . أنتم لا تميزون بين الحلال والحرام ؛ ولكننا ، نحن الذين نميز الخبيث من الطيب ، أفضل المسلمين ." زيد : "أنا أُسلِّم بكل ذلك ؛ ولكن انتبه وأصغ إلىَّ جيداً ! الغريب الذى ينزل إلى خيمة البدو ، يرحبون به ، ويشغلون أنفسهم بالاهتمام به ، ونعد له وليمة أو عشاء الضيف ؛ وبعد أن يتناول عشاءه ، ينام فى المكان نفسه الذى تعشى فيه ، فى حفظ الله ورعايته ، ومع طلوع النهار ينهض من نومه منتعشا ليواصل رحلته . ولكن يا للعجب ! عندما جئت ، أنا ، إلى الشام ، راكبا ناقتى ، كان المساء قد دخل (أقصد كان الوقت هو وقت تناول العشاء) ، وبينما كنت أمر متعبا وجائعا بالقرب من السوق ، نزلت من فوق ناقتى أمام باب من الأبواب ، ظننت أن بوسعى قضاء الليل فيه . وعندما طرقت الباب ، سمعت صوتا ينادى من الداخل قائلا : 'مين' ؟ من الطارق ؟ من الطارق ؟ رددت قائلا : '(ضيف !) وأنت يا من فى الداخل عجّل بفتح الباب !' ولكن الصوت رد على قائلا : 'أنت ، يا من تقف طارقًا الباب ، واصل مسيرك إلى السوق ، حيث توجد منازل كثيرة ، كما أن هذا المنزل ليس فيه أى شىء ؛ اذهب بسلام ، أيها الرجل الطيب .' هذا هو حال أهل الحضر جميعا ، وهم لا يستحون ، وأنا أقسم بالله على ذلك ! وهنا ، ونظرا لأنى لم أذق الطعام فى ذلك اليوم (نظرا لأن عابر السبيل لا يتناول الزاد إلا بعد النزول عن راحلته) ، فقد رقدت على التراب فى شارعكم ، وقد قتلنى الجوع ورحت أستلهم النعاس . هذا هو أسلوب تعامل أهل الحضر مع الغرباء الذين يدخلون مدنكم ! - وأنا أقسم بالله أن 'الدولانى' يقر بأن حياتنا أقرب إلى الله بسبب كرمنا وسخائنا ." البدو يتمسكون دائما بهذه الفضيلة البشرية المقدسة ، وذلك مثلما يقف الإنسان أمام "الله المُنْعِمْ ،" ومثلما يقف لاعب مسكين أمام العناية الإلهية . وبالرغم من كل ذلك ، فإن مدينة دمشق الطيبة لا ينقصها الكرم العربى ؛ ولكن الكرم فى مدينة دمشق ليس بمستوى الكرم الذى رأيته وشاهدته فيما بعد فى مدن الجزيرة

العربية ، وبخاصة فى المناطق المرتفعه منها . هناك شيوخ كرماء بمعنى الكلمة فى قرية الميدان Medan التى تعادل مساحتها ربع مساحة الشام ، هؤلاء الشيوخ أصحاب بساطة عريقة تماما ، التى تلتزم بالكرم الحاتمى الذى تقدمه القرى النائية .

اسم ذلك الشيخ كاملا هو : زيد Zeyd الشيشان es-Sheychan الفجيرى el-Fejiry؛ هذا الاسم يدل على إنه ولد من أبناء الشيشان (الشيكان) (*) ، وهو من معيلى (اتباع) الفجيرى أو من أقاربه ؛ وهذه القرابة من ناحية الشيوخ ؛ وطبقا لهذا العرف الشائع ، فإن اسم قريب شيخ القبيلة إنما يعزى إلى القبيلة نفسها (والمعروف أن البدو فى لفظ كلمة 'الفجيرى' إنما يقلبون 'القاف' 'جيما' ، ولكنهم يستعملون كلمة 'الفقارة' فى صيغة الجمع) وترتيب بدو الفجير يجىء الأخير من ناحيه الشمال من أهل جبلى Ahl Gibly ، أو إن شئت فقل : أعراب الجنوب . وأتباع أو معيلى الفجير هم صالح Solih، أو إن شئت فقل : الفجير (وكلهم شيوخ) ، والمراسيب el-Moghrassib والزوارا Zuara ، والحمدان Hamdan، والهجُور Hejûr، والعينات Ainàt والصقورة Sgoora '؛ وكذلك الأتباع الفرعيين أو الثانويين ، نظرا لزيادة حجمهم إلى ما يقرب من نصف العشيرة ، أو إن شئت فقل قبيلة الخمالة el-Khamala . والاسم القديم لتلك القبيله هو المنابهه Menàbaha ، التى تنحدر عنهم أيضا الحسينى el-Hosseny ، الذين يشكلون حاليا عرب الشمال بالقرب من مدينة حلب ، والذين تنحدر عنهم الأسرة الملكية الشهيره فى شرقى نجد ، أسرة بن سعود ، الوهابى . هذا هو ما يقوله ويرويه الفقارة : وهناك من يقول أيضا ، فى نجد ، إن ابن سعود ، هو من بنى حنيفة ، العرب القدامى ، ومن يقول أيضا إنه ينحدر عن العنزى ، فى وادٍ يحمل هذا الاسم نفسه ، وذلك اعتبارا من عهد محمد ﷺ . والإسماعيلين ، تمتد سلالتهم إلى العنزى إلى حد ما ، – وهذا ينسحب أيضا على جيرانهم وأعدائهم الرئيسيين من المعازى Maazy أو إن شئت فقل : بنى عطية - Atieh ونسبه من ناحية الإناث ينحدر من القحطان ، السلالة النبيلة فى

(*) يصح فى هذا الاسم أن يلفظ بالطريقتين : " الشيشان " أو " الشيكان " واللفظ الثانى هو الأرجح ، إذ إن هناك قبيلة فى اليمن لقبها " الشيكانى " . (المترجم)

جنوبى الجزيرة العربية (أو إن شئت فقل : يوقطان yoktan (سيدنا) موسى حسبما يقول العلماء) . والمعروف أن وعيل Wâil (الجد الأكبر) هـو ولد من أولاد نشـود Nushud الجمال el-Jemal من زوجة قحطانية ؛ وأبناء وعيل هم عناز Anâz ومعاز Maaz، اللذان هما أبوى كلا من الأمة العنزية الإسماعيلية النبيلة أعرق العشائر العربية الموجودة حاليا ، وأمة المعازى Maazy . من المعروف أيضا أن مسلم Muss-lim ، أحد أبناء عناز Anâz ، هو جد بنى Beny وهاب Wahab ، الذين هم من المنابهة Menálaha، وآل الحسينى الموجودين حاليًا ، والفجير ، وولاد على : وكذلك أيضًا البشر The Bishr، وطلاس Tellas والرولة ؛ والمعروف أيضًا أن كل العنوز ، يدخلون فى بعض الأحيان ، ضمن بنى وهاب : - وبذلك يكون زيد منهم أيضًا . وأتباع ، أو إن شئت فقل : أتباع ولاد على الفرعيين من جهة الجنوب هم : الطُّعاله et- Toâla (وهم كثيرى العدد) ، ثم الثويبة Thueyba، والطائفات Taif?t، والأُمشطة Umshitta، وأمْريخان Mraikhan، والجبَّارة Jebbâra، والإربيلات Erbeylat، وخالد Khâlid؛ والشيوخ جميعهم من العلايدة Allàyda(*)

تبدأ ديار الفقارة الجرداء اعتبارا من المنطقة المحيطة بالدار الحمراء وتصل إلى بير الغنيم : ولا يقل اتساع تلك الديار من ناحية طريق الحج من ناحيه الشرق إلى جبل بردّ Birrd ، على حدود نجد . وهذه الديار مؤكدة فيما يتعلق بمقاطعاتنا الإنجليزية ؛ ويقدر عدد هـؤلاء الفقـاره بحوالى ثمانمائه نسمة . ويصل عدد خيامهم إلى مائتى خيمه ؛ وقد تمكنت من مسح تلك الخيام على الفور ، عندما كنا نمضى فصل الصيف حول آبار الحجر . وأفق هؤلاء البدو الرُّحَّل صغير وضيق ؛ وقلة قليلة منهم هم الذين يعرفون ديارا غير ديارهم ، أو طرقا غير الطرق التى يعتادونها ، ألا وهى الطرق المؤدية إلى حائل ديرتهم الرئيسة ، أو إلى المدينه (المنورة) مدينتهم الدينيه الرئيسه أيضا . والفقاره ، فى الغزو الذى يقطعون له مسافة طويلة ، يستأجرون لهم دليلا ، أو مرشدا

(*) العلايدة : أولاد على . (المراجع)

أرضيا يأخذونه معهم ؛ وهذا الدليل عادة ما يكون واحداً من المنفيين أو المطرودين السابقين ، أو قد يكون ضيفا فى تلك الديار التى سيخون كرمها . ويصعب على الفقاره (كما هو الحال فى حالات النزوح العام) تعرُّف الديار الغريبة . وهم يتصورون ، أو يتخيلون أن الدنيا كلها ليس فيها غير أرض الجزيرة العربية الجرداء التى تضربها الشمس ، وبها قليل من الماء وقلة قليلة من قرى النخيل ، فضلا عن مدينة واحدة كثيفه السكان ، مثل مدينة مكة . أطفال هؤلاء البدو الرُّحَّل رجونى أن أقول لهم : "كم عدد الإبل التى تملكها الإمبراطورية العثمانية ؟" وهم يعتقدون أن الإمبراطورية العثمانية واحدة من القبائل ، وأنهم يرون ويشاهدون موكب الحج الذى تقوم به هذه القبيلة ويمر عليهم كل عام . وهذا هو أكبر أبناء شيخ ولاد على ، والذى يمكن أن يخلف والده فى رئاسة القبيلة بعد وفاته ، متحجر الرأس ، سألنى عن ذلك المكان من العالم الذى تقع فيه ديرة الإنجليز ، ويود أيضا أن يعرف اسم القرية التى تقوم بدور السوق فى بلادنا ؛ كما طلب منى بشغف : "خبِّرنى ، يا خليل ، عن أسماء القبائل المعادية لكم :" وقال لى : إنه لو سمع اسمها فلربما استطاع التعرف عليها . كما استطاع أيضا أن يتفهم أننا كفَّار ، ولكنه لم يتصور أننا يمكن أن نكون شيئا آخرا غير قبائل الأعراب .

هيا بنا نتحدث عن أسرة زيد . وهو له زوجة أخرى ، ولكنها جرى تهريبها منه – وهذا أمر شائع ، نظرا لاستبداد الذكور الذى يسمح لهم بكثير من الزيجات – وهذه الزوجة تعيش حاليا مع قبيلة أمها ، البشر The Bishr؛ هذه القبيله كانت إبلها ترعى بالقرب منا فى الصحراء . وقد ركب زيد راحلته قاصداً جيرانه ، وعن طريق الوعود الحلوة المعسولة التى يجيدها استطاع أن ينجح فى إعادة زوجته إلى بيتها مرة ثانية . قال لى أحد الشيوخ : إن تلك الزوجة كانت جميلة ، إذ لها "عينان واسعتان" ؛ ولكنى بعد أن رأيتها ، وجدت أن وجهها كان شديد الشحوب والإمتقاع . هذه الزوجة المستعادة ، لن تعيش معنا فى الخيمة نفسها نظرا لوجود الزوجة حرفة الغيورة ، ولذلك فقد "نصبت" خيمتها مع بعض الأقارب فى مَنْزَلٍ آخر ، غير المنزل الذى نحن فيه . كان زيد وحرفه أبناء عمومة ؛ وكانت حرفة يتيمة من أيتام واحد من شيوخ القبائل ، أخذها على ما يبدو نظير ذلك الميراث القليل جداً من الإبل . كانت حرفه صبية بدوية قصيرة

متينة القوام ، وربما كان عمرها فى حدود العشرين عاما ؛ وكان يبدو على وجهها أن شبابها الذهبى ذوى وتحول إلى خريف ، ومع ذلك كان شكلها يسر الخاطر ؛ كان فمها عامرًا دوما بابتسامة لطيفة ، كانت تنتهى بتنهيدة تصدر فى أغلب الأحيان عن قلب لم يشبع . 'المرأة تتنهد (كما يقول المثل) عندما يكون زوجها سيئا' . ولكن حرفة كانت تتنهد جرَّاء الأمومة : هذا يعنى أن حرفة أمضت ، إلى الآن ، عامين مع زوجها وما تزال 'بنتا' كما يقول البدو ؛ 'هذا يعنى أيضا أنها ما تزال بنتا' ؛ وكانت تبكى فى داخلها وهى حزينة حزن امرأة من الساميات Semitic . كان زيد وحرفة مثلما كان إسحاق وربقة Rebecca ؛ وببساطه البدو ، كانا يجلسان يوميا يداعبان بعضهما أمامنا ، لأننا كلنا كنا أسرة واحدة ، وأصدقاء ، ولكن فى أحيان كثيرة كانت تُبَوِّز وتمط شفتيها إشارة إلى عدم الرضا ؛ وهنا كان زيد يتخلى عنها فى برود ، ومن ثم تفترق روحاهما من جديد . كانت حرفة بحكم روحها المرهقة ، ترغب فى رجل نشيط مليء بالحيوية ، بدلا من ذلك الزيد الهزيل ، الذى كانت لا تثق فى قدرتة على أن ينجب منها أطفالا . وكانا قد طلبا مرات ومرات من ذلك الغريب المسيحى أن يحكم بينهما فى موضوع زواجهما العقيم هذا ، وهل هى شرعية أم لا ، كما هو الحال بين أطفال الأشقاء . كانت حرفة ، ذلك الجسم النَّكِد الصغير ، بحكم مولدها فى خيام الشيوخ ونشأتها فيها ، بمثابة 'الشيخة' بين الحريم ، كما كان الرجال ينظرون إليها النظرة نفسها ؛ يضاف إلى ذلك أن الشيوخ الكبار كلهم كانوا من أقرب أقاربها . والمعروف أن دم القرابة يختلط بصورة مستمرة فى قبائل الجزيرة العربية الصغيرة وفى قراها الصغيرة أيضا : من ذا الذى يظن ، فى أيامنا هذه ، وبعد مرور أجيال كثيرة ، أن ذلك العرق السامى قد تلوث أو تشوة على هذا النحو ؟ - ولكن واقع الأمر ، أننا لا نرى بين هؤلاء الناس مشوهين أو متخلفين عقليا .

لما كانت حرفة صبية وأنثى جريئة الملامح ومهتمة بنفسها فقد استباحت لنفسها أن تميل عيناها إلى راعيها ، ذلك الشاب الصغير ، الذى كانت تغريه وتغازله أثناء غياب زوجها وبطريقة صريحة ومباشرة رغما عن أنف زيد ؛ ولكن ذلك الشاب ، كان حصيفا ومخلصا فى خدمته لشيخه ، هنا فى هذه المنطقة ، وبالرغم من وقوعها على

حدود كل من الحجاز الحاسد الغيور ، وعلى حدود نجد الوهابية المتشددة ، نجد أن النساء من بدويات الفقارة يخرجن سافرات ، و (فى الأماكن التى تربط فيها القرابة بينهم) لم ألحظ بينهم أى شكل من أشكال الغيرة بين الأزواج . فى هذه القبيلة التى تعيش على التمر ، لم يكن بينهم شخص مكتمل النمو غير الشيخ مطلق هو وأبناؤه ، ولم أر أيضا بينهم امرأة جذابة . كان زيد يروض زوجته الصغيرة العنيدة ، وذات ليله أدبها باستعمال العصا أثناء الليل .

كانت ملهاة حرفة وزيد بمثابة مادة الحديث اليومى فى مجلس شرب القهوة الخلصى بالشيوخ أبناء عمومتهما ؛ ذلك المجلس ، الذى كنت أصل إليه وحدى وأسمعهم يقولون : إيه ! هاهو خليل قادم : مرحبا يا خليل ؛ إفسحوا مكانا لخليل ؛ تجاوز الجالسين ، يا خليل وتعال ، وأجلس إلى جانبى هنا ." - "أأنت على مايرام ، يا خليل ! ولكن أين عمك زيد اليوم ؟" - "زيد زهلان(*) ؛ وهو يرقد فى المنزل نائما طول النهار بسبب هذه الحالة النفسية ." - والناس فى أرض الشمس ينامون عن قصد تحاشيا لآلامهم . "لكن خبرنا ، هل عرفت أنه ضرب حرفة ؟ وما هى الأخبار اليوم ؟ هل تحب عمك يا خليل ؟" قال واحد ممن لا يحبون زيدا (هو خلف Khalaf علايده Allàyda ، وهو شيخ منفى من شيوخ ولاد على) ، "زيد ليس رجلا ، من الذى يضرب زوجته ، من يضرب المره (المرأة) هو مره (امرأة) مثلها ؛ هل يفعل ناسك هذه الفعلة يا خليل ؟" أجبته ، "لا ، بالتأكيد ؛ اللهم إلا إذا كانت تعيسة وليست حلوة المعشر ." قال الرجل : "وأنا أقسم بالله ، أن ذلك عيب بيننا نحن البدو ." إن آثار مشعاب زيد تتملك دوما روحها الصغيرة العنيدة ؛ وأثناء الوقفة التالية من الرِّحله ، وبعد أن ينصب الخيمة ، وبعد أن اتجه زيد إلى المجلس ، مخلفا وراءه كل شىء ، فرت حرفة عائدة هائمة خلال الصحراء الجرداء وهى غضبانة أشد الغضب . وهنا تبعها مسرعا واحد من بدونا المخلصين ، مثل البرق وأمسك بيديها الصغيرتين برهة قصيرة ، وهو يرجوها أن تعود

(*) يلاحظ هنا أن خليل قلب حرف " العين " فى هذه الكلمة إلى " حاء " وأصل الكلمة " زعلان " بمعنى " غضبان " (المترجم)

إلى صوابها ؛ ولكنها بحكم أنها ابنه أحد الشيوخ ، رفضت أن يمسك بها أحد ، وخلصت نفسها من ذلك البدوى ومضت لحال سبيلها .

هذا هو العلاج الشائع لمشكلة الزوجة البدوية العاصية المتمردة ، التى تكشف عن ذلك العصيان والتمرد عن طريق الاغتراب عن زوجها ، واستعدادها لهدم الأسرة ورباط الزواج ، وبذلك تجلب مثل هذه المرأة على زوجها احتقار الجميع له لأنه لم يستطع طردها . وفور علم زيد بالخبر وذيوعة ، انطلق فى إثر حرفة وعلى الفور ، أقرب أقاربها من ناحية والدتها ، وهو شخص يشبه حرفه كما لو كان شقيقا لها : كانت حرفة تجرى فى الصحراء الجرداء كما لو كانت نعامة وحيده . ومضت ساعه أعاد بعدها حرفة إلينا ، والمؤسف أنه تركها مرة ثانية بصورة مؤسفة أمام خيمة زيد . قال ذلك الشخص : "ها ، يا خليل ، ما الذى ستعطينى إياه الآن ، بعد أن أعدت إليك عمتك مرة ثانية ، من الذى سيصب لك اللبن والماء ؟ ثم (راح يفرجنى على سيفه القصير) ، أقسم بالله ، أنى أعدتها بالسيف ، أقصد بقوة السيف ." ونظرا لاستياء زيد ، فى ذلك الوقت ، فقد راح ينام عدة ليالى فى خيمه زوجتة التى من قبيلة البشر ؛ وهاهى حرفه الغيوره ، التى تتحمل تلك المعاناة الجديدة ، تهرب مرة ثانية مكلومة الفؤاد ، وفى حضور الغرباء ، ضيوف زوجها ، من تلك الخيمة التى تنصب حديثا ، بعد أن ينزل الرجال من على دوابهم فى مَنْزَل من المنازل ؛ بقى زيد فى مكانه ، بوصفه رجلا مستاءًا ، ولم يفعل أى شيء سوى أن يتعقبها بنظراته ، دون أن يمنعها مما كانت تفعله (فالإنسان حر فى حياته من وجهة نظرهم) . هذه الزوجة البدوية الهاربة كان لديها أسبابها الوجيهة التى تجعلها تهرب إلى أى مكان تشاء ؛ فهى حرة فى الصحراء ، وليس هناك من يستوقفها أو يعطلها أو يثنيها عما تود القيام به . عجلت حرفة بالذهاب مسرعة إلى ديار أقارب أمها ، وهى تنتحب حزنا ، فى خيمة عمتها ؛ والبيت الذى تلجأ إليه الزوجة الهاربة ، أيا كان ، وغير بيت زوجها ، قد يشارك فى رد مثل هذه الزوجه عن غوايتها .

رحل الغرباء ، وجلس زيد وحيدا فى خيمته الخالية وهو يكابد الكثير من الآلام الذهنية الثقيلة التى تلازم أصحابها فترة طويله ، ولكن مسألة أن يكشف الرجل عن استيائه ، من امرأة من النساء والصبر على الحياة الزوجية ، فذلك أمر ليس من الرجولة ويكشف عن سوء التربية والتنشئة . وفرد زيد جسمه فوق الرمل طلبا للنوم عله

يتغلب على أحزانه ، وراح زيد فى النوم ورأسه فى الشمس الحارقة . والبدو الرحل ينظرون إلى الاعتدال فى الحياة الزوجية وتحمل متاعبها على أنه من الدين ! "فسلام الله" يتمثل فى ذلك القدر الكبير من الجدب المريع ، الذى تظله كل خيمة من خيام أولئك الرعاة المساكين . وهنا رحت أهزه بلطف وتدرج وقلت له : "ليس من الصحيح أن تنام هكذا ورأسك فى وهج الشمس ." ذهبت أنا وهو بعد ذلك طلبا لشرب القهوة فى المجلس ، الذى شاهدت فيه بعض الحاقدين الذين كانوا يسخرون من حزن زيد ويستخفون به ، هو ونظراته التى توحى بالتعب والاضطراب ، وهنا راح زيد يشتكى بصوته العالى الأجش بأنه 'لم يعد لديه زوجة بعد' – اللهم إلا إذا قدر لخليل (ضيفهم) أن يعيد حرفة إلى البيت مرة ثانية .' والمعروف أن الأخبار على اختلاف أنواعها سرعان ما تذيع وتنتشر بين الخيام المفتوحة فى أى مَنْزَل من منازل البدو الرُّحَّل ، ويندر ألا تلوك الألسنة أية حكاية من الحكايات التافهة ، التى يحكيها البدو تزجية لساعات الفراغ .

أدان العموم الهروب الثانى الذى قامت به حرفة الزوجة : "قالوا : كيف تهجر المرأة خيمة زيد فى وجود الضيوف ، وبخاصة أن أولئك الضيوف كانوا من الغرباء !" – وهنا ردت أم مُسنَّة من مَنْزَلنا على كلام زوجها العجوز قائلة : "ها ! ألم تسمع ، يا صالح ؟ الحريم ليست صالحات فى أيامنا هذه ، – إى ، والله ! أنا أقول إنهن جميعا فاسدات ، وأنا منهن أيضا !" المؤكد أن أولئك الغرباء كانوا (طربين **Terabin**) بدو الحويطات ، وكانوا تجارا أيضا ، جاءوا من صحراء ساحل البحر فى سوريا ، أسفل غزة ؛ ومن عادة هؤلاء الغرباء العودة إلى هنا فى فصل الربيع ؛ وهم أصلا من تجار الإبل ، بين الأعراب . ولما كان أولئك الغرباء يمرون علينا فى نهاية الرِّحْلة ، فقد ناداهم زيد من مَنْزَله وطلب إليهم النزول عن دوابهم لينالوا قسطا من الراحة ، جلس هؤلاء الغرباء على الرمل فى الوقت الذى كان يجرى فيه نصب الخيام ، وقدم زيد لهم الأشياء المعتادة التى تقدم عند الظهيرة فى ديارهم البائسة ، وهى عبارة عن طبق من التمر النتن المتعفن وسلطانية أخرى من ماء الصحراء العسر . هؤلاء الغرباء ، عندما رأوا ذلك الذى قامت به تلك الزوجة ، وبدافع من الأدب ، رحلوا مخلفين وراءهم ذلك الفطور البسيط ، وشكروا زيدا ؛ ومع ذلك ، كان الأمر ينطوى على شىء من الضعة والإذلال غير السليم ، وهو الأمر الذى لا يقره البدو الرُّحَّل أو يعترفون به : والبدو يدعون

للمضيف ويشكرون الله ؛ ولكن هؤلاء الغرباء كانوا من منطقة الحدود ، بل إن ملامحهم كانت توحى بأنهم من الحضر ، وسط هذه البرية وذلك الخراب . هؤلاء الغرباء لا يشترون سوى أفضل الدواب والماشية : وبالرغم من أنهم يقدمون أو يعرضون أسعاراً مرتفعة إلا أن الأعراب لا يرغبون فى البيع لهم مطلقا وعن طيب خاطر . وهم يعتقدون أن الجمل من الممتلكات المفيدة والمربحة ، فالجمل سوف ينجب جملا آخراً ، أما النقود فعقيمة وتضيع بالاستعمال ، وقد جرى العرف ، أن يبيع البدو الرُّحل دوابهم عندما يكونون بحاجة ماسة إلى الريالات : وهم هنا لا يبيعون سوى ذكور الماشية ؛ بالرغم من أن تلك الذكور هى الأفضل فى عملية النقل والحمل .

هؤلاء السماسرة ، كانوا يدفعون فى الجمل القوى المتين ثمنا يصل إلى حوالى خمسين ريالا ؛ كان نصفها يدفع نقداً ، والباقى على شكل قماش من البفتة البيضاء ، التى قد يبيعها البدو الرحل ، بدورهم ، لكى يصنع الناس منها قمصاناً لهم فى الصحراء . هؤلاء التجار يحضرون قماش البفتة هذا معهم من سوريا ؛ ويبيعونه هنا بسعر قرية تيماء ، ولا يزيد ما يكسبونه نظير تعبهم ومشقتهم عن الربع . هؤلاء السماسرة يبيعون الجمال التى يشترونها من هنا ، فى كل من مصر وسوريا . السماسرة الذين يكونون من هذا القبيل ، يتنقلون طول العام فى كل أنحاء الأجزاء المرتفعه من الجزيرة العربية ، كى يشتروا الإبل لحساب الدول المجاورة ، الأمر الذى أدى إلى مضاعفة سعر الإبل خلال سنوات قلائل ؛ وسعر الإبل يكاد يكون واحداً ، فى الوقت الراهن ، فى كل أنحاء القسم الشمالى من الجزيرة العربية : وإذا ما نشأ طلب على الإبل فى البلاد المجاورة ، كأن يكون ذلك بسبب إعلان الحرب على الحبشة على سبيل المثال ، ترى هؤلاء المبعوثين (السماسرة) يجوبون كل أنحاء الجزيرة العربية خلال أسابيع قليلة ، وفى حالة دفع مقدَّمات مالية ، يصبح بوسع أولئك السماسرة إحضار عدة آلاف من الإبل . ولكن عملية النقل تكلف الكثير فى رحلة من هذا القبيل . نظرا لأن وزن ظهور كل ستة جمال يعادل طنا واحداً .

سألنى الحويطات عما كنت أفعل فى عالم البدو ؟ وأجبتهم بأنى زرت بلادهم ، وأقمت فى قراهم الدائرية الشكل المكونة من الخيام ، وشاهدت أيضا طريقة حرثهم

للرمل البرى باستعمال الإبل . "(قالوا لى ، فى ود وصداقة) : سنركب دوابنا فجر الغد عائدين إلى ديارنا . أليس من الأفضل لك أن تعود معنا ؟"

أمة الحويطات تسكن كل البرية الجرداء التى تعلو شبه جزيرة سيناء فيما بين البحرين وعمق الأراضى الداخلية : والحويطات يصلون إلى حدود تهامة ، عن طريق البحر الأحمر إلى قرية الوجة . ومدينة الحويطات الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، من الناحية الشمالية هى مدينة غزة ، التى تعد مخزنا رخيصا للحبوب عند قبائل سيناء ، ولعرب الجزيرة العربيه الرُّحل القريبين من تلك المدينة . وقد شاهدناهم حول غزة (التياها Tiáha والسيدين Seydeîn)، وهم من الفلاحين والزراع الذين يقيمون فى الخيام ؛ وأمة الحويطات فى تهامة عبارة عن أناس من الرعاة الرُّحَّل : ولكن البعض من رجال قبائل الحويطات الذين يعيشون فى الوديان ، والقيعان المنخفضة ، هم أيضا من العمال الزراعيين الذين يزرعون النخيل والحبوب ، فى كفور صغيرة تنصب فيها الخيام . وشاهدنا بعضا من الحويطات ، فى الحسمة Hisma ، وكانوا يعملون فى زراعة الحبوب فقط ؛ وفى *صحراء النفود*(*) وتربة *'الأماليكايت'* *Amalekite* *فيما* بين غزه ومصر ، وجدت أن عشائر الحويطات الطرابين Terabîn والسواقى Suâki (كانت من البدو الرُّحَّل ليس إلا ، قروييى الخيام من بين الحويطات فى فلسطين يشبهون السوريين الآخرين إلى حد بعيد ، وهناك الكثيرون منهم الذين يمارسون التجارة ، وبخاصة التجارة مع البدو ؛ ومن بين أفراد هذه القبائل أناس لديهم مخازن يبنونها من الطين . هناك أيضا قبائل بدوية تعيش فى بيوت من الطين ، حتى فى الجزيرة العربية نفسها ؛ وهذا هو حال شيوخ الفقارة وولاد على الذين لهم فى خيبر بيوت من الطين يعيشون فيها فى فصل الصيف ؛ وهم فى هذه المناطق يعيشون ملاكا للأرض وليسوا فلاحين فيها أو زرَّاع لها . والبدو يقصدون تلك البيوت الطينية فى خيبر ، فى فصل الصيف على سبيل الاستجمام ، 'والكيف' كما يتصورون ؛ وهم لا يميلون إلى الحياة المستقره

(*) صحراء النفود : تقع فى شمال الجزيرة العربية وتمتاز بكثبانها الرملية الناعمة اللينة التى يصعب على المرء السير فيها . ويبلغ ارتفاع بعض هذه الكثبان نحو ١٥٠ مترا . وتمتد صحراء النفود على مساحة كبيرة من الأرض حيث يبلغ طولها من واحة تيماء إلى الشرق نحو ٤٥٠ كيلو مترا وعرضها من واحة الجوف إلى جبل شمر نحو ٢٥٠ كيلومترا . (المراجع)

ولا يصرون عليها ، والذى لا شك فيه أن كل القرى والبلاد فى كل أنحاء القسم البدوى من الجزيرة العربية ، كانت فى بداية الأمر مستعمرات بدويه ، التى مازال سكانها يذكرون ويتذكرون قبائلهم البدوية المترحلة ؛ ونحن نشاهد فى المناطق المرتفعة والمناطق المنخفضة من ديار البدو الرُّحَّل الواسعة أن البدوى يمكن أن يتحول إلى عامل زراعى فى الأماكن التى يمكن أن يحصل فيها على معاش سهل . من هنا ، فإن أفضل الوديان على جانبى الحرَّة ، المجاورة للحجر ، يقوم على أمر زراعتها بالحبوب كل عام بعض أعراب المواهيب . وبعد حصاد المحصول ، يقوضون قراهم الخيامية ويروحون يتجولون مع مواشيهم تجوال البدو الرُّحَّل .

الحويطات ، بصورة عامة ، أصحاب أجساد نحيفة ، وهيكلهم العظمى يشبه هيكل أولئك الذين يعيشون على القمح ، وسماتهم الفظة ، تشبه إلى حد كبير ، سمات أولئك الفلاحين السوريين الذين يعيشون فى القرى النائية ، (بل إنهم حتى يشبهون أولئك الفلاحين التهاميين فى الجزيرة العربية ،) والحويطات أسرع من أهل نجد رشيقى الحركة ، أصحاب العقول الداهية ، والألسن الواعية اليقظة ، وقد وقفت على كل ذلك ، من خلال السؤال عن أصول الحويطات ، الذين تقول عنهم مصادر مختلفة إنهم ينحدرون من أخين شقيقين ، كما هو حال بعض الناس ، من قبيلة حرب ، وأن هذين الأخين الشقيقين جاءا فى غابر الأزمان ، من اليمن إلى تلك الديار العالية من ديار البحر الأحمر . ولكن هناك أيضا قول شائع بأن أولئك الحويطات ينحدرون من أصل نصرانى . وأن ذلك القول يمكن تفسيره من منطلق أنهم "مازالوا باقين فى الديار نفسها التى كانوا يحتلونها فى أزمنة سابقة للإسلام (يعرفها العرب على إنها ما قبل التاريخ) وفى ظل دين مختلف ." وتلك هى الدائرة القديمة لأنباط الغرب . هل كون الحويطات – تجارا أو عمالا زراعيين فى الوقت الراهن – يعنى انحدارهم عن الأنباط ؟ تساءلت عن أولئك التجار ، وكيف كانوا يمرون بسلام ومعهم بضاعتهم إلى بلاد الحويطات ، التى تبدأ من جبل شراة على بعد مسافة حوالى مائتين وخمسين ميلا من هذه المنطقة . قالوا لى : "نحن نصطحب لنا رفيقا من كل قبيلة على طول الطريق إلى هناك ." والرفيق فى الجزيرة العربية ، غالبا ما يكون من الأعداء ، وهو ابن سبيل يجرى استئجاره ، نظير مبلغ زهيد ، حتى يتحمل مسئولية إبعاد القافلة عن التساؤلات

المعادية ويكفيها مؤنة الإلتقاء بأفراد قبيلته أو مصادفتهم . وبذلك يمكن لعابرى السبيل فى الجزيرة العربية المرور بقليل من الخوف خلال الديار المعادية ، بل يصبح بوسعهم أيضا الحصول على كرم أولئك الأعداء .

عندما فهمت فى مْنزَلنا ، أن تلك هى مهمة الضيف الأمين ، اتجهت عصر اليوم التالى لإحضار حرفة إلى مَنْزِل زيد ، من حيث ارتبكت هى نفسها فى مسألة العودة ، ومن حيث ذهبوا هم يبحثون عنها . وجدت حرفة وفى محياها شىء من العار والخجل ، وجدتها وسط أولئك المتيمات بالنميمه والقيل والقال ؛ النساء العجائز والمسنات اللاتى كن صديقات لأمها الراحلة ؛ جئن كلهن إلى خيمة العمة كى يواسونها ، كما شاهدت هناك أيضا الشبان أبناء عمها . كانت تلك الزوجة الشابة ، التى لا ولد لها ، تجلس وقد علت وجهها مسحة من الحزن ، وهى تلاعب بحب أحد أطفال الجيران ، 'قالت حرفة : املأ (عمّر) لى غليون التبغ الكبير ، يا خليل ، وإلا فلن تستمع إلى كلامى .' صاحت الزوجات العجائز قائلات : "يتعين عليك ، يا خليل ، أن تُعَمّرٍّ لنا غلايبننا كلها (فهن جميعهن من المتيمات 'بشرب' الدخان) ، وإلا ، فلن نسمح بذهابها أو بعودتها معك ." وقال الشباب إنهم سوف يحتفظون بحرفة ، ويزوجونها هم بأنفسهم ، ولن يعيدوها ثانية "إلى زيد الشرير ."

بعد أن وزعت التبغ عليهن ، أمسكت حرفة من يدها البدوية الصغيرة (لم يخطر ببالى أنهن جميعا كانت أيديهن صغيرة على هذا النحو) ، وطلبت منها الوقوف ، وأجابتنى تلك الزوجة الصغيرة الشرسة إلى طلبى ، 'ولكنها لن يمسك أحد يدها ، ولابد أن يترك خليل ، يدها .' وهنا قلت : "سأعيدك إلى بيتك ، أيتها المضُيفة ، عودى معى ؛ إذا لم تعودى معى فسوف أرحل وأنصب خيمتى إلى جوار خيمتك ، وذلك بدءا من الرَّحْة القادمة ." حرفة : "إفعل ذلك ، يا خليل ، ومرحبا بك : سوف نرحل أنا وأنت ، — آهٍ ! إلى حيث سنأكل جملا أنا وأنت (وهى هنا تقصد وليمة كبيرة) ، ما عليك إملأ غليونى بالتبغ مره أخرى ." العَمَّة : "واملأ لى غليونى أنا أيضا ، يا خليل ، وإلا ستبقى حرفة عندنا ، طبعا ، ولن نسمح لها بالرحيل معك ." وبعد أن ملأت لهن جميعا غلايينهن ، سألتهن إن كانت حرفة ستعود معى أم لا . هنا ، قال شاب من أبناء عمها : "أنا أبوها ، وحرفة ابنتى ، يا خليل ؛ لا ! نحن لن نعيدها بعد اليوم إلى زيد ." وقالت

عمتها : "حسن ، عد من حيث جئت ، يا خليل ؛ وسوف تتبعك حرفة ونحن جميعا (سرب النساء) سوف نصاحبها أثناء عودتها ." (لنعيدها إلى بيتها معززة مكرَّمة) . وبعد أن وصلن وأصبحن أمام خيمتى نادوا علىّ كى أوزع عليهن دورًا آخرا من التبغ : – وهنا جلست حرفه فى بيتها ، أو إن شئت فقل : فى خيمتها من جديد .

مصير المرأة هنا يعنى أنها مجرد محظيَّة ، كما يعنى أيضا العبودية المرهقة فى هذا المجتمع الفقير ، ميراثها من والدتها ، ومن معلميها ، أعطى بثمن بخس ، (احتقارا لجنسها الضعيف ،) لزوج يطردها فى اليوم الذى يصبح فيه غير راغب فيها . قد يكون ذلك (بالرغم من عدم فرض الإرادة بين البدو الرُّحَّل) لا يتعدى تلك القلة القليلة من سنوات شبابها الزاهر ، وبعد أن تسلم بكارتها لرجل لا يناسبها من حيث السن . فضلا عن أن قلبه ليس ملكا لها هى وحدها ؛ ولكنها ، إذا لم تكن قد انفصلت بالفعل ، فإنها سوف يتعين عليها فصم ذلك الزواج فى الوقت المناسب ، فى القريب العاجل ، على أن تتقاسم ذلك الزواج مع شخص آخر . والمؤكد أن ذبول حرفة ، وهو قادم لا محالة خلال فترة وجيزة ، ونظرا أيضا لعدم حصولها على فرصة مواتية لإنجاب الذكور ، فسوف يتخلص منها ذلك الزوج كما لو كانت شيئا بلا قيمة ؛ وهى طوال كل ذلك الوقت ، يتعين عليها القيام بكل أعمال المنزل التى ستضيع هى الأخرى مع ضياع حب ذلك الزوج . ترى ، ما هو توحد القلوب الذى يمكن أن يحدث ، بين هذين الطرفين اللذين لا رابط بين مصيريهما على الإطلاق ؟ الحب الطبيعى الحلو قد يزهر مدة لحظة واحدة ، ولكنه لا يمكن أن يدوم بين هاتين الكفتين غير المتساويتين . الحب ثقة تشبه الحمامة ، ولا يوقع عليه قلب المرأة التى تساء مُعَامَلَتها .

قلة قليلة من الزوجات البدويات المترحلات هن اللاتى تدوم سعادتهن فترة طويلة أثناء زواجهن ! بل يندر أو بالأحرى تنعدم تلك الزوجات اللاتى تبقين فى عصمة أزواجهن الأول . وهذا الحال ينطبق على أمهات كثير من الأطفال ، أو أولئك اللاتى يتزوجن فى أسر فقيرة ومحتاجة ، نظرا لعجز أولياء الأمور وعدم قدرتهم على الاحتفاظ بربة بيت أخرى ، أو إن شئت فقل بزوجة ثانية . ولكن الأشخاص القادرين ، وكذلك شيوخ القبائل لديهم المقدرة على القيام بذلك قبل فوات الأوان ، مع تلك الزوجات القديمات ، وينتقلون منهن إلى فراش العرائس الجديدة ، وإلا فلن يكونوا مسلمين ؛ ولما

كان أولئك القادرون هم والشيوخ أثرياء وقادرين فهم ينفقون بسخاء على الزواج الجديد مثلما ينفقون على تغيير ملابسهم فى المواسم والفصول المختلفة . والزوجة التى يتخلى عنها واحد من أولئك الأثرياء قد تتزوج من شخص ثرى آخر نتيجة استلطاف قديم ، أو قد تتزوج من شخص فقير الحال . وفرح المرأة وعزائها يتمثل فى كونها أم ولها أبناء ، الأمر الذى يمكنها ، فى أضعف الأحوال ، من أن تظل كمدبرة لشئون خيمة ولدها ، بعد أن يلفظها والده أو يستغنى عنها . كان ذلك هو حال غوبنى Ghrobny أم سليم والدة زيد الصغير . وبعد أن رثى زيد لدموعها ، عثر لها على زوج آخر من عرب الخمالة Khamâla الفقراء ، الذى أنجبت منه حالياً طفلاً : ولكن ذلك الرجل كان يعاملها معاملة غير كريمه وقاسية ؛ الأمر الذى جعلها تعود إلى ولدها الصغير ، حيث نُصبت لها خيمة من جديد ، لتعيش عيشة أرملة غير مرغوب فيها بجوار منزل زيد . وفى فجر أحد الأيام ، غابت خيمة غوبنى من الوجود ! ووقف العرب يضحكون ويتعجبون ، نظرا لأن غوبنى كانت مخلوقا ضعيفا ومسكينا ، فضلا عن إنها كانت مقبوله الشكل أيام شبابها ؛ وهنا علم الناس من ولدها سليم أنها جرى تحميلها ، أثناء الليل ، على جملها ، وجرى السطو عليها ونقلها إلى زوجها الخمالى Khamaly فى مَنْزِلٍ من المنازل البعيدة . كان ذلك الخمالى الشقى ، قد جاء إلى خيمة غوبنى فى اليوم السابق ، وقبَّلها وأقسم لها قسم العاشق المتيم أنه سيردها ثانية . ولكن بعد ذلك بيومين ، عادت إلينا تلك المرأة المسكينة المتيمة ، التى ذبل جمالها وذوى ، عادت إلينا وعيناها حمراوين ، لتحتضن طفلها ، الذى بقى مرتبكا مع والده ؛ واعتبارا من الرُّحْلة التالية بدأت تلك الزوجه الملفوظه تخيم ، مثلما سبق لها ، بالقرب من خيمة زيد .

يقول هؤلاء الأعراب : "عدد الحريم ضعف عدد الرجال ." وإذا كان الأمر كذلك ، فهذا سبب طبيعى لأن تكون للرجل الواحد أكثر من زوجة ؛ وأنا أحسب أيضا أن عدد النساء يفوق عدد الرجال . والسواد الأعظم من النساء البدويات تمضين الفترة التى تبدأ بشهور الربيع إلى الربيع التالى ، أى حوالى تسعة أشهر كل عام ، وهن تتضورن جوعا : ولذلك فإنجابهن للأطفال قليل جداً ؛ وأنا أعرف اثنين من هؤلاء البدويات ، ولم أسمع أنهما أنجبتا أطفالا . ومع ذلك فالبدويات المترحلات أمهات جيدات ، فهن يرضعن أطفالهن فترة طويلة من صدورهن الهزيلة ، مالم تحملن أثناء الرضاعة . وفى

مخيم زيد شاهدت بنتا صغيرة عمرها أربع سنوات ، كانت لم تفطم بعد ؛ وقالت أمها : "ليس لدينا ماعز ، ليس لدينا أى شىء فى هذه الأرض الخراب الجرداء القاحله ، وما الذى تتوقع أن أفعله ، فى ظل كل هذا القحط ، مع بنتى الصغيرة ؟" والبدويات تغسلن أطفالهن ببول الإبل ، وهن عندما يفعلن ذلك ، يحسبن أنهن يساعدن على إبعاد الحشرات عن أطفالهن : هذا البول يكون حريفا ، وبخاصة عندما تكون الماشيه قد تغذت على أوراق بعض الأدغال القلوية ، التى من قبيل نبات الرِّمض rimth . يضاف إلى ذلك أن كل هؤلاء البدويات يمشطن شعورهن الطويلة بذلك البول ، يستوى فى ذلك الرجال والنساء ، بل إنهم يستعملون ذلك البول فى بعض الأحيان لتبيض خصلات شعورهن ، الأمر الذى مكننى من رؤية ضفائر بعض الشبان الصغار وقد تحول لونها إلى اللون الرمادى . وهناك عادة غريبه (ليست مقصورة على نساء البدو الرُّحَّل ، ولكنها موجودة وشائعة أيضا بين المسيحيين فى البلاد العربية ، الأمر الذى يجعلنا نقول إنها تخلفت عن عبادة الأصنام بين هؤلاء البشر ،) خاصة بالأمهات ، والقيل والقال بينهن ، بل وحتى الآنسات الشابات ، اللاتى تزرن النساء المتزوجات لتقبلن بشىء من الإخلاص والولاء 'حمَّام' الأطفال الذكور .

والرجال والنساء ، والحضر والبدو ، فى كل أنحاء الجزيرة العربية ، إذا ما تصادف أن مروا بذلك 'الحمَّام' ، فإنهم يكحلون بياض عيونهم باللون الأزرق ، مستخدمين فى ذلك مادة الأنتيمون ؛ من هنا فإن محمد بن رشيد الذى تشبه عيناه عينى الطائر ، يكحلهما هو الآخر . تكحيل العيون هذا لا يعنى جمالها من منظور النساء ، اللاتى قمن بتكحيل تلك العيون ، وتبييض خصلات شعورهن الطويلة على أجناب وجوههم ؛ وإنما لأن هؤلاء النساء البدويات يعتقدن أن ذلك إنما يزيد من حدة بصر الرجال ويحافظ عليه . منظر هذا الشعر المفروق من المنتصف والذى يتدلى على جانبى الرأس على شكل خصلات رمادية اللون ، وعينان مزيفتان مكحلتان باللون الأزرق ، يجعل رأس رجل الجزيرة العربية ، من تحت 'الغتره' بهيجة الألوان تبدو ، فى نظرنا ، وكأنها شبيهة برءوس الإناث إلى حد بعيد ، وبذلك تكون أوجه الشبه بينهم وبين النساء كبيرة جداً .

يجرى تعليم الصلاة للحضريات اللاتى ينحدرن من أسر طيبة فى سائر أنحاء الحكومة الوهابية القديمة ؛ بل إن هناك أيضا بعضا من هؤلاء الحضريات تعلمن القراءة أيضا . ويندر أن يرى الناس المرأة تصلى فى القبائل البدوية المترحلة ، اللهم باستثناء شهر رمضان ، شهر العبادة والإمتناع البدنى : كما أن من يعرفن الصلاة من تلك البدويات قليلات جدًا ؛ وهذا ينطبق أيضا على الرجال ؛ وأنا أقطع أن ما يزيد على نصف الرجال لا يعرفون كيف يصلون ، أو إن شئت فقل : لم يتعلموا الصلاة . والبدوى فى الجزيرة العربية يلعب دوره مثل الكاتب أو الموظف الكتابى الذى يحفظ بنود عمله عن ظهر قلب : زد على ذلك أن البدو الرُّحَّل الذين يكثرون من الصلاة فيما بينهم ، هم أسوأ الناس طبعًا . والنساء لا يصلين كما يصلى الرجال ، بأن يسجدن ؛ وإنما هن يتلون القرآن وأذرعهن مطويات ، كما يركعن أيضا . "أهل الجزيرة العربية يقولون : "الأنثى (التى تعمل وتجلب ثروات الرعى) هى الأفضل من بين سائر الحيوانات ، باستثناء الجنس البشرى ." ومع ذلك ، فهذا ليس هو رأى العرب جميعا ، نظرا لأن الهرَّ ، أى الجمل الذكر ، يفضله الناس ، وبخاصة المغاربة ، أو إن شئت فقل ، عرب الغرب ، لقوته . والساميون يلقون باللوم كله على الأنثى من البشر . والساميون يظنون أن طبيعة الأنثى طبيعة أثيمة أو شريرة ، والأعراب يشتكون من الأنثى "بأن لها سبعه أرواح" . والأعراب معادون للجنس اللطيف (المرأة) ، التى يقولون إن عليها لعنة الله ؛ " (يقول البدو) بعض النساء سجانات للأزواج ، كما أن منهن زانيات كثيرات ." ولما كان الظلم الشديد يملأ قلوب البدو ، فهم يوبخون ويؤنبون ربات البيوت الصالحات الأمينات ، دونما سبب : ولكن ما الذى يمكن أن تتكلم النساء فيه طول اليوم غير خيانة الأزواج لهن وعدم إخلاصهم لهن ؟ وهم يودون للمرأة (الحرمة) الخضوع بصورة مستمرة ودوما : (وهم يقولون) إن المرأة إذا ما حصلت على المساواة فسرعان ما تتبدى طبيعتها الشريرة . وهم (البدو) يشكمون المرأة طول اليوم فى البيت ، ولا يجعلونها تتحرر مطلقا من السخرة . وإذا كان الملك الحكيم فى القدس (أورشليم) لم يعثر مطلقا على امرأة صالحة ؛ فإن الكثيرين من الرجال الفضلاء عثروا على نساء صالحات أفضل منهم هم أنفسهم . والخمار هو وشبكة الغيره هما من مظاهر صرامة الإسلام الشديدة فى المدن والبلدان : والنساء (ربات البيوت) متحررات فيما بين

سكان الخيام في المناطق الجرداء الواسعة ، كما أنهن متحررات أيضا في الأماكن التي تربط القرابة فيها بينهن ؛ ومع ذلك ، فإن حريم الأعراب ، في السواد الأعظم من القبائل العربية ، تبدين شبه محجبات . وعندما سألني البعض ونحن نشرب القهوة في مقهى زيد ، عما إذا كان حريمنا يرتدين الحجاب ، أجبتهم قائلا : "لا ! إنهن سافرات ، إذ ليس هناك داع لاستعمال الخمر أو البراقع بين إناس يتسمون بالأمانة ، كما أظن أن بينكم ، أنتم الأعراب ، أن أولئك الذين ترتدى نسائهم الخُمُر ، هم من أكثر القبائل مجونا واستهتارا ." والبدو يسعدون عندما يسمعون اللوم يوجه إلى أفراد القبائل الأخرى . وردا على كلامي قائلين : "نعم ، بالله ، إنهن فاسدات فاسقات ." سألت زيداً : "أهذا هو رأيك أنت أيضا ؟" "يا خليل – قالها من قلبه ، 'أنت تفكر مثل الكفار'– وجه المرأة يجب أن لا يراه أحد غير زوجها ."

البدو الرُّحل القدامي هم وشريعة السماء عند (سيدنا) موسى يحتقرون الجنس اللطيف ؛ ففي ولادة الأنثى يتضاعف عدد الأيام اللازمة لتطهيرها ، كما أن تقييم طفلها يجب أن ينخفض إلى النصف . وإذا ما أعطت المرأة وعداً ، يصبح ذلك الوعد لاغيا إذا ما رفض زوجها . ولكن الأم السامية التي تلد ذكرا تكرّم وتعزز . ونحن نقرأ ما يلي : "فليطع الإنسان أمه وأبيه" ، هذا هو الكاتب السامي يورد الأم قبل الأب . ونحن نرى بين العرب الخشنين أن الابن الأكبر ينظر إلى أمه نظرة رقيقة ، على إنها أمه التي ولدته ، وأن تلك النظرة تكون مقدمة على حبه الدافق لزوجته الجديدة الشابه ، من هنا يمكن القول إن حب الأم بين القبائل يتحلى برقة الأنوثه ؛ ولذلك نجد أن الأم عندما تأتي على ذكر أسماء أبنائها ، تضيف بعض الأقوال والمقولات الخرافيه مثل «...»(*) . وحريم البدو الرُّحَّل يلدن مثل الأمهات الأخريات ، إذ تأتي لهن أوجاع الوضع المفاجئة ، بعد عمل قد يستمر بضع ساعات . وهناك رأى راسخ مفادة أن بنات الصحراء يشبهن المخلوقات البرية ، وأنهن لا يعانين من عملية الحمل . ولما كانت عائلة وأهل بنات الصحراء دائمي الهجرة والترحال ؛ فذلك يعني أن مثل هذه البنت أو الفتاة

(*) رأينا حذف الأمثلة التي ضربها المؤلف لأنها تهيين العقيدة الإسلامية (الناشر) .

لا يكون أمامها أمل حقيقى فى الراحة والاستجمام . فهذا هو العشب ، من حولهم ، يجرى استهلاكة كل يوم ، هذه هى الماشية العطشى تتقدم دوما صوب المرعى والماء ، وهؤلاء هم ناسها يتحركون دوما وبلا توقف : وأهل مثل هذه الفتاة لا يمكن أن يعتمدوا ، على الغد ، أو يركنوا إليه فى المناطق التى يخيمون فيها فى هذه الأيام . فراش هؤلاء القوم عبارة عن عباءة (بشت) أو قطعة من قماش الخيام يفرشونها على الأرض ، واقع الأمر ، أن هؤلاء الناس يعيشون حياة الضنك التى تحياها المخلوقات البرية . من هنا فإن المرأة البدوية بحكم العادة والعوز ! تتمتع بشجاعة من نوع آخر . ترى ، ماذا يمكن أن يحدث لتلك المرأة البدوية المترحلة ، إذا ما فاجاتها آلام الولادة أثناء مواصلة الأعراب مسيرهم ؟ هنا تتوقف أسرة المرأة ، وينزلون من فوق ظهور دوابهم ، وينصبون لها خيمتها . وماذا يحدث لمثل هذه المرأة عندما تكون القبيلة قد نصبت خيامها ؟ كل ما فى الأمر ، هو أن مثل هذه المرأة ، تنسل مع بعض صديقاتها اللاتى يكبرنها سنا ، وتنتبذ لنفسها مكانا تلد فيه ، على انفراد فى الصحراء . أما إذا كان البدو على وشك الترحال والتحرك ، وإذا ما كانوا أيضا يخشون من ترك مثل هذه المرأة وراءهم ، فإنها يجرى حملها برفق ، مثل أى شخص مريض ، داخل عش صغير يصنعونه لها من سجادتها أو قماش خيمتها ، بلفه حول مؤخرة عدة (سرج) الجمل ، حتى تكون معهم أثناء الرِّحْلة : ونظرا لأن البدو يعيشون حياتهم على هذه الشاكلة فهم لا يحسون بالتعب ، وإنما يستشعرون الراحة عند الركوب .

فى زمن من الجاهليات Jahalîat (المقصود هنا هو الجاهلية) كانت فى الصحراء عادة مريعة ، استمرت حتى جيل (سيدنا) محمد ﷺ ، وكانت تقضى بدفن البنات أحياء (وهو ما يوحى بأن مواليد النساء بينهم كانت كبيرة العدد) . المرأة عندهم لم تولد لحمل السيف واستعماله ، ولكن يدها لا تستعمل فى شىء سوى عملية الغزل السخيفة ، والمرأة لا تقوِّى العشيرة ، كما أنها لا تضيف شيئا إلى بناء أو تأسيس أسرة والدها ، وكل ما فى الأمر أنها مجرد فم زائد لا طائل من ورائه يضاف إلى أفواه الجائعين الذين يعتمدون على الكفاف " يضاف إلى ذلك أن والدها ينشغل باله على امتداد سنوات طوال للمحافظة على هذه الفتاة ؛ وينتهى كل ذلك إلى مهر غير مؤكد

(يشترى به لها هو بدوره بعض الأشياء اللازمه لمنزلها ، وهذا هو ما يسمونه الصداق أو المهر) ، هذا فى الوقت الذى تغادر فيه بيت والدها كواحدة غريبة على بيت آخر . ووالد الفتاة ، يخفى نفسه عند مولدها ، عن كل أصدقائه ومعارفه .

عندما سألت البدو إن كانوا قد عرفوا ذلك عن طريق العادات والتقاليد ؟ أجابونى متعجبين وهم يقولون . "إنهم لا يتصورون أن تكون هناك عادة لعينة من هذا القبيل فى هذه البلاد ." والبنات عندما يتجاوزن مرحلة الطفولة التى يشيع فيها الأنس والود ، لا يجلس معهن أحد فى الأسر العربية . والولد الذكر يحبه والده ، حتى بعد أن يكبر ، ويكون حبه له أكبر من حبه لأمه التى ولدته ، بل إنه يفضله على نفسه ، ويجىء فى المرتبة بعد والد الأب نفسه : يضاف إلى ذلك أن الطفل الصغير فى الأسرة يحبه أيضا إخوانه الكبار الذين يكبرونه سنا . لقد أعطاه الله ولداً ذكرا ، وبالتالى فإن الأب لا يمكن أن يعارضه فى أى شىء ، عندما يكون طفلا . هذا من منظور أن ذلك الابن قد يرعى والده عندما يكبر سنه ويشيخ ، وقد يقوم بدفنه فى النهاية بطريقة كريمة ومشرفة ؛ ومع مضى الأعوام ، وطوال ترحال أولئك البدو الرحل ، يقوم ذلك الولد بنحر الذبائح تكفيرا عن ذنوب والده ، كما يصلى طالبا له الرحمة والغفران : وبذلك يظل اسمه ماثلا فى ذاكرة الأحياء . والرجل أسهل عنده ، أن يصفع إمراته ، مرة أو حتى عشرين مرة ، على أن يمد يده حتى ولو على ظهر ولده العنيد ولو بربتة خفيفة . والأب فى ذروه ضيقه واستيائه من ولده العنيد يكتفى بتعنيف ولده ببعض الكلمات العنيفة ، ولكن غضبه لا يمكن أن يتطاول ويخل بسلام المنزل ؛ إذ بعد سنوات سيكون ذلك الطفل أفضل من والده ، ومن ثم يصبح ذلك الطفل واحداً من أولئك الذين لا يجرق الوالد على الإساءة إليهم . يقول البدو الرّحل ، إن من بين الآباء من يستعمل العصا فى التربية . وأنا لا يمكن أن أصدق ما يقولون . والأب عندما ، يموت ولد من أبنائه ، تتلبد سماء حياته بغيوم الحزن ، ويتملكه الصمت والحزن والأسى فترة من الزمن ؛ أما إذا توفت للأب ابنة من بناته فإن ذكراها لا تدوم طويلا ، اللهم إلا إذا كانت لتلك الفتاة قيمة خاصة ، أو سمة واعدة اختطفت قبل أوانها . والرجال من المسلمين لا يحزنون على الموتى ، ويكتفون بالقول : "مات الرجل ، عليه رحمة الله !"

اكتشفت أيضا بين هؤلاء البدو ، أن من الصعب عليهم تخيل أى شكل من أشكال الحياة المستقبلية ؛ فهم يصلون ويصومون من منطلق أن تلك واجبات فى إطار الدين ، وهم لا يتطلعون ، (شأنهم شأن الآباء الساميين من قبلهم) إلا إلى بركة الحياة الحاضرة . هناك أضحية تقدم نيابه عن الموتى ، وقد شاهدت مسألة هذه الأضحية مستمرة إلى الجيل الثالث . فقد رأيت بعينى شيخا جاء على سبيل الذكرى ، ليذبح أضحيته ويصلى عند تلك الكومة التى دفن فيها والده ووالد والده : وقد رأيت الناس وهم يقبلون يده ، عندما يمرون عليه ، فى أى وقت ، فى المكان الذى ينام فيه ، رأيتهم وهم يتفوهون بكلمات فيها الكثير من رقة النساء ، كلمات تتعلق بالبركة والصلاة ؛ - وهذا بطبيعة الحال من قبيل العزاء فى الوفاة ، وأن ذكرى ذلك المتوفى ستبقى فى ذهن أطفاله إلى أمد بعيد . والحريم فى البلدان السامية المستقرة ، وهذا هو حال المسيحيات أيضا ، يذهبن إلى القبور فى أيام محددة لتبكين عندها . لقد رأيت بعينى أرملة تقتاد أطفالها الذين فقدوا والدهم إلى المقابر ، حيث ركعوا وراحوا جميعا يبكون هناك : رأيت الأم وهى تعلمهم البكاء ، رأيتها وهى تبكى فقيدها بصوت متهدج وهى تنتحب وتقول : 'يا حبيبى' Yahabîby . أطفال الأعراب يتحكم فيهم الترجى والاستعطاف ؛ وبنات البدو الرحل غالبا ما يكن عابرات سبيل فى بيوتهن ، والأولاد الذكور يحتقرون أصوات أمهم فى كثير من الأحيان . وقد رأيت بعينى طفلا عاقا وهو يضع عصا على ظهر أمه الطيبة ؛ وعندما سألتها لماذا تقبل المعاناة من مثل هذا العمل ، أجابتنى وهى تتنهد قائله : "طفلى كافر" بمعنى أن ذلك الولد كانت له طبيعة مثل طبيعه الكفار : هذا الصبى لم يكن من دم بدوى نقى ، إذ إن والده كان أبو Abu سنون المغربى . سألنى البعض عما إذا كان أطفالنا شرسين ، بعد أن سمعوا منى عن شريعة (سيدنا) موسى الصارمة القاسية ، سألونى وهم يتعجبون قائلين : "كثيرين بيننا أولئك الأبناء الذين من طينة ذلك الصبى ، الذى سوف يبادر إلى ضرب والده عندما يكبر ويشتد عوده ." ومعروف أن العرب يغمغمون ويثرثرون ، ومن الصعوبة تصديقهم فيما يقولونه هنا أيضا . معروف أيضا أن غير المتحضرين يعودون أبناءهم على تحمل المشاق والمصاعب ؛ ولكن أبناء البدو يكبرون دون أن يتعلموا من الآباء . هؤلاء الأبناء لا يتعلمون إلا مما يسمعونه من أقوال الناس المأثورة ، فى خيامهم المصنوعة من الصوف

الخشن ، حيث لا يوجد أى رقيب عليهم سوى الرأى العام . هناك الكثير من البدو الورعين ، فى تلك الحياة الصحراوية ، هؤلاء البدو الورعون يمكن أن يوبخوا ويؤنبوا الأبناء الذين يكونون من هذا القبيل ، ولكن الأعراب لا يمنعون الطفل من الكذب مطلقا ، بالرغم من أن أهل الجزيرة العربية يعلمون أن "الكذب شين" كذب هؤلاء الأطفال عبارة عن خدعة ، وهو الوسيلة الوحيدة التى يلجأ إليها الطفل عند الدفاع عن نفسه ليضلل بها العدو . وهكذا نجد أن الطبيعة نفسها مليئة بالخداع ، كما أن هذا الفم الذى يلوك الكذب يتشدق بدين الجزيرة العربية .

الفصل التاسع

الحياة فى القرية الجائلة

بحيرات الرمال . أشكال رائعة لتبديد الصخور الرملية . طبوغرافيا البدو الرحل . البدو لا يكلون أو يملون . البدو مجبرون على اللصوصية . الحياه فى القرية المصنوعة من القماش الصوفى . البدو يصحون مع طلوع الشمس . فنجال القهوة . صحبة القهوة . المقعد العالى أو الداخلى بالقرب من وجار القهوة هو الأكثر تفضيلا وتكريما . مترفو الصحراء . جاليونس . البدو يدمنون القهوة والتبغ . أقدم أشجار البن فى العالم . رأى الوهابيين فى التبغ . المجلس . العدالة فى الصحراء . نوَّام النهار . صلاة البدو . مطلق . الشيخ العظيم . الشيوخ نبلاء . العجيد . خوفهم من التعثر فى الثعابين أثناء الليل . النصرانى بين رجال القبائل . التحصين . أبو فارس . رده عليهم فى حائل . أبو فارس الثانى . شهامة الصحراء . حظه الطيب بينهم . التلقين . فتح صندوق الطبابة . يستعملون الأشياء غير النظيفة فى الطب . الحكيم فى بلاد العرب . أمراضهم . الحكيم هو الله . عقل البدوِى فى عينيه . خبثهم أو لؤمهم . الأطباء يتعين حصولهم على الأجر بعد التغيير الذى يطرأ على المريض . الحجاب . تميمة متعب . تعويذة ضد الانقياد . الجان الأرضى . إخراج الأرواح الشريرة بالأدعية . العسر واليسر . نار المساء . فرس الشيخ . وضع الانحناء عند هؤلاء الآسيويين . جلوس الأرض وجلوس الكراسى . الفرس متاع مثير للاتهام . الجمل الابن غير الشقيق

للفرس . المريسى . عشاء الحليب عند البدو الرحل . الشرقية ليست من العرب . القصّادون . خيال البدو الرحل واسع ودينى . بعض دورانهم ولطف كلامهم الدينى . كلام البدو . لغة القبيلة . حقد البدو . الساميون لا يمكن أن يجدفوا على الأشياء المقدسة . خطأ الرعاة الجسيم فى الطبيعة السامية . المَسَبّة أو إنزال اللعنات . إيمانهم . شهامتهم لا تصل إلى حد الموت . زيد يعرض تبرئة ساحته بحلف اليمين . أشكال دجل الحماية والعفو . "لحيته" تقال تكريما للرجل . القسم "بحياة ..." استئذان العرب فى الانصراف أمر غير لطيف أو مقبول .

***

نظرا لأن الإبل كانت "جزين" (صائمة) فى تلك الأثناء فقد رحنا نتجول دون أدنى اهتمام بالأماكن التى تسقى منها تلك الإبل ؛ كما كان الناس يشربون من تلك المياه القليلة التى تتوفر فى الصُّفَّة(*) أو إن شئت فقل : فى الصخور الأرضية . توجد فى تربة ذلك الجبل الصحراوى بكامله أماكن صخرية شبيهة بالحفر ، غطتها الرمال التى انجاحت عليها فى قديم الأزمان بفعل الريح . فى الحفر التى من هذا القبيل ، أو إن شئت فقل : فى تلك البرك الرملية ، التى تتخزن فيها مياه الأمطار لمدة طويلة ، يكون الماء فى ذلك الرمل الرطب ، غليظ القوام وغير طيب الرائحة ، كما تنتشر فيه ألياف النباتات المتعفنة ، وطعم النشادر الناتج عن بول ماشية البدو الرُّحَّل ، التى سبق لها السقيا من تلك الأماكن فى بداية الأمر . والأعراب (الذين يفضلون ذلك الماء الصحراوى الكثيف على الماء النقى) يصلحون قهوتهم كل يوم ، من ذلك الماء ، الذى يتغير مذاقه السيئ بعد الغلى . وأسوأ ما فى الأمر ، هو أن ذلك الماء يميل لونه إلى الاسوداد الذى يجرى جلبه من تلك الحفر التى هجرها الناس فترة طويلة ، إلى أن عثروا عليها مرة أخرى ؛ وعقب شربى من ذلك الماء أحسست بالعطش على الفور ، وفى

(*) الصفّة : بتشديد " الصاد " وضمها ، وتشديد " الفاء " وفتحها ، هى المكان المظلل الذى يأوى إليه الناس (المترجم)

أحيان كثيرة كنت أمضى الليل بطوله أرقا وبلا نوم . هذه الصحراء الجرداء المكونة من الصخر الرملى فيها الكثير من القمم والذُّرا (واحدة 'ذروة') ، والمسلات الإبرية ، وجبال المعارك ، غريبة الشكل ، وكلها عبارة عن علامات أرضية جيدة . سألت زيداً : 'عما إذا كان يعرف كل هذه الأشياء ؟' وأجابنى قائلا : "منذ طفولتى ، وأنا أعرف معرفة جيده كل حجر من الأحجار التى تكون على طرق مسيراتنا وترحالنا ،" وهذا ، لعلمك ، على امتداد ثلاثة أو أربعة آلاف ميل مربع (انظر الصورة رقم ٤٣) . (وكلمة 'جبل' عند البدو فى ديار استقرارهم) تعنى بشكل عام 'الظُّلَّة'(*) Thulla (وتصغير هذه الكلمة هو 'ظُلَيَّه' Thulleya،) عند البدو الرُّحَّل ؛ – ونحن بدورنا نقول لتلك الظلة 'ساحل' Coast (والبدو الرُّحل يطلقون على القمم المرتفعة ، أو التلال المرتفعه ، أو التلال أو الجبال الصغيرة الناتجة عن فورات البراكين ، التى يستعملونها علامات أرضية ، اسم 'الطويل' Towîl؛ كما يطلقون كلمه 'خشم' (أى 'الأنف') على أى حد من حدود الأراضى المحروثة . (وكلمة 'خشم' فى الجزيرة العربية تدل على 'أنف الإنسان' .) كما يطلقون اسم 'هُضب'(**) huthb على بعض السواحل الجبلية التى تشبه التلال . وكلمة 'بطين'(***) bottîn على لسان بدو الموءاهيب تدل على المرتفعات العشوائية التى تشبه التلال . كما يطلق البدو الرُّحل كلمه 'خلاء'(****) على الصحراء الجرداء . وهم يطلقون عليها أيضا كلمة 'بلد' Béled (*****)وهذا هو حال صحراء الجزيرة العربية .

ولكن هيا بنا نتناول الآن أولئك السكان البدو الرحل ، هم والحياة التى يحيونها . (وهم يقولون) : البدو ما يتعبون ، أى أنهم لا يظهر عليهم التعب البدنى ؛ ولكن روحهم المعنوية تضعف نتيجة خوفهم المستمر من أعدائهم ، كما تضعف أجسادهم

(*) ظلة : بضم الظاء وتشديد اللام وفتحها ، هى " ما أظل من شجر أو غيره " (المترجم)

(**) هضب ويصح فيه أيضا " هضاب " وواحدة هضبة الجبل المنبسط الممتد على الأرض (المترجم)

(***) بطين : بضم الباء وكسر الطاء ، هو منزل (بفتح الميم وتسكين النون وفتح الزاى) والعرب (البدو) يقولون منزل ، للمكان الذى ينتقلون إليه من مكان آخر (المترجم)

(****) خلاء فى المعجم الصغير معناها فارغ مما فيه (المترجم)

(*****) يصح فيه أيضا " البلدة " وهو المكان المحدود الذى يستوطنه جماعات ، ويسمى المكان الواسع من الأرض بلدا (المترجم)

أيضا بفعل العطش المستمر والجوع المستمر أيضا . وحياوات الفقر والعوز عند الأعراب يندر أن تصل حتى إلى المستوى دون المتوسط ؛ وهم مرغمون على أن يكونوا لصوصا . وسكان الواحات في الجزيرة العربية يقولون من باب ضرب الأمثال : "حياة الصحراء أفضل من أية حياة أخرى ، لولا وجود البدو فيها" ، وسكان الواحات يظنون أن أولئك البدو المساكين مليئون بالجور والإثم ؛ وهم يقولون أيضا إن البدوى 'ملعون الوالدين Melaun el-Weyladeyn' ، بمعنى أن البدو ملعونون من الجانبين : من جانب الأب ومن جانب الأم أيضا . التجوال ضمن قرية جائلة أمر يشرح الصدر وييسر الخاطر ، وبخاصة خلال هذه الأرض النقية والهواء النظيف ، وبرفقة البشر ، الذين يجتمعون كل يوم حول وجار القهوة البهيج في وقت الفراغ ، ووسط الآلاف من الآمال المرتقبة والتحركات الجديدة . هانحن ، في المكان الذى نزلنا فيه حاليا . من فوق ظهور دوابنا ، وسوف ننال فيه قسطا من الراحة ، وفي الغد سيكون مقامنا في مكان غير هذا المكان . ويوم الصحراء العائد من الشرق يحذر البدوى ويوقظه ، فهو يصحو للصلاة ؛ وإذا ما حدث غير ذلك ، فهو يكون عن غير قصد ؛ والبدوى يتمتم رافعا وجهه إلى السماء مخضعاً طبيعته البشرية المخيفة لله سبحانه وتعالى وهو يقول : "ياالله ! أسعدنا في يومنا هذا ؛ ولا تُرنا شراً فيه !" والبدو ليس لديهم ما يكفيهم من الطعام اليومى الذى يحتاجونه ، ولو قدر لرأس من الماشية أن تغيب أو تضيع ! – فكيف لأسرته أن تعيش بعد ذلك ؟ ويبدأ الراعى استعداده ، وتبدأ حيواناته تبتعد عن مرمى بصره .

المكان هنا خلو من شقشقة الطيور الحلوة التى ترحب بقدوم ضوء النهار وليس هناك من صوت سوى صوت الإنسان في هذه الأرض الجرداء القاحلة . والبدو ، الذين ينامون ملفوفين في عباءاتهم (بشوتهم) فوق الأرض الرملية الأم ، يستيقظون من نومهم قبل منتصف الليل ، وهاهم ، قد استيقظوا وبدءوا يمشون هنا وهناك . ترى في كل خيمة من خيام الشيوخ نارا شبها الشيخ من جديد في وجار القهوة ، وتراه يجلس ومن أمامه أوانى القهوة ؛ وتراه وهو يختطف بين أصابعه إحدى الجمار ، ليضعها في غليون التبغ . وهاهى حبات البن التى تلقاها من ربة البيت ، وقد حمصها وطحنها ؛ وبينما تغلى حبات البن المجروش ، يقوم الشيخ بتجهيز الفناجيل Fenjeyl (واحدها

فنجال Fenjeyn)، التى سبق أن قلنا إنها تصنع فى الغرب خصيصا للعرب البسطاء السُّذَّج . والبدوى عندما يفك ، بطريقة رشيقة ، القوطية gutia، أو إن شئت فقل : صندوق الفناجيل ، ترى أن ذلك البدوى ليس لديه سوى ثلاثة أو أربعة فناجيل ، ملفوفة فى ممسحة مواعين متسخة ، ويروح ينظف الفناجيل مستخدما لذلك هذه المسحة نفسها ، كما لو كان ما يفعله سيزيد من نظافة تلك الفناجيل . والعرب يطحنون حبات البن وهم يحدثون ضجيجا هائلا - ونظرا (لأن ذلك الطحن يكون له إيقاع معين - إذ يجرى الطحن فى أهوان مصنوعة من النحاس الأصفر أو من الخشب ، المزينة بالمسامير ، والتى يقوم بصناعتها حداد بدوى أو نجار بدوى أيضا . وعندما يغلى الماء فى دلَّة القهوة الصغيرة ، يلقى الشيخ (البدوى) فيها البن المطحون ، ثم يسحب الدلة إلى الوراء قليلا لتهدأ مدة لحظة . ومن صرة فى غترته (غطاء رأسه) يأخذ عوداً من أعواد القرنفل وشيئا من الحبَّهان (الهيل) أو بعض التوابل الأخرى ، التى يقول لها 'بهار' bahar، ثم يطحن هذا مع ذاك ويلقى ذلك المسحوق فى دلة القهوة . وعقب ذلك مباشرة ، يقوم البدوى بصب بضع قطرات ساخنة ليتذوق طعم القهوة ؛ وإذا ما أعجبه الطعم أو المذاق ، فإنه يحمل كل الفناجيل فى يده كما لو كانت عشا ، وهى تحدث صوتا عند وضعها فوق بعضها ، وهنا يصبح البدوى مستعداً لصب القهوة للحاضرين ، وهو يبدأ توزيع القهوة من جهة اليمين ؛ وهو يبدأ ، بالشيوخ أو الشخصيات الرئيسة إن وجدت . وفنجال القهوة لا يحتوى إلا على أربع رشفات : ومسألة ملئ الفنجان عن آخره ، كما هو الحال فى مدن الشمال ، يعد إهانة وسُبَّة بين البدو ، ويحمل معنى لاذعا "إشرب هذا وأرحل عنا". ونحن نرى فى معظم الأحيان مبالغة فى التأدب ، وبخاصة فى التجمعات الكبيرة ، وبخاصة فيما يتعلق بمن ينبغى أن يتناول فنجان القهوة فى بداية الأمر . هناك بعض الرجال الذين يتلقون الفنجان فى الدور المخصص لهم ، ولكنهم لا يبدءون الشرب ، - وإنما يقدم الفنجان لشخص يجلس إلى جواره أو إلى من هو أدنى منه ، على سبيل التكريم : ولكن ذلك الشخص يمتنع عن تناول الفنجال قائلا : 'أبداً' ebbeden، بمعنى "لا ، لن يحدث ذلك مطلقا ، وأنا أقسم بالله على ذلك ! ولابد أن تشرب أنت !" وبعد ذلك التصريح ، يشرب ذلك الرجل المتواضع فنجاله فى ثلاث رشفات يسلم بعدها فنجاله الفارغ . أما إذا تناول المزيد من القهوة نتيجة الإصرار

على ذلك ، فذلك يعنى أن مثل هذا الشخص على استعداد لفتح باب المصالحة مع شخص ليس صديقه . هذا الجار ، عندما يرى أن من يشربون القهوة يراقبونه وينظرون إليه ، يقبل فنجان القهوة شاكرا وممتناً ، ويظهر للجميع عدم رضاه عن ذلك : ولكن الشخص الصلب شديد المراس يفند ويدحض فى بعض الأحيان ذلك العرض اللطيف الذى يتقدم به الآخرون .

قد يكون بعض الجالسين قد اتخذ لنفسه مكانا أدنى من المكان اللائق به ، وهذا أمر يشعر البدو إزاءه بالغيرة والحسد ؛ أمثال هؤلاء الناس ، قد يدخلون المقهى متأخرين ، فيفضلون الجلوس فى المكان غير المحدد لهم مفضلين ذلك على إزعاج الجماعة . والشيخ عندما يدخل متأخرا أثناء استمرار أمر أو عمل من الأعمال ، يجلس فى أغلب الأحيان ، على طرف الاجتماع ، وبذلك يكشف عن شخصيته الشعبية عن طريق ذلك العمل المتواضع . وأبعد الأماكن داخل خيام البدو هو أفضلها وأعلاها شأنا ، ومثل هذه الأماكن يخصصها الشيوخ للغرباء . أما مسألة الجلوس خارج الخيمة وأمامها فذلك من قبيل الجلوس الخاص بعامة الناس . والقَبَلى الذى يصل إلى دار من ديار البدو ، يقدم نفسه عند هذه المنطقة أو قبلها بمسافة قصيرة ، وهذا هو المكان المسموح فيه بظهور مثل هذا القبلى ، ومراعاة البدوى أو الشخص القبلى لمثل هذه الأمور هو الذى يرفع من شأنه بين أفراد القبيلة . وهذا على وجه التقريب هو ما يدل على سريرة البدوى ويخدمها ، وبخاصة تلك السريرة التى يكونها الرجال عنه . والشخص ضعيف الحال الذى يأتى من مؤخرة الخيمة ، أو بالأحرى من خلفها ، يقف ملفوفا فى عباءته المهلهلة ، وقفة تنم عن الحفاوة ، إلى أن ينتبه الجالسون أمامه إلى وجوده : وعندها يقفون ، على غير رغبة منهم ، ويبدءون فى فسح المجلس حتى يتسنى لذلك القادم الجديد الجلوس ضمن الدائرة . أما فى حالة وصول شيخ من الشيوخ ، أو إن شئت فقل : مضيف ممن يقدمون القهوة ، أو واحداً ممن يملكون قلة قليلة من الماشية ، فإن كل الحاضرين يهبون واقفين يحيونه ويرحبون به ويتملقونه ويداهنونه قائلين "تقعد Taad هنيٍّ 'Hennéyi' بمعنى "تعال وأجلس هنا فى هذا المكان ."

يتفوق شيوخ الفقارة ، على الجميع فيما يتعلق بآداب شرب القهوة ، بل إن زيداً نفسه كان أكبر من أى كبير فيما يتعلق بهذا الأمر : إذ كان الرجل يتيه إعجابا بذاته ،

وتوددا إلى الأشخاص المتواضعين . هذا الزيد تراه بمنتهى الرقة ينهض واقفا من مكانه ليفسح لرجل آخر مكانا يجلسه فيه ! وبهذه الطريقة استطاع زيد أن يثبت أمام الجميع أنه رجل كريم بحق وعظيم أيضا ، فى حين أنه كان أبخل البخلاء فى واقع الأمر . تدور فناجيل القهوة على الشاربين دورتين ، ويشرب الناس من تلك الفناجيل إثر بعضهم البعض دون تأفف ؛ ويجوز ملئ الفنجال أكثر من مرة لأى شيخ من شيوخ القهوة الكبار ويصل عدد المرات إلى عشر مرات تقريبا إذا اقتضى الأمر . وبعد الانتهاء من تقديم القهوة وشربها ، يجرى صب البقايا من الدلة الصغيرة إلى الدلة الكبيرة المخصصة التى يجرى الاحتفاظ فيها بالماء الساخن ؛ ومن هذه الغُسَالة يصنع البدو مشروبهم التالى ، ظنا منهم أنهم يوفرون ويدخرون من البن بهذه الطريقة .

هذا فيما يتعلق بتجمعات شرب القهوة على المستوى الأكبر ، ولكننا عندما نتناول شرب القهوة على المستوى الأصغر ، فى نطاق الصحبة اليومية ، فى مَنْزَل من منازل أحد الشيوخ ، الذى ينجذب إليه الناس على إثر سماع صوت الصِّربوت Surbut، أو إن شئت فقل : على إثر سماع صوت ضربات طحن البن فى الهاون نقول : إن محيا ذلك البدوى المكسال يتهلل فرحا ، تجمع عدد كبير من الناس على هذا النحو ، يعنى وجود الكثير من غلايين التبغ الفارغة ، التى ليس لدى أصحابها ما يمكن أن يضعونه فى تلك الغلايين . وإذا ما اتضح أن أحد الحاضرين لديه القليل من تلك الورقة المرغوبة ، ويكون قد ربطه على شكل صرة ، فى طرف غترته (غطاء رأسه) ، وجب عليه اقتسام ذلك القليل مع كل الحاضرين ، - وإذا ما حجب مثل هذا الشخص ، ذلك القليل من التبغ ، عن الحاضرين ، من باب الدعابة والمرح ، قام الآخرون بأخذه منه ، حتى وإن أدى الأمر إلى استعمال القوة . وإذا لم يوجد مثل هذا الشخص بين الحاضرين تراهم وقد راحو يجرِّفون الحثالة القديمة المتبقية فى غلايينهم ، ويروحون أيضا يضعون الجمار من فوق تلك الحثالة ، التى يقومون بخلطها بالقليل من روث الإبل المجفف المطحون ، أو ببعض الأعشاب الغريبة : وبذلك يتمكنون ، فى أضعف الأحوال ، من تذوق نكهة التبغ ، (التى لها حلاوة ومذاق خاص عندهم) ، وبخاصة عندما يحرمون منها فترة من الوقت ، فقد رأيتهم بعينى وهم يقصرون سيقان غلايينهم بغية الحصول

على رطوبة التبغ المتبقية فى تلك الأجزاء ؛ ثم يضعون جمرة على ذلك الجزء المشبع برطوبة التبغ ، ويروحون "يشربون"(*) تلك الرائحة بسعادة بالغة وارتياح شديد .

أفضل رءوس الغلايين هى تلك التى ينحتها البدو بأيديهم من الصخور ، وأفضل أنواع الصخور لعمل تلك الرءوس توجد على بعد مسير يومين من قرية الحجر ، وكذلك الأحجار التى يجرى جلبها من قرية تيماء . يضاف إلى ذلك ، أن البدو يستعملون أيضا ذلك الذى يطلقون عليه اسم السِّبيل Sebîl، وهو عبارة عن إناء من الفخار له أنبوب منحن ، ويباع فى سوق الحج فى سوريا . والبدو يصنعون سيقان الغلايين من أغصان بعض أشجار التين البرى ، التى تنمو على مياه الصحراء ، أو قد يصنعونها من أغصان أشجار الرُّمَّان فى الواحات ؛ وهم يجوِّفون تلك السيقان باستعمال ساق ساخنة من الحديد يحمونها طوال الليل فى نار الخفارة . وإذا ما تركنا جانبا مهدئات المخ والروح هى وتحمل الجوع الشديد ، نجد أن البدو الرُّحل يقصرون حياتهم على استعمال القهوة والتبغ ، والبدو فيما يتعلق بالقهوة والتبغ يراعون الأعراف الخاصة بهذين الشيئين ويلتزمون بها ، تلك الأعراف والعادات التى تنتقل بينهم من جيل إلى جيل منذ قديم الأزل . والبدو يتمسكون بتلك الملذات البدوية إلى حد أنهم يصعب عليهم أن يتذكروا مجىء الصبح إلا بعد شرب القهوة ، وفوقها غليون من التبغ . وتقاليد البدو وموروثهم خلو من عادة شرب النبيذ التى درج عليها أسلافهم السابقون عبدة الأوثان ؛ يضاف إلى ذلك ، أننى اكتشفت أن مدفعيتهم السابقة التى كانت تتمثل فى الأقواس والسهام ، منذ حوالى المائتى عام ، أصبح لا وجود لها عندهم أو حتى فى أذهانهم . وهكذا فنحن نجد العرق العربى المتمثل فى سكان الجزيرة العربية هو نفس العرق السابق وبلا تغيير ، وكل ما فى الأمر أن ذلك العرق أقل عمرا من تلك الصحراء السرمدية الخالدة ؛ ولكن هناك بعض المخترعات (البنادق ، التبغ ، القهوة) تفشت فى العالم ، وراحت تروق للمزاج الوطنى ، أخذت تتفشى بسرعة فيما بينهم مثل دينهم .

(*) المقصود بالشرب هنا هو الاستنشاق ، والمؤلف يصر على كلمة " شرب " هنا بحكم المصطلح الدارج الشائع بين البدو " شرب " الدخان (المترجم)

كما بدأنا نشاهد أيضا أن تلك الجزيرة النائية الشاسعة بدأت تطرأ عليها وتؤثر فيها التغييرات العالمية الكبيرة ! والتاريخ يكشف لنا عن طيش غريب بين القبائل المائة التى تسكن تلك الجزيرة ؛ إذ إن بعض تلك القبائل تخاف على نفسها ، والبعض الآخر يتطلع إلى الغزو والغنائم ، الأمر الذى يجعلها ترتد (إلى الجانب الأقوى ، دوما) وخلال جيل واحد فقط ، عن أصنامها القديمة لتدخل فى دين محمد ﷺ الجديد .

نحن نعلم أن البن دخل إلى اليمن أول مرة قادما إليها من "الحبشة" Abyssinia (وهى ما يطلق عليها فى التاريخ اسم أرض الجالا Galla أو الحبش Hábash) رجال الجالا هؤلاء الذين جرى بيعهم عبيدا فى الجزيرة العربية حكوا لى أن فى بلادهم "سيقان لأشجار البن البرى ، يصل حجم الساق الواحد منها إلى حجم ساق شجرة البلُّوط ؛" والمرجح هنا أن تلك السيقان الدنيوية كانت موجوده على قيد الحياة قبل شرب القهوة فى آسيا ، والتى لابد أن تكون قد انتشرت من مكة (مع كل رحلة عائدة من الحج) إلى بقيه العالم الإسلامى كله . وفى بلاد الجالا ، يجرى جمع قرون البن وتجميعها تحت الأشجار البرية ثم يجرى بعد ذلك تحميرها أو إن شئت قل : شويها فى الزُّبد : والقهوة لا يشربها من بين الجالا إلا كبارهم وأكابرهم ؛ كما قالوا لى ، إن الشبان الصغار "يخجلون ، بحكم صغر سنهم ، من تعاطى أو استعمال ذلك المشروب الدافئ أسود اللون الذى يخلط بالتوابل . أما التبغ (الدخان) الذى دخل القسطنطينية فى زمن جيمس الأول(*) ، فى سفن تجار الأقمشة من الإنجليز ، فهو يزرع حاليا فى كل أنحاء الواحات فى الجزيرة العربية (فيما عدا منطقة نجد التى جرى إصلاحها(**)) . والبدو يعشقون "شرب" دخان ورقة قوية من أوراق التبغ إلى أن يبدءوا فى الإحساس بأن الدنيا تدور بهم ، ومع ذلك فهم مازالوا يقولون ، طبقا للمذهب الوهابى(***) ، إن

(*) جيمس الأول : أعلن ملكا على إنجلترا (١٦٠٣-١٦٢٥) . (المراجع)

(**) يقصد المؤلف بذلك حركة الإصلاح الدينى التى قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى نجد حول منتصف القرن الثامن عشر الميلادى وكان تحريم تدخين التبغ من بين تعاليمها . (المراجع)

(***) من الخطأ قول المؤلف المذهب الوهابى ، إذا إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يكن مؤسسا لمذهب ديني خاص به إذ كان هو نفسه من أتباع مذهب ابن حنبل والأصح القول التعاليم الدينية السلفية التى نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب . (المراجع)

"التبغ هو بول إبليس" . ومع ذلك يتسامح فى ذلك الاستعمال ، أو التعاطى الشرير إلى حد أن أى إنسان يقوم بحرق تلك الورقة "النفاذة الرائحة" داخل بيتة) فى كل أنحاء نجد ، اللهم باستثناء تلك الولاية الوهابية(*) (الصغيرة حاليا) وباستثناء أيضا واحدة من القبائل المتشددة هى قبيله القحطان(**) . ولقد عرفت الكثيرين من رفاق الغليون (المدخنين) ، الذين تركوا فى غيهم مع معشوقهم التبغ ، رأيتهم وهم يبعدون أنفسهم عن ذلك التعاطى غير الدينى وغير المرغوب ، وذلك بناء على قرار صريح منهم بالتوقف عن التدخين والابتعاد عنه ، وبالفعل لم يعودوا إليه مرة ثانية . هؤلاء الذين أقلعوا عن شرب الدخان كانوا من المتشددين . وأنا مازلت أذكر ذلك القروى الذى توقف عن شرب الدخان لأن ساق الغليون شوه منظر شفتيه من ناحية ، وأنه سوف يتسبب له فى الشيخوخه المبكرة ، فضلا عن تغيير رائحه فمه . كانت لذلك القروى زوجة جميلة أو زوجتان فى منزله ، فضلاً عن كونه أيضا عاشقا على نطاق واسع ، وباحثا بلا قلب ، عن الزيجات الجديدة ، حتى فى تلك الصحراء الجرداء . هناك أيضا بعض البدو الذين ينفرون من التبغ ويكرهونه باعتباره من المخدرات ، وهناك بعض آخر من هؤلاء البدو لا يبالى بكل هذه الأعذار ؛ شاهدت أيضا بعضًا من البدو "ضربهم" آباؤهم وأبعدوهم عن الدخان ، – هؤلاء الآباء المساكين ، الذين لا يودون لأبنائهم ، الذين يتحتم عليهم العمل فى الشمس لأنهم من الرعاة ، أن يكبروا ويشبوا ، مثل الذباب الضال ، فى المخيم ، ويتسكعون حول خيام القهوة ، – ومازالوا مستمرين فى عدم تعاطى أو شرب الدخان . هناك أيضا كثير من البدو الذين لا يجدون للقهوة طعمًا أو مذاقا ، أو حتى يشعرون بالزهد فيها ، وبالتالى فهم لا يتعاطون أى شىء ، من هنا فهم لا يشربون القهوة مخافة أن تؤثر على شجاعة الرجولة فيهم ، يضاف إلى ذلك أن السواد الأعظم من رجال المجالس يسيئون استعمال تلك المخدرات والعقاقير ، التى تسىء إلى أحوال أجسامهم الضعيفة ؛ من هنا فإن الكثيرين من البدو يرابطون فى خيامهم ، ويستسلمون للنوم بصورة مستمرة .

(*) الولاية الوهابية : الأصح أن يقال الدولة السعودية . (المراجع)

(**) قحطان : من القبائل القديمة فى شبه الجزيرة العربية وتنتمى إلى عرب الجنوب . (المراجع)

شروق الشمس ، هو الموعد الذى يتجه البدو عنده إلى خيمة القهوة فى المَنْزل ، أو إن شئت فقل المجلس ، الذى هو بمثابة البرلمان عند رجال القبيلة . هناك أيضا مقهى عام لشرب القهوة فى خيمة الشيخ مطلق ، أو فى بيت الشَعر الخاص بواحد آخر من كبار الشيوخ ؛ وقد تجمع فى ذلك المقهى فى هذا الصباح كبير الشيوخ ومعه رفاق القهوة : وسبب ذلك أنه حيثما يوجد مليكهم ، يتجمع أفراد القبيلة ، وترى هؤلاء الساعين إلى المجلس ، وهم يتجولون خلال المخيم الواسع ، وهم يسألون كل من يصادفونه ، "المجلس ، أين ؟ وأنت يا ولِيد(*) ! ألا تعرف مكان مجلس الشيوخ ؟" والحاضرون فى ذلك المجلس يناقشون فيما بينهم الأمور العامة ؛ وهم يناقشون سياستهم فيا يتعلق بابن الرشيد ، وفيما يتعلق بالإمبراطورية العثمانية (الدولة) ، وكذلك القبائل المحيطة بهم . وفى هذا المجلس ، أو إن شئت فقل : فى هذا البرلمان يجرى الإبلاغ عن كل ما يتناهى إلى الأسماع عن تحركات العدو ، كما يجرى الإبلاغ أيضا عن مؤشرات الغزو : كما يجرى من حين لآخر نقل الأخبار المتعلقة بمياههم أو مياه الأجانب عنهم ؛ كما يقوم أرباب الأسر بالإبلاغ عن المراعى التى عثر عليها رعاتهم بالأمس فى مختلف الأماكن . فى هذا المجلس يتكلم الجميع ، بل إنهم يستمعون إلى ما يقوله أقل الناس شأنا بينهم ؛ فهو واحد من أفراد القبيلة أولا وأخيرا . والمجلس هو الذى يحدد الرحلات التالية للقبيلة ، والتى يجرى التشاور بشأنها فيما بينهم ، وهذا هو ما يطلقون عليه اسم "الشور" es-shor؛ وما يتوصلون إليه فى ذلك "الشُّور" يجرى إبلاغه للحلفاء ، وهو أمر مهم أيضا لكل واحد منهم ، وبخاصة أولئك الذين يكونون على وشك الترحال .

كان ذلك هو مجلس الكبار والمحكمة الشعبية ؛ التى يحمل أفراد القبيلة إليها قضاياهم دائما وأبداً ، ويجرى البت فى تلك القضايا عن طريق ممثلى الطرفين بعد كثير من الجدل والنقاش والأخذ والعطاء ؛ ويحق لكل واحد أن يدلى برأيه ويقول كلمته . وفى ذلك المجلس يقوم الشيخ الأكبر بالتشاور مع بقية الشيوخ الآخرين ، وبعض

(*) هذه الكلمة تصغير " ولد " (المترجم)

الأعيان وكثير من الشخصيات المرموقة ؛ ويجرى إصدار الحكم علانية وبدون تحيز ويكون ذلك بلا رشوة أو تدليس . وهذا الحكم يكون نهائيا . وتجرى معاقبة الطرف الخاسر فى القضية بدفع عدد من رءوس الماشية الصغيرة أو الإبل ، التى يتعين عليه الوفاء بها وإلا حكم عليه بالنفى من القبيلة ، وذلك قبل أن يوفد الشيخ الكبير المنفذين لأخذ تلك الرءوس فى حدود قيمة الحكم الصادر ضده . والبدو الفقراء يماطلون تماما فى دفع الحق ، ويرون دائما أنهم عاجزون عن الوفاء بمثل هذا الدين فى الوقت الراهن : من هنا فنحن نرى ، فى كل قبيلة من القبائل ، بعض الأسر التى من قبائل أخرى .

تبلغ أحكام البدو من العدالة مبلغا يجعل البلدان ذات الحكومات ، التى تجاورهم ، تقر بأن عرب البادية هم أعدل أنواع البشر . ويندر أن يخطئ القاضى أو هؤلاء الكبار ، فى تلك المجالس الصغيرة أو المجتمعات الصغيرة التى تربط القرابة بين أفرادها ، والتى تكون حياة كل فرد من أفراد القبيلة معروفة منذ طفولته ، كما يعرف الجميع كل تفاصيل حياته . يضاف إلى ذلك ، أن كل قضايا البدو تكون عاجلة ، شأنها شأن أعمال العرب الأخرى كلها . ويندر ألا يناقش أى أمر أو يبت فيه فى ذلك المجلس . وعندما يكون الاتهام من النوع الخطير ، ويثبت للمجلس غياب بعض الأشخاص الذين يتعين عليهم الإدلاء بشهاداتهم ، يؤجل المجلس نظر القضية إلى جلسة تالية . هذا العدل البدوى بيِّن وواضح ، فى حين نجد أن القانون العبرى ما يزال فجا فى تلك البلدان شبه المستقرة . الصحراء لا تعرف التضحية بالبشر ، ولا تقر قتل الآخر ، حتى إذا لم يسحب أقرب أقارب المجنى عليه موافقتهم ، التى قد لا يؤخذ بها ، وهنا يتعين على الجانى دفع التعويض (الذى يقدر برءوس من الماشية) . والمعروف أن القانون العبرى يزيل آلام المجتمع ، ويضمن أن يكون الانتقام ثقيلا على نفوس المذنبين وعلى عقولهم أيضا . والبدوى لا يكون أمامه ما يخافه أو يخشاه أكثر من مجرد فرض غرامة عليه ، وقد يستطيع البدوى الهرب من كل ذلك إذا ما ارتضى ضميره ذلك ، بأن ينسلخ عن أهله وعشيرته ليدخل فى منفى قد يلازمه طوال حياته .

يبدأ أعضاء المجلس فى الرحيل والتفرق ، قبل دخول وقت الظهيرة ، وذلك فى الأيام التى يكون المخيم فيها ما يزال منصوبا . فى ذلك التوقيت يبدأ البدوى الحافى رحلة العودة وحيدا ماشيا فوق الرمال الساخنة ، لينام بعد ذلك فى خيمته إلى أن يحين

وقت صلاة العصر . والمعروف أن البدو من المتيمين بالنوم أثناء النهار ؛ بعض هؤلاء البدو قد يتقلبون على جنوبهم ليواصلوا نومهم ، ظنا منهم أن الليل قد حل عليهم ، علما بأن الساعة تكون العاشرة صباحا . ولكن الرجل إذا ما غالبه النوم ، أثناء جلوسه فى المجلس ، فهذا شيء غير لائق وغير مقبول أيضا ؛ وهنا يتعين على مثل هذا الإنسان أن ينسل جانبا ويتمدد فى أى جانب من جوانب الخيمة . وإذا ما حدث أمر مفاجئ بين الجالسين فى دائرة المجلس ، قام الأعضاء الآخرون بهز ذلك النائم وهم يقولون : "أصح ، أيها الرجل ! هل جئت هنا لتنام ؟" ومع ذلك ، فقد كنت فى كثير من الأحيان ، أثناء خطابهم غير المفهوم ، يغالبنى النوم فجأة أثناء الجلوس لشرب القهوة معهم ، نظرا لوهنى من ناحية والصيام المفروض على نتيجة عدم توافر الطعام ؛ كانوا جميعا يلمسون هذه الطبيعة الضعيفة فى غريب يتمتع بورع مدهش وإنسانية مدهشة أيضا ! والعرب كلهم يقدرون نوم الإنسان ويوقرونه ؛ وهم ينظرون إلى النائم وكأنه فى غيبوبة مع الله سبحانه وتعالى، بل إنه يكون فى هدنة من عناء اليقظة واهتماماتها : والبدو ينسحبون إلى بيوتهم فى هدوء ، ولا يمكن لأى إنسان أن يوقظ أحد منهم ، إلا عندما يستيقظ هو من تلقاء نفسه . والفترة الوحيدة التى لا ينام خلالها البدو ، هى ما بين العصر وغروب الشمس ، ظنا منهم أن هذه الفترة لا تصلح للنوم من الناحية الصحية . هذا النوم الطويل ، يجعل البدو يستيقظون طوال ساعات الليل البهيم ، الذى يعج بالإزعاج والاضطراب فى تلك الصحراء الجرداء ، والكلاب تنبح ، فى معظم الأحيان ، مطاردة للذئاب حتى يطلع ضوء النهار ، وتتوقف حركة الحباليص (لصوص الماشية) . بعض البدو قد يمضون ساعات الظهيرة وهم مستلقون فى ظل الصخرة القريبة ، ويتحدثون إلى بعضهم البعض ، أو قد يجلس البعض منهم فى الظل الهزيل الناتج عن شجرة من أشجار السنط ، وبعض ثالث قد يقضى تلك الفترة فى خيمة الشيخ الكبير . ومع دخول وقت صلاه العصر يوقظ البدوى نفسه ؛ ويمضى قدما وهو يغمغم ببعض الكلام الدينى ، استعدادا لأداء صلاة العصر : وهو يجثو على ركبتيه ، ويضرب الرمل بكفيه ، ويفركهما ببعضهما ، ثم يسحب يديه من على جبهته ، ليمسح جانبى وجهه ، نظرا لعدم وجود الماء . وينهض الرجل بعد ذلك واقفا ، لينظر من حوله مستطلعا أى

أثر من آثار الدخان ، الذى يكون إشارة على تصليح القهوة وتجمع صحبة من البدو . والشيخ الذى يود التنقل فى أنحاء المخيم الواسع ، يركب فرسه تحقيقا لهذه المهمة . وأكثر الناس فضولا وتطفلا على مضيفى قهوة العصر هو برجس **Burjess**، الذى هو شيخ ثرى شاب من بين شيوخ ولاد على المتذمرين ، ويعيش حاليا مع بدو الفقارة ؛ كانت خيمة برجس هى أوسع خيام المخيم كلها . وعندما كان المجلس يجتمع لمناقشة أى أمر من الأمور العامة ، أو بعد رحْلةٍ من الرَّحْلات ، كان يلتئم فيه عدد كبير من الناس ، نظرا لحضور عدد كبير من الرعاة ، إذ يكونون قد عادوا من أعمالهم فى ذلك الوقت .

فيما يتعلق بالشيخ مطلق ، شيخ القبيلة ، كان شخصية قوية ، وقوى البنية أيضا ، ومتوسط القامة ، وفى منتصف العمر وصاحب محيًّا يهودى جذاب ؛ كما كانت له لحية كثيفة سوداء تضفى عليه شرف الجزيرة العربية ، كما كان يظهر فى عينيه تصميم الرجال ، وله جبين يوحى بأنه واحد من الشيوخ المعتدلين ,وهو رجل حلو الكلام ، مثل سائر البدو ، عندما يتفننون فى القول إذا ما تعلق الأمر بمصالحهم . كانت سلوكيات الشيخ مطلق من النوع البسيط غير المتكلف ، فقد كان الرجل يتحرك منفرداً ولا يحمل فى يده مشعابا ولم يسبق له مطلقا أن حمل معه سيفا ؛ واستطاع الرجل عن طريق هذه السياسة المتحضرة أن يطغى على صلافة النبلاء وكبريائهم . وعندما كان المجلس يجتمع فى خيمته بأعداد كبيرة ، ترى هذا الشيخ الكبير ، والمضيف الكبير أيضا جالسا فى تواضع جم مع عامة الناس ، مثبتا نظراته على الأرض ؛ ولكن تلك النظرات كانت مفعمة بالحملقات الجانبية غير المستقرة والمضطربة ، نظرا ليقظة ذهنه ودقة ملاحظته . تظل سلطة ذلك الشيخ نائمة ، إلى أن تتهيأ الفرصة لاستعمالها ، فيظهر أنه قادر على حكم أولئك البدو ، الذين لا يعرفون النظام ، بكلمة واحدة منه . عند مجيء أول مرة للمجلس جلس إلى جوارى ابن وقح من أبناء الصحراء ، كان يعمل راعيا فى مَنْزَل زيد . سألت ذلك الولد وأنا أهمس فى أذنه : "أى هؤلاء الرجال يكون مطلقا ؟" أجابنى : "مطلق هو ذاك الذى يجلس هناك !" ثم أردف قائلا وهو يتحدث بصوت عال إلى الغريب : "الرجل الجالس هناك هو الباشا بالنسبة لنا ؛ والشيخ مطلق من حقه أن

يحكم الأعراب مثل باشا الحج تماما . وهو عندما ينادى قائلا : "الرَّحْلة !" فإننا جميعا نركب دوابنا ونمشى قدما ؛ وفى المكان الذى ينزل فيه عن راحلته ، ننزل نحن أيضا ونقوم بنصب خيامنا .- يا مطلق ! ألا أتكلم جيداً مع هذا النصرانى ؟ - وأنا أزيدك من الشِّعر بيتا ، يا خليل ، وهو إذا ما أراد أن يقطع أعناقنا جميعا ، فهو قادر على ذلك والله وبالله ." وهنا رفع مطلق عينيه نحونا مدة لحظة واحدة وعلى وجهه شبه ابتسامه ، ثم عاد إلى نفسه مرة ثانية . والمعروف أن شيخ القبيلة البدوية المترحلة لا يكون طاغية أو مستبداً ؛ وشيخ القبيلة العظيم يخدش شرفه وكبرياؤه إذا ما اعتدى بالضرب على واحد من أفراد قبيلته : والمعروف أن ضرب الرجال أمام الناس ، إنما هو من قبيل الأعمال الوحشية التى لا يرضاها أحد من الناس .

الشيوخ من أصل واحد ، أى أنهم ينحدرون عن جد مشترك ، وهو ما عليه اسم جد القبيلة أو أبيها ، وكرامة شيخ القبيلة الكبير هى نوع من الإرث . ومعروف أن الشيخ مطلق الحميدى el-Hameydy الحالى ، خلف والده الحميدى ، الذى سقط فى أثناء غزوة من الغزوات ، وكان شيخا لبدو الفجير Fejir، شأنه فى ذلك شأن كل آبائه وأجداده الذين سبقوه ، إلى أن يصل الأمر إلى عميد القبيلة نفسه ؛ هذه السلطة ، التى يرونها على إنها تنفيذ لأوامر العناية الإلهية ، لا يمكن أن يعترض عليها أى أحد من أفراد القبيلة . ولا يمكن لأى أحد من عامة أفراد القبيلة ، أو من أصل غريب ، حتى وإن كان يفوق كل أفراد القبيلة من حيث الثراء والمقدرة ، أن يصبح رئيسا لواحدة من العشائر البدوية المترحلة ، أو يندرج ضمن أقارب الشيوخ ، الذين يكونون ، حسبما يقول الناس ، سلالة نسبيه أصيلة وكريمة فى القبيلة . هؤلاء الشيوخ سرعان ما يتزوجون من بنات شيخ القبيلة ، ومن بين القبائل كلها ، هناك بين أفراد قبيلة الفجير ، على حد قول الناس ، تشابه أنثوى كبير فى الصوت وفى السلوكيات والتصرفات أيضا : عدد الشيوخ هنا كان يقدر بحوالى خمس عدد أفراد العشيرة . وشيخ القبيلة ، هو شيخ منصرها ، بشكل تلقائى ، إذ إنه هو الذى يقود عمليات الغزو العام ؛ وشيخ القبيلة يحصل على الربع من كل غنيمة من الغنائم . وشيخ القبيلة إذا لم يقم هو نفسه بقيادة عمليات الغزو العام ، فإنه يرسل بدلا منه ، ولداً من أبنائه ، أو قد يرسل شيخا

آخرا ، نائبه على سبيل المثال ، وقد يكون ذلك هو زيد نفسه ، ليتولى عملية القيادة هذه . سألت زيدا : "لكن ماذا ، لو ثبت أن ذلك الشخص الوريث لم يكن بالمستوى المطلوب ، أو الكفاءة اللازمة ؟" واتضح أن زيدا لم يسمع مطلقا فى حياته كلها ، عن شىء من هذا القبيل . وأجابنى الرجل قائلا : "سوف يُنحَّى جانبا ، على أن يتولى المشيخة الشخص الذى يليه فى الترتيب ."

عند غروب الشمس ، يبدأ المتسكعون شاربو القهوة فى العودة ثانية إلى خيامهم لأداء الصلاة ثم تناول العشاء . فى البداية عندما كان الأعراب يرونى وأنا أتجول أثناء نسيم المساء البارد ، كنت أسمعهم يقولون : "خليل ذاهب لأداء الصلاه طبقا لأصول دينه ؛" ولكنى بالتدريج ، ونظرا لأنى لم أخدع أو أضلل مضيفىَّ بأى شكل من الأشكال فقد بدءوا ينظرون إلىَّ على أنى رجل لا يصلى وأنى من الكفار ، وأننى أعيش فى هذه الدنيا بلا ضمير يراقب الله . وبعد انقضاء ساعة أو ساعتين يندفع الشيوخ ، متجهين من جديد صوب المجلس لشرب القهوة ، وحضور جلسة المساء ، التى قد تستمر إلى منتصف الليل . وخوفا من الدوس فوق حية أو ثعبان فى الظلام ، يلبس الشيخ حذاءً قديما غريب الشكل ، ربما يكون قد اشتراه من المدينة (المنورة) منذ زمن بعيد . وبدو الجزيرة العربية لا يلبسون الأحذية الحمراء ذات الرقاب الطويلة ، التى تعد من رموز المشيخة فى سوريا .

الفقارة من القبائل المتشدده ؛ ولكن يبدو أن ذلك هو حال الفقاره فى سائر أنحاء الجزيرة العربية . فقد غضب كل من مطلق ، شيخ القبيلة ، ومعه الشيوخ وأفراد القبيلة من زيد (الذى ذاع أمر غرامياته بينهم ،) لأنه جلب إليهم كافرا ، وأن ذلك الكافر ، ليس كمثل النصارى المحليين ، الذين سبق أن شاهدوهم فى سوريا ، ولكنه كان ينتمى إلى أمة أجنبية وحكومة أجنبية قوية ، (وقد وقف الشيخ على هذه المعلومة من ضباط الأورطة ومن ضباط الحج أيضا ،) جاء به ليتجول فيما بيننا ويجوس فى الديار . ومع ذلك ، فإن سلطة الشيخ الكبير لا يمكن أن تتجاوز كرم أفقر فقراء أفراد القبيلة . ولكن بعد أن عرفونى حق المعرفة ، بدءوا يرحبون بالنصرانى ، بعبارات تنم عن الود

والصداقة وهم يدعونه لتناول القهوة ، كما أصبحت أجلس يوميا مع زيد فى المجلس . كان زيد هو الوحيد فقط ، الذى كان يذكِّرنى ، فى معظم الأحيان ، بأنه هو الذى يحمينى من وحشية البدو القاتلة . وقد وصل به الأمر إلى حد أنه كان يمنعنى من المغامرة بالخروج ، حتى بصحبته ، بعد دخول الليل ، وكان يفضل أن يتركنى جالسا إلى جانب وجار القهوة مع حرفة (زوجته) فى الخيمة ، ومعنا رجال مُنزَلنا : 'قال زيد ، ماذا لو قام شقى من الأشقياء بطعنى فى الظلام ، ولم يتمكنوا من معرفة الجانى .' أيد أولئك الذين من شيعة مخيمنا ، الذين أكلت معهم عيشا وملحا ، الكلام الذى قاله زيد ، بأيمانات مُغلَّظة ، ورجونى أن لا أثق بأى مخلوق غيرهم . العرب أصحاب كلام عظيم ؛ وأنا لم أزعج نفسى بكلامهم المتشدد . قال زيد : "أقسم بالله ! لم يحدث مطلقا من قبل أن جلس نصرانيا فى مجلس البدو ، أو شاهده الناس وحده راكبا جملا ويسير ضمن رحْلَة البدو ."

لم أكن قد بدأت بعد ممارسة الطبابة ، وقد خذلنى طعمى فى أتعس اللحظات ! كنت قد اشتريت ذلك اللمف (الطعم) **Lymph** الطبى من دمشق من شخص مسيحى يعمل فى مجال الأمصال . وقد وصلنى المزيد من المصل بصحبة الأورطة (القوة العسكرية) ؛ ولكن نظرا لأن ذلك المصل كان فى أوعيه مفتوحة ، فقد فقد ذلك المصل صلاحيته حتى قبل أن يصلنى فى مدائن صالح . كنت قد استعملت ذلك الفن الذى جرى تعلمه مؤخرا وحققت من ورائه نجاحا كبيرا فى القرى السورية . كان البدو على استعداد لأن يغفروا لى فساد عقيدتى مقابل الاستفادة من مزايا التطعيم ، وربما هيأ ذلك لى فرصة العيش فى بلاد ، من الخطورة بمكان فيها ، أن يحسب أهلها أنك تحمل القليل من النقود الفضية . لم يكن يتبقى لى عندئذ سوى جمل مريض ، وقليل من النقود الذهبية التى كنت احتفظ بها فى حافظة نقودى ، وهنا بدأت تخطر ببالى فكرة ترك ذلك المكان المتعب والمرهق ، الذى سوف أبدو فيه ، ومهما كانت الأعذار ، كما لو كنت جاسوسا يعيش بين أهل هذا المكان ؛ زد على ذلك – أنه نظرا لاستحالة اعتناقى لدينهم (...)(*) أو التزامى به – الذى يجعل من عنقى هدفا لسكين كل شقى متشدد وكل

(*) استبعدنا من هذا السياق كلمة غير لائقة . (المراجع)

خارج على القانون ؛ فإن كل إنسان سوف يلعنني ويسبني فى أية منطقة من المناطق التى يتعين على الذهاب إليها ، وتكون عامرة بمثل هذه المضاعفات والتعقيدات .

لم أكن أنا أول من مارس عملية التطعيم ضد المرض من بين المسيحيين فى أرض أعراب الجنوب . إذا أخبرونى جميعا عن شخص يدعى أبو فارس ، جاء إليهم بهذه المهنة منذ سنوات : أبو فارس هذا وفد عليهم من إحدى القرى فى المرتفعات السورية ، أى ذلك الجزء من الأرض الذى يسكنه النصارى . مازال أولئك الأعراب يتذكرون أبو فارس ، ومن أجل عيون أبى فارس هذا ، استقر فى روعى ، أنهم كانوا أقل تشدداً معى . – وأنا على ثقة بأن الله ! سيهيئ لمن يأتى بعدى اكتشاف أن الاسم المسيحى (الملعون من قبل) كان يحظى بالاحترام فى أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة العربية المتشددة . أمضى أبو فارس هذا عاما من حياته مع هؤلاء البدو الرُّحل ،– لم يذهب خلاله إلى المدن الكبرى نظرا لتشككه فى تسامحهم الإنسانى . زار أبو فارس كلا من قرية تيماء ومدينه حائل ، بل أنه وصل حتى إلى القصيم ، كما سبق له أيضا أن قام بتطعيم الناس فى عنيزه . وجاء من بعده أبو فارس آخر ، أبو فارس الثانى هذا جاء إلى القبائل بعد أبى فارس الأول بعشر سنوات ، وكان نصرانيا أيضا ؛ كان اسم ذلك الرجل سليمان **Sleyman**، ولكنه أطلق عليه البدو اسم أبى فارس لأنه كان يمارس المهنه التى امتهنها أبو فارس الأول من قبله .

الأعراب يفهمون أن التطعيم يأتيهم من الشمال : من هنا فإن اللمف (الطعم) إذا ما جاء من الجنوب ومن الحرمين (وهذا أمر نادر الحدوث) تقل قيمته ويتدنى قدره : ولا يوجد أحد من المسلمين يمارس مهنة التطعيم فى الشمال ، لأن الأمر يقتصر على النصارى وحدهم . يضاف إلى ذلك أن البدو الموجودين على الحدود السورية يجرى تقديم هذه الخدمة لهم من دمشق ، التى يوجد فيها ثلاثة أو أربعه أساتذه من أساتذة ذلك الفن . وقد اكتشفت أن أولئك الأساتذه الثلاثة أو الأربعة كانوا يعملون بتجارة الأقمشة فى السوق ؛ فقد تعلموا أيضا كيف يحققون المكاسب من وراء ممارسة مهنة الطبابة . ومع قدوم فصل الربيع يقوم هؤلاء الأساتذة بجوله خلال قرى الريف : وفى

أحيان نادرة تماما ، وبناء على الرجاء والتوسل ، يغامر واحد من أولئك العلماء بالقيام برحلة مدتها يومين أو ثلاثة أيام إلى المنطقة الشرقية حيث يوجد البدو الرحل السوريين . لم يكن أبو فارس هيابا أو خوّافا مثل المسيحيين الدمشقين ، وإنما كان واحداً من متسلقى الجبال الأشداء ، ولذلك كان أول من نزل بصحبة البدو الرحل إلى أرض الجزيرة العربية . استقبله الناس استقبالا حسنا فى "بيوت الشَعر" ؛ هذا الرجل استطاع أن يكبح تماما جماح المرض . بل إنه (حسب قولهم لى) استطاع أن يضع يده على أسباب بعض هذه الأمراض : من هنا فإن هؤلاء البدو ، هم أيضا من جانبهم ، كانوا مقتنعين بالوقوف على تلك الرجولة الشديدة فى ذلك الرجل المسيحى . أبو فارس هذا ، اقتاده فيما بعد فى حائل ، رئيس خدم مجلس الأمير ، ليمر به خلال فناء القلعة ، لتناول الغداء ؛ وأثناء سيره فى فناء القلعة استوقفه بعض صغار الأسره وطلبوا منه (النصرانى) التوقف لحظة ليقرأ لهم ، إذا ما استطاع ذلك ، شيئا من الكتابه التى كانت مدونة باللون الأحمر على جدران الممر المؤدى إلى البرج الداخلى فى القلعة . "نعم ، قال النصرانى ، أنا أستطيع القراءة ، أيها السادة ." – "إذن قل لنا ما هذه الكتابة ." ، (كانوا يتظاهرون بأنهم لا يعرفون الحروف.) " أنا أرى مكتوبا 'لا إله إلا الله .'" – "وماذا بعدها – ؟" – "حسن ، هناك ذلك الذى تقولون عنه ، 'محمد رسول الله' ." وعلى هذا النحو ، وبعد ذلك بسنوات كثيرة ، بل وفى المكان نفسه ، استدعونى لقراءة هذا الكلام نفسه ؛ وعندما قرأته كله مرة واحدة ، "خليل ، صاح أولئك الصغار الحاقدين ، لم يرفض قراءة المكتوب كله ، ولكن – ها – ها – ها !– وأنت تتذكر هنا الكلمة التى قالها أبو فارس . 'تلك الكلمة التى تقول أنت فيها ، محمد رسول الله !'"

أبو فارس اللاحق هذا لم يجد متعه كبيرة بين البدو ، وعندما وصل إلى المجلس خبر مذبحة النصارى فى سوريا ، شاهد البدو أبا فارس ، وقد تملكه الحزن والخوف ، وراح ينتحب ويتنهد أمامهم . وعندما قال البدو الطيبون : "ياله من مسكين ! لماذا وصل حزنه وأساه إلى هذا الحد ؟ تمالك نفسك من جديد ، يا أبا فارس ، ألا تؤمن ، من واقع دينك أيضا ، أن كل شىء من عند الله ؟" هنا أجابهم أبو فارس قائلا : "وا أسفاه ! أنا أفكر حاليا فى والدىَّ ، رحماك يا الله ! وهل هما يرقدان فى القبر ميتين الآن ؟

ويحى ، لقد أغتيل الجميع اغتيالا قاسيا !" وأردف أبو فارس يقول وهو يتحدث بطريقة شبه مخنثة : "أيها الرفاق الأصدقاء ، آه! هل ستقتلونى أنتم أيضا ؟ لا ، لا ، دخيلكم ، أتوسل إليكم أن لا تفعلوا ذلك ! وأنا أستجيركم ، أرجوكم أن لا تفعلوا ذلك !" وراح يتذلل بعد ذلك على نحو جعل سكان الأرض القاحلة يضحكون وهو يقول : "أدخل Udk-hul حريمكم Hareemakom، بمعنى ، سوف أدخل لحريمكم كى يحميننى ." "رد الأعراب قائلين : والله ، هذا الرجل مجنوم(*) Mejnûm، إنه لا يتمالك نفسه . انتبه أيها الرجل وانظر إلينا يا أبا فارس ! كيف ، وأنت اسمك سليمان !" وهنا تعالت أصوات صحراوية كثيرة وهى تقول وتتساءل : "ألم تأكل معنا العيش والملح ؟ هذا يكفى ! خلاص ! لقد ذابت كل الشكوك التى بيننا وبينك ؛ أما فيما يتعلق بذلك الذى حدث فى الشام ، فنحن لم نحدد بعد ما إذا كان صوابا أم خطأ ، أو خيرا أم شراً ؛ نحن هنا البدو ، ولا نعير الشوّام (الدمشقيين) بالا . لا تخف أو تخشى شيئا وأنت بيننا ، نحن أصدقاؤك ؛ نحن هنا البدو ، والضيف the - thaif عزيز ."

خلف Khalaf العلايده Allàyda هو الذى جلب ذلك السليمان ، المطعِّم ، وتبناه ، وكانت الأعراب تطلق على ذلك السليمان اسم المجُدِّر(**) . أحضر خلف هذا السليمان معه على ظهر ذلوله (ناقته) مع قافله الحج قادما من سوريا ، وكانت حصة البدو ، أو إن شئت فقل نصيبهم ، يعادل الثلث من قيمه تلك المغامرة المربحة . سمعت هذه الرواية من فم خلف نفسه ؛ واعتبارا من تلك الفترة خطرت ببال خلف فكره إحضار مُجِّدر آخر ؛ ولكن شجاعة ذلك الرجل المسكين خانته عندما رأى ناقة ذلك البدوى تقف أمام باب داره ، وليس أمامه من شىء سوى تلك الصحراء الجرداء القاحلة . – كان الأعراب أوفياء مع أبى فارس ، ولم يحسدوه على المال الذى جمعه ؛ إذ كان كل واحد منهم يدفع فدية إنقاذ حياته من ذلك المرض المريع ، كان البدوى يدفع ربع مجيدى فقط أى ما

(*) المقصود هنا هو كلمة مجنون وهذا القلب المكانى أمر مألوف فى بعض لهجات البدو . (المترجم)
(**) المجدر : بضم الميم وتشديد الدال وكسرها ، هو الشخص الذى يقوم بتطعيم الناس ضد مرض الجدرى . (المترجم)

يعادل شلنا واحداً . وبعد انتهاء العام المحدد له ، أعاده الأعراب إلى موطنه آمنا غانما ، ومعه من المال الكثير ، المال الذى جمعه منهم : قاد البدو ماشية ذلك الرجل أمامه ، وحداها الرعاة البدو ، إلى أن وصلوا بها إلى سوريا .

الأعراب ، الذين مازالوا يستعملون التطعيم ، بعد أن جرى تطعيمهم فى يوم من الأيام ، أصبحوا لا يخشون من ذلك المرض بقية حياتهم . وأنا عندما قلت : "إن ذلك ليس أمراً مؤكداً ،" كانوا يردون علىّ قائلين : "ولكن ذلك ثبت نجاحه بين المئات من البشر ، يضاف إلى ذلك أن كل من طُعِّم بطعم أبى فارس ، لم يصب بالجدرى مرة ثانية ، عندما عاد الجدرى إلى الظهور مرة ثانية ." الحريم هم الذين يعالجون الأعراب من أمراضهم ، وهن يستعملن فى ذلك الغرض القليل من العقاقير التى يحتفظون بها ، كما يستخدمون التوابل أيضا هى والطيب وهم يجلبون هذه العقاقير والتوابل والطيب من المدينة (المنورة) ، كما يستخدمون فى ذلك الخبرات الساذجة التى ورثنها عن جدَّاتهن وأمهاتهن ، تلك الخبرة التى تكاد تكون نادرة فى ديارهن الصحراوية . لم يعلق البدو الرُّحَّل أملا كبيرا على الحصول على علاجات أفضل على يدى خليل ، التى كانت من قبيل "الأدوية الحكومية" النادرة والغالية أيضا ، فضلا عن غرابة تلك الأدوية على هؤلاء البدو . طلب منى هؤلاء البدو أن أعرض عقاقيرى على الحريم ، اللاتى ، يسلم البدو ، بأنهن ينبغى أن يعرفن تلك العقاقير حق المعرفة . (وفى رأى بعض الأزواج) أن ما تفعله النساء فى مجال الطبابة لا يكون كله فى صالح صحة الرجال ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الرجال ، فى كثير من الأحيان ، يعزون أمراضهم التى تدوم وقتا طويلا وكذلك الأمراض غير الواضحة إلى 'السحر الذى تمارسه النساء .' "قال واحد من المرضى : يا خليل ، أنت ترى مدى ضعف جسمى وخوار قوتى : وأنا تراودنى الشكوك حول زوجة غيور من زوجاتى ، أعطتنى ، أو إن شئت فقل : سقتنى مشروبا بارداً ." يضاف إلى ذلك أن دس السم أمر يألفه خيال العرب الإجرامى . والعرب يطلقون على المواد الطبية التى تستخدم فى العلاج ، اسم 'دواء' dawwa، شأنهم فى ذلك شأن البلدان المستقرة ؛ كما يطلق البدو ذلك الاسم أيضا على عدد قليل من الأعشاب ، وعلى

بعض الأعشاب التى يضيفونها أيضا إلى طعامهم لتضفى عليه نكهة طيبة ولونا طيبا أيضا .

ذاع صيت حرفة ، بوصفها واحدة من بنات شيخ كبير من شيوخ القبائل ، فى مجال صناعة استعمال الأعشاب فى العلاج . ففى أحد الأيام ، استدعت حرفه بعض زميلاتها لتزجية الوقت ، وجلسن كلهن أمامى ليشاهدن ما بداخل صندوقى الطبى عندما كنت أفتحه أمامهن . وهنا قام ذلك الحريم المبهور بتناول عقاقيرى الأجنبية فى أيديهن ، واحد بعد الآخر ؛ ورحن يتشممن تلك العقاقير ، ورحن تهززن رءوسهن بجاذبيه الإناث . واعترفن بأن كل تلك العقاقير كانت غير معروفه لهم ، ولكن المؤكد أنهن شممن فى كل تلك العقاقير رائحة الحلطيطة' أو إن شئت فقل : رائحه اللُّبَان ، وهو ذلك العقار الذى يعقد العرب عليه قيمة كبيرة . ولكن يالعجبهن عندما رأيننى أضع مشروبا يفور ! كانت حرفة ترجونى فى أحيان كثيرة ، أن أفرّج زميلاتها على ذلك الشيء العجيب الذى هو عبارة "عن ماء يغلى بلا نار ." والغريب فى الأمر ، أن العرب فيما يتعلق بالعلاج لا يعولون كثيرا على ما يتعلق بالحلال والحرام ، هذا يعنى أنهم يمكن أن يتناولوا النجس وكذلك الكريه وهم يقولون : "دواء **Dawwa !** إنه دواء ." هؤلاء البدو ينصحون المرضى بأكل 'الرَّخام' **Râkham**، أو إن شئت فقل : جيفة النسر الأبيض الصغير . وفى أحد الأيام عثرت على إمراة مسكينة الحال من نساء مَنْزَلنا وهى تغلى شيئا من "فِشل" الحمير فى إناء ؛ وسوف تقدم ماء "الفشل" المغلى مع الحليب علاجا لأخيها المريض : والعرب يظنون أن الحمار نجس ، ولكن فشل الحمار نجس بصورة خاصة .

وأنا ، إذا ما قدر لى هنا ، الكلام بصورة واضحة عن ممارستى للطبابة ، فإننى أعتقد أن مسألة شفاء العرب أمر ميئوس منه ، كما أعتقد أيضا أن وجود حكيم (طبيب) بمعنى الكلمة ، فيما بينهم سيكون أمر محموداً من الجميع . ويخسر هذه الجولة كل من تقل مقدرته العلمية ، ولا يكسبها سوى شخص واعد من بين قلة قليلة من الناس ؛ والسبب فى ذلك ، أن هؤلاء البدو الرحل سوف ينظرون بعين الاحتقار إلى

شكوك واحتمالات أولئك الأشخاص . يضاف إلى ذلك ، أن من يود أن ينجح لابد أن يكون شبيها بهم ، هذا يعنى أن مثل هذا الشخص لابد أن يكون آسيويا ، وقادرا على تطويع لسانه على وضاعة تلك الأذهان السامية Semitic . نظراتهم القلقة غير المتحضرة تتطلع إلى رؤية معجزات : والطبيب الحق ، الذى يقوم بعملية فحص النبض ليس إلا ، يظنون أنه قادر على استلهام حالة أى مريض من المرضى ، وقادر أيضا على معرفة كل ما أصابه فى الماضى ؛ كما يعتقدون أيضا أن مثل هذا الطبيب لابد وأن يكون لديه شيء محدد لكل مرض من الأمراض ، وسبب ذلك ، فى نظرهم ، هو 'وجود مرهم' ، فى الطبيعة ، لكل ورم من الأورام" ؛ ومع ذلك فهم يبلغون من النذالة حداً يجعلهم يقولون له إنهم سيدفعون له أجره فى يوم ما ، ولكن ذلك اليوم لا يأتى مطلقا . وأهل الجزيرة العربية يعانون من سوء التغذية ، وهم يظنون أنهم مرضى بصورة دائمة . والبدو الرحل يحيون حياة المخلوقات البرية ، دون الالتزام بغذاء معين أو محدد ، كما يشربون أيضا ماء ملوثا . وقلة قليلة منهم هى التى لا تعانى من أمراض الكبد ؛ كما أن الرياح التى تهب على أجسادهم شبه العارية ، تصيبهم بكل أنواع الروماتيزم ، وهم يطلقون الاسم 'الريح' er-rihh على جميع الأمراض التى لا يعرفون لها ، من وجهة نظرهم ، سببا . وهم يطلقون على كل مرض من الأمراض اسم 'وجع' Wajjâ، كما يطلقون الاسم 'وجعان' Wajjan على المريض نفسه .

والبدوى بحكم تعوده منذ صغره على المتاعب البدنية يفضل أن يتحمل المعاناة المضنية فترة طويلة ، بل ويفضل أيضا أن يسوء حاله أكثر فأكثر ، على إنفاق ماله على المُداوى Mydawwy أو المُطبِّب نظير أدوية ليست مضمونة الفائدة . السبب فى ذلك أن هؤلاء الساميين ، بحكم شراستهم ، لا يثقون بالإنسان ، وإنما يثقون بالله وحده فقط : هذا يعنى أن هؤلاء الساميين يفضلون تجربة العلاج بالطفيليات على أشخاص آخرين غيرهم . من هنا يصبح من الصعوبة بمكان على أى واحد من هؤلاء الأعراب الذهاب إلى المُطَبِّب (الحكيم) إلا عندما يكون ذلك المطبب على وشك مغادرة مَنْزلهم ، أو إن شئت فقل : ديرتهم ، هذا فى الوقت الذى لا يذهب فيه إلى ذلك المطبب سوى تلك الحالات المرضية الميئوس منها ولا أمل فيها . وبالرغم من كل ذلك ، فهؤلاء الأعراب

متيمون جميعا بالحديث عن آلامهم ، التى يُسرُّون بها إلى الحكيم فى أذنيه . وطوال تجوالى فى قرى الجزيرة العربية ، كان البعض يمسكون بأطراف عباءتى (بشتى) وهم يتعجبون : "أخ ، أنت بائع العقاقير ! هل تستطيع إعادة البصر إلى العميان ؟" من هنا ، كان الناس ، فى كل مكان ، يظنون أنى قادر على تقديم العون والمساعدة لأولئك الذين فقدوا أعينهم ، أو ضاع بصرهم . هؤلاء الأعراب يعتقدون أن الذهاب إلى الطبيب أمر يتفق مع الشرع ، والاستفادة من الطبيب بدلا من المعاناة من المرض الذى يصيبهم (بأمر الله) ، وهم يقولون : "الحكيم هو الله ، والله هو الشافى ؟" - ومع ذلك ، فإن البعض منهم ، الذين يتملكهم الحزن والأسى يقولون : "مالى غير الله ؟" وهم يعزون الشكر لله سبحانه وتعالى على كل الخدمات التى يقوم بها الإنسان ، ولا يدفعون لبائع العقاقير أجره أو مستحقاته : وهم يقولون فى هذا الخصوص : "لن أدفع ثمنا للدواء ، وإنما سوف أدفع للشفاء ؛ أرجو أن تثق بى أيها المداوى (الحكيم) ، سوف أوفيك حقك فى الوقت الذى يتطلع فيه قلبك إلى ذلك ."

يقول أهل الحضر : "عقل البدوى فى عينيه ." وأن البدو متواكلون وعجولون ، ويحكمون من منطلق قناعتهم التامة ، باللحظة التى يعيشونها ، معتمدين فى ذلك على الكسل والتواكل الموجود فى داخلهم . والبدوى لا يمكن أن تقنعه بأن قليلا من مسحوق الكنين يمكن أن يباع نظير مبلغ من النقود ، هذا فى الوقت الذى تذهب فيه نساء البدو إلى المدينة (المنورة) وتشترين عقاقير هزيلة عديمة القيمه وتدفع فيها مبالغ كبيرة . بعض آخر من البدو يتخيلون أن المداوى **Mudowwy** هو الذى صنع الأدوية كلها من أشياء أرضية وأشياء بسيطه أيضا . والحالات التى يثبت لهم فيها فاعلية الدواء العجيبة ، كما هو الحال فى المورفين (إذ إن الألم الشديد يزول بمجرد تناول نقطة واحدة من ذلك الدواء) . لا يمكن أن تحركهم أو تقنعهم : لأن كل ذلك لا يعد شيئا إذا ما قورن بالمعجزات الإلهية . يضاف إلى ذلك ، أنهم لا يطلبون مثل هذا الدواء مرة ثانية من المداوى ؛ وسبب عدم الطلب هذا ، هو أنهم سوف يتحتم عليهم دفع الثمن ، حتى ولو كان ذلك على شكل قليل من الأرز على سبيل الهدية ، أو قد يكون الثمن عبارة عن وعد بإرسال طبق من اللبن المختثر ، أو إن شئت فقل : لبن الخض . بعض ثالث من

هؤلاء البدو ، كانوا يرفضون دفع الثمن بعد الحصول على الأدوية ، نظرا لأن كل ما يمكن للبدوى الحصول عليه من خير الآخرين ، يكون مستباحًا وغنيمة له . بلغ هؤلاء البدو من الجحود حداً جعلهم يسرقون ، الأكواب التى كنت أخلط لهم فيها الأدوية وأركبها لهم من قبيل الإحسان إليهم ، صحيح أن تلك كانت خسائر بسيطة جداً ، ولكنها كانت أشياء يصعب تعويضها فى الصحراء . من هنا قال بعضهم ونحن نلتف حول وجار القهوة فى المساء : "الناس يفدون على خيمة خليل طلبا للأدوية ؛ وخليل بدوره ومن باب الثقة بهم يعطيهم كلهم الدواء بلا تمييز : والناس 'يقاطرون' **Yegôtarun**، أو إن شئت فقل : يذهبون لحال سبيلهم ، ولا يراهم خليل مطلقا بعد ذلك ، والله ! يا خليل ، أنت ليس فى رأسك أى شىء من العقل والفطنة فيما يتعلق بالشراء والبيع ."

لو قدر لى العودة ثانية إلى هذه الأماكن ، فلن أحمل معى سوى قلة قليلة من الأدوية والعقاقير ، التى يطلق عليها اسم أدويه النجدة السريعه ، سهلة الاستعمال ، وبعضا آخرا من الأدوية الخاصة بأمراض محددة أو علاجات بعينها . هؤلاء الذين لم يمروا بهذه الخبرة ، لا يمكن لهم أن يتصوروا مدى المشقة التى تترتب على تحضير الأدوية وتجهيزها فى الصحراء الجرداء القاحلة ؛ لك أن تتخيل كيف يمكن فى وجود تلك الشمس الحارقة ، وفى ظل ندرة الأشياء والافتقار إليها ، وفى ظل الفوضى والارتباك الذى يسود الخيمة البدوية ، كيف يمكن فى ظل كل ذلك وزن ذرات قليلة باستعمال الميزان ، والرمال تهب من كل جانب ، والماء النقى منعدم وغير موجود . وعندما تصبح المحاليل جاهزه ، يصعب بل يكاد يستحيل على المريض البدوى ، العثور على قارورة ، من أى نوع كان ، ليأخذ فيها شيئا من المحلول . بعد عودتى قال لى أحد الأصدقاء : "بدوك لديهم عادة طيبة ، – ليتها تكون عندنا هنا ! ليت الأطباء يحصلون على أجورهم بعد شفاء المريض ! وقد يحمل عليك رجل جرئ لمارستك علما لم تتعلمه !" – "لقد شفيت الكثيرين منهم ، والقسم الأكبر منهم بالمجَّان ؛ أنا لم أؤذى منهم أحداً ؛ وأنا لم أغش منهم أحداً ."

الأعراب كلهم يفضلون الأحجبة على الأدوية ، وبخاصة أنهم يجدون أن تلك الأدوية لا جدوى من ورائها على أيدى نسائهم . زد على ذلك أن المغاربة ، أو إن شئت فقل : عرب المغرب العربى لهم شأن كبير فى الجزيرة العربية ، إذ يعتبرون أفضل من يكتبون

تلك الأحجبة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الناس هنا يسلمون بأن المغاربة أصحاب دهاء كبير فى مسألة العثور على الكنوز المخبأة . والأحجبة أنواع كثيرة : منها ما يستعمل فى شفاء الأمراض العديدة ، ومنها أيضا ما يستعمل للشفاء من الجان ومن الشياطين فى الأرض ، كما أن هناك أيضا أحجبة للمحافظة على الحياة من الأخطار ، والتى منها تلك الأحجبه التى تحفظ من الرصاص . وهذا هو متعب Metaab بن الرشيد ، الذى تولى الإمارة على الشمَّر بعد أخيه طلال Tellal(*)، كان يلبس واحداً من تلك الأحجبة ؛ وهاهم أبناء أخيه القتلة ، الذين رأوا أنهم قد لا يتولون الإمارة طبقا للأسلوب المتبع ، يبادرون إلى قتل متعب واغتياله عن طريق مقذوف (طلقة) مصنوع من الفضه . روى قائد الجنود التركى فى خيبر ، على مرأى ومسمع منى ، عن شخص جرى القبض عليه أثناء تمرد حدث فى المدينة (المنورة) ، وحكم على ذلك الشخص بالإعدام رميا بالرصاص ، من محكمة عسكرية ، وعندما أحضروا ذلك الشخص لتنفيذ الحكم فيه ، تساقطت الطلقات التى فتحوها على ذلك الرجل لإعدامه ، كما لو كانت ترتد من حائط أو جدار ، ويقى ذلك الشخص بلا إصابات أو جروح : وهنا قام أحد المنفذين للحكم بإطلاق طلقات من مسدسه على صدر ذلك الرجل ، ولكن الرصاص تساقط إلى جانب الرجل ، وهنا صاح ذلك المحكوم التعيس وهو يقول : "يا سادة ! أنا ليس لدى دفاع ضد الحديد !" وهنا قاموا بربط ذلك الرجل إلى فوهة أحد المدافع ، وبالتالى ، مات ذلك الرجل عندما جرى إطلاق المدفع . أقسم ذلك التركى أمامنا إيمانا مغلَّظة بأنه حضر تلك الواقعة ، وأنه رآها رأى العين ؛ وقال آخرون إنهم سبق لهم معرفه حالات مماثلة قائلين : "نعم ، نقسم بالله أن ذلك صحيح !" - هذا هو حال المعجزات اليومية ، التى يسمعها الناس ويؤيدونها ويؤمنون بها فيما بينهم .

هذه النوعية من البشر هى نفسها التى تجرى وراء الرُّقى والتعاويذ والأسحار ، وبالتالى فهى لا تدفع للطبابة أو الأدوية أجرا : كل واحد من هؤلاء يفضل شراء حجاب

(*) تولى طلال بن عبد الله الرشيد الحكم فى جبل شمر بين عامى ١٨٤٧-١٨٦٧ ، وخلفه متعب بن عبد الله الرشيد ١٨٦٧-١٨٧١ . (المراجع)

يدفع فيه الريالات ، حتى وإن كانت تلك الريالات هى آخر ما فى حافظته من نقود . زد على ذلك أن الأحجبة التى يعدها مشاهير من يمارسون السحر تكلف من يقتفونها الكثير والكثير ؛ هذه الرءوس الكبيره تزيد الأمر غرابة ، بأن تعلن بأنها غير راغبة فى ذلك . هذه الأحجبه مكونة (مثلما يضفون طابع الدين على كل الأشياء المحيطة بهم) من "كلام الله" ، أى من نصوص مختارة من القرآن ، يجرى تدوينها بطريقة القَّبالة(*) . والرجل الذى يكون لديه طلسمان من ذلك النوع يتدلى من جسده ، يكون أكثر من واثق بنفسه ، حتى فى ساعات الخطر الداهم . بعض هذه الأحجبه (ومن أغربها تلك الأحجبة التى كتبها اليهود) كانت تستعمل فى أوروبا فى العصور الوسيطة ؛ ومن هنا يشيع استعمال تلك الأحجبة بين المسيحيين الشرقيين . داخل حدود الأراضى العربية قل أن تجد إنسانا ، أو حتى حيوانا ، لا يجرى تحصينه من عيون الحاسدين ، باستعمال تعويذة من التعاويذ . - يا للعجب ! ألسنا نشاهد مثيلا لهذه الأشياء فى أوروبا حتى يومنا هذا ؟ فى كل بلاد القساوسة ، بل وفى الرقيق والاستعباد .- كان كلامهم فى معظم الأحيان على النحو التالى : "سوف لا ندفع ثمنا لأى دواء ، والسبب فى ذلك أن العرب أناس فقراء ؛ ولكن هذه هى ريالاتى الثلاثة – والله ، لو عندى خمسة لجئت بها ، ووضعتها هنا ، حتى تكتب لى الحجاب الذى أريده وأرغب فيه :" وأمام الآخر يفضلون تناول الشراب السحرى الذى يحرض على الحب (المعاشرة) غير الشريفة . يضاف إلى ذلك ، أنهم كانوا يتخيلون تماما أن ذلك الرجل النصرانى ، الذى ليس من أراضيهم ، باستطاعته أن يكتب لهم تعويذة على نحو أسرع من أى إنسان آخر : كانوا يرون ذلك منى أمرا عجابا ، ذلك أنى بالرغم من فقر حالى فى نظرهم ، كنت أرفض رفضا باتا وبصورة مستمرة القيام بمثل هذا العمل ، فى الوقت الذى كان بوسعى فيه أن أغتنى وأثرى بمجرد استعمال قلم من البوص . ومع ذلك كنت عندما أسألهم : "هل ينبغى للإنسان أن يتدخل فى الأمور الموكلة للعناية الإلهية ؟" كنت أجد أفضلهم ، بصفتهم مسلمين ، يوافقونى تماما على ما أقول .

(*) القبالة : بتشديد الباء وفتح اللام ، تعليم نقلى تصوفى عند اليهود (المترجم)

في بعض الأحيان كان البدو يمدون إلى أيديهم ، من منطلق مهارتى فى قراءة الكف ، وكانوا يرجوننى أن أقرأ لهم طالعهم وهل سيكون ذلك الطالع صالحا أم طالحا . بعض آخر من الشباب المغرور ، كانوا يطلبون منى أن أتكهن لهم من خلال النظر إلى وجوههم لكى أقول لهم "أننى رأيت شيئا من الشبه بينهم وبين الأشخاص الحَظيظين ؟" ومن وجهة نظر العرب ، فإن الجنس البشرى قد يتلبس الجان أجساد بعض أفراده وعقولهم أيضا ؛ وهم يقولون عن الجان أن "نصفهم شرير ونصفهم الآخر طيبين ، نعم ، ومسلمين أيضا ." ويقولون أيضا إن الجان يسكن أو يعيش فى سبع مراحل (شأنها شأن السماوات السبع) يتكون منها بناء العالم السفلى ، ويقول العرب أيضا إن الأمراض الغريبة هى والأمراض العقلية الخاصة بالجنون تعزى إلى تأثير الجان ؛ وهم يقولون عن الأشخاص المحتقرين وعن الأشخاص المرتبكين إنهم "مجنونين" be-jinned أو "مجانين" Mejnûn أو إن شئت فقل : أصابهم مس من الجن . كل مرض له دواء ، وفى الجزيرة العربية مُعزِّمٌ لكل نوع من الجان أو الشياطين ، وهؤلاء المُعزِّمون يعملون فى مجال إخراج الجن من أجساد البشر المجانين - : Mejnûns ألا يوجد بعض من هؤلاء ، فى أيامنا هذه ، فى أوربا الأجراس والشموع ! – هؤلاء عندما "يقرءون" تعزيمات قوية من "إنجيل الرب" على أولئك الأشخاص المرضى يدخلون فى روعنا "تخويف الجن وطرده" من الشخص الذى يتلبسه . جاء إلىَّ الكثيرون وطلبوا منى الاستفادة من تلك المقدرة ، فى شفاء بعض من أقرب اقاربهم ؛ كان ردى على هؤلاء الأشخاص رفضا قاطعا تجلى فى نظرى إليهم شذرا ، وقلت لهم وأنا أعرب عن احتجاجى : "إن ذلك ينطوى على معنى سيئ تجاههم إذا لم أقم بإظهار تعاطفى مع المسلمين ."

ذهن البدوى المترحل يتركز دوما على الغزو ، وبالتالى فإن الوغد والشرير هو الذى يمكن أن يفوز ويكسب ، وإذا ما خسر ذلك الوغد أو النصَّاب فهو لا يخسر شيئا ، ولا يخسر أو يخاطر أيضا بدناءته : والرجال فى ظل هذه الحياة بالغة الصعوبة وفى ظل هذا الجهل المطبق ، يتحولون إلى وحوش أو إن شئت فقل : وحوش فى صورة بشر . ولكن الأعراب ليسوا جميعا من هذه الشاكلة ، ولكن مع هذه الإمكانيات الضيقة ،

تسود بين هؤلاء الأعراب روح إنسانية عالية وفاضلة أيضا ؛ وبخاصة بين الشيوخ وأولئك الذين يشعرون بالراحة فى حياتهم ، أو إن شئت فقل : بين أولئك الرجال الذين لا يعانون المتاعب اليومية لكسب العيش ، والذين تربوا ونشئوا فى رحاب المجالس ، والذين يُكْرِمون وفاد الضيوف من العامة . الحياة الإنسانية ، التى يصعب على الفقراء المساكين التحرك فيها إلا من خلال الطرق الوعرة وغير المعبدة ، والمليئة بالشراك والفخاخ القاسية ، تتوزع بالتساوى على كل أولئك الفقراء المساكين ، هناك أيضا نبلاء الصحراء ، أولئك الرجال المشهود لهم بالاعتدال ، الذين يصنعون السلام بفضل أحكامهم الدقيقة الواعية .

نار المساء الجذابة العائلية ، لها نفس بهجة النار التى يجرى شَبُّها فى الصحراء أثناء النهار . والشمس عندما تغرب خلف منحدر مرتفع من منحدرات الجزيرة العربية ، التى يزيد متوسط ارتفاعها على ثلاثة آلاف قدم ، يسارع الهواء الجاف قليل الكثافة إلى الحركة والانتعاش ، وهنا يبدأ الرمل فى البرودة وتنخفض درجة حرارته ؛ وعلى عمق ثلاثة أصابع يبقى دفء ضوء الشمس المتخلف عن اليوم السابق ، لحين شروق الشمس فى اليوم التالى . وبعد مضى نصف ساعة يبدأ الليل الأزرق فى الظهور ، تلك السماء الصافية التى تضيئها النجوم ، والتى يظهر فيها حزام درب اللبَّانة ، أو إن شئت فقل : طريق المجرَّه ، ظهورا واضحا . مع غروب الشمس ، تقوم ربة البيت البدوية بإحضار حزمة من عيدان الحطب والعشب الجاف ، الذى سبق أن اقتلعته أو جزته باستعمال المنجل (تلك الآلة التى يندر تواجدها مع البدو) من الصحراء ، تقوم ربة البيت بإلقاء تلك الحزمة إلى جوار الوجار ، استعدادا لشب نار المساء طيبة الرائحة . أما فيما يخص حرفة ، الزوجة الشابة بنت شيخ القبيلة ، فقد وفر لها زيد زوجها ، فتاة بدوية لمساعدتها . ربه البيت لها أيضا فى القسم الخاص بالنساء وجار خاص بها ، يستعمل فى عملية الطبخ . وقد جرت العادة أن تقوم حرفة ، الزوجة ، بخبز كعكة من الخبز للغريب تحت رماد وجارها : ولكن زيد زوجها البائس ، أو الذى لا يأكل إلا عند منتصف الليل تقريبا ، بعد عودته من المجلس ، يفضل الذهاب للنوم على الأكل .

فى هذه الساعة الأولى من ساعات المساء ، يكون البدو جميعا مع أهلهم ، أو إن شئت فقل : أسرهم ، لتناول العشاء مما يتوفر لديهم من فتات ولقيمات ؛ فى هذه

الساعة يقل التجوال فى أرجاء المخيم الواسع ، كما يقل أيضا وصول الأشخاص من أهل المخيم ، وليس الغرباء ، وهذان أمران يوحيان "بجهل" غير لائق . هذه هى الإبل المهجنة وقد بركّها أصحابها أمام بيوت الشَعر التى يعيشون فيها : والبدو يتركون نياق الإبل مدة ساعة ، لا يحركونها خلالها ، وذلك قبل القيام بحلب تلك النياق . هذه الحيوانات الضخمة الضعيفة كانت تتجول طوال النهار فوق سطح الصحراء الجاف القاحل ؛ مما يُصَعِّب الأمر على البدو ويحول بينهم وبين الحصول على ما يبتغونه ، خلال ساعات طويلة ، من مراعى هزيلة على هذا النحو ، هذه هى الفرس تقف مُلجَّمة أمام بيت الشَعر من ناحية جناح النساء ، حيث تقل الحركة إلى حد بعيد . وإلى جوار تلك الفرس يلقى البدو العلف العشبى الجاف الذى يتيسر لهم فى تلك الأرض الجرداء . بعد أن يتناول العرب طعامهم الهزيل ويشربون لبن القطيع ، يبدأ رجال منزلنا القليليين فى التجمع حول وجار قهوة الشيخ ، انتظارا لشىء من القهوة . أصغر أعضاء الجماعة سنا ، أو إن شئت فقل أقلها مقاما ، يمد يديه بين الحين والآخر لتناول المزيد من عشب الرمض الجاف ، ليلقيه على النار ، ومعه بعض الأغصان طيبة الرائحة ، إلى أن يعلو لهب النار من جديد وسط ذلك الظلام الدامس الشاسع . والبدو الرحل لا يحرقون أدغال المراعى الجيدة التى يطلقون عليها اسم "القُصَّة" ، حتى وإن كانت فى ديار أعدائهم . والسبب فى ذلك أن تلك "القُصَّة" هى عندهم بمثابة الخبز الذى يقدمونه للماشية . وأنا فى أحيان كثيرة كنت أخلط عن غير قصد بين نباتات القُصَّة والنباتات الأخرى ، بأن كنت أقتلع تلك النباتات التى كانت تنمو فى الأرض القريبة منى ؛ وعندها كان الأطفال والنساء وكذلك الرجال ، الذين لم يفهموا حقيقة الأمر ، يلوموننى وهم يقولون : "كان ذلك من أعمال الكفار" .

مع طلوع ضوء النهار الخاوى يجلس أرباب الأسر السعداء من جديد وهم يتسامرون أو صامتون بلا حراك ، بصحبة حيواناتهم التى لها جاذبية خاصة عندهم . كبار السن منهم يحسون دوما بالتعب والإرهاق ؛ فى حين يستلقى الرعاة الذين أمضوا اليوم كله فى ضوء الشمس متحلقين حول الوجار ، وقد اتكأ كل واحد منهم على كوعه الأيمن (وهذا هو الوضع الصحيح عند العرب الذى علمنى زيد إياه وطلب منى الإفادة

منه بصورة دائمة) . ولكن الاسترخاء فى المنزل (الخيمة) يكون بالرقود على الأرض ، حول الوجار ، والكعبين متجهين إلى الخلف ، بحيث يكون البطن مفرودا على الأرض (ظنا منهم أن ذلك الوضع يقلل من آلام الجوع المستعر داخلهم) ؛ ثم يرفع الواحد منهم رأسه قليلا ، ويروحون يتسامرون وهم رقود على صدورهم ومتكئين على أكواعهم : وعلى هذا الوضع يروح أفراد هذه الأمة الضعيفة فى النوم وهم على هذه الشاكلة ، ولا يفردون تحتهم أى شىء آخر غير عباءاتهم ، فوق الأرض غير الممهدة التى يطلقون عليها اسم (البلاد) béled، وهم أنفسهم يدينون ذلك الوضع ولا يرضون عنه . وكلمة (البلاد) béled هذه على لسان البدو الرحل ، تدل على التربة المأهولة بالسكان من أرض الصحراء الواسعة ومن أراضى الواحات أيضا ؛ والبدو يقولون أيضا عن الميت : "إنه تحت البلاد "béled . وكلمة ديرة Dira، التى معناها 'دائرة البدو' ، تتردد أيضا فى بعض الواحات على أنها تعنى 'المستوطنة الحضرية' .– سألت زيدا : "هل تقول إذن أن البلاد béled هى أُمنا ؟" – "هذا صحيح ، ومؤكد يا خليل ، لأن الله خلق الإنسان من الأرض (الطين) كما أننا جميعا سنعود إلى الأرض ." سألونى عن عرفنا فيما يتعلق بهذا الموضوع فقلت لهم :أنتم ممن يجلسون على الأرض ، ولكننا نجلس على كراسى عالية مثل الأتراك ." – وهم يظنون أن تدلى أرجل من يجلسون على الكراسى ، طول اليوم ، أمر مرهق ومتعب تماما . رد زيد قائلا : "خليل محق فيما يقول" ؛ وزيد هذا شيخ من شيوخ الأعراب ، قد سبق له التواجد مع الباشوات ورجال الحكومة فى دمشق ؛ وحكى لنا كيف أنه رأى هؤلاء الباشوات هم ورجال الحكومة وهم يجلسون على كراسى ذات أذرع (وأنهم جميعا من الشرقيين الذين يجلسون متربعين) واضعين رجلا فوق الأخرى أو ساقا على ساق أو قدم على قدم : ومسألة وضع القدمين على بعضها أمر بسيط ومن الأشياء المألوفة : ولكن مسألة ملامسة الركبتين لذقن الرجل (كما أوضحها لنا زيد) فهى مقصورة على كبار شخصياتهم فقط .' كما سألنى الأعراب فى أحيان كثيرة أيضا عما إذا كنا نتجمع فى جلسات ودية من هذا القبيل حول نار المساء ؟ وسألونى أيضا عما إذا كان الجيران يقصدون بيوت الجيران ، سعيا إلى الصداقة وشرب القهوة ؟

أثناء الجلوس على هذا النحو ، إذا ما وقف أحد الجالسين ، فإن الفرس تَنْخر قليلا ، ويبدو عليها كما لو كانت تنتظر أن يقوم ذلك الذى وقف بإحضار شىء من حليب النياق الدافئ اللذيذ ، وتروح الفرس تطيل النظر من خلفه ، وتصهل فرحا وسرورا . وهناك ناقة تخصص لكل فرس من أفراس البدو الرحل ، والسبب فى ذلك أن أفراس البدو لا تستسيغ طعم القمح أو الشعير ، إضافة إلى أن أعشاب الصحراء الخشنه الجافة لا يمكن أن تحفظ على تلك الأفراس حياتها : ونظرا لأن الحصان ليس من الحيونات المجترة ، ونظرا أيضا لأنه يفقد الكثير من الرطوبة عن طريق الجلد ، فإنه يعد من الحيوانات العجولة فيما يتعلق بالجوع والعطش . من هنا فإن فرس أى شيخ من شيوخ الصحراء تكلفه الكثير ، إذ يتعين عليه فى أحيان كثيرة تحمل أعباء حمل آخر بحمل الماء اللازم لتلك الفرس . والفرس تشرب مرتين فى اليوم ، وفى أشد أوقات الصيف حرارة قد تشرب ثلاث مرات فى اليوم ؛ وحمولة الجمل من قراب الماء لا تكفى لسقيا تلك الفرس أكثر من يومين اثنين . ومن لديه زوجة أو فرس ، كما يقول المثل القديم ، قد يندم ، لأنه لن يرتاح باله ، لأن تلك الممتلكات الهشة الرقيقة قد يصيبها ، دوما ، التعب والآلام ، ومع ذلك ، وفى ظل هذا المناخ الغريب ، الذى يعتمد فى الأساس على الخيمة العالمية ، لا يكون أمام البدو ما يهتمون به سوى أفراسهم ؛ ومسألة حك أجسام الخيول غير معروفة فى صحراء الجزيرة العربية . والبدو عندما يحلبون نياقهم ، يعملون حساب الفرس أولا وقبل كل شىء ، ثم بعد ذلك (وغالبا ما يكون فى الإناء نفسه) الحليب المطلوب للأسرة البدوية المترحلة . والفرس تقف متحفزة ، وهى تنظر فى الاتجاه الذى ينبعث فيه الصوت الناتج عن عملية الحلب : ويجرى بعد ذلك حمل الإناء بعد أن يجرى ملؤه من ضرع الناقة ، وهو يطفو من فوقه زبد الحليب ، بين يدى الراعى إلى حيث تقف الفرس ، لتتناول عشاءها ، من خلال أسنانها ، من ذلك الحليب الدافئ اللذيذ ، دفعه واحده . وحلب النياق يكون بمعدل مرة واحدة فى اليوم ، ويكون ذلك فى المساء ، اللهم إلا إذا كانت هناك ضرورة لحلب شىء من اللبن لشخص مريض فى الصباح أو غريب وفد على الديار ، أو لعابر سبيل أثناء النهار . والماشية الصغيرة ، التى يطلقون عليها اسم 'الغَرنَّن' (*) ghrannen أو 'الدُّبوش' dubbush(**)، يجرى حلبها

(*) المقصود هنا هو " الأغنام " (المترجم)
(**) هذا هو اسم آخر يطلقه البدو على الأغنام . (المترجم)

عند الغروب ؛ وربات البيوت لا تحلبن تلك الماشية الصغيرة مرة ثانية فى الصباح إلا فى المناطق التى يجود فيها الربيع ويربو . وربات البيوت هن اللاتى تحلبن "الدُّبوش" ولكن الرجال هم الذين يحلبون النياق . والربيع عند البدو الرحل هو موسم الحليب ، الذى يتغذى خلاله الناس والحيوان (إذا لم يخيب المطر الآمال) تغذية جيده فى تلك الأرض القاحلة ، وحلب الماشية الصغيرة لا يدوم سوى أسابيع قليلة من بداية الربيع إلى الخريف التالى ، عندما يجف العشب ؛ ولكن حلب النياق يصل إلى ما يقرب من أحد عشر شهرا .

خيول الصحراء بحاجة ماسة إلى ذلك الحليب ، إلى حد أن الخيول يتحتم عليها ، خلال جفاف الصيف الجاف أو أثناء فترات القحط ، أن تصاحب الإبل ، فى فترات القحط ، من منطقة تواجدها فى المنزل ، إلى ما يطلق عليه البدو الرحل اسم 'العذاب' Azab والذى يعنى التغيب أياما عدة ، بحثا عن المرعى ، حتى يتسنى لها شرب لبن الرضاعة . أما عندما يكون الشيخ بحاجة إلى فرسه فى مَنْزله ، فإنه يغذيها ، قدر المستطاع دون الاعتماد على حليب الرضاعة ، وذلك بخلط سلطانية من لبن 'المريسى' Mereesy، أو إن شئت فقل : اللبن المجفف ، بشيء من الماء . و'المريسى' هو لبن 'الخض' أو إن شئت فقل : اللبن المخثر ، الناتج عن لبن القطيع ، وهذا اللبن يجرى تجفيفه عن طريق الغلى إلى أن يتحول إلى شرائح تشبه الطباشير . وهو مشروب يشكر البدو ربهم بعد تناوله فى أيام القحط ، وعندما تشتد حرارة الجو ، فى تلك الأرض الجرداء القاحلة ؛ كما أن البدو يستعملون المريسى طوال أشهر الموات الطويلة التى تخلو من الحليب ، بل يمكن القول إن المريسى هو الغذاء الذى يتغذى عليه البدو فى أيام الشدة والقحط التى تمر بهم . ونظرا لأن المريسى هو أفضل ما يمكن أن يصاحب البدو فى رحلاتهم ، فهو المشروب المفضل عند الفجر ، كما أنه شيء ضرورى عند سكان المناطق الحدودية ؛ والمريسى فى واحات الجزيرة العربية له قيمة كبيرة إذ يستعمله سكان الواحات مع طعامهم غير الصحى المكون من التمر ، الذى يعطى وحده قدرا كبيرا من الطاقة والحرارة . والمريسى (وذلك الذى يمكن فركه بين راحتى اليدين ، يمكن خلطه بالماء .) أو إن شئت فقل اللبن المجفف ، له أسماء أخرى كثيرة فى سائر

مناطق الجزيرة العربية ، ففى غربى نجد يطلقون عليه اسم 'البجيلة' bûggila، ويقولون له أيضا 'البجّل' baggl؛ وفى الجنوب وبالقرب من مكه يطلقون عليه اسم 'المُضِير' Mu-thir . والزبد يمثل بضاعة أو سلعة السوق عند البدو الرحل الفقراء : والبدو يستطيعون مقايضة الزبد فى الحضر ببعض الأشياء الضرورية لحياتهم . وبعد أن تأكدت من تواجد المريسى فى الخُرْج ، وبعد أن تأكدت من الحصول على الماء من الطريق كل ثلاثه أيام ، لم تعد تراودنى الشكوك حول القيام برحلات طويلة فى الخلاء ، أو إن شئت فقل : فى الصحراء الشاسعة . يبقى المريسى على حاله دون أى تغيير ، إلى مجىء الموسم التالى ؛ ويكون المريسى بحالة جيدة فى الموسم الجديد اللهم باستثناء أنه يزيد صلابة على صلابته . وأفضل ما يمكن عمله عند هذا الحد ، هو طحن المريسى على شكل دقيق ، وهذا هو ما يفعله أهل القصيم ؛ ثم يقلبونه بعد ذلك مع شىء من السكر ، فى سلطانية ، مع شىء من ماء الصحراء ، ليصبح بذلك شرابا منعشا بعد عناء وحرارة رحله طويلة فى الصحراء .

جميل حقا أن ينصت الإنسان لكلام البدو المفعم بالتأمل ، والذى يعد درسا فى مدرسة الرحالة ذات الإنسانية الفريدة ،- كما أنه ليس هناك أرض أخطر من أراضى البدو ، التى قد لا يمر خلالها أو يتجاوزها إنسان عن طريق الإنسانية ، والسبب فى ذلك أن عقل الإنسان واحد فى كل مكان من هذه الأرض ، وهذا حقيقى ، ويتجلى فى هذا الجنس بكامله ، كما ينطبق ذلك على حيوانات هذه الأرض نفسها - الفراغ من الهموم التى يمكن أن تحيط بنا هنا ، هو الذى يجعل الناس تعيش فى سلام فى ذلك الخواء الخلقى فى هذا الجزء من العالم . وكم هى جميلة تلك الأصوات التى تصدر عن ذلك اللبن الذى يجرى حلبه من الضرع ، فى أوعية العرب وأوانيهم ! هذا الحليب طعام للإنسان وللصحة ، فى وقت القحط والجفاف ، فى ذلك البلد القاحل . هذا هو الوعاء يجرى إحضاره وقد غطاه زبد الحليب ، وهاهم الأطفال يتجمعون حول الإناء ، كما يجرى أيضا عزيمة الضيف على تناول العشاء مع الأطفال ، مستخدما فى ذلك أصابعه ، فى لعق دعوة الحليب الحلوة التى يطلقون عليها اسم 'الرَّغرة' Orghra أو 'الرغروة' roghrwa أو قد يقولون لها : 'الرتوغ' irtugh ؛ وإذا لم يأكل الأطفال الحليب كله ،

يجرى وضعه فى الخضّاضة ، التى يصنعونها من جلد الحيوان ، لمدة لحظة ، ثم تعيد ربة البيت تقديمه للأطفال فى وجبات العشاء ، بعد أن يكتسب طعم الحليب شيئا من الحموضة مما يجعلهم يظنون أنه يصبح أكثر إنعاشا لهم عندما يشربونه .

تتركز أنظار البدو الرحل على التطابق والتوافق ما أمكن مع الطبيعة ؛ كما أن التكاسل بين هؤلاء البدو يعد أمرا من الأمور الصارمة أو القاسية . هؤلاء البدو يتحدثون عن أشياء موجودة داخل أفقهم . فتلك "الحكايات العربية" **Arabian** المبالغ فيها ، والتى تروى عن المدن الحدوديه العظيمه ليست سوى سذاجة دنيوية بالقياس على أحكامهم الطبيعية الصارمة . ومع ذلك ، فإن الكثير من الدم السامى **Semitic** الشرقى يجرى فى عروق هؤلاء البدو ، الأمر الذى يجعل الكثيرين منهم يحلمون طوال حياتهم بالكنوز المخبأة ؛ أو إن شئت فقل بالثروة التى يمكن أن تهبط عليهم من السماء فى يوم من الأيام . والأعراب لديهم بدلا من حكايات المدينة ، تعبيراتهم الجياشة المليئة بالعواطف ، التى قد تتردد فى كل هجره من الهجر البدوية ، كما هو الحال عند بنى هلال . والعرب سرعان ما يصدقون ذلك الذى يروى لهم ويكون خارج نطاق معرفتهم ، ومن ذلك مثلا ما يقال عن الدول الأجنبية . وكلام البدو كله كلام منمق وجذاب ؛ وهم يحكون عن غزواتهم السابقة وعن المغامرات التى قاموا بها فى الصحراء إبان حياتهم . ونحن قد نستمع إليهم وهم يقتبسون فى حكاياهم أوزانا شعرية فيما بين الحكمة والمرح فى القصائد ، وأفضل قصائد الحكمة والمرح هى تلك التى تشيع بين القبائل . ففى كل قبيلة هناك صُنَّاع (قُصَّاد) ؛ وقصَّاد (شعراء) بشر ، هم أفضل ما فى هذا البلد من شعراء . والقصَّاد يتغنى بشعره ، الذى يتملق به جمهور الحاضرين كى يلتقطوا كلماته الأخيرة من كل كوبليه . وأنا فى وجه هذه الطلاقه الشعرية ، قد لا أتمكن ، بل ويصعب على أن أتمكن ، من ذلك الذى يقال فى مثل هذه المناسبات ، إنها لغة عربية بحق . وكلمة 'شاعر' ، أى 'من يَشعُرُ' لا يستعملها هؤلاء القصادون ؛ وقد أجابنى زيد عندما سألته عن تلك الكلمة ، بأن قال لى : إن البدو لا يعرفون هذه الكلمة ، وإنما يعرفون كلمة أخرى "هى نادم" . والمغنى البدوى ينتج أصواتا حاده ومقززة من ربابته المكونة من وتر واحد ويروح يلقى ما يدور فى ذهنه بمصاحبة تلك النغمات ، كما يخرج

الكثير من الأصوات عن طريق الأنف ، والذى لا شك فيه أن تلك أشعار من النوع القديم والعتيق تماما ، فى هذه البلاد ، ولكنها غريبة تماما على آذاننا . هذه الوعول ، التى ترافق الماشية طوال اليوم فى البادية ، هى التى تغنى ، أثناء عودتها فى المساء ، للبشر الموجودين فى البيوت . سألت فى كثير من الأحيان عن قصيدة عبيد بن الرشيد(*) واكتشفت أن كل المغنين فى هذه الديار كانوا على استعداد للتغنى ببعض تلك القصائد . كان شباب الرعاة . من مُنَزل زيد على استعداد للتغنى أمام الغريب بأقوى قصائد الحدو ، أو إن شئت فقل : أغانى الرعى التى يتغنون بها فى فترة المساء (كما أن كلمة 'رباب' أو 'ربابة' Rabeby ربما كانت هى الكلمة الإسبانية Rabel، التى كانت تدل فى إنجلترا قديما على Revel أو Rebibel والتى معناها 'التَّلذذ') والبدو يصنعون الربابة من إطار أى صندوق من الصناديق التى قد يحصلون عليها من مدن الحضر : وهم يمررون عصا خلال إطار ذلك الصندوق ، ويحدثون فى تلك العصى ثقبا لوتد من الخشب يطلق عليه اسم ملوًى الآلة الموسيقية ؛ ثم يشدون على فوهة الصندوق قطعة من جلد الماعز ؛ وهم يجلبون الأوتار من الشَعر الذى ينمو فى أذيال الخيل ؛ وهنا تصبح الآلة الموسيقية جاهزة للاستعمال .

خيال البدو الرحل عال تماما ، وهم يغلفون ذلك الخيال بالدين . والبدو لا يرون من حولهم سوى ضنك التربة وفقرها ، فضلا عن امتلائها بالأخطار وعجز تلك التربة عن أن تحفظ على هؤلاء البدو حياواتهم ، ويرون من فوقهم السماء ، موطن الخلاص والإنقاذ الربانى . هؤلاء المسلمون لديهم ضمير طبيعى قادر على تأمل الخير والشر أكثر من أى أناس آخرين ؛ والكل يمكن أن يلاحظ هذين الأمرين فى كل تعاملات هؤلاء البدو مع الجنس البشرى ، ونحن نستطيع الوقوف على فهم مواطنى الصحراء الراقى من خلال الخطاب الذى يدور بينهم (الذى يتردد بين الاعتدال والكلام الرجولى الصارم)

(*) عبيد بن الرشيد : هو الساعد الأيمن لأخيه عبد الله بن الرشيد ١٨٣٥-١٨٤٧ الذى أعتمد عليه فى تثبيت دعائم حكمه فى إمارة شمر وقد سجل عبيد بن الرشيد – وكان شاعرا موهوبا – الانتصارات التى حققها فى واحدة من أشهر قصائده . (المراجع)

وفى تصرفـاتهم الحـرة غير المقيـدة . وأنا ، عند هذا الحد ، تقفـز إلى ذهـنى ، بعض المحسنات القليلة التى توشى كلام البدو : كما هو الحال فى التناقض اللطيف التالى ، 'لا ! الله يسلِّمك La ! Ullah yesellimk . والبدو فى مقام التصحيح يقولون : 'لا ! la الله Ullah هاديك 'Hadīk، وإذا ما أرادوا الجمع بين التناقض والتصحيح يقولون : 'الله Ullah يرحم yerham والديك 'weyladeyk ؛ أو 'يهـادى yuhàdy والديك wayladeyk الجنّه ' 'il'ej-jinna . والبدو عند التعجب والدهشة يقولون ، وهو أمر يشيع فى حياتهم السامية كلها : 'الله ! 'Ullah أى أنهم يستخدمون لفظ الجلاله ، ويقولون أيضا : 'أنا Ana أُشْهُد ! 'ushhud (المقصود هنا 'أنا أشهد') ، ويقولون أيضا : 'يقدر yukdur الله ! 'Ullah؛ كما يستعملون أيضا التعبير الذى يقول : 'رحمة Rahmat الله ! Ullah 'وفى أحيان كثيره قد يقول العامة منهم (مستخدمين فى ذلك تعبيرا بدويا يضحك منه أهل الحضر ،) : 'أنا ana قفل efl نعم والله ! - ' ayowwella ' وأنا أترك معنى هذا التعبير للعرب أنفسهم . والبدو عندما يكونون مهمومين يتنهدون وهم يقولون "يا ya ربّى ! Rubby" عشاق الهدوء فى المنازل ، يتسم كلامهم بالسلام والوداعة ، كما يتسم جدالهم بالأدب فتراهم يقولون : "وا wa لو "low، التى يعنون بها "حتى وإن وصل الأمر إلى هذا الحد " ؛ ويقولون أيضا : "سلَّمت "Sellimt بمعنى "أعطيك إياه" . والبدو عندما يعترفون بخطأ وقع عن طريق الجهل يقولون : "أدخل udkhul على الله "al' ullah بمعنى "إن كنت قلت شيئا غير لائق ، فحسبى الله" . والبدو عندما يتمنون الخير لعابرى السبيل أو الغريب يقولون : "الله Ullah يوصِّلك بالخير "Yuwasselak b'il - kheyer، ويقولون أيضا : "إن شاء الله Insh' ullah ما تشوف الشَّر " ma teshuf es-shurr؛ كما يقولون أيضا "الله Ullah يذكرك yethkirak بالخير . " b'il-kheyer والتعبيرات البدوية التى يستعملونها فى مقام الشكر والامتنان هى : "عافية àfy عليك " aleyk أو "العافية " el-afy، وهم يعنون بهذا التعبير "أتمنى لك الصحه والعافية " ، أو قد يقولون : "جزاك Jizak الله Ullah خير "kheyer بمعنى "هيأ الله لك الخير !" . والبدو عند الفراغ وراحة البال ليس لديهم من شىء فصيح غير هذه التعبيرات . والسياق البدوى يمتاز بالإيجاز والتوكيد . كما أن هناك اتساق واضح فى كلامهم ، بالإضافه إلى

الدلالة أو المعنى السريع اللماح . وأهل الحضر من سكان الجزيرة العربية يحتقرون كلام أبناء الصحراء ويزدرونه ؛ وأهل الحضر ، هم أنفسهم طائفيين متشددين فيما يتعلق بقراءة القرآن منذ القدم . ولما كان الأعراب من الآسيويين ، فهم دائما من المتحدثين المبتسمين . وكلام البدو كله هو شكل واحد من أشكال اللغة العربية ، ومع ذلك فكل قبيلة تستعمل هذا الشكل استعمالا خاصا ، هم يطلقون على ذلك الاستعمال الخاص اسم "لغره" loghro(*)، والمعروف أن الجيران يسخرون دوما من لغات بعضهم البعض . "فتراهم يقولون : كلامهم 'أعوج' إلى حد ما ." من ذلك مثلا أن الصوامت التى تجيء فى نهاية السياق تعتريها لثغة على ألسنة بدو الفقارة . فى حين أن كلام المواهيب كان واضحا ورجوليا . والصوت البشرى ، الذى يطلق عليه البدو اسم "حس" hess، فى إطار الهواء الجاف ، وفى ظل السياقات المتقنة التى بها الكثير من مخارج الألفاظ الصعبة فى لغة البدو ، يصبح الصوت البشرى فى ظل كل ذلك ، واضحا ومدويا ؛ اللهم باستثناء أن يكون ذلك الصوت صادرا عن حلق أجش مبحوح ناتج عن بؤس صادر عن قلب مكلوم .

هناك أيضا ذلك الذى يمكن أن يغضب ويسيئ من كلام هؤلاء البدو . والمعروف أن الفراغ هو والحقد يعكران صفو الذهن ؛ الأمر الذى يجعل من الصعب على هؤلاء البدو ، أثناء الكلام ، تذكر اسم الشخص القبلى الذى يجلس إلى جوارهم ؛ يضاف إلى ذلك أن فضولهم عجيب فى التدخل فيما لا يعنيهم ، وشك الواحد منهم فى الآخر ، والتعلق بالتفاهات ، والمداعبات الصارخة ، (إذا ما أرادوا الحصول على شيء ، والتى تقوم دوما على الخداع والمخاتلة ،) والوعود الوقحة هى والإلحاح أو اللجاجة السيئة . زد على ذلك أن كلام البدو الظالم الجائر ، الذى يمكن أن يضاف إلى ما سبق ، غالبا ما يفضى إلى جلبة كبيرة تعكر صفو "السلام الإلهى" فى الخيمة البدوية ؛ هذا الكلام تستنكره بقية الجالسين الصامتين على مضض ، الذين يتصدى الأفاضل منهم للقيام

(*) المقصود هنا هو " لغة " ولعل الخلط ناتج هنا من صعوبة نطق صوت " الهاء " بعد صوت " الغين " على المؤلف ، وهو إنجليزى بطبيعة الحال . (المترجم)

بدور صنّاع السلام . يضاف إلى ذلك أن كلام الرعاة يكون مليئا بالهزار والاستهتار ، ويعج أيضا بالكلام الفاحش الذى يقولونه على مرأى ومسمع من الجنس الآخر : اعتقادا منهم أن ذلك من قبيل المرح البرئ ، نظرا لأن الله قد خلق طبيعتنا على هذه الشاكله . والساميون ، من المستحيل عندهم مطلقا التجديف ، بالطريقة التى يتبعها أفراد جنسنا نحن ، على عناية السماء الإلهية . والمعروف أن الدين السامى Semitic هو بمثابة النمو الطبيعى للتربه داخل أرواح الساميين ؛ كما أن أى تهاون فى ذلك الدين يكون بمثابة وداع لحظة من لحظات الحياة ، ووداع أيضا لتقديراته الدنيويه : هذا يعنى أن قلوب هؤلاء البدو القاسية الظالمة قادرة على إحداث الضرر والسوء بكل صوره ، على ألا يتطرق ذلك القنوط إلى ذات الله العلية . ومن منطلق تلك القناعة الدينية عند أولئك البدو ، والتى مفادها أن حياة الإنسان يتعين ضربها حتى الممات ، بالنسبه لكل من يتمرد على الله وكل من يحتقر الإيمان والعقيده ، من منطلق أن ذلك ينبع من الحظر الشديد الذى يحيط بترحالنا بين هؤلاء البدو ؛ حيث يوجد فى كل خيمة من الخيام ، من يرعى مسألة الدين بطريقة وحشية فظيعة قد تصل إلى حد قتلنا ، (الأمرالذى يمكن أن يقوم به الرجال كلهم من باب الدين وإعمالا لعدالة السماء) . ولكن فيما عدا ذلك لا يرعون اسم الله طوال اليوم (مثلما كان الحال فى إسرائيل القديمة) . مؤكدين كل كلمة خفيفة وكل ضحكة خفيفة أيضا بالحلف والقسم . خطأ الرعاة الجسيم لا يخلو مطلقا من الطبيعة السامية Semitic، معنى ذلك أن روح هؤلاء البدو تكون جشعة فيما يتعلق بعيشهم وأرزاقهم ، كما تكون جشعة أيضا فيما يتعلق بزيادتهم ، وبالرغم من تشتت بنى إسرائيل بين أكثر الأمم تأدبا ، فمن ذا الذى لم يلاحظ ذلك الطبع فى بنى إسرائيل ؟ ويوسف الصغير ليس سوى مجرد راوٍ لوالدهم عن ذلك الحديث الفاسق الداعر الذى جرى بين أخواته فى الحقل ؛ هذا هو حال البدو الرحل من الساميين . فلسطين ، هى والبلاد فيما وراء الأردن وإيدوم (*) أعطيت لأبناء

(*) أيدوم Edom ويصح فيه أيضا Idumaea ، وهى منطقة فى جنوب فلسطين فيما بين البحر الميت وخليج العقبة . (المترجم)

إبراهيم هم وأبناء اخوته فلفظوا الأمم التى كانت تسكن تلك الديار قبلهم ، كما دنّسوا الأرض : وقد حُذِّر بنو إسرائيل ، من أن تلفظهم الأرض هم أيضا . ونحن نقرأ عند (سيدنا) موسى عن ذنب البدو الرحل وبقائهم مع الماشية ؛ وقد أُمِر الناس بالقضاء على الذنب عن طريق رجم بنى إسرائيل بالحجارة : وهذا فى الجزيرة العربية ليس سوى سخريه مرة يقرها الكبار بالأنين والتأوه والسب واللعن . ولما كان العرق الرعوى على هذه الشاكله ، كان لابد لإسرائيل أن تنزلق منسلخة عن دين موسى ، إلى عباده الأوثان السهلة الحسية التى كان يمارسها الكنعانيون القدماء .

وإذا كان لنا أن نوجز القول عن العرب ، فى أسوأ أحوالهم سنجد أنفسنا نقول : إن فم العرب ملىء باللعن وبالكذب وبالصلوات أيضا ؛ وقلب العرب عبارة عن متاهة خادعة . وقد سبق لنا الحديث عن تحضرهم ، أو إن شئت فقل : الحضر منهم ؛ ومزاجهم إذا ما اعتل يطفح مرارة وسموما ؛ والمَسبَّة عند هؤلاء البدو صارخه وقاسية وجوهرها الازدراء والاحتقار . والبدو يقولون : "الله **Ullah** يلعن **Curse** أباك **thy fa-ther** (استعمال الضمير **thy** هنا أفضل من **Thou**) ، وأبا أمثالك ! يُحرق أباك **burn thy father !** هذا وقود بشرى لنار جهنم ! لا بارك الله فيك ! أى حرمك الله من المشاركة فى خيره ! ينهدم عليك بيتك !" حدث أن سمعت ذات مرة ، شخصا محترما يوبخ ولده الصغير الطائش ويؤنبه قائلا : "الله يشج بطنك ! يلعن أبا (جسدك) تلك الرأس والبطن ! عذَّب ذلك الوجه الكريه !" كما سمعت شخصا آخرا يوبخ ويلعن شخصا آخرا وهو يقول : "لعنتك الملائكة أجمعين ، ولعنك المسلمون أجمعين ، وليلعنك الكفار أجمعين !" معروف أن سلاطة اللسان أمر طبيعى عند العرق السامى شبه المخنث . النبى يدعو على من أزعجوه : "أسفك دماءهم بالسيف ، وأمت أطفالهم جوعاً ، وعقِّم نساءهم ، ورمِّل زوجاتهم : سوف يصرخون من داخل بيوتهم عندما ينزل الغزو عليهم فجأة . يارب ، لا تغفر لهم تجاوزهم ، أقلق أرواحهم ، ودمرهم من تحت السماء ، وأحِلّ عليهم لعناتك ." وهذا هو رجل طيب يلعن أطفاله العصاة لعنا وبيلا . والأعراب يؤكدون كل ما يقولون بالأيمان وبالقسم ، تلك الأيمان التى تعد أمرا هينا جداً ، بالرغم من أن الأعراب يقولون " وحياة **Wahayát** الله " **Ullah**، أو قد يقسم الإنسان بنفسه

ويقول "عليّ Aly لحيتى lahyaty ". أو "وحِياة Wahyât ذقنى dúkny ". هذا يعنى أن الأعرابى يقسم بتلك الأيمان طالما أنها لن تكلفه شيئا ، هذا إن لم يكن زعلانا أو حزينا ، أو عندما تزداد كراهيته . وإذا ما أقسم الأعرابى بدينه ، فإن ذلك القسم يكون قليلا جدًا فى أغلب الأحيان وبكثير جداً من التحفظ الذهنى . وهم يمدون الأيدى إشاره أو توكيدا لوعد من الوعود ؛ هذا يعنى أن ذلك وعد حقيقى ومنظور . ونقرأ عند حزقيال Ezekiel (*) أن شيوخ الأسْر يقدمون الوعود ولا يبرون بأيديهم التى قدموها . والبدوى يقسم على أمر حقيقى قائلا : والله Wellâhi، أو قد يقسم قسما مزدوجا ، وهنا تقل درجة اليقين فى القسم عندما يقول : والله بالله" . Wellâhi - Billâhi والبدوى عندما يقسم بهذه الطريقة يصبح القسم مجرد كلمة ، قد يراعيها إذا ما أراد ذلك ، إذ ليس هناك ما يمكن أن يحول بينهم وبين مصلحتهم ؛ يضاف إلى ذلك ، أن البدو فى لحظة من لحظات التطرف قد يحنثون فى كل شىء . هناك شكل آخر من أشكال القسم : "وُلله - Wullah بُلاَّه "Bullah وهم يقسمون به من باب السخرية من اليقين ومن باب النفاق . وهناك ما يسميه البدو "حلف halif اليمين . "yemîn فى حلف اليمين هذا يتناول الشخص ساقا من الحشيش (العشب) فى قبضة يده ويقول الكلمات التالية : "وحياة Wahayât هذا hâtha العود " el-aûd والرَّب Wa'r-rubb المعبود el-mabûd ". وعندما كنت أطلب من رفاق طريقى الجدد ، عند البدايه ، أداء ذلك القسم ، على أن يضيفوا إليه "إنى ما أدشرك adeshurak (*) كانوا يردون علىّ قائلين : "مصيرنا وقدرنا واحد طالما كنا سائرين فى الطريق سواء عشنا أم متنا ؛ ولكنى أقول أكثر من ذلك : سأوصلك إلى هناك ، ولكنى أموت ، وبحق الله ، لن أتخلى عنك ." كنت أمسك بأيديهم وأجبرهم على ذلك ، ولكنهم كانوا يقسمون (لكافر) على غير رغبة منهم ؛ ولكن البعض منهم خانونى بعد ذلك اليمين : وعندما كنت ألومهم وأزجرهم على ذلك زجرا شديدا ، كانوا يقولون لى : "الأيمان التى تقسم لواحد من الكفار ليست ملْزِمة !" صبر

(*) إصحاح حزقيال فى العهد القديم . (المراجع)
(**) أدشرك : كلمة بدوية بمعنى " أتخلى عنك " (المترجم)

الإنسان وجلده ، إلى حد احتقار الموت ، عندما يتعلق الأمر بشرف البدوى ، هو فى رأى البدو جسارة رجل مجنون : وعندما يصبح الموت أمرا محتوما هناك رب رحيم ، والبدو يعتقدون أن الجسم البشرى ينسحب من أى نزاع عندما لا يكون متكافئاً .

والبدوى إذا ما أراد أن يبعد عن نفسه الشك الظالم تراه يقول للآخر : "ليس بينى وبينك إلا الله ." هذه الكلمات نفسها نسمعها على لسان جوناثان Jonathan، فى العهد والميثاق الذى بينه وبين الصديق داود المتسلق . هناك أيضا بعض الأيمان ، التى يجعلها العرف ملزمة للقبائل ، ولا يمكن لأى إنسان شريف أو نبيل أن يحنث فيها أو ينتهكها ، وسوف أورد هنا ذلك القليل الذى تأكدت منه ضمن هذه الفئة من الأيمان ، – البدوى ، الذى يعهد إليه بماشية بدوى آخر ، غالبا ما يكون قرويا ، يقدم روايته السنوية عن الزيادة بين هذه الماشية ، بدون تدليس ، وذلك طبقا لوعد أو يمين أو قسم بأنه لن يلجأ إلى الغش أو الخداع ، إضافة إلى أن صاحب تلك الماشية يكون قد سبق له أن رسم دائرة بسيفه حول ذلك البدوى أثناء أداء القسم . وعندما يضيع أى شىء من منزل من منازل البدو ، فإن صاحب ذلك الشىء المفقود أو الضال ، أن يطلب ممن يشاء بأنه لم يأخذ ذلك الشىء ، مثلما أخذ أهاب Ahab قسما من جيرانه ، الذين يطلق عليهم اسم "كل أمة ومملكة" ، إن مواطنه وعدوه إلياس Elias لا يوجد بينهم . رأيت بعض المتهمين يذهبون مع المتهم إلى موقد النار للرد على الاتهام ؛ وهم يستدعون ذلك كى يقسم على سيوفهم . وهذا القسم يسير على خطوط محددة ، هم يرسمونها بسلاحهم على الرماد المتخلف عن النار . هذه الخطوط عبارة عن علامة الصليب داخل دائرة ⊕؛ وبعد ذلك مباشرة يتناول مؤدى اليمين حفنة من رماد الحفرة ، هذا القسم من النوع الذى يتوجب على المدعى بعده أن يشعر بالقناعة والارتياح . هذا هو زيد الذى اتهم بأخذ مال جاره – وكان ذلك الاتهام أمرا متكررا – على استعداد للقيام ، وهو فى منتهى السعادة ومحيًا جامد تماما ، بفرد عباءته وتسويتها فوق الأرض ، ويضع من فوقها قبضة يده مفرودة ، ويصيح قائلا : "ها !" عارضا على الجميع استعداده للحلف أو إن شئت فقل : القسم على أن الأمر لم يكن كذلك ، وأن شيئا من ملكية المدعى لم يكن فى حوزته ، ثم يقسم بلفظ الجلالة قائلا : "الله !" . هناك بعض

الأيمان الصحراوية التى تكون ملزمة حتى بين الأعداء . أعرف رجلا من بنى عطية كان فى زيارة الموءاهيب ، يوم أن كانوا يخيمون فى ود وصداقة مع بدو الفجير fejir، سمحوا له بالسمر والحديث والتجوال بين أعدائه الطبيعيين ، وذلك بعد أن أدى اليمين أمام حفرة النار ، أمام مطلق (شيخ القبيلة) ، بأنه لن يتآمر على أعدائه . هذا هو *النمط السائد لحلف اليمين بين البدو الرحل الذين* تمكنت من تقصى ذلك الأمر عندهم ، بما فى ذلك الأيْمان المهيبة ، ومكان القسم ، وحماية النخوة أو الشهامة . وبالرغم من سؤال البدو لى ، فى كثير من الأحيان ، عن الكلام المرادف عندنا لمثل هذه الحالات ، إلا أننى – وقد شاء الله ذلك إلى النهاية – كنت أتجاهل سؤالهم عن هذا الأمر مرة ثانية . وفى اللحظات التى كانوا يعيروننى انتباههم خلالها ، كنت أفضل أن أؤكد للجميع أننى أهتم بطبواغرافيه بلادهم فى المقام الأول ، ولا ألقى بالا للأمور الأخرى ، لأننى لم يخطر ببالى مطلقا التوسل إلى أى إنسان طلبا للنجاة .

أضف إلى ذلك ، أن هناك بعض الإشارات أو الإيماءات السائدة بين البدو والتى لها مغزى ودلالة كبيرة . فأنا عندما أداعب لحيتى تجاه شخص من الأشخاص فذلك يكون من قبيل التوبيخ والزجر والتأنيب ، على تصرفه الخاطئ معى من ناحيه ، وتحذيره ، من الناحية الأخرى ، بأن يتدبر عواقب تعامله السيئ معى . أما إذا قمت أنا بلمس لحيته ، فذلك يعنى أننى أذكره بالإنسانية التى تجمع بيننا وأذكره أيضا بشهادة الله الموجود من فوقنا . واللحية فى الجزيرة العربية تعنى الشرف ، وشد الذقن هو أشد درجات الإهانة وعدم الاحترام ؛ والبدو يقولون عن الشخص الأمين : "لحيته lahyat-hu طيبة taîba" . ويقولون عن صاحب القلب الدنىء الرذيل : "ما mâ له lihu لحية lahya" والمتوسل الذى يربط ، أو إن شئت فقل : يعقد عقدة معينة – حسبما قالوا لى – فى غترة (*) شخص آخر ، يعنى بذلك أنه قد أنقذ نفسه : وإذا كان ذلك الثأر نتيجة قتل فلابد من الصفح إرضاء لله ! تقبيل جبهة الغاضب ينهى غضبه وثورته ؛ ولابد أن يكون

(*) غترة : غطاء رأس البدو (المترجم)

ذلك التقبيل بطريق المفاجأة والمباغتة ، وإلا قامت يدا الغاضب بالمقاومة والامتناع عن ذلك التقبيل . ومن المؤكد أن هناك مثال قديم جداً على تلك الإشارات الطقوسية السامية ' Semitic مُسَجَّلٌ عن (سيدنا) إبراهيم ، الذى يطلب من كبير خدمه أن يضع يده تحت فخذه ، كى يكون يمينه (قسمه) صحيحا . وثمة إشارة بسيطة تدل على طلب التسامح . والحماية هى أن تقول : "أنا Ana نزيلك "Nuzîlak، أننى نزلت فى خيمتك " ؛ أما إذا كنت تخشى الخيانة فيمكن أن تقول : "أنا Ana نُصَّك Nusîk(*) أو "أنا Ana بوجهك Biwejhak يا شيخ "Yasheykh . وإذا أردت المزيد من التأثير وإستدرار العطف قل : "ترانى Terâny بالله Billah يا شيخ "Yasheykh ، أو قل "وبك Wabak أنا دخيلك " Dakhilâk ؛ وكل هذه الإشارات تعنى : "والله أنت ترانى ، وأنا أدخل بالقطع ، ياسيدى ، فى حمايتك ." وطوال تجوالى الطويل والمحفوف بالمخاطر فى شبه الجزيرة العربية لم أستعمل كلمة "دخيلك" سوى ثلاث مرات ؛ منها مرتين عندما تخلوا عنى فى الصحراء ، عندما وصلت إلى خيام الحطيم Heteym (وهم أقل شرفا من البدو ، بل إنهم رفضونى) ؛ والمرة الثالثة قلتها لرئيس الحرس فى حائل عندما أساء عبيد الأمير معاملتى فى السوق . وقام رئيس الحرس بإبعاد أولئك العبيد عنى على الفور ؛ أدى استعمالى لتلك الإشارة مع الحطيم إلى استقبالى بشىء من التسامح .

سبق أن قلنا ، البدو على استعداد لتأكيد كل كلمة بيمين ، وهذا يتجلى فى القول الشائع بينهم "وحياة" Wahyat ، ولكن هذا النوع من القسم غير موجود فى البلاد الوهابية(*) ، التى يعد القسم فيها باسم أى مخلوق نوعا من الكفر "والوثنية" . والبدو يقسمون على الجمار أيضا باستعمال القسم "وحياة" كأن يقولون : 'وحياة هذه النار ، أو وحياة هذه القهوة ؛ وهناك قسم آخر هو "حياتك" Hyatak أى 'وحياتك' ؛ والبدو يستعملون قسما آخر يقول "وحياة Wahyât رقبتى Rukbaty ". وكل أنواع القسم هذه ترد على لسان البدو لتوكيد كلامهم . أما القسم "وحياة ابنى" Wahyat Ibny فهو قسم

(*) " نصك " بمعنى " نصفك " . (المترجم)
(**) البلاد الوهابية : الأصح البلاد السعودية . (المراجع)

لا يتردد كثيرا على ألسنة الرجال ولا يستخفون به . ونساء البدو من قبيلة البلّى لديهن قسم يقول : "وحياة Wahyât وليدش(*) " Weyladich ، وهن يرددن ذلك القسم كثيراً خلال حديثهن مع بعضهن البعض ، والبدوية الثرثارة تقول : "وحياة Wahyat ولادى Weylady" بمعنى "وحياة أولادى" . وقد سمعت امرأة بدوية وهى تقسم متوعدة طفلها فتقول : "وحياة أبوك ، اللى خلّفك منّى !" ومن بين كتبة الإنجيل نجد يوسف يحتج على اخواته قائلا :"وحياة فرعون" ، ويشيع بينهم بعد ذلك قسم يقول : "وحياة ربّنا" ، ونجد يهوه (الله) يقول : "يقول الرب ، لأنى موجود" . ولكل قبيلة طريقتها الخاصة ، حتى فى هذا الجزء من الكلام . من ذلك مثلا أن المواهيب الذين هم مثل جيرانهم من البلِّى من حيث حلاوة المعشر ومعسول الكلام ، من عادتهم أن يقسموا ، دون استخفاف بضوء النهار المقدس ، كما يقسمون أيضا بساعة الصلاة عندما يقولون : "وحياة Wah-yat المسيّه el-Missîeh هذه " halha بمعنى "وحياة سويعة الغروب هذه ." والبدو يوقفون اللجاجة والإلحاف بالمزيد من حدة الطبع عندما يقولون : "فركه" ". Furrka أو قد يقولون : فُرّك Furr'kعين Ayn أبوى ". Abûy والأطفال العصاة المتمردون يقولون لهم : "سُبّك ! " Subbak، فيرد الأطفال على ذلك : "يسُبّك Yussbak أنت ". Ent (...) (**) كان مُضيفى فى المدينه (المنورة) فى منطقة خيبر ، رجلا محترما ، وكان من عادته أن يوبخ ولده الوحيد توبيخًا شديداً ، بذكر اسم والدته المتوفاه ، التى كان يحبها حبا جما . وهذا هو شاؤل(***) Saul فى الكتاب المقدس ، وهو فى موجه غضبه ، يعنف ولده ويوبخه بإتيانه على ذكر عُرْى أمه ، تلك المرأة العنيدة المتمردة ، وهذا هو ولدها جوناثان Jonathan يهب واقفا تاركا طعام أبيه ، ومبتعدا عنه فى نوبة من الغضب الشديد .

طريقة الأعراب فى الإستئذان لا تتفق أبدا مع العرف أو دلالة الاستئذان عند الأوربيين . والعربى ، الذى هو لطيف ودمس الأخلاق حتى هذه اللحظة ، على استعداد

(*) وليدش : تعنى وليدك إذ من المعروف أن البدو عموما يعمدون إلى كشكشة الكاف فى مخاطبة النساء . (المراجع)

(**) عبارات وشتائم تخرج عن حدود الأدب رأينا حذفها لخدشها الحياء . (المراجع)

(***) شاءول : هو أول ملك نصب على العبرانيين فى القرن التاسع قبل الميلاد . (المراجع)

أن يعطيك ظهره بوجه عابس ومتحجر تحجراً غريبا ليتركك ويقاطعك إلى الأبد . يضاف إلى ذلك أن العرب يقولون كلامهم الأخير كما لو كانوا قد أعطوك ظهورهم ؛ ويمضون إلى حال سبيلهم ولا يعيرون الأمر اهتماما بعد ذلك . وهذا أمر طبيعي عندهم ، ولا يدخل في عداد الانعدام الشديد للإنسانية ، وعلى العكس من ذلك ، يتعين عليك أنت أن تتكلم عندما يغادر أحد صحبته ويفترق عنها ، فتقول : "إرحل في سلام الله وأمنه " . ألم تأكلا سويا ، ولم يحدث بينكما ما يدعو صاحبك للاستئذان والانصراف ، كل الناس ، في نظر البدو ، وفي تقديرهم ، ليسوا سوى مجرد حبيبات بسيطة تحت عرش الله سبحانه وتعالى ، وهم جميعا من بذرة الإنسانية المشتركة . ولكن الضيف يقول وهو ماض إلى حال سبيله ، وبعد أن أدار ظهره في بساطة غاية في الصراحة : "نسلِّم Ne-sellem عليك Aleyk ". زد على ذلك أن العرب يقل شكرهم وامتنانهم لكل ما لا يدخل ضمن طعامهم ، وهم يستقبلون مثل هذه الأشياء استقبالا فاترا ؛ "وهم يقولون ، قليل جداً ، زد ، زد عليه ،" ولكن النفوس الطيبة سرعان ما تقول : "بس ! "Bess بمعنى "كفى" وتقول أيضا : "واجد ! Wajed(*) بمعنى "هذا كثير" وتقول أيضا : "كفى "! Keffy بمعنى "هذا يكفيني ."

(*) كلمة " واجد " Wajed يترجمها المؤلف بـ there is found (يوجد) والصحيح " هذا كثير " . (المترجم)

الفصل العاشر

البدو الرحل فى الصحراء : زيارة إلى تيماء

عام عصيب للفكارة . قبيلة الشمال . لغز النصرانى . السايح أو الجوّال العالمى . دمشق "جنة الدنيا" . النصرانى ، سواء أكان باحثا عن كنز أم جاسوسا ؟ 'أهدى الله النصر للسلطان' . خيول النصارى هى خيول لحمل الأمتعة على ظهورها . الفجير بصفتها قبيلة من الخيّالة . هم يخشون ، سماع ما يقال عن جموعنا المسلحة . الحرب فى القرم . 'لحم النصارى أفضل من لحمهم' . كيف يمكن للنصارى العيش ، بدون نخيل date فى أرضهم ؟ النصارى يسكنون أرضا تقع فيما وراء الفيضانات السبع . 'الغريب للذئب' . النصرانى فى أرض البدو . تعجبوا من أننا لا نحمل سلاحا فى بلادنا ,بدو اللأب الرُّحل والديرة القطبية . أرض النصارى مكتظة بالسكان . الشهب والنيازك تسقط على رءوس الكفار . الفن الهندى . جمل النصرانى جرحه مستعصيا . شياطين الصحراء . ودائع البدو الرحل فى الصحارى . الصلوبة . نواهى بطريرك الصلوبه . حرفهم الأرضية والصيد الذى يتفوقون فيه على الأعراب . هم لا يريدون ذلك . رحلة لإحضار المؤن من تيماء . بنى كلب . الواحة الخضراء فى مرمى البصر . أبراج البساتين . تيماء ، إحدى مستوطنات الشمَّر ، شديدة الازدهار . آبارهم هى آبار القدماء . تيماء اليهودية (تيما المذكوره فى الكتاب المقدس) . أهل الحضر . نار القهوة النجديه . صالة القهوة . الكمان ممنوع فى ممتلكات بن الرشيد . الرُّحيل ، زواج

شيخ بدوى من امرأة حضرية . خسوف القمر . ممثل بن الرشيد المقيم . المركبه الأبهة لأمراء الشمّر . تجارة الرقيق . أحد مبانى تيماء القديمة . النقش . الحدّاج . السّوانى . سليمان والحريم من أهل بيته . قبر فى غير موعده . اقتصاد تيماء . إهداء ثمار تيماء للغرباء وعدم بيعها لهم . تمر تيماء . التمر عُمْله . أبناء الدمشقيين فى تيماء . قصر زيلّوم . نقش له عينان . الواحة قاع من اللّهَمْ . الطريق إلى الجوف . صحبة المساء . يلومون دين النصارى . دين المسيح . متزوج فى عصمته خمس عشرة زوجة . الوصايا الموسوية . النصوص المقدسة القديمة التى يقولون أننا زيّفناها . "أهل النصوص المقدسة ." تيماء الإنجيلية . القبليون يرحلون عن تيماء فى الليل . الفكارة يخشون ابن الرشيد خوفا على ديرتهم .

***

كان ذلك عاما صعبا على بدو الفكارة : إذ كانت فرائصهم ترتعد من ابن الرشيد ويخشونه ؛ كانوا يخشون أيضا من أن توصد خيبر فى وجوههم ،– "خيبر هى ميراث العنزى ،" الذى تأكل منه (التمر) ، تلك القبائل الموجودة فى الجنوب طيلة ثمانية أشهر من بين الاثنى عشر شهرا كل عام . يضاف إلى ذلك أن العام كان من الأعوام التى توسم بأنها من أعوام الجراد ، أى الأعوام التى تأتى خلالها أسراب الجراد على الأخضر واليابس . ناقش رجال القبائل فى مجلسهم مسألة "حتمية عودتهم من جديد إلى الحوران ، أو إن شئت فقل : إلى "أرض الخبز" تلك الأرض التى يقولون عنها ، (تماما مثل بدو بنى *إسرائيل المترحلين القادمين من الصحراوات المنخفضه*) : "*أرض* الشمال الطيبة ، التى يتوفر فيها الحليب ؛" ويقولون عنها أيضا إنها "الشام أو سوريا العليا . وأنهم سوف يبقون مثلما حدث من قبل فى النَّجيِّرة **Niggera** ، التى تقع فى مضارب أقربائهم الذين يمثلون النصف الشمالى من قبيلة ولاد على ؛ وهم يقدرون المسافة إليها بحوالى خمسة عشر رَحْلة ، يقطعونها ومعهم كل ماشيتهم وعائلاتهم ، فى المنطقة الواقعة خلف قرية تيماء . لقد سبق لهؤلاء البدو التخلى من قبل عن أرضهم فى مناسبة من المناسبات : إذ قام بدو الفجير **Fejir** ، بسبب نقاش دار بينهم وبين قبيلة

شقيقة هى القسم الجنوبى من ولاد على ، قاموا بغزوهم فى الدار الحمرة وأخذوا منهم إبلهم . قتل الكثيرون فى ذلك الغزو ، وقام الأقارب المغلوبون على أمرهم بالاستجارة بابن الرشيد ، الذى أصدر حكما يقضى بتعويض هؤلاء البدو عن خسائرهم . وطبيعه الأعراب تمنعهم من إعادة الغنيمة التى حصلوا عليها ، وبخاصة عندما يكونون يضمرون سوء النية والطوية لبعضهم البعض ؛ من هنا وتحاشيا لخوفهم من الأمير ، انسحبوا إلى منطقة نائيه من البلاد السورية ؛ وفى هذه المنطقه النائيه ، ومع الملابس البسيطه التى كانوا يرتدونها ، وفى ظل ذلك الشتاء الطويل القاسى الذى لم يكونوا متعودين عليه ، وفى ظل تلك الحمى المعدية التى انتشرت بينهم فى اليوم التالى ، فى ظل كل ذلك مات منهم عدد كبير ، كانت الغالبية – بحكم أن الضعيف هو الذى يتشبث بالجدار – من بدو الفجهات Fehjât المساكين ، هؤلاء الأشقياء التعساء الذين لازمهم الحظ العاثر بل وظل يطاردهم إلى نهاية الكوارث الطبيعيه كلها . – دفن بدو الفجهات ، فى الشمال ، نصف رجالهم الكبار ، الذين قدر عددهم بحوالى عشرين رجلا . يعيش دوما مع القسم الشمالى من ولاد على ، فخذ من الفكارة ، هو الكليب el-Kleyb والشيخ فندى Sheykh Fendy؛ هذا الفخذ قد لايسمح له ، بالبقاء فى تلك المنطقة أو ميراثها نظرا لخلاف مع قبيلة بشر حول مقتل أحد الأفراد .

كان وجود النصرانى فى أرض الأعراب لغزا بالنسبة لهم ؛ رددوا علىّ سؤالا كرروه ألف مرة ومرة ، وكانت بقية الأعراب تحاول عرقلة ذلك السؤال ، ومع ذلك ظلوا يطرحون علىّ السؤال التالى : '(سألونى) ما المسافة ، وفى أى جزء تقع بلادك ؟' قلت لهم : "راكب الناقه يمكن أن يصل إلى جيرانى ويكون بينهم ، قبيل انتهاء العام ." – لم يكن يخطر ببال هؤلاء البدو أن الدنيا كبيرة على هذا النحو ! من هنا قالوا لى : "بلد خليل يقع على بعد مسافة كبيرة جداً ، وهل يتصور أنه قطع هذه المسافة الكبيرة ، لمجرد رؤية الأعراب وزيارتهم ! ترى ، ما مغزى ذلك ؟ خبرنا ، بالله عليك ، يا خليل ، ألم تأت للتجسس على هذه البلاد ؟ إذ ليس من المعقول أن يتحمل إنسان مثل هذه المتاعب الهائلة نظير لا شىء . خليل ، قل لنا على الفور ، ما هو هدفك من كل هذا ؟ ألست واحداً من الرجال المنفيين ؟ هل جئت بمحض إرادتك ، أم أن آخرين هم الذين أرسلوك إلى هنا ؟ – خليل يحب المسلمين حبا جمًا ، إذن ماذا عن كتبه ؟ أيضا ، ألا 'يكتب' عن هذه البلاد مثلما 'كتب' عن الحجر والعلا ؟" قلت لهم : "كنت أعيش فى دمشق

وقلت لهم أيضا إننى سائح Sâieh أليس السائح رجلا يتجول فى أنحاء الدنيا ؟ – "حسن ، خليل سوّاح Sûwahh ؛ تجول حيثما شئت ، يا خليل ، ولكن أقصر تجوالك على الديار المستقرة ، إذ ليس فيها ما يعوقك أو يمنعك ؛ ولكن لا تأتى إلى صحراء البدو ، لأنهم سوف يجردونك من كل ما معك ويذبحوك ، وقسما بالله ، لا يخشى فى الصحراء كلها رجل قَتْلَ غريب من الغرباء ، يا للعجب إذا ما عرفوا أنك نصرانى ! – تقول : سواح ! عجيب ! أعلم أن الأعراب بلغوا من الجهل حدًا يصعب عليهم معه تقديم يد العون لك ؛ قد يجيء يوم ، يا خليل ، ينهى كل هذا التهور ، ويقوم واحد فيه بقتلك شر قتله !" – سائح فى بلاد المسلمين هو الساعى إلى الله ، الذى لا يلقى بالا للمنافع الدنيوية ، الذى يهب حياته للتأمل والتفكر . وبالتالى لا ينظرون إلىّ على أنى درويش من الدراويش . "قالوا لى : لا ، الدراويش ليس لهم أى اعتبار ، ومع ذلك ، كان خليل فى رعاية الإمبراطورية العثمانية (الدولة) ." كانت لديهم أيضا فكرة مفادها أنى واحد من أثرياء دمشق . كانوا يتعجبون من هجرى دمشق ، جنة الدنيا ، وأذهب لأعيش وأسكن أرض الأعراب الجرداء القاحلة ! ومن عادة سكان الأراضى المرتفعة فى الجزيرة العربية ، الذين رأوا أو سمعوا شيئا عن مناطق الحدود التى تنعم بالوفرة والرخاء ، أن يتشاكوا ويتباكوا على بلادهم البعيدة ، وذلك من قبيل الفنتازيا أو إن شئت فقل : الخيال الجامح الحزين . عرب الجنوب يعيشون حياوات خلال مرض طويل من الجوع والعرى : هؤلاء الأعراب إذا ما عاشوا أياما طيبة فى أرض الشمال ، التى تسقى من مياه الأمطار الموسمية ، والتى تبللها حبات الندى السماوى ، فإنهم يعتبرون ذلك حلاوة مدهشة . "حديقة" كل الحدائق هى دمشق ، أو إن شئت فقل : "جنة" العرب ؛ والسبب فى ذلك ، أن دمشق فيها الكثير من الأشياء الرخيصه التى تسهل الحياة على الفقير ، وبخاصة فيما يتعلق بالغذاء والكساء ,وهذا هو مقصد البدو ، شأنهم شأن الساميين ، من دمشق عندما يقولون عنها : "الفردوس أو الجنة" .

مررت بزعم أنى باحث مع شخص ما عن كنز من الكنوز ، وكان ذلك الشخص قد رآنى جالسا تحت شجرة كبيرة من أشجار السنط ، التى يظنون أنها مسكونة من الجن ، فى منطقة الحجر ؛ وهنا قالوا لى متسائلين : "ألم تأخذ شيئا ، يا خليل ، خبرنا بحق ؟" وهنا همس أحد الجيران فى أذنى : "خبرنى بما عندك أنا وحدى ، يا خليل يا طيب ، وسوف أحافظ جيدا على ما تقوله لى ." – رددت عليه قائلا : "ليس هناك تراث

أدبى موقوف على شخص بعينه ، للبحث عن الكنوز ، أنا لا أعرف المكتشفين عندكم ، ويالهم من سكيِّرين جهلة ، ومثلهم أيضا كل من يصدق غشهم القائم على انتحال شخصية الغير ." - "الله يعلم إن كان الأمر كذلك ؛ خليل رجل يقول الحق ؛ - ولكن فى التجوال هنا وهناك ، ألم تهتد إلى شىء ؟ انتبه ! نحن نسلم بأنك زاهد ومستاء - اصبر ! خبرنا فقط ، هل إذا عثرت على شىء سوف تعطى عمك زيداً شيئا منه ؟" - " أعدك ، بأن أعطيه كل ما سوف أعثر عليه ." - "والله ، إن فى كلام خليل لصدق ، ولكن الشىء المحيّر ، أنه يسأل دوما عن الأعراب مائة سؤال من الأسئلة التى لا جدوى منها أو طائل من ورائها ؟ - بالرغم من أنك ، يا خليل - ينبغى أن تعرف أسماء كل المناطق التى نخيِّم فيها ، وأسماء الجبال أيضا ، فما قيمة كل ذلك عندما تعود إلى وطنك ، فى تلك البلاد البعيدة ؟ وأنت إذا لم تكن جاسوسا ، فكيف يحسبك الأعراب رجلا جيد الفهم ؟" فى مناسبات أخرى وفى أماكن أخرى التى كنت ما أزال غريبا فيها ولا يعرفون عنى سوى القليل ، لم يكن البدو يتكلمون دوما بطريقة معتدلة ومباشرة ، كان الكثيرون منهم يتمتمون ويغمغمون ، وكان العديد منهم يهددون قائلين : "لو ذاع بين الناس ، أنى جئت من أجل التجسس على أهل هذه الأرض ، فوالله ، سوف يلقونى فى النار ، أنا وكتبى ويحرقونى معها ." هذا يعنى أنهم ، فى مثل هذه الحالة ، سوف يكسرون أعراف الكرم والضيافة ويخرجون عليها : وهنا يقتادون العدو الخائن ، ويسحبونه إلى ما وراء الخيمة حيث يذبحونه . فى مناسبات كثيرة ، تنبأ أصدقائى من البدو الطيبين ، بانتهاء حياتى على تلك الشاكلة ، نتيجة تهورى ، عندما أغادر قبائلهم الصديقة إلى ديار غريبة : ولكن مع طول بقائى فى البلاد ، أصبح الناس لا يعارضوننى ، فى المناطق التى لم يسبقنى إليها تقرير سيئ . "قلت لهم : أيها الأصدقاء ، لقد جئتكم مكشوفا وبلا تنكر ؛ أنا لم أخف عنكم شيئا ؛ وأنا أعترف أمامكم دوما بنصرانيتى ، ذلك الاسم الذى لا يحظى بالذيوع بينكم ." وكانوا يقولون : "حسن ، ولكن الحرب دائرة بين أفراد جنسك وبين السلطان(*) ! - ألا يقتل السلطان النصارى ، مثل قطعان الأغنام ؟ ولذلك أعطاه الله النصر ! - ردد التالى ، يا خليل ، "الله ينصر السلطان " .

(*) الإشارة فى هذا السياق إلى الحرب . الروسية التركية ١٨٧٧ . (المراجع)

طوال استماعنا إلى الحكايات الغربية ، كانوا يسألونى دوما عن بلاد النصارى البعيدة ؛ وهل نحن أهل طين بمعنى 'أننا نسكن فى بيوت من الطين' ، أم أننا أهل بيوت الشَعر بمعنى أننا أعراب جائلين نسكن خياما مصنوعة من وبر الجمال وصوف الغنم ؟' أجبتهم ، "ليس لدينا بدو رُحَّل ، وإنما لدينا قلة قليلة من الغجر ؛" - "(قالوا) : من الواضح أن عرب خليل من الحضير ،" أى من العرب المستقرين على الأرض : وسألونى أيضا عن أنواع ماشيتنا . وكان من باب العجب العجاب عندهم ، أن بلادنا كلها لا يوجد فيها جمل واحد .- "يا الله ! على أى شىء يحملون أثقالهم ؟" - "بلادنا بلاد الخيول ، التى يوجد الكثير منها كما هو الحال عندكم فى الإبل ؛ ونحن نستعمل بعض الخيول فى حرث الأرض : يضاف إلى ذلك أن لدينا أسرع الخيول التى تبارى إبلكم ." ليس هناك عربى واحد ، لا يؤمن بعد إيمانه بعقيدته ، أن سلالة الخيول هى سلالة عربية فقط ، وبخاصه السلالات الخمس التى ربيت فى الجزيرة '(وهم يودون أن يعرفوا) إلى أى من تلك السلالات تنتمى خيولنا ؟' لقد ضايقهم وأغضبهم أن تكون بلادنا عامرة بالخيول : - 'عجيب ، الله أعطى الخيول أيضا للنصارى !' - "أنصت ! (قالها زيد ، المتيم باستعراض سرعة بديهته ، - لم يمت الرجل الكبير غرور الطفل الصغير ،) وأنا بوسعى أن أعلن عليكم ما يقوله خليل ، إنها نفس السلالة التى رأيناها فى الشام : خيول خليل كلها كُدُش Kudsh، أو إن شئت فقل : خيول ينقل الواحد منها الأمتعة فى عدلين على ظهره ." وعندما رددت عليه قائلا إنه : 'كان مخطئا ؛' صاح الجميع وأسكتونى ؛ "يا خليل ، نحن نسلم أنك يمكن أن تعرف أكثر منا فى أشياء أخرى ، ولكنك ليست لك معرفه بالخيول ، لأن الخيول أصلها من عند الأعراب ." معروف أن الفجير Fejir قبيلة من الخيالة ، ومع ذلك ، لم يتعد عدد أفراسهم العشرين : وقد اكتشفت أن بدو القبائل التى فيها أعداد قليلة من الخيول ، كانوا لا يثقون بأحكامهم الفظة ؛ كانوا يحسبون أنى ربما حكيت لهم عن مهارات غريبة فى أراضى بعيدة .

سألونى عن الغزو عندنا ، وسألونى أيضا عن عدد المحاربين الذين يمكن إرسالهم إلى ميدان القتال . وعندما سمعوا من فمى أن أعداد قافلة الحج عدة مرات ليست

سوى مجرد جزء صغير من حامياتنا العظيمة ، فغروا أفواههم دهشة وخوفا ، ظنا منهم أن الإسلام قد ضاع ؛ "سألونى على الفور ، لماذا لم تقم تلك الحشود والجموع بالهجوم عليهم (مثلما قاموا هم بالهجوم علينا) : - آه ، يالله ! (صاحوا) أعن المسلمين وساندهم !" "أجبتهم قائلا : استريحوا ، واهدأوا ، فنحن لا نشن حروبا غير عادلة بالرغم من أننا نحن الأقوياء : ديننا هو دين السلام ؛ والضعيف من حقه أن يعيش فى أمن وسلام ، من أجلنا نحن ." - "جميل حقا أن الله أعطاكم هذه العقلية ، من أجل رفاه الإسلام ، ومع ذلك (أسرُّوا إلىَّ) أن المسلم الواحد قادر على أن يطرد ويتعقب مائة من النصارى ." قلت لهم إننا نحن الذين نشن حرب القرم Krim (the Crimea) نيابة عن السلطان ومن أجل مصلحتنا ؛ وسقط خيرة وزهرة شبابنا فى تلك الحرب ، وأن النساء مازلن يبكين هؤلاء الشباب فى بلادنا ." سألونى فى برود كامل : "هل كان موتاكم مائتى قتيل أم ثلاثمائة أم ماذا ؟" وعندما قلت لهم : إن عدد القتلى قد يصل إلى ٦٠٠٠٠ قتيل ، (ولما كانوا يصدقون أنى لا أكذب ،) صاح الرجال مرتبكين وهم يقولون : "يا الله ، يا عظيم ! ألا يصل عدد هؤلاء القتلى إلى إجمالى أعداد كل البشر الموجودين هنا من هذه الأجزاء ؟" وقد لا يكون هناك عدد مماثل من الشباب بين القبائل التى تعيش فى الأماكن المرتفعة من الجزيرة العربية !)" "وهل لدى شعبكم مدن وبلدان كبيرة ، يا خليل !" - "المدن والبلدان كبيرة جداً ، إلى حد أن البدو كلهم إذا ما جمعوا من كل صحاريكم فلن يملأوا سوى مدينة أو بلدة واحدة فقط من تلك البلدان ." - "(تعجبوا قائلين) : يا الله ، يا على يا قدير ! ولكننا لم نسمع عن شعب خليل ، أليسوا هم الذين يقال عنهم 'الإنجريز el-Engreyz أخوال السلطان es-sultan' Akhual أى (الإنجليز أخوال السلطان من ناحية الأم) ؛ السلاطين يفعلون خيرا عندما يتحالفون مع الدم المسيحى الصديق" ، - الدم الذى يقيموه دوما بأعلى من دمهم . الناس يقولون فى الجزيرة العربية . "النصارى لا يمرضون مطلقا فى حياواتهم ، ولا يعانون آلاما فى أجسادهم ؛ ولكنهم يعانون من سكرات الموت ؛ وهم عندما تؤلمهم رءوسهم ، فتلك إشاره لهم أن نهايتهم قد اقتربت ؛ لحم النصارى أفضل من لحمنا ." كان البدو يراقبونى بفضول كبير وأنا فى مخيماتهم ،

وهم ينتظرون صدق رأيهم عندما يتحقق ، ويتصادف أن يرونى جالسا متعبا وقد وضعت رأسى بين راحتى يداى ؛ وعندما يسألنى أحدهم : "إيه ! ما الذى يؤلمك ؟ هل يؤلمك رأسك ؟ - من المحتمل أن يموت ، مسكين يا خليل !"

بلادنا ، "تلك الأرض التى ليس فيها نخيل ." كانت أسطورة بالنسبة لهم . - "ليس فيها تمر ! إذن ، كيف يعيش أهلك وناسك ، وما هو الحلا **Sweetness** الذى يستطعمونه ؟ ومع ذلك كان خليل يتحدث إليهم بلطف وهدوء : أيها الرفاق ، ألم نجد شيئا شبيها بذلك فى الشمال ؟ من منا رأى نخيلا في دمشق ؟ ناس خليل ، ربما يكون لديهم العسل والسكر ؛ - الحلا والدهون تحسن صحة المرضى الذين يتناولون غذاء تلك المناخات . ونحن بدورنا شاهدنا ديرة (بلاد) الشمال ؛ فالشمال فيه كل ما ينبت من الأرض ، كما يوجد أيضا ذلك الزيت الذى يؤخذ من شجرة من الأشجار وهو أفضل من السمن ." هؤلاء البدو الجوعانين الموجودين فى الحوران ، حيث يوجد القمح الوفير ، عندما يشتد شوقهم وحنينهم فى فصل الخريف إلى سباطات التمر ، يجدون أنفسهم مشدودين إلى مواطنهم فى الصحراء ، لا لشىء سوى أن "ياكلوا من نخيلهم فى خيبر ." والبدو الرحل لديهم اعتقاد مفاده أنهم لن تتحسن صحتهم ، إلا إذا أكلوا من تلك الفاكهة الموسميه المسكرَّة ، بالرغم من إقرارهم بأن التمر ليس غذاء صحيا .

سألنى البدو فى كثير من الأحيان : "كم عدد الأنهار التى تقع بعدها أرض النصارى ؟" تناهى إلى مسامع البدو أننا نعيش فى منطقة تقع خلف بحار سبع ؛ قال آخر : "إنها ثلاثة بحور ، وإذا كنت لا تصدق ذلك ، اسأل خليل ." "أعادك الله إلى وطنك ، يا خليل ! وعندما تعود إلى وطنك ، فى سلام ، بمشيئة الله ، سيكون لديك الكثير الذى تحكيه عن أرض الأعراب ؟ ألن تحصل على مكافأة كبيرة ؟ إذ بدون ذلك ، فنحن نرى أنك كان يستحيل عليك أن تخاطر بالمرور والتجوال فى هذه الصحراء الجرداء ، التى نرى ، نحن البدو ، أن كل أرواحنا ، معرضة للمخاطر التى قد تأتينا من اللصوص : أنت وحيد ، وإن قدر لك أن تضل طريقك ، ويقتلك أحد من الناس ، فلن يكون هناك من يثأر لك . يا خليل ، ليس من بيننا نحن الجالسين هنا . شخص يمكن

أن يلقاك فى الخلاء (الصحراء) دون أن يقتلك . يقولون : إن الخرج الموجود على جملك ، مليء بالنقود ، ولكن ، قسما بالله ، إن الحائل هو الحيوان الذى يحملك ، ومن سيحصل على هذه النقود وذلك الحيوان سيكون حظيظا . "الغريب للذئاب !" ألم تسمع عن هذا المثل فى بلادك ؟" – (يصيح واحد منهم قائلا) بالله ، ليتنى قتلت خليل !" – قال آخر : "وأنا أيضا" . "(قال ثالث) والله ، لقد تربصت له ؛ أحسب أنى أرى خليلا قادما راكبا على جمله ، وأنا ومعى بندقيتى الفتيلية قابع خلف صخرة وعره أو فى دغل من الأدغال ؛ لم يسبق له أن رأى تلك البندقية : – وينطلق صوت البندقية ويسقط خليل إثر إصابة جسده بطلقة البندقية ، وهنا يصبح الجمل وما عليه ملك لى : آه ، لو لم يكن ذلك العمل غير قانونى ؟ لكنت قتلته باعتباره عدوا من أعداء الله ؟ وبالتالى تكون تلك هى خاتمة خليل ونهايته ." قلت لهم : "الله أنزل بك عقابا ، وربما كنت أنا سببا فى منعه ." – "(رد باقى الحاضرين) قسما بالله ، نحن لم نمنع عنه أى شيء من العقاب ، ولكن إحذر يا خليل ، فالبدو كلهم لصوص . انتبه يا خليل ! القوى يأكل الضعيف فى هذه الأرض البائسة ، التى يعيش الناس فيها على ابتلاع بعضهم البعض . ولكن نحن أعراب زيد ، ونحن حريصون عليك من أجل عيون زيد من ناحية ، وللعيش والملح من الناحية الأخرى : من هنا يحق لك أن تثق بنا ، ولكننا نحذرك ونستحلفك بالله ، ألا تثق بأى إنسان . لن تصلك تعليمات إلا من شخص تلبّسه الجن ؛ ونحن نخاف عليك كل يوم من أن يقتلك أحد الناس ؛ وهنا سيقول الناس : "خليل قتل اليوم" ، – ولكن كلنا سوف ننفض إيدينا من ذلك ، وأنا أقسم بالله على ذلك ! الأعراب أعداء لك ، إنك نصرانى ، وهم يقولون : "إنه يتجسس على بلادنا :" ونحن وحدنا أصدقاءك الذين يعرفونك حق المعرفة . قد يثق خليل بالدولة (الإمبراطورية العثمانية) ، ولكن الأرض التى نحن هنا فيها لا تخضع لأى حكم ، سوى حكم الله سبحانه وتعالى من فوقنا . نحن لسنا سوى نفس فانية ورفاق فانين أيضا ؛ وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أعمى عينى ذلك الرجل ، "فاتركوه لحال سبيله ؛ قد يموت إذا ما أراد ، فمن ذا الذى يستطيع إقناع طائش أو متهور ؟ " وعندما قلت لهم إننى بغض النظر عن التطلع لأى شكل من أشكال المكافأة ، فإننى أحسب ، أنى لو قدر لى العودة إلى وطنى ، فأنا على استعداد ،

إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك ، أن أدفع ثمن كل هذه المغامرة الغريبة والعجيبة ، نظير يوم واحد أعيشه سعيدا وهنيئا فى وطنى ، وهنا ردوا على متسائلين : "هل كان النصارى بخلاء ؟"

معروف أن العربى يترحل بصحبة رفيق ، لكن البدو كانوا مندهشين من مجيئى إليهم بلا رفيق ؛ "يا خليل ، أين رفيقك ، حتى يساعد كل منكما الآخر ؟" ازداد عجبهم ودهشتهم عندما سمعوا منى أن أرضنا (بلادنا) تنعم بالأمن والسلام ، وإننا لا نحمل السلاح ، فى بلادنا . "يا خليل ، ألا يوجد بدو مطلقا فى أرض (بلاد) النصارى ؟" حكيت لهم عن بدو اللابلند(*) Lapland المترحلين الذين يسكنون المناطق الشمالية الباردة ، وحكيت لهم عن خيامهم المستديرة التى تشبه الحلقة التى يصنعونها من جلود الحيوانات ، وحكيت لهم أيضا عن ملبوساتهم التى يصنعونها أيضا من جلود الحيوانات : طلب بعض البدو منى ذكر أسماء هؤلاء البدو ، وقالوا لى إنهم "سمعوا اسما من هذا القبيل" . سألونى أيضا : "ما هى ماشية هؤلاء البدو الذين يعيشون فى تلك البلاد الباردة ؟ التى يدوم فيها جليد الشتاء طوال القسم الأكبر من العام ، وأن ذلك لا يكون مناسبا أو صالحا لأولئك البدو ، ولا للإبل !" – "لن تصدقونى : ماشيتهم عباره عن نوع من الغزال ، الذى يصل حجم الواحد منه إلى حجم جحش صغير ، ويحمل فوق رأسه قرون عريضة متشعبة ، يستعملها ذلك الغزال فى التنقيب فى الجليد بحثا عن العشب . الذى يعد طعامهم اليومى . ليل الشتاء عند هؤلاء البدو فيما بين غروب الشمس وشروقها يقدر بحوالى ثلاثة أشهر ؛ ومنتصف الصيف عند هؤلاء البدو يصل طول نهاره إلى فترة مساويه لليل الشتاء . شاهدت فى مناطق بدو الشمال هؤلاء عين الشمس وهى ترتفع مقدار رمح واحد عن وجه الأرض عند منتصف الليل ." ظن البعض أن ما قلته هو من قبيل الحكايات الخرافية التى حكيتها لهم استخفافا بعقولهم . قال شخص آخر منهم : "نحن نصدق ما يقول إلى حد ما ." لم يكن فى تلك الحكاية

(*) اللابلند : منطقة تقع فى أقصى الشمال من القارة الأوروبية وتشتمل على كل من شمال النرويج والسويد وفنلندا وشبه جزيرة كولا فى شمال غرب الاتحاد السوفيتى (السابق) . (المراجع)

شيء غريب غرابة تلك الماشية التى لها قرون متفرعة ، رسمتها لهم على الرمل مستخدما فى ذلك مشعابى الذى أسوق به ناقتى ، لأن طبيعة القرون ، بحكم رؤيتهم لها ، تعد أمرا سهلا وبسيطا . سألونى : "ألا يمكن أن تكون تلك المواشى من نوع الجاموس ؟" ولكن فيما يتعلق بشروق الشمس وغروبها ، على النحو الذى أوضحته لهم ، تزايد صخب الرعاة ومرحهم وراحوا يسألونى وهم يضحكون : "كيف يؤدى هؤلاء البدو صلاتهم ؟ وهل يكفى لهم أن يصلوا مرة واحده فى ذلك المكان ، كل ثلاثة أشهر ، هى طول ليل الشتاء !"

"هل بلدانكم المستقرة مزدحمة بالسكان ؟ خبِّرنا ، بالله عليك ، يا خليل ، هل لديكم قرى كثيرة ؟ حوالى مائة قرية مثلا ؟" – "مئات القرى أيها الأصدقاء ، بل وآلاف أيضا : انظروا إلى الأعلى ! لدينا من القرى عدد كبير مثل هذه النجوم المضيئة من فوقنا :" استنفرت هذه الكلمة فى أولئك البدو آهات وتنهيدات كثيرة ! كانت تلك الآهات توحى بالخوف ، الذى انعقد على ألسنة أولئك البدو ، ليبدو على شكل إعجاب . الناس يرون الأعاصير والشهب والنيازك وهى تومض كل لحظة فى سماء الجزيرة العربية المضيئة . سألتهم : "ما الذى يقوله الأعراب عن تلك النجوم الطائرة ؟" أجابونى : "إنها تطير لتسقط على رءوس الكفار ، يا خليل ! ألم يسقط منها شيء على النصارى ؟ إن الله سيريك حال الكفار عما قريب !" قال زيد والسرور يعلو وجهه : "حضر بلادكم يعرفون أفضل منا . ولكن أنت أيضا يتعين ألا تمكر فى كثير من الأشياء ، التى يعرفها العرب معرفه جيدة .– أستطيع القول : إن خليلا لا يعرف أسماء النجوم الموجودة خلفنا ،" وراح زيد يشير هنا وهناك ، ثم بدأ يردد أسماء بعض النجوم الشهيرة الكبيرة وبعض المجرات الكبيرة أيضا ، مثلما وردت فى كتاب أيوب فى العهد القديم وبطريقة البدو "الدب ، الجبَّار ، الثُّريا ." سألت زيدا : "ما هو اسم ذلك الحزام العجيب من السماوات ؟" – "المجير" ؛ وراحوا يضحكون من ذلك الاسم الجميل الذى نطلقه نحن على ذلك الحزام العجيب "درب المجرَّة" أو "طريق اللبَّانة" . قلت لهم : "هذا الذى تتحدثون عنه نحن نراه فى مرايانا على شكل سحابة من النجوم ؛ تراثنا الأدبى لا يسمح لنا بتسمية مجموعة صغيرة جداً من النجوم كل واحد منها باسمه . علماؤنا

الذين يدرسون النجوم رقموا النجوم ، وأعطوا لكل نجم منها اسما محددا ؛ هؤلاء العلماء يستطيعون عن طريق "فن من فنون الهند" ، ومنذ مئات السنين قبل مولدنا ، ومئات السنين بعد وفاتنا ، معرفة مسارات النجوم فى السماء . - ولكن تلك النجوم الجوالة الطائرة والمضيئة ، إنما تشبه الأرض ، وقد ترى فى هذه النجوم بحورا وأراض ." وهنا تساءل بعض صغار السن : "هل كان هناك أعراب فى تلك النجوم ؟- وماذا عن القمر ، يا خليل ؟"

هناك مثل يقول : "المصائب لا تأتى فرادى ؛" فقد فشلت عملية التطعيم التى كنت أمارسها كما خيب ظنى أيضا 'عابان' Aban، ذلك الجمل الذى كنت أركبه ، (كل دابة من دواب البدو لها أكثر من اسم ، كما تطلق على الجمال أيضا أسماء عدة منها : الرميش Areymish والغرلَّب ghrallab والرحيفة er-Rahîfa والدوينبيل ed-Donnebil، والدَّانَّة D?nna، والماس el-Màs عيضة Aitha وعطشة Atsha) كان ذلك الجمل صغير السن وقيمته آخذه فى التزايد ؛ ولكن زيدا كان يحاول أن يدخل فى روعى عكس ذلك ، أملا فى اغتصاب الجمل ليكون له فى النهاية . وفى صباح أحد الأيام أعيد ذلك الجمل إلى المنزل ورأينا أن فكه السفلى كان ينزف نزفا شديدا ، نظرا لأن الفك كان مكسوراً . حدث أن كانت هناك جماعة جالسة فى خيمة زيد لتناول القهوة ، وكان ذلك منذ شروق الشمس ، وهنا وقف كل أفراد تلك الجماعة لمشاهدة ذلك الحادث . وهنا قاموا بتبريك الجمل الذى كان يتأوه ألما ؛ قام البعض منهم بربط أطراف الجمل ، أو إن شئت فقل : ربطوا ساقيه ، وبقوة أذرعهم استطاعوا طرح كتلة ذلك الجمل على جانبه ، وراح الخبير منهم فى شئون الإبل يفحص موضع الإصابة . ووضع زيد حدائده وسط الجمار استعداداً لعملية الكيّ ، التى يندر أن تخلو منها أية جراحة من الجراحات التى يقومون بها . راح الجميع ينصتون لرأى ذلك الحداد البدوى الذى تربطه قرابة بهؤلاء الناس من ناحية وعلاقة أخرى بكل بياطرة الصحراء ، الذين يقومون على أمر علاج الماشية وتركيب نعالها ؛ كان ذلك البيطار ماهرا فى استعمال الأدوات ؛ إضافة إلى أن أولئك البياطرة هم فى أغلب الأحيان جرَّاحى البدو . قام ذلك البيطار بتجبير الفك المكسور باستعمال الشرائح التى لفها ببعض الخرق الملطخة برماد قش الأرز المخلوط بالتربة

الحمراء ، أو إن شئت فقل : بالطين الأحمر . قال البيطار ، إن تغذية الجمل تغذية يدوية ، قد يشفى كسره خلال أربعين يوما . كنت قد سمعت وأنا بينهم عن حادث مماثل ، وقع لجمل واحد من أفراد القبيلة فى يوم من الأيام . وجرى علاج الجمل بنفس هذه الطريقة ؛ ولكنى فى داخلى كنت أحسب أن ذلك لن يتحقق ، كان السبب وراء ظنى هذا هو أن الجرح امتلأ بالذباب ، إضافة إلى أن الضمادة ، التى لم تقفل مطلقا ، تكاثر فيها الدود بفعل الحرارة الشديدة ؛ وزد على ذلك أن العظمة الميته اسود لونها ، وسقطت من تلقاء نفسها خلال أيام قلائل . كانت ساعتى قد خذلتنى هى الأخرى . لأنى كنت أستعملها فى حساب المسافات : واعتبارا من ذلك الوقت فصاعدا بدأت الاعتماد فى حساب المسافات على المسافات التى تقطعها الإبل فى الرحلات .

كان شهر مارس قد بدأ بالفعل ؛ ودخل معه الصيف بحرارته الخانقة . وفى مواجهتى لكل هذه التناقضات فكرت فى الرحيل عن ذلك الجزء الصحراوى . كنت أود العودة إلى قرية العلا ، وانتظر فيها مَقْدَمْ قافلة الأرز وهى فى طريق عودتها إلى الوجه ، التى أستطيع منها الإبحار على ظهر واحدة من السفن الشراعية العربية الصغيرة ، التى يستعملونها فى نقل الإبل ، الإبحار إلى مصر . ولكن كلا من زيد هو والشيخ مطلق طلبا منى المزيد من الصبر ، إلى ما بعد انقضاء موسم الربيع ؛ وهو الوقت الذى تقترب فيه القبيلة أثناء ترحالها مرة ثانية من منطقة الحجر ، التى كانت تفصلنا عنها مسافة كبيرة . كانت الصحراء التى خلفناها وراءنا عامرة بالحباليص (اللصوص) ، ولم يكن هناك أحد على استعداد لمرافقتى ، كما أنهم لم يكونوا على استعداد لجعل أى واحد منهم يعانى جراء مرافقتى أو اصطحابى . زد على ذلك أن أفراد القبائل من البدو الرحل يخشون الحباليص (لصوص الصحراء) ويخافونهم ، والسبب فى ذلك هو وجود البدو بين السكان المستقرين من ناحية وسكان الواحات من الناحية الأخرى . وبشكل عام ، فإن الحباليص هم طائفة من الأوغاد الصغار ، الذين لا يملكون فى ديارهم مجرد رأس واحدة فقط من الماشية ، ولذلك فهم يعرضون أنفسهم لكثير من الأخطار البالغة : ومع ذلك هناك بعض آخر من هؤلاء الحباليص ذوى قوة وبأس شديد ، وتدفعهم حياتهم المضطربة إلى التحويم فى الصحراء مثل الذئاب بدلا من التكاسل

والتراخي في ظلال الخيام التي يعيشون فيها . هؤلاء المجرمون ، أو إن شئت فقل : الخارجون على القانون ، تسيطر عليهم في أغلب الأحيان قسوة لا تعرف الرحمة ، ويبدو أنهم لا يُبْقُون أحدًا على قيد الحياة . ولما كان أولئك الحباليص من المشاة دوما ، فهم تصعب ملاحظتهم أو اكتشافهم ، إذ يتوارون خلف صخرة أو دغل من الأدغال .

سطح الأرض القاحلة في جبال هذا (السهل الرملي) يندر أن تجد فيه أماكن لرعي الماشية . والأدغال الصحراوية في هذه المنطقة تتكوّم الرمال حول جذورها ، فتنمو وتبدو وكأنها تنبت من تلال صغيرة . وبعد أن تموت الجذور ، تظل أكوام الرمال من تحتها إلى مالا نهاية ؛ وهذه الرمال لا نهاية لها في كل أنحاء هذه الصحراء القاحلة : في بعض الأماكن يصل حجم تلك الرمال إلى ما يقرب من حمولة عربة أو اثنتين أو أكثر من ذلك . والعرب يدفنون في هذه الرمال كل التمور التي تتجمع لديهم كل عام ، وبخاصة عندما تعود إبلهم محملة بالتمور من خيبر في صيف كل عام : والبدو يلاحظون العلامات الأرضية ملاحظة دقيقة حتى يتسنى لهم العثور على تمورهم مرة أخرى ، من هنا فإن بعض الشيوخ يتركون بيوت الشتاء لرحمة رياح الصحراء : وفي شهور الحر ، ومع ندرة المراعي ، وفي الوقت الذي لا تصبر الماشية فيه طويلا على العطش ، يقلل البدو من حمولة تلك الدواب إن أرادوا لها ألا تضعف وتخور قواها . هذه الودائع البدوية التي توضع شهورا في الأرض الجافة لا يصيبها التلف ؛ إضافة إلى أنه لا يجرؤ أحد من أفراد القبائل على العبث بتلك الودائع : معنى ذلك أن رب الأسرة يتعين عليه العثور على خبيئته في المكان الذي دفنها فيه ، القبائل البدوية المترحلة كلها ، لها مخابئ صيفية من هذا القبيل ؛ بعض هذه القبائل تنزل الأشياء التي تعوقها مع مضيفيهم في القرى ، وهذه الودائع تكون في الحفظ والصون (عند كل الناس تقريبا) . الموءاهيب لديهم كهف سري لا يعرفه أحد سواهم ، وهو موجود داخل الحرة الجرداء التي يعيشون على أرضها ؛ وهم يخزنون في ذلك الكهف ، كما لو كان مْطهرًا ، كل ما يريدون حفظه ، إضافة إلى أن الفقير منهم يستطيع أن يحفظ فيه أيضا رطل السمن الوحيد الذي يكون بحوزته . - عندما كنت أمر خلال وادٍ بعيد عن الملجأ العام المتمثل في الأماكن المهجورة ، في صحراء سيناء ، رأيت عباءة (بشت)

بدوى جديد مفرود فوق شجرة شوكية . ذهب الجمَّال البدوى المرافق لى ، لرفع تلك العباءة (البشت) ، وراح يقلب العباءة بين يديه وهو يقول : "نعم ، والله ، إنها لعباءة جديدة وطيبة !" ثم علّق الجمَّال العباءة مرة ثانية على الشجرة الشوكية : هؤلاء الأخيار من بين رجال القبائل ، على ما يبدو ، هم الذين يراعون الله ويخافونه . وعليه وصلنا إلى بعض أكواخ سيناء المبنيه من الحجر ، التى يطلقون عليها اسم 'منازل النَّصَارين Nasarene' (والأرجح أن يقولوا إنها بيوت الشعب القديم فى هذه الأرض ، الذين سكنوها قبل المسلمين) ، التى تعودوا على أن يتركوا فيها أدواتهم الثقيلة المصنوعة من الحجر ؛ كما أن هناك بعض الصوامع المغلقة التابعة لقلة قليلة من تجار الحبوب الذين يجلبون القمح من غزة ، ليبيعونه للبدو ، دخلنا واحداً من تلك المنازل ، وبينما كنت ألقى نظرة على بعض أشيائهم ، طلب منى رفيقى ، وهو يطيل النظر إلى ، إعادة تلك الأشياء إلى مكانها ؛ وتبدى لى أن حتى مجرد تحريك تلك الأشياء من مكانها أمر محظور . يضاف إلى ذلك ، أن الشيوخ الذين يحصلون على صرة من طريق الحج لهم هم أيضا مخازنهم التى يخزنون فيها أشياءهم الثقيلة هى وأوانيهم فى القلاع (المحطات) كما هو حال المخازن التى يستعملها بدو الفجير ، أو شيوخ بدو الفجير فى مدائن صالح ، وقد أبلغنى أن هؤلاء الشيوخ يدفعون للحاج نجم أتعابا نظير ذلك ، أى بواقع ريال واحد عن حمولة الجمل الواحد . والرمال الموجودة فوق كل هذه الأرض الداخلية المرتفعه ليست موضوعة على شكل تموجات (كما هو الحال فى الرمال الموجودة على حدود البحر الأحمر ، والتى توجد على شكل تموجات ، عند دائرة العرض هذه ، من ناحية الشمال) ؛ يضاف إلى ذلك أن المنطقة هنا خالية من الرياح القوية أو السائدة .

بينما كنا نسير فى طريقنا إلى المجلس . "(قال زيد) سوف أريك خلف هذه المنطقة قسما من شعب عتيق ." كان ذلك القسم عبارة عن أسرة وصلت إلى هذه المنطقة ، قادمة من بين الصُّلُّوبة Salubba (*) الجائلين . أعجبتنى وجوه الأطفال الذين

(*) هناك فى الجزيرة العربية قبيلة تحمل هذا اللقب ، وما زالت آثار هذا اللقب فى بعض الأسماء التى يحملها الأفراد ، إذ يقال على سبيل المثال " فلان الصليبى " (المترجم)

أنجبهم الصلوبة ، كما أعجبنى أيضا جمال بشرتهم ، ولاحظت الشيء نفسه فى أطفال بدو الحطيم المترحلين . هؤلاء الصلوبة الغرباء والأقارب غير المباشرين وجوههم شقراء ، وهى أجمل من وجوه أولئك البدو الذين عضهم الجوع ,زد على ذلك ، أن بدو الحطيم ، الذين لديهم ثروة كبيرة من الماشية الصغيرة ، أو إن شئت فقل : من الأغنام والماعز ، لديهم ما يكفيهم من الطعام فى الصحراء ، كما أن الصلوبة لديهم ما يكفيهم من الطعام الذى يحصلون عليه من الصيد ومن ممارسة الأعمال التى يقوم بها الغجر : إذ يقوم هؤلاء الصلوبة بأعمال السمكرة الخاصة بصناعة الغلايات ، كما يقومون أيضا بإصلاح الأسلحة ، فى مَنازِلْ البدو . والصلوبة هم الذين يصنعون 'الجدوم' **Jedum**، أو إن شئت فقل : الخطاطيف (التى يستعملها الرعاة فى خفض أغصان السنط الحلوة كى تتغذى عليها قطعانهم ،) وهم أيضا الذين يصنعون مناجل العشب التى يستخدمها البدو فى قطع العلف ، والصلوبة هم أيضا الذين يصنعون الأدوات (الزند) من الصلب لاستعمالها فى طرق حجر الصوان لتوليد شرارة لإشعال النار ، إلى آخر كل هذه الأشياء . يضاف إلى ذلك ، أن الصلوبة هم نجارى الخشب وبالذات خشب أشجار السنط فى الصحراء ، الذى يستعملونه فى صنع السروج والعدد البدائية اللازمه لجمال الحمل والنقل ، كما أنهم الذين يصنعون أيضا هياكل السروج والعدد اللازمة لإبل الركوب ، وهم أيضا الذين يصنعون البكرات اللازمة لماكينات جلب الماء من الأبيار ، والناس هنا يطلقون على تلك البكراتِ اسم (المحال) **Mâhâl**، التى تستخدم فى الآبار العميقة بصفة خاصة فى الصحراء ؛ أضف إلى ذلك ، أن الصلوبة يصنعون أيضا أوانى الحليب البدائية ، إضافة إلى بعض الأشياء الأخرى اللازمة للزراعة : يزاد على ذلك أن الصلوبة ، يعملون فى مجال جراحة الماشية ، وهم فى كل هذه الحرف (التى تفتقر إلى المهارة) لا يعدوا أن يكونوا أشباه حدادين ، أو إن شئت فقل : هم صناع **Sunna** فى هذا الصدد . والصلوبه يعملون على تنفيذ الأمر الذى أصدره إليهم جدهم وينهاهم فيه عن أن يكونوا مربين للماشية ، وطلب منهم أن يعيشوا مما يصطادونه من الصحراء ، وأن يضربوا خيامهم أمام خيام البدو الرحل ، حتى يمكن أن يحلوا ضيوفا عليهم ، كما طلب إليهم أيضا أن يعملوا حدادين فى القبائل ويكسبوا عيشهم من هذا

العمل . ولما كان الصلوبة لا يملكون ماشية تدر عليهم الحليب فإنهم عندما يطلبونه من الخيمة البدوية ، ستقوم ربة البيت بسكب الحليب لهم من "سميلتها" Semila (قربتها) ، ولكن فى إناء من صنع الصلوبة ، ليأخذه الصليبى المسكين : والسبب فى ذلك ، أن البدو ، غير الجيدين ، لا يشربون عن طيب خاطر بعد الصلوبة ، الذين يحتمل أن يكونوا قد أكلوا من شىء فطيس ، أو إن شئت فقل : شىء نفق من تلقاء نفسه . يقول البدو أيضا عن الصلوبة "إنهم يأكلون الحشرات الدنيئة هى والديدان :" ومسألة الديدان هذه ، هى أسطورة من الأساطير ، إذ إنهم لا يأكلون الديدان إطلاقا . يضاف إلى ذلك ، أن لسان البدو المتهور يضعهم فى مرتبة "الكفّار" ، والسبب فى ذلك أن قلة قليلة من الصلوبة هم الذين يستطيعون أداء الصلاة بصورة صحيحة ؛ والبدو أنفسهم ليست لهم قيمه كبيرة بين أهل الحضر . والصلوبة يتحمسون تحمسا متواضعا ومعتدلا لدين البلاد التى ولدوا فيها ، ولا علاقة لهم بأى دين آخر ؛ والصلوبة متسامحون ، وإنسانيون برغم شقائهم وبؤسهم ، والسبب فى ذلك أنهم محتقرون ومغلوبون على أمرهم .

فى فصل الصيف ، عندما لا يتوفر الحليب عند البدو ، وبعد تحميل خيامهم الخفيفة مع كل ما حصلوا عليه وممتلكاتهم الأسرية ، على ظهور الحمير التى تعد الماشية الوحيدة المتوفرة للصلوبة ، يتخلون عن مخيم الأعراب ، ويواصلون ترحالهم فى الصحراء الواسعة . والأسرة الصلوبية ، تستوطن منطقة نائية ، عند بئر جيدة عامرة بالماء ، فى جزء غير مطروق من الصحراء ، يصلح للقيام بعملية الصيد . والصلوبة (دونا عن سائر الرجال) هم الوحيدين الذين فى حل من صحراء الجزيرة العربية ، إذ من المسموح لهم به أن يذهبوا حيثما شاءوا فى تلك الصحراء ، ولما كان الصلوبه يدفعون للجميع فدية صغيرة فلا أحد يعارضهم أو يقف فى طريقهم ، وبالرغم من مولد الصلوبة فى الجزيرة العربية ، إلا إنهم ليست لهم مواطنة فى شبه الجزيرة . والصلوبة يقولون : البدوى لا يسرق من الصلوبى أى شىء ، بالرغم من أنه يلقاه وحيدا وعلى انفراد ، فى أعماق الصحراء ، وفى يده جلد واحدة من النعام ، وبالرغم أيضا من أن ثمن مثل هذا الجلد يساوى ثمن ناقة واحدة . ولكن البدوى عابر السبيل ، يكفيه تماما

رؤية خيمة الصلوبى ، وهى منصوبة بالقرب من بئر من الآبار المنعزلة ، ويكفيه أيضا التطلع إلى تناول الطعام من وعاء ذلك الصياد ؛ هذا الصلوبى المسكين يقدم لذلك البدوى وجبة مشبعة من لحم النعام . والصلوبة يصطادون وهم راكبين على ظهور الحمير . والصلوبة يترحلون ومعهم أسرهم خلال المناطق الكبيرة الخالية من الماء التى لا يستطيع البدوى الوصول إليها بسهولة على ظهر جملة السريع ، الذى يتحمل العطش مدة ثلاثة أيام وذلك على العكس من حمار الصليبى الضعيف ، الذى يتعين على راكبه أن يسقيه يوما بعد يوم (والذى يعد أقل من الجمل من حيث كونه واحداً من حيوانات أو دواب الصحراء) . هذا النوع من بشر الصحراء الذين يتوزعون فى أرجائها يتفوقون على البدو فيما يتعلق بسائر الحرف الأرضية كلها ، كما يتفوقون أيضا على القرويين سكان الواحات . والصلوبة (فيما يتعلق بالأشياء المتدنيه الأخرى) يتوارثون أبا عن جد تراثا بريا عن أضعف الأماكن التى يمكن أن تحتوى على الماء فى الصحراء . هؤلاء الصلوبه يتجولون هائمين على وجه صحراء الجزيرة العربية الشاسعة ، بدءا من المرتفعات السورية إلى اليمن ، فيما وراء الطائف et-Tâif، وأنا لست على علم بنهاية مطافهم !- وقد أخبرنى سكان الجزيرة العربية أن الصلوبة هم أفضل من يمكن سؤالهم عن الأشياء الداخلة ضمن فهمهم ومعرفتهم التى تشبه معرفة الفئران .

هؤلاء الذين يستطيعون كفالة أنفسهم من حيث الغذاء فى أرض ميتة لابد وأن يكونوا سادة فى فن الصيد والقنص ، وبخاصة فى الوقت الذى يعجز الآخرون فيه عن قص أثر واحدة من النعام . فى تلك الصحراء ينعم هؤلاء الصلوبة المساكين بلحم الغزال الحلو ولحم البدون (الأبقار البرية أو الوعول) ، كما ينعمون أيضا بلحم الوعل فى بعض المناطق المحددة ؛ والصلوبة فى كل مكان ، قادرين على معرفه مسارات طرائدهم والأماكن التى تلوذ بها تلك الطرائد . والبدو ، هم الذين يروون هذه العجائب عن الصلوبة ؛ والبدو يقولون : "الصلوبة يشبهون البدو فيما يتعلق بالصيد البرى ، لأنهم إذا ما شاهدوا قطيعا من حيوانات الصيد ، يستطيعون تفريق أفراد ذلك القطيع ويختارون من بين تلك الأفراد ذلك الذى يريدون صيده ، ويقولون أيضًا : 'هذه الحيوانات ، أو إن شئت فقل : *الرءوس سنكتفى بها اليوم* ، أما فيما يتعلق بالحيوانات ،

أو الرءوس الأخرى فسوف نصطادها فى الغد وبعد الغد " - التهويل والبحث عن العجائب المدهشة من طبيعة البشر ، وهذا الكلام الكبير من باب الشهامة والنخوة عند الأعراب ؛ ولكن الذى لا شك فيه ، هو أن الصلوبة هم بحق من أبناء السبيل ورجال أشداء ، ومتحفزين لأنهم يعيشون مما تصنعه أيديهم ، وأفضل ما رأيتهم منهم كانوا صيادين ممتازين . واسم الصلوبة ، أو الصليب **Slèyb**، اسم العلم هذا له بعض الكنيات الأخرى . والصلوبة فى غربى مدينة حائل يدعون الخليوا **el-Khlûa** أو الخليوى **Khelûy**، بمعنى "الخلائى" **The Desolate**(*)، لأنهم يسكنون بمعزل عن القبائل ، وليس لديهم ماشيه أو رفاق ؛ وكلمه "خليوى" يطلقها البدو على أنفسهم ، عندما لا يعثرون أثناء رحلتهم على منازل الأعراب ، ويتعين عليهم الرقود استعدادًا للنوم "فرادى" ، أو إن شئت فقل : وحدهم فى ذلك الخلاء الواسع . الصلوبة أيضا يُسَمَّون أيضا على بعض الألسنه البذيئة فى هذا البلد باسم 'كلاب ' **Kilab'** الخلا **'el-Khala** بمعنى 'كلاب الصحراء' 'والغنيمى' **'El-Ghrunemy** اسم لنوعية أخرى من الصلوبة فى شرقى نجد ؛ ويقال إن هذه النوعيه الأخيرة لا تتزوج من النوعيـة الأولى . والمعروف لدى سكان الجزيرة العربية أن الصلوبه بكل أنواعهم ، ، إنما انحدروا عن نوعية كافرة قديمة أو إن شئت فقل : من النصارى .

والشرارات هم والحطيم (وهم جميعا من سلالة واحدة) غير معروفين من القبائل البدوية . يضاف إلى ذلك أن الأقوام المختلفة من الصناع **Sunna** تشكل أيضا نوعا من الأجانب **aliens** الذين ولدوا فى الجزيرة العربية ويعيشون بين الأعراب ، هذه الأقوام لا يتزوجون من بعضهم البعض . والبدو يقولون عن أولئك إنهم 'مالهم **Ma-li-hum** أصل **'asl**، بمعنى "أنهم لا يشكلون سلالة نسبية" ، وهذا معناه أن هؤلاء 'ليسوا منحدرين من سلالة قحطان ، أو سلالة إسماعيل ، أى أنهم ليسوا من العرب .' ونحن عندما نسأل أحدًا من أهل الجزيرة العربية ، من هم هؤلاء **Sunna**؟ نراهم يجيبون على تساؤلنا قائلين : "والله ، ليس لدينا ما نقوله أو نقطع به فى هذا الصدد ، ولكن كل ما

(*) الخلاء فى هذا الكتاب تشير إلى الصحراء (المترجم)

نعرفه أنهم منحدرين عن سلالة شريرة ، وقد تكون تلك السلالة يهوديه أو نصرانية" (هذا عن القدماء الذين عاشوا فى هذه الأرض قبل محمد ﷺ ، وليس لديهم أية فكرة ، ولو قليلة ، عنه) . وفى كل المرات التى التقيت فيها بالصلوبه كنت أسالهم عن سلالتهم النسبية ، ولكنهم كانوا يردون علىّ متعجبين ومتسائلين وهم يقولون : "ماهذا الذى يسأل عنه بالنسبه لنا نحن المساكين Mesquins الذين نعيش فى هذه الصحراء ؟ ليس لدينا كتب أو ذكريات عن الأشياء الماضية ؛ ولكن ذهب أنت وأقرأ ، وإذا ما وجدت شيئا من هذا القبيل مدونا ، خبِّرنا به ." قال البعض منهم إن اسم جدهم هو المعيبى M'aibî؛ والبدو أيضا يرددون ذلك الذى ورد عن أولئك الصلوبة عند المؤلفين العرب ، وكيف أنهم كانوا أعراب Aarab جسَّاس Jassas، الذين كانوا بدوًا فى يوم من الأيام : وكيف جرى تدمير أعراب جساس هؤلاء فى الصراع الذى دار بينهم وبين أعراب Aarab كليب k'leyb ، وكيف جرى الاستيلاء على ماشيتهم كلها ، الأمر الذى حتم عليهم أن يمتهنوا مهنة المطرقة ليكسبوا منها عيشهم ، وبذلك أصبح يطلق عليهم اسم الصلوبة . وفى أواخر فصل الصيف وجدت بعض أسر الصلوبة وقد نصبت خيامها أسفل القلعة (المحطة) الموجوده فى قرية الحجر ، وكانوا قد جاءوا من مدينه الوجه عبر الحرَّه وقريه تهامه ، ومعروف أن الوجه هى المحطة الرئيسة لهؤلاء الصلوبة . كان الصلوبة فى ذلك الموسم ينصبون خيامهم على شكل دائرة ؛ وفى العام السابق وصلوا ، فى تجوالهم ، إلى مسافة بعيدة فى اتجاه الجنوب ، ورأيت نساءهم وهن يقمن بطحن حبوب دقيقه تشبه حبوب القمح كن قد جلبنها معهن من أحد الوديان بالقرب من مكة ! والصلوبة (باعتبارهم من سكان الساحل والحجاز) كانوا أكثر تحضرا وفهما من الصلوبة الذين يعيشون فى الأراضى المرتفعة . وقد أجاب أفاضلهم على تساؤلاتى قائلين : "نحن أعراب كعفة K'fâ، وكنا فى الماضى من أصحاب الإبل والقطعان ، مثل البدو تماما : تلك كانت قرانا ، التى هى الآن عبارة عن أنقاض وخرائب ، فى المرتفعات الواقعة إلى الجنوب من قرية العلا وأقرب مثل على ذلك ، هم الصُّقيرات Skeirât فى وادى Wady سُدْر Sôdr؛ ولكن أهلنا بلغوا ، فى نهاية الأمر ، من الضعف مبلغا لم يتمكنوا معه من المحافظة على أنفسهم فى بلد واسع من هذا القبيل ، ومن أجل

حصولهم على المزيد من الهدوء امتهنوا حرفة الصلوبة ." قال واحد منهم : "نحن جميعا من بنى Beny مُرَّة Murra، ونحن من شيعة سالم Salîm ابن Ibn الزير ez-Zir، فى تلة تملا Temla، التى تبعد مسافة مسير يوم واحد إلى الشرق من المدينة (المنورة) ؛ والناس يطلقون علينا اسم المطلّج Motullij واسم الدُّرُوبى Derruby ". وهنا ضحك الحاج نجم Nejm، عندما دخلت مرة ثانية ، قائلا : "هذا الخيال الجامح الغريب الذى يتملك خليل ، ويجعله يتساءل دوما عن أشياء ، عند هؤلاء الناس المساكين . يا خليل ! هؤلاء هم بنى Beny مُر Morr، إنهم كلاب. وما هو ذلك الذى تود قوله عنهم غير ذلك ؟"

عندما سألنى البدو عما إذا كان بوسعى أن أخبرهم بما أعرفه عن الصلوبة من واقع الكتب والقراءات استاءوا عندما أجبتهم قائلا : "فى رأيى ، أنهم بقية من بعض الأعراب القدامى ؛" لم يوافقنى البدو على أن الصلوبة ربما يكونون من السلالة الأصيلة التى نشأت فى الجزيرة العربية . والمعروف أن كل من يولدون بلسان عربى لديهم استعداد فطرى فى البحث فى أصول الكلمات ؛ وهنا صاح متعجبا أحد الزنوج الذى كان يستمع إلى الخطاب الدائر بيننا : "حسن ، هذا الذى يقوله خليل أمر محتمل ؛ أليست كلمه الصلوبة تقول : صلب Sulb العرب el-Arab، بمعنى سلالة العرب ؟" هذا المسكين (الذى تكلم بشىء من الحقد والغيظ ، بسبب بشرته السوداء ، التى جرت عليه الاحتقار من العرب البيض) صاح فيه المشتقون (فى أصول الكلمات) الآخرون وأسكتوه ، وكان هؤلاء المشتقون يمثلون بقيه الجماعة ، وكان سبب إسكاته واضحا نظرا لأن هؤلاء المشتقين لم يكونوا راغبين فى ذلك . "(يقول العرب) : الصلوبة أثرياء لأنهم يأخذون نقودنا ، ولا يعود علينا منها سوى القليل إن لم يكن شيئا على الإطلاق : إنهم لا يحتاجون إلى الإنفاق على الطعام . ولديهم ما يكفيهم من القمح والتمر ، إضافة إلى السمن والمريسى ، اللذان يحصلان عليهما نظير أعمال الحدادة التى يؤدوها لنا ." الصليبى يحتاج إلى قليل من النقود نظير حرفته المعدنية ، حتى يشترى بها السبائك والحديد ؛ أما الباقى فيزيد ليصل إلى حزمة من النقود ، يقوم الصليبى ، حسبما يقول الأعراب ، بدفنها على وجه السرعة فى الصحراء بدلا من حملها معه ، ويعود ربما بعد مرور سنوات ، لأخذ تلك الرزمة ، وربما يستخدم تلك النقود فى شراء حمار لنفسه .

ومع ذلك ، يتردد أن بعض الصلوبة يربون القليل من الماشية ، وذلك في اتجاه بلاد الرافدين (العراق) ؛ والصلوبة يعيشون في ظل حكم شيوخهم الخاصين بهم ، كما يركب هؤلاء الصلوبة الإبل أيضا . وقد سمحت الظروف لي برؤية رجل محترم من الشمال ، كان يلبس زيا محترما ، في بلدة حائل ، وكان من الصلوبة ، هذا الرجل وجه لي الدعوة (ومبلغ علمي أن ذلك كان بناء على طلب من الأمير) أن أركب معه ونقصد الجبال المجاورة بحثا عن المعادن . وسألته : "ترى ، ما هي الدابة التي سوف أركبها ؟" وقال لي إني ينبغي عليَّ أن أركب حمارا ، "ونحن ليس لدينا دواب غير الحمير ." كنت أفضل وأنا في غاية السعادة مسألة الخروج من حائل إلى الهواء النقي الطلق ؛ ولكن خطر ببالي أن حياة الإنسان يجب ألا يعهد بها إلى إنسان دنيء أو حقير ، أو بمعنى أصح ، أناس ليست لديهم تقاليد البدو وأعرافهم فيما يتعلق بالرفقة . والصلوبة أنفسهم يعيشون في دوائر ، ويسكنون بالقرب من قبائلهم وواحاتهم . هناك بعض الأسر الصلبية التي لها موطن أساسي ، يختارونه في مستوطنة من المستوطنات ، كما هو الحال في قرية تيماء ؛ ولكن الغالبية العظمى من الصلوبة تبقى في الصحراء . - وصلوبة الصناع يستوطنون بعض القرى ، والبعض منهم عبارة عن رجال يتجولون مع قبائلهم ويعيشون حياتهم كما لو كانوا بدوا رحَّلاً ، وملاَّكًا للماشية . والصلوبة الذين يلفظهم جنسهم البشرى ، والذين يغضب العالم عليهم ، ترى أعينهم وهي تفيض وضاعة وذلاً . نساء هؤلاء الملفوظين ، اللاتي يرتدين خرقا بالية ، تراهن ، في كل مخيم ينزلن فيه ، وهن يشحذن ، بأصوات تستدر العطف وتبعث على الحزن ، من بيت إلى بيت ، من بيوت هؤلاء البدو المتسامحين المساكين ؛ ومع ذلك ، هناك رجال من بين رجال الصلوبة (وبخاصة رجال صلوبة مدينة الوجه) تراهم مرتدين ملابس طيبة ، ويبدو عليهم الاحترام ، الأمر الذي يجعل من الصعب على حريمهن الخروج للشحاذة والاستجداء . شاهدت أيضا كثيرا من الشباب الذين كانوا من الصلوبة ، شاهدتهم في الصحراء السورية ، وهم يرتدون معاطف مصنوعة من جلود الغزال . والخيمة الصلوبية الصغيرة تكون في الأغلب الأعم ، عامرة بالمؤن ، والصلوبة لديهم اللحم الذي لا ينقطع عنهم في يوم من الأيام ، في حين لا يتوفر ذلك للغالبية العظمى من البدو .

تمكنا من الوصول إلى قرية تيماء عن طريق التجوال والتخييم ، والآن ، وبعد هذه

الرحلة الطويلة الشاقة ، كان من الطبيعى أن يقوم البعض منا ، ومن بينهم زيد بالذهاب إلى السوق لشراء بعض المؤن : وأنا بدورى يتعين على الانضمام إلى تلك المجموعة وأكون بصحبة زيد ؛ بدأنا الرحلة فى الصباح وكانت المجموعة غير متجانسة إذ كان السواد الأعظم من أفرادها من بدو الفهجات Fehjât، وتضم ثلاثين رجلا هم وجمالهم . وسرعان ما تجاوزنا المرتفعات الرملية لندخل فى أرض شديدة القحولة عبارة عن أراضى مرتفعة ومنخفضات ، وقاع التربة فى هذه المنطقة صخرى ، وهو عبارة عن حصى من أحجار الحديد . هذه المنطقة هى أشد المناطق قحوله وجدبا من الصحراء التى تحيط بقرية تيماء ، وهذه الصحراء خالية من أى نوع من الخضرة أو الأدغال . تجاوزنا بعد ذلك أرضا منخفضة ، يطلقون عليها اسم المحاى M'hai، مررنا ونحن ركوب على أنقاض غير واضحة لواحدة من المستوطنات القديمة ، يطلقون عليها اسم الجريدة Jerèyda، التى فيها مجموعة قليلة من قواعد سوارى الأعلام ، التى كانت منصوبة على الحافة ، ويصل طول السارية الواحدة منها إلى ما يتردد بين ثمانية وتسع ياردات ، يبدو أنها كانت مستعملة كسور يحيط بخيام الشتاء الخاصة بالأعراب القدامى ، الذين اتخذوا من ذلك المنخفض ملجأ لهم . المعلقات ، أو إن شئت فقل القصائد المختارة من الجزيرة العربية قديما ، تأتى على ذكر الخيام المستديرة ، ولكن خيام البدو الرُّحَّل من العرب هى خيام مربعة الشكل فقط . رحبت بى الجماعة قائلة : "انظر هناك ! يا خليل هذه واحدة من قرى الأولين Auellin القدامى ." – "وأى قدامى كانو هؤلاء ؟" – "البعض يقولون : هم الشرارات ، وبعض آخر يقول : هم بنى Beny كلاب Kelàb أو إن شئت فقل : بنى شلب Cheib(*)، وديرتهم ، قسما بالله ، كانت هى برج سلمان والأرض هى ما يسمى (أم شريفهة Umsheyrifa) وأردف زيد قائلا : "كانوا هؤلاء أهل ثيماء theyma (وليس تيماء Teyma)، وكان شيخهم هو على Aly السويسى es-Sweysy اليهودى the Yahûdy وبعد أن وصلنا إلى الأرض المرتفعة

(*) حرف " الكاف " فى بعض الجزيرة العربية ، منطقة نجد على وجه الخصوص ، قد ينطق كافا محققة أو قد يقلبونه إلى حرف " شين " فكلمة كلب قد تنطق عندهم كما هى أو شلب (المترجم)

الموجودة وراءنا ، أرانى زيد العلامات الأرضية الجبلية فى غربى منطار Muntar بنى عطية Beny Atieh، بجوار طويل Twoyelصيةه Saîda وحليمة Helaima على بعد منا ، أمام الغنيم el- Ghrenéym التى تقع خلف الواحة ، غمغم البعض قائلين : "لماذا يطلعه زيد على علاماتنا الأرضية ؟" - "قال زيد : أتمنى لو أن خليلا أصبح بدويا ."

كانت خضرة قرية تيماء ، ملاذ الصحراء ، تسر الخاطر وتشرح الصدر ؛ اقتربنا من جزيرة النخيل الطويلة ، التى تحيط بها جدران ، أو سوز ، البستان المبنية من الطين ؛ تلك الجدران المحصنة بعدد من الأبراج العالية . وقرية تيماء عبارة قاع فيضانى قديم وضحل من الغرين شديد الخصوبة ، يقع خلال هذه السهول الواسعة العاليه ، التى تبعد عن غربى نجد ، هذه الأبراج التى تشبه المنارات مبنية جيداً من الطوب اللَّبن ، وهذه الأبراج موجودة منذ أزمان الخوف وانعدام الأمن فيما قبل حكومة بن الرشيد ، أى فى الوقت الذى كانت فيه تيماء ، شأنها شأن معظم الأماكن الأخرى فى الجزيرة العربية ، تعانى من قلاقل واضطرابات الشيوخ على اختلاف مشاربهم ، الأمر الذى أدى إلى تقسيم أحياء البلدة بسبب العداء المتوارث بين هؤلاء الشيوخ ، إذ كان كل شخص من الأشخاص القادرين يقوم ، بعد تحصين نخيلة بسور مرتفع من اللِّبن ، ببناء برج له فوق ذلك السور ؛ يضاف إلى ذلك أن كل سوق من أسواق البلدة كان فيه برج من أبراج الدفاع يستخدم ملجأ لأهل الشارع . وفى أوقات الخطر المحدق ينسحب رب الأسرة ومعه أسرته إلى مزرعته المسوَّره : وفى ذلك المسور تعيش تلك الأسرة تعمل وتأكل الثمار ، بالرغم من حصار أعدائه القدامى له مدة عام أو عامين . وعن طريق برج المراقبة هذا يمكن رؤية العدو أثناء قدومه فى ضوء النهار . قد يظن البعض أن الجدران التى من هذا القبيل هى نوع من أنواع الدفاع الضعيف ؛ ولكن بالرغم من دهاء العقول السامية Semitic الذى يشبه دهاء الثعالب ، فإن تلك الأسوار لا تعد اختراعا جديدا . والمعروف أن انفجارات البارود ، هى وصدمات الدعامات المصنوعة من خشب النخيل ، حطمت مقاومة هذه الأسوار ، ولكن الطفل قادر على تجريب أى شىء جديد ، وكذلك المجانين من الرجال قد يلجأون إلى تجربة أو استعمال أشياء لم يجر استعمالها من قبل . وفى أقوال الإنجيل ، يوجد ما يشير إلى أن كل من

كان يزرع بستانا كان يقوم ببناء برج فيه للمحافظة عليه . وبرج المراقبة داخل البستان موجود فى مناطق الحدود الصحراوية . بدأنا السير بين جدران البساتين رمادية اللون ، تلك الجدران التى كانت تتكئ عليها أغصان أشجار الرمان المحملة بالثمار ؛ لقد أدخل ذلك المنظر السرور على ناظرينا ! كانت الواحة على ارتفاع ٣٤٠٠ قدم . نزلنا من فوق إبلنا عند بداية أول سوق من الأسواق ، أمام دار ، أو حوش رجل شاب من معارفنا ، اسمه سليمان Sleyman، الذى كان فى موسم الحج ضيفا من ضيوف القلعة فى مدائن صالح ، كان سليمان يعيش فى هذه الدار مع شقيقه ، الذى كان تاجر التمر الذى يشترى منه زيد إحتياجاته ؛ واستقبلنا الرجل استقبالا طيبا واحتفى بنا حفاوة بالغة . وأخذ الحريم حرفة ، زوجة زيد ، التى كانت ترافقنا ، إلى المكان المخصص للحريم .

تيماء إحدى مستوطنات نجد التابعة للشمر ، الذين جاء آباؤهم للعيش فى هذه المنطقة ، وهذا نقلا عن كلامهم ، وأن أولئك الآباء جاءوا إلى هذه المنطقة منذ مالا يزيد على مائتى عام : وقد تخلف عن ذلك الزمن تلك القلة القليلة من النخيل العالى الذى يصل ارتفاع الواحدة منه إلى ما يقرب من خمس عشرة قامة(*) بالقرب من البئر الكبيرة ، أو إن شئت فقل : الحدّاج Haddâj؛ كما توجد أيضا قلة قليلة من الزنوج الذين يتجارون على تسلق ذلك النخيل لحصاد التمر . كل أنواع نخيل تيماء جرى جلبها من جبل الشمر ، فيما عدا نخيل الحلو ، الذى جرى جلبه من قرية العلا . لهجه الشمر تسود أيضا فى ديرة من الديار الأخرى . ابتداء من تيماء تبدأ فى مناظرة الأشكال النجدية النحيفة ، المبتهجة ، الجريئة التى تسارع إلى الكشف عن الجود والكرم ، ولكنهم فيما يتعلق بالغرباء الذين يأتون إلى تيماء قادمين من الحجاز ، يكونون مثل البدو سواء بسواء . هذه الأشكال النجدية حافية الأقدام ، ويرتدون الملابس التى يشترونها من حائل ، والتى تجلب هذه الملابس من العراق ، كما يسكنون بيوتا واسعة مبنية من الطين ، القسم الأكبر منها مكون من طابقين ؛ ونوافذ تلك المنازل عبارة عن

(*) القامة : مقياس يساوى ستة أقدام (المترجم)

فتحات لمرور الضوء والهواء ، وهم يفترشون الأرض بعد تسويتها ، وأبواب تلك البيوت تصنع من ألواح سيقان النخيل كما هو الحال فى الواحات كلها . هذه البلدة المفتوحة من بلاد الشمر لم تنتشر فيها الأوبئة مطلقا ، والسبب فى ذلك أن البُرّ burr، أو إن شئت فقل : الصحارى المرتفعة ذات الهواء النقى تحيط بهم من كل جانب من خلف الأسوار التى تحيط بالبلدة : ويدو الصحراء الجافة هم وحدهم هنا الذين يشتكون هنا من الليل (البخر الناتج عن التربة المروية) ، الذى يصيبهم بالبرد فى رءوسهم ، وهو ما يسمونه بالزُّكْمة Zikma(*) وتيماء خالية من أنقاض المنازل ، ومن الجدران المهدّمة ، والأراضى الزراعية المهجورة ، التى نشاهدها فى معظم أماكن الجزيرة العربية . هذه المستوطنه البعيدة عن نجد تنعم بالخير والازدهار ، على نحو لم يسبق لى أن رأيته فى كل ترحالى عبر الجزيرة العربية . وأى إنسان يكتشف بئرا قديمة خارج أسوار هذه البلده ، يكون ملكا له ؛ وهنا يقوم مثل هذا الشخص بتسوير أكبر قطعه ممكنه من الأرض التى يمكن أن يرويها من ماء ذلك البئر ، ويقوم ذلك الشخص بحرث أرضه الجديدة لتصبح جاهزة لزراعة الحبوب وزراعة النخيل أيضا ، وبعد ذلك بخمسة عشر عاما يصبح ثمن كل ساق من تلك السيقان مساوٍ لثمن جمل من الجمال . وتيماء حتى ذلك الوقت ، تعد بلدًا حرًا ، استسلم بلا مقاومة لحكومة بن الرشيد . وأهل تيماء من الزراع المهرة الذين يستفيدون مما فى أيديهم دون براعة أو إبداع من أى نوع كان : فآبارهم هى نفس آبار القدماء ، التى عثروا عليها ليحفروها من جديد ويستفيدون بها هم أنفسهم : وأهل تيماء لا يكلفون أنفسهم مشقة حفر أى بئر من الآبار فى ذلك الصخر الرملى الطرى ، الذى يترسب فى قاع الآبار التى يصل عمق الواحد منها إلى سبع قامات . يقول أهل تيماء ، المسلمون لا يستطيعون حفر أبيار من هذا القبيل ، ولكن النصارى هم واليهود الذين يناسبون العمل فى حفر تلك الآبار . ومن يحفرون الآبار من أهل الجزيرة العربية ، فى الحجر لا يوجد أحد منهم فى هذه المنطقة ، وأقرب هؤلاء الناس إلى تيماء هم أهل القصيم ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء العرب الكسالى

(*) الزكمة : من الزكام . (المترجم)

ليسوا على استعداد لجلب عمال أجانب إلى بلدتهم . وهم يعتمدون على الله فيما يتعلق بكسب العيش ؛ وكسب العيش من منظور تلك القلوب التى تعى معنى النقود ، أفضل من إضاعة المال والنقود فى المغامرات .

لم نصادف فى تيماء أحدا من أولئك الذين يستجدون الصدقات من الناس فى الشوارع ؛ واقع الأمر أن مسألة مصادفة أى من الشحاذين فى غربى نجد ليست أمرا شائعا . لم أعرف فى تيماء من هؤلاء الناس سوى شخص مسكين واحد فقط لم يكن كبير السن . كان ذلك الشخص يدخل أى بيت من البيوت فى وقت تقديم العشاء ، ويجلس ويتناول العشاء مع بقية الجالسين الذين يرحبون به ، ولكنهم كانوا يرفضون أن يحمل أى شىء من الطعام عند انصرافه . كان يوجد أيضا فى قرية تيماء بدوى أو بدويان معدمان ، كانا يدخلان المنازل لتناول العشاء وشرب القهوة ، مع أية أسرة من الأسر ، ولم يكن هناك من يمنعهم من ذلك . وعند حلول موعد النوم كانا ينامان على الأرض ، بحيث يلتف كل واحد منهما بعباءته ، فى المقهى الذى يكونان فيه ؛ أو كانا يخرجان للنوم فى الخلاء حيث الهواء الطلق ، فوق مصطبة من مصاطب الشارع المبنية من الطين .

مدينة تيماء القديمة التى كان اليهود يسكنونها ، وهذا نقلا عن موروث اليهود ، دُمِّرت (مرتان) بفعل الفيضان ، ولم يتبق من تلك الأزمان القديمة سوى بعض البنايات الحجرية البدائية ؛ مصنعية تلك البنايات تشتمل على كتل من الصخر وعوارض أفقيه مصنوعة من حجر الحديد . وإلى جانب هذه الكتل وتلك العوارض الأفقية توجد دائره كبيرة (أزعم أن طولها يصل إلى حوالى ثلاثه أميال) عباره عن سور كبير من الحجر ، يحيط بمدينة تيماء القديمة . هذا السور يقع فوق مستوى الواحة إلى حد ما . وأمير مدينه تيماء الموسوية القديمة ، اسمه ، كما ورد فى أثر اليهود ، هو بدر béder بن Ibn جوهر Joher . كان بدو بنى صخر هم أول سادة لبلدة تيماء الجديدة . وهم يحصلون من سكان تيماء على عائد خوة Khûwa سنوى ؛ وبدون ذلك العائد السنوى لا ينجو أهل تيماء من الغزو الذى يقوم به بنو

صخر على تلك البلدة . وتيماء لا تعرف مرض الحمى . وماء تيماء ، وهذا هو حال الماء الجوفى الذى عثرت عليه فى الجزيرة العربية ، ضحل ، ودافئ وغير صحى . وهم يعزون عدم وجود الأجسام الضخمة بينهم إلى ذلك الماء ؛ ولكن واقع الأمر أن ذلك الشكل هو ذلك الشكل الضعيف فارع الطول الموجود فى نجد ، والذى يتمتع بعيون مدهشة ، ووجوه بيضاوية طويلة وضحلة ، وفكين متدليين : الناظر إلى هؤلاء الناس يحسبهم من البدو . ونساء تيماء ، شكلهن أحسن من أشكال الرجال ، وأجسامهن مترهلة ، ووجوههن كبيرة وقروية ، ولكن وجوههن ليست متوردة ، وأصواتهن نشاز ، وهن فى ذلك مثل نساء بنى Beny وهاب Wahab جيرانهن ، تتحركن بلا حجاب . لم أر فى تيماء رجالا مسنين . ومن بين المائتى منزل الموجودة فى تيماء ، توجد ثلاثة أسواق (*) لثلاثة شيوخ ، أو إن شئت فقل : ثلاثة أبرشيات لثلاثه كهان ، كما يوجد فى قرية تيماء حوالى خمسة عشرة حارة ، أو منطقة صغيرة ؛ وفى كل حارة يوجد مسجد صغير ، جدرانه من اللّبن وخال من أى شكل من أشكال الزينة ، وأرض المسجد من الزلط والحصى . ومناطق أو أماكن الراحة كلها من هذا القبيل ، والتى يمكن أن يأوى الغريب إليها لينام فيها تحت ظل ثابت ، عند بوابة السماء . ولكن المسجد الكبير ، الذى يقصده كل الذكور لأداء صلاة الجمعة ، وسماع الخطبة وقراءة القرآن ، يبعد عن الشوارع مسافة صغيرة فى اتجاه الشرق . وربما كان المسجد الكبير مقاما على موقع معبد قديم ، وذلك من منظور أننى وجدت بعض الأعمدة البدائية ملقاه ومنتشرة فى ذلك المكان . وفى قرية العلا (إحدى واحات الحجاز ، والتى لم يدخلها الوهابيون ،) وجدت أن المساجد تكاد تكون مثل المساجد الموجودة فى القرى السورية .

أخذنا الناس لشرب القهوة فى صالات (قاعات) بعض الأسر الأخرى ، التى كان زيد يتعامل معها فيما يتعلق بجانب الحبوب من طعامه وبعض التمور أيضا . ونظرا لقلة وجود حطب الوقود فى المنطقة المحيطة بتيماء ، ونظرا أيضا لقلة ذلك

(*) السوق : هنا بمعنى شارع (المترجم)

الحطب فى المنطقة المحيطة بمزارعهم ، اللهم باستثناء الحطب اللازم للطبخ اليومى ، فإن خشب النخيل بالإضافة إلى كونه "خلاً للأسنان ودخانا للأعين" عندما يحرقونه - يستخدم الناس هنا إلى جانبه الطريقة النجدية السهلة والنظيفة التى تعتمد على الفحم النباتى الذى يستخدم فى تصليح القهوة ، والذى يجرى منفاخ فى وجار يصنع من الطين بواسطة منفاخ من قبيل المنفاخ الذى يستعمله الحداد فى عمله : هذا الفحم النباتى يجلبه هؤلاء الرجال الذين يخرجون لصناعته والعودة به من الصحراء البعيدة . مُضيف واحة تيماء الذى تعلو الابتسامة وجهه ، لا يدخر وسعا ، طوال جلوسه أمام ذلك الفحم ، فى القيام بالنفخ والتصبب عرقا ، مثل الصلوبى ، فى سبيل الضيوف الذين يزورونه ، وأنت إذا كنت من معارفه ونزلت ضيفا على شخص تيماوى آخر ، تراه يتساءل فى شىء من التوبيخ الهين اللين قائلا : "لماذا ، لم تنزل عن دابتك أمام دارى ؟" من هنا فإن القهوة تصلح هنا ، بكل هذا الجهد وبكل هذا الاهتمام بواقع مرتين أو ثلاث مرات كل ساعة : والقهوة هنا يجرى تصليحها باستعمال بعض من حبوب البن لعدد كبير من الناس ، ومشروب القهوة فى تيماء قليل جداً . والمقهى الذى يبنى على الطريقة النجدية ، يعد أفضل ركن من أركان البيت . يضاف إلى ذلك أن جمال وتناسق جدران المنازل المبنية من الطين يوحى بشىء من البساطة المتفردة ؛ والناس فى تيماء يسقفون منازلهم باستعمال أعواد الإثل أو أعواد الطرفاء الطويلة التى تزرع فى كل أنحاء الواحات حتى يستعملها الناس بدلا من الخشب . هذا هو الحصير المصنوع من سعف النخيل ، والموضوع فوق العوارض الأفقية ، ينظر الناس إليه فرحين وهو ملطخ بآثار الدخان ، ويتلألأ بفعل دخان كرم العرب اليومى وهو يتصاعد من وجار عمقه شبر واحد محفور فى الأرض . والضوء يصل غرفة القهوة (المقهى) عن طريق المدخل ، كما يصل أيضا كثير من الصالات عن طريق كوَّات مفتوحة ، وبعض الثقوب التى يحدثها الناس فى أعلى الجدران . مكان الجلوس (المقعد **Mûkaad**) على أرض الغرفة وحول الوجار المحفور فى الأرض ، مفروش فوقه حصير مصنوع من سعف النخيل أو قطعة من القماش الذى تصنع منه الخيام . وعلى جدران منازل بعض الشيوخ توجد بعض أوتاد الخيام ، التى يعلق عليها ضيوف الشيخ رماحهم أو حرابهم

الطويلة . فى هذه الدُّور Dârs لا يسمع المرء أشعارا شعبيه قديمه ، إذ تعتبر الآذان الوهابية أصوات الرباب أشياءًا غير دينيه ، يضاف إلى ذلك أن التيامنه (أهل تيماء) تلقوا أمرا صارما من إبن الرشيد ، يحرم عليهم استعمال الرباب أو العزف عليه ! وقد قام خلف ، أمير تيماء ، الشخصيه الليبرالية التفكير ، بإبلاغ ذلك الأمر لبعض البدو على مسمع ومرأى منى ، ولكن ذلك لم يخلو من التلميح إلى رفضه هو شخصيا لمثل هذا الأمر .

التقينا ولد الشيخ مطلق أثناء تجوالنا فى شوارع تيماء ؛ إذ كان قد سبقنا إلى تيماء . ولاحظت كيف أن ذلك البدوى كان يمضى فى طريقه وهو ينظر إلى الأرض ، هيئ لى أن ذلك البدوى كان فى سنةٍ من النوم فى هواء الواحات الآسن ويتملكه الحزن إلى حد ما : والرَّحيل يمكن أن نطلق عليه أنه هو سيد القبيلة الكامل ؛ هذا البدوى تنتظره مهمة طيبة وشجية وحزينة . حضر الشيخ إلى تيماء للزواج من واحدة من الحضر : والسبب فى ذلك أنه نظرا لاتجار بعض القرويين مع البدو ، فإن القروى تكون له دوما زوجة بدوية فى الصحراء ، من هنا فإن خيال البدو المريض يهيئ لهم الزواج من حضريات تعشن فى مستوطنة السوق ، حتى يتسنى له التردد على تلك الزوجه عندما يقصد السوق ، بالرغم من أنه لن يلقاها بعد ذلك مرة ثانية إلا بعد مرور عام كامل . فى المساء سمعنا تصفيقا حاداً بالأيدى ، إذ كانت النساء يحتفلن بعرس فى منزل من المنازل المجاورة . هذا تقليد سامى Semitic عام قديم ، يقوم على إحداث أصوات عاليه تصاحب تحركات أذهان هؤلاء الساميين ؛ يقول الكتاب العبرى المقدس : "فياضانات وأشجار الحقل تصفق بأيديها" . هؤلاء هم أصدقاء العريس يفتحون نيران بنادقهم الفتيلية . كان ذلك التزاوج يجرى تحت سحابة ، إذ حدث فى ذلك الوقت حادث غريب ؛ ومن سوء حظى أنى جئت إلى تيماء دون أن يكون معى تقويم ، أو إن شئت فقل : نتيجة أو رزنامة . وربات البيوت عندما وجدن ضوء القمر يتضاءل ، رحن يقرعن الأوانى ليساعدن القمر المحتضر ، الذى اختفى تماما نوره الساطع . وبدأت أستفيض فى شرح الخسوف والكسوف ، الذى يمكن الوقوف على مواعيد حدوثه فى الزمنين الماضى والآتى أيضا . وهنا رد على الجالسون لشرب القهوة قائلين : "قد يكون ذلك

صحيحا ، ولكن العرب جهلة وسذّج ! نحن لا يمكن أن نصل إلى ذلك الحد من التعليم الراقى المكتمل ."

فى فترة الصباح وبينما كنا جالسين فى المقهى ، يدخل علينا شخص ، يمشى الهوينا وتبدو عليه العظمة متكئا على عكاز طويل ، ومرتديا ملابس بهيجه اللون عليها شيء من الكشكشة : ذلك هو الممثل الدائم لابن الرشيد فى بلدة تيماء ، ممثل الأمير هذا ، الذى يبدو عليه أنه قد ابتلع وتدا ، تقدم فى مشيته ، دون أن ينظر إلى أى أحد من الحاضرين ، إلى أن جلس بهيبته ووقاره هذا ؛ ثم يتنازل الرجل ويرد التحية على شاربى القهوة الذين تمنوا له صباحا سعيدا . هذا الرجل هو ناقل حائل الكبير ، الذى يقلد أو يحاول محاكاة ابن الرشيد أحد أمراء الجزيرة العربية ، الذى يحمل هذا الغندور المتباهى بنفسه كما لو كان نسرا يدخل به الخوف والفزع فى قلوب البدو الذين لا ينصاعون للنظام . كان اسم ذلك الرجل سعيد Saïd، وهو شخصية من أصل إفريقى ، ويعد واحدا من المنغمسين فى المجون فى بلاط الأمير . جلس سعيد هذا أمامنا وقد تجهم وجهه وتصلب عنقه ، وهذا ، فى تقديره ، هو ما يعظِّم من مكانته : كان الرجل ممثلا لعظمة الأمير فى ذلك الجزء من البلاد . كان كل من يتحدث إليه يناديه فى استعطاف وود قائلا : يا سعيد ويتصنع سعيد حتى لا ينظر إلى من يناديه ، ويبدو عليه كما لو كان يحملق فى الهواء ، ويركز عينيه على رأس المنادى ، دون أن يعيره أذنا صاغية ، كما لو كان يستيقظ تدريجيا ، وهو مستاء ، من غفوته الطويلة : هذا السعيد نفسه عندما يسأل أحداً سؤالا ، يكون ذلك من وراء ظهره ، ويشيح برأسه كما لو كان يتظاهر بعدم الاستماع إلى الرد على ذلك السؤال . لم يكن سعيد هذا سوى مجرد ظل للحاكم فى المنصب الذى يتقلده فى هذه البلدة النائية : كانت مهمة سعيد تتمثل فى متابعة ورعاية وتنفيذ أوامر سيده ؛ ومع ذلك كانت تقاليد الحكم فى بيت الأمراء الشمَّرّ ، تقضى بوضع حكم الحضر بين أيدى الشيوخ الطبيعيين فى المدن . كان سعيد يسكن فى منزل عظيم قريب من الحدّاج (البئر) : والمؤسف أنه كان يعيش وحيدا وبلا زوجة ؛ كان سعيد يغلق بابه فى المساء ، ونظرا لأنه لم يكن يتردد على رعايا سيده ، فقد ترتب على ذلك عدم ذهاب الناس إلى بيته لشرب القهوة . عبد الأمير

هذا ، كان يحصل على مبلغ كبير كل شهر ، علاوة على الفدية ، أو إن شئت فقل : الجزية ، التى كانت تدفعها قرية تيماء : ونظرا لأن سعيد هذا كان أميا ، فقد كان هناك ابن يقوم له بدور الكاتب . كان سعيد يرى من المناسب فى ذلك الوقت مقابلة ذلك النصرانى الذى جاء إلى تيماء ، والذى بلغه أنه كان يقيم ، اعتبارا من بداية موسم الحج ، بين بدو إبن الرشيد . وهنا سأل سعيد الحاضرين ، متعاليًا : "أين الرجل؟" كما لو كانت عيناه لم تقعا علىَّ بالفعل . وبعد أن سأل السؤال الذى يقول : "متى جاء إلى هنا ؟" - أهو معك يا زيد ؟" التزم الصمت المخيف برهة من الوقت ، وتمتم بعد ذلك ببضع كلمات فى الجانب الذى كنت أقف فيه ، ثم نظر إلى الأرض . تساءل الرجل : "هل لدى الإنجليز عبيد فى بلادهم ؟" أجبته قائلا : "نحن نطهر الدنيا من هذه التجارة اللعينة ، وسفننا تقوم بالهجوم على مراكب العبيد فى البحار كلها ؛ ونحن نحرر كل العبيد الذين نجدهم فى تلك المراكب ، ونعيدهم إلى بلادهم ، أو قد نعطيهم أرضا ونخيلا فى بلد من البلدان التابعه لنا . أما فيما يتعلق بتجار العبيد فنحن نتركهم على الأرض القريبة من مكان الحادث ، حتى يتعلموا درسا قاسيا أثناء العودة إلى أوطانهم : نحن نغرق مراكبهم أو نحرقها . زد على ذلك ، أن هناك معاهدة بيننا وبين السلطان : الله لم يخلق الإنسان كى يباع مثل الماشية(*) . هذا شىء طيب ، فما رأيك ؟" انفرجت على إثر ذلك أسارير وجه سعيد الزنجية ، التى كان فيها شيئ من السلالة العربية ، متحوله إلى ابتسام وديع ثم رد علىَّ رداً هَيِّنًا لَيِّنًا : "ماتقوله ، كلام طيب جداً ." وهنا فتح سعيد فمه ، وبدأ لسانه يتحرك : وقال لنا إنه سافر ذات مره (وكان ذلك بصحبة بعض الخيول النجدية) إلى مصر ، التى شاهد فيها هؤلاء الفرنجيين . وينهض سعيد بعد ذلك بكل تعاليه ، وتظهر على وجهه صرامة منصبه ، ويطلب من زيد أن يصحبنى على الفور إلى دار سعيد لشرب القهوة هناك .

(*) يشير المؤلف فى هذا السياق إلى حركة مناهضة الاسترقاق التى تزعمتها بريطانيا منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادى British Anti - Slavesy Movement وعقدت فى خلالها العديد من المعاهدات مع الدول الأوروبية والشرقية لإلغاء تجارة الرقيق ومن المدهش أن بريطانيا كانت من أكثر الدول اشتغالا بتلك التجارة . والمعاهدة التى يشير إليها دوتي بين بريطانيا والسلطان العثمانى عقدت فى عام ١٨٤٧ . (المراجع)

عندما وصلنا إلى دار سعيد ، وجدناه قد تخلى عن أبهته ، وجلس فى ملابس قديمة داخل بيته . وأوصلنى سعيد إلى أعلى مكان ؛ ونظرا لأن المكان كان يفتقر إلى المخاد التى يتكئ عليها الجالسون ، فقد سحب تحت كوعى شدادة Shîdada، أو ان شئت فقل : سرج أو عدة ناقتة ، كما هى العادة فى خيام البدو . هذه السلوكيات البدوية موجودة فى كل صَالات شرب القهوة فى الواحات ، (وهذا ليس من اختراع الساميين) إذ ليس لديهم أية منقولات غير هذه السروج .– والإنسان عندما يشاهد هؤلاء الساميين فى صالاتهم المبنية من الطين فى المدن وفى القرى أيضا قد يقول : "العربى بن سبيل على استعداد دوما للتجوال ." أحضر سعيد ورقا وحبرا ، كما أحضر أيضا مجلداً أو مجلدين هما كل ما عنده من كتب ، كان يود أن يرانى وأنا أكتب . وعليه كتبت اسمه وكنيته سعيد Saîd زلمة (*) Zélamat بن Ibn رشيد Rashîd؛ وهنا ابتسم الرجل العظيم ، عندما عرف الحروف التى هى إشارات إلى اسمه . وعليه ، اقتادنى سعيد ، بعد أن شربنا القهوة ، إلى خارج حوش داره ، حيث يوجد منزل كبير مبنى من الحجر ، وهو من منازل قرية تيماء القديمة ، على أمل أن أتمكن من أن أترجم له نقش قديم فى ذلك المبنى ، وكان قد أرانى ذلك النقش على إحدى عارضتى الباب الرئيسيتين فى مدخل الباب : كان ذلك النقش (وكذلك الدعامات المشابهة لتلك الدعامات التى شاهدناها فى الحوران البازلتيه) مصنوع من عوارض ضخمة من الحجر الرملى . هذه الأشكال الغريبة ليس لها مثيل بين الأشياء التى شاهدتها من قبل ، وكانت ممسوحة من منتصفها بعلامه تشبه الصليب . كان فكر سعيد يتركز على أن ذلك ربما كان إشارة إلى كنز مخبأ ؛ وأخبرنا أن "كنزا من هذا القبيل جرى رفعه من قرية فيض - "Fayd وفيض هذه عبارة عن قريه تقع فى المسافة ما بين الشَّمرً والقصيم .– أليست هذه فكرة مجنونة ؟ أن يخبئ القدماء كنزا ،

(*) زلة ابن الرشيد : الزلة كلمة متداولة فى بلاد الشام وتعنى الرجل ، والمقصود بزلة ابن الرشيد رجل ابن الرشيد أو نائبه . (المراجع)

ويضعون من فوقه حجراً مرشدا ومكتوبا عليه أيضا ! وعند العودة ، اكتشفت على حائط فى الشارع بالقرب من باب بيته نقشا حجريا مكونا من أربعة أسطر محفورة بإستخدام نفس حروف الكتابة القديمة الغريبه فى تيماء.

انصرف زيد لشراء مؤنه واحتياجاته ، ونظرا لعدم وجود من يضايقنى أو يعاكسنى فقد رحت أتجول فى المكان وأتفحصه ، ورحت أتأمل حفرة ذلك البئر الكبير التى يطلقون عليها اسم الحدَّاج El-Haddaj، هذا البئر من أعمال القدماء ويقع فى منتصف قرية تيماء الجديدة . والبئر له أربعة أضلاع غير متساوية ، وتصل فتحته من أعلى إلى حوالى خمسين قدما ، ويصل عمقه إلى حوالى سبع قامات . هذا الحدَّاج هو بمثابة القلب من قرية تيماء ، نظرا لأن ماء هذا البئر الغزير يجرى سحبه إلى كل من الأجناب فى قنيَّات صغيرة ، تبعث الخضرة فى كل أنحاء الواحة ؛ هناك آبار أخرى فى بعض الهجرات (القرى الصغيرة) النائية . 'عِدد' سحب الماء ، التى يطلقون عليها اسم السوانى Suany، تقدر بحوالى ستين عدة ، كلها موضوعة أو منصوبة حول البئر ، وهى مركبة بواقع عدتين أو ثلاث عدد فى المكان الواحد ؛ ويندر أن تعمل كل هذه السوانى فى آن واحد . وهذه هى جمال جلب الماء تمشى نازلة نحو الأسفل على أجناب البئر الأربعة . ويسحب كل جمل من الجمال ، بحكم وزنه الثقيل ، جردل على شكل قرن يصنعونه من جلود الجمال ويطلقون عليه اسم الدَّلو : dullû والعنق السفلى لذلك الدلو مفتوح ؛ وهذه الفتحه يتحكم فيها خيط ، أثناء رفع الدلو من البئر ، إلى أن يصل الجردل إلى حافة البئر ، ليمر بعد ذلك من فوق بكرة ، وهنا يرتخى الخيط ، فتسقط تلك الفتحة إلى الأمام ، لينسكب ماء الجردل محدثا صوت شلال الماء . وقد شاهدت ، فيما بعد ، شيئا من هذا القبيل فى الهند . صراخ السوانى هذا هو والضوضاء الناتجة عن سقوط الماء ، هما على ما يبدو ، ذلك الصوت الحزين الذى تصدره الأرض هنا فى قرى نجد كلها التى لا يسقط عليها المطر . عمل الماء هذا لا ينقطع ليلا أونهارا ، بل إنه لا يتوقف مطلقا . والمعروف أن قوة الثيران لا تستطيع رفع الماء أكثر من ثلاث او أربع قامات ؛ والناس هنا يقولون : إن الله ، لو لم يخلق الجمل لما كان هناك بشر أو سكان فى كل أنحاء نجد . وقد أبلغونى أنهم يطلقون اسم الحدَّاج على بئر الماء نظرا "لوفرة

الماء وغزارته" ، ذلك الماء الذى يميل لونه إلى الزرقة ويتفجر بشدة من الصخر الرملى ؛ والناس هنا يتخيلون أن النبع يأتى من الحرة .

عندما عدت إلى المقهى لم أجد فيه سوى سليمان ؛ جلسنا سويا فى المقهى ؛ ودخلت علينا فى أدب زوجاته وشقيقاته . حريم تيماء الكاشفات مباشرات ومبتسمات فى وجه الغرباء ، هذا شىء لم أره فى أى مكان آخر فى الجزيرة العربية : ومع ذلك فهؤلاء الحريم يكن سليطات اللسان فى بعض الأحيان ، فيما يتعلق بالسلوكيات غير الدقيقة ، دون لطف أو كياسه . والثوب البسيط الأزرق الفضفاض المصبوغ المصنوع من القماش ، هو الرداء الذى تلبسه النساء كلهن فى كل البلاد العربية ، هو الرداء نفسه الذى تلبسه نساء تيماء ، ولكن بفارق بسيط هو أن يكون أكثر انسابية واتساعا ورشاقة ، وأكمام ذلك الثوب مشغولة ومطرزة بصنوف أحمر اللون ، كما أنها مزينة بأشكال من القطن الأحمر شبيهة بالمعين ، تخيطها النساء على تلك الأكمام . وغالبيه الحريم هنا يلبسن أساور ، من الحديد ، لها رءوس جميلة من حبات أو خرز الكهرمان ، وهن يقلن إن تلك الأساور الحديديه جرى جلبها من حائل فى الزمن الماضى . الجميلات من هؤلاء النساء ، لهن ملامح حلوة ومع ذلك فهن كئيبات نظرا لعدم خفة أرواحهن وظلهن ؛ يضاف إلى ذلك بشرتهن سرعان ما تنوى وتذبل شأنهن فى ذلك شأن كل البدويات ؛ والفترة ما بين الربيع والصيف قصيرة جداً فى حياة الفتاه الرشيقه والمرأه الجذابه التى فى منتصف العمر . كان ثوب تامار Tamar ذى البقع اللونية الزاهية مثيلا لذلك الثوب الذى تصنعه النسوة العرب هنا . وقد صنع الوالد العجوز ليوسف الصغير معطفا متنوع الألوان ؛ والأكثر ترجيحا هنا أن ذلك الجد ربما يكون قد خاط ذلك المعطف بنفسه هو . والرجال من بين البدو ليسوا على استعداد مثل الحريم فيما يتعلق بتفصيل وإخاطة ثيابهم . قال سليمان : "انتبه يا خليل ، هذه هى أختى الصغيرة ، وهى امرأة جميلة ، وسوف تكون لك ، إن أنت أردت أن تكون رجلا متزوجا ، وعليه فإنك سوف تعد لى فى يدى مهر العروسة ؛ ولكنى أحذرك أن المهر لن يكون صغيرا ." وهنا سألتنى جماعة الحريم الواقفات تحملقن فى الغريب : "من أين جئت إلى قرية تيماء ؟" – "يكفينى رؤيتكن يا اخوتى ." ولكن عندما انفك عقال ألسنتهن ، وبدأن

يتكلمن كما لو كن كلابا ، صاح سليمان وهو يشعر بالضيق قائلا : "يا خليل ، هل حريمكم مثل هذه المواشى الكريهة ؟ لماذا شغلت نفسك بالرد عليهن ؟ انكشحن من هنا ، لقد أطلتن وقوفكن هنا ، هيا أغربن عن هنا !" وهنا أطعن كلهن كلام ذلك الشاب غير الملتحى ، وهنَّ خاضعات خضوع النساء ؛ والسبب فى ذلك أن كل ابن وكل أخ يعد حاكما على كل النساء فى إطار هذه الأسر الأبوية ، هذا الشاب النضر متورد الوجه ، أكثر من أى شاب آخر فى القرية ، ولكنه لم يكن جيد التفكير ، لم أجده فى القرية عندما زرتها فى المرة الثانية : إذ كان قد مات ميتة مفاجئة قبل بضعه أشهر ! "(سألتهم) أين سليمان ؟" – "(أجابونى فى منزله) راح ! لقد مات ، رحمة الله عليه ." – "آه ، كيف مات ؟" – "آه يا خليل ، لقد مات من الوجع (*) ." ولم أعرف منهم أى شىء أكثر من ذلك . واستدعانى أخوه لآكل من الخروف الذى ذبحوه كفارة له ، والتى ذكّرتنا بسليمان ، "يا خليل ، نادتنى زوجة شقيق سليمان الأكبر (أجمل امرأة بين النساء التيامنة (**)) هل تتذكر سليمان ؟ آه ، لقد مات بعد رحيلك بفترة قصيرة ، مسكين ! عليه رحمه الله !" وعندما رددت قائلا : "ارحمه ، يا الله !" نظروا إلى وهم يتعجبون ، لسماع ذلك التدين الصادر من فم واحد من الكفار : ونظرا لأنهم يكرهوننا بوصفنا كفارا . فهم يسلمون بأننا يتعين علينا أن نطلب من الله أن يلعنهم هم أيضا فى وفاتهم .

مسارات الواحة تقع بين جدران البساتين ؛ ولكنى فى كل الأماكن التى دخلتها كنت أجد أراضى أو مزارع النخيل تحظى بعناية كبيرة ، ففى وسط كل مزرعة من مزارع النخيل توجد بركة تتغذى بالماء الذى يأتى من الحدّاج عن طريق القنيات الصغيرة ، والهدف من هذه البركة هو الحفاظ على الرطوبة كى تحيط بجذور سيقان النخيل طول الوقت (مما يجعلنا نقول : إن النخل مع مثل هذا الوضع يصبح من النباتات المائية) . وأهل تيماء لا يحرثون غيطان القمح إلا فى فصل الخريف ، وهم

(*) الوجع : كلمة يستخدمها أهل تيماء هم والبدو للتعبير عن المرض . (المترجم)
(**) نسبة إلى قرية تيماء . (المترجم)

يستخدمون إبل رفع الماء في عملية الحرث ، ويسمدونها من مرابط الجمال ، كما يغطون التربة بطبقه من اللِّهم (الغرين) الذى يحضرونه من حفر على جانب الحقل . والقرى السورية لا تقوم على فلاحة طيبة من هذا القبيل . ومن الطبيعى أن تكون هذه التربة عفيَّة ، وتعطى محصولاً من القمح كل عام ، ولكنهم ينوعون زراعة الحبوب فى هذه التربة ؛ ومع ذلك فهم لا يزرعون سوى محصول واحد كل عام ، والسبب فى ذلك أن الرى عندهم لم يعد كافيا لرى كل المزارع . والناس هنا يحصدون القمح والشعير فى الأسبوع الأول من شهر أبريل ؛ وهم يزرعون هنا أيضا ، كما هو الحال فى مناطق الجزيرة العربية كلها ، ذلك السرغوم الذى يشبه نباته سارية العم ، وهم يطلقون على ذلك النبات هنا اسم "الذرة" Thûra، كما يزرعون هنا أيضا نوعا من الحبوب النجديه الصغيرة يطلقون عليها اسم "الدُكسة" Duksa وإلى جانب نباتات الخبز ، يزرع أهل تيماء بعضا من أوراق التبغ "غير المشروع" . والعجيب أن أمير الشمَّر لم يمنع الناس من زراعة التبغ(*) ! من هنا نجد أن تيماء الشبيهة بنجد ليست نجدية بحق وحقيقة . والناس هنا لايزرعون أشجار الفاكهه على جوانب القنيات حتى لا يغتصبوا الأرض المخصصه للنخيل الذى يعد المصدر الرئيسى للغذاء ؛ وهم يزرعون الرمان ، والكمثرى ، والتين ، والأترج ، والليمون الحلو ، والليمون البنزهير ، وتنتشر زراعة الكروم حول الآبار ، والكروم نباتات تعريشية تمتد فوق المشى الذى تسير فيه جمال الجر ، محدثا ظلا ظليلا وارفا . والتيامنة يقدمون ، عن طيب خاطر ، من تلك الفواكه الطيبة ، فى تلك الأرض التى تعانى من العطش ، للغرباء وأبناء السبيل ، ويرفضون بيعها لهم ، ومع ذلك فإن العنب يباع فى سوق قرية القصيم . أهل تيماء يزرعون هنا كل أنواع الأشجار التى تزرع فى جنة دمشق ؛ ولكن ما فائدة ذلك ؟ - أيزرعونها لاستعمالهم واستهلاكهم الخاص ؟ الفقراء لا ينبغى عليهم استرضاء الله سبحانه وتعالى بالأكل الطيب : فما لديهم يمكن أن يكفيهم ، أما ما يزيد على ذلك فهم ليسوا بحاجة إليه ،

(*) على الرغم من أن تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانت تحرم تعاطى التبغ أو زراعته إلا أنه من الواضح أن إمارة شمر رغم اعتناقها لتلك التعاليم إلا أنها كانت أقل تشددا عما كان عليه الحال فى نجد أو القصيم . (المراجع)

ويمكن أن يجر عليهم الاحتقار الدينى ، أنواع التمور الكثيرة الموجودة فى قرية تيماء كلها من الأنواع الممتازة ولها مذاق ونكهة ممتازة أيضا . وسيقان النخيل هنا طويلة جداً ، وسميكة وتحمل ثمارا كثيرة . ولكن كل تمور تيماء من النوع الحار Harr؛ هذا يعنى أن تلك التمور ينبغى تناولها مع المريسى أو مع لبن الخض الحامض الذى يصنعه البدو الرحل ؛ والمعروف أن كلا من المريسى ولبن الخض الحامض مشروبين مبردين ، والتيامنة ينظرون إلى التمور بكل أنواعها (بالرغم من أنها تشكل القسم الأكبر من طعامهم) بشىء من الكراهية والاشمئزاز . وفى هذا العام بيع التمر بواقع عشرين صاعا تيمانيا صغيرا لكل ريال واحد ، وهذه الكمية فى رأى البدو الرحل تكفى رجلا واحداً مع شىء من الحليب مدة شهر كامل . قمح التيامنة صغير الحبوب الطيب ، كان يباع بواقع ستة أصواع نظير ريال واحد . هؤلاء القرويون يزرعون من القمح كميات تكفيهم ويبيعون منها لجيرانهم من البدو الرحل . والحيوانات التى لدى التيامنة غير الجمل هى نوع من الأبقار الهزيلة التى جلبوها من قرية العلا ؛ ولدى التيامنة أعدادا كبيرة من الدواجن ؛ وتيماء لا يوجد بها أى نوع من الكلاب ، ولم أر للقطاط أى أثر ووجود فى نجد .

النقود المتداولة هنا قليلة ، والغالبية العظمى من عمليات البيع والشراء تجرى بما يطلقون عليه اسم الصاع ، وصفقات كبيرة من التمور تصل إلى عدة أحمال من أحمال الجمال . والمقايضه هى الأساس فى القسم الأكبر من التجارة فى الجزيرة العربية . والنقود الفضيه تأتيهم من الصحراء ، عن طريق البدو الرُّحَل ، الذين يحصلون عليها عن طريق بيع بعض من إبلهم إلى بعض السماسرة والوسطاء ؛ ولكن النقود الفضية تتركز بصورة أساسية فى بلاد طريق الحج التى تحصل على صرَّة كل عام ، تُدْفع إلى شيوخ تلك البلدان عن شكل مجيديات تركية (*). هذا المبلغ الذى يتلقاه هؤلاء الشيوخ سنويا ، يجرى استرداده كله تقريبا من تجار القرى عن طريق الحكومة ، على شكل ضريبة ،

(*) عملة تركية تحمل اسم السلطان عبد المجيد . (المترجم)

تقدر بحوالى أربعة آلاف ريال كل عام من قرية تيماء ، وتجرى جبايتها كل عام بعد جنى محصول التمر ؛ بعض الشيوخ قد يركبون دوابهم مصاحبين لتلك الضريبة كى يوصلونها إلى مدينة حائل ، لتوضع ، على شكل فدية ، فى خزانة الأمير . تيماء فيها أيضا بعض الغرباء الذين جاءوا إليها من جبل الشمَّر كى يعملوا بالتجارة : وهؤلاء التجار يبيعون الملابس البغدادية ، والقماش الخليجى الأبيض الخفيف الذى يطلقون عليه اسم "السُّليطة" Sleyta، وهم يستأجرون غرفا ومنازل لذلك الغرض ، أى لممارسة بيع الملابس والقماش الخليجى الأبيض الخفيف . هؤلاء المواطنون الذين جاءوا من حائل يتجولون فى تيماء شامخى الأنوف شأنهم فى ذلك شأن أهل العاصمة نجد . كما يوجد فى تيماء أيضا واحد أو اثنان من الغرباء يبيعان الملبوسات السورية ، وهما من أصل سورى دمشقى من ناحية والديهما . كان من بين هذين الاثنين واحد يدعى محمود ، الذى جاء إلى تيماء مع والده المدنى(*) فى العام الذى وقعت فيه مذبحة النصارى . هذا الشاب الصغير تتمثل فيه حاليا سحنة النجديين . أما الشخص الثانى فقد كان ابنا لواحد من رعاة القلعة كبار السن . والشوارع فى تيماء ليس فيها دكاكين ، وملاّك الأرض هم الذين يبيعون قمحهم وتمورهم فى بيوتهم .

كان ذلك الهواء الراكد يبدو لنا خانقا ، وهو يأتينا من الصحراء المرتفعة ، ولم يطرق النوم جفوننا فى بيوت هؤلاء الناس المبنية من الطين . كان عطشى شديدا ؛ وعندما عثرت هنا على نوع من الماء النقى النظيف ، بعد عدة أسابيع من الجفاف ، واصلت الشرب من ذلك الماء حتى قال أحدهم : "لقد جاء خليل إلى تيماء لمجرد شرب الماء ؛ ترى ، هل يشرب ماء الحدّاج كله ؟ " ونظرا لأن زيداً لم يكن قد عاد بعد ، خرجت لزيارة بعض الآثار القديمة العريقة ، ألا وهو قصر Kasr زيلُّوم Zellum، الذى سمِّى باسم واحد من ملاك الأرض السابقين . كان زنجى خلاسى هو الذى يرافقنى فى تلك الجولة ، ولكن ملامحه الشرسة ، وبلادة ذهنه ورذالة سلوكه جعلتنى أفكر من الأمر

(*) نسبة إلى المدينة (المنورة) . (المترجم)

مليا وأخذ حذرى منه : إذ كان عفيا وقويا مثل جمل من الجمال ، كما كان يحمل معه أيضاً سيفا ، فى حين كنت أنا ضعيفا واهنا وجئت مجرداً من السلاح (بسبب الحر) . تجاوزنا الأسوار الخارجية ، وعندما اكتشفت أن المكان يقع على بعد مسافة كبيره داخل الصحراء ، وعندما اكتشفت أيضا من نظرات ذلك الشرس الحائرة ، أنه ربما يقتلنى فى هذا الطريق المنعزل ، آثرت التلكؤ إلى حد ما ؛ وهنا رأيت رجلا مسكينا فى حقله ، وهنا قلت : سوف أذهب إلى ذلك الرجل لأشرب قليلا من الماء . كان ذلك الرجل بدويا ، يبنى سورا من الطين لبستان من البساتين ولحساب واحد من القرويين ، وقد حصل على أجره على شكل صاعات التمر ، فى ذلك الحقل جاء إلينا من القرية شاب صغير من أسرة شيخ من الشيوخ الرئيسيين ، اسمه الرُّمَان er-Romàn ومعه شخص آخر . هذان الشخصان أرسلهما زيد فى أعقابى على وجه السرعة ، بعد أن وصلته أخبار عن الجماعة التى قصدتها : - وفى نزاع بعد ذلك قال لى زيد : "لقد أنقذت حياتك ، يا خليل ! ألا تذكر ذلك اليوم عندما كنا فى تيماء ، عندما خرج العبد الأسود ليقتلك ؟" أنا أعرف أولئك الصغار الذين يبيعون الابتسامات ، ولذلك فأنا لا أثق بهم تماما ، ومع ذلك سرنا سويا . وجدت من الضرورى الإقدام على تلك المغامرة ، أو إن شئت فقل : المخاطرة ، فى ذلك اليوم ، إذ ربما لا أعود ثانية إلى قرية تيماء ، ولكن كل ما كان معى من سلاح ، كان عبارة عن مدية ، كنت قد فتحتها وجهزتها وأخفيتها تحت عباءتى (بشتى) حتى لا أموت مثل ذبيحة من الذبائح ، إذا ما هجم علىّ أولئك الخونة .

وجدت قصر زيلُّوم Zellûm هذا عبارة عن بناية كبيرة لها أربعة أضلاع وشبيهة بالقلعة ؛ وقد يصل طول الضلع الواحد إلى ما يتردد بين خمسين وستين خطوة . وجدران هذه البناية يصل سمك الواحد منها إلى خمسة أقدام تقريبا ، وارتفاعه حوالى خمسة عشر قدما ، وهو مبنى من الطين الجاف . هناك جزء من تلك البناية مقسم إلى غرف ، أما بقية البناية فهى عبارة عن حوش أو فناء ، والناس هنا يظنون أن بئرا كبيره مدفونة فى ذلك المكان . موقع هذا القصر ينخفض قليلا عن أسوار بلدة تيماء القديمة ، التى يراها الناس على شكل ضفاف من الرمال ، ترتفع فوق مستوى السهل ؛ ولا يظهر من ذلك المبنى سوى الجزء العلوى منه فقط . وفى منتصف سور القصر عثرت

على حجر آخر عليه نقش من النقوش ، وموضوع بالعرض ، بهذه الطريقة التيمية الغريبة ؛ ووجدت من فوق الكتابة ، صور لعينين بشريتين . – وقد قرأنا أن عرافى الغرب القدماء فسَّروا سطرين على إنهما عيون ، أما الحكماء فقد فسروا هذين السطرين أو إن شئت فقل ترجموهما على إنهما "أطفال children الرؤية of vision ". وبعد استسلام تيماء لعبيد Abeyd بن الرشيد ، أصدر لهم الأمر التالى : "ممنوع عليكم البناء فوق أسوار ذلك القصر !"

هذه الواحة كلها – هذا الجوف الضحل ، أو إن شئت فقل : القاع الفيضى فى الصحراء العالية ، والذى ليس له مخرج – كانت فى زمن آخر من أزمان العالم (وهذا مجرد احتمال) مفيضا شتويا . إذ إن هناك حوالى سبع قنوات من قنوات السيول (ليست كلها فى متناول رؤية الجميع) تنساب كلها نحو ذلك المفيض . وأنا أدون هنا أسماء تلك القنوات لتكون محطا للملاحظة : الحُسنية el- Hoseniêh، خويليد Kh?weylid، حداً جور Heddajor، صيفية Seyfieh، الطليحات el-Toleyhat، الرُّثام er-Rotham وأخيرا زيلُّوم . Zellum ويمكن ملاحظه بقايا خطوط من الصلصال الذى يميل لونه إلى الزرقة ، وكذلك الغرين البنى الذى يميل لونه إلى الاصفرار ، فى حفر المارل(*) Mari التى فى تلك القنوات . وفى الأراضى الواقعة أسفل التربة المزروعة ، توجد أحواض من الملح ، التى تشتهر باسم "مملاحات" (ملاَّحات) Memlahàt تيماء . والبدو الذين يعانون من شدة الفاقة يقصدون تلك الأحواض ليحصلوا منها على ذلك الملح بالمجان : وهم يقولون إن هذا الملح له مذاق أحلى من ملح ماء البحر فى بلدة الوجه . ومعروف أن ملح تيماء الصخرى هو بمثابة الصلصة اليومية فى آلاف الغلايات التى يستعملها البدو الرحل فى كل أنحاء الجزيرة العربية . وبدو الفقارة ينقلون ذلك الملح الصخرى معهم إلى قرية العلا ، ويبيعونه هناك بواقع أربعة ريالات لحمولة الجمل الواحد . زد على ذلك ، أن الأراضى الأشد انخفاضا فى صحراء تيماء تغلب عليها

(*) مارل بمعنى سجيل : والسجيل هو تراب تكثر به نسبة المواد الجبسية من كربونات الكالسيوم مع بعض الصلصال والرمل والمواد العضوية . (المترجم)

الملوحة نظرا لمياه غسيل الأراضى الأعلى منها التى تنصرف إليها ؛ بعد الشتاء قد تتكون فوق المياه الراكدة قشرة من الملح ،- وقد رأيت قشرة من هذا القبيل ، سمكها حوالى إصبع ، جرى كشطها من منطقة قريبة من جبل مسمة Misma، لتزويد أهل حائل بالملح . وفى الجريش Gerish، التى هى عبارة عن جاو Jau، أو إن شئت فقل : ذلك الجبل والمسقى الأرضى المنخفض ، الذى يبعد مسير نصف يوم فى الجانب الشمالى من تيماء ، ويستخرج الناس منه نوعا من الشبَّة Alum، التى غالبا ما يتم الحصول عليها من الصخور السوداء ، والناس يطلقون عليها اسم 'شب' Shubb 'الجمال' ej-Jemal التى يستعملونها علاجا لإبلهم المريضة . والبدو الرحل يقطعون المسافة من تيماء إلى بلدة الجوف فى حولى ست ليالى ؛ وهذا الطريق ليس مطروقا ؛ والنفود الواقعه بين تيماء والجوف لا تستغرق سوى رَحْلَةٌ واحدة . والمراحل أو المحطات المختلفه على ذلك الطريق هى : العبيت Ubbeyt، وهى محطة صيفية رئيسية من محطات عرب الشرارات (وفيها بعض المواقع الأثرية) ، والماء فى هذه المنطقة ينبثق من الحفر التى يحفرها الناس بأيديهم ؛ ومحطه ثلة Thullaحلوان Helwan، (وهى غير الجبل الذى يطلق عليه اسم 'جبل حلوان' ، وهى تبعد حوالى مسير يوم واحد عن تيماء فى اتجاه الشرق) ؛ ثم محطة العريج Areyi فى النفود ، ثم الطويل Towîl، ثم عصفان sfan، أو إن شئت فقل : الجين el-Jeyn، وأخيرا الدُّاحة ed-Daha . ومن القليل النادر أن يركب أحد من هنا قاصدا بلدة معان ، نظرا لأن رحلات البدو الرحل هى على النحو التالى : ١- ثله Thullaضافية Thafya، ٢- دُبَّل Dubbel، ٣- العجيل el- Agel، ٤- العقب el-Agab (من العقبة) : والبدو الرحل يعتبرون جبل طبيق To-bey(k)ch، على بعد مسافة مسير نصف يوم أو ما يزيد على ذلك فى الجانب الأيمن ، وهم يقولون : إن ذلك الجبل يمتد شرقا وغربا وهو أكبر من جبل إرنان Irana . والجليد يكسو جبل طبيق فى الشتاء ، وهو يبعد مسير ليلتين عن معان .

فى إحدى الأمسيات ، تجمعت مجموعة كبيرة من رفاق القهوة ، حول وجار مضيفنا ، وأخذ البعض من هذه المجموعة يتكلمون عن الدين المسيحى ، وعبروا عن استيائهم من أن "النصارى يعبدون الأصنام ، ليس هذا فحسب وإنما هم يخرفون فى

حق الرسول أيضا" . وقالوا أيضا : "النصارى إناس لا يعرفون أى نوع من الزوجية الشرعية ، وإنما هم مثل الحيوانات ، يتبعون ميولهم وغرائزهم الطبيعية ، وإذا ما انطفأت الأنوار عنهم أثناء تجمعاتهم الدينية ، يحدث عبث ملعون بينهم بطريقة غريبة ومرعبة ، فالابن ، وقد يكون ذلك كذبا ، قد يغشى أمه بطريقة وحشية ، بطريقة ، هى والله ، مثل طريقة الكلاب : - وبهذه الطريقة جاء جيل النصارى اللعين ، إلى حد أن الله (نفسه) لعنهم ! (وتجارأ المتحدث وأضاف) وأنا أستطيع القول إن هذا النصرانى لا يستطيع معرفة من يكون والده يضاف إلى ذلك أنهم لديهم بعض العادات الوثنية ، فالمرأه المسيحية عندما تموت يدفنون معها زوجها الحى ." هناك أيضا إهانات وازدراءات أخرى افترتها النحل المسيحية الحاقدة ، مثلما يفعل الدروز جيرانهم فى القرى الجبلية السورية ."رددت عليهم قائلا : أيها الأصدقاء هذه خرافات عن أرض بعيدة جداً ، وعن حقد وغيرة الزوجات القديمات من أشياء غير معروفة ، ولكن أرجو أن تنصتوا إلى وسوف أقول لكم فصل الخطاب ." وهنا قال أحد بدو الفجيرى متعجبا : "وحياة هذه النار ! خليل لا يكذب ، والله ، ومع أنه نصرانى ، فهو يقول الصدق والحق فى كل شىء بين الأعراب ؛ وليس هناك مسلم فى صدْق خليل وصراحته . استمعوا وانصتوا له ! - واصل كلامك يا خليل ." - "هذا هو تشريع الزواج الذى أنزله الله فى دين المسيح Messîah المقدس ، 'ابن مريم من روح الله ،' - وهذا منصوص عليه فى كتابكم المقدس (القرآن .)" - "(ردوا جميعا قائلين) : صلى Sully الله Ullah عليه Aley-Hu ." مرددين هذه الصلاة المعتادة عندما يذكر اسم نبى من الأنبياء الكبار . - "وكما أعطى الله لآدم حواء ، امرأة واحدة ، فإن الرجل المسيحى يتزوج من واحدة فقط . إنه رباط دينى يستمر إلى وفاة أى منهما ؛ إنها صحبة مخلصة فى المرض ، وفى الصحة ، وفى المسرة والمضرة فى هذه الدنيا ، وسواء أنجبت أم لم تنجب له أولاداً ، أو حتى عندما يكون هو عقيماً : وهذا الرباط لا يمكن فكه ، إلا فى حاله الزنا ." - "قالوا : ولكن المرأة تشيخ قبل زوجها ؛ وإذا لم يكن من حق الرجل أن يتزوج من أخرى بعد أن تكبر زوجته ، فذلك يعنى أن شريعتكم ليست عادلة ." قال أحدهم ، وهو يضحك : "يا خليل ، نحن ديننا أفضل ، شريعتكم صارمة جداً بالنسبه لنا (فى هذا الأمر) ؛ وأنا

بنفسى تزوجت من زوجة عمرها خمسة عشر عاما مع الزوجات الأخريات . ما رأيكم أيها الرفاق ؟ من بين الحريم هناك حالات كثيرة معْوجَّة ؟ فأنا آخذ بعضهن ، وأستغنى عن بعضهن نعم بالله ! إلى أن توصلت إلى ذلك البعض الذى يمكننى العيش معهن ."

قال البعض منهم بعد ذلك ، "صحيح ذلك المثل الذى يقول : 'ليس هناك أخس من المسلمين' والله لا يبارك فيهم بسبب خطاياهم ؛ أليس الكفار أنفسهم أفضل منا ؟ ومع ذلك قل لنا رأيك يا خليل ، - ألا يوجد فى كل موضع من ديانتكم موضعا لمسبَّةٍ تصبونها كل يوم على محمد رسول الله ؟" - "(قلت لهم) : البعض منكم ليسوا طيبين ، لقد أعيتنى أساطيركم وحكاياكم العامرة بالحقد . نحن لا نجدف فى حق محمد (، الذى تقولون : إنه نبيكم : ولكننا ندعولكم يوميا فى كل كنائسنا ، بأن يرحمكم الله برحمته . خبرونى متى عاش محمد ؟ بعد المسيح بستة عصور ، كان الوقت أو الزمن عند ذلك مواتيا لتعليم آبائكم الوثنيين الكبار ؛- وهل أنتم أفضل من آبائكم ؟" - "الله يعلم أننا أفضل : آباؤنا كانوا فى الجاهلية ." - "ولكننا لا نعرف ذلك ؛ أنتم جدد علينا ، ونحن فى مكان إخوانكم الأكبر سنا :- وأنا فيما يتعلق بى شخصيا أرى أن الأديان كلها صحيحة ، وبخاصة أنها تصلح حال الإنسان . من هنا يصبح بوسعى احترام دينكم ." قال أحدهم عن التعدد فى الزواج : "ها ! النصارى أناس طيبين ، وإذا ما قطعوا على أنفسهم عهدا التزموا به ، إضافة إلى أنهم أمناء فى كل ما تعهد به إليهم ، أما نحن فلا ، ولقد تعلمت بعض الأشياء عن دينهم من أبى فارس - Fâris ومن لا يذكر أبا فارس ؟ سمعنا من أبى فارس ، أن النصارى لديهم ، قبل كل شىء ، بعض الأحكام الربانية المحددة التى من قبيل : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشتهى مال الغير ، لا تزنى ، لا تكذب ، ونحن نرى مدى التزامهم بهذه الأحكام والمفاهيم !" سألونى بعد ذلك عن التوراة (كتاب (سيدنا) موسى) ، وسألونى أيضا عن الإنجيل ، الذى يسلمون بأنه كلام الله منذ أزل بعيد ؛ ولكنه جرى تحريفه من قبل النصارى واليهود سيئى السمعة والقصد ، لا لشىء سوى احتقار الإسلام والحقد عليه ؛ والآن ألغى الإنجيل بنزول القرآن كاملا من السماء (من عند الله) على (سيدنا) محمد ﷺ ، "خاتم الأنبياء وحبيب الله ." العالم الإسلامى ، هنا ، يصبح جاهلا بكتبنا المقدسة . وهذا هو السبب

الذى يجعل علماؤهم الشيطانيين يخربون ويفنون التواريخ القديمة والأدبيات الخاصة بمعالجة حياة القديسيين (*) ومع ذلك ، ونظرا لأن الكتب السابقة من كلام الله نُزِّلت على اليهود والنصارى ، فقد سمينا باسم هذه الكتب "أهل الكتاب المقدس" ، وفى الخطاب العام يسموننا "المدرسون" الذين تستقى عنهم هيئة التعليم الدينى والتعليم الإنسانى كله . (ولقب "مُعَلِّمْ" Muallem لم أسمعه مطلقا فى كل أنحاء الجزيرة العربية المسلمة .) وهم يتهموننا بأننا "نتخذ لله شركاء" ، بمعنى تقسيم الإله الواحد ، وارتكاب الخطيئه بعبادة الأصنام . معروف أن أصل الدين أو جذوره تتمثل فى الميل الطبيعى أو الغريزه ، والأمر كله يعتمد على الرأى .(**) من هنا فإن الجدل المنطقى معهم يصبح مضيعة للوقت ، لأن منطقهم يقوم على الإراده . وأشفق كثير من المسلمين الطيبين فى كثير من الأحيان على غشاوتى الدينية وهم يقولون : "يا اسفاه ! هناك غشاوة على عيناى ولكن هذه هى إرادة الله ."

انصتوا إلى ما أقول : "لقد ورد ذكر تيماء فى التوراة ." سألونى ، تحت أى اسم ؟ - "تيمة "Tema؛ كما أن تيمة Tema أيضا اسم واحد من أبناء إسماعيل ﷺ ، فقد سمى باسم قريته . وتيماء عند إشعيا ، هى المكان الذى تبعثر منه أفراد قوافل ديدان(***) Dedan، أمام أقواس البدو وسيوفهم ، وجرت إغاثتهم بالخبز والماء . ورد علىّ أولئك الذين كانوا يستمعون إلىّ قائلين : "ولكن الاسم القديم كان توما ". Toma

بدو نجد أكثر تشددا فيما يتعلق بجهل عقولهم البرية المطبق ، ولكنهم بالرغم من ذلك كله أقل خطورة من سكان القرى الذين تعلموا القرآن تعليما وقورا مستقرا . كان يجلس إلى جوار كوعى رفيق متجهم ظل يتمتم ويغمغم طوال فترة المساء ؛ وبعد أن هدأت سمعت ذلك الرفيق يقول : 'أنا كنت مثل إبليس فى الأرض ، إخص ! هذا يهودى !

(*) عبارات غير لائقة تمس القرآن الكريم رأينا استبعادها . (المراجع)
(**) عبارات تمس الدين الإسلامى رأينا استبعادها . (المراجع)
(***) قوافل ديدان : تشير التوراة إلى مملكة ديدان التى كان يسكنها قوم ينتسبون إلى سيدنا إبراهيم ويشتهرون بتجارتهم وقوافلهم . وقامت مملكة ديدان فى منطقة العلا الحالية وقد أعقبتها مملكة لحيان . (المراجع)

وعندما أشحت بوجهى عنه ، طلب الناس منى ألا أهتم بذلك اللسان السليط ، قائلين : "يا خليل ، إنه مجرد بدوى ." هذا المسكين الذى كان من قبيلة بشر ، استنكر مسألة نعته بالبدواة فيما بين الناس فى البلدة ، هذا المسكين حوَّل نظره نحو الأسفل وجلس صامتا . همس أحدهم لزيد قائلا : إذا ما حدث له شىء ، فهل سوف تسأل عن ذلك من قبل الدولة (الإمبراطورية العثمانية) ؟ قد يموت بينكم بسبب مرض من الأمراض ." ولكن زيداً رد عليهم وفى صوته نبرات الشهامة : "حِناً Henna ما ma نا na صادقين Sadikîn بالله billah، بمعنى نحن لسنا صادقين !" – انفض ذلك الجمع قبل منتصف الليل بقليل ، وتركونا ننام فى عباءاتنا (بشوتنا) فى المكان الذى كنا جالسين فيه ، على أرض المقهى . وهنا تكلم سليمان كلاما ما يدل على الكدر متسائلا : "كيف لى أنا ، الرجل المتحضر ، أن أتجول مع بدو متخلفين ملاعين الوالدين ؟ "

وبعد فترة قصيرة سمعنا شخصا يتحسس الجدار . وصاح زيد قائلا : "من هناك ؟" واعتدل زيد متكئا على كوعه فى ضوء القمر الضعيف . "انهض ، يا زيد ، (قال صوت ضعيف صادر عن امرأة عجوز ،) أنا موفدة من حرفة (زوجتك) ، الأعراب على وشك الرحيل ." رد عليها زيد ، مرهقا وهو يتمدد على الأرض ، "عاقبهم الله :" – هل من الضرورى السير طوال هذه الليلة بكاملها . وما أن نهضنا من مكاننا حتى أصبحنا على أهبَّة الاستعداد ؛ ومعروف أن مسألة المغادرة تلك أمر جد مهم بين البدو الرُّحل ، وهنا خرجنا من بوابة مضيفنا سليمان المظلمة إلى الشارع ، ولم نلقاه بعد ذلك مطلقا ، ووصلنا إلى البدو عند نهاية الطريق ، أو المسارات ، المسوَّرة ، ووجدناهم بالفعل يقومون بتحميل أمتعتهم فى الظلام . وهنا راح زيد ، يؤنبهم على تغير مزاجهم ، وسألهم عن سبب ذلك التجوال ، أو إن شئت فقل : الرحيل المفاجئ ؛ "أجابوه قائلين : لن نبقى بعد ضيوفا على التيامنة ونأكل خبزهم ."ولما كانوا جميعهم من الفقراء المساكين فقد استشعروا برودة كرم التيامنة .

اتجهنا جنوبا ، وسرعان ما مررنا بالقرب من بعض الأنقاض الأثرية "من بقايا تيماء القديمة ، (قالو لى) وآبار قديمة هناك" . توقف البدو قبيل طلوع الفجر ؛ وبعد

أن سرّحنا مواشينا ، شببنا النيران ، وجلسنا لنغفو برهة من الوقت . وبعد أن استأنفنا ركوب دوابنا ، وبعد أن قطعنا بضعة أميال قليلة . مررنا ببعض الأنقاض الظاهرة ، التى يطلقون عليها اسم 'بورجسبا' Burjesba ، وكان عن يميننا جبل ، يسمونه جبل جربوع , Jerbûa وعند العصر التقينا بمسيرة أفراد قبيلتنا ، فقد تحركوا مرتين أثناء غيابنا : وتوقف الأعراب للتخييم بعد ذلك بأميال قليلة . كانت تلك البلدة ، كما سبق أن قلت ، تعج بالاضطرابات والقلاقل ، فقد هرب الفقارة إليها . ونظرا لأن بنى وهاب Wahab بصفتهم جيرانا ، ولم يستفيدوا من حكومة ابن الرشيد ، لذا لم يكونوا يرحبون بدفع الزكاة عن طيب خاطر . يضاف إلى ذلك أن بدو الفجير Fejir كانوا قد امتنعوا عن دفع ضريبة الضوء Light، طوال خمس سنوات ، إلى أن رجع الأمير ، فى الصيف الماضى ، عائدا بغنائمه من قرية ولاد على ، وهنا قام الأمير بزيارة بدو الفجير فى الصحراء وحصّل منهم المتأخرات ، ولم يترك لهم إلا أنفسهم ، لأنهم كانوا قد أخضعوا أنفسهم له ؟ لم يكن الفكارة على عداء سافر مع ولاد على ، كما سبق أن حدد لهم الأمير ، كل ما فى الأمر ، أنهم كانت بينهم مجرد "هفوة صغيرة" ؛ ولكن بدو الفجير كانوا يتشككون دوما فى الأمير المرعب المخيف . فقد كان يخيل لهم أنهم كانوا يرون رجاله وقد أطبقوا عليهم ، وأخذوا منهم المُنزَل . من هنا كان الفجير يتركون المنطقة التى يتجولون فيها ، ويغربون عن وجه الأمير بأن ينتقلوا إلى ديرة بشر المجاورة لهم .

المؤلف فى سطور:

تشارلز مونتاجو دوتى (١٨٤٣ ـ ١٩٢٦)

- شاعر ورحالة ومستكشف وكاتب ومستشرق إنجليزي، يعد من أهم المستكشفين الأوروبيين الذين اطلعوا على الثقافة، والحياة البدائية العربية في القرن التاسع عشر. بعد أن تجول في أوروبا ومصر.
- زار شبه الجزيرة العربية سنة 1876 رغم تحذيرات أصحابه وغيرهم من خطورة دخول هذه المنطقة ومقابلة سكانها، ودرس آثار النبط الموجودة هناك، وعمل أبحاثا جغرافية وجيولوجية وأنثروبولوجية مهمة، وانتشرت أبحاثه عن طريق المستشرق رينان .
- في سنة 1888 نشر كتابه المشهور "أسفار في صحراء الجزيرة العربية" الذى أعاد نشره ت.ا. لورانس (لورانس العرب) سنة 1920 وبقى مرجعا مهما للباحثين.

المترجم فى سطور:

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت فى المجلات والصحف العربية المحلية والدولية منها:

مقالات وأبحاث نشرت بمجلات الفيصل - الرياض - المملكة العربية السعودية، ومجلة كلية الملك عبدالعزيز الحربية - الرياض - المملكة العربية السعودية، والمجلة العربية - الرياض - المملكة العربية السعودية، ومجلة الهلال - القاهرة - جمهورية مصر العربية.

وله كتب مترجمة إلى العربية منها:

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية.

١- التفكيكية: النظرية والممارسة، تأليف: كريستوفر نوريس، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٢- الشاعر والشكل، تأليف: جدسون جيروم - دار المريخ.

٣- الاستراتيجية العربية والإسرائيلية وجها لوجه - دار المريخ.

٤- الأطفال والمخدرات، دار المريخ.

(ب) كتب نشرتها دار آفاق الإبداع العالمية للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١- المعطف المشاكس　　　٢- عمل الفريق الفعال

(ج) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

١- هارون الرشيد، تأليف: فيلبى.

٢- الكوكايين والمراهقين.

٣- بنات مدمنى ومدمنات المسكرات.

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال.

١- حلم ليلة أفريقية

(هـ) كتب مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، جمهورية مصر العربية.

١- سبعة أنماط من الغموض، تأليف: وليم أمبسون.

٢- وسط الجزيرة العربية وشرقها، تأليف: بالجريف (جزءان).

٣- حركات التحرر الإفريقى, تأليف: ريتشارد جبسون.

٤- إرادة الإنسان فى علاج الإدمان.

٥- قلب الجزيرة العربية (جزءان).

٦- سيرتى الذاتية، تأليف: أحمد بللو.

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، جمهورية مصر العربية.

١- سكين واحد لكل رجل.

٢- نجوم حظر التجوال الجدد.

٣- المهمة الاستوائية.

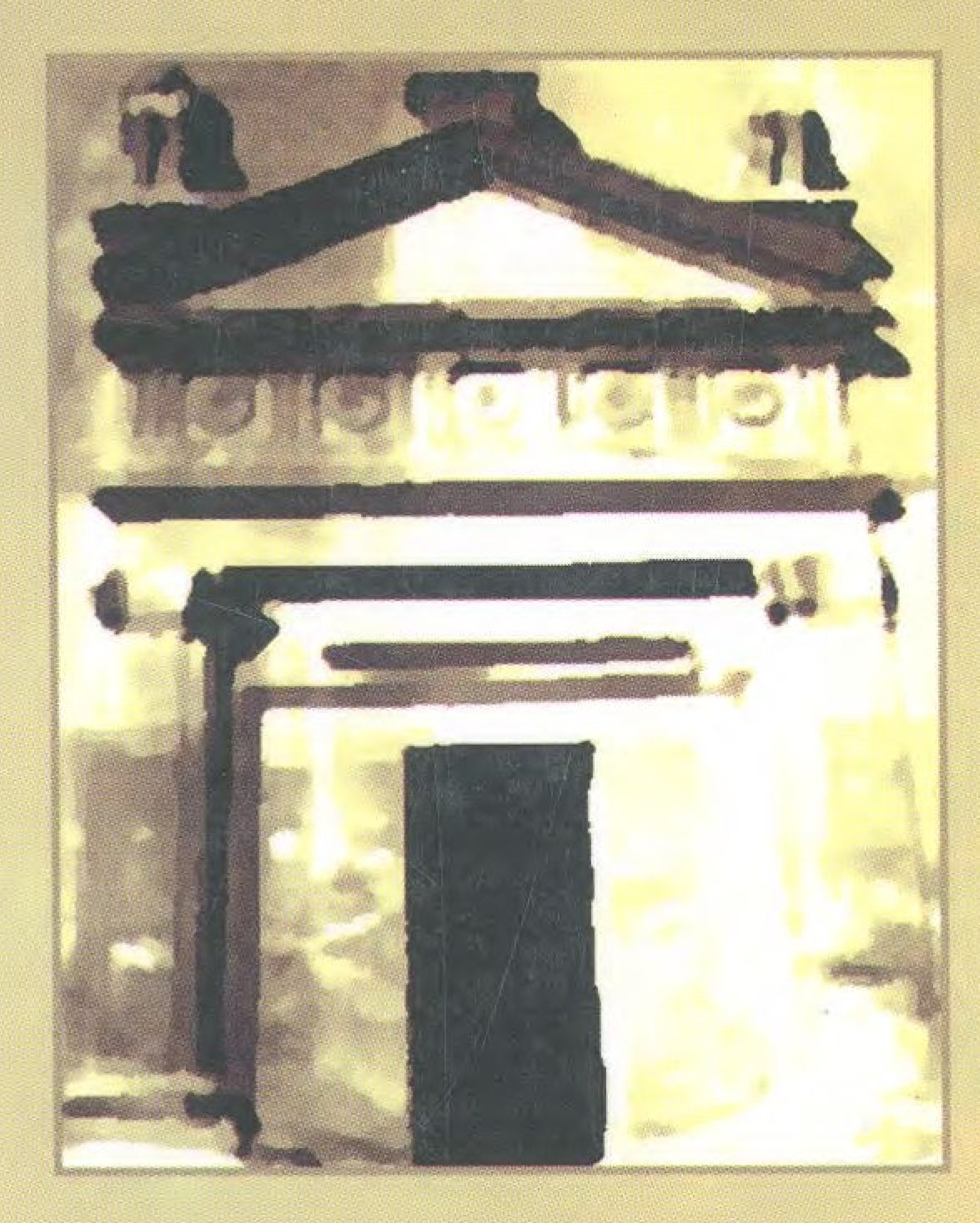
المراجع فى سطور:

جمال زكريا قاسم

- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر غير المتفرغ بكلية الآداب جامعة عين شمس وعميدها الأسبق.
- شارك فى كثير من الندوات والمؤتمرات العلمية التى عقدت فى الجامعات ومراكز البحوث العلمية فى مصر والدول العربية والسنغال وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.
- عضو فى العديد من اللجان العلمية والجمعيات التاريخية فى مصر وخارجها.
- أستاذ زائر فى كلية رويال هولواى بجامعة لندن وفى جامعة مينسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية.
- أشرف على عشرات من رسائل الماجستير والدكتوراه، كما أشرف وشارك فى العديد من المشروعات البحثية فى معهد البحوث والدرراسات العربية وأكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا.
- رئيس تحرير مجلة مصر الحديثة التى تصدر عن الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية.
- من أهم مؤلفاته موسوعة تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر فى خمسة مجلدات وتاريخ العرب فى أمريكا والعلاقات العربية الأفريقية ودولة البوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا.
- حصل على جائزة الكويت للتقدم العلمى عن أفضل كتاب مؤلف عن الكويت وعلى جائزة جامعة عين شمس التقديرية فى العلوم الاجتماعية.

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حســـن كامـــــل





مع أن الجزيرة العربية شهدت العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين ، فإنهم لم يبلغوا ما بلغه " تشارلز دوتى " الذى اختلف عن أولئك الرحالة جميعهم، حيث عاش فى صحرائها قرابة عامين بين 1876 و 1878 متنقلاً بين مدائن صالح والعلا وتيماء وحائل وبريدة وعنيزة فى إقليم القصيم، ثم إلى خيبر والطائف وجدة . وقد أتاحت له الفترة التى قضاها فى صحراء الجزيرة العربية أن يأتى بمعلومات وفيرة ومتنوعة فى محتواها شملت آثارها ونقوشها وجيولوجيتها وحياة البادية فيها. وليس من شك فى أن المشاهدة وتنوع الخبرة جعلته يصبغ رحلاته بصبغة يسودها عمق التحليل إلى درجة أنه يخوض فى تفاصيل دقيقة ، بل كثيراً ما يقطع حديثه عن إحدى الظواهر الطبيعية أو الجيولوجية المهمة ويخرج للحديث عن جزئية صغيرة استرعت انتباهه ، كحيوان أو طائر أو حتى حشرة صغيرة ، ثم يعود بعدها لكى يستأنف الحديث عن موضوعه الرئيسى.

ومع أن رحلة " دوتى " سجلت الكثير من الظواهر العلمية والطبيعية فإنها تميزت ، بل غلب عليها طابع الوصف الدقيق للحياة البدوية . وقد تكون حقيقة أن كثيراً من الرحالة الأوربيين الذين سبقوا " تشارلز دوتى " أو جاءوا من بعده تحدثوا عن أعراب الصحراء وحياة البادية ، لكنهم لم يبلغوا ما بلغه فيما أتى به من تفصيلات حية ودقيقة عن كل ما يتعلق بحياة البدو ومعيشتهم ، وذلك من واقع معايشته لهم خلال رحلته.



الغلاف: محمود مراد